

دكتور أحمد فؤاد سيد

تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب

(٥٥٦٧-٥٦٤٨هـ)

زوال الخلافة الفاطمية والفكر الشيعي الإسماعيلي، وعودة سيادة الخلافة العباسية على مصر، والفكر السني إليها؛ وتوحيد الجبهة الإسلامية ضد الفرنج، لاسترداد بيت المقدس

هذه السلسلة تضم :

- ١- فتح العرب لمصر
- ٢- تاريخ مصر إلى الفتح العثماني
- ٣- الجيش المصري البرى والبحرى في عهد محمد على
- ٤- تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي
- ٥- تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل
- ٦- تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر
- ٧- ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا
- ٨- تاريخ مصر في عهد الخديوى إسماعيل باشا (مجلد أول)
- ٩- تاريخ مصر في عهد الخديوى إسماعيل باشا (مجلد ثانى)
- ١٠- فتوح مصر وأخبارها
- ١١- تاريخ مصر الحديث مع فزلكة فى تاريخ مصر القديم
- ١٢- قوانين الدواوين
- ١٣- تاريخ مصر من محمد على إلى العصر الحديث
- ١٤- الحكم المصرى فى الشام
- ١٥- تاريخ الخديوى محمد باشا توفيق
- ١٦- آثار الزعيم سعد زغلول
- ١٧- مذكراتى
- ١٨- الجيش المصرى فى الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم
- ١٩- وادى النطرون ورهبانته وأديرتيه ومختصر البطاركة
- ٢٠- الجمعية الأثرية المصرية فى صحراء العرب والأديرة الشرقية
- ٢١- الرحلة الأولى للبحث عن ينبوع البحر الأبيض (النيل الأبيض)
- ٢٢- السلطان قلاوون (تاريخه - أحوال مصر فى عهده - منشأته المعمارية)
- ٢٣- صفوة العصر
- ٢٤- المماليك فى مصر
- ٢٥- تاريخ دولة المماليك فى مصر
- ٢٦- سلاطين بنى عثمان
- ٢٧- محمود فهيمى النقراشى
- ٢٨- دور القصر فى الحياة السياسية
- ٢٩- مذكرات اللورد كيللرن
- ٣٠- عادات المصريين
- ٣١- خنقاوات الصوفية ج ١
- ٣٢- خنقاوات الصوفية ج ٢
- ٣٣- تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الملوك والسلاطين
- ٣٤- تاريخ عمرو بن العاص
- ٣٥- دور القبائل العربية فى صعيد مصر
- ٣٦- علاقات الفاطميين فى مصر بدول المغرب
- ٣٧- عبد الرحمن الجبرتي ٥ أجزاء
- ٣٨- مصر فى العصر العثمانى فى القرن ١٦
- ٣٩- خطط المقرئى ٣ أجزاء (محققة منقحة فى ٢٧٥٠ صفحة)
- ٤٠- صفحات من تاريخ مصر (صليب باشا سامى)
- ٤١- صفحات من تاريخ مصر (سيد مرعى)
- ٤٢- سلال الأمير التترى المسلم
- ٤٣- مالية مصر
- ٤٤- الموسيقى الشرقية
- ٤٥- الدليل فى موارد أعالي النيل
- ٤٦- الموسيقى الشرقى
- ٤٧- النخبة المصرية الحاكمة ١٩٥٢-٢٠٠٠
- ٤٨- الكافي فى تاريخ مصر - ٤ أجزاء
- ٤٩- الملحمة المصرية فى عهد المماليك الجراكسة ورد الاعتبار
- ٥٠- تاريخ مصر الإسلامية فى زمن سلاطين بنى أيوب
- ٥١- مشرفة بين الذرة والذرة
- ٥٢- قادة الشرطة فى السياسة المصرية دراسة تاريخية وموسوعة شخصيات

تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب (٥٦٧هـ - ٦٤٨هـ)

• زوال الخلافة الفاطمية والفكر الشيعي الإسماعيلي ، وعودة
سيادة الخلافة العباسية على مصر ، والفكر السنِّي إليها ؛
وتوحيد الجبهة الإسلامية ضد الفرنج ، لاسترداد بيت المقدس ،

مكتبة مديولى

العنوان: ٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة
تليفون: ٥٧٥٦٤٢١ - فاكس: ٥٧٥٢٨٥٤
الكتاب: تاريخ مصر الإسلامى زمن سلاطين بن أيوب
تأليف: د. أحمد فؤاد سيد
رقم الإيداع: ٢٠٠١ / ١٥١٧٨
الترقيم الدولى: 977 - 208 - 350 - 4
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الأولى: ٢٠٠٢

عربية للطباعة والنشر

العنوان: ٥٧ & ١٠ شارع السلام - أرض اللواء - المهندسين
تليفون: ٣٢٥٦٠٩٨ - ٣٢٥١٠٤٣ - فاكس: ٣٢٩١٤٩٧

صفحات من تاريخ مصر

٥٠

تاريخ مصر الإسلامية

زمن سلاطين بني أيوب

(٥٦٧هـ - ٦٤٨هـ)

« زوال الخلافة الفاطمية والفكر الشيوعي الإسماعيلي ، وعودة سيادة الخلافة العباسية على مصر ، والفكر السنّي إليها ؛ وتوحيد الجبهة الإسلامية ضد الفرنج ، لاسترداد بيت المقدس ،

تأليف

دكتور أحمد فؤاد سيد

جامعة عين شمس - كلية الآداب - قسم التاريخ

الناشر

مكتبة مطبولي

2002

الإهداء

إلى ابنتي ربحا ، حفقتي ، الله ورحمته ،

ووهبتني النجم والتوفيق .

والدك

أحمد فؤاد سيد

المحتويات

الصفحة	الموضوع
٩	□ المقدمة :
	□ الفصل الأول : توحيد الجبهة العربية الإسلامية ضد الفرنج ، لاسترداد القدس ، تحت لواء
٢١	دولة الخلافة العباسية ، بين نور الدين زنكى وصلاح الدين الأيوبي
٣٥	□ الفصل الثانى : القضاء على الخلافة الفاطمية
٣٧	- وزيران سنيان للفواطم وقيام السلطنة السنية بمصر
٥٣	- وسائل القضاء على المذهب والتراث الفاطمى بمصر واليمن
٦٩	- النسب الفاطمى وطعن الأيوبيين بمصر فيه
٧٣	- القضاء على فتن متشيعى المصريين المناصرين للدولة الفاطمية
٧٧	- محاولة القضاء على بقايا التشيع فى الشام واليمن
٨١	□ الفصل الثالث : إعادة الشعائر السنية إلى مصر ونشر الفكر الأشعرى بها
٨٤	- استحداث المدارس السنية بمصر
٨٧	- إنشاء دار الحديث
٨٩	- قصر القضاء على المذهب الشافعى وبسط إشرافه على المدارس
٩٣	- قطع الخطبة الجامعة من الجامع الأزهر وإبطال تدريس الفكر الفاطمى به
٩٨	- استخدام الحسبة لإعادة شعائر السنة
١٠٦	- تشجيع التصوف والفكر الصوفى
١٢٨	- رصد الأحباس والأوقاف للمنشآت الخيرية والتعليمية
١٣٦	- نشر العقيدة الأشعرية والفقهاء الشافعى بمصر
١٦٥	□ الفصل الرابع : الوضع السياسى والشعرى لمصر الأيوبية
١٦٧	- فقدان الخلافة لسلطتها الزمنية وظهور السلاطين
١٧٥	- مصر الأيوبية إمارة استيلاء ودار للسلطنة السنية

الصفحة	الموضوع
١٨٢	- إحياء الأيوبيين لدولة الخلافة العباسية
١٨٦	- نهوض الأيوبيين بفريضة الجهاد
١٩٠	- استجابة سلاطين بنى أيوب لدعوة الفتوة الناصرية الخليفية
	□ الفصل الخامس : حماية سلاطين بنى أيوب لطريق وفريضة الحج ، وللحرمين الشريفين ،
١٩٧	والقبليين
	□ الفصل السادس : تبعية سلاطين بنى أيوب ، لدولة الخلافة العباسية الشيعية ؛ ونهوضهم
٢٣٥	بفريضة الجهاد ، وتوحيدهم كلمة المسلمين ، ونشرهم لعلوم السنة
٢٣٧	- التقليد والتفويض الخلفي لسلاطين بنى أيوب
	- سلطنات إسلامية متعاصرة وأسباب تفرد السلطنة الأيوبية بالتفويض الخلفي
٢٥٧	في ديار الإسلام
٢٦٩	- الوضع الشرعى للسلطنة الأيوبية
	□ الفصل السابع : القدس : بين الفتح العمرى سنة ١٥هـ ، والفتح الصلاحيى سنة ٥٨٢هـ ،
٢٧٩	والفتح الناصرى الداوى سنة ٦٢٧هـ ، والفتح الصالحى النجمى سنة ٦٤٢هـ
٣٣٧	□ المصادر والمراجع :
٣٣٧	أولاً : المصادر العربية المخطوطة
٣٥٣	ثانياً : المصادر العربية المطبوعة
٣٦٩	ثالثاً : المراجع العربية الحديثة
٣٧٧	رابعاً : مقالات بالمجلات والدوريات العربية
٣٨٦	خامساً : أهم المراجع الأجنبية
٣٨٧	سادساً : أهم المقالات بالدوريات الأجنبية

المقدمة

لاتزال المكتبة العربية الحديثة تفتقر إلى كتاب شامل مفصل موثق عن عصر سلاطين بنى أيوب ؛ رغم أهمية هذا العصر بين عصور مصر الإسلامية ، وارتباطه بتأصيل تاريخ الصراع العربى الإسرائيلى ، وتاريخ فتوح الإسلام لمدينة القدس .

وأهم ما يميز عصر سلاطين بنى أيوب ، هو توحيد الجبهة العربية الإسلامية لاسترداد القدس من الفرنج ؛ وعودة سيادة الخلافة العباسية على مصر ، والفكر السننى إليها ؛ وإنزواء الفكر السياسى الإسماعيلى عنها .

وإذا كان تقى الدين المقرئى ، شيخ مؤرخى مصر الإسلامية المتأخرين ، قد حقق فى كتابيه : إتعاظ الحنفا فى أخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، والمواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، صحة نسب الخلفاء الفاطميين ؛ فلا ريب أن من مفاخر مصر وفضائلها ، أنها شهدت قيام دولة الخلافة الفاطمية على أرضها ؛ والواقع أن هذه الدولة العلوية المنسبه الشريفة ، تعدّ من أعظم دول الإسلام ، وفى عهدها ، تحولت مصر إلى حاضرة دولة الخلافة الإسلامية ، وأصبح الخلفاء الفاطميون بمصر ، يزاهون أبناء عمومتهم من خلفاء بنى العباس بالعراق ، زعامة العالم الإسلامى .

وهنا تجدر الإشارة ، إلى أن التشكيك والظن فى نسب الخلفاء الفاطميين ، إنما جاء أولاً من قبل دولة الخلافة العباسية المنافسة لها فى بلاد العراق ؛ ثم جاء ثانياً من قبل الدولة الأيوبية الموالية لدولة الخلافة العباسية ، التى استبطنت دولة الخلافة الفاطمية فى عصرها المتأخر ، وقامت على أنقاضها .

ولا يخفى أن حُبّ الشعب المصرى لآل البيت النبوى الشريف ، والعترة النبوية الشريفة ، قد استقوى بمصر واستمر إلى اليوم ، بسبب انحدار الخلفاء الفاطميين الذين اشتهروا بـ (المصرين) من النسل النبوى الشريف ؛ فضلاً أن مصر منذ العصر الأموى وطوال العصر العباسى ، قد عاش فيها بطون كثيرة من الأشراف والقُرشيين بصفة عامة ، ومن العلويين بصفة خاصة ، وخرج بها عدد كبير من الأئمة العلويين مطالبين بالخلافة ؛ على نحو ما تتبع ذلك المؤرخ أبو عمر الكندى فى كتابه ولاة مصر ، والمقرئى والقلقشندى فى كتبهم عن تاريخ القبائل العربية بمصر . بمعنى أن عددًا كبيراً من آل البيت النبوى الشريف ، قد أحبوا مصر ، وعاشوا بها ؛ وأحبهم أهل مصر ، وتعلقوا بهم ، وشادوا لهم الأضرحة والمزارات ، وتبركوا بها ، مثل مشاهد : السيدة نفيسة ، والإمام الحسين ، والإمام زين العابدين ، والإمام الحسن الأنور .

ولكن بضعف دولة الخلافة الفاطمية في عصرها المتأخر ، بسبب صغر سن الخلفاء ، واستبداد وزراء السيوف المَقوّضين ، والانقسامات السياسية والمذهبية التي أمت بالدعوة الإسماعيلية الفاطمية، ونجاح الفرنج في احتلال القدس وساحل الشام ، وعجز خلفاء الفاطميين الأواخر عن النهوض بفريضة الجهاد في وجه الروم والفرنج ، وتتابع الأزمات الاقتصادية على مصر ؛ فقدت الدولة الفاطمية مبرر بقاءها ووجودها ، وتعيّن أن تقوم على أنقاضها دولة فنية قوية ، تسعى لجمع شمل المسلمين وتوحيد كلمتهم ، لقتال الفرنج ، واسترداد القدس وساحل الشام .

ومما لا شك فيه ، أن انقسام العالم الإسلامي منذ القرن الرابع الهجري ، إلى خلافة عباسية سنية وخلافة فاطمية شيعية ؛ هو الذى أدّى إلى اختراق حركة الفرنج لبلاد الشام ، واستيلائهم على ساحله، واحتلالهم للقدس .

ولم يغب عن خلفاء وسلاطين الإسلام الذين عاصروا حركة الفرنج للاستيلاء على بيت المقدس وساحل الشام ، أن الخِطة المثلى ، والاستراتيجية العامة ، للتصدى لهذا الغزو ، واستئصال شأفته من بلاد الشام ، تركز على عدّة محاور :

أولاً : توحيد مصر والشام والعراق في قيادة مشتركة ، أو على الأقل في تعاون مشترك ، لحصار الفرنج وإماراتهم ببيت المقدس وساحل الشام بين شِقَى الرّحمى ؛ على نحو ماتّم - كما أفاد المقرئى فى كتابه اتعاظ الحنفا - بين السلطان نور الدين محمود زنكى - سلطان الشام والجزيرة الفراتية - ودولة الخلافة الفاطمية ، زمن وزارة الوزير الفاطمى العادل بن سلال ، ثم زمن وزارة الوزير الفاطمى الصالح طلائع بن رزيك ، ثم زمن وزارة الوزير الفاطمى أسد الدين شيركوه ؛ ثم زمن وزارة الوزير الفاطمى صلاح الدين الأيوبى ، ثم بعد إعلان صلاح الدين الأيوبى سقوط دولة الخلافة الفاطمية بمصر ، والدعوة بها للخليفة العباسى المستضىء بالله ، والسلطان نور الدين زنكى ولفسه بعدهما .

وقد رضى نور الدين زنكى ، رغم حماسه للمذهب السنّى ، أن يلبس خِلعّ خلفاء الفاطميين الشيعية ، لتفويضه للنهوض بفريضة الجهاد ؛ ورضى شيركوه وصلاح الدين هذا الأمر أيضاً ، لنفس الهدف السامى ؛ وقبّل الخليفة الفاطمى العاضد الإستنجد بنور الدين زنكى للحيلولة دون احتلال الفرنج لمصر ، ورحب بشيركوه وصلاح الدين ، وهما من قواد نور الدين ، لتمكنهما من ضبط

الدولة الفاطمية ؛ وصرّح الخليفة العاضد أنه مستعد للتضحية بملكه ودولة خلافته ، فى سبيل أن تظل مصر « إسلامية » ، ولا يحتلها الفرنج ؛ حكى ذلك كله المقرئزى فى كتابه اعاظ الحنفا .

ثانياً : العناىة بالأسطول المصرى بصفة خاصة ؛ الذى بقى طوال العصر الفاطمى ، وحتى بعد احتلال الفرنج لبيت المقدس وساحل الشام ، أقوى قوة بحرية إسلامية ضاربة ، تستطيع مواجهة أساطيل الفرنج والجمهوريات الإيطالية فى البحر المتوسط ، وتهديد إماراتهم فى ساحل الشام ، وعزلها عن إمداداتها القادمة عليها من وراء البحر من سواحل غرب أوروبا ، وجزر البحر المتوسط التى استولى عليها الفرنج ؛ وقد رصّد المؤرخون (سبط ابن الجوزى - المقرئزى) جهود الأسطول الفاطمى فى هذا المجال ، بعد احتلال الفرنج للقدس سنة ٤٩٢ هـ ، وتكوين إماراتهم فى أنطاكية والزها وطرابلس وعكا (٤٩٥ هـ - ٤٩٥ هـ) ؛ وذلك إبان تولى الأفضل بن بدر الجمالى ، ثم العادل سلاى ، ثم الصالح طلائع بن رزىك ، لوزارة التفويض والسيف لخلفاء الفاطميين الأواخر .

وفى ضوء هذا المحور الثانى ، ندرك الأهمية الكبرى لوصية شيركوه ، حين أحسّ بدنو أجله ، بضرورة العناىة بالأسطول المصرى ، كما حكى المقرئزى فى اعاظ الحنفا ، وهو الأمر الذى امتثله ابن أخيه صلاح الدين الأيوئى بعده ، فافرد ديواناً للأسطول ، وأوقف عليه أوقافاً وأحباساً ، وعهد بالإشراف عليه ، وبنىة ثغر الإسكندرية إلى أخيه الملك العادل أبى بكر بن أيوب ؛ وهو الأمر الذى تفهّمه بعد ذلك السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، حين بنى قلعة جزيرة الروضة فى بحر النيل ، لتكون قلعة وحصناً له وجليشه ، فى حالة تفكير الفرنج فى غزو مصر ، وفى نفس الوقت لتكون دار صناعة وقاعدة بحرية بحرية للأسطول المصرى فى بحر النيل ، للدفاع عن مصر ، إذا ما حاول الفرنج غزوها براً وبحراً .

وقد تجلّى بعد نظر السلطان الصالح نجم الدين أيوب - الذى عدّه أبو المحاسن بن تغرى بردى أعظم سلاطين بنى أيوب بعد السلطان صلاح الدين - وحسن تدبيره ، فى الانتصارات الحاسمة العظيمة ، التى حققها الأسطول المصرى على أساطيل الفرنج عند احتلالهم لدمياط سنة ٦٤٨ هـ فى معارك : المنصورة ، وفراسكور ، ودمياط ؛ إذ تمكن الأسطول المصرى بقيادة أمراء الممالىك الصالحية البحرية ، من تحطيم أغلب أساطيل الفرنج التى حاولت تأمين احتلالهم لدمياط ، وأسر أغلب سفنها وأغلب مقاتليها وبخارتها ؛ مما يشير إلى أن سبب تسمية الممالىك الصالحية البحرية باسم «البحرية» :

وصيرورة هذا الاسم علمًا على دولتهم المماليكية الأولى بمصر ، هو تدريبهم على القتال البحري وقيادة الأساطيل البحرية ؛ وهو أمر تتوفر له قرائن كثيرة ، وسوف نورد له بحثًا إن شاء الله .

وقد أفصح القاضى بهاء الدين ابن شداد فى سيرته للسلطان صلاح الدين الأيوبى المسماه النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، إن الحطة العامة لصلاح الدين فى قتال الفرنج واستئصالهم من ساحل الشام ، كانت فى استخدام الأسطول فى قطع وصول الإمدادات إليهم من غرب أوروبا ، ثم استئصال شأفتهم من بلاد الشام ، ثم تبعهم فى سواحل بلادهم وجزرهم فى قارة أوروبا وجزر البحر المتوسط ؛ ذكر ذلك ابن شداد ، فى الفصل الذى أفرده لذكر حب السلطان صلاح الدين للجهاد .

هذا وقد أوضح أبو شامة فى كتابه الروضتين فى ذكر أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، إن الحطة العامة لنور الدين وصلاح الدين للتعاون فى قتال الفرنج بالشام ؛ كانت تقضى بأن يقصدهم نور الدين من بلاد الشام من السهل والجبل ، ويقصدهم صلاح الدين من مصر ، من البر والبحر .

ويستخلص من أحداث العصر الأيوبى ، أن ثغر الإسكندرية ودار صناعته ، كانت قاعدة بحرية للأسطول المصرى المهاجم لإمارات الفرنج بساحل الشام ، ثم مهاجمة الجزر التابعة للفرنج فى البحر المتوسط وبحر إيجه (قبرص - أرود - رودس - صقلية) ؛ وأن قلعة جزيرة الروضة ودار صناعتها ، كانت قاعدة بحرية للأسطول المصرى المدافع عن مصر أمام حملات الفرنج الهادفة إلى غزو مصر ؛ والجدير بالذكر أن الهروى السائح فى كتابه الإشارات إلى معرفة الزيارات ، ذكر أنه زار جزيرة صقلية ، بعد استرداد السلطان صلاح الدين الأيوبى للقدس سنة ٥٨٤هـ ، فناشده أهل صقلية المسلمون ، أن يجبر السلطان صلاح الدين برغبتهم أن يقوم بفتح صقلية ، واستردادها من الفرنج . وقد حاول سلاطين المماليك - تلامذة سلاطين بنى أيوب - إكمال وتنفيذ استراتيجيتهم الحربية البحرية ، فقاموا باستئصال الفرنج من ساحل الشام ، بإسقاط إمارة عكا ؛ كما قاموا أيضًا بفتح جزيرتى قبرص ورودس .

ثالثًا : جعل البحر الأحمر والقرن الأفريقى والخليج العربى والمحيط الهندى ، بحيرة إسلامية ؛ وذلك بهدف حماية بلاد الحجاز والحرمين الشريفين وجزيرة العرب ، من محاولات الفرنج تهديد قبر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ؛ وذلك عن طريق قيام جبهة إسلامية موحدة ، ودولة خلافة إسلامية كبرى ، تضم بلاد العراق والشام والجزيرة الفراتية ومصر واليمن ؛ وعن طريق

القضاء على ممالك البجة والنوبة والحبشة المتعاونة مع الفرنج ، وإدخالها فى الإسلام ؛ وهو ما تم فى العصر المماليكى ، فى عهود سلطنات بيبرس وقلارون وأولاده .

ولم يأت تكوين الجبهة الإسلامية الموحدة ، إلا بعد القضاء على الكيانات السياسية الشيعية الإسماعيلية فى بلاد الشام واليمن ، التى ألم بها الضعف والتفكك فى نهاية العصر الفاطمى ؛ بعد انقسام الدعوة الفاطمية بمصر ، إثر وفاة الخليفة الفاطمى المستعلى ، إلى مستعالية ونزارية ؛ وبعد تغلب وزراء السيوف المفوضين على خلفاء الفاطميين الأواخر ، والاستبداد بالسلطة دونهم .

وفى هذا ما يفسر الفتح الأيوبى الأول لليمن زمن صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٦٩هـ ، وإدخال بنى أيوب لكتب الفكر الأشعرى السنى إلى اليمن ، كما أفاد المؤرخ اليمنى يحيى بن الحسين فى كتابه أنباء الزمن فى تاريخ اليمن ؛ وما يفسر فتح السلطان الصالح نجم الدين أيوب لليمن فى عهد سلطنته ، وتلقبه بـ (ملك السند والهند واليمن) ، ونقشه هذه الألقاب على نقوشه الرسمية فى قبته ومدرسته الصالحة بمصر ، وغيرها .

لقد تحولت مصر ، منذ قيام الدولة الأيوبية بها (٥٦٧هـ) ، من دار خلافة ، إلى ولاية استيلاء تابعة للخلافة العباسية ؛ ولكنها سرعان ما تبوأ فى ظل سلاطين بنى أيوب ، مكانة لا تقل أهمية عما كانت عليه فى ظل الخلافة الفاطمية ؛ وذلك لميراثها للخلافة الفاطمية بمصر (٥٦٧هـ) ، واليمن (٥٦٩هـ) ، والحجاز (٥٦٩هـ) ؛ وللسلطنة الزنكية بالشام (٥٦٩هـ - ٥٧١هـ) ، والجزيرة الفراتية (٥٧٧هـ) ؛ ولنجاحها فى ضم القيروان ، من ممتلكات الخلافة الموحدية بالمغرب (٥٦٨هـ - ٥٨٣هـ) ؛ وضم إقليم أرمينية الإسلامية ، وهى بلاد خلاط وميفارقين ونواحيهما (٥٧١هـ - ٥٨١هـ) ، وهو إقليم لم يخضع من قبل للخلافة الفاطمية ، وتم ضمه إلى مصر ، لأول مرة فى تاريخها الإسلامى ، على يد الأيوبيين .

وعلى يد الأيوبيين أيضًا ، تمت موجة جديدة من الفتوحات الإسلامية ؛ فغزا الأيوبيين مملكة النوبة المسيحية (٥٦٨هـ) ، ومملكة أرمينية المسيحية (٥٧١هـ) ؛ وحققوا أعظم انتصاراتهم الحربية بتصديهم لجهاد الفرنج بالشام ، واسترداد بيت المقدس من أيديهم (٥٨٣هـ) ؛ وقد كَلَّل الأيوبيون جهودهم فى إعلاء شأن مصر ، بأن عقدوا حلفًا مع الإمبراطورية البيزنطية (٥٨٥هـ) ، يقضى بعزلها عن تأييد الحركة الصليبية ، وإعلان الخطبة بالمسجد الجامع بمدينة القسطنطينية عاصمة البيزنطيين ، للخليفة العباسى ، وسلطان مصر (٥٨٦هـ) ؛ كما وقع سلاطين بنى أيوب (صلاح

الدين - العادل الأول - الكامل - الصالح نجم الدين أيوب) معاهدات مشروطة مع الجمهوريات الإيطالية التجارية (بيزا - البندقية - جنوه) ، قضت بعزل هذه الجمهوريات عن الحركة الصليبية ، وبيعها السلاح والعبيد المسيحي والمواد اللازمة لصناعة السفن لسلطين بنى أيوب والمسلمين ، دون الفرنج ، وهو ما يمثل خيانة صريحة من هذه الجمهوريات للحركة الصليبية وللبابوية الكاثوليكية .

والواقع ، أن دولة الخلافة الفاطمية ، كانت أعظم دول الإسلام التي حكمت مصر ؛ وناهيك دليل على ذلك كتاب إتعاظ الخنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا للمقريزى شيخ وكبير مؤرخى مصر الإسلامية ، والدلالة الواضحة لعنوان كتابه فى هذا الصدد ؛ والمجلد الضخم والأجزاء المطولة التى أفردها وخصصها المقريزى للحديث عن تاريخ الخلفاء الفاطميين بمصر ونظمهم ورسوم دولتهم والاحتفالات والأعياد والمواسم الدينية والقومية والوطنية التى ازدهرت بمصر فى عصرهم ، فى كتابه الخطط ، نقلاً عن مؤرخى العصر الفاطمى نفسه مثل ابن زولاى والقضاعى والمسيحى وابن المأمون وابن الطوير وغيرهم ؛ لنقف على مدى الإزدهار السياسى والثقافى والحضارى والاقتصادى والاجتماعى ، الذى شهدته مصر وشهده شعب مصر ، فى ظل هذه الدولة الإسلامية العظمية ، دولة الخلافة الفاطمية ؛ وهذا الاهتمام بتاريخ الدولة الفاطمية ، فى مؤلفات المقريزى ، لم تحظ به أى دولة إسلامية أخرى حكمت مصر ؛ وهذا ما نلمسه أيضاً فى موسوعة صبح الأعشى للقلقشندى ، عند حديثه عن رسوم المكاتب الفاطمية .

والمعروف ، أن أجمل رسوم وعادات وتقاليد الاحتفالات والأعياد والمواسم الدينية الباقية بمصر إلى الآن ؛ سواء فى الأعياد الدينية (عيد الأضحى - عيد الفطر - رمضان) ؛ أو الأعياد القومية (وفاء النيل - شم النسيم) ، وما يصاحبها من مأكولات جميلة شهية ، يرجع أغلبه إلى عصر الخلافة الفاطمية ؛ بدليل أننا لا نجد هذه الاحتفالات والعادات والتقاليد ، فى البلاد العربية والإسلامية التى لم يمتد إليها النفوذ السياسى لدولة الخلافة الفاطمية .

وليس أدلّ على حُبّ الشعب المصرى لدولة الخلافة الفاطمية ، واعتزازه بها ، لأنها قامت على يد آل البيت النبوى من العترة النبوية المطهرة ، من ترؤد صلاح الدين الأيوبي فى إعلان سقوطها ، وإسقاط اسم الخليفة الفاطمى العاضد آخر خلفاء الفاطميين بمصر من الخطبة الجامعة على المنابر ؛ رغم الإلحاح المتكرر لنور الدين زنكى بسرعة إنجاز هذا الأمر ، والخطبة للخليفة العباسى على منابر

مصر ؛ حتى أن صلاح الدين الأيوبي لم يجرؤ على إتمام هذه الخطوة الأخيرة في إعلان سقوط الخلافة الفاطمية بمصر ، إلا بعد إرسال نور الدين زنكى له أباه نجم الدين أيوب ، ليتولى بنفسه إعلان هذا الأمر الجلل ، وليجد فيه صلاح الدين المشجع والسند والمشير والمؤجّه ؛ وعَلَّل صلاح الدين لنور الدين إجماعه وتردده في إعلان زوال الخلافة الفاطمية بمصر ، بخوفه من انتفاضة المصريين وثورتهم عليه .

وأفصحت الثورات ومحاولات الانقلاب المتكررة على صلاح الدين الأيوبي ، أول استقلاله بالحكم بمصر ، على مدى حُبّ المصريين للدولة الفاطمية ، وولانهم لها ، وتعلقهم بها ؛ والذكريات الجميلة التي حملوها واحتفظوا بها لهذه الدولة ، حين كانت في أوج مجدها وقيّمة ازدهارها ، ومنتهى نفوذها وسطوتها وقوتها ؛ وهى ثورات وانقلابات عديدة ، لم تقتصر على مدينة القاهرة ، بل تعدتها إلى مدينة الإسكندرية ، ومدن صعيد مصر .

وَوَشَّتْ تصرفات سلاطين بنى أيوب أنفسهم عن اقتناعهم الشخصى الداخلى بصحة نسب الخلفاء الفاطميين ، وآل البيت الفاطمى ؛ فوجد أن صلاح الدين الأيوبي ، وخلفاءه من سلاطين بنى أيوب ، كانوا يتورعون عن قتل آل البيت الفاطمى ، ويكتفون بسجنهم أو نفيهم بعيداً عن مصر ، حتى لو اتضح أنهم حاولوا بالفعل قلب نظام الحكم الأيوبي ، وإعادة الخلافة الفاطمية .

وإذا كان بعض كبار مؤرخى العصر المماليكى مثل أبى العباس القلقشندى فى كتابه مورد اللطافة ، قد ألمح إلى ترجيحه صحة نسب الفاطميين ؛ فإن الحافظ المؤرخ شمس الدين السخاوى قد تجاهر فى كتابه استجلاب ارتقاء العُرف بحبّ أقرباء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وذوى الشرف ، بحبه لمن عاش بمصر من العترة النبوية ، وأشاد بكثرة أسانيد آل البيت بمصر التى وصلت إليه ، واحتفظت بها مصر فى العصر الفاطمى ؛ وفى نفس الوقت ، راح حفاظ ومؤرخو مصر فى العصر المماليكى ، يستعيضون عن عدم إظهار مودتهم لدول الخلافة الفاطمية ، - مجاملة لسلاطين بنى أيوب وتلامذتهم سلاطين المماليك - بالتأليف بكثرة تمثّل ظاهرة ثقافية ، عن فضائل ومناقب آل البيت النبوى والعترة النبوية الشريفة .

ولكن رغم الحب الدفين الذى أخفاه مؤرخو العصر الأيوبي والمماليكى للخلفاء الفاطميين ، لكونهم من نسل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ؛ فقد أجمعوا على أن الله سبحانه وتعالى ، قد أعان السلطان صلاح الدين الأيوبي وأيده ، فى القضاء على دولة الخلافة الفاطمية ، بعد أن ألم بها

الضعف نتيجة لسلبيات الفكر السياسى الشيعى الإسماعيلى ، وأصبحت غير قادرة على توحيد العالم الإسلامى ، والنهوض بفريضة الجهاد ؛ بل أصبحت حتى غير قادرة على حماية الديار المصرية ذاتها من أخطار غزو الفرنج لها فى عُقر دارها .

* * *

وقد حقق تقى الدين المقرزى ، وهو شريف حسينى ، يشارك الفاطميين فى الانتساب إلى العترة النبوية الشريفة ، فضلاً عن إعجابه الشديد بتاريخ الدولة الفاطمية - ؛ حقق المقرزى ، أن جميع النظريات السياسية الفاطمية الإسماعيلية ، التى عُلّت فى ذات الخليفة الفاطمى والأئمة الفاطميين ، غريبة عن الإسلام ؛ وأن أصلها يرجع إلى آراء الفرقة السبأية من غلاة الشيعة ، الذين نسبوا إلى عبد الله بن سبأ ، وهو أحد مسألة اليهود ، ممن أبطنوا اليهودية وتظاهروا بالإسلام ، وأدّعى ألوهية الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فأعلن الإمام على تبرؤه منهم ، وتكفيره لهم ؛ كما حقق المقرزى أيضاً أن جانباً آخر من النظريات السياسية الفاطمية ، يرجع إلى مذاهب الشعوبية من مسألة الفرس ، الذين أبطنوا المجوسية .

وقد قصد دُعاة الفاطميين ، من وراء هذه النظريات السياسية ، تقوية مبدأ « الولاية » أى الطاعة لأئمة الفاطميين ، وإعلاء شأن خلفاء الفاطميين على خلفاء بنى العباس المنافسين لهم فى الخلافة والسيادة على العالم الإسلامى ؛ وهذا ما حققه محمد كامل حسين فى كتابه : « الأدب المصرى فى العصر الفاطمى » و « دراسات فى الشعر الأيوبى » ، وقَسَّر به نظريات وعقائد الشيعة الإسماعيلية فى القول بعصمة الأئمة ، وميراثهم للعلم اللدنى ، والقول باستتار الأئمة ورجعتهم ، وكون الإمام الفاطمى ، هو المجتهد المطلق فى الشريعة الإسلامية .

ولم يستطع الفاطميون بعد قيام خلافتهم فى إفريقية التونسية وبلاد المغرب ، ثم انتقالها إلى مصر واستقرارها بها ؛ أن يتراجعوا عن هذه النظريات السياسية الغريبة عن الإسلام ، بعد أن استقرت فى نفوس وأذهان وقلوب العوام من أنصار وأتباع دولتهم ، وأصبحت من محاور الدعاية الفاطمية ، لإعلاء شأن الخلفاء الفاطميين على شأن أبناء عموماتهم من خلفاء بنى العباس بالعراق .

* * *

والجدير بالإلتفات والتأمل والتدبر ، أن علوم الحديث والسنة ، ظلت مزدهرة وفي غناء وتطور ونسوج دائم في العصر الفاطمي ؛ رغم تشدد الفكر السياسي الإسماعيلي الفاطمي في عدم قبول الأحاديث والأخبار عن غير أئمة الشيعة ومن غير آل البيت النبوي ؛ ونقده وتجرّحه لغير أئمة الشيعة وغير آل البيت من حفظة ورواة الحديث .

وقد ترجم لوفيات النقلة من نقلة العلوم الدينية النقلية السمعية الشرعية ، وحفاظ الحديث ورواته ، الذين عاشوا بمصر في عصر الخلافة الفاطمية ، عالمان من علماء الجرح والتعديل المصريين من أهل السنة ، وهما : ابن الحبال ، وابن الطحان ، ولكل منهما كتاب في الجرح والتعديل ونقد رجال الحديث وصل إلينا مطبوعاً .

أما من أدرك من حفاظ ومحدثي مصر العصر الأيوبي ، وعاصر الدولتين الفاطمية والأيوبية ، فقد ترجم لهم الحافظ ابن نقطة في كتابه وفيات النقلة ، والحافظ المنذرى في كتابه التكملة لوفيات النقلة .

ولم يُجبر الخلفاء الفاطميون المصريين من العامة أو العلماء والخاصة ، على الالتزام بالفكر السياسي والكلامى الإسماعيلي الفاطمي ؛ وظل تدريس كتب الدعوة الفاطمية الإسماعيلية مقتصرًا على دار الحكمة وعلى الجامع الأزهرى ؛ أما بقية جوامع ومساجد مصر ، فلم يُلزم خلفاء الفاطميين أنمتها وخطبائها وعلمائها بتدريس الفكر الفاطمي وكتب الدعوة الإسماعيلية ، وتركوا لهم حرية الفكر والتدريس .

ولم يمانع الخلفاء الفاطميون في إسناد منصب قاضى القضاة لبعض العلماء السنّين الشافعية ، مثل القاضى مجلى ؛ على نحو ما أفاد السيوطى في كتابه حُسن المحاضرة عند ذكره لقضاة مصر ، وعلى نحو ما أسهب السبكي في كتابه طبقات الشافعية عند ترجمته للقاضى مجلى ، من التنويه برحابة صدر الخلفاء الفاطميين وتقديرهم الكبير لفقهاء أهل السنة بمصر في عهد خلافتهم .

ولقد حافظ الجامع الأزهر - بعد تحوله في العصرين الأيوبي والماليكى إلى جامعة إسلامية سنّية ؛ نتيجة لهجرة علماء الفسطاط السنة إلى القاهرة بعد سقوط الخلافة الفاطمية بمصر سنة ٥٦٧ هـ ، ومجاورتهم بالجامع الأزهر ، وتوليهم التدريس به - ؛ على اتصال سند الرواية فى العلوم الدينية الشرعية النقلية ، رواية ودراية ، بين أهل مصر بصفة خاصة وأمة الإسلام بصفة عام ، وبين رسول الله

(صلى الله عليه وسلم) ، عن طريق من شهد فتح مصر ونزلها واستطونها من صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وروى عنه وتفقه به أهل مصر .

ولقد شهد العصران الأيوبي والمماليكي بمصر والشام ، نهضة كبرى فى علوم الحديث ، كان من أعلامها أئمة وحفاظ من أعلام الإسلام ، تركوا مصنفات كثيرة ضخمة فى علوم السنة النبوية المشرفة ، والفقه الإسلامى ، لا تزال إلى اليوم تعدّ من عيون التراث الإسلامى ، وأمّهات المصنفات الإسلامىة ، ومن هؤلاء الأئمة الأعلام : محى الدين النووى ، وابن الصلاح الكردي ، وتقى الدين المنذرى ، وابن حجر العسقلانى ، وشمس الدين الذهبى ، وابن كثير ، وشمس الدين السخاوى ، وجلال الدين السيوطى ، وبدر الدين العينى ، والقطب القسطلانى ، والزين العراقى ، وأبو زكريا الأنصارى ، وابن دقيق العيد ، والعز بن عبد السلام ، وابن تيمية ، وابن القيم الجوزية .

* * *

وما أحرانا اليوم ، ونحن نستقرىء عِبْرَ التاريخ ، أن نُشيد بأهمية الجهود الصادقة المؤثرة الفعالة ، التى بذلها علماء الإسلام المحدثون من علماء الشيعة وعلماء السنة على حدّ سواء ، لتبنى فكرة التقريب بين المذاهب الإسلامىة ؛ وهى دعوة لها تاريخها الراسخ بين مصر وإيران ، منذ الثلاثينيات من القرن العشرين ؛ بذل خلالها علماء الأزهر جهودًا فقهية عظيمة ، حمل لواءها أعلام من شيوخ الأزهر ؛ كان فى مقدمتهم الشيخ محمود شلتوت (شيخ الجامع الأزهر آنذاك) ، والشيخ عبد المجيد سليم ، والشيخ عبد العزيز عيسى ، وغيرهم من مصر ؛ ومن أئمة الشيعة فى إيران ، آية الله القمى ، وآية الله البروجردى .

وقد أفتى الشيخ محمود شلتوت بجواز التعبد بالمذاهب الإسلامىة المختلفة ، وكانت له علاقات علمية ومراسلات مع آية الله البروجردى وسائر علماء الشيعة .

وكانت مصر هى المهد الذى ولدت فيه فكرة التقريب بين المذاهب الإسلامىة ، لنبذ الخلافات وتوحيد كلمة المسلمين وتأليف قلوبهم ؛ وكانت مصر أيضًا هى التى احتضنت الفكرة ورعاها أزهرها وعلماءها ؛ ومن ثمّ ظهرت هيئات ، وصدرت مجلات ، وانعقدت مؤتمرات ، حققت للأمة الإسلامىة أجلّ الخدمات والفوائد ، وقلّصت خلافاتها ؛ وكرّست هذه الهيئات والمجلات والمؤتمرات جهودها ، فى مساحة الاتفاق بين المذاهب الإسلامىة ، وهى مساحة واسعة تبلغ ٩٥ ٪ تقريبًا ؛ ونأت

عن النباش في المسائل الخلافية ، التي تمثل الـ ٥٪ الباقية ؛ تاركة ذلك لمزيد من الاجتهاد ، وإيراد الأدلة التي تُطمئن كل طرف على صواب ما يعتقد .

وإذا كانت فكرة التقريب تلك ، قد نشأت للمرة الأولى ، إثر انتهاء الحرب العالمية الثانية في الأربعينيات من القرن العشرين ، وكانت بمثابة ردّ فعل لها ، وحاجة المسلمين الماسة آنذاك إلى نبذ خلافاتهم والدخول كقوة بارزة إلى عالم ما بعد الحرب ؛ فإن فكرة التقريب بين المذاهب الإسلامية اليوم ، تأتي في وقت تشد فيه الحاجة إلى تآلف المسلمين وتقاربهم ، ووحدة صفوفهم ؛ وهي الوحدة التي تحاربها قوى الغرب ، وتبذل كل جهودها للحيلولة دونها .

والجامع الأزهر الشريف ، هو المؤسسة الوحيدة في العالم الإسلامي ، القادرة على جمع كلمة المسلمين ؛ وقد حقق الجامع الأزهر التقارب بين المذاهب الإسلامية ؛ عندما أجاز تدريس جميع المذاهب الفقهية ، ضمن البرامج التعليمية في المعاهد الأزهرية وجامعة الأزهر ، وتقديمها في حيدة تامة ، وموضوعية كاملة .

وحين تمّ تأسيس جماعة التقريب سنة ١٣٦٨هـ - ١٩٤٧م ، وافتتحوا دار التقريب بالقاهرة وطهران ، انعقد عزم الجماعة على إصدار مجلة : (رسالة الإسلام) ؛ وصدّروها بالبيانات التي تُشير في مجملها إلى ضرورة التقريب بين المذاهب الإسلامية ، إنطلاقاً منها إلى الوحدة الإسلامية .

وكانت مجلة (رسالة الإسلام) ، تنشر الفكر التقريبي بين المسلمين ؛ وتجمع العلماء على صعيد الحوار العلمي في مختلف المجالات . كتب فيها كبار علماء الشيعة ، من أمثال : الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء ، والشيخ محمد رضا الشيباني ، والسيد صدر الدين شرف الدين ؛ والسيد هبة الله الشهرستاني ، والشيخ محمد تقى القمّي ، ومحمد صادق الصدر ، وغيرهم . وكبار علماء السنّة ، من أمثال الشيخ عبد المجيد سليم ، والشيخ محمود شلتوت « وكلاهما من أئمة الأزهر وشيوخه » ؛ والشيخ محمد محمد المدني « رئيس تحرير المجلة » ؛ والشيخ محمد أبو زهرة ، والدكتور محمد البهي ، والأستاذ محمود فياض ، والشيخ محمد على علوية باشا ، والشيخ محمد عبد الله دراز ، والشيخ عبد المتعال الصعيدي ، والأستاذ محمد فريد وجدي ، والأستاذ أحمد أمين ، والأستاذ علي عبد الواحد وافي ، والأستاذ عباس محمود العقاد ، وغيرهم كثير .

ولقد صدر العدد الأول من مجلة رسالة الإسلام ، في ربيع الأول سنة ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م ؛ وتواصلت تصدر كل ثلاثة أشهر ، وتعرّث في الصدور بعض الأعوام ، وصدر عددها الستون

والأخير في رمضان ١٣٩٢ هـ أكتوبر ١٩٧٢ م ؛ ومجموعة ما تضمنته من مقالات ودراسات وأخبار ، يشكل سفرًا مهمًا من أدبيات التقريب في عالمنا المعاصر ؛ إذ أن المجلة انفتحت على كتاب أهل السنة والشيعة ، وانعكست فيها مسيرة دار التقريب ، ومسيرة التقريب في العالم الإسلامي ؛ ومن هنا فإنها تشكل رصيْدًا مهمًا للتقريب ، ومعلمًا لمسيرته .

ولا يغيب عن بالنا ، ونحن بصدد بيان أهمية دعوة التقريب بين المذاهب الإسلامية ، في توحيد أمة الإسلام ؛ إن أساس الخلاف بين الشيعة وأهل السنة ، كان بسبب قصر الشيعة أحقية الخلافة على الإمام على وذريته ؛ وهو خلاف سياسى محض ، لا داعى له ، ولا وجة له اليوم ، بعد نجاح الدول الأوروبية في إسقاط دولة الخلافة الإسلامية في مطلع القرن العشرين ؛ وقد أفاد الدكتور محمد كامل حسين ، أنه قرأ كتاب دعائم الإسلام للقاضى النعمان بن حيون داعى دعاة الفاطميين ، وهو كتاب فى فروع الفقه ، فوجده يتطابق مع الفقه المالكي .

وبعد ، فإن دراستنا هذه عن جهود سلاطين بنى أيوب فى توحيد الجبهة العربية الإسلامية لاسترداد القدس من الفرنج ، وإعادة الفكر السنى والشعائر السنية إلى مصر ؛ تمثل الجزء الأول من سلسلة دراسات عن عصر سلاطين بنى أيوب ، تتناول هذا العصر الحيوى الهام من شتى جوانبه ، مع التركيز على تاريخه السياسى ، والسياسة الخارجية والداخلية لسلاطين بنى أيوب ، ونظم الحكم والإدارة فى دولتهم ، والحياة الثقافية والاجتماعية فى عصرهم ؛ وأدعو الله أن يمتعنا بالصحة والعافية ، ويوفر لنا الأسباب ، لإصدار هذه الدراسات ، التى من شأنها إجلاء حقائق تاريخية هامة عن عصر سلاطين بنى أيوب بصفة خاصة ، وعن تاريخ مصر الإسلامية بصفة عامة .

والله ولى التوفيق ، وهو الهادى إلى سواء السبيل .

دكتور / أحمد فوزى سبر

الفصل الأول

توحيد الجبهة العربية الإسلامية ضد الفرنج ، لاسترداد القدس ، تحت لواء دولة الخلافة العباسية ، بين نور الدين زنكى وصلاح الدين الأيوبي

لم يشهد التاريخ الإسلامى ، وضعًا سياسيًا شرعيًا ، بلغ أوج التداخل والتشابك بل والتاقص ، مثلما كانت عليه حال مصر الإسلامية ، غداة ارتقاء صلاح الدين لوزارة التفويض الفاطمية ، خلقًا لعمة الراحل شيركوه . إذ أضحى صلاح الدين وزيرًا سنيًا للخليفة الفاطمى الشيعى ، يتلمس الأسباب للإطاحة بخليفته ، والقضاء على دعوته واجتثاث جذور التشيع من مصر ؛ وفى نفس الوقت ، آل إليه ملكًا وراثيًا طابعه الاستبداد ، عن عمه شيركوه ، يسانده فيه ولاء الجنود الشوام النورية له لكونه قائدهم ، وتعصب القوات الكرديه فى الجيش الشامى له لكونه من أرومتهم ؛ وفوق هذا وذاك كان صلاح الدين نائبًا فى ولاية مصر ، عن أقوى السلاطين السنيين بالشرق الإسلامى آنذاك ، نور الدين زنكى ، الذى ورث عن السلاجقة مهمة الانتصار للمذهب السنى ، وإعلان الدعوة لبني العباس على منابر ديار الإسلام ، التابعة للخلافة الفاطمية الشيعية .

فبعد تولى صلاح الدين لوزارة العاضد « رسخ ملكه ، وأخطبه مع ذلك على المنابر بالديار المصرية للخليفة العاضد ، وبعده للملك العادل نور الدين » فالملك فى الظاهر له ولا يتصرف صلاح الدين إلا عن أمره»^(١) ، فكان « نائبًا عن الملك العادل نور الدين ، وأخطبه لنور الدين فى البلاد كلها»^(٢) ، وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالأمير الإسفهلار ، ويكتب علامته فى الكتب تعظيمًا ، أن يكتب اسمه ، ولا يفرده فى كتاب بل يكتب : الأمير الإسفهلار صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا^(٣) .

(١) ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ١٧٣ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٠٨ .

(٣) ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ١٧٣ ، أبو شامة الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٠٨ ، وأسفهلار كلمة مكونة من لفظين ، أحدهما فارسى ، وهو « اسفه » ، ومعناه المقدم ، والثانى تركى وهو « سار » ومعناه العسكر ، فكان معناهما : « مقدم العسكر » ، أنظر القلقشندى : صبح ، ج ٣ ، ص ٤٨٣ ، وج ٦ ، ص ٧ ، ص ٨ .

ونحن لا نميل إلى الآراء التي ردها عز الدين بن الأثير - مؤرخ البيت الأتابكي - في كتابه الكامل في التاريخ ، والباهر في تاريخ الدولة الأتابكية ، ونقلها عنه عدد من المؤرخين ؛ وفحواها أن صلاح الدين لم يكن وقيًا لأستاذه نور الدين ، بل كان يجتهد منذ استقرار نفوذه في مصر ، إلا الاستقلال عنه ، ومزاحمته السيادة السياسية ببلاد الشام ، فكل هذه الآراء^(١) ، كتبها ابن الأثير بعد وفاة صلاح الدين ، واضطرار صلاح الدين إلى الخروج على رأس عساكره إلى بلاد الشام ، وضم ممتلكات أستاذه نور الدين بها إلى ممتلكاته بمصر ؛ إذ أن خروج صلاح الدين إلى الشام كان من أجل إعادة الجبهة العربية الموحدة ، التي كان عماد الدين زنكي ثم ابنه نور الدين قد أجهدا نفسيهما طويلاً في تكوينها ؛ وكانت بعد وفاة نور الدين على وشك أن تنقسم ، بعد انقسام البيت الزنكي ، حزب في دمشق ، وحزب في حلب ، ولم يتسطع ابنه الطفل الصالح إسماعيل إعاد توحيد مملكة والده^(٢) ؛ ولقد كتب صلاح الدين إلى الخليفة العباسي^(٣) ، وإلى ابن نور الدين ، يخبره أن خروجه للشام ؛ هو لتوحيد كلمة المسلمين ضد الفرنج^(٤) .

وأغلب الظن أن هذه الأقوال التي ردها ابن الأثير ، ونقلها عنه بعض المؤرخين بخصوص عدم ولاء صلاح الدين للبيت الزنكي ، والروايات التي قيلت حول هذا الموضوع ، قد صاغها المؤرخون

(١) مال إلى ترجيح هذه الآراء ، والأخذ بها الأستاذ على بيومي ، على أساس أنها تؤيد رأيه بخصوص طموح الأسرة الأيوبية في تكوين ملك وراثي لها منذ أن كانت في قلعة تكريت ، ثم في خدمة الدولتين البورية والزنكية ، أنظر على بيومي : قيام الدولة الأيوبية ، ص ١٤٧ - ١٩٨ . ولكن يجب ألا يفوتنا أن نور الدين نفسه ، قد أعد صلاح الدين وعائلته ليكونوا نوابه في مصر ، وباقي ما يفتح من ممتلكات الخلافة الفاطمية الشيعية البائدة سواء في اليمن أو المغرب . وإن تدخل نور الدين في مصر إبان نيابة صلاح الدين عنه في حكمها ، مثل إرساله وزيره ابن القيسراني ، لكشفها ومراجعة حساباتها ، كان نوع من الإشراف الإداري ، الذي مارسه نور الدين على نائبه بمصر . أنظر خبر كشف ابن القيسراني للديار المصرية وارتفاعها ٥٦٨هـ - ٥٦٩هـ ، ثم تحديد القطيعة المالية التي يدفعها صلاح الدين إلى نور الدين رمزاً لتبعيته ، عند المقرئزي : السلوك ج ١ : ٥١ - ٥٢ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ق ٢ ، ص ٥٢٥ ، ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

(٢) انظر ابن الأثير : الباهر ، ص ١٦٢ - ١٦٣ ، ١٨١ - ١٨٤ ، ابن واصل : مفرج ، ج ٢ ، ص ١ - ١٠ .
(٣) انظر قبله .

(٤) يقول سبط ابن الجوزي : أن صلاح الدين كتب إلى الملك الصالح بن نور الدين كتاباً يتواضع له فيه ويخاطبه بمولانا وابن مولانا ، ويقول : إنما جئت من مصر خدمة لك ولؤأذى ما يجب من حقوق المرحوم فلا تسمع ممن حولك لتفسد أحوالك وتختل أمورك ، وما قصدى إلا جمع كلمة الإسلام على الفرنج ، سبط : مرآة ، ج ٨ ، ص ٣٢٧ - ٣٢٨ .

- وعلى رأسهم ابن الأثير - لتعليق مسلك صلاح الدين بعد موت أستاذه كان الدافع وراءها ولاء ابن الأثير للبيت الزنكي ، من ناحية ، ثم عدم تعاطفه مع صلاح الدين ، الذى قضى على هذا البيت وممتلكاته من ناحية أخرى ، خاصة وقد لاحظ المؤرخون المحدثون أن ابن الأثير ، قد تحامل على صلاح الدين ، فى تاريخه الكامل والباهر ، وتلمس له مواضع الزلل ، وأسباب الخطأ^(١) ، ويرجح ما ذهبنا إليه ، أن أغلب هذه الأقوال ، حاولت استقراء ما فى نفس نور الدين وصلاح الدين ، كل منهما من ناحية الآخر ، ولا يعلم خفايا الأنفس والقلوب إلا الله^(٢) .

لهذا فنتحن نؤيد ما ذهب إليه بعض مؤرخى صلاح الدين^(٣) ، وأيده بعض المؤرخين المحدثين^(٤) ، من أن صلاح الدين ، ظل يآتمر بأمر نور الدين ولا يخرج عنه ، حتى وفاة نور الدين .

لقد لاحظ العماد أن صلاح الدين كان « لا يخرج عن أمر نور الدين ، ويعمل له عمل القوى الأمين ، ويرجع فى جميع مصالحه إلى رأيه المتين^(٥) ، أما أبو شامة ، فقد عمد إلى تفنيدها اتهامات ابن الأثير لصلاح الدين بخصوص خروجه عن طاعة نور الدين ، وفى رأى أبى شامة ، أن نور الدين لم ينتقد على صلاح الدين إلا إسرافه فى تفريق الأموال و صرفها واستبداده بذلك من غير مشاورته^(٦) ، ويؤكد أبو شامة رأيه ، بوثيقة وقف عليها بنفسه ، بخط نور الدين ، يقرر فيها للقاضى شرف الدين بن أبى عصرون ، الذى تولى القضاء له بالشام ثم لصلاح الدين بمصر ، إعجابه الشديد بما قام به صلاح الدين من نصره المذهب السننى بمصر ، والقضاء على الدولة الفاطمية ، والمذهب الشيعى ، ويطلب من أبى عصرون مساندة صلاح الدين ، فى هذا الأمر الجلل^(٧) .

(١) راجع عباس العزاوى : التعريف بالمؤرخين فى عهد المغول والتركماني ، ص ٣٨ - ٤٩ .

(٢) أنظر تفاصيل الأزمة السياسية بين الملك العادل نور الدين ، وبين صلاح الدين نائبه بمصر سنة ٥٦٧ هـ ، ولقد سماها ابن الأثير « الوحشة بين صلاح الدين ونور الدين » وعنه أخذ أغلب المؤرخين هذه التسمية ، أنظر ابن الأثير : الباهر ، ص ١٥٨ - ١٥٩ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٤٨ - ٤٩ ، ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ٢٢١ - ٢٢٣ .

(٣) أنظر أبو شامة : الروضتين ، ١ : ق ٢ ، ٤٤١ - ٤٤٣ ، ص ٥٠٣ .

(٤) أنظر جمال الشيال : مصر الإسلامية ، ص ٣١ - ٣٩ فى فصل طريف بعنوان : حقيقة العلاقات بين صلاح الدين ونور الدين .

(٥) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٣ ، س ١ - ٢ .

(٦) نفس المصدر ، ص ٤٤١ .

(٧) راجع نص هذه الوثيقة ، نفس المصدر ، ص ٤٤٢ - ٤٤٣ .

والواقع أن جميع الخطوات الحاسمة ، التي اتخذها صلاح الدين لإسقاط الخلافة الفاطمية بمصر ، والقضاء على الدعوة الإسماعيلية بها ، جاءت بأمر مباشر من نور الدين ، ولم تسم إلا بعد أن وصل نجم الدين أيوب والد صلاح الدين من طرف نور الدين إلى مصر ، ليأشر بنفسه تنفيذها^(١) ، بل إن صلاح الدين ظل متردداً في قطع الخطبة للفاطميين بمصر ، حتى سنة ٥٦٧ هـ ، خشية انتفاض شيعتهم بها ، حتى ألزمه نور الدين بذلك إلزاماً^(٢) ، وقام نور الدين بنفسه بإرسال بشارة الخطبة لبني العباس بمصر إلى الخليفة العباسي^(٣) ، فكان نور الدين هو « الأمر » ، وصلاح الدين هو « المباشر »^(٤) بل يعلق أبو شامة على الخطبة لبني العباس بمصر ، وانقراض الدولة الفاطمية بقوله : « واستولى على مصر صلاح الدين وأهله ونوابه ، وكلهم من قبل نور الدين رحمه الله ، هم أمراؤه وخدمه وأصحابه »^(٥) .

وليس أدل على التبعية الكاملة لصلاح الدين تجاه نور الدين ، وكونه نائباً عنه في حكم مصر ، من كونه كان يخاطب له على المنابر في أرجاء الدولة الفاطمية ، إبان وزارته للخليفة الفاطمي العاضد^(٦) ، وأثر نقل الخطبة للعباسيين ، كان الخطيب بمصر وأعمالها ، يدعو لنور الدين بعد الخليفة^(٧) ، وفُرت السكة باسم المستضيء بأمر الله وباسم الملك العادل نور الدين ، فنُقشَ إسمُ كل منهم في وجهه^(٨) ، وكان مجيء ابن القيسراني وزير نور الدين إلى مصر سنة ٥٦٨ - ٥٦٩ هـ - لكشف البلاد ، وإرتفاعها ، ومراجعة حساباتها ، لتقرير القطيعة أو الوظيفة السنوية التي يدفعها صلاح الدين لنور الدين^(٩) ، أمراً طبيعياً يؤكد تبعية مصر لنور الدين ؛ ولم يكن استغراب صلاح الدين لهذا العمل بقوله : « إلى هذا الأمر وصلنا » ، إلا لكون هذا قد يشكك في نزاهته وزمته لو كان قام بنفسه برفع تقرير إرتفاع مصر إلى نور الدين ، دون مجيء ابن القيسراني ، خاصة وإن الوزير الفاطمي شاور ، كان

(١) أنظر قبله ، الفصل الأول الخاص بالقضاء على الدعوة الفاطمية بمصر ، والفصل الثاني الخاص بإعادة الشعائر السنوية إلى مصر ونشر الفكرة الأشعرية السنوية بها .

(٢) أنظر أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ق ٢ ص ٤٨٨ ، ص ٤٩٢ - ٤٩٣ ، ص ٤٩٦ - ٤٩٩ ، وأنظر قبله .

(٣) نفس المصدر ، ص ٥٠٢ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٥٢٢ - ٥٢٣ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٥٠٩ .

(٦) نفس المصدر ، ص ٤٠٨ ، ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ١٧٣ ، أنظر قبله .

(٧) أبو المحاسن : النجوم ، ج ٦ ص ٨ وأنظر قبله .

(٨) المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٥ ، وأنظر قبله .

(٩) أبو شامة : الروضتين / ١ : ق ٢ ص ٥٢ ، ابن واصل : مفرج ج ١ : ٢٥٧ - ٢٥٨ ، المقرئزي السلوك ج ١ ، ص ٥١ - ٥٢ .

حين لجأ إلى نور الدين في المرة الأولى ، قد وعده إذا ما أمده بالجيوش النورية لطرد الفرنج من مصر ، إن يكون نائباً عن نور الدين في حكم مصر ، ويرفع له سنوياً ثلث خراجها^(١) .

ولقد أدركت الخلافة العباسية ، هذه الحقيقة الجوهرية ، فميزت بوضوح بين الخِلق الخليفة لنور الدين ، وبين الخِلق الخليفة لصلاح الدين ، وجعلت خِلق صلاح الدين أقل من خلع نور الدين ، في حين قلّدت نور الدين بالسِّقّين ، إشارة إلى تقليده لقطرى الشام ومصر ؛ وفي نفس الوقت أرسل نور الدين من قبله خِلق شيرها من بلاد الشام إلى صلاح الدين وأهله وأمرائه بمصر^(٢) ، تأكيداً لتبعيةهم المباشرة له .

ولدينا وصف شائق لحفل وصول الخلع الخليفة لنور الدين ، على لسان شاهد عيان هو العماد الأصفهاني ، الذي يخبرنا أن رسول دار الخلافة ، في جواب بشارة نور الدين بالخطبة لبني العباس بمصر ، كان عماد الدين صندل ، أستاذ دار الخلافة ، ونص في ذلك اليوم على من يحضر مجلس نور الدين من أكابر دولته ، وتولى قراءة كتاب الخليفة الموفق ابن القيسراني ، وكان عند نور الدين في مقام الوزير « فاجتنب نور الدين الأهبة العباسية »^(٣) ، ولبس الفرجية فوقها ، وتقلد مع تقلد السِّقّين طَوْقاً ، وخرج وركب من داخل القلعة ، وهو حال بما عليه من الخلعة ، واللواء منشور ، والنضار (الذهب) منشور ، والركبان الشريهان أحدهما مركوبه ، والآخر بحليته مجنوبه (أى بجانبه دون أن يركبه) . قال العماد « وسألت عن معنى تقليده السِّقّين .. فقبل لي هما للشام ومصر ، والجمع له بين البلدين » وخرج نور الدين إلى ظاهر دمشق ، حتى انتهى إلى منتهى الميدان الأخضر ، وكان وزن الطوق مع أكرته ، ألف دينار من الذهب الأحمر^(٤) ؛ أى أن الخلعة الخليفة لنور الدين كانت فرجيه سوداء ، وظرف مذهب^(٥) . ولواء أسود ، وسِّقّين ، وقرّتين ، وحلّ موشيه^(٥) .

(١) أنظر أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ق ٢ ص ٣٩٦ ، ص ٤١٨ .

(٢) أنظر المصدر ، ص ٥٠٦ ، ابن واصل : مفرج ج ١ ، ص ٢١٩ .

(٣) أهبة الحرب عدتها ، والجمع أهب (ابن منظور - اللسان) .

(٤) أبو شامة : الروضتين ٢ / ١ : ٥٠٥ - ٥٠٦ ، وهو ينص على النقل عن العماد في البرق الشامية .

(٥) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٦ .

(٥) ابن واصل : مفرج ج ١ ص ٢١٨ - ٢١٩ ونص ابن واصل أكثر وضوحاً لعدم استخدامه السجع وهو في الغالب شرح لوصف العماد ، فيقول « وورد .. التشريف الشريف لنور الدين مكماً بالأهبة السود والجلل الموشية والطوق الذهب الثقيل واللواء الجليل ليس نور الدين الفرجيه وتقلد بالسِّقّين ووضع في عنقه الطوق وخرج ركباً من داخل القلعة واللواء الأسود مقشور على رأسه ، وقدم له مركوبان أحدهما ركبته ، والآخر كان جنباً بين يديه ، على بحليته وجمع له بين تقليدى السِّقّين الإشعار بتقليده الإقليمي : الشام والديار المصرية ... » .

كذلك أرسلت الخلافة ، تشريقًا وخلعًا إلى صلاح الدين ، ولكنها كانت أقل من خلع نور الدين ، إذ لاحظ المؤرخون المعاصرون مثل العماد أن تشريف نور الدين أميز وأفضل ، وأجمل وأكمل^(١) ، لذلك فحين وصلت خلع صلاح الدين إليه بمصر « استَقصَرَهَا واستنَزَرَهَا واستصغَرَهَا دون قدره^(٢) ، مما جعل نور الدين يُطِيب خاطرَه ، بأن سَرَّ تشريفه برمته إلى مصر^(٣) ، وكانت هذه أول خلع عباسية دخلت الديار المصرية ، بعد انقراض الدولة الفاطمية^(٤) ؛ وذلك في ٩ رجب سنة ١١٧١ / ٥٦٧ فخرج قاضي القضاة صدر الدين ابن ديرباس والشهود والمقرنون والخطباء إلى خيمة الواصل بالخلع وزينت البلد^(٥) ؛ وفي ٢١ رجب من السنة المذكورة لبس صلاح الدين الخلع الخلفية وركب بها^(٦) ، وكانت وصلت مع الرسل أعلام وبنود ، ورايات سود ، وأهب عباسية للخطباء في الديار المصرية ، فسيرت إلى صلاح الدين ، ففرقها على المساجد والجوامع والخطباء والقضاة والعلماء^(٧) .

وكما فرقت الخلافة بين خلع نور الدين وخلع صلاح الدين ، على أساس أن الثاني كان تابعًا للأول ، ونائبه بمصر ؛ فإن صلاح الدين نفسه ، كان يراعى التأدب في رسوم الملك ، فلا يساوى نفسه بسيد نور الدين . ففي رجب في نفس هذه السنة ، ضربت نوب الطبلخانة^(٨) بالباب الناصري ثلاث مرات في كل يوم ، وضربت بدمشق خمس مرات كل يوم بالباب النوري^(٩) ؛ وفي نفس هذه السنة سارت الرسل من القاهرة إلى نور الدين ، تخبره بلبس صلاح الدين للخلع وباستجابة صلاح الدين على مداومة إرسال ما قرّر عليه من مال إلى نور الدين في كل سنة^(١٠) .

(١) أبو شامة : الروضتين ١ / ٢ : ٥٠٦ .

(٢) المقرئى : السلوك : ج ١ ، ص ٤٦ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ١ / ٢ ، ٥٠٦ .

(٤) ابن واصل : مفرج ج ١ ص ٢٢٠ ، أبو شامة : الروضتين ١ / ٢ ص ٥٠٦ .

(٥) المقرئى : السلوك ، ١ / ٤٦ .

(٦) ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ٢٢٠ .

(٧) أبو شامة : الروضتين ، ٢ / ١ ، ص ٥٠٦ ، ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ٢٢٠ .

(٨) الطبلخانة كلمة فارسية معناها الموسيقى السلطانية ، وكانت العادة أن تدق نوبة في كل ليلة بالقلعة بعد صلاة

المغرب وتكون صحبة السلطان في الأسفار والحروب ، القلقشندى : صح ، ج ٤ ، ص ٨ - ٩ ، و ص ١٣ .

(٩) المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٦ .

(١٠) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٤٧ .

وإذا كانت جميع الإجراءات التي اتخذها صلاح الدين لإسقاط الخلافة الفاطمية ، والخطبة لبني العباس والقضاء على الدعوة الإسماعيلية بمصر ، قد تَمَّت بتوجيه مباشر من نور الدين ، وبعْد إرساله لنجم الدين أيوب والد صلاح الدين من الشام ليُباشر هذه الأمور بنفسه^(١) ؛ فإن صَمَّ صلاح الدين لليمن ، تَمَّ بإذن نور الدين ، للقضاء على الدعوة الإسماعيلية هناك ، بحيث أرسل نور الدين هذه البشارة ، بنفسه للخليفة العباسي^(٢) ؛ كما أرسل إليه أيضًا يبشره بالخطبة لبني العباس على منابر القيروان على يد بني أيوب ، ويزف إليه غزو مملكة النوبة المسيحية وهي بلاد لم تَطَّأها من قبل سَنابك الخليل الإسلامية ، ويبشره بقرب فتح القسطنطينية وبيت المقدس^(٣) .

ومنذ استقرار صلاح الدين بمصر ، حتى وفاة نور الدين ، داوم صلاح الدين على إرسال تحف القصر الفاطمي ، إلى سيده نور الدين رمزًا للولاء والتبعية^(٤) ، وداوم صلاح الدين على إطلاع نور الدين على كل صغيرة وكبيرة داخل مصر ، فنجده مثلاً يرسل إليه كتابًا يتضمن ذكر ثورة عمارة اليمنى^(٥) ؛ وليس أدلَّ على تعاون كل من صلاح الدين ونور الدين ، من تفاهمهما الاستراتيجي في قتال الفرنج ؛ فيذكر أبو شامة أنه في سنة ٥٦٨ / ١١٧٢ « تولى السُلطانان نور الدين في الشام وصلاح الدين من مصر في هذه السنة جهاد الصليبيين ، ولقد وصف العماد هذا الحدَث بـ « جهاد السُلطانين للفرنج »^(٦) ؛ وهذا ما أكَّده صلاح الدين في كتاب له للخليفة العباسي بقوله أنه « كان انعقد بينه وبين نور الدين رحمه الله ، في أن يتجاذبا طرفيَّ الغزاه من مصر والشام ، المملوك (أى صلاح الدين) بعسكره برّه وبحره ، ونور الدين من جانب سهل الشام ووعره^(٧) .

(١) أنظر قبله .

(٢) المقرئزي : السلوم ، ١ : ٥٣ ، ابن واصل : مفرج ج ١ : ٢٣٧ ، سبط : مرآة ٨ : ٢٩٩ .

(٣) كتب نور الدين إلى الخليفة العباسي « وقسطنطينه والقدس يجريان إلى أمد الفتوح في مضمار المنافسة والله تعالى بكرمه يدنى قطاف الفاتحين لأهل الإسلام ويوفق الخادم لحيازة مراضى الإمام .. ومن جملة حسنات هذه الأيام الزاهرة ، ما تيسر في هذه النوبة ، من افتتاح بعض بلاد النوبة ، والوصول إلى مواضع منها ، لم تَطْرُقها سَنابك الخليل الإسلامية في العصور الحالية ؛ وكذلك استولى عساكر مصر أيضًا على برقة وحصونها .. حتى بلغوا إلى حدود المغرب (ابن واصل : مفرج ج ١ : ٢٣٥ ، أنظر ص ٢٣٦) حيث يفيد ابن واصل أن فتح بلاد المغرب تم بأمر نور الدين .

(٤) أنظر أبو شامة : الروضتين ٢/١ ص ٥٢٤ - ٥٢٥ ، ابن واصل : مفرج ج ١ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

(٥) ابن واصل : مفرج ج ١ : ٢٤٨ ، ولقد أورد ابن واصل فقرات من هذا الكتاب ١ : ٢٤٨ - ٢٥١ .

(٦) أنظر أبو شامة : الروضتين ١ / ٢ ، ٥٢٦ - ٥٣٠ .

(٧) نفس المصدر / ٢ ص ٦٢٤ .

ولقد أبدى صلاح الدين تبعيته لبيت نور الدين حتى بعد وفاته سنة ٥٦٩ / ١١٧٣ ، بحيث
 خطب صلاح الدين لابنه الصالح إسماعيل ، وضرب السكة باسمه^(١) ، ووافى إرسال الرسائل
 في العزاء بنور الدين^(٢) ؛ وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقول أنه حتى وفاة نور الدين ، كانت مصر
 والشام ، قد توحدتا تحت زعامة نور الدين ، وهذا ما عبر عنه العماد الأصفهاني ، حتى حين قال
 بمتدح نور الدين :

بملك مصر أهنيء مَالِكَ الْأَمَمِ فَيْتَقُّ وَأُبَشِّرُ بِنَصْرِ اللَّهِ عَنِ أُمَّمِ
 فَمَلِكِ مِصْرٍ وَمَلِكِ الشَّامِ قَدْ نُظِمَا فِي عَقْدِ عِزِّ مِنَ الْإِسْلَامِ مُنْتَضِمًا^(٣)

وفي رأى ابى شامة ، أن خروج صلاح الدين إلى بلاد الشام ، بعد موت نور الدين لأنَّ بموته
 « انفردت مصر عن الشام ، وطَمَعَ أَهْلُ الْكُفْرِ فِي بِلَادِ الْإِسْلَامِ »^(٤) ؛ أى أنه يؤيد ما أعلنه صلاح
 الدين ، من أن خروجه إلى الشام « لتوحيد كلمة المسلمين ضد الفرنج »^(٥) ؛ لكن بعد فشله فى
 إصلاح ذات البين بين الأوصياء على عرش ابن نور الدين^(٦) ، ونجاحه فى هزيمتهم فى موقعة قرون
 حماء ، وتوقيع الصلح معهم على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام ، ولهم ما بأيديهم منها ؛ قطع
 صلاح الدين الخطبة للصالح ، وأزال إسمه عن السكة فى بلاده^(٧) ، وبهذا انتهت مرحلة نيابة صلاح
 الدين عن البيت الزنكى فى حكم مصر ، واستقل استقلالاً تاماً بالديار المصرية .

وما لبث صلاح الدين فى سنوات وجيزة ، أن ورث جميع ممتلكات نور الدين ، وورث رسالته
 فى توحيد المشرق الإسلامى لجهاد الصليبيين ، وكان نور الدين قد اتسع ملكه ، ففتح الموصل
 والجزيرة وديار بكر والشام والعواصم ودمشق وبعليك وبانياس ومصر واليمن ، وخطب له

(١) المقرئى : السلوك ١ : ٥٥ ، أبو شامة : الروضتين ١ / ٢ : ٥٨٥ .

(٢) انظر الرسائل التى أوردها أبو شامة : المصدر السابق ٢ / ١ ، ص ٤٨٦ - ٥٨٨ .

(٣) انظر أبو شامة : نفس المصدر ، ٢ / ١ ، ص ٤٤٤ - ٤٤٥ .

(٤) انظر أبو شامة : الروضتين ٢ / ١ ، ص ٥٩٧ - ٥٩٨ .

(٥) سبط : مرآة ، ج ٨ ، ص ٣٢٧ - ٣٢٨ .

(٦) راجع أبو شامة : الروضتين ١ / ٢ ، ص ٦٠٣ - ٦٠٦ ، ص ٦٣٣ - ٦٤٠ ، ص ٦٤٧ - ٦٥٥ .

(٧) المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٩ .

في الدنيا^(١). بل حاول قبيل وفاته ، ضم ممتلكات سلطنة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى إليه وذلك في سنة ٥٦٨هـ^(٢) ، ولكنه توفي قبل أن يحقق أمله . كما كان نور الدين يتطلع أيضًا إلى فتح مملكة

(١) سبط : مرآة ، ج ٨ ، ص ٣٠٥ - ٣٠٦ ، وبالنسبة للوضع الشرعي للدولة الإنابكية بالشام ، كما تبلور في الربع الأول من القرن السادس الهجري في عهد عماد الدين زنكي ، فقد كان أتابكة الموصل والجزيرة الفراتية والشام ، يظهرون تبعيتهم وطاعتهم للخلافة العباسية والسلطان السلجوقي ، فيحضرون إلى بغداد أحيانًا (سنة ٥٠٨هـ) خدماة السلطان السلجوقي في دار السلطنة (سبط : مرآة ج ٨ ، ص ٥٣) وكانوا يظهرون ولاءهم للخليفة العباسي والسلطان السلجوقي ببغداد ، بالهدايا والتحف التي يرسلونها إلى بغداد ، وفي نفس الوقت كانوا يطلقون « الخلع الخليفة » و « السلطانية » و « المنشور السلطاني » ؛ بالولاية حربًا وخارجًا (سبط : مرآة : ٨ : ٥٦ ، ولقد استقرى نفوذ عماد الدين زنكي ، والد نور الدين زنكي ، على جميع أتابكة الموصل والشام والجزيرة ، حين حالت مشاغل السلطان السلجوقي في العراق في سنة ٥٠٧هـ من جمع ملوك الأطراف لمحاربة الفرنج بالشام (سبط : مرآة : ٨ : ٤٦) ، ولما كان السلطان السلجوقي قد أعلن من قبل (سنة ٥٠٤هـ) عماد الدين زنكي ، قائدًا لقوات جميع أتابكة الشام والجزيرة بعد أن أبلى بلاءً حسنًا في قتال الإمارات الصليبية بالشام (سبط : مرآة ، ٨ : ٣٥ - ٣٦) بل استطاع بالفعل هزيمة ملك بيت المقدس الصليبي سنة ٥٠٦هـ ، وأرسل بشارة النصر للسلطان السلجوقي (سبط : مرآة ، ٨ : ٤١ - ٤٣) . فلا ريب أن عهد السلطان السلجوقي في سنة ٥٠٧هـ لعماد الدين زنكي بمهمة جهاد الصليبيين بالشام نابعة عنه وأقر أتابكته في بلاد الموصل والجزيرة على الدخول في طاعته ، (سبط : مرآة ، ٨ : ٥٢) ، وقد عمد عماد الدين زنكي على الاستجداد بجيوش السلطان السلجوقي في الأوقات الحرجة من صراعه مع الصليبيين (ابن واصل ، ١ : ٧٩ - ٨١) واستقرت الأمور بين عماد الدين زنكي والسلطان السلجوقي ببغداد على هذا الأساس ، وحين توفي عماد الدين ، سنة ٥٤١هـ أقر السلطان أولاده على ممتلكاته (ابن واصل ج ١ ، ص ١٠٦ - ١٠٩ ، سبط : مرآة ، ص ١٨٩ - ١٩٠) .

ولا شك أن عماد الدين زنكي قد نجح في تكوين الجبهة الإسلامية الموحدة من ملوك الجزيرة الفراتية والشام وضم الإمارات الكردية والتركمانية ، للتصدي للوجود الصليبي بالشام ، واستطاع إسقاط إمارة الرها الصليبية ، سبط : مرآة ، ج ٨ ص ١٨٩ - ١٩٠) واسترداد أغلب حصون الساحل من الصليبيين ثم تابع ابنه نور الدين رسالته هذه ، أنظر سبط : مرآة ج ٨ ، ص ٢٠٢ ، ٢٠٧ ، ٢١٣ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٤٤ ، ٢٢٩ ، ٢٤٦ ، ٢٥٢ ، ٢٨٢ . ولقد أفاد سبط ابن الجوزي أن جميع فتوحات نور الدين زنكي وما ضمه من البلاد ، كان بأمر الخليفة فيقول « وكان نور الدين قد أخذ الموصل ، وهذا كله بأمر الخليفة لأن نور الدين ما كان يعمل شيئًا حتى يستأذنه » (سبط : مرآة ، ص ٢٨٢ - ١٨٣) . واتخذ نور الدين وسائل لجمع القلوب حوله للجهاد ؛ (أنظر سبط مرآة ج ٨ ، ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦) اتبعها من بعده تلميذه صلاح الدين .

ومن هذا يتضح أن الوضع الشرعي لممتلكات الدولة الزنكية كان هو نفس الوضع الشرعي لممتلكات الدولة الأيوبية ، على أساس تبعية كلا الدولتين من الناحية الشرعية للخلافة العباسية .

والجدير بالذكر أن عماد الدين زنكي ، في محاولته لتقوية نفوذه الدعائي في مقاتلة الصليبيين ، كان قد فكر في إزالة نفوذ السلاجقة من العراق ، ونقل الخلافة العباسية والخليفة العباسي إلى مقر حكمه بالموصل ٥٣٠هـ ، ولكن محاولته باءت بالفشل ؛ وعن محاولة عماد الدين زنكي نقل مقر الخلافة العباسية إلى الموصل أنظر ابن الأثير : الباهر ص ٤٥ ، ص ٤٨ ، ص ٥١ ، ص ٥٣ . وفي رأينا أن محاولة عماد الدين هذه ، قد بعثها من جديد المماليك حين نقلوا مقر الخلافة العباسية إلى القاهرة سنة ٦٥٩هـ .

(٢) عن هذه المحاولة راجع ابن واصل : مفرج ج ١ ص ٢٣٣ - ٢٥٣ ، أبو شامة : الروضتين ٢/١ ، ص ٥٤٣ - ٥٤٩

أرمنية المسيحية ، واسترداد بيت المقدس ، وكتب إلى الخليفة العباسي في نفس هذه السنة يَشْتَرِه يقرب تحقيق هذه الآمال ، وَيَزِفُّ إليه خبر غزو نوابه بمصر (بنى أيوب) لمملكة النوبة المسيحية^(١) .

وأفاد سِبْط ابن الجوزي في ترجمة نور الدين ، أنه « كان في عزمه أن يفتح بيت المقدس ، فَعَمَرَ مِنبراً وَقَبْلَةً بجامع حلب على اسم القدس ، فتوفى قبل الفتح ؛ فلما ملك صلاح الدين البيت المقدس ، حَمَلَ المِنْبَرَ إليه ، وأَبَقِيَ القِبْلَةَ بجامع حلب^(٢) . كذلك أَكْبَدَ أبو شامة وراثته صلاح الدين لرسالة نور الدين ، حين لاحظ أن صلاح الدين « بنى على ما أسسه نور الدين من جهاد المشركين ، وقام بذلك على أكمل الوجوه وَأَتَمَّهَا ؛ ولو علم نور الدين ما دَخَرَ الله تعالى للإسلام من الفتح الجليلة على يد صلاح الدين من بَعْدِهِ لَفَرَّت عينه^(٣) .

ويبدو أنَّ سلطان سلاجقة الروم ، قد قَطِنَ بعد ضم صلاح الدين لأغلب ممتلكات نور الدين بالشام والجزيرة الفراتية^(٤) ، أنه كان في عزمه أيضاً ضم مملكة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ، وهو ما حاوله نور الدين قبيل وفاته ، فكاتب سلطان سلاجقة الروم صلاح الدين وأَعْلَنَ دُخُولَه في طاعته^(٥) ، كما أرسل إلى صلاح الدين يرجو التَّصَرُّعَ على مَلِكِ الأرمن المسيحي ابن لاون وذلك بعد أن تَمَّ بينهم الصلح سنة ٥٦٧ هـ (كذا)^(٦) ، وكان صلاح الدين عند حسن ظن سلطان سلاجقة الروم به إذ نجح في نفس هذه السنة في فتح مملكة أرمنية المسيحية^(٧) ، الأمر الذي حاوله نور الدين قبيل وفاته .

وبدخول الزنكيين ، ولسطان سلاجقة الروم في طاعة صلاح الدين ، ونجاحه في فتح مملكة أرمنية المسيحية ، تأكد لصلاح الدين أنه أصبح أقوى ملوك الأطراف في الشرق الإسلامي ، فكتب^(٨) ،

(١) نفس المصدر ، ج ١ : ص ٢٣٥ .

(٢) سبْط : مرآة ، ج ٨ ، ص ٣١٣ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ١ / ٢ ، ص ٥٨٢ .

(٤) أنظر قبله .

(٥) العماد : الفتح ، ص ٥٧٢ - ٥٧٦ .

(٦) أبو المحاسن : النجوم ، ج ٦ ، ص ٢٢٧ .

(٧) نفس المصدر ، ج ٦ ، ص ٢٢٨ .

(٨) عن نصوص هذه الرسائل المتبادلة بين صلاح الدين والخلافة العباسية لتعميد أيادية البيضاء على الخلافة ، أنظر أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص ٦١٤ ، ٦١٦ ، ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ص ٦٤٨ - ٦٤٩ ، ابن شاهنشاه : مضممار الحقائق ، ص ٦٢ - ٦٥ ، ١١٤ ، القلقشندي : مآثر الإنافة ، ج ٣ ، ص ٣١٥ - ٣١٨ ، العماد : السبرق ، لِيَسْدَن ، ق ١٠٦ - ١٠٩ ، ق ١١٨ - ١١٢ ، ق ١٢٤ - ١٢٥ ، ق ١٢٦ - ١٣١ ، القلقشندي : صبح ج ٦ ، ص ٥٠٤ - ٥٠٦ ، ٥٠٦ - ٥١١ ، ٥١١ - ٥١٥ ، ٥١٥ - ٥١٦ .

إلى الخليفة العباسي ببغداد سنة ٥٧٠ هـ؛ يذكر فتوحاته وجهاده للفرنج، وإعادته الخطبة العباسية بمصر، واستيلاءه على بلاد كثيرة من أطراف المغرب، وعلى بلاد اليمن كلها، وأنه قديم عليه في هذه السنة وقد سبعين ركبًا، كلهم يطلب لسلطان بلده تقليدًا. وطلب صلاح الدين من الخليفة تقليده مصر واليمن والمغرب والشام، وكل ما يفتحه بسيفه، فوافته بحماسة رُسُل الخليفة المستضيء بأمر الله، بالتحريف والأعلام السود وتوقيع يسلطنة بلاد مصر والشام وغيرها^(١).

والجدير بالإلتفات، أن صلاح الدين، أراد بطلبه للتقليد الخلفي، أن يجعل ما آل إليه من الممتلكات الفاطمية والثورية، وما يسترده بسيفه من بلاد الفرنج، أو ما يفتحه من دار الحرب، ملكًا وراثيًا له ولذريته من بعده، بحيث يحقق له التقليد الخلفي، السند الشرعي لهذا الملك الوراثي، لذلك نجد صلاح الدين، في أحد رسائله لديوان الخليفة، يناشد الخليفة العباسي لتحقيق هذا الغرض بقوله: أنه يريد، تقليدًا جامعًا، بمصر والمغرب واليمن والشام، وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية، وكل ما يفتحه الله تعالى للدولة العباسية بسيفه وسيف عساكره، ولمن يقيمه من أخ أو ولد من بعده، تقليدًا يتضمن للتعمية تخليدًا، وللدعوة تجديدًا^(٢).

* * *

ولا ريب أن التفويض الخلفي لصلاح الدين وخلفه، كان بالإضافة إلى إسباغة الشرعية، في نظر العالم الإسلامي، على الممتلكات الثورية والفاطمية التي ضمها إلى دولته الفتية، فإنه كان تفويضًا من الخليفة العباسي، إلى صلاح الدين، بجميع السلطات الشرعية، التي يعدّ الخليفة هو القائم بها، من واقع تفويض الأمة الإسلامية له هذه السلطات من واقع البيعة^(٣).

ولقد حدد القلقشندی، الوظائف الرئيسية، في الدولة الإسلامية، بوظائف عشرة، يفوضها الخليفة إلى من يرى فيه الكفاءة على القيام بها على خير وجه، ثم أفاد أن هذه الوظائف العشر، أصبحت يفوضها الخليفة إلى السلطان، ثم يفوضها السلطان بدوره إلى من يستطيع النهوض بأعبائها^(٤).

(١) المقرئى: السلوك، ج ١، ص ٥٩ - ٦٠، وأنظر قبله.

(٢) ابن واصل: مفرج، ج ٢، ص ٢٩.

(٣) أنظر قبله.

(٤) أنظر الفصل السابع، من الجزء الأول، من كتاب مآثر الإنافة فى معالم الخلافة، ج ١، ص ٧٤ - ٨٠.

حيث يقول: « الفصل السابع: فى ذكر الوظائف التى كانت تصدر عن الخليفة فى الزمن المتقدم، وما يصدر عنه الآن من تفويض السلطنة إلى السلطان، ويرجع المقصود من ذلك إلى عشر وظائف، القلقشندی: مآثر، ج ١، ص ٧٤، ص ٧ - ١٠.

ولقد علّق القلقشندي على هذه الوظائف العشر التي يُفوضها الخليفة إلى السلطان بقوله : « وقد كان في الزمن المتقدّم ، يُكتَب بكلّ ولاية من هذه الولايات عهدٌ عن الخليفة بما يقع به التولية ، وتشمّلها علامة الخليفة على عادة الولايات في ذلك ، ولم يزل ذلك مُستعيراً إلى حين إنقراض الخلافة من بغداد . أمّا بعد انتقال الخلافة إلى الديار المصرية ، فقد صارت علامة الخليفة مقصورة على عهد السلطان بتفويض الأمور العامّة إليه ، وتفصيل الأمور يشملها خط السلطان بحكم تفويض الخليفة ذلك إليه^(١) .

وواضح أنّ الشق الثاني من كلام القلقشندي ، ينسحب على العصر المالكي بعد انتقال الخلافة العباسية إلى مصر ، ونحن نستطيع أنّ نقرّر مطمئنين إعتماذاً على وثائق العصر الأيوبي ، أنّ الخليفة العباسي ببغداد كان يُفوض هذه الوظائف ، أو السُلطات العشر ، أو ما يعادلها إلى السلطان الأيوبي بمصر ، ليُفوضها بدوره لمن يباشرها ويقوم بأعبائها وتتوفر فيه شروط النهوض بها على خير وجه .

ولدينا لحسن الحظ ، وثيقتان هامتان ، إحداهما خاصة بتقليد الخليفة الناصر لدين الله العباسي لصالح الدين^(٢) ، وثانيهما تقليد الخليفة المستنصر بالله العباسي للملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر^(٣) ، ودراستنا لهاتين الوثيقتين دراسة مقارنة ، نستطيع أنّ نحدّد السُلطات الشرعيّة التي فوّضها الخلفاء العباسيون ، لسلاطين بني أيوب ، على أساس أنّ الوثيقة الأولى ، ترجع إلى عهد قيام الدولة الأيوبية ، والوثيقة الثانية ترجع إلى عصر استقرارها وبلوغها أوج اتساعها في عصر السلطان الملك الكامل محمد .

كما لدينا أيضاً وصفاً دقيقاً شائقاً ، لرسوم وصول الخِلق الخليفية مع رُسل وسُفراء الخلافة العباسية إلى مصر ، واستقبال سلاطين الأيوبيين لهؤلاء السفراء ، وركوب السلاطين المصريين في موكب رسمي ، بالآلات الملوكية والخلع والأعلام الخليفية المميزة باللون الأسود شعار بني العباس ،

(١) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٨٠ ، س ١ - ٨ .

(٢) أنظر نص هذا التقليد عن القلقشندي : مآثر الإنافة ، ج ٣ ، ص ٨٦ - ٨٩ ، القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ١٤٥ - ١٥٢ .

(٣) أنظر نص هذا التقليد عند القلقشندي : مآثر الإنافة ، ج ٣ ، ص ٩٩ - ١٢١ ، القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ٩٨ - ١١١ .

وبين يدي السلطان وزيره راجباً فرسه ، حاملاً عهد الخليفة - التقليد الخلفي ، للسلطان - قاطعين أهم شوارع القاهرة ، في موكب مهيب ، إعظماً للخلع والتقليد الخلفي ، الذي يسبغ الشرعية على سلطنة بني أيوب ، أما رعاياهم المصريين وآمام العالم الإسلامي كآله^(١) .

(١) أفادنا المقرئ بالرسوم الملكية التي استحدثها الأيوبيون بمصر لاستقبال الخلع الخلفيتية والتقليد الخلفي ، وما صاحب ذلك في عهدهم من احتفالات عامة في الدولة ، ولقد أوضح المقرئ أن الممالك قد ورثوا هذه الرسوم عن الأيوبيين حتى نقل الظاهر بيبرس الخلافة العباسية إلى مصر ، فغير من هذه الرسوم ، لوجود الخليفة نفسه في مصر ، وخضوعه لسطوة بيبرس السياسية ، فيقول المقرئ في الخطط ج ٣ ص ١٧٤ - ١٧٥ إن السلطان من ملوك بني أيوب ، ومن قام بعدهم من ملوك الترك ، لا بد إذا استقر في سلطنة ديار مصر ، أن يلبس خلعة السلطان بظاهر القاهرة ، ويدخل إليها راجباً ، والوزير بين يديه على فرس ، وهو حامل عهد السلطان الذي كتبه له الخليفة بسلطنة مصر على رأسه ، وقد أمسكه بيديه ، وجميع الأمراء ورجال العساكر مشاة بين يديه ، منذ يدخل إلى القاهرة من باب الفتح أو من باب النصر ، إلى أن يخرج من باب زويلة ، فإذا خرج السلطان من باب زويلة ركب حينئذ الأمراء وبقية العسكر .. وأول من ركب بخلع الخليفة في القاهرة ، السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب .

«قال القاضي الفاضل في متجددات سنة سبع وستين وخمسمائة (٥٦٧هـ) تاسع شهر رجب : وصلت الخلع ، التي نفذت إلى السلطان الملك العادل نور الدين محمود زنكي ، من الخليفة ببغداد ؛ وهي جبة سوداء ، وطوق ذهب ؛ فلبسها نور الدين بدمشق ، إظهاراً لشعارها ، وسيرها إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ليلبسها .. وكانت أنفذت له خلعة ، ذكر أنه استقصرها واستزراها ، واستصغرها دون قدره . واستقر السلطان صلاح الدين بداره ، وباتت الخلع مع الواصل بها شاه ملك ، برأس الطابية ، فلما كان العاشر منه خرج قاضي القضاة والشهود والمقرنون والخطباء إلى خيمته ، واستقر المسير بالخلعة - وهو من الأصحاب النجمية - ورُزيت البلد ابتهاجاً بها . وفيه ضربت التوب الثلاث بالسباب الناصري ، على الرسم النوري ، في كل يوم ؛ فأما دمشق ، فالتوب المضروبة بها خمس ، على رسم قديم ؛ لأن الأتابكة لها قواعد ورسوم مستقرة بينهم في بلادهم . وفي حادي عشرة ، ركب السلطان بالخلع ، وشق بين القصرين والقاهرة ؛ ولما بلغ باب زويلة ، نزع الخلع وأعادها إلى داره ، ثم شمرَ للعب الأكرة . ولم يزل الرسم كذلك في ملوك بني أيوب ، حتى انقضت أيامهم ، وقام من بعدهم ممالكهم الأتراك ، فجزوا في ذلك على عادة ملوك بني أيوب » .

الفصل الثانى

القضاء على الخلافة الفاطمية

- وزيران سنيان للفواطم وقيام السلطنة السنية بمصر
- وسائل القضاء على المذهب والتراث الفاطمى بمصر والشام واليمن
- طعن الدولة الأيوبية بمصر فى النسب الفاطمى
- القضاء على فتن متشيعى المصريين المناصرين للدولة الفاطمية
- محاولة القضاء على بقايا التشيع فى الشام واليمن

القضاء على الخلافة الفاطمية

وزيران سنيان للفواطم :

لاحظ مؤلفو كتب ودساتير ومراسيم ديوان الإنشاء في مصر الإسلامية المتأخرون ، مثل الخالدي^(١) والقلقشندي^(٢) ، إن وزراء السيوف ، في العصر الفاطمي الثاني ، الذين تولوا وزارة التفويض لخلفاء الفاطميين الضعاف ، وحجروا على الخلفاء واستبدوا بالسلطنة الزمنية الفعلية في أيديهم ، كانت سلطاتهم بالنسبة لأوضاع الخلافة الفاطمية في ذلك الوقت ، مطابقة لسلطات السلاطين الذين تغلبوا على الخليفة العباسي بالعراق ، واستبدوا بالأمر دونه ، شأن البويهيين والسلاجقة في القرنين الرابع والخامس الهجري على التوالي^(٣) ، فكانت الوزارة في العصر الفاطمي

(١) يقول الخالدي : أما تفويض الخليفة الأمور في البلاد والأقاليم إلى من يديرها ، فعلى ثلاثة ضروب : الضرب الأول : وهو أعلاها " وزارة التفويض " ، وهو أن يستوزر الخليفة من يفوض إليه تدبير الأمور وإمضاها على اجتهاده ، وينظر فيها على العموم ، وعلى ذلك كانت الوزارة في زمن الفاطميين بمصر . الضرب الثاني : إمارة الإستكفاء . الضرب الثالث : إمارة الإستيلاء . فلما استولى الفاطميون واستوزروا أرباب السيوف في أواخر دولتهم ، وعظمت كلمتهم عندهم ، صارت سلطنتها وزارة تفويض ، فكان الخليفة يحتاج ، والوزير هو المتصرف كالمالك الأن (أنظر الخالدي : المقصد العالي المنشأ - خ ، لوحة ١٩٢ - ١٩٣ ب) .

(٢) أنظر القلقشندي : صبح ، ج ٩ ، ص ٣٩٩ - ٤٠٤ . ونصه يكاد يطابق نص الخالدي السابق .
(٣) عن استقلال البويهيين والسلاجقة بالسلطنة دون الخلفاء ، أنظر القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٢٦٩ - ٢٧٢ ، ج ٥ ، ص ٤٤٧ - ٤٤٨ ، ج ٩ ، ص ٤٠٣ - ٤٠٤ ، حيث يلاحظ القلقشندي : أولاً إن كل من البويهيين والسلاجقة ، سلاطين ملازمين للحضره ببغداد ، والأيوبيين سلاطين غير ملازمين للحضره الخليفية العباسية ببغداد ، بل أقاموا بمصر ، ولكنه يلاحظ أيضاً أن تقليدهم الخلفي ، وخلعهم الخلفيه ، هي مطابقة لتقليد وخلع سلاطين البويهيين والسلاجقة ، أنظر القلقشندي : صبح ، ج ٣ ، ص ٢٦٩ - ٢٧٢ ، وخاصة ص ٢٨٧ س ٨ - ١٩ ، وعن لقب سلطان يقول القلقشندي " السلطان : هو اسم خاص في العرف العام ، للملك ، ويقال أن أول من تلقب به خالد بن برمك . ثم انقطع التلقب به إلى أيام بني بويه ، فتلقب به ملوكهم ، فمن بعدهم من الملوك السلاجقة وغيرهم ، وهلم جرا إلى زماننا ، (أنظر القلقشندي : صبح ، ج ٥ ، ص ٤٤٧ - ٤٤٨ ، ج ٩ ، ص ٤٠٣ - ٤٠٤) . ويقول أبو المحاسن : وينو زنكي هؤلاء ، هم أوسط الدول ، فإن أول من ملك مع الخلفاء ، وتلقب بالسلطان والألقاب العظيمة بنو بويه ، ثم أنشأ بنو بويه بنو سلجوق ، وأنشأ بنو سلجوق بنو أرتق واقتنق جد بني زنكي هؤلاء ، ثم أنشأ بنو زنكي ، أعنى الملك العادل نور الدين محمود الشهيد ، بنو أيوب سلاطين مصر وغيرها ، ثم أنشأ بنو أيوب المماليك ودولة الترك . ولقد أوضح المؤرخ الكبير ابن خلدون ، بحاسته التاريخية المرفقة تطابق كل من وظيفة إمرة الأمراء ، و " وزارة التفويض " و " السلطنة " ، مع بعضها البعض وكون بنو بويه وزراء سيوف ، استكفوا اتخاذ ألقاب الوزراء ، فتلقبوا بالسلطان بقوله : " ... فلما جاءت دولة بني العباس .. =

المتأخر « تقوم مقام السلطنة » على حد قول القلقشندي^(١) ، فلا غروان استلقت مؤرخى الأيوبيين الذين أتوا معهم من الشام ، إن الوزير الفاطمى شاور ، وزير التفويض الذى استنجد بنور الدين ، كان يركب بالطيل والبوق والعلم ، على قاعدة الوزراء المصريين^(٢) ، وأن « عادة المصريين » ، أنه إذا غلب شخص صاحب المنصب ، وعجز صاحب المنصب عن دفعه ، وعرفوا عجزه ، وقعوا للقاهر منهم ورتبوه ومكّونه ، فإن قوتهم إنما كانت بعسكر وزيرهم ، وهو ملقب عندهم بالسلطان^(٣) .

= وعظم شأن الوزير ، وصارت إليه النيابة فى إنفاذ الحل والعقد .. ، فصار اسم الوزير جامعا لخطى السيف والقلم .. فانقسمت الوزارة حينئذ إلى وزارة تنفيذ ، وهى حال ما يكون السلطان قائما على نفسه ، وإلى وزارة تفويض وهى حال ما يكون الوزير مستبداً عليه ، ثم استمر الاستبداد وصار الأمر للملك العجم (بنو بويه) ، وتعطل رسم الخلافة ، ولم يكن لهؤلاء المتغلبين أن يتحلوا ألقاب الخلافة واستكفوا من مشاركة الوزراء فى اللقب ، لأنهم خول لهم فتسموا بالإمارة والسلطان ، وكان المستبد بالدولة يسمى أمير الأمراء أو بالسلطان ، إلى ما يحتل به الخليفة من ألقابه كما تراه فى ألقابهم وتركوا اسم الوزارة إلى ما يتولاها للخليفة من خاصته ، ولم يزل هذا الشأن عندهم إلى آخر دولتهم (أنظر ابن خلدون المقدمة ، طبع المطبعة الأدبية بيروت ١٩٠٠م ، ص ٢٣٨ - ٢٣٩) أى أن ابن خلدون يقول : أن بنى بويه قد اتخذوا ألقاب السلاطين ، دون إذن الخليفة العباسى . ويلاحظ حسن الباشا : أن لقب سلطان لم يرد على النقوش البويهية ، فى حين ورد على نقش خاص بالسلطان محمود الغزنوى مؤرخ سنة ٤٢١هـ ، وأن ذكر المقرئى فى شذور العقود أن بنى بويه قد سکوا لقب سلطان على عملتهم (أنظر حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ، ص ٣٢٣ - ٣٢٤) أما السلاجقة ، قد نقشى لقب سلطان على نقوشهم كلقب عام لهم (حسن الباشا : المرجع السابق) ، كما سکوه على العملة أيضاً (ماجد : الخليفة المستنصر ، ٢٣٥ هامش ١١٨) وقد ذكر السيوطى " إن أول من لقب بالسلطان فى الإسلام محمود بن سبكتكين .. وأول من لقب بالملك عضد الدولة فناخسروا " (السيوطى : الوسائل إلى مسامرة الأوائل ، تحقيق أسعد طلس ، طبع بغداد ص ٧٨) ، ولقد أورد أبو نصر العتبي مؤرخ سيرة محمد بن سبكتكين ألقابه كاملة أولها لقب سلطان. أنظر الشيخ المنبى: شرح التاريخ اليمى المؤلف ليمى الدولة محمود ، المسمى بالفتح الوهيبى على تاريخ أبى نصر العتبي ، طبع مصر طبعة قديمة د.ت (فى عهد الخديوى توفيق) ٣٠ - ٣١ وأغلب الظن أن لقب سلطان قد أخذ على عهد محمود بن سبكتكين أول السلاطين العسكريين السنيين بالشرق الذين أعادوا للخلافة العباسية هيبتها ، معنى جديد وهو حجة الخليفة الظاهرة ويده القوية تؤيد خلافته . كان لقب " يمين الدولة " أهم الألقاب الرسمية لهذا السلطان ، أنظر المنبى : الفتح ص ٣١ ، وتوارث هذا اللقب بعده السلاجقة ثم الزنكيين ثم الأيوبيين ثم المماليك (حسن الباشا : المرجع السابق ، ص ٣٢٥ - ٣٢٦) وأنظر بعده .

(١) أورد القلقشندي عهد شيركوه بالوزارة عن العاضد الفاطمى ، وقال قبل إيراده ، والوزارة يومئذ - أى فى العصر الفاطمى المتأخر - قائمة مقام السلطنة ، أنظر صبح ١٠ : ٨٠ .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٠ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٦ ، س ١ - ٦ .

والواقع أن وزراء التفويض الفاطميين ، كانوا قد حجروا على الخلفاء تمامًا ، ولم يقتصر هذا الحجر على مجرد الاستيلاء على السلطة الزمنية ، بل امتد نفوذ وزراء التفويض إلى السلطات القضائية والدينية الخاصة بالخلفاء ، والمتعلقة بصميم أحقيتهم للإمامة ، من وجهة نظر الفكر السياسى الفاطمى ، أعنى شئون القضاء والدعوة^(١) ، لكون الخليفة هو المجتهد المطلق فى الفقه الإسماعيلى لميراثه للعلم اللدنى الذى إختص به الأئمة من آل البيت وما اكسبهم هذا من قدرة على تأويل آيات القرآن^(٢) ، ولكون الهدف الأول من الدعوة الفاطمية ، هو تأكيد عقيدة « الولاية » أى الطاعة للأئمة ، فى نفوس المستجيبين للدعوة^(٣) ، ووصل الحد بتهاون وزراء التفويض بالخلفاء ونفوذهم الروحى ، إلى الحد الذى تلاعبوا به بالنص ، وهو الوصية بولاية عهد الخلافة ، التى يعتقد الشيعة أن الخليفة الفاطمى موحى بها من الله^(٤) ، فكان وزراء التفويض يبعدون أولياء عهد الخلفاء الكبار ، ويدعون النص على أمراء صغار من البيت الفاطمى ، ليسهل السيطرة عليهم وعلى الدولة^(٥) .

وسواء صدق ما ذهب إليه البندارى ، من القول بأن شيركوه ، بعد حملاته المتكررة على مصر كقائد لجيوش نور الدين ، قد راودته فكرة أن يصبح « عزيز مصر »^(٦) وهو اللقب الذى ورد فى القرآن للدلالة على فرعون مصر الذى عاصر نبي الله يوسف الصديق^(٧) ، فإن الواقع يؤكد ما لاحظته ابن الأثير من أن شيركوه بعد توليه للوزارة الفاطمية قد استقرلات له السلطنة بمصر^(٨) . وقد ذكر بعض المؤرخين أن صلاح الدين قد تولى الوزارة بوصية من عمه شيركوه^(٩) ، ويؤيد هذا ما ذكرته المصادر من أن صلاح الدين كان يقوم بتدبير جميع الأمور ، ويأشرف مهام الحكم ، إبان وزارة

(١) كان وزير التفويض يتلقب بـ " كافل قضاة المسلمين ، ويلقب " هادى دعاة المؤمنين ، ماجد نظم الفاطميين ، ج ١ ص ٨٤ .

(٢) نفس المرجع : ج ١ ص ٥٩ - ٦٠ ، محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٦ - ٨ .

(٣) يقول د. محمد كامل حسين : " خلاصة القول فى العقائد الفاطمية " ، إن الولاية هى محور هذه العقائد ، وأن فلسفتهم كلها تدور حول الإمام وتجيده ، أكثر من أى شىء آخر ، أنظر فى أدب مصر الفاطمية ، ص ١٩ . وعن مبدأ الولاية عند الإسماعيلية أنظر ماجد : نظم الفاطميين ، ج ١ ، ص ٦١ - ٦٤ .

(٤) ماجد : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٦١ - ٨٢ .

(٥) جمال الدين الشيبان : مجموعة الوثائق الفاطمية ، المجلد الأول ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ١٩ - ٢٢ ، ص ٢٦ - ٣٢ .

(٦) البندارى : تاريخ آل سلجوق ، ص ١٥٢-١٥٣ .

(٧) القرآن الكريم ، سورة يوسف ، الآية ٣٠ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٤ .

(٨) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٣٧ .

(٩) ابن شداد : النوادر ، ص ٤٠ ، س ١٥-١٦ .

شيركوه^(١)، في حين ذهب البعض الآخر، بأن الخليفة العاضد، هو الذى اختار صلاح الدين ليوليه الوزارة، لكونه صغير السن، قليل الاتباع والعسكر فى الجيش النورى بمصر، مما يسهل انقياده له^(٢)، وبالغ بعض المؤرخين، فذكروا أن شيركوه كان قد سم فى خلع الوزارة؛ لما خلع عليه^(٣).

وأيًا كان الأمر فإن تولى وزيرين سنين على التوالي، لوزارة التفويض، أى السلطنة، خلفاء الفاطميين الشيعة بمصر، جعل حال الخليفة العاضد فى ذلك الوقت، أقرب بأحوال الخلافة العباسية السنية، حين سيطر عليها سلاطين البويهيين الشيعة^(٤)، ولقد أكد ابن شداد أن صلاح الدين بعد توليه للوزارة الفاطمية، قد تغلب على الأمر كله، وأدرك ما ينتظره من مهام ضخمة فى استرداد ساحل الشام من الصليبيين، بل شرع صلاح الدين فى إزالة الخلافة الفاطمية والدعوة الإسماعيلية من مصر، وهو لا يزال وزيراً للفاطميين، إذ يقول ابن شداد: «ولقد سمعت منه يقول: لما يسر الله لى الديار المصرية، علمت أنه أراد فتح الساحل، لأنه أوقع ذلك فى نفسى. ومن حين استتب له الأمر، مازال يشن الغارات على الأفرنج إلى الكرك والشوبك وبلادها، وغشى الناس من عجائب الأفضال والنعم مالم يؤرخ عن غير تلك الأيام، هذا كله وهو وزير متابع للقوم، ولكنه مقولمذهب السنة، غارس فى أهل البلاد العلم والفقه والتصوف والدين، والناس يهرعون إليه من كل صوب، ويفدون عليه من كل جانب، وهو لا يخبج قاصدًا، ولا يعدم وافدًا إلى سنة ٥٦٥هـ / ١١٦٩م^(٥).

والطريف أن صلاح الدين، إبان وزارته للعاضد، قد أشاد بحرص العاضد على الجهاد، وإمداده بالأموال الطائلة لرد الفرنج حين حاصروا دمياط ٥٦٥هـ / ١١٦٩م^(٦) ولا شك أن انتصار صلاح الدين فى دمياط قد وطد أقدامه^(٧) كذلك ضغط صلاح الدين على العاضد لإعطائه أموال يفرقها على الناس لاستمالة الأنصار، فاستجاب له العاضد، فكان كما لاحظ المؤرخون كالباحث

(١) نفس المصدر، ص ٤٠.

(٢) ابن الأثير: الباهر، ص ١٤٢.

(٣) ابن خلكان: وفيات، ج ٧، ص ١٥١.

(٤) راجع ماجد: الناصر صلاح الدين الأيوبي، بيروت ١٩٦٧، ٧٢ - ٧٤.

(٥) ابن شداد النوادر، ص ٤٠ - ٤١، أبو شامة: الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٤٠٦.

(٦) النابلسي: لمع القوائين ص ١١ كان صلاح الدين يقول: ما رأيت أكرم من العاضد، جهز إلى فى حصار

الفرنج ألف ألف دينار، سوى الثياب وغيرها. (سيط: مرآة ٨: ٢٧٩).

(٧) وصف ابن شداد صلاح الدين إبان حملة الفرنج على دمياط، وما قام به من استعدادات عسكرية، وما وهبه من العطايا والهبات بأنه "كان وزيراً متحكماً لا يرد أمره فى شيء"، (ابن شداد: النوادر، ص ٤٣، س ٩).

عن حثفه بظلفه^(١). ثم ما لبث صلاح الدين ، حسب قول الخالدي ، أن نقل ما كان من وزارة التفويض والعهد بها إلى السلطنة ، وصارت الوزارة عن السلطان معدوقة بقدر مخصوص من التصرف ، وبقي الأمر على ذلك إلى زماننا^(٢) ، أى إلى العصر الممالكي . فلا غروان اعتبر ابن واصل ، تاريخ تولى صلاح الدين للوزارة الفاطمية سنة ٥٦٥ هـ ١١٦٩ م تاريخ ابتداء الدولة الأيوبية . إذ قال معلقاً على المنشور العاضدى بوزارة صلاح الدين . « وهذا آخر منشور كتب عنهم ، أى الفاطميين ، وانقرض أمرهم ، وانقصمت عرى دولتهم . وفى هذا التاريخ ابتداء الدولة الأيوبية ، وأخذت الدولة المصرية فى الوهن والضعف والإنحطاط إلى أن انقرضت بالكلية بعد سنتين^(٣) .

ولعل مما يؤكد تطابق منصبى وزارة التفويض ، والسلطنة ، ما حدث فى مصر عند قيام الدولة الأيوبية بها . إذ إتخذ كل من شيركوه وصلاح الدين دار الوزارة الفاطمية مقرّاً رسمياً لهما^(٤) ، بل دفن فيها كل من شيركوه^(٥) ونجم الدين أيوب^(٦) بعد وفاتهما .

وإذا كان شيركوه ، هو أول من نال وزارة التفويض والسلطنة من البيت الأيوبى ، فإن أخاه الأكبر نجم الدين أيوب ، هو ولا ريب عميد الأسرة الأيوبية ، وإليه انتسب جميع أفراد هذا البيت ، سواء من نسله ، أو من نسل أخيه شيركوه ، لهذا وصفه المؤرخون بـ « والد الملوك »^(٧) فنجد أن

(١) ابن واصل : مفرج ، ص ١ ، ص ١٧٤ ، ابن خلكان : وفيات ، ج ٧ ، ص ١٥١ - ١٥٤ . يقول ابن شداد : " وبذل المال " ، وملك الرجال ، وهانت عنده الدنيا فملكها ، (النوادر ، ص ٤٠ ، ١٦ - ١٧) يقول ابن واصل : ثم شرع صلاح الدين فى استمالة قلوب الناس إليه وبذل من الأموال ما كان أسد الدين جمعه وطلب من العاضد شيئاً يخرجه ، فلم يمكنه متعه ، فمال الناس إليه وأحبوه ، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر والنيات فيه ، وضعف أمر العضاد ، وكان كالباحث عن حثفه بظلفه (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ق ٢ ص ٤٠٨ ، ص ٦ - ٨ ، وانظر ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ١٧٤ .

(٢) الخالدي : ١٩٣ ب - ١٩٤ أ ، وأيضاً القلقشندي : صبح ، ج ٩ ، ص ٣٩٩ - ٤٠٤ .

(٣) ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ١٧١ .

(٤) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٤٠ ، ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ١٦٤ . س ١ .

(٥) ابن خلكان : وفيات ج ٧ : ١٥١ ص ٦ ، سبط : مرآة ، ٨ : ٢٩٥ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٣٣ - ٥٤٢ .

(٦) ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ٢٣ ، س ١٥ - ١٦ .

(٧) ابن واصل : مفرج ، ج ١ ص ٢٣٠ ، س ٢ ، وانظر محمد عبد الغنى حسن : والد الملوك الأيوبية ، مقال بمجلة الرسالة ، السنة التاسعة ، ١٣٦١ هـ - ١٩٤٢ م ، ص ٩٩١ ، وانظر أيضاً جمال الدين الشيال : والد الملوك الأيوبية ، مقال بمجلة الرسالة ، السنة التاسعة ص ١٠٧٩ - ١٠٨٠ . وقد وصفه مترجموه بأن " إليه نسه الأيوبيون كافة " ، بمعنى أنه حتى الفرع الذى من نسل شيركوه والذى حكم فى حمص ، عرف أيضاً بالأيوبيين .

ولده صلاح الدين يخرج إليه إبان وزارته لاستقباله عند دخوله مصر ، ومعه الخليفة العاضد^(١) ، وفي هذا استهائه بالخليفة الفاطمي ، ومبالغة في تمجيد والد صلاح الدين كبير البيت الأيوبي . الذي استقرت له السلطنة بمصر ، بعد أن ورث صلاح الدين عمه شيركوه في وزارة التفويض الفاطمية . وهذا ما أكدته تقليد العاضد لصلاح الدين^(٢) . وما حاول صلاح الدين تثبيته في الأذهان ، حين عرض على أبيه وزارة مصر ، فأبى ذلك عليه أبوه ، فحكمة صلاح الدين في الخزانين بأسرها^(٣) .

ولقد ظل صلاح الدين يسكن دار الوزارة الفاطمية طوال فترة استقراره بمصر ، ثم سكنها من تلاه من ملوك الأيوبيين بمصر ، وصاروا يسمونها الدار السلطانية^(٤) . حتى انتقل الملك الكامل محمد إلى قلعة الجبل بعد اكتمال بنائها^(٥) ، ولقد ظلت قلعة الجبل مقراً لسلطين مصر الأيوبيين ثم المماليك ، ثم ملوك أسرة محمد علي ، حتى عهد الخديوي اسماعيل^(٦) .

(١) ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ١٨٦ ، س ٤ .

(٢) أنظر القلقشندي : صبح ، ج ١٠ ، ص ٩٥ ، س ٨ - ١١ ، وانظر قبله . وقد رأينا ظاهرة تولي وزراء التفويض الوزارة وراثته عن آبائهم أكثر من مرة في العصر الفاطمي المتأخر ، حتى أن آخرهم شاور ، جعل ابنه نائباً عنه في الوزارة إبان حياته . ولقد حفظ لنا القلقشندي ، السجل الصادر بتوليته ابن شاور نيابة الوزارة عن أبيه ، أنظر جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ص ٣٢ - ٣٣ .

(٣) يقول ابن واصل : ولما اجتمع صلاح الدين بأبيه سلك معه من الأدب ما جرت به عادته ، وفوض إليه الأمر كله فأبى ذلك عليه أبوه وقال له : " يا ولدي ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفؤ له ، فلا ينبغي أن تغير مواقع السعادة ، فحكمة في الخزانين بأسرها (ابن واصل : مفرج ، ج ١ ص ١٨٦ ، س ٧ - ١٠) . ويقول سبط ابن الجوزي : " ولما قدم نجم الدين أيوب مصر سأله صلاح الدين أن يكون هو السلطان فقال أنت أولى (مرآة ٨ : ٢٩٥) وهذا النص قريبه أخرى على تطابق وظيفتي وزارة التفويض والسلطنة .

(٤) ذكر المقرئزي أن دار الوزارة أنشأها الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي ، ولهذا كان يقال لها أيضاً الدار الأفضلية وكانت تقوم بجوار القصر الكبير الشرقي تجاه رجة باب العيد ، ومازال وزراء الفاطميين أرباب السيف من عهد الأفضل يسكنون بدار الوزارة إلى أن زالت الدولة ، فاستقر بها الملك الناصر صلاح الدين ثم من تلاه من ملوك الأيوبيين ، وصاروا يسمونها الدار السلطانية ، وأول من انتقل عنها وسكن بالقلعة الملك الكامل محمد ، وجعلت منذ ذلك الحين منزلاً لضيافة الرسل (المقرئزي : الخطط ، ٢ : ٣٠١ - ٣٠٤) ، من مطبعة بولاق و ج ٢ ص ١٥٧ من طبعة مطبعة النيل .

(٥) ابتدى العمل بقلعة الجبل ٥٧٢هـ - ١١٧٦م في عهد صلاح الدين وأثناء العمل توفي صلاح الدين ٥٨٩هـ - ١١٩٢م ، ثم أوقف العمل إلى أن كمل في سلطنة العادل ٦٠٤هـ - ١٢٠٧م . ولم يبق من بناء القلعة الأيوبية سوى بعض الأسوار بأبراجها وبعض الأبواب وأهمها باب المدرج وقد أدخلت على الأسوار وعلى كثير من الأبراج والأبواب تعديلات وزيادات في أزمنة مختلفة منذ الدولة الأيوبية حتى عصر محمد علي ، أنظر بول كانونفا : تاريخ ووصف قلعة الجبل ترجمة أحمد دراج القاهرة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م ، د. أ. كريزويل : ووصف قلعة الجبل ترجمة جمال حمز القاهرة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م ، وأنظر زكي محمد حسن : قلعة الجبل ، مقال بمجلة الكاتب ، ١٩٤٦ ، ص ٨٧٣ - ٨٨٢ ، وأنظر قبله .

(٦) أنظر حسن عبد الوهاب : جامع السلطان حسن وما حوله ، القاهرة ١٩٦٢ ص ٦٤ - ٩٦ .

فإذا كنا قد انتهينا إلى تطابق منصب وزارة التفويض الفاطمية ، مع منصب السلطنة الذي عرف بالعراق العباسي اعتمادًا على ملاحظة المؤرخ المشرقى ابن الأثير وملاحظة مؤرخى دساتير الإنشاء المصريين ، وإذا كان تقليد الخليفة الفاطمي العاضد بالوزارة لصالح الدين ، قد نص على أنها وراثية عن عمه شيركوه تان الأفضل بن بدر الجمال ، وغيره من وزراء التفويض الفاطميين الذين ورثوا أباؤهم فى هذا المنصب ، وشأن توارث البيت البويهى ثم السلجوقى بالعراق لمنصب السلطنة ، فإن فى اعتبار ابن واصل ، تاريخ اعتلاء صلاح الدين للوزارة ، هو ابتداء قيام الدولة الأيوبية بمصر ، وفى دفن صلاح الدين لعمه وأبيه فى دار الوزارة الفاطمية ، ثم اتخاذه هو وملوك بنى أيوب من بعده هذه الدار مقرًا رسميًا لسكناهم وسميت « بالدار السلطانية » ، ما لا يدع أى مجال للشك فى تطابق منصبى وزارة التفويض والسلطنة .

والأن ما هى السلطات التى تمتع بها كل من شيركوه وصلاح الدين ، كوزيرى تفويض للخليفة الفاطمي العاضد ؟ يلاحظ الشيال ، أن الوزراء فى العصر الفاطمي الثانى ، لم يعدوا يقنعون بالتفويض الشامل ، الذى ينص عليه الخليفة فى السجل الصادر بتعيين الوزير ، بل أصبح من التقاليد المتبعة أن تصدر وثيقة جديدة تسمى بالتوقيع ، وتلحق بالسجل ، وفيها يوقع الخليفة بخطه بكلمات فيها معنى التأييد لوزيره والإشارة بفضله وسجاياه . وقد احتفظ القلقشندى بثلاث وثائق من هذا النوع أحدهما توقيع بخط الخليفة الفائز على طرة السجل بتعيين الصالح طلائع بن رزيك الوزارة ، والآخرا توقيعا بخط الخليفة العاضد على طره سجل كل من أسد الذين شيركوه ثم صلاح الدين بالوزارة^(١) .

ولاشك أن صدور هذه الوثيقة الجديدة ، التى يكتبها الخليفة بخطه ، دلالة على الازدياد المستمر لسلطات وزراء التفويض على حساب السلطة الروحية للخليفة ، تلك السلطة التى لم يعد الخليفة يمتلك غيرها فى الواقع ، خاصة إذا عرفنا أن الخلفاء الفاطميين ، لا يكتبون بخط أيديهم إلا نادرًا^(٢) ، وبالإضافة إلى كل هذا ، ومع ما عرف من استحواذ وزراء التفويض لجميع سلطات الخليفة ، فلقد استهل العاضد توقيعه على طره سجل شيركوه بالوزارة بهذه العبارة « هذا عهد لم يعهد لوزير مثله »^(٣) ، فهذه العبارة ولا ريب تؤكد بداية سقوط الخلافة الفاطمية بمصر ، بخط يد آخر خلفاء

(١) جمال الدين الشيال : مجموع الوثائق الفاطمية ، ص ٣١ - ٣٢ .

(٢) عبد النعم ماجد : الناصر صلاح الدين الأيوبي ، ص ٧٢ - ٧٣ .

(٣) أنظر ابن واصل : مفرج ، ١ : ١٦٥ ، القلقشندى : صبح ٩ : ٤٠٦ - ٤٠٧ ، أبو شامة : الروضتين ،

الفاطميين، كما يستشف من حرص الخليفة العاضد على أخذ الإيمان والمواثيق ، بالوفاء للدولة ، على كل من شيركوه ثم صلاح الدين ، إن العاضد ، كان يشعر في داخلية نفسه ، ما يعده وزيراه السنيان لإزالة خلافته الشيعية^(١) .

أما سجل تقليد العاضد لشيركوه بالوزارة ، فهو يبدأ بتعداد ألقاب شيركوه التي منحها له الخليفة ، وهي تطابق ألقاب وزراء التفويض الفاطميين قبله^(٢) ، يتلو هذا فقرات وصيغ تؤكد ميراث الخلفاء الفاطميين للإمامة ، لكونهم أحفاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبناء على بن أبى طالب ، ومن ذرية آل البيت الطاهرين من الأئمة المهديين^(٣) ، كما تؤكد حق الخلافة الفاطمية في السيادة على جميع أرجاء العالم الإسلامي ، لكون الخليفة الفاطمي هو حجة الله في الأرض وشاهد على عصره^(٤) ، ثم يعقب السجل على هذه الفقرات ، المؤيدة للنظريات السياسية الإسماعيلية الخاصة بالإمامة ، بفقرات أخرى تظهر شيركوه على أنه نعمة أنعم بها الله على الخليفة الفاطمي ودولته^(٥) ، وأنه جاء لنجدة الخلافة الفاطمية وتأييدها ، وإنقاذها من الخطر الصليبي المتمثل في جيوش ملك بيت المقدس التي دهمت الديار المصرية أكثر من مرة ، حتى هزمها شيركوه وأرغمها على الانسحاب^(٦) ، كما أنقذها أيضًا من شرور وزراء التفويض المستبدين الذي نهبوا خزائن الخلفاء واجتلبوا الصليبيين إلى البلاد^(٧) .

ثم يمضى السجل بحذر ، للمواءمة بين هاتين الفكرتين ، فيعرض فقرة تؤكد أحقية الفاطميين ، في ميراث الخلافة ، ثم يَدَّيِّلُهَا بفقرة أخرى تشيد بشيركوه الذي أنقذ الخلافة وأيدها ؛ أى أن السجل يحاول أن يمسك العصا من منتصفها ، ويخفي الوضع المتناقض ، الذي أضحت عليه الدولة الفاطمية ، من حَجْر وزير تفويض سني ، لا يقر بالدعوة الإسماعيلية ، وبحق الفاطميين في الخلافة ، على خليفة فاطمي شيعي ، يقوم حقه في الخلافة على الإقرار بالدعوة الإسماعيلية ، والاعتقاد بأن الولاية والطاعة للإمام الفاطمي ، أساس العقيدة الفاطمية ، فيظهر السجل الأمر ، كما لو أن الله قد ألهم

(١) أنظر ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ١٧٠ - ١٧١ أبو شامة : الروضتين ٢/١ ، ٤١٤ .

(٢) أنظر بعده الفصل الخاص بالسلطنة .

(٣) أنظر التلقشندي : صبح ، ج ١٠ ، ص ٨١ - ٨٣ .

(٤) أنظر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٨٣ .

(٥) أنظر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٨٤ .

(٦) أنظر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٨٤ .

(٧) أنظر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٨٤ .

العاضد ، لإختصاصه بالعلوم والأسرار النبوية باختيار شيركوه لوزارته^(١) وإبعاد منافسيه (شاور) ،
بحيث عدد السجل مثالب شاور ومفاخر شيركوه^(٢) .

ولقد حاول كاتب السجل - وهو القاضي الفاضل - أن يخفى بحبرته الطويلة فى صياغة
السجلات الرسمية هذا التناقض ، كما حاول أن يدس بين ثنايا السطور ، تلميحات وتقريرات
للأفكار الإسماعيلية الخاصة بالنفوذ الروحى للائمة الفاطميين ، كما أقرته العقيدة الإسماعيلية :
فالخليفة هو سليل النبوة^(٣) ، ووارث أسرارها وعلومها^(٤) ، وله حق الطاعة على جميع المسلمين^(٥) ،
بل زاد هذا السجل فى إظهار نفوذ روحى مزعوم للخليفة العاضد ، لا نجد له مثيلاً فى النظريات
الإسماعيلية ، مثل ظهور معجزات وكرامات خاصة به^(٦) ، وأن الله قد اختصه بالشفاعة يوم القيامة
للمستجيبين لدعوته^(٧) ، وأنه مؤيد من الله عند الانتقام ممن عصا أو حاول سلب حقوقه^(٨) ؛ ولا يخفى
أن هذه السلطات الروحىة الجديدة ، التى زعمها هذا السجل للخليفة العاضد ، ما هى فى الواقع
إلا محاولة مستميتة للاحتفاظ بما بقى من ولاء ، للخليفة الفاطمى فى نفوس أنصار دعوته ، بعد أن
ابتذل وزراء التفويض سلطاته الروحىة ، واستهانوا بها ، وبعد أن أمسى نفوذه الروحى مهدداً
بالتلاشى النهائى على يد وزيره السنى الجديد .

واختتم سجل شيركوه بتكرار أخذ المواثيق والعهد على هذا الوزير السنى ، بأن يخلص الولاء
للدولة الفاطمية وللخليفة الفاطمى ، وأن يلتزم بما حدده له الخليفة من مهام وسلطات فى هذا
السجل^(٩) . وسجل تقليد صلاح الدين الوزارة ، لا يختلف فى مجمله عن سجل عمه ، إلا فى الإشارة
بأنه قد نال الوزارة وراثه عن عمه شيركوه ، كما ورثها الأفضل عن أبيه بدر الجمالى أول وزراء
التفويض الفاطميين ، وفى التأكيد على صلاح الدين فى الاقتضاء بسيرة عمه فى الوفاء للدولة
الفاطمية ، وللخليفة الفاطمى^(١٠) .

(١) أنظر القلقشندى ، ج ١٠ ، ص ٨٥ - ٨٦ .

(٢) أنظر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٨٧ .

(٣) أنظر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٨٦ - ٨٧ .

(٤) أنظر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٨٣ ، س ١٢ - ١٣ .

(٥) أنظر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٨٢ ، س ٦ - ٩ .

(٦) أنظر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٨٣ ، س ١٠ - ١٢ .

(٧) أنظر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٨٢ ، س ١٠ - ١١ .

(٨) أنظر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٨٣ ، س ١٨ - ١٩ .

(٩) أنظر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٨٨ ، س ٥ - ٦ ، ج ١٠ ، ص ٩٠ .

(١٠) أنظر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٩١ ، ص ٩٤ ، س ١٩ - ٢٠ ، ج ١٠ ، ص ٨١ ، ص ٩٤ .

أما مضمون سجل تقليد شيركوه بالوزارة ، فهو كما لاحظ ابن واصل : « تفويض أمور الخلافة إليه ، والقيام بأعباء حفظها ، والذب عنها ، والتوصية بتقوى الله تعالى ، والعمل بفرائضه ، والانتهاز عن مناهيه^(١) وهذا في الواقع ما نص عليه التقليد ، إذ جاء به :

« ولقدك أمير المؤمنين أمر وزارته ، وتدبير مملكته ، وحياطة ما وراء سرير خلافته ، وصيانة ما اشتملت عليه دعوة أمامته ، وكفالة قضاة المسلمين ، وهداية دعاة المؤمنين ، وتدبير ما عدقه الله بأمير المؤمنين من أمور أوليائه أجمعين ، وجنوده وعساكره المؤيدين ، المقيمين منهم والقادمين ، وكافة رعايا الحضرة بعيدها ودانيتها ، وسائر أعمال الدول بادبها وخافيتها ، وما يفتحه الله تعالى على يديك من البلاد ، وما تستعيده من حقوقه التي اغتصبها الأضداد ، وألقى إليك المقاليد بهذا التقليد .. وناطبك العقد والحل ، والولاية والعزل .. ، وما توجب السياسة إمضاءه من الأحكام^(٢) .

وجلى إذا أن الخليفة قد تنازل عن جميع سلطات الخلافة ، سواء الإدارية الخاصة بتدبير المملكة ، أو الدينية الخاصة بالدعوة الإسماعيلية والقضاء ، أو العسكرية الخاصة بالإشراف على الجيش واسترداد الأراضي التي احتلها الصليبيون من ممتلكات الدولة الفاطمية ، أى بيت المقدس ، بالإضافة إلى رعاية شئون رعايا الخليفة ، والملاحظ من هذه السلطات ، أنها قد جمعت لشيركوه الإشراف الأعلى على السلطين التنفيذية ، والقضائية أى التشريعية ، وذلك لأن الفكر السياسى الفاطمى ، إمعاناً فى تقوية نفوذ الخليفة ، لم يأخذ بنظام فصل السلطات ، الذى يعد من أهم خصائص النظرية السياسية فى الإسلام^(٣) ، على أساس أن الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية ، واستنباط الأحكام منها ، طبقاً لقواعد علم أصول الفقه وهو علم مناهج البحث فى الفقه الإسلامى^(٤) ، هو من حق أهل الحل

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٦٤ .

(٢) القلقشندى : صحيح ، ج ١٠ ، ص ٨٧ - ٨٨ .

(٣) أنظر عبد الوهاب خلاف : السلطات الثلاث فى الإسلام ، بحث بمجلة القانون والاقتصاد التى تصدرها جامعة القاهرة فى السنوات ١٩٣٥ ، ١٩٣٦ ، ١٩٣٧ ، سليمان محمد الطماوى : السلطات الثلاث فى الدساتير العربية المعاصرة ، وفى الفكر الإسلامى ، تكوينها واختصاصاتها ، جامعة الدول العربية ، معهد الدراسات العربية العالية سنة ١٩٦٧ ، محمد صادق الصدر : سلطة القضاء فى الشريعة الإسلامية ، مجلة رسالة الإسلام ، العددان : الثالث والرابع ، السنة الثانية عشرة ، سنة ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م ، ص ٣٢٦ - ٣٥٥ .

(٤) عن علم أصول الفقه ، أنظر محمد أبو زهرة : أصول الفقه ، دار الفكر العربى ، د.ت. محمد طاهر النيفر : أصول الفقه ، طبع تونس ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م .

والعقد والفقهاء الممثلين لإجماع الأمة^(١). بمعنى أنه إذا كانت السلطة التنفيذية من حق الخليفة السني ، فإن السلطة التشريعية من حق الأمة ، أما الفكر السياسي الإسماعيلي ، فقد جعل الخليفة المجتهد المطلق في الفقه الإسماعيلي^(٢) ، ومن ثم فقد فوض شيركوه ، السلطتين التنفيذية والتشريعية ، بمقتضى تفويض الخليفة العاضد له أمور الخلافة كلها ، وهذا التفويض للسلطتين قد آل أيضاً إلى صلاح الدين ، فلقد جاء في سجل تقليده الوزاره :

« .. وخرج أمره (أى الخليفة العاضد) إليك ، بأن يوعز إلى ديوان الإنشاء ، يكتب هذا السجل لك بتقليد وزارته التى أحلك ربوتها ، فتقلد وزارة أمير المؤمنين من رتبها التى تناهت فى الإنافة ، إلا أن لا رتبة فوقها إلا ما جعله الله تعالى للخلافة^(٣) ، وليس أكثر من هذا تصريح وإفصاح ، عن استحواذ صلاح الدين لجميع سلطات الخليفة الفاطمي .

ويتفق سجلا تقليد شيركوه وصلاح الدين للوزارة ، فى تحديد المطلوب من هذين الوزيرين تجاه كل شأن من شئون الدولة ، فبالنسبة لعساكر الدولة - وكان الخليفة يقصد جنود دولته وليس الجنود الشامية النورية التى قدمت مع شيركوه ، لقول الخليفة « العساكر المنصورة .. ، الذين غنوا بولاء أمير المؤمنين ، وربوا فى حجور فضله وكرمه » ، طالب الخليفة وزيره بتوفير الإقطاع لهم وأدراك النفقات ، وإن يجريهم على ما جرت عليه العادة من تقليد الولايات^(٤) ، يعنى ولاية الأقاليم

(١) أنظر محمود اللبابدى : نظام الإسلام السياسى ، مجلة رسالة الإسلام ، السنة الرابعة العدد الرابع ، محرم سنة ١٣٧٢هـ - أكتوبر سنة ١٩٥٢م ، ص ٣٧٦ - ٤٠٢ ، محمد ضياء الدين الرئيس : النظريات السياسية الإسلامية ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٧ ، مكتبة الأملجول المصرية ، ص ٢٩٠ - ٣١٠ ، عبد الحميد متولى : مبادئ نظام الحكم فى الإسلام مع مقارنته بالمبادئ الدستورية الحديثة ، دار المعارف ، ١٩٦٥م .

ويذهب هؤلاء الباحثون إلى أن فكرة السيادة العامة للدولة ، هى بالنسبة للفكر السياسى الإسلامى (عند أهل السنة) متثلة فى الأمة وأنظر رسالة للدكتوراه عن فكرة السيادة فى الفكر الإسلامى أجزيت من جامعة القاهرة سنة ١٩٧٥ ، على محمد جريشه : المشروعية الإسلامية العليا ، نشر مكتبة وهبة ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م . أما بالنسبة للفكر السياسى الشيعى ، فإن فكرة السيادة أى الحق الذى تحكم به الدولة ، أو المشروعية العليا للدولة فهى تستند فى رأينا على فكرة " الولاية " ، أى الطاعة للخليفة الفاطمى ومن ثم فإن الأمة فى الفكر السياسى السنى هى مصدر السلطات ومصدر السيادة اما فى الفكر السياسى الشيعى ، فإن الإمام هو مصدر السلطات ومصدر السيادة .

(٢) ماجد : نظم الفاطميين ، ج ١ ، ص ١٣٩ .

(٣) القلقشندى : صبح ، ج ١٠ ، ص ٩٥ .

(٤) القلقشندى : صبح ، ج ١٠ ، ص ٨٨ - ٨٩ ، ص ٩٦ س ١٢ - ١٦ .

والإدارات المحلية ، وبالنسبة للقضاء ، فقد طالب الخليفة وزريه بحفظ نظامه ، وتنفيذ أحكامه ، وإقامة حدوده ، وإمضاء عقوده ، واستعمال الكفاه^(١) ، أما الدعوة ، ففي حين أكد العاضد على شيركوه ، بالقيام على تشييد أساس الدعوة وبنائها ، وتميز آخذي عهودها وأبنائها^(٢) ، فإنه قد اكتفى بالقول لصالح الدين ، وأما القضاء والدعاه فهم فى كفالتك وهديك ، والتصريف على أمرك ونهيك^(٣) ، وكأنه يقول له ، لقد سلمت إليك أمر دعوتى ، فافعل فيها ما يمليه عليك ضميرك .

ولقد اتفق التقليدان ، فى الحض على حفظ أموال بيت المال ، وصرها فى وجوها الشرعية والعمل على تثيرها وتعمير البلاد ، وأهم ما نلاحظه بخصوص السلطات الإدارية أن الخليفة قد طالب وزيره شيركوه ، برفع المكوس - وهى الضرائب غير الشرعية - التى عمد الجباه على جبايتها مما أثقل كاهل الرعية^(٤) ، كذلك ناشد السجلين شيركوه وصالح الدين ، معاملة الرعية بالعدل والرأفة ، على أساس تقوى الله ، وليحظوا من الرعية بالدعاء الذى من شأنه أن يوفقهما فيما نهضا به من أعباء المملكة^(٥) .

ويتميز هذان السجلان بتخصيص فقرات طويلة بليغة تؤكد عظم فريضة الجهاد وتشيد ببطولة كل من شيركوه وصالح الدين فى جهاد الصليبيين ، سواء فى الشام أو بمصر ، ولقد تبا السجلان ، بأن فتح بيت المقدس ، واسترداد ساحل بلاد الشام من الصليبيين ، سيكون على يد هذين الوزيرين^(٦) .

ونحن لا نعرف ما اشتملت عليه خلعة الوزارة ، التى خلعها العاضد على شيركوه ، فى حين وصلنا وصف دقيق كامل للخلع التى خلعت على صالح الدين عند توليته الوزارة ، ولقد أورد هذا الوصف أبو شامة الأصفهاني فقال : « وكانت خلعة الوزارة : عمامة بيضاء تيسى بطرز ذهب ، وثوب ديبقى بطرازى ذهب ، وجبة سقلاطون بطرازى ذهب ، وطيلسان ديبقى بطراز ديبقى ذهب ، وعقد جوهر قيمته عشرة آلاف دينار ، وسيف محلى مجوهر قيمته خمسة آلاف دينار ، وفرس حجر صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار ، لم يكن بالديار المصرية أسبق منها ، وطوق وتخت ، وسرفسار ذهب مجوهر ، وفى رقبة الحجر مشده بيضاء وفى رأسها مائتا حبة جوهر ، وفى أربع قوائم الفرس أربع عقود جوهر ، وقصبة ذهب فى رأسها طالع مجوهره ، وفى رأسها مشدة

(١) القلقشندى : ج ١٠ ، ص ٨٩ ، ٩٧ .

(٢) نفسه ، ج ١٠ ، ص ٨٩ .

(٣) نفسه ، ج ١٠ ، ص ٩٧ .

(٤) نفسه ، ج ١٠ ، ص ٨٩ - ٩٠ .

(٥) نفسه ، ج ١٠ ، ص ٩٧ - ٩٨ .

(٦) نفسه ، ج ١٠ ، ص ٩٠ ، ٩٧ .

بيضاء بأعلام ذهب ، ومع الخلعة عدة بقج ، وعِدَّة من الخيل ، وأشياء أخرى^(١) ، كما أفاد أبو شامة أيضًا أن منشور تقليد صلاح الدين الوزارة ، كان ملفوفًا في ثوب من الأطلس الأبيض^(٢) .

والملاحظ أن هذه الخلعة ، قد اشتملت على أزياء رسمية خاصة بالوزراء الفاطميين مثل العقد الجوهر ، كذلك فأغلب الظن أن الثوب اللينقى المطرز بالذهب ، هو الدراعة ، وهي ثوب قصير مشقوق من أمام محلى بعري وأزرار ، عن الثوب المميز للوزراء الفاطميين^(٣) ؛ كما يلاحظ أيضًا خلو هذه الخلعة من الدواه المحلاة بالذهب ، وهي من علامات الوزارة ، وترمز إلى سلطة الوزير الإدارية^(٤) . أغلب الظن لأن صلاح الدين كان وزير سيف وليس وزير قلم .

ومن ناحية أخرى نلاحظ تشابه خلع الخليفة الفاطمي لوزير تفويضه صلاح الدين مع خلع الخليفة العباسي لكل من سلاطين بنى بويه وبنى سلجوق وبنى أيوب على التوالي^(٥) . فيما عدا اختلاف جوهرى واحد ، وهو أن الخلع العباسية قد اتخذت لون السواد^(٦) وهو الشعار المميز للعباسيين^(٧) ، فى حين اتخذت الخلع الفاطمية لصلاح الدين لون البياض^(٨) ، وهو الشعار المميز

(١) أبو شامة : الروضتين ، ح ١ ، ص ١٧٣ (من الطبعة القديمة) ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٩ ، من طبعة د. حلمى . ولقد قال أبو شامة : ج ١ ، ص ٤٠٧ ، ٧ - ٨ ، أن خلعة الوزارة لصلاح الدين كانت الجبة والعمامة وغيرهما .

(٢) نفس المصدر ، ١ : ١٧٣ أيضًا (من الطبعة القديمة) ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٩ ، من ط د. حلمى . ويذكر سبط ابن الجوزى أن العاضد قد خلع على صلاح الدين خلعة الوزارة فى إيوان القصر ، ولقبه بالملك الناصر ، وقيل إنما لقبه المستضىء بعد ذلك مرآة ، ج ٨ ، ص ٢٧٩) .

(٣) أنظر ماجد : صلاح الدين ، ص ٧٣ ، وأيضًا ماجد : نظم الفاطميين ، ١ : ٨٩ - ٩٠ .

(٤) ماجد : نظم الفاطميين ، ح ١ : ص ٩٠ .

(٥) عن هذه الخلع العباسية ، أنظر القلقشندي : صبح ، ٣ : ٢٧٢ وأنظر قبله وبعده .

(٦) أنظر القلقشندي : صبح ، ح ٣ ، ص ٢٦٩ - ٢٧٢ .

(٧) سبب اتخاذ بنى العباس السواد فى ملابسهم ، يعلله المؤرخون بأكثر من تعليل ، فربما يرجع ذلك إلى أن النبى صلى الله عليه وسلم عقد لعنه العباس يوم حنين ويوم الفتح راية سوداء ، وقيل بل حزنًا على إبراهيم الإمام (أخو أبى العباس السفاح وأبى جعفر المنصور) وأولى مرجع جمع كل ما يتعلق باتخاذ بنى العباس للسواد ، هو كتاب شمس الدين السخاوى . عمدة الناس فى مناقب بنى العباس ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٥٦٩ تاريخ ، ولقد تناول السخاوى هذا الموضوع فى فصل خاص عنوانه بـ : " كون شعارها أى الخلافة العباسية - السواد ، ورقة ١٠١ - ١٠٣ ط ، وانظر أيضًا السيوطى : رفع الباس عن بنى العباس ، مخطوط بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية برقم ٢٠١ مجاميع ، ق ٢٤٠ ، وانظر أيضًا السيوطى : رسالة بعنوان " تلج الفؤاد فى أحاديث لبس السواد " ، مخطوط بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية برقم ٤٣ مجاميع ، الحسن بن عبد الله ، أثار الأول فى ترتيب الدول ص ١٠٢ - ١٠٣ ، القلقشندي : مآثر الإنافة ، ٢ : ٢٣٥ - ٢٣٧ ، القلقشندي : صبح الأعشى ، ح ٣ ، ص ٢٧٤ المقرئى : الخطط طبع بولاق ٢ : ٢٢٨ السيوطى : الوسائل إلى مسامرة الأوائل ، ص ٦٩ - ٧٠ ، أحمد تيمور باشا : التذكرة التيمورية ، ص ٢٦٤ - ٢٦٨ .

(٨) ماجد : صلاح الدين ، ص ٧٣ .

للفاطميين^(١) ، وأخيراً فإن احتواء الخلعة على « الطيلسان » ، وهو زى القضاة ، يشير إلى أن صلاح الدين ، كوزير تفويض ، كان له الإشراف على القضاء والدعوة .

كذلك نجد تشابهاً في رسوم تقليد الخليفة العاضد لكل من شيركوه وصلاح الدين للوزارة ؛ من ناحية إنفاذ الخلعة لهم ثم استقبالهما في قصره ، ومخاطبتهم بلقبهم الرسمي الذى خصهم به ، بحيث خوطب شيركوه بالملك المنصور^(٢) ، وخوطب صلاح الدين بالملك الناصر^(٣) ؛ ثم مسير هذين الوزيرين وهما مرتدين الخلع الخليفية إلى دار الوزارة ؛ مع رسوم تقليد خلفاء بنى العباس لسلاطين بنى بويه وبنى سلجوق الذين كانوا ملازمين للحضرة السلطانية فى بغداد^(٤) .

أما القاب شيركوه وصلاح الدين ، التى منحها لهما الخليفة العاضد ، فهى تطابق القاب وزراء التفويض الفاطميين ، إذ لقب كل منهم بـ « السيد » ، الأجل ، الملك ، المنصور ، سلطان الجيوش ، ولى الأمة ، فخر الدولة ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين ، كما نسب كل منهما إلى الخليفة الفاطمى أى وصفاً بـ « العاضدى »^(٥) وأن تميز كل من هذين الوزيرين السنيين بلقب جديد ، هو « سلطان الجيوش » ، أغلب الظن لتوليتهما الإشراف على الجيوش المصرية الفاطمية والشامية النورية، الموجودة تحت قيادتهما بمصر^(٦) .

(١) عن كون البياض هو شعار الفاطميين أغلب الظن لمخالفة ومناقضة شعار أعدائهم العباسيين وهو السواد القلقشندى : صبح ٣ : ٤٧٣ ، المقرزى : الخطط ١ : ٤٤٨ ، ٤٥٥ ، ٢ : ٢٨١ ، الحسن بن عبد الله : أثار الأول ، ص ١٠٢ ، المقدس : أحسن التقاسيم ، ص ٢٣٨ ، ابن خلدون : المقدمة ج ١ : ٢١٦ ، أحمد تيمور : التذكرة الصمورية ص ٢٦٢ - ٢٦٤ .

(٢) أنظر ابن خلكان : وفيات ٧ : ١٥١ ، ابن واصل : مفرج ١ : ١٦٣ - ١٦٤ ، ابن الأثير : الباهر ص ١٤٠ ، أبو شامة : الروضتين ، ط. د . حلمى ، ج ١ ق ٣ ص ٤٠٢ - ٤٠٣ ويقول أبو شامة : ولما خرج منشور الوزارة إلى أسد الدين ، أمر بقراءته على رؤوس الإشهاد وفرح به غاية الفرح وأعيدت قراءته عليه عدة دفعات استحساناً لمعانيه ، واستطرافاً لما أوردع من بدائع الكلام فيه (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٦ - ٤٣٧) .

(٣) ابن واصل : مفرج ١ : ٦٦٥ ، أبو شامة : الروضتين ج ١ ق ٢ : ٤٣٩ حيث يقول "وقرئ المنشور بين يدى الملك الناصر يوم جلوسه فى دار الوزارة وحضر جميع أرباب الدولتين المصرية والشامية ، وكان يوماً عظيماً ، وخلع السلطان (كذا) على جماعة الأمراء والكبراء ، ووجوه البلد ، وأرباب دولة العاضد " .

(٤) القلقشندى : مآثر ٢ : ٢٣٧ - ٢٤٠ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٢٦٩ - ٢٧٢ ، وانظر قبله .

(٥) القلقشندى : صبح ، ح ١٠ ، ص ٨٠ ، س ١٥ - ١٨ .

(٦) ماجد : نظم الفاطميين ، ح ١٠ ، ص ٨٤ .

والجدير بالذكر أن لقب الملك^(١)، الذي حمله جميع أفراد الأسرة الأيوبية، خاصة ملوك الأطراف منهم، وذلك بعد قيام السلطنة الأيوبية بمصر، قد ورثوه أيضًا عن وزراء السيوف الفاطميين، إذ حمل هذا اللقب بملاحظة الخالدي والقلقشندي كل من الملك الأفضل رضوان وزير الحافظ، وهو أول من لقب بالملك منهم، والملك الصالح طلائع بن رزيق وزير الفائز ثم العاضد، ثم شيركوه وصلاح الدين، وذلك قبل أن يستقل بالملك ويخطب بالديار المصرية لبني العباس، ويضيف الخالدي، أن الخليفة كان يحتجب والوزير هو المتصرف كالمملك^(٢)، كذلك لاحظ أبو شامة أن وزير السيوف الفاطمي كان يلقب عندهم^(٣) بالسلطان، لذلك اعتقد بعض الباحثين، أن لقب سلطان قد ورثه الأيوبيون عن طريقين؛ إحداهما، وراثته عن أستاذهم نور الدين الذي حمل هذا اللقب بدوره وراثته عن أستاذته السلاجقة، إذ كان نور الدين، أتابكا تابعًا لهم بحلب ودمشق؛ وثانيهما، وراثته عن وزارة التفويض من رجال السيوف في العصر الفاطمي^(٤)، ويؤيد هذا الرأي ما

(١) عن لقب ملك، وكون ملوك بني بويه هم أول من حملوه في الإسلام، أنظر القلقشندي: صبح، ج ٥، ٤٤٧ - ٤٤٨، وأنظر السيوطي: الوسائل إلى مسامرة الأوائل، ص ٨٤، حيق يقول: "أول من خوطب في الإسلام (بالملك)، عضد الدولة بن بويه، وقام بعده ولده بهاء الدولة فزاده الطانع في ألقابه (قوام الدين غياث الأمة)، فهو أول من خوطب بالدين والأمة" ويقول القلقشندي: الفرق بين الملك والسلطان، أن الملك أخص (أنظر صبح الأعشى، ج ٩: ٣٩٨).

(٢) الخالدي: المقصد - خ لوحة ١٩٢ أ - ١٩٣ ب، القلقشندي: صبح، ٩: ٣٩٩ - ٤٠٤ ولى رأى السيوطي أن هؤلاء الوزراء - الملوك، يشبهون في سيطرتهم على خلفاء الفاطميين، البويهيين مع خلفاء العباسيين، السيوطي: حسن المحاضرة، ٢: ١٧، عن ماجد: نظم الفاطميين، ج ١: ٨٧ حيث يلاحظ أن الأيوبيين تلامذتهم المماليك ورثوا لقب الملك عن وزراء السيوف الفاطميين، ثم ورث هذا اللقب عن الأيوبيين تلامذتهم المماليك.

(٣) يقول أبو شامة: وكانت عادة المصريين (يقصد الخلفاء الفاطميين) أنه إذا غلب شخص صاحب المنصب وعجز صاحب المنصب عن دفعه وعرفوا عجزه وقعوا للقاهر منهم ورتبوه ومكنوه فإن قوتهم إنما كانت تكون بعسكر وزيرهم، وهو الملقب عندهم بالسلطان، وما كانوا يرون المكاشفة وأغراضهم مستتبه وقواعدهم مستقرة من أول زمانهم على هذا المثال (أبو شامة: الروضتين ١ ق ٢، ص ٣٣١ س ١٤ - ١٧) وهذا ما يعلل إطلاق الشاعر عمارة اليمنى لقب سلطان على وزير التفويض الفاطمي طلائع بن رزيق. أنظر عمارة اليمنى: النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية، تحقيق درنبرج ١: ٤٤ و ١٢٢، عن ماجد: نظم الفاطميين ١: ٨٧ وإن ذهب إن هذه التسمية صادرة أغلب الظن عن خيال الشاعر.

(٤) حسن الباشا: الألقاب الإسلامية، ص ٣٢٥ - ٣٢٦. وقد ورث السلاجقة لقب سلطان عن القرنويين، راجع أحمد فؤاد سيد: مصادر تاريخ مصر الإسلامية في العصر الأيوبي، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م، ص ١٤٥ - ١٧٢، وخاصة ص ١٥٠ - ١٥٨.

سبق أن لاحظته الخالدي والقلقشندى عن تطابق منصب وزارة التفويض الفاطمية مع منصب السلطنة العراقية وما لاحظناه من استقرار الأيوبيين الأول حتى عصر السلطان الكامل في دار الوزارة الفاطمية وتسميتها بالدار السلطانية^(١).

(١) أنظر قبله . والواقع أن الفقيه السنّي أبو الحسن الماوردي ، قد ألمح في كتابه الأحكام السلطانية ، وقوانين الوزارة ، إلى أن وزارة التفويض ، التي اقتضت على رجال السيف ، قد تطورت في عصره وقبله ، فأصبحت تعني مفهوم السلطنة . والجدير بالملاحظة هنا أن الماوردي ألف كتابه في نهاية القرن الخامس أي في نهاية العصر البويهي وبداية العصر السلجوقي ، إذ عدد الماوردي اشتقاق كلمة الوزارة ثم علق بقوله : " ولاية هذه المعاني كان مشتقاً ، فليس في واحد منها ما يوجب الاستبداد بالأمر ، (الأحكام السلطانية ، ص ٢٣ ، س ٢٠ - ٢١) ، ثم حرص الماوردي على أن يظهر أوجه الفرق بين وزارة التفويض والخلافة . فقال : " ويعتبر في تقليد هذه الوزارة شروط الإمامة إلا النسب وحده .. ويحتاج فيها إلى شرط زائد على شروط الإمامة ، وهو أن يكون من أهل الكفاية ، فيما وكل إليه من أمرى الحرب والخراج .. وعلى هذا الشرط مدار الوزارة وبه تنظم السياسة ، (الماوردي : الأحكام السلطانية ص ٢١ ، س ٨ - ١٤) ، كما حرص الماوردي أن يفرق بين سلطات الإمام وسلطات وزير التفويض . فقال عن وزارته : " فالنظر فيها .. بشرطين يقع الفرق بينهما بين الإمامة والوزارة ، أحدهما يختص بالوزير ، وهو مطالعة الإمام لما أمضاه من تدبير .. ، والثاني يختص بالإمام وهو أن يتصفح أفعال الوزير .. ، وكل ما صح من الإمام صح من الوزير إلا ثلاثة أشياء ، إحداها ولاية العهد ، فإن للإمام أن يعهد إلى من يرى وليس ذلك للوزير ، الثاني أن للإمام أن يستغنى الأمة من الإمامة وليس ذلك للوزير ، والثالث أن للإمام أن يعزل من قلده الوزير ، وليس للوزير أن يعزل من قلده الإمام (الماوردي : الأحكام ، ص ٢٣ - ٢٤) . فعلى هذا الأساس فإن الوضع الشرعي لوظيفة وزارة التفويض أو السلطنة كما أوضحه الماوردي لا يعنى استبداد رجال السيف من الوزراء المفوضين والسلطين بالسلطة دون الإمام ؛ كما يجعل حق ولاية العهد من حق الإمام - وهو ما لم يجزئه وزراء التفويض الفاطميين بتلاعبهم بالنص ؛ كما يجعل للإمام حق مراجعة تصرفات وزيرة وإبطالها إذا لزم الأمر . وهذا شيء لم يحدث أبداً . سواء بالعراق العباسي أو بمصر الفاطمية . وعن أحكام وزارة التفويض ، أنظر الماوردي : قوانين الوزارة وسياسة الملك ، ص ١٠ - ٣٥) . ولقد أوضح ابن خلدون بحاسته التاريخية المرفهة كيفية تحول وزارة التفويض إلى وظيفة إمرة الأمراء أو السلطنة في العصر العباسي الثاني وكون بني بويه وزراء سيف استكفوا اتخذوا ألقاب الوزراء ، فلقبوا بالسلطان . يقول ابن خلدون : " فلما جاءت دولة بني العباس .. وعظم شأن الوزير ، وصارت إليه النيابة في إنفاذ الحل والعقد .. ، فصار اسم الوزير جامعاً لخطى السيف والقلم .. ، فانقسمت الوزارة حينئذ إلى وزارة تنفيذ وهي حال ما يكون السلطان قائماً على نفسه ، وإلى وزارة تفويض وهي حال ما يكون الوزير مستبدًا عليه ، ثم استمر الإستبداد وصار الأمر للملك المعجم البويهي وتعتل رسم الخلافة ولم يكن لأولئك المتغلبين أن يتحلوا ألقاب الخلافة واستكفوا من مشاركة الوزراء في اللقب لأنهم خول لهم فسموا بالإمارة والسلطان وكان المستبد على الدولة يسمى أمير الأمراء أو بالسلطان إلى ما يحليه به الخليفة من ألقابه كما تراه في ألقابهم وتركوا اسم الوزارة إلى من يتولاها للخليفة من خاصته ، ولم يزل هذا الشأن عندهم إلى آخر دولتهم (أنظر ابن خلدون : المقدمة ، طبع المطبعة الأدبية بيروت ، ١٩٠٠ م ، ص ٢٣٨ - ٢٣٩) .

وسائل القضاء على المذهب والتراث الفاطمي بمصر والشام واليمن :

وعلى هذا النحو ، كانت أمور الدعوة الفاطمية ، عندما نجح كل من شيركوه وصلاح الدين ، فى استحواد وزارة التفيوض الفاطمية ، التى تكفل لهم سلطاتهم ، حجر الخليفة الفاطمى ، وانتزاع جميع سلطاته السياسية ، وفى نفس الوقت الهيمنة على شئون الدعوة الفاطمية : تقوَّعت النزارية الشرقية فى إيران ، تحت عنف الضربات العسكرية لسلطين السلاجقه ، وتشتت النزارية بالشام وضعف التشيع به ، نتيجة للسياسة الدينية والتعليمية لنور الدين ، بحيث لم يبق لهم إلا قلعة مصياف الذى استقر بها سنان بن سليمان بن راشد ، وامتنع فيها عن نور الدين ، وإن ظل للنزارية بالشام بعض النفوذ السياسى ، فى كبرى معاقلهم الشامية ، وهى مدينة حلب ، فى حين أدت الانقلابات العسكرية والانشقاقات المذهبية المتكررة التى واجهت الدعوة الإسماعيلية والخلافة الفاطمية بمصر ، إلى ذبذبة العقيدة الإسماعيلية ، وهى تستند فى المقام الأول ، على منصب الخلافة والطاعة «الولاية» للسلطة الروحية للإمام ، بحيث شك كثير من المصريين الذين استجابوا للدعوة الفاطمية واعتنقوها فى صحة النظريات السياسية الإسماعيلية ، ومن ثم فى صحة العقيدة الفاطمية ذاتها ، بحيث ضعف التشيع فى قلوب المصريين ، وكبار رجال الدولة الفاطمية^(١) ، مما سهل لشيركوه وصلاح الدين القضاء على الدعوة الإسماعيلية بمصر ، أما الدعوة الطيبية فى اليمن فبيدوا أنها كانت مازالت تحتفظ ببعض التماسك السياسى والمذهبى ، بحيث لجأ توارنشاه الأكبر ، أخو صلاح الدين ، إلى اللجوء إلى العنف الدموى ، للقضاء على الكيانات السياسية الإسماعيلية باليمن^(٢) . كما شتروا أيضًا المذاهب الشيعية الأخرى ، مثل الزيدية بمكة^(٣) .

ويؤكد واقع الأحداث ، أن كلاً من شيركوه وصلاح الدين قد خالفا أهم العهود والمواثيق ، التى أخذها عليهما الخليفة الفاطمى ، فى تقليده لهما بالوزارة ، فلقد أكد على كليهما ، ضرورة الإبقاء على إقطاعات أمراء الجيش الفاطمى وتوليتهم ولايات الأقاليم والإدارات المحلية بمصر ، كما جرت عادة الخلفاء الفاطميين معهم فى ذلك^(٤) . فكان أول عمل أقدم عليه شيركوه بعد استقراره

(١) أنظر مناقشة عن مدى ضعف العقيدة الإسماعيلية فى نفوس الشعب المصرى ، وفى نفوس كبار رجال الدولة الفاطمية فى نهاية العصر الفاطمى بمصر ، أنظر محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر فى العصر الأيوبى ، ص - ١٠ .

(٢) أنظر قبله . وأنظر ابن شداد : النوادر ، ص ٤٦ .

(٣) ذكر الصفدى فى ترجمة الملك المسعودا قيس بن الملك الكامل ، ت ٦٢٦ هـ ، الذى ناب عن أبيه فى حكم اليمن ومكة تسع عشر سنة أنه " قمع الخوارج باليمن ، وطرد الزيدية عن مكة . (الصفدى: الوافى ، ج ٩ ، ص ٣١٦) .

(٤) راجع ما تقدم فى فصلنا هذا .

في الوزارة ، هو إقطاع البلاد المصرية بمناشير لأمرائه الشوام^(١) ، وقد ظل إقطاع البلاد ، والإدارات المحلية بالأقاليم بمناشير إقطاعية على كبار أمراء الدولة ، من أهم مظاهر السلطنة طوال العصر الأيوبي ، خاصة عند حدوث تقلبات سياسية بعد خلع أحد السلاطين ، وتولية غيره عقب انقلاب عسكري ، إذا كان هؤلاء المقطعين بمثابة الحكام الإداريين المحليين - أي المحافظين بالمصطلح الإداري الحديث - في هذه الولايات ، خاصة المدن ذات الأهمية العسكرية الخاصة ، مثل الثغور ، التي تستلزم وجود حامية عسكرية محلية بها^(٢) ، وهذا ما قام به صلاح الدين أيضاً بعد أن صفى له الأمر في الوزارة بانسحاب الحزب المنافس له المتمثل في الأمراء التركمان المواليين لنور الدين ، وعودتهم إلى بلاد الشام ، فشرع صلاح الدين في نقض إقطاع المصريين ، فقطع منهم الدابر ، من أجل من معه من العساكر^(٣) ، ثم أقطع البلاد بمناشير إقطاعية لأفراد أسرته ، وبذلك تمت سيطرته التامة على الديار المصرية^(٤) ، كذلك أكد تقليد العاضد على كل من شيركوه وصلاح الدين رعاية شئون الجيوش الفاطمية ، التي أصبحت تحت قيادتهما المباشرة ، والسهر على توفير النفقات لهم ، وإعدادهم لفريضة الجهاد^(٥) . ورعاية خواص الدولة الفاطمية^(٦) ، ففعل صلاح الدين نقيض ما أمر به ، إذ أباد الجيش الفاطمي عن بكرة أبيه ، كما قضى على حاشية القصر^(٧) .

وفي رأى المؤرخ الشيعة ابن أبي طيء ، أن القضاء على الدعوة الفاطمية بمصر ، لم يبدأ إلا في عهد وزارة صلاح الدين ، إذ وصف فترة وزارة شيركوه بقوله : « إن أسد الدين لما ولى الوزارة ، لم يغير على أحد شيئاً ، وأجرى أصحاب مصر على قواعدهم وأمورهم إلى أن انقضت أيامه »^(٨) ، وقد أوضح ابن شداد أن صلاح الدين ، قد عمد على نشر المذهب السني بمصر ، منذ أن كان وزيراً للفاطميين ، فكان « وزير متابع للقوم ، ولكنه مقول لمذهب السنة ، غارس في أهل البلاد العلم والفقه والتصوف والدين »^(٩) . وأغلب الظن أن التكوين العلمي لصلاح الدين ، ونقاء عقيدته

-
- (١) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٤٠ ، ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ١٦٥ .
(٢) أنظر بعده . ويشبه هذا الإجراء الذي استه شيركوه ، وظل طوال العصر الأيوبي بمصر ، ما جرى عليه العرف في العصر الفاطمي عند تولي الخليفة العرش ، فكان يصدر سجلات بتجديد ولاية الولاة في الأقاليم (الشيال : مجموع الوثائق الفاطمية ، ص ٢٥) .
(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٥٠ ، ص ١٢ .
(٤) نفس المصدر ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٦٦ .
(٥) أنظر قبله .
(٦) أنظر قبله .
(٧) أنظر أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٥٠ - ٤٥٢ ، المقريزي : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢-٥ .
(٨) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٨ ، ص ١-٢ .
(٩) ابن شداد : النوادر ، ص ٤٠ - ٤١ .

السنية^(١) ، وشغفه بعلوم الحديث والسنة^(٢) ، وتعظيمه للعلماء والفقهاء من حملة الشريعة وحمايتها ، إلى جانب كراهيته للفلاسفة والمتكلمين ، سواء من المعطلة (الذين ينفون الصفات الإلهية) أو المشبهة (الذين يبتونها) أو الدهرية (القائلين بقدوم العالم) ، وهذا ما دفعه إلى الأمر بقتل الفيلسوف الصوفى الشهير السهروردي^(٣) . وإن كنا نظن أن السهروردي ، وهو من متكلمي الصوفية ، كان يطن التشيع ويدعو إليه ، شأن المتصوف الشهير الحلاج^(٤) ، فأغلب الظن أن مقتل السهروردي كان وراءه سبباً سياسياً لم يفصح عنه مؤرخي صلاح الدين ، خاصة وقد ظلت مكانة

(١) يقول ابن شداد : فى سيرة صلاح الدين ، تحت عنوان ، ذكر ما شهدناه من مواظبه على القواعد الدينية وملاحظته للأمر الشرعية " .. كان - رحمة الله عليه - حسن العقيدة كثير الذكر لله تعالى قد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث عن مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء وتفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولاً حسناً وإن لم يكن بعبارة الفقهاء فنحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه غير مارق سهم النظر فيها إلى التعطيل والتموه ، موافقة لقانون النظر الصحيح مرضية عند أكابر العلماء . وقد جمع له الشيخ الإمام قطب الدين النيسابورى عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه فى هذا الباب وكان يعلمها الصغار من أولاده لترسخ أذهانهم (ابن شداد : النوادر ، ص ٧) .

(٢) قال ابن شداد : " وكان - رحمة الله - شديد الرغبة فى سماع الحديث ، ومتى سمع عن شيخ ذى رواية عالية وسماع كثير ، فإن كان ممن يحضر عنده استحضره وسمع عليه ، فأسمع من يحضره فى ذلك المكان من أولاده وماليكه المختصين به ، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له ، وإن كان ذلك الشيخ ممن لا يترك أبواب السلاطين ويتجافى عن الحضور فى مجالسهم سعى إليه ، وسمع عليه ، تردد إلى الحافظ الأصفهاني بالإسكندرية .. وروى عنه أحاديث كثيرة ، وكان رحمة الله تعالى - يجب أن يقرأ الحديث بنفسه ، وكان يستحضرنى فى خلوته ، ويحضر شيئاً من كتب الحديث ، ويقرأها هو ، فإذا مر بحديث فيه عبرة دق قلبه ، ودمعت عينه ، (ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٩ - ١٠) .

(٣) يقول ابن شداد : " وكان - رحمة الله عليه - كثير التعظيم لشعائر الدين ، قانلاً ببعث الأجسام ونشورها ، ومجازاة المحسن بالجنة والمسيء بالنار ، مصدقاً بجميع ما وردت به الشرائع ، مفضلاً للفلاسفة والمعطلة والدهرية ومن يعاند الشريعة ، ولقد أمر ولده صاحب حلب الملك الظاهر ، أعز الله أنصاره ، بقتل شاب نشأ يقال له السهروردي ، قيل عنه أنه كان معانداً للشرائع مبطلاً ، وكان قد قبض عليه ولده المذكور لما بلغه من خبره ، وعرف السلطان به ، فأمر بقتله ، وصلبه أياماً ، فقتله " (ابن شداد : النوادر ، ص ١٠ ، ص ٣-٧) .

(٤) وصف ابن النديم المتصوف الشهير الحسين بن منصور الحلاج بأنه كان " جسوراً على السلاطين ، مرتكباً للعظائم ، يروم انقلاب الدول ، .. ويظهر مذاهب الشيعة للملوك ، ومذاهب الصوفية للعامة ، (ابن النديم : الفهرست ، ص ٢٦٩ - ٢٧٠) .

الصوفية مرموقة ومحلاً للتبجيل والاحترام من سلاطين بنى أيوب^(١) ، ومن بعدهم فى عهد تلامذتهم سلاطين المماليك^(٢) .

ولا جدال فى أنه ليس من السهل اليسير ، أن يقتلع مذهب من المذاهب ، بمجرد تغيير النظام السياسى فى بلد من البلاد ، إنما يحتاج التغيير إلى سنوات عديدة ، وإلى تدابير ليست هى من تدابير القوة والبطش فحسب^(٣) ، لذلك فالملاحظ أن صلاح الدين ، قد استخدم وسائل وأساليب عديدة ، فى سبيل القضاء على الدعوة الفاطمية بمصر ، جاءت بعض هذه الأساليب تتسم بالشدّة والعنف ، والحسم القورى المباشر ، والبعض الآخر اتخذ وسيلة الحيلة والتدرج ، واستخدم بعضها العنف العسكرى الدموى ، فى حين نهج البعض الآخر سبيل الدعوة والتعليم والإقناع ، والاستمالة عن طريق المنشآت الاجتماعية الدينية الخيرية وما يوقف عليها من أوقاف للصرف عليها .

لقد بدأ صلاح الدين بإذلال شخص الخليفة الفاطمى العاضد ، للقضاء على فكرة « الولاية » ، التى تبني عليها جميع النظريات والعقائد الإسماعيلية ، ويستمد منها الخلفاء الفاطميون قداستهم ، فأرغم الخليفة العاضد ، على الخروج بنفسه لاستقبال والده نجم الدين أيوب ، عند وصوله إلى مصر ، رغم ما جرى عليه العرف ، وحرصت عليه الرسوم الفاطمية ، من استعلاء الخليفة الفاطمى ، واحتجابه عن الناس ، لعدم ابتذاله بكثرة ظهوره أمام الناس ، ولإكسابه مسحة من القداسة والتعظيم ، بل يذكر أبو شامة ، أن العاضد قد خرج لتلقيه إلى ظاهر باب الفتوح ، ولم يجر بذلك عادة لهم ، وكان من أعجب يوم شهدته الناس^(٤) ، بل اضطر العاضد إلى مخالفة التقاليد والعرف وقواعد

(١) يقول الشيزرى فى كتابه النهج المسلك فى سياسة الملوك الذى ألفه لصلاح الدين فى الباب العشرون ، الذى عنوانه فى الحث على استماع المواعظ وقبولها من النساك : " أعلم أن استيلاء الدنيا على الملوك وإقبالها عليهم ، ربما شغلهم عن أمر الآخرة وأغفلتهم عن مهمات الدين ، فيجنحون إلى اللذات ، ويهملون أمر الديانات ، لأن النفوس مطبوعة على الميل إلى الترف وإتار التمتع وكراهة التكليف فلا ينبغي أن تخلو مجالسهم من علماء الدين ، وصلاحاء المسلمين ، لينبئهم عند طرق الغفلة ، ويذكروهم عند حرارة الشهوة ، ويوضحوا لهم نهج الآخرة ومعالم الشريعة ، وقد كان شعار الملوك العارفين والخلفاء الراشدين أن يدعوا إلى مجالسهم الحكماء ، ويتخلوا لاستماع مواعظ العلماء (الشيزرى : النهج المسلك ص ١١٧ - ١١٨) .

(٢) بلغ احترام سلاطين المماليك لشيوخ الصوفية حدًا كبيرًا جعل هؤلاء الصوفية يتناولون أحيانًا على السلاطين ، وهذا ما استكفه الفقيه ابن جماعة ، فأوضح أن احترام السلاطين وتعظيمهم من واجبات الرعية على السلاطين ثم قال : وما يفعله بعض المنتسبين إلى الزهد من قلة الأدب معهم بخلاف السنة (انظر ابن جماعة : تحرير الأحكام ، خ ، ورقة ١٤ - ١٥) .

(٣) محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين ، ص ١٠ .

(٤) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٦٦ ، س ٥ - ٦ .

ورسوم الدولة ، فمنح والد صلاح الدين ألقاب وزراء السيوف ، إذ خلع عليه ، ولقبه الملك الأفضل ، وحمل إليه من القصر الألفاظ والتحف والهدايا^(١) ، ثم ما فتىء صلاح الدين ، يعمل على الاستهانة بالخليفة ، وابتدال مكانته الروحية بين أتباعه وأنصار دولته ، فأخذ يستولى على موجوداته وممتلكاته الشخصية ويخوله ، بحجة شدة الحاجة إليها في أمور الجهاد ، حتى أن الخليفة في آخر الأمر ، عرض على صلاح الدين أن يتنازل له عن فرسه الخاص الذى لا يملك غيره ، فأجاب صلاح الدين بالاعتذار عن الحاجة^(٢) . ولا يخفى أن هذا الابتدال المتكرر المتعمد الموجه للخليفة ، للاستهانة به أمام رعيته ، كان يهدف أيضًا إلى إجبار الخليفة على الاعتزال ، وتجنب الظهور فى المناسبات العامة ، حتى ينساه المصريون .

والغريب أن صلاح الدين قد أخذ فى إمضاء وتنفيذ أهم وسيلة تدريجية تعليمية للقضاء على الدعوة الإسماعيلية بمصر ، وهى المدارس المذهبية السنية ، التى كانت هى السبب الأول فى تحول الشيعة فى مصر إلى رأى الجماعة والسنة^(٣) . وهو من الناحية الرسمية لايزال وزير تفويض فاطمى^(٤) . من المفروض أن يعمل على نشر الدعوة الإسماعيلية ورعاية شئونها ، لكونه « داعى الدعاه ، وقاضى القضاء » ، المفوض من قبل الخليفة الفاطمى^(٥) .

ويفيدنا الأديب المغربي ، ركن الدين الوهرانى ، وقد عاصر قيام الدولة الأيوبية بمصر : إن نجم الدين أيوب والد صلاح الدين ، هو الذى حضه على سرعة إنشاء هذه « المدارس » السنية بمصر ، فور قدومه عليه من بلاد الشام ، وأنه قد باشر بنفسه الإشراف على إنشاء هذه المدارس : بالإضافة إلى تنظيمه « لمجالس » أغلب الظن أنها مجالس للوعظ الصوفى ، - وهى إحدى وسائل نشر المذهب الأشعرى - كما قام نجم الدين أيوب بإنشاء « الزوايا » فى مشاهد كبار أئمة السنة وآل البيت المدفونين بمصر ، وأيضًا أشرف بنفسه على بناء عدد من المساجد^(٦) .

(١) نفس المصدر ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٦٦ ، س ٦ - ٧ .

(٢) نفس المصدر ، ج ١ ، ق ٢ ، ص .

(٣) محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين ، ص ٢٨ .

(٤) أنظر ابن شداد : النوادر ، ص ٤٠ - ٤١ ، وانظر قبله .

(٥) أنظر قبله .

(٦) نورد نص الوهرانى لأهميته الشديدة ، لكونه معاصر لقيام الدولة الأيوبية ، ولأنه لم يستفد منه من قبل ، فيقول الوهرانى : " ولما وصل الملك الأفضل نجم الدين أيوب أبو السلطان ، انزع به حزب الشيطان ، ورد الناس إلى الأوطان ، ففتح الله به أبواب الجنة ورفع بيركته منار السنة ، فأحدث المدارس ، و " المجالس " وشيد المساجد والمشاهد وتفجرت يمينه بالنفقات حتى عم أهل الأرض بالصدقات وجعل قبر الإمام محمد بن إدريس " زاوية " للفقه والتدريس فقويت به عرى الإسلام ، واشتد به دين سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام (الوهرانى : المنامات والمقامات ، ص ١٣ - ١٤) .

وأغلب الظن أن قدوم والد صلاح الدين من الشام ، كان بتكليف من نور الدين ، ليشرف بنفسه وهو الشيخ المنحك ، على إبطال الشعائر الشيعية من مصر ، وإظهار شعار أهل السنة بها ، إذ تجمع المصادر أن صلاح الدين كان متردداً في قطع الخطبة للفاطميين ، وأنه لم يقدم على هذا العمل رغم إلحاح نور الدين المتكرر ، إلا بعد قدوم والده ، الذى أشرف بنفسه على هذا العمل ، بعد أن حرص صلاح الدين ، أن يبدو وكأنه لم يأمر هو بهذا ، خشية انتقاص المصريين وثورتهم ، ولتخلص من هذا العمل الخطير إذا لزم الأمر^(١) . ولقد أفادنا ركن الدين الوهرانى أيضاً ، أن نجم الدين أيوب ، قد مهد لقطع الخطبة لخلفاء بنى العباس ، بعدة إجراءات تمهيدية ، أهمها التصريح بأسماء الصحابة العشرة المبشرين بالجنة والدعاء لهم على المنابر ، وهو أمر مخالف للشعائر الإسماعيلية ، وذلك لكي تبدأ أذهان المصريين فى تقبل اختفاء الشعائر الإسماعيلية رويداً رويداً ، ثم صلى نجم الدين الجمعة أربعة ركعات لعدم اكتمال العدد اللازم لإقامتها جماعة ركعتين ، ثم صرح أخيراً بقطع الخطبة للفاطميين والخطبة لبنى العباس ، بحيث نظر العالم الإسلامى ، لهذا الانتصار السنى الحاسم ، على أنه قد تم على يد « بنى شادى » وليس على يد صلاح الدين فقط ، لكون والده ، هو الذى باشر هذا الأمر بنفسه^(٢) .

(١) عن قطع الخطبة للعاقد فى الفتح سنة ٥٦٧ ، أنظر أبو شامة : الروضتين ، ح ١ ، ق ٢ ، ص ٤٩٢ - ٤٩٣ ، ٤٩٦ ، ٤٩٩ - ٥٠١ وأنظر قبله وبعده .

(٢) وكما أسند الوهرانى لنجم الدين أيوب ، فضل إنشاء المنشآت السنية بمصر ، لرفع منار السنة ، أسند إليه أيضاً فضل قطع الخطبة الفاطمية فى مصر ، فيقول الوهرانى فى نص هام آخر : " وصلى الملك الزاهد ، والبطل المجاهد ، نجم الدين وسيف المجاهدين ، أول جمعة صلاحها أربعاً ، ولم يجد فيها للسنة مجمعاً ، فصعب عليه تبديل هذا الفصل وإسقاط ذلك الأصل ، فأقبل يمهد القواعد ويهبها ، ويحمد البدع ويخفيها ، حتى كمل الإسلام ، وتم دين النبى عليه السلام ، وأتى البيت من بابه ، ورد الأمر إلى أربابه أجراً ساقه الله إليه ، وفتحاً ميبناً قضى به على يديه . فأمر بذكر العشرة الكرام البررة ، وصرح بأسمائهم على المنابر .. ثم خرج من الشك والإلباس ، ودعا للأنمة من بنى العباس ، لعلمه أنه لا يتم الإيمان إلا بولايتهم ، ولا تحسن المنابر إلا بسواد رايتهم ، ولكونه قد غدى بلبانهم ، ونشأ فى إحسانهم ، فحصل بنو شادى على الرتبة الفاخرة .. وفاضوا بنعيم الدنيا وثواب الآخرة ، فسار ذكركم فى الأقطار . (الوهرانى : المنامات والمقامات ، ص ٦ ، س ١ - ٩) . ولقد أيد المؤرخ الشيعى بن أبى طىء ، ما ذهب إليه الوهرانى من أن نجم الدين أيوب هو الذى قطع الخطبة بأمر نور الدين ، قال أبو شامة : قال ابن أبى طىء الحلبى : قد قدمنا ذكر مكاتبة نور الدين وإلحاحه على صلاح الدين فى إقامة الخطبة بمصر للعباسيين ، وأنه أنفذ إليه أباه الأمير نجم الدين أيوب لأجل ذلك لما كتب الخليفة المستجد ألى نور الدين فى ذلك . راجع هذا النص الهام ، ورواية طويلة لابن أبى طىء ، توضح تدرج نجم الدين أيوب فى قطع الخطبة وأن هذا الأمر دام على مدى جمعيتين كاملتين وأنه بدأ بإبطال الأذان بـ " حتى على خير العمل " ، أنظر أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٩٨ - ٤٩٩ .

وإلى جانب هذه الوسائل التدريجية التي استخدمها الأيوبيون للقضاء على المذهب الإسماعيلي بمصر ، استخدم الأيوبيون في نفس الوقت . وسائلًا سياسية اتسمت بالحسم والقرورية ، وتميز بعضها بالشدّة والعنف ، وذلك للقضاء على بقايا الوجود السياسي للفاطميين وأنصارهم بمصر والشام .

وكان أول إجراء حاسم ، أمضاه صلاح الدين ، في سنة ٥٦٦هـ - ١١٧٠م ، إذ نجحنا المؤرخ الشيعي ابن أبي طي ؛ ، أنه « أمر في هذه السنة بتغيير شعار الإسماعيلية ، وقطع من الأذان حتى على خير العمل ، وشرع في تمهيد أسباب الخطبة لبني العباس »^(١) ، وفي افتتاح سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م ، تم قطع الخطبة للخليفة العاضد ، وخطب خلفاء بني العباس ، بعد أن تزيى الخطيب بلباس السواد شعار العباسيين^(٢) ، ثم جعل صلاح الدين من شعار السواد زيًا رسميًا للخطباء والقضاء بمصر^(٣) ، والملاحظ أن الخطبة للعباسيين قد تمت بالإسكندرية قبل القاهرة ومصر بنحو إسبوعين^(٤) . وذلك لأنها ظلت على المذهب السني طوال العصر الفاطمي^(٥) ، ويصور لنا المؤرخ الشيعي ابن أبي طي الحلبي ، رد فعل قطع الخطبة الفاطمية من مصر ، تصويرًا مبالغ فيه يوحي بوقوع اضطهاد عنيف لاتباع الدعوة الإسماعيلية ، ويوهم بأن أكثر أهل مصر كانوا من أنصار الدعوة الإسماعيلية ؛ بحيث هاجر عدد كبير منهم من مصر^(٦) .

(١) نفس المرجع ، ص ٤٨٨ ويقول ابن أبيك الدواداري في حوادث ٥٦٧هـ ، وفيها بطل الأذان بحى على خير العمل وعاد لما عليه أولاً ، واستمر للآن (الدرر ، ص ٤٩) .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٩٢ - ٤٩٣ ، ص ٤٩٦ - ٤٩٩ . يقول ابن أبيك الدواداري أن صلاح الدين خلع العاضد من الخلافة بفتاوى الأئمة والفقهاء ، الدرر المطلوب ، ص ٤٧ ، وذكر أن أكثر الفقهاء مبالغة في الفتيا وتصميمًا على زوال أمر العاضد كان فقيه صوفى اسمه الخبوشاني وهو كما سبق القول اعتمادًا على نقوش الإمام الشافعي ، فقيه أشعري سنى كان أول من تولى التدريس بمدرسة قبة الشافعي وهي أول مدرسة سنية أنشأها الأيوبيون في مصر .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٦ ، ابن جبير ، الرحلة ، ص ٢٤ - ٢٥ ، أنظر قبله .

(٤) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٥٠٤ ، حيث يقول أبو شامة : قال العماد فى ديوانه ونقلته من خطه ، قال : ووصل الخبر بأن الخطبة قامت فى الإسكندرية يوم الجمعة سابع شهر رمضان وفى مصر والقاهرة يوم الجمعة ثامن عشرى شهر رمضان لمولانا الإمام المستضىء بأمر الله أمير المؤمنين وإقامته شعار بنى العباس بيا .

(٥) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٦ ، س ١ ، وأنظر قبله .

(٦) قال ابن أبي طي : " ولما قطعت خطبة العاضد استطال أهل السنة على الإسماعيلية ، وتبعوهم واذكروهم ، وصاروا لا يقدرّون على الظهور من دورهم ، وإذا وجد أحد من الأتراك - المقصود أمراء صلاح الدين - ، مصريًا (أى إسماعيليًا فاطميًا) أخذ ثيابه ، وعظمت الأذية بذلك وجلا أكثر أهل مصر عنها إلى البلاد وفرح الناس بذلك وكتب الكتب به إلى الأقطار وتحدث به السمار ، (أبو شامة : الروضتين ، ١ / ٢ ، ص ٥٠١) .

وفى نفس هذه السنة عمد صلاح الدين إلى تغيير رسوم الدولة الفاطمية^(١)، ذلك لأن الفاطميين كانوا قد طبعوا بلاطهم الملكى وقصورهم بطابعهم المذهبى الخاص^(٢)، وكانوا يتخذون من حفلاتهم الرسمية مناسبة لتأكيد عقيدتهم بحيث صبغوا حفلاتهم بطابع شيعى مذهبى، كان دليلاً على طابع دولتهم المميز^(٣).

ثم وضع صلاح الدين من مكانة قصر الخلافة الفاطمية، بأن أسكن فيه أمراء دولته الأكراد^(٤)، وكان هذا العمل تأكيداً لسقوط الدولة الفاطمية من مصر، إذ ظلت الدولة الفاطمية تعرف طوال عصور ازدهارها « بالدولة القصرية »^(٥)، نسبة لسكنى خلفاء الفواطم لقصور عاصمتهم القاهرة، ففى سنة ٥٦٦هـ - ١١٧٠ م، قبض صلاح الدين على القصور الفاطمية وسلمها لمملوكه قراقوش الخادم^(٦)، ثم أسكنها جنوده وأهله وأسكن أباه بقصر اللؤلؤة على الخليج؛ ولقد علق ابن أبى طى على هذا بقوله « وانقضت تلك الدولة برمتها، وذهبت تلك الأيام بجملتها، بعد أن كانوا قد احتلوا على البلاد، واستخدموا العباد مائتين وثمانين سنة وكسوراً »^(٧)، وينقل المقرئى عن ميامات القاضى الفاضل أنه فى ربيع الآخر سنة ٥٦٧هـ - ١١٧١ م، كشف حاصل الخزائن الخاصة بالقصر وكان الكاشف بهاء الدين قراقوش، وأخلت أمكنة من القصر الغربى سكن بها أمراء صلاح الدين، ويعلق القاضى الفاضل عن هذا بقوله « ومِلت المناظر المصونة عن الناظر والمنتزهات التى لم يختر ابتدالها فى الخاطر، فسبحان مظهر العجائب ومحدثها، ووارث الأرض ومورثها »^(٨).

(١) المقرئى : الخطط ، ج ٤ ص ٢٧٣ ، س ١٦ - ١٧ حيث يقول : " لما استبد الناصر صلاح الدين .. بملك مصر بعد وفاة العاضد غير رسوم الدولة الفاطمية ووضع من قصر الخلافة ، وأسكن فيه أمراء دولته الأكراد .

(٢) ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، ج ٢ ، ص ٩ .

(٣) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٤٢ - ٤٣ .

(٤) المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٧٣ ، س ١٧ - ١٨ .

(٥) القفطى : أنباه الرواه على أنباه النحاه تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، ج ٢ ، ص ٩٥ س ٧ ، وهو يسميها فى موضع آخر " الدولة العلوية القصرية ، نفس المصدر ج ٢ ، ص ٧٣ ، س ٨ ، وهو يسمي الفاطميين فى موضع ثالث " المصرين " أنظر نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢١٩ - ٢٢١ والمعروف أن القفطى عاصر سقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية وعمل وزيراً للأيوبيين بالشام ، أنظر بعده .

(٦) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٨٨ .

(٧) نفس المصدر ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٧ .

(٨) المقرئى : الخطط ، ج ٢ : ٣٩٤ - ٣٩٦ .

ولقد رثى القصور الفاطمية ، رثاءً مبدعاً ، الشاعر عمارة اليمنى ، الذى ظل رغم كونه شافعي سني ، على وده للفاطميين ، إخلاصاً لذكرى خلفائهم ، الذين أحسنوا إليه أبان إزدهار دولتهم ، فوقف يصف أطلال قصورهم ويكى من بناها قائلاً ضمن قصيدة الشهيرة التى مطلعها : « رمت يا دهر كَفَّ المجد بالشلل » ، .. يقول :

بالله زر ساحة القصرين وابكى معي	عليهما لا على صفين والجميل
وقل لاهلهما : والله ما التحمت	فيكم قروحي ، ولا جرحى بمندمل
مررت بالقصر والأركان خالية	من الوفود وكانت قبلة القبل
فملت عنها بوجهي خوف متقد	من الأعداى ووجه الود لم عمل
أسبلت من أسف دمعى غداة خلعت	أرجانكم وغدة مهجورة السبل ^(١)

ولقد سكن القصور الفاطمية الملك العادل إبان نيابته للسلطة بمصر عن أخيه صلاح الدين^(٢) .

وعمد صلاح الدين إلى الآلات الملوكية الفاطمية ، وكنوز القصر الفاطمي ، فعمل على إفسادها^(٣) ، وأهدى بعضها إلى نور الدين زنكى^(٤) ، والبعض الآخر إلى الخليفة العباسي^(٥) ، ثم طرح باقيها للبيع ، بحيث دام البيع فيها مدة عشر سنين ، وتنقلت إلى البلاد بأيدى المسافرين الواردين والصادر^(٦)ين .

وتحول إلى كتب الدعوة الإسماعيلية ، التى احتوت عليها مكتبة القصر الفاطمي ، فأحرقها ، وألقاها على جبل المقطم ، بحيث صارت تعرف بكيمان الكتب ، ثم فرق الكتب غير المذهبية التى صودرت من مكتبة القصر ، على كبار علماء وأنصار دولته ، مثل العماد الأصفهاني والقاضي

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٧٠ .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٨ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٦ ، نقلاً عن ابن أبي طيء .

(٤) نفس المصدر ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٢٤ - ٥٢٥ ، ٥٢٦ - ٥٢٧ ، ٥٥٦ - ٥٥٩ .

(٥) نفس المصدر ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٩٥ .

(٦) نفس المصدر ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٨ - ٥٠٩ ، المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٩٤ ، نقلاً عن

مياومات القاضي الفاضل .

الفاضل ، وأبى شامة الأصفهاني^(١) ، مما يؤكد أن هدف صلاح الدين ، كان إحراق كتب الدعوة فقط ، لترويجها للقضية السياسية التي ينادى بها خلفاء الفاطميين .

وفي رأينا أن إحراق مكتبة القصر الفاطمي ، لم يكن خطأ كبيراً وجريمة ثقافية ، من جانب صلاح الدين كما ذهب البعض^(٢) ، بل هو عمل مقصود ، استهدف القضاء على كتب الدعوة الإسماعيلية فقط ، والحقيقة أن إحراق كتب الدعوة الإسماعيلية بمصر يذكرنا بإقدام الخليفة العباسي القادر بالله ، والسلطان السني محمود بن سبكتكين الغزنوي ، على إحراق كتب الرافضة (الشيعة) والمعتزلة والمتكلمين ، في بلاد الرى والعراق وخراسان في سنتي ٤٠٨هـ - ١٠١٧م و ٤٢٠هـ / ١٠٢٩م ، واستابتهم عن المناظرة في مذاهبهم^(٣) ، ولا ريب أن كتب الدعوة الإسماعيلية ، كانت من أهم وسائل التأثير التي يتخذها دعاة الفاطميين للترويج لدعوتهم ؛ بحيث أقدم المؤيد في الدين الشيرازي ، داعي دعاة الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ، على تهريب كتب الدعوة الإسماعيلية من مصر ؛ حين شهد الضعف السياسي الذي تردى فيه خلفاء الفاطميين ، ثم أرسلها على يد القاضي اليمنى لملك بن مالك ، ليحفظها أنصار الدعوة الإسماعيلية باليمن والهند^(٤) . فكان كأنه يقرأ لوح العيوب ، إذ أحرق صلاح الدين كتب الدعوة بمكتبة القصر الفاطمي ، وقامت السلطات الأيوبية بالشام بإحراق كتب الإسماعيلية والمعتزلة والقدرية والمتكلمين ، والقبض على كل من يضبط

(١) راجع أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٦٨٦ - ٦٨٧ ، المقرئزي : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٩٧ حيث يذكر عن القاضي الفاضل ، أنه وقف مكتبته وكانت مائة ألف مجلد على مدرسته المعروفة بالمدرسة الأفضلية ، وأنها ظلت بها إلى سنة ٦٩٤هـ حيث حدث الغلاء ، فكان طلبة المدرسة يبيعون كل جزء منها برغيف . ثم تداولت أيدي الفقهاء عليها بالغايرة ففرقت ولكن يبدو أن عدداً ضخماً آخر من كتب مكتبة القصر الفاطمي التي آلت إلى القاضي الفاضل ، قد انتقلت بعد وفاته إلى المكتبة السلطانية الأيوبية بالقلعة ، فيقول المقرئزي : في حوادث سنة ٦٢٦هـ " وفيها وقعت الحوطة على دار القاضي الأشرف أحمد ابن القاضي الفاضل وحملت خزائن الكتب جميعها إلى قلعة الجبل وجملة الكتب ثمانية وستون ألف مجلد وحمل من داره خشب خزائن الكتب مفصلة وحملها تسعة وأربعون جلاً وكانت الجمال التي حملت الكتب تسعة وخمسون جلاً . ثلاث دفعات (السلوك : ج ١ ص ٢٣٢) وبعد عدة شهور حملت الكتب والخزائن من القلعة إلى دار الفاضل وقيل أن عدتها أحد عشر ألف كتاب وثمانمائة وثمانية كتب منها كتاب الألبك والغصون لأبي العلاء المعري ، في ستين مجلداً (السلوك ، ١ : ٢٣٣) .

(٢) أنظر الشيال : مصر الإسلامية ، ص ٤٩ .

(٣) أنظر ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٧ ، ص ٢٨٧ ، ج ٨ ، ص ٣٨ - ٤٠ .

(٤) المؤيد في الدين الشيرازي : ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاه ، تقديم وتحقيق محمد كامل حسين ، دار الكاتب المصري ، ١٩٤٩ ، ص ١٨٥ ، وأنظر أيضاً ص ٤٩ ، و ص ١١ وهي مقدمة المحقق .

فى منزله شىء منها^(١) ، بحيث لم يتبق من كتب الدعوة الإسماعيلية التى وصلنا إلا الكتب التى احتفظ بها أنصار الفاطميين باليمن والهند^(٢) . بعد سقوط دولتهم بمصر ، وإن وصلنا بعض الكتب الأدبية الخزانة برسم ماكتبه القصر الفاطمى^(٣) .

ولم يغب عن فكر صلاح الدين ، أثر الأعياد المذهبية للشيعة^(٤) ، فى الترويج لمذهبهم وترسيخ معتقداتهم فى نفوس المصريين ، فألقى جميع الأعياد المذهبية للفاطميين لما أدى إلى إنقراضها من مصر منذ ذلك الوقت ؛ وبحيث سياسى شديد ، عمل الأيوبيون على مسح أشهر الأعياد الشيعية ، المقترنة بأولى مآسى الشيعة الطالبين ومقاتلهم فى سبيل خروجهم بطلب الخلافة ، وأعنى عيد عاشوراء ، الذى كان يعبر فيه الشيعة عن حزنهم الشديد بمقتل الحسين فى كربلاء ، وكان يحتفل به فى العاشر من محرم من كل سنة ، بحيث أصبح يوم عاشوراء ، عيداً بهيجاً طوال العصرين الأيوبي^(٥)

(١) ضياء الدين بن الأثير : رسائله ، نشر المقدسى ، ص ١٤٠ ، س ١٧ - ٢١ ، وهى ضمن سجل تقليد لمحتسب أيوبى بالشام ، وأنظر قبله .

(٢) محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ، ص ٤٥ - ٦٥ ، ولقد صورت ، بعثة دار الكتب المصرية إلى اليمن سنة ١٩٥١م و ١٩٦١م عدداً من كتب الدعوة الإسماعيلية وكتب المعتزلة التى احتفظ بها الشيعة الزيدية باليمن ، للتقارب الفكرى والعقائدى بينهم وبين كل من المعتزلة والإسماعيلية وما اعتر به أن والدى المرحوم الأستاذ فؤاد سيد رئيس قسم المخطوطات الأسبق بدار الكتب المصرية ، كان عضواً بهاتين البعثتين .

(٣) أنظر كتاب النوادر والتعليقات ، لأبى على الهجرى ، الذى حقق أخيراً فى العراق سنة ١٩٨٠م إذ اعتمد فى تحقيقه على نسخة قديمة خزائنية برسم خزانة الخلفاء الفاطميين .

(٤) عن هذه الأعياد المذهبية للفاطميين أنظر ماجد : نظم الفاطميين وسومهم فى مصر ، ج ١ ، ص ١٢٥ - ١٣١ وأهمها عيد الغدير ، فى ١٨ ذى الحجة ، وهو ذكرى وصاية النبى لعلى فى موضع يسمى غدِير خم ، وعيد عاشوراء ، وهو ذكرى مقتل الحسين بكربلاء فى ١٠ محرم .

(٥) عن الرسوم الخزانة ليوم عاشوراء فى عهد الفاطميين ، أنظر المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ٢٨٩ - ٢٩١ ، وعن الرسوم البهيجة ليوم عاشوراء فى عهد الأيوبيين والمماليك ، أنظر أيضاً المقرئى : الخطط ، ج ٢ ص ٣٨٥ حيث يقول تحت عنوان (يوم عاشوراء) " كانوا يتخذونه يوم حزن ، تعطل فيه الأسواق ، ويعمل فيه السماط العظيم المسمى سماط الحزن .. وكان يصل إلى الناس منه شىء كثير ، فلما زالت الدولة اتخذ الملوك من بنى أيوب يوم عاشوراء يوم سرور ، يوسعون فيه على عيالهم ، ويتسبطون فى المطاعم ، ويصنعون الحلوات ، ويتخذون الأواني الجديدة ، ويكتحلون ويدخلون الحمام جرياً على عادة أهل الشام التى سنها لهم الحجاج فى أيام عبد الملك بن مروان ، ليرغموا بذلك آتاف شيعة على بن أبى طالب ، كرم الله وجهه ، الذين يتخذون يوم عاشوراء يوم عزاء ، وحزن فيه على الحسين ابن على ، لأنه قتل فيه ، وقد أدركنا بقايا مما عمله بنو أيوب من اتخاذ يوم عاشوراء ، يوم سرور وتبسط ، وكلا الفعلين غير جيد ، والصواب ترك ذلك ، والافتداء بفعل السلف فقط . (المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٨٥) .

والماليكي^(١) ، وعلى هذا النحو وصل إلينا موسم عاشوراء ، واقترن بصنع أطباق الحلوى من حبوب القمح ، رغم أن هذا الاحتفال البهيج بعاشوراء ، كان في الأصل وسيلة يلجأ إليها أعداء الشيعة في مصر الأيوبية ، لإغاظة بقايا المتشيعين للفاطميين بمصر^(٢) ، والطريف أن عيد عاشوراء ، ظل يحتفل به احتفالاً حزيناً بالعراق العباسي حتى بعد سقوط الخلافة الفاطمية بمصر^(٣) .

(١) أوضح المقسر والمؤرخ والفقهاء الحافظ ابن كثير ، أن أصل الرسوم الحزينة التي اتخذها الفاطميون لعيد عاشوراء يرجع أول ظهورها إلى ملوك بني بويه الشيعة بالعراق ، أما الرسوم البهيجة التي اتخذها الأيوبيون ليوم عاشوراء ، فيرجع أول ظهورها إلى الأمويين والنواصب (أعداء الشيعة) في العصر الأموي : فيقول ابن كثير : " وقد أسرف الرافضة في دولة بني بويه في حدود الأربعمئة وما حولها ، فكانت الدبادب تضرب ببغداد ونحوها من البلاد في يوم عاشوراء . ويذر الرماد والتبن في الطرقات والأسواق ، وتعلق المسوح على الدكاكين ، ويظهر الناس الحزن والبكاء ، وكثير منهم لا يشرب الماء ليلتين ، موافقة للحسين لأنه قتل عطشاناً . ثم تخرج النساء حاسرات عن وجوههن ، ينحن ويلظمن وجوههن وصدورهن ، حافيات في الأسواق إلى غير ذلك من البدع الشيعة .. وإنما يريدون بهذا وأشباهه ، أن يشنعوا على دولة بني أمية ، لأنه قتل في دولتهم . وقد عاكس الرافضة والشيعة يوم عاشوراء ، النواصب من أهل الشام ، فكانوا إلى يوم عاشوراء ، يطبخون الحبوب ويفتسلون ويتطيبون ، ويلبسون أفخر ثيابهم ، ويتخذون ذلك اليوم عيداً ، يصنعون فيه أنواع الأطعمة ، ويظهرون السرور والفرح ، يرون بذلك عناد الدوافض ومعكستهم . راجع ابن كثير : استشهاد الحسين ، طبع بمطبعة المدني ، بتحقيق محمد جميل غازي ، القاهرة ١٣٩٧هـ ، ص ١٣٠ - ١٣٣ ، وعن رسوم بني بويه والفاطميين في عاشوراء وتفنيدهم الفقيه السني ابن تيمية لها : أنظر ابن تيمية : رأس الحسين ، طبع في ذيل كتاب استشهاد الحسين لابن كثير ، وانظر على الخصوص ، ص ١٦٨ - ١٦٩ . كذلك تتبع ابن تيمية ، أصل التناقض في الاحتفال بيوم عاشوراء عند الشيعة والمعادين لهم في رسالة ألفها بعنوان : " سؤال في يزيد بن معاوية ، نشرت بتحقيق صلاح الدين المنجد ، الطبعة الثالثة ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م ، ص ١٧ - ١٩ ، حيث يقول ابن تيمية : " .. كان بالعراق طائفتان : طائفة من النواصب تبغض علياً وتشتمه ، وكان منهم الحجاج بن يوسف ، وطائفة من الشيعة ، تظهر موالة أهل البيت ، منهم المختار ابن عبيد الثقفي .. ، فصار النواصب والروافض يحتفلون بيوم عاشوراء ، هؤلاء يتخذونه يوم ماتم وندب ونياحة ، وهؤلاء يتخذونه يوم عيد وفرح وسروراً ، وكل ذلك بدعة وضلالة .. وليس في دين الإسلام أن يجعلوا يوم قتل أحد مأتماً وكذلك اتخذاه عيداً بدعة .. والجدير بالالتفات أن يوم عاشوراء كان عيداً دينياً أيضاً عند العرب في الجاهلية ، أنظر ابن حجر العسقلاني : فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، طبعة الحلبي ، ج ٥ ، ص ١٤٧ - ١٥٣ .

(٢) محمد كامل حسين : دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ، ص ٣٥ .

(٣) حدث ذلك سنة ٥٧٢هـ ، نتيجة لتشييع أهل حى الكرخ الشيعة ، راجع تفاصيل هذا الاحتفال الشيعي

في العراق العباسي عند سبط ابن الجوزي : مرآة ج : ٣٨١ - ٣٨٧ .

واستكمالاً لهذه الخطوة ، أقدم الأيوبيون على صبغ الأعياد والمواسم الدينية بمصر ، بصبغة سنية ، بقيت إلى اليوم في جميع احتفالاتنا الدينية ، واهتم الأيوبيون اهتماماً خاصاً بذكرى المولد النبوي^(١) . وذلك لتعويض المصريين ، ما تعودوا عليه وافتقدوه من الأعياد الشيعية المرتبطة بآل البيت النبوي ، وأهمها عيد عاشوراء . وأغلب الظن أن الاحتفال بالمولد النبوي ، على النحو الذي نقيمه اليوم من نصب السراذقات والقباب والخيام في الساحات ، وملئها بأنواع الألعاب المختلفة ، وأنواع الحلوى ، يرجع أول ظهوره بمصر على هذه الهيئة إلى العصر الأيوبي وإن كان الفاطميين هم أول من أحدثوه بمصر ، ويدوا أن الأيوبيين قد استعاروا رسوم الاحتفال بالمولد النبوي ، عن مظفر الدين كوكبرى ، صاحب أربل ، وهو حاكم إسلامي تركماني ، توارثت أسرته حكم مدينة أربل ، وهي إحدى عواصم إقليم الجزيرة الفراتية ، إذ وجه هذا الحاكم - وكان معاصراً لصالح الدين ، وتابعا له - اهتماماً كبيراً بالاحتفال بالمولد النبوي^(٢) ، ويبدو أن منذ العصر الأيوبي وخلال العصرين المماليكي والعثماني ، اشتهر نظم الشعراء لأحداث المولد النبوي شعراً في قصيدة تعرف بـ «المولد» وتشهد عند الاحتفال بهذه الذكرى الدينية الكريمة^(٣) .

(١) راجع تعداد القلقشندى لأعياد المسلمين ، في صبح الأعشى ، ج ٢ : ٤١٦ - ٤١٧ . أحمد تيمور باشا : التذكرة التيمورية ، ص ٣٩٠ - ٣٩١ .

(٢) يقول ابن خلكان في ترجمة مظفر الدين كوكبرى : " وأما احتفاله بمولد النبي " (صلى الله عليه وسلم) ، فإن الوصف يقتصر عن الإحاطة به ، لكن نذكر طرفاً منه : وهو أن أهل البلاد ، كانوا قد سعوا بحسن اعتماده فيه ، فكان في كل سنة ، يصل إليه من البلاد القريبة من أربل ، مثل بغداد والموصل والجزيرة وسنجار ونصيبين وبلاد العجم وتلك النواحي - خلق كثير من الفقهاء والصوفية والوعاظ والقراء والشعراء ولايزالوا يتواصلون من المحرم إلى أوائل شهر ربيع الأول ، ويتقدم مظفر الدين بنصب قباب من الخشب ، كل قبة أربع وخمس طبقات ، ويعمل مقدار عشرين قبة وأكثر ، منها قبة له ، والباقي للأمرء وأعيان دولته لكل واحد قبة ، فإذا كان أول صفر ، ذينوا تلك القباب بأنواع الزينة الفاخرة المستجملة ، وقعد في كل قبة جوق من المغاني ، وجوق من أرباب الخيال ومن أصحاب الملاهي ، ولم يتركوا طبقة من تلك الطباق في كل قبة ، حتى رتبوا فيها جوقاً ، وتبطل معاش الناس في تلك المدة وما يبقى لهم شغل إلا التفرج والدوران عليهم ، (ابن خلكان : وفيات ج ٤ ، ص ١١٧ - ١١٨) ، وبعد أن يصف ابن خلكان بالتفصيل رسوم اشتراك مظفر الدين كوكبرى وأمرء دولته وصوفيه الخوانق بمدينة أربل في الاحتفال بالمولد النبوي (أنظر ابن خلكان ، وفيات ج ٤ ص ١١٨ - ١١٩) وهي تفاصيل شيقة جداً ، يقول ابن خلكان : وقد ذكرت في ترجمة الحافظ أبي الخطاب ابن دحية ، وصوله إلى أربل ، وعمله لكتاب : التنوير في مولد السراج المنير ، لما رأى من اهتمام مظفر الدين به وأنه أعطاه ألف دينار ، كما وصف ابن خلكان مظفر الدين كوكبرى بأنه شديد الميل إلى أهل السنة والجماعة ، وأنظر أيضاً ترجمة مظفر الدين كوكبرى ودخوله في طاعة صلاح الدين الأيوبي ومنتشاته الاجتماعية ورسوم احتفالاته بالمولد النبوي ، عند سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ : ٦٨٠ - ٦٨٣ .

(٣) عن المؤلفات والقصائد المؤلفة بعنوان " المولد النبوي " أنظر حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون ، طبع استانبول ، ج ٢ ، ص ١٩١٠ - ١٩١١ .

ولاشك أن اقترن بمحو الرسوم الفاطمية من مصر ، أبطال التعامل بالعملات الفاطمية ، خاصة وأنها كانت تحمل نقش العقيدة الفاطمية المؤيدة لحقهم في الخلافة « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، على ولي الله » وكما أنها كانت تحمل أسماء الخلفاء الفاطميين ، وصيغ عقائدية فاطمية ، كما أن بعضها كانت عملات تذكارية تفرق في المواسم والأعياد المذهبية الشيعية على المقربين ، استمالة لهم لعقيدة الدولة^(١) ، وإن لم يحل هذا من ظهور صدى هذه الصيغ على بعض العملات الأيوبية ذاتها^(٢) ، إذ لم ينسى عمال السكة المصريين هذه الصيغ التي عهدوها لمدة طويلة بسهولة .

ومع ذلك ، فقد بقيت بعض خصائص الاحتفالات الفاطمية بالمواسم الدينية بمصر ، عالقة في أذهان المصريين ، محبة إلى نفوسهم ، بحيث لم يستطع الأيوبيون ، بكل ما بذلوه من جهد ، اقتلاعها من قلوبهم ، إذ بقيت الاحتفالات الرمضانية مثلاً إلى اليوم ، تحمل ولاشك أثراً فاطمياً ، حتى أننا لا نجد للاحتفالات الرمضانية المصرية ، أثر في البلاد العربية والإسلامية التي لم يستقر بها حكم الفاطميين .

ولما كان نسل البيت الفاطمي ، يمثل بالنسبة للسلطنة الأيوبية السنية بمصر ، الوريث الشرعي للخلافة الفاطمية المنهارة ، بعد موت الخليفة العاضد ، كبير البيت الفاطمي ، والقائم بالخلافة ، وكان الأيوبيون يصبون لإقامة سلطنة وراثية في أسرهم المالكة بمصر ، فإن دواعي السياسة وطبائع الملك ، حتمت على الأيوبيين ، طوال حكمهم بمصر ، أن يتحفظوا على جميع أفراد البيت الفاطمي ، خشية أن يظهر من دعواتهم من يجمع حولهم الأتباع والمريدين والراغبين في إعادة دولتهم ، وفي هذا ما قد يزلزل عروش الأيوبيين ، خاصة وأن الفاطميين ينتسبون إلى بيت النبوة ، في حين أن الأيوبيين ، ينحدرون من أصل كردى ، وتبوا آباءهم المناسب الحربية والإدارية بالكدح والسعى والطموح الدؤب ، فلا ريب أن أى مقارنة بين الأسرتين الفاطمية والأيوبية ، المتصارعتين على عرش مصر ، كان من شأنه أن يرجع كفة الفاطميين لانتسابهم إلى البيت النبوى .

لذلك عهد صلاح الدين ، بأفراد البيت الفاطمي ، إلى ملوكه بهاء الدين قراقوش الذى احتجزهم أولاً في بعض حجرات القصر ، بعد أن فرق الرجال عن النساء كى لا يتناسلوا ، تمهيداً

(١) أنظر عيد المنعم ماجد : النقود الفاطمية بمصر ، حوليات كلية الأداب ، جامعة إبراهيم (عين شمس) المجلد الثانى ، ١٩٥٣ ، ص ٢٢٣ - ٢٢٨ .

(2) p. Balog, monnaies islamiques rares fatimidis et ayoubites B.I.E. XX VI, 2, P 827-846, LE Cairo, 1955.

لانقراض نسلهم^(١)، ثم أخلى القصور من سكانها وأقفل أبوابها^(٢)، وحبس أفراد البيت الفاطمي في دار الضيافة^(٣)، ويبدو أنهم ظلوا بهذه الدار، حتى انتقل الملك الكامل في سنة ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م بمقر سلطنة من دار الوزارة بمدينة القاهرة، إلى قلعة الجبل بعد الفراغ من بنائها، واصطحب معه بقايا الفاطميين، وحبسهم في سجن القلعة، على هيئة البيت^(٤)، ولقد ظل بقايا الفاطميين محبوسين بالقلعة حتى نهاية العصر الأيوبي، بحيث رآهم المؤرخ ابن واصل في سجن القلعة وتحدث إلى بعضهم^(٥)، ولما كان الماليك هم ورثة سلطنة الأيوبيين، وكانوا في الأصل أرقاء، عارون من أي نسب، فطبعي أن بقي الماليك على بقايا الفاطميين، في سجنهم بالقلعة، حتى حولوا منه في ٦٧١ هـ / ١٢٧٢ م^(٦). وأغلب الظن أن بقاء بقايا نسل الفاطميين في سجون الأيوبيين والماليك حوالي قرن ونصف، يؤيد كونهم فعلاً من النسل النبوي، وإلا فما الداعي لسجنهم هذه المدة المديدة، وما الخطورة التي عساها أن تنشأ من بعض المدعين بعد زوال دولتهم بقرن !؟ .

(١) أنظر أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٩٣ - ٤٩٥ .

(٢) أنظر المقرئزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٩٤ - ٣٧٩ .

(٣) المقرئزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٣٨ عند الحديث عن دار الضيافة . ولقد ذكر المقرئزي في موضع آخر ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٩٦ ، أنهم بعد أن أخرجوا من القصر سكنوا أولاً دار المظفر ، ثم نقلوا إلى القلعة ، ولقد أورد المقرئزي حصر لعدد هؤلاء الفاطميين ، سواء من الرجال أو النساء ، ولقد أفاد أنه كان فيهم الأمير داود بن العاضد ، وكان ولي العهد ويُنعت بالحامد لله ، وجميع أخوته وجماعة من بنى أعمامه أولاد الخليفة الحافظ لدين الله . ولقد ذكر المقرئزي أسماء هؤلاء الأفراد بأسمائهم كاملة ، فراجعوا هناك . وأنظر عن بقايا النسل الفاطمي أيضاً ابن واصل ، مفرج ، ج ١ ص ٢١٠ - ٢١١ .

Casanova: Les Derniers Fatinides, Memoires de la Mission Archologique Francaise du Caire, Tome VI, 1893. pp. 415-445.

S. M. Stern: The Succession of the Fatimid Imam Al-Amir The Claims of the Later Fatimids to the Imamate, and the Rise of Tayyibi Ismailism. Oriens, Vol. 4. No 2, pp.93.

(٤) المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ص ١٦٩ .

(٥) ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ٢١١ .

(٦) المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ص ١٦٩ ويذكر المقرئزي في الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٩٦ - ٣٩٧ ، خبراً طويلاً فحواه أن الملك الظاهر بيبرس قد جمع في سنة ٦٦٠ هـ ، من بقي من أمراء الفاطميين من أبناء العاضد في سجن القلعة ، وأشهد عليهم في وثيقة رسمية أنهم لا يمتلكون أي شيء من بقايا القصور الفاطمية ولا المنشآت الواقعة داخل مدينة القاهرة الفاطمية وأخذوا خطوطهم بذلك ، وأرخ هذه الوثيقة بتاريخ ١٣ ربيع الأول سنة ٦٦٠ هـ .

وفى رأى البعض أن بناء الأيوبيين لقلعة الجبل ، خارج مدينة القاهرة ، كان بهدف أن تكون معقلاً لهم من ثورات وانتفاضات الشيعة ، الرامية إلى إعادة الدولة الفاطمية^(١) ، ويبدو أن لهذا الرأى ما يؤيده فى وثائق الأحداث فى عصر بنى أيوب ، فلقد حاول بعض دعاة الإسماعيلية بالقاهرة فى ٥٨٤هـ / ١١٨٨م استصراخ الشيعة من المصريين ليلاً ، للتجمع ومهاجمة القلعة لإطلاق الفاطميين المحبوسين بها ، وإعادة الخلافة الفاطمية^(٢) ، كذلك يذكر المؤرخون أنه كلما قامت ثورة شيعية فى مصر أو فى الصعيد أو فى أى جزء من الأقاليم المصرية ، كان الأيوبيون ، يشددون إجراءات الحبس والاعتقال على الفاطميين بالقلعة ، بل ربما كبلوهم بالأغلال^(٣) ، خشية محاولة شيعتهم إطلاق سراحهم ، ومع ذلك فإنه لا يمكن أن يعد بناء قلعة الجبل مجرد وسيلة لاحتماء الأيوبيين من الثورات الشيعية بمصر ، فلاشك أن بناء القلعة كان عملاً عسكرياً بعيد المدى ، يهدف إلى تحصين مصر ضد هجمات الفرنج ، خاصة وأن مشروع بناء القلعة ، قد ارتبط به مشروع آخر لم يكتمل ، هدف إلى إحاطة عواصم مصر الإسلامية الأربع ، الفسطاط والعسكر والقطنع والقاهرة ، بسور واحد ، خاصة وأن الصليبيين قد تهددوا القاهرة نفسها عاصمة الفاطميين ، أكثر من مرة ، فى نهاية عصر دولتهم .

وبعد نقل الأيوبيين مقر الحكم بمصر إلى قلعة الجبل ، انتهزوا هذه الفرصة ، لابتدال مدينة القاهرة ، عاصمة الفواطم ، التى ظلت طوال مدة دولتهم ، مدينة ملكية ، خاصة بسكنى الخلفاء ، وطوائف العسكر ، ورجال البلاد ، وأرباب الدواوين ، كما كانت فى نفس الوقت حصناً عسكرياً ، بحيث كان أغلب أهل مصر ، يسكنون مدينة الفسطاط^(٤) ، وقد علق المقريزى على ابتدال عاصمة الفاطميين بقوله : « فصارت القاهرة مدينة سكنى ، بعد ما كانت حصناً يعتقل به ، ودار خلافة يلتجأ إليها ، فهانت بعد العز ، وابتدلت بعد الاحترام ، وهذا شأن الملوك ، مازالوا يطمسون آثار من قبلهم ويميتون ذكر أعدائهم »^(٥) .

(١) أنظر بول كازانوف : تاريخ ووصف قلعة الجبل ، ترجمة أحمد دراج ، القاهرة ، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م ، ذكى محمد حسن : قلعة الجبل ، مجلة الكتاب ، أكتوبر ١٩٤٦ ، ص ٨٧٣ - ٨٨٢ .

(٢) أنظر المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ١٠١ ، المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٩٥ نقلاً عن مياومات القاضى الفاضل ، وأنظر بعده .

(٣) أنظر المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٨٧ هـ ، حيث يذكر أنه فى سنة ٥٨٠ ، رسم السلطان بتقييد أولاد الخليفة العاضد الفاطمى ومن بقى من أقاربه ، أنظر بعده .

(٤) راجع فريد شافعى : العمارة العربية فى مصر الإسلامية ، ص ٣٢٤ - ٣٢٦ .

(٥) عن مناقشة هذه القضية أنظر : Mamour: Polemics on the origin of Fatimi Caliphs. London, 1934 .

النسب الفاطمي وطعن الأيوبيين بمصر فيه :

وارتبط بإبادة الأيوبيين ، لجميع التراث الفاطمي من مصر ، أحياءهم لقضية قديمة شهيرة ، أغلب الظن أن أول من ابتدئها وروّجها خلفاء بنى العباس ، وهى قضية انتحال النسب الفاطمي إلى البيت النبوي ، وإشاعة أن الفاطميين ينحدرون من نسل يهودى أو مجوسى ؛ فلا شك ، أن الخلافة الفاطمية ، كانت تهدد شرعية الخلافة العباسية ، لانتسابها إلى بيت من قريش ، أكثر قرابة للنبي من البيت العباسى ، وهو البيت العلوى ، فكان الطعن فى حقيقة انتساب الفاطميين لعلى بن أبى طالب فى الواقع ، محاولة لهدم السند الشرعى للخلافة الفاطمية ، والسلاح الذى يستطيع الفاطميين عن طريقه تهديد أحقية بنى العباس فى الخلافة^(١) .

وبلغت قضية الطعن فى نسب الفاطميين ، أوج تصعيدها ، فى عهد الخليفة العباسى ، المقتدر بالله ، الذى كتب محضراً وقع عليه فقهاء العراق ، وبعض كبراء العلويين العراقيين ، مثل الشريف الرضى ، يشهدون فيه بانتحال نسب الخليفة المصرى الفاطمى الحاكم بأمر الله^(٢) ، ثم ما لبثت هذه القضية أن فترت ، وقُلّ الاهتمام بها ، ربما لعدم صحتها^(٣) ، وتهاوى أدلتها وظهور تدليسها ، وعدم جدوى الخوض فيها .

ولكن بسقوط الخلافة الفاطمية من مصر ، وحبس الأيوبيين لبقايا النسل الفاطمى ، وتربع بنى أيوب على عرش مصر ، أصبحت الفرصة مواتية للطعن فى نسب الفاطميين مرة أخرى بعد أن زالت دولتهم ، وكثر أعداءهم ، وكسّرت شوكة شيعتهم وأنصارهم ، وأيد تراثهم .

فتجد عددًا كبيراً من المؤرخين المعاصرين لسقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية ، مثل ابن خلكان^(٤) ، وابن حماد^(٥) ، وأبى شامة^(٦) ، وابن واصل^(٧) ، يطلقون على الفاطميين اسم

(١) عن مناقشة هذه القضية راجع Mamour, Polemies on the origin of fatimi Caliphs. london, 1934. ماجد : ظهور الخلافة ، ص ١٦٢-١٦٨ ، عباس العقاد : فاطمة الزهراء والفاطميون ، مجموعة الهلال ، سنة ١٩٥٨ ، وهذه المراجع الثلاثة تزيد صحة النسب الفاطمى ، وتُدكّل على ذلك فى حين ذهب البعض مثل الأستاذ محمد عبد الله عنان فى كتابه الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية إلى اعتقاد زيف النسب الفاطمى ، أنظر : محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله .. إلخ . الطبعة الثانية ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م ، ص ٤٧ - ٧٦ .

(٢) أنظر ابن الجوزى : المنتظم ، ص ٧ ، ص ٢٥٥ .

(٣) راجع ماجد : ظهور الخلافة ، ص ١٦٢ - ١٦٧ .

(٤) أنظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٣ : ١١٦-١١٩ (ترجمة عبد الله ، المهدي العيىدى) ، و ج ٣ : ١٠٩-١١٢ ترجمة الخليفة العاضد (آخر ملوك مصر من العهدين " كذا ") .

(٥) أنظر ابن حماد : أخبار ملوك بنى عبيد .

(٦) أنظر أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٩-٥١٦ .

(٧) أنظر ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ٢١٠-٢١١ .

« بنى عبيد » إشارة إلى انتسابهم إلى عبيد الله بن ميمون القدّاح المجوسى ، بل نجد أبو شامة ، يخبرنا بأنه ألف كتاباً منفرداً ، يدلّ فيه على زيف نسب الفاطميين ، سماه : « كشف ما كان عليه بنو عبيد ، من الكفر والكذب والمكر والكيد »^(١) ، والكتاب رغم أنه فقد ولم يصل إلينا إلا أن الهدف الدعائى الهادف إلى الطعن فى نسب الفاطميين ، ظاهراً من عنوان الكتاب ، بحيث يكاد يعلن صراحة عن تحامل أبى شامة على الفاطميين .

ولقد خصص أبو شامة فى كتابه الروضتين ، صفحات طوال ، حاول فيها التدليل على انتحال نسب الفاطميين ، اعتماداً على نقول نقلها عن كبار دعاة المذهب الأشعرى ، من مؤلفات خصصوها فى الطعن على الفاطميين ومذاهبهم وأحقيتهم فى الخلافة . مثل كتاب كشف أسرار الباطنية ، لأبى بكر الباقلانى^(٢) . وكتاب « الرد على الباطنية لأبى القاسم الشاسى »^(٣) ، إلى جانب محاولته الإيهام بأنه تتبع نسب الفاطميين فى كتب الأنساب العلوية ، التى ألفها الأشراف العلويين ، فلم يجد للنسب الفاطمى أى صلة بهذه الأنساب العلوية^(٤) ، كما راح يعلل الأبيات المشهورة التى قالها الشريف الرضى ، نقيب العلويين بالعراق ، والتى يعترف فيها بانتمائهم هو والخليفة الفاطمى إلى النسل العلوى والبيت النبوى ، تعليقات لا تصمد أمام أقل تنفيذ^(٥) .

واستند كل من أبى شامة وابن واصل ، على حجة قوية فى الواقع ، لازال الباحثين إلى اليوم لا يجدوا لها تعليلاً ، وهى أن الفاطميين بعد ظهورهم من فترات الستر ، وقيام دولتهم بالمغرب ، ثم انتقالها إلى مصر ، واستمرارها أكثر من قرنين من الزمان ، ظلوا يكتمون أخبار أئمتهم المستورين ، الذين ظلوا فى فترة الستر ، أكثر من مئة عام ، ولا يذكرون شيئاً عنهم ، وهنا يلاحظ كل من ابن واصل^(٦) ، وأبو شامة^(٧) . إن كتمان الفاطميين لأخبار هؤلاء الأئمة المستورين حتى بعد قيام دولتهم واستقرارهم يؤكد زيف انتسابهم للبيت النبوى ، لأنه لا داعى لكتمان أخبارهم بعد انتهاء فترة الستر وقيام الدولة .

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥١٤ .

(٢) أبو شامة : نفس المصدر ، ص ٥١١ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٩٤ . وأنظر أيضاً . بالإضافة إلى هذه الكتب فى الرد على الباطنية الفاطميين لدعاة الأشاعرة الباقلانى والشاشى ، كتاب آخر لداعى أشعرى آخر هو أبو حامد الغزالى : كتاب فضائح الباطنية ، تحقيق أختانيوس جولد تسيهير ، مطبعة بريل ليدن سنة ١٩١٦ .

(٤) أبو شامة : نفس المصدر ، ص ٥١٥ ، ص ٥١٦ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٥١٥ .

(٦) راجع ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ٢١٠ - ٢١١ .

(٧) راجع أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٠٩ - ٥١٦ .

ولاشك أن هذه الحجة التي استند إليها مؤرخو بني أيوب للطعن في نسب الفاطميين قوية ، ووجهة ومنطقية ، إلا أنه يبدو لنا أن أئمة الفاطميين في دور الستر اضطروا بالفعل إمعاناً في التخصّي بإدعاء انتسابهم لنسل يهودى أو مجوسى ، لإبعاد أى شبهة حولهم من كونهم أبناء بيت النبوة ، وربما أيضاً اضطروا إلى امتهان بعض المهن المتواضعة ، إمعاناً أيضاً في التخصّي مثل قدح الحديد والكحالة ، فلما قامت دولتهم استكف أحفادهم الأئمة الفاطميين بالمغرب ومصر ، تسجيل ذكريات هذه الأيام الأليمة ، التي اضطرت آباؤهم وأجدادهم إمعاناً في التقية ، وخشية من تتبع بنى العباس وبطشهم من امتهان مهن مستحقرة ، والانتساب إلى ديانات يهودية ومجوسية ، ففي هذا ولا ريب ما يسىء إلى خلفاء الفاطميين ، بعد أن تربعوا على عرش الخلافة ، والواقع أن ابن واصل قد ذكر واقعة حوار حدث بينه وبين بعض أبناء الفاطميين بسجن القلعة ، يفهم من بين سطورها ، إن ابن واصل يحاول التخلص من طعنه في النسب الفاطمى^(١) .

ويقوى من اعتقادنا بأن إحياء مؤرخى بني أيوب ، لقضية انتحال النسب الفاطمى ، قد أوحى إليهم بها تلقهم للدولة الأيوبية الجديدة ، وزوال الخلافة الفاطمية من مصر ، وانقراض شيعتها من البلاد ، إن هؤلاء المؤرخين قد عمدوا إلى تشويه تاريخ الفاطميين على نحو ينكره أى عالم بتاريخ دولتهم وما حققوه للإسلام من انتصارات ، وما حققوه للحضارة الإسلامية من رفعة وإزدهار ؛ نحن لا ننكر على أبى شامة أن يربط بين الحركة الفاطمية ، وحركة القرامطة فى العراق والبحرين ، وحركة الزنج بالبصرة^(٢) ، فكلها فى الواقع حركات علوية شوحتها أيضاً الدعاية العباسية ؛ ولكننا ننكر عليه أن يربط بين الدعوه الإسماعيلية والدعوة النصيرية والدرزية بالشام^(٣) ، لأن هذه الدعوات كانت دعوات متطرفة ، أعلن الخلفاء الفاطميون أنفسهم تبرؤهم منها^(٤) ، كما أننا نرى فى اتهامه للفاطميين بالكفر فى العقيدة وخروجهم عن الإسلام ، وقولهم بالإلحادية ، وأن دولتهم كانت نكبة على الإسلام ، لأن الصليبيين أخذوا بلاد الشام فى عصرهم^(٥) ، تشويهاً متعمداً لتاريخ الفاطميين ، وقلباً لحقائق التاريخ ، بطريقة ياباها المؤرخ المنصف .

(١) يقول ابن واصل : " وبقي منهم (الفاطميون) رجلان محبوسان بقلعة الجبل ، شيخان ، جدهما العاضد ، وكان أحدهما واسمه القاسم ، قد بلغه أنى صفت تاريخاً للسلطان الملك الصالح وذكرت فيه أخبار هؤلاء القوم ، وما قاله النسابون فيهم ، وأن بعضهم قال أن أصلهم من اليهود ، فطلعت يوماً إلى القلعة المحروسة ودخلت على باب الحبس ، والقاسم ابن العاضد هذا قاعد على بابة فسأل عنى ، فعرف بى ، فاستدعانى ، فأتيته ، فقال : " أنت ذكرت أن نسبنا يرجع إلى اليهود ؟ ، فخجلت منه وما أمكننى له إلا الاعتراف بذلك ، وأحلت الأمر على القوال المؤرخين فسكت ، (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢١١) .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥١٥ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٥١٠ .

(٤) أنظر ماجد : الحاكم بأمر الله الخليفة المقتدى عليه ، ص ١٠٥ - ١٢٦ .

(٥) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥١٥ .

والطريف أنه في نفس الوقت الذى راح فيه مؤرخو بنى أيوب ، وتمتلقوا دولتهم الفتية ، يشوهون فيه تاريخ الخلافة الفاطمية ، ويحاولون الطعن فى نسب الفاطميين ، راح فريق آخر من المؤرخين الذين عاصروا سقوط الدولة الفاطمية ، وقيام الدولة الأيوبية ، يؤلفون فى تاريخ ونسب الخلفاء العباسيين ، الذين يتبنى سلاطين بنى أيوب دعوتهم السياسية ، وخطبوا لهم على منابر دولتهم^(١) ، بل وفى المسجد الجامع بمدينة القسطنطينية^(٢) ، عاصمة العالم المسيحى آنذاك .

فألف كل من أبى السرور السروجى^(٣) ، وهو مؤرخ مصرى عاصر نهاية حكم الفاطميين ، وابن دحية الكلبي^(٤) ، وهو محدث ومؤرخ أندلسى ، نال الحظوة فى بلاط الأيوبيين ، كتابين فى تاريخ خلفاء بنى العباس ، منذ ظهور دعوتهم حتى عصر الخليفة العباسى المعاصر لهم ، ثم أصبح التأريخ لخلفاء بنى العباس ، تقليدًا احتذاه الكثيرون من شيوخ مصر الإسلامية فى العصر المماليكى ، مثل شمس الدين السخاوى^(٥) ، وجلال الدين السيوطى^(٦) ، وغيرهم .

(١) أنظر ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ٢٠٠-٢٠١ ، ص ٢٣٦ ، ص ٢٣٧-٢٤٣ ، حيث خطب الأيوبيون للخلافة العباسية بمصر عاصمة الخلافة الفاطمية ، وفى القيروان التابعة للخليفة ابن عبد المؤمن الموحدى المغربى ، وفى اليمن وكان تابعه أيضًا للفاطميين ، أنظر قبله .

(٢) أنظر ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٢٤-١٢٦ ، ١٣٢-١٣٣ . سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٨ ، ٤٠٤ حوادث سنة ٥٨٦ حيث يقول " ووصل رسول ملك القسطنطينية يعتذر إلى السلطان من الروم ، وكان صديق السلطان ، وأنه خطب للخليفة بقسطنطينية ، وأنظر عمى الدين بن عبد الظاهر : الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم ، ص ٣٧-٤٢ ، ولعل هذا تم بعد المعاهدة بين صلاح الدين والإمبراطور البيزنطى سنة ٥٧٧هـ . فيها قدم رسول ملك القسطنطينية إلى القاهرة ، فوقع الصلح مع صاحبها وأطلق مائة وثمانين أسيرًا من المسلمين ، أنظر المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٧٢ ، ثم عقد صلاح الدين حلفًا بينه وبين الإمبراطور البيزنطى إسحاق الثانى سنة ٥٨٥هـ : أنظر المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٩٨ هامش (١) للدكتور زيادة ، وفى سنة ٥٨٦هـ ، يقول المقرئى : وفى كتاب ملك الروم بقسطنطينية ، بخر وصول المنبر من عند السلطان ، وكذلك الخطيب والمؤذنين والقراء ، وأن الخطبة تمت بالجامع القديم بالقسطنطينية للخليفة الناصر لدين الله (المقرئى : السلوك ج ١ ، ص ١٠٤) .

(٣) هو الفقيه أبو الحسن على بن عبد الله بن أبى عبد الله محمد بن أبى السرور السروجى المتوفى بعد سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م واسم كتابه بلغة الظرفاء فى ذكر تواريخ الخلفاء ، طبع بمطبعة النجاح بمصر ، سنة ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م .

(٤) توفى ابن دحية الكلبي سنة ٦٣٣هـ وكتابه اسمه " النبراس فى تاريخ خلفاء بنى العباس ، طبع فى بغداد ، لجنة التأليف والنشر فى وزارة المعارف سنة ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م .

(٥) أنظر السخاوى ، ت ٩٠٢هـ : عمدة الناس فى مناقب سيدنا العباس ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٥٦٩ تاريخ .

(٦) أنظر السيوطى ، ت ٩١١هـ : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ، القاهرة ، ١٣٥١هـ .

والحقيقة أن كل هذه التدابير والوسائل التي استخدمها الأيوبيون ، لإبادة التراث الفاطمي ، وتشويه تاريخ الخلافة الفاطمية ، كانت من الشمول والإحكام ، بحيث كادت تؤدي بالفعل بذكر الفاطميين ، وتشويه الدور التاريخي الضخم الذي أدته دولتهم في تاريخ الإسلام ، لولا جهود بعض المنصفين من المؤرخين المتأخرين مثل ابن خلدون^(١) ، والمقرئزي^(٢) ، الأول في تنفيذ قضية انتحال النسب الفاطمي ، والثاني في عرض تاريخ الفاطميين عرضاً مفصلاً مسهباً اعتماداً على المصادر الأصلية لمؤرخي دولتهم ومعاصريها من المصريين ، ولولا جهود الباحثين المحدثين في التفتيش عن بقايا كتب الدعوة الإسماعيلية في خزائن اليمن والهند والعمل على نشرها ، وتعليل الغلو والاشتراط في عقائد الإسماعيلية ، ذلك الغلو الذي أملاه عليهم رغبتهم في تأييد أحقتهم في الخلافة ، وحق انتمهم في الولاية ، أي الطاعة على جميع المسلمين^(٣) .

ولقد أفصح صلاح الدين عن خطته التدريجية في نحو العقيدة الإسماعيلية من مصر ، حين قال لأبيه حين وفد عليه سنة ٥٦٦هـ - ١١٧٠م : « إن المصريين لهم جماعة كبيرة ، متفرقة في بلاد مصر من السودان وغيرهم ، وإن هذا الأمر إن لم يؤخذ على التدريج ، وإلا فسدت الأحوال»^(٤) .

القضاء على فتن متشيعي المصريين المناصرين للدولة الفاطمية :

وأكدت الأيام ، صدق حدث صلاح الدين ، وبعد نظره ، إذ أبدى بقايا الشيعة في مصر ، وأنصار الدولة الفاطمية مقاومة مستميتة للحكم الأيوبي ، بل لم تمنع الإجراءات التعسفية التي اتخذها الأيوبيون ضد أفراد البيت الفاطمي ، وأمراء دولتهم ، وحاشيتهم وجنودهم ، أحد الشعراء المحييين لدولتهم مثل عمارة اليمنى ، من أن ينظم قصيدة ، طار ذكرها في الآفاق ، ينعي فيها أيام الفاطميين وأياديهم البيضاء على الوافدين إلى عاصمة ملكهم من كافة أرجاء العالم الإسلامي ، ويعلن حينه إلى ذكرى مواسمهم وأعيادهم البهيجة ، وينعى قصورهم ومناظرهم ، ويشيد بالازدهار الصناعي والحضارى الذي عاشته مصر في أيامهم ، خاصة طراز تنيس ، الذى لم يستطع الأيوبيون فى رأيه تعويضه بمشيل له . بل لقد تحدى عمارة الدولة الأيوبية الجديدة ، وتحدى دعاياتها المغرضة للطعن فى

(١) أنظر ابن خلدون : المقدمة ، طبع بيروت ، ١٩٠٠ ص ٢١ - ٢٣ .

(٢) أنظر المقرئزي : الخطط ، ج ٢ ، والمقرئزي : اعطاء الخنفا فى أخبار الفاطميين الخلفاء ، ولقد طبع الجزء الأول من هذا الكتاب مرتين الأولى لتحقيق جمال الدين الشيبان . ج ١ والثانية بتحقيق محمد محمود حلمى أحمد .

(٣) أنظر قبله ، وأنظر ماجد : نظم الفاطميين ، ج ١ ، ص ٦١ - ٦٤ ، محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ، ص ١٨ .

(٤) أبو شامة : الروضتين ، ق ٢ ، ص ٤٩٨ - ٤٩٩ .

نسب الفاطميين ، وصرح في هذه القصيدة بانتماء الفاطميين للنسل النبوي . ونعى على الأيوبيين ، ما أنزلوه بأبناء النبي ، من إهانات فيقول :

يا عاذلى فى هوى ابنا فاطمة
ماذا ترى كانت الإفرنج فاعلة
هل كان فى الأمر شىء غير قسمة ما
وقد حصلتم عليها واسم جدكم
لك الملامة أن قصرت فى عذلى
فى نسل آل أمير المؤمنين على
ملكتم بين حكم السبى والنفل
محمد وأبيكم ، غير منتقل^(١)

بل نظم عمارة قصيدة أخرى صرح فيها بأن الخليفة العاضد ، آخر خلفاء الفاطميين بمصر ، من نسل النبي ، ولا مجال للشك في ذلك ، فقال :

أسفى على زمن الإمام العاضد
لهفى على حجرات قصرك إذ خلت
أسفُ العقيم على فراق الواحد
يا بن النبي من ازدحام الوافد^(٢)

بل سرعان ما انحط الشاعر عمارة اليمنى ، فى أول ثورة شيعية حاولت الإطاحة بالسلطنة الأيوبية ، وإعادة الخلافة الفاطمية . وفى ٢ رمضان سنة ٥٦٩ هـ - ١١٧٣ م ، أجمع طائفة من أهل القاهرة على إقامة رجل من أولاد العاضد ، وأن يفتكوا بصلاح الدين ، منهم القاضى المفضل ضياء الدين ابن كامل القاضى ، والشريف الجليس ، ونجاح الحمامى ، والفقير عمارة اليمنى ، وعبد الصمد الكاتب ، والقاضى الأعز سلامة العوريس متولى ديوان النظر ثم القضاء ، وداعى الدعاة عبد الجبار إسماعيل بن عبد القوى ، والواعظ زين الدين ابن نجما ، فوشى ابن نجما بخبرهم إلى السلطان ، فأحيط بهم ، وشنقوا بين القصرين ، وشنق معهم جماعة من الأجناد والعبيد والحاشية ، وبعض أمراء صلاح الدين - ربما لتعاونهم مع الثوار - وتبع من له هوى فى الدولة الفاطمية ، فقتل منهم كثيراً ، وأسر كثيراً ، ونودى بأن يرحل كافة الأجناد وحاشية القصر وراجل السودان إلى أقصى بلاد الصعيد^(٣) .

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٧٠ .

(٢) نفس المصدر ، ق ٢ ، ص ٥٦٩ .

(٣) المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٤ ، ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ٢٤٣ - ٢٥١ . أبو شامة :

الروضتين / ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٠ - ٥٦٥ .

ولم تَمْضِ إلا أيام قلائل على إخماد الأيوبيين لهذه الثورة القاهرية ، التي انخرط فيها جميع كبار رجال الدولة الفاطمية تقريبًا ، حتى اشتعلت ثورة شيعية أخرى في نجر الإسكندرية رغم غلبة المذهب السني عليه طوال العصر الفاطمي ، مما كان موضع تعليق صلاح الدين واندھاشه^(١) ففى يوم الأحد ١٥ رمضان سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م ، قبض على رجل يقال له قديد بالإسكندرية ، من دعاة الفاطميين ، وقبض على كثير من السودان ، وكروا بالنار فى وجوههم وصدورهم^(٢) .

ويبدو أن الشيعة وأنصار الفاطميين بمصر ، قد فروا إلى صعيد مصر ، والتفوا حول أحد أمراء العرب المتحمسين للدولة الفاطمية . كان يلقب كنز الدولة . وكان واليًا لمدينة أسوان ، فجمع كنز الدولة العرب والسودان فى سنة ٥٧٠ هـ - ١١٧٤ م ، وقصد القاهرة يريد إعادة الدولة الفاطمية ، وأنفق فى جموعه أموالاً جزيلة ، وانضم إليه جماعة ممن يهوى هواهم ، فقتل عدة من أمراء صلاح الدين ؛ وخرج فى قرية طود ، رجل يعرف بعباس بن شادى ، وأخذ بلاد قوص ، وأنهب أموالها . فجهز السلطان صلاح الدين أخاه الملك العادل فى جيش كثيف ، فسار وأوقع بشادى ، وبدد جموعه وقتله ؛ ثم سار فلقية كنز الدولة بناحية طود ، وكانت بينهم حروب ، فر منها كنز الدولة ، بعد ما قتل أكثر عسكره ، ثم قتل كنز الدولة^(٣) .

وتشير الحوادث ، أن أغلب بلاد صعيد مصر ، كانت مؤيدة ، لعودة الخلافة الفاطمية ، متمسكة بالدعوة الشيعية . ففى سنة ٥٧٢ هـ - ١١٧٦ م ، حدثت فتنة كبيرة بمدينة قفط ، سببها أن داعيًا من بنى عبد القوى - آخر داعى دعاة للفاطميين بمصر - ادعى أنه دواود بن العاضد ، فاجتمع الناس عليه ، فبعث السلطان صلاح الدين أخاه الملك العادل ، على جيش ، فقتل من أهل قفط نحو ثلاثة آلاف ، وصلبهم على شجرها ظاهر قفط بعمانهم وطبالستهم^(٤) ، مما يؤكد قوة هذه الثورة ، وكثرة مؤيديها .

ورغم تمثيل الأيوبيين ، بثوار مدينة قفط الشيعة ، فإن نشاط دعاة الإسماعيلية لم يفتر فى مدن الصعيد ، ففى سنة ٥٧٧ هـ / ١١٨١ م ، ظفر والى قوص برجلين من أهل إسنا يدعوان إلى مذهب الباطنية^(٥) ؛ ولاشك أن هذا النشاط المتزايد لدعاة الإسماعيلية فى صعيد مصر ، قد أقلق بال

-
- (١) أبو شامة : الروضتين ، ق ٢ ، ص ٥٦٦ ، ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ٢٥٠ . المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٤ .
(٢) المقرئى : السلوك / ج ١ ، ص ٥٤ .
(٣) أبو شامة : الروضتين ، ق ٢ : ٥٣١ ، ابن واصل : مفرج ، ج ٢ ، ص ١٦ - ١٧ ، المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٧ - ٥٨ .
(٤) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٧٦ - ٣٧٧ .
(٥) المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٧٦ .

السلطات الأيوبية بالقاهرة ، بحيث رُسم في سنة ٥٨٠هـ - ١١٨٤م ، بتقييد أولاد الخليفة العاضد ومن بقى من أقاربه^(١) .

وكان قلق الأيوبيين في موضعه ، فلقد زحف الدعاة والثوار الشيعة من الصعيد إلى القاهرة ، وفي سنة ٥٨٤هـ - ١١٨٨م ، ثار في القاهرة إثنا عشر رجلاً من الشيعة في الليل ، ونادوا « يا آل على يا آل على » ، وسلكوا الدروب وهم ينادون كذلك ، ظناً منهم أن رعية البلد يلبون دعوتهم ، ويقومون في إعادة الدولة الفاطمية ، فيخرجون من الجبوس ، ويملكون البلد ، فلما لم يجهم أحد تفرقوا^(٢) ، فكانت هذه المحاولة دافعاً للسلطات الأيوبية ، إلى نفى بعض أنصار الدولة الفاطمية خارج مصر . ففي سنة ٥٨٨هـ / ١١٩٢م ، كُتب بنقل جماعة من أتباع الدولة الفاطمية المحبوسين في الإيوان ودار المظفر ليلاً ، بحيث لا يشعر بهم أحد ، حتى يوصلهم المكلف بذلك صرخد^(٣) . ومرة أخرى أيدت الأحداث قلق الأيوبيين وأغلب الظن أنهم كانوا يستعينون في تتبع نشاط دعاة الشيعة بمصر بأصحاب الأخبار . ففي نفس السنة (٥٨٨هـ / ١١٩٢م) عُثر على رجل اسمه عبد الأحد من أولاد حسن بن الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله ، وأحضر إلى الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين بالقاهرة ، فقيل له أنت تدعى أنك خليفة ؟ قال نعم ، فقيل له : أين كنت في هذه المدة ، فذكر أن أمه أخرجته من القصر فتاه ، ووصل إلى طنبة ، فاختفى بها ، ثم خرج إلى مصر ، فأواه رجل وشرع يتحدث له في الخلافة ، وأنه تردد على عدة بلاد دعى لنفسه فيها ، وأقطع أناساً ممن بايعه الإقطاعات ، على أساس قرب توليه للخلافة ، فسجن هذا الفاطمي ، وفي نفس هذه الأيام عثر أيضاً على بعض أقارب الوزير الفاطمي القديم شاور ، وقد ثار بالقاهرة ، فسجن هو وجماعته^(٤) .

وكانت آخر ثورة شيعية لإعادة الدولة الفاطمية شهدها العصر الأيوبي سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م ، في عصر السلطان الكامل حين كان ابنه الملك العادل ولي عهد ، ففي هذه السنة توفي الأمير داود بن العاضد في محبسه ، وكانت الإسماعيلية تزعم أن العاضد عهد إليه ، وأنه الإمام من بعده ، فاستأذن أصحابه الملك الكامل أن يتوخوا عليه ويندبوه ، فأذن لهم ، فبرزت النساء حاسرات ، والرجال في ثياب الصوف والشعر ، وأخذوا في ندبه والنياحة عليه ، واجتمع معهم من كان

(١) المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٨٧ ، وأنظر قبله .

(٢) المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ١٠١ ، المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٩٥ نقلاً عن مياومات القاضى الفاضل .

(٣) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ١١١ .

(٤) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ١١٠ - ١١١ .

في الاستتار من دعواتهم ، فلما تكامل جمعهم أرسل الكامل إليهم طائفة من الأجناد نهبوا ما عليهم ، وقبضوا على المعروفين منهم ، فملاً بهم السجون ، واستصفى أموال ذوى اليسار منهم ، ففر من بقى . ويُعلق المقرئى على هذه الثورة بقوله : « زال من حينئذ ، أمر الإسماعيلية من ديار مصر . ولم يجسر أحد بعدها أن يتظاهر بمذهبهم »^(١) .

محاولة القضاء على بقايا التشيع في الشام واليمن :

هكذا قضى الأيوبيون على الخلافة الفاطمية بمصر ، وأبادوا تراثها ، وتبعوا شيعتها بالقاهرة والصعيد ، حتى لم يجسر أحد على التظاهر بمذهبها ، فانقرضت دعوتها من مصر ، ونحن نؤيد المقرئى فيما ذهب إليه من أن زوال المذهب الإسماعيلي بمصر ، بدأ بقدوم عساكر نور الدين زنكى إليها سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٨م^(٢) ، ولقد أدرك الإسماعيلية أن دعوتهم لم تصب طوال تاريخها المديد ، على يد السلاطين السنيين مثل الغزنويين والسلاجقة والزنكيين بمثل النكبة التى نكبوا بهم بسقوط الخلافة الفاطمية ، وهى أعظم دولة شيعية قامت فى التاريخ الإسلامى استحوذت الخلافة ، وكادت تضم العالم الإسلامى كله تحت لوائها حين خطب لها ببغداد سنة ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م^(٣) ، فلا غرو أن نظر الشيعة الإسماعيلية كلهم إلى صلاح الدين ، على أساس أنه هو الذى أزال دولتهم الكبرى من مصر ، بحيث أننا نجد أن ثوار القاهرة الشيعة فى سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م ، ضد صلاح الدين ، قد كتبوا سنان بن سليمان زعيم النزارية بالشام - رغم عدااء الدعوة النزارية الشامية مع الدعوة الحافظية بمصر^(٤) التى ورثها الخليفة العاضد آخر خلفاء الفاطميين - لينهض لمساعدتهم ، لأن الدعوة واحد والكلمة جامعة^(٥) .

فلا غرو أن حاول الإسماعيلية النزارية السنانية بالشام اغتيال صلاح الدين مرتين عند خروجه للشام لضم ممتلكات أستاذه نور الدين زنكى ، وكانت محاولة الاغتيال الأولى سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م إبان حصاره لحلب^(٦) ، والمحاولة الثانية سنة ٥٧١هـ - ١١٧٥م إبان حصاره لمدينة عزاز^(٧) فحاول صلاح الدين الانتقام من نزاريه الشام بأن رحل فى عاشر محرم ٥٧٢هـ - ١١٧٦م إلى بلادهم

(١) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ١٦٩ .

(٢) المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٦٠ - ١٦١ .

(٣) انظر قبله .

(٤) انظر قبله .

(٥) انظر أبو شامة : ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٥ ، س ٥ - ٦ ، ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ٢٤٩ .

(٦) انظر ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٢١ - ٢٢ ، سبط ابن الجوزى : مرآة ، ص ٣٢٨ ، أبو شامة :

الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦١٣ - ٦١٤ .

(٧) سبط : مرآة ، ٨ ، ٣٣٥ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٥٨ - ٦٦٣ .

ونازل قلعة مصياب وفيها مقدمهم وزعيمهم راشد بن سليمان بن محمد صاحب قلاع الإسماعيلية التي تنسب إليه الطائفة السنانية من الإسماعيلية ، ونصب على قلعتهم المجانيق والعرادات عدة أيام ثم رحل ولم يقدر عليهم^(١) ، ثم اضطّرّ الفريقان تحت ظروف جهاد الصليبيين إلى توقيع الصلح والتعاهد على التعاون على قتال الفرنج^(٢) .

والجدير بالتنويه ، أن أنصار الدعوة الطيبية باليمن ، بعد أن أسقط صلاح الدين الدولة الفاطمية بمصر ، كانوا يعتبرون أنفسهم الورثة الحقيقيين للدعوة الإسماعيلية القديمة ، المتمثلة في الدولة الفاطمية بمصر ؛ وذلك لأن مبدأ النص قد خولف بتولى الخليفة عبد المجيد الملقب بالحافظ بالخلافة بعد ابن عمه الخليفة الأمر ، وهذا ما عبر عنه دعاة الدعوة الطيبية بقولهم : قد ذكرنا تغلب عبد المجيد (الخليفة الحافظ) وادعائه الخلافة والإمامة ، وإمرة المؤمنين ، وإنكار الحرّة السيدة (أروى ملكة اليمن الصليحية) ذلك .. ودفع الاختلاط في الناس ، فصار بناء دينهم على غير أساس ، ووقع الستر ، واختفى ولى الأمر (المقصود الخليفة الطيب بن الأمر) فلم يعرف مكانه إلا أوليائه المخلصون .. وخفيت نجوم الدين وأقماره وحل أوليائه وأنصاره ، ما خلا الدعوة في جزيرة اليمن^(٣) .. ثم يتبع الداعي إدريس تلاعب وزراء السيوف بالنص في نهاية العصر الفاطمي ويعلق بقوله : فكثرت لذلك الاضطراب ووقع في المملكة الخراب ، وكثر الريب والارتياب ، ونسخت أحكام الدعوة الهادية وعطلت ، وتركت وبطلت ، وعاث الناس في المملكة وأفسدوا ، وغلبت الشيعة واضطهدوا^(٤) ، ثم يذكر صراحة أن خلافة الخليفة العاضد آخر الفاطميين بمصر لم تكن شرعية لمخالفتها مبدأ النص

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٣٢ - ٣٤ ، سبط : مرآة ، ج ٨ ، ص ٣٢٩ ، ص ٣٣٥ ، المقرئ : السلوك ، ج ١ ، ص ٦٣ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٦٩ - ٦٧٠ ولقد صاغ أحد الشيعة الإسماعيلية المحدثين ، قصة على أساس هذه المعاهدة للجهاد المشترك بين صلاح الدين وسنان زعيم الإسماعيلية بمصياب ضد صلاح الدين ، أنظر عارف تامر : سنان وصلاح الدين قصة تاريخية ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٥٦ . وأنظر :

- S. Guyard: Un grand maitre des Assassins au temps de Saladin, Hournal Asiatique, VII serie, 9 Janvier - Juin 1877.

- Lewis, B.: Saladin and the Assassins, B.S.O.A.S. 15 (1953), PP. 239-245.

- Lewis, B.: The sources for the History of Syrian Assassins (Speculum 1952, XXVII/4).

- Lewis, B.: Kamal al dins biography of Rasid al-din Sinan, Arabica, Tome XIII, 1966, Fasciule (3) pp. 225-262.

وهو يروى في هذا المقال ، النص العربي الكامل ، لترجمة مقدم النزارية بالشام ، رشيد الدين سنان بن سليمان من كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم .

(٣) الداعي إدريس : عيون الأخبار ، ورقة ٢٣٠ .

(٤) نفس المصدر ، ورقة ٢٣١ - ٢٣٢ .

عند الإسماعيلية وأنه في الأبناء فقط ، وفي رأيه أن صلاح الدين قد استغل تسليم الشيعة بمصر بعدم شرعية خلافة العاضد ، وأعلن سقوط الخلافة الفاطمية ، إذ يقول الداعي إدريس : ولما مات الفائز بن الظافر ، وحل من القصور إلى المقابر ، سعى أرباب الدولة في إقامة ابن عمه الموسوم بالعاضد عبد الله بن يوسف بن عبد المجيد الحافظ ، فأقاموه في الخلافة ، فادعى إمرة المؤمنين ، وكتب بذلك إلى القاصين والدانين في سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م ، واستوزر الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وملكه ، وفوض إليه جميع ما حازه وملكه ، فقام الملك الناصر بأمر الملك وشده ، وتولى حله وعقده ، وضمن أطرافه ومنع أكتافه ، ودعا للعاضد بالإمامة والخلافة ، ثم أن الملك الناصر رأى الأمور قد انقلبت ، وتحقق أن بنى عبد المجيد على الخلافة بغير حق قد تغلبت ، وأئمة الحق قد استترت فلم يعلم حيث حلت وذهبت ، فازداد طمعه في الملك ، مع أنه كله قد صار إليه ، ولم يقنع نفسه ، إلا أن يصير الأمر إليه ، ومعول جميعه عليه .. وزالت الدولة العلوية ، فسبحان الذى لا يزول ولا تغيره الحول ، واستولى الملك الناصر يوسف بن أيوب على المملكة في مصر والشام^(١) .

وعلى هذا النحو قضى الأيوبيون على الدعوة الإسماعيلية بمصر واليمن والشام ، واستكملوا ما بدأه الغزنويون والسلاجقة والزنكيون في محاربة الدعوة الإسماعيلية ونشر الدعوة السنية في إيران والشام ، بحيث لم يبق من فرق الشيعة بالعالم الإسلامى اليوم إلا الدرورز بلبان والشيعة الإثنا عشرية بإيران والشيعة الزيدية باليمن وبعض الشيعة الإسماعيلية بجبال حراز باليمن إلى جانب بقايا الإسماعيلية الطيبية بالهند الذين يعرفون اليوم بالهّره والدرادية والسلمانية^(٢) ، وبقايا الشيعة النزارية الذين يعرفون اليوم بالأغاخانية . أما « الحافظية » فماتت دعوتهم بسقوط دولة الفاطمية بمصر سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م^(٣) .

وظل التشيع يضعف في مصر شيئاً فشيئاً ، حتى كاد يمحو منها ، وأصبحت مصر في القرن العاشر الهجرى وما بعده تدين بمذهب أهل السنة والجماعة^(٤) ، وإن ظلت بعض شرازم الشيعة متوقعة في مدن صعيد مصر ، مثل بنو الكنز بأسوان الذين أدرك منهم المؤرخ أبو الفضل الأدفوى

(١) الداعي إدريس : عيون الأخبار ، ورقة ٢٣٣ - ٢٣٤ .

(٢) محمد كامل حسين : دراسات في الشعر ، ص ٧ ، ماجد : نظم الفاطميين ، ج ١ ، ص ٦١ .

(٣) طه شرف : دولة النزارية ، ص ٤ .

(٤) محمد كامل حسين : المرجع السابق ، ص ٤٨ - ٤٩ .

فى القرن الثامن الهجرى اثنين من أمرائهما ، كانا مشهورين بالمكارم والإحسان^(١) ، ويقول الأدفوى عن مدينة أسوان أنه : لما كانت البلاد للعبيدىن (أى الفاطميين) غلب على أهلها التشيع ، وكان بها قديمًا أيضًا وقد قل ذلك واضمحل ولله الحمد والمنة^(٢) ، أما مدينة إدفو « فكان التشيع بها فاشيًا ، وأهلها طائفتان : الإسماعيلية والإمامية ، ثم ضعف حتى لا يكاد يبرز به إلا أشخاص قليلة جدًا »^(٣) ، كذلك مدينة إسنا : كان التشيع بها فاشيًا ، والرفض بها ماشيًا فجف حتى خف ، ونزل بها الشيخ بهاء الدين هبة الله القفطى (ت : ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م ياسنا) فزال بسببه كثير فى ذلك وهدى الله على يديه خلقًا كثيرًا^(٤) ، وكانت « إسفون أيضًا بلدة معروفة بالتشيع الشنيع ، لكنه جف بها وقل »^(٥) .

كذلك ظلت ذكرى تشيع المصريين ، تترك أثرها فى صور تشبيهات الشعراء المصريين من أهل السنة بعد سقوط الدولة الفاطمية^(٦) ، كما ظهر بمصر بعد سقوط الخلافة الفاطمية أيضًا بعض الشعراء المشيعين عقيدة^(٧) ، وظلت ذكرى الفاطميين ماثلة إلى اليوم فى نفوس المصريين ونلمسها بوضوح فى حنين المصريين الجارف لآل البيت ، واعتزازهم بأضرحتهم بمصر ، رغم أن السيدة نفيسة ، هى الوحيدة من آل البيت الثابت تاريخيًا أنها مدفونة بمصر^(٨) .

(١) الأدفوى ، ت ٧٤٨هـ ، الطالع السعيد ، الجامع أسماء نجباء الصعيد ، تحقيق سعد محمد حسن ، مراجعة طه الحجرى ، القاهرة ، ١٩٦٦م ، ص ٣٠ .

(٢) الأدفوى : الطالع السعيد ، الجامع أسماء نجباء الصعيد ، ص ٣٤ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٧ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٣٨ - ٣٩ ، ص ٦٩١ - ٦٩٨ ترجمة هبة الله القفطى .

(٥) نفس المصدر ، ص ٣٩ .

(٦) محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر ، ص ٣٥ - ٤٨ .

(٧) نفس المرجع ، ص ٢٨ - ٣٥ .

(٨) الزركل : الإعلام ، ج ٩ ، ص ١٦ - ١٧ ، ابن خلكان : وفيات ، ج ٢ ، ص ١٦٩ ، ابن شاکر الكلبى :

فوات الوفيات ، ج ١٢ ، ص ٣١٠ .

الفصل الثالث

إعادة الشعائر السنية إلى مصر

ونشر الفكر الأشعري بها

- استحداث المدارس السننية بمصر .
- إنشاء دار الحديث .
- قصر القضاء على المذهب الشافعى ويسط إشرافه على المدارس .
- قطع الخطبة الجامعة من الجامع الأزهر وإبطال تدريس الفكر الفاطمى به .
- استخدام الحسبة لإعادة شعائر السنة .
- تشجيع التصوف والفكرى الصوفى .
- رصد الأحباس والأوقاف للمنشآت الخيرية والتعليمية .
- نشر العقيدة الأشعرية والفقہ الشافعى بمصر .

إعادة الشعائر السننية إلى مصر

ونشر الفكر الأشعري بها

استطاع سلاطين المشرق السنيون ، منذ القرن الخامس الهجري ، التضييق على الدعوة الإسماعيلية ، في الهند وإيران والعراق وبلاد الشام ، وتبع دعائها والقضاء على كياناتها السياسية؛ وإرغام معتقها على التحلي عنها ، بعد أن زالت سطوتها السياسية ، خاصة بعد حلول الضعف والتدهور بالخلافة الفاطمية بمصر ، التي كانت تمثل الخلافة الشيعية الشرعية القائمة ، والتي كانت تدين لها أغلب الفرق الشيعية ، والكيانات السياسية ، المعتنقة لدعوة التشيع ، بالولاء السياسي والعقائدي^(١) .

وكان لزاماً على هؤلاء السلاطين السنيين المشاركة ، في خراسان وإيران والعراق وبلاد الشام ، أن يشغلوا الفراغ الفكري والعقائدي للدعوة الإسماعيلية ، بفكر سياسي وعقائدي بديل ، يناقض الفكر الإسماعيلي الشيعي ، ويتواءم مع جوهر الفكر السياسي والعقائدي لأهل السنة .

ومن ثم عمد سلاطين المشرق السنيون - الغزنويون ومن بعدهم السلاجقة والزنكيين والأيوبيين - إلى اعتناق الفكر السياسي والعقائدي للدعوة الأشعرية السننية ، وتعميم وسائل هذه الدعوة ، التي هدفت إلى القضاء على الدعوة الإسماعيلية من جميع أرجاء العالم الإسلامي ، وعلى الخصوص فرعها الأساسي ، المتمثل في الخلافة الفاطمية بمصر^(٢) .

والواقع أن أغلب الوسائل التي اتخذها هؤلاء السلاطين ، بإيران والعراق والشام ، ثم طبقها الأيوبيون بمصر ، منذ كانوا وزراء سيوف للخليفة الفاطمي العاضد ، كانت من وسائل الدعوة الأشعرية ، وخاصة المدارس والتصوف ، كما استخدم الأيوبيون أيضاً في سبيل نشر الفكر السني بمصر ، جميع النظم الدينية السننية ، التي طبقوها بمصر .

(١) أنظر قبله الفصل الخاص بالقضاء على المذهب الفاطمي ، وبعده الفصل الخاص بالوضع السياسي والشرعي لمصر الأيوبية .

(٢) أنظر بعده ، نفس هذا الفصل الحالي .

استحداث المدارس السننية بمصر :

لقد لاحظ القلقشندى ، أن أول من أحدث المدارس بالفسطاط بنو أيوب^(١) ، وأنها كانت في الدولة الفاطمية وما قبلها قليلة الوجود ، بل تكاد تكون معدومة ، ثم جاءت الدولة الأيوبية ، فكانت الفاتحة لباب الخير ، والغارسة لشجرة الفضل^(٢) ، في حين لاحظ المقرئى أن صلاح الدين بإنشائه المدارس بمصر ، قد اقتدى بالملك العادل نور الدين الذى بنى بدمشق وحلب وأعمالهما عدة مدارس للشافعية والحنفية ، فبنى لكل من الطائفتين مدرسة بمدينة مصر ، وكانت أول مدرسة أحدثت بديار مصر المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق بمصر ، ثم المدرسة القمحية المجاورة للجامع أيضًا ، ثم المدرسة السيوفية التى بالقاهرة ، ثم اقتدى بالسلطان صلاح الدين فى بناء المدارس بالقاهرة ومصر وغيرهما من أعمال مصر ، وبالبلاد الشامية والجزيرية ، أولاده وأمرأه ، ثم حذا حذوهم من ملك مصر بعدهم من ملوك الترك وأمرائهم وأتباعهم . وقد أفاد المقرئى أن حركة بناء المدارس ظلت نشطة ذؤوبة إلى أيامه^(٣) ، كما تتبع جميع المدارس التى أنشأها الأيوبيون ، وترجم لمنشئها وأساتذتها ، وحدد أماكنها فى مدينتى القاهرة والفسطاط ، وميز الباقى منها إلى عهده والمندرس^(٤) . كما قام النعيمى المؤرخ الدمشقى ، بالتأريخ للمدارس التى أنشأها الأيوبيون بدمشق والترجمة لمنشئها

(١) القلقشندى : صح ، ج ٣ ، ص ٣٤٣ ، س ٢٠ - ٢١ .

(٢) نفس المصدر : ج ٣ ، ص ٢٦٢ ، ص ١٥ .

(٣) أنظر المقرئى : الخطط ج ٤ ، ص ١٩٢ - ١٩٣ ، أنظر قبله .

(٤) نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ١٩٣ - ٢٠٠ ، وهى المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق ، ثم عرفت بمدرسة زين التجار ، وقد بناها صلاح الدين سنة ٥٦٦هـ وجعلها يرسم الفقهاء الشافعية . يقول المقرئى : وكان حينئذ يعزى وزارة مصر للخليفة العاضد وكان هذا من أعظم ما نزل بالدولة وهى أول مدرسة عملت بديار مصر (الخطط ج ٤ ص ١٩٣ س ١٧ - ١٩) والمدرسة القمحية بجوار الجامع العتيق بمصر ، وكان الشروع فيها للنصف من المحرم سنة ٥٦٦هـ . ورتب فيها أربعة من المدرسين ، عند كل مدرس عدة من الطلبة ، وهى أجل مدرسة للفقهاء المالكية (الخطط ص ١٩٣ - ١٩٤) ومدرسة يازكوج ، ومدرسة ابن الأرسوفى ، ومدرسة منازل العز ، وقد بناها الملك تقي الدين عمر بن أخ صلاح الدين ، كما بنى بمدينة القيوم مدرستان إحداهما للشافعية والأخرى للمالكية ، وبنى مدرسة بمدينة الرها ببلاد الجزيرة الفراتية (الخطط ، ج ٤ ، ص ١٩٤ - ١٩٥) ومدرسة العادل ومدرسة ابن رشيح والمدرسة الفانزية والقبطية والسيوفية ، وأوقفها صلاح الدين على الحنفية ورتب لمدرستها مجد الدين الجبى فى كل شهر أحد عشر دينارًا وباقى ريع الوقف يصرفه على ما يراه لطلبة الحنفية المقرئين عنده على قدر طبقاتهم وهذا ما نقله المقرئى من وقفية المدرسة التى ترجع إلى عصر صلاح الدين ومؤرخه بسنة ٥٧٢هـ وأفاد المقرئى أن هذه المدرسة هى أول مدرسة وقفت على الحنفية بديار مصر (الخطط : ١٩٦ - ١٩٧) ومحلها اليوم جامع الشيخ مطهر ، أثر رقم ٤٠ شارع المعز لدين الله ، والمدرسة الأفضلية وقفها القاضى الفاضل على الشافعية والمالكية (الخطط : ١٩٧ - ١٩٩) والمدرسة الأزكشية والمدرسة الفخرية والمدرسة السيفية والمدرسة العاشورية والمدرسة القبطية ، وأنظر عن المدرسة الصالحة المقرئى : الخطط : ٢٠٩ - ٢١١ والمدرسة الكاملية ، الخطط : ٢١١ - ٢١٦ .

ومدرسيها^(١)، وقد حدد ابن واصل تاريخ بداية إنشاء صلاح الدين للمدارس بمصر سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م، إبان وزارة صلاح الدين للعاضد، وفي رأى المقرئى، أن إنشاء المدارس السنوية بمصر، كان من أعظم ما نزل بالدولة الفاطمية^(٢).

ولحسن الحظ فقد وصل إلينا وصفاً شائقاً دقيقاً حركة بناء المدارس وترتيب الأساتذة والمدرسين والقومة عليها، وتوفير الرعاية الصحية لطلابها وخاصة من الغرباء، إلى جانب وقف الأوقاف الكثيرة، وللصرف على منشآت هذه المدارس وأساتذتها والمشرفين عليها، على لسان شاهد عيان زار مصر في مطلع العصر الأيوبي، وهو الرحالة المغربي الشهير ابن جبير الأندلسى، الذى زار مدارس الإسكندرية التى أنشأها صلاح الدين هناك، وخصصها لطلاب العلم الوافدين من بلاد الأندلس والمغرب، ووفر لهم فيها المساكن والحمامات والبيمارستانات «المستشفيات»، كما وفر لهم الأساتذة والأطباء وأجرى عليهم الأرزاق والمرتبات والوجبات الغذائية اليومية^(٣) والطريف ما لاحظته

(١) أهم المدارس الشافعية التى أسسها الأيوبيون بدمشق، هى: المدرسة الصلاحية بالقرب من البيمارستان النورى بانيها نور الدين زنكى ونسبت إلى صلاح الدين (النعيمى): الدارس فى تاريخ المدارس ١: ٣٣١ - ٣٣٣، والمدرسة العمادية الصلاحية وهى مختلف فيها، قيل بناها نور الدين زنكى وقيل بل ابنه عماد الدين اسماعيل والواقف عليها صلاح الدين وأول مدرس بها العماد الأصهبانى كاتب الإنشاء لنور الدين ثم لصلاح الدين (النعيمى ١: ٤٠٧ - ٤١٣) المدرسة الأسدية أنشأها أسد الدين شيركوه الكبير (النعيمى ١: ١٥٢ - ١٥٧) المدرسة الإقبالية بناها جمال الدين إقبال الشرايى، حاجب نور الدين ثم صلاح الدين (نفسه ١: ١٥٨ - ١٦٦) المدرسة العزيزية لصيق الجامع الأموى، أول من أسسها الملك الأفضل ابن صلاح الدين، ثم أتمها الملك العزيز أخوه ونقل إليها رفات والده فى قبة جوارها (نفسه ١: ٣٨٢ - ٢٩٨) ولقد درس فيها سيف الدين الأمدى المتكلم الأشعرى الشهير طوال فترة استقراره فى بلاد الشام (نفسه ١: ٣٩٣ - ٣٩٨) المدرسة العادلية الكبرى وأول من بناها نور الدين ثم بنى بعضها الملك العادل سيف الدين أبو بكر ابن أيوب ثم أتمها ابنه المعظم عيسى ودفن فيها أباه ونسبها إليه (نفسه ١: ٣٥٩ - ٣٦٧) المدرسة العادلية الصغرى (ص ٣٦٨ - ٣٨٢) المدرسة العسرونية (١: ٣٩٨ - ٤٠٦) المدرسة الأتابكية (١: ١٢٩ - ١٥٠) وأهم المدارس التى أنشأها الأيوبيون لفقراء الخنفية بدمشق فهى المدرسة الأسدية (١: ٤٧٣) المدرسة الإقبالية (١: ٥٤٩ - ٥٥٠) أما أهم المدارس المالكية التى أنشأها الأيوبيون بدمشق فهى المدرسة الصلاحية (٢: ١٠ - ٢٨) ومدرسة العالمة (٢: ١١٢ - ١١٣) والمدرسة الصلاحية (٢: ٧٩ - ٨٦).

(٢) قال ابن واصل فى حوادث سنة ٥٥٦هـ: وفى هذه السنة حرر صلاح الدين داراً كانت للمعونة بمصر مدرسة للشافعية ولم يكن بمصر للشافعية ولا لغيرهم مدرسة لأن الدولة كانت اسماعيلية ولم يكن لهم قِبَل إلى شىء من هذه المذاهب ثم بنى رحمه الله - دار الغزل، مدرسة للمالكية (ابن واصل: مفرج ١: ١٩٧ - ١٩٨) ويتضح من هذا النص أن بناء المدارس السنوية، كان عملاً مناقضاً للدعوة الإسماعيلية. وهذا النص بالإضافة إلى نص المقرئى المتقدم بأن بناء المدارس إبان وزارة صلاح الدين للفاطميين، كان من أعظم ما نزل بالدولة الفاطمية يؤكد كون إنشاء المدارس السنوية بمصر كان أحد وسائل الدعوة السنوية ومن أهم عوامل نشر السنة بمصر، وانقراض المذهب الإسماعيلى منها.

(٣) يقول ابن جبير عن مدينة الإسكندرية: ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة فى الحقيقة إلى سلطانه: المدارس والمحارس (أى الروابط، أنظر بعده) الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعب، يفدون من الأقطار النائية =

الدارسون المحدثون ، ونصت عليه المصادر القديمة ، من أن الأيوبيين هم أول من عين المرتبات الثابتة للأساتذة والمعيدين ، في المدارس السنية التي أنشأوها بمصر^(١) ، كذلك ترك لنا ابن جبير وصفًا شائقًا لكيفية سير العمل في بناء مدرسة الإمام الشافعي بالقرب من ضريحه ، ومدى اهتمام صلاح الدين والفقير الحبو شاني بإظهار هذه المدرسة ، كأحسن ما تكون عمارة وروعة وضخامة^(٢) .

وثمة ملحوظة هامة أبدأها بعض الباحثين المحدثين ، تتعلق بأماكن المدارس التي شيدها صلاح الدين بمصر والقاهرة ، وهي أنها كانت مجاورة لأماكن العبادة والتبرك القديمة عند المصريين مثل جامع عمرو وضريح الشافعي والمشهد الحسيني ، مما يوحي بأن صلاح الدين قد حاول ربط المدارس السنية بالجديدة بأماكن العبادات التي لها الاحترام في نفوس المصريين ، فضلاً عن إكساب الشهرة لمدارسه نتيجة لارتباطها بأسماء هذه الأماكن^(٣) . ولا زالت بعض المدارس التي شيدها الأيوبيون بمصر والشام باقية إلى اليوم^(٤) .

= فيلقى كل واحد منهم مسكنًا وأوى إليه ومدرسًا يعلمه الفن الذي يريد تعلمه ، وإجراء (مرتب) يقوم به جميع أحواله . واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارين ، حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك ، ونصب لهم مارستانًا لعلاج من مرض منهم ووكّل بهم أطباء يشقّدون أحوالهم وتحت أيديهم خدام يأمرهم بالنظر في مصالحتهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء . وقد رتب أيضًا فيه أقوام برسّم الزيارة للمرضى الذين ينتزهون عن الوصول للمارستان المذكور من الغرباء خاصة وينهون إلى الأطباء أحوالهم ليتكفروا بمعالجتهم .. راجع النص بأكمله لأهميته عند ابن جبير : الرحلة (١٥ - ١٦) .

(١) عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، الطبعة الثانية ١٩٧٢ ص ١٦٢ - ١٦٣ فكانت أجور المدرسين بالمدارس في أيام صلاح الدين ، أربعون دينارًا للمدرس ، وعشرون دينارًا للمعيد ، وكل يوم له ستون رطلًا من العيش وأنظر القفطي تاريخ الحكماء ، ص ٩٨ .

(٢) راجع ابن جبير : الرحلة ص ٢٢ - ٢٣ .

(٣) عبد الغنى عبد العاطى : التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، رسالة ماجستير جامعة القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ٥٧ .

(٤) أنظر أحمد فؤاد سيد : مصادر تاريخ مصر الإسلامية في العصر الأيوبي ٥٦٧هـ / ٦٤٨هـ (دراسة مقارنة بمصادر تاريخ مصر الإسلامية في العصر المملوكي ، مع ترجمة ونشر ١٤ وثيقة أيوية من الأرشيفات الإيطالية ، تنشر لأول مرة ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م ، والجدير بالملاحظة أن الأيوبيين قد اتخذوا من إنشاء المدارس وسيلة لإعادة نشر الإسلام وعلوم الدين في البلاد التي تم استردادها من أيدي الصليبيين ، فبعد استرداد صلاح الدين لبيت المقدس سنة ٥٨٤هـ ، أبطل صلاح الدين الكنائس وأنشأ المدارس للفقراء الشافعية كما أنشأ رباط للصالحين وأوقف عليهما وقوفًا . أنظر العماد : الفتح ص ١٤٥ . وهنا تقتضى الإشارة إلى أن مفهوم كلمة مدرسة في الإسلام يختلف عن مفهوم المدرسة في المصطلح المعاصر لنا ، في الإسلام تعنى بناء خاص يخصص له من الأوقاف والموارد ما يكفى لإطعام وإسكان الطلبة والمدرسين وسواء إذا كانت هذه المدرسة قد تولت إنشاءها الدولة أو الأفراد فقد كان للمدرس الحرية في اختيار المؤلفات التي يدرسها للطلبة إلا إذا كان من شرط وظيفته المدرسة أن تكون مخصصة بنوع من العلوم (علم الحديث مثلا) أو بمذهب من المذاهب (الشافعي مثلا) ولم يكن ثمة التزام بالنسبة لحضور جميع العلوم التي تدرس كذلك لم تكن تعطى شهادات للتخرج كذلك لم يكن يشترط سن معين للالتحاق بالمدرسة - معلومة شفهية عن الأستاذ محمود شاكر ؛ وإن لوحظ في العصر الأيوبي نوع من التدريس الموجه للعلوم الحديث وللغة السنن ، اعتمادًا على شروط وظيفته المدرسة .

ولقد تطورت حركة بناء المدارس بمصر طوال العصر الأيوبي ، سواء من ناحية تخصصات هذه المدارس ، أو من ناحية التخطيط المعماري الهندسي ، أو من ناحية التنظيم الإداري ، الخاص بالإشراف على المدرس . أو من ناحية تسجيل مواقيت الحضور والانصراف للطلبة ، وتسجيل أسماء المتخلفين عن الحضور ، والإشراف على مرافق المدرسة ، وتعيين متخصصين للإشراف على مكتبها العامة ، ومتخصصين للإشراف على التأذين لإقامة شعائر الصلوات الخمس في أوقاتها^(١) . ويبدو أن سلك الترقى كما عرف في أوروبا في أكاديميات عصر النهضة ، وكما انتقل إلى جامعاتنا الحديثة ، قد تبلور في صورته الأخيرة التي نقلتها أوروبا عن المدارس السنية التي أنشأها الأيوبيون بمصر . فنسمع عن سلك أكاديمي يأتي على رأسه المنتهى من الفقهاء ثم المدرس ثم المفيد ثم المعيد^(٢) ؛ وأغلب الظن أن الصورة النهائية لبناء المدارس ، بتصميمها الهندسي القائم على الأيونات الأربع المبنية ، قد تبلور ونضج واستقر بمصر ، في نهاية العصر الأيوبي ، استجابة للحاجة التي أملت إنشاء مدارس سنية تجمع المذاهب الفقهية الأربعة الشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية ، وقد وضح هذا في مدرسة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، القائمة إلى اليوم بحى الصاغة بمدينة القاهرة^(٣) . وغنى عن البيان أن الأيوبيين قد أنشأوا المدارس السنية ، لتحل محل الجامع الأزهر ، الذى كان بمثابة جامعة شيعية ضخمة .

إنشاء دار الحديث :

ورأيت حركة إنشاء المدارس الفقهية بمصر فى العصر الأيوبي ، ظاهرة على قدر كبير من الأهمية ، وهى إنشاء مدارس متخصصة لدراسة علوم الحديث عرفت بدار الحديث . وكان السلطان الملك الكامل محمد ، - من أعظم سلاطين الأيوبيين ، وأشهر من عرف عنه العناية بالعلوم وتشجيعها - ، هو أول من أنشأ داراً للحديث بمصر . وأسند التدريس فيها للمحدث الأندلسي الشهير ابن دحية الكلبي^(٤) . والمعروف أن أول من أنشأ دار للحديث بالشام كان نور الدين زنكي^(٥) . ولا ريب أن المدرسة الكاملية التى أنشئت بمصر كدار للحديث النبوى ، ولا زالت إطلالها باقية إلى اليوم^(٦) ، قد بنيت على غرار دار الحديث النورية بدمشق ، لنفس الهدف الذى شيدها من أجله نور الدين ، وهو نشر علوم السنة كوسيلة لمحاربة الدعوة الإسماعيلية ببلاد الشام ، وقد أنشأ

(١) أنظر السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ص ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ .

(٢) نفسه : ص ١٠٥ - ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ٦٧ - ١٠١ ، وعن التدريس للصغار فى الكتابات أنظر الشيزرى : نهاية أرتبه ص ١٠٣ - ١٠٥ .

(٣) أنظر أحمد فؤاد سيد : مصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر الأيوبي ، ص ١٧٣ - ١٩٠ (آثار الدولة الأيوبية) .

(٤) عن المدرسة الكاملية والسلطان الكامل ، وابن دحية الكلبي ، أنظر المقرئى : الخطط ج ٤ ، ص ٢١١ - ٢١٦ .

(٥) أنظر النعمى : الدارس ، ج ١ ، ص ٩٩ - ١١٣ .

(٦) راجع أحمد فؤاد سيد : المرجع السابق ص ١٧٣ - ١٩٠ (آثار الدولة الأيوبية) .

الأيوبيون ببلاد الشام أيضًا دارًا ضخمة أخرى للحديث بدمشق هي دار الحديث الأشرفية^(١) التي أنشأها الملك الأشرف موسى أخو الملك الكامل وعهد بأستاذيتها إلى المحدث الكردي الشهير تقي الدين ابن الصلاح^(٢)، وهو صاحب أشهر كتاب ألفه المتأخرون في علم مصطلح الحديث، أي فنون الحديث وعلومه، وهو الكتاب المعروف باسم «مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث»، ولقد صرح ابن الصلاح في هذا الكتاب أن علوم الحديث كانت قد قل الاهتمام بها في عصر الفاطميين، مما دعاه إلى التأليف فيها^(٣).

ولا شك أن فكرة إنشاء دار للحديث بمصر، كان الغرض منها إحياء علوم السنة النبوية القائمة على الرواية والنقل والإسناد عن النبي صلى الله عليه وسلم، كوسيلة لمحاربة المذاهب الفلسفية التي روج لها الفاطميون من قبل في «دار الحكمة»^(٤).

(١) أنظر النعمي: الدارس ١: ١٩ - ٤٧، ٤٧ - ٤٧ - ٥٥ وأنظر أيضًا عن دور الحديث التي أنشأها الأيوبيون بالشام، دار الحديث الفاضلية، النعمي ١: ٨٩ - ٩٦، ص ١١٥ - ١٢٢.

(٢) أنظر ترجمته عند ابن خلكان: وفيات ١: ٣١٢ (الطبعة القديمة)، طبقات الشافعية، ج ٥ ص ١٣٧ (الطبعة القديمة أيضًا).

(٣) صور لنا ابن الصلاح في مقدمته لعلوم الحديث كيف أن علوم الحديث عند مجيء الأيوبيين كانت في شبه محنة بحيث قال ابن الصلاح: "لقد كان شأن الحديث فيما مضى عظيمًا عظيمة جموع طلبته، رفيعة مقادير حفاظه وجملته.. فلم يزل حملته في انقراض ولم يزل في اندثار، حتى آلت به الحال إلى أنصار أهله إنما هم شردمة قليلة العدد، ضعيفة العدد (أنظر مقدمة ابن الصلاح - خطبة الكتاب)، وعن أحوال علوم الحديث في العصر الفاطمي بمصر، أنظر قبله؛ ولقد وصفه ابن خلكان بقوله: مكان أحد فضلاء عصره في التفسير والحديث والفقهاء وأسماء الرجال وما يتعلق بعلم الحديث ونقل اللغة وهو أحد أشياخي الذين انتضعت بهم، وكان من جملة مشايخ الأكراد المشار إليهم (ابن خلكان: وفيات، ج ٣: ص ٢٤٣ من طبعة بيروت).

(٤) عن دار الحكمة الفاطمية أنظر المقرئ: الخطوط ج ٢: ص ٣٣٢ - ٣٣٥.

ونظرًا لموقف الفاطميين من علم الحديث، نظرًا لتحفظهم في الرواية إلا عن ائمتهم من الشيعة للعداوة السياسية بينهم وبين أهل السنة، وهذا ما شرحه بالتفصيل القاضي النعمان في أحد فصول كتابه دعائم الإسلام، ونظرًا لتأثرهم بفكر المعتزلة التي كان بعض مشايخها يرى في علم الحديث، أخبار آحاد؛ تدهورت علوم الحديث في عصرهم بعض الشيء، رغم أن كتابي ابن الحبال وابن الطحان عن محدثي مصر في العصر الفاطمي عامر بتراجم الحفاظ والمحدثين وكذلك كتابي مُشْتَبِه النَّسَبِ والمؤتلف والمختلف للحفاظ عبد الغنى المقدسي.

- لذا فقد شهد العصر الأيوبي بمصر والشام، حركة علمية ضخمة سعت إلى نشر علوم الحديث والسنة النبوية، ونبع في هذا العصر عدد من كبار حفاظ الإسلام الذين ألفوا في شتى علوم الحديث وعلى رأسهم ابن عساكر الدمشقي ت ٥٧١هـ، وابن الصلاح، والنووي، والنذري، والذهبي، وابن كثير. (راجع حسن المحاضرة للسيوطي، باب ما كان بمصر من حفاظ الحديث ونقاده، وباب من كان بمصر من المحدثين ممن لم يبلغ درجة الحفاظ)؛ ويبدو أن نهضة علوم الحديث في العصر الأيوبي، هي امتداد لحركة الإصلاح السني السلجوقي، التي كانت قاعدتها بلاد العراق.

قصر القضاء على المذهب الشافعي وبسط إشرافه على المدارس :

وكما أقدم صلاح الدين ، وهو وزير للخليفة العاضد الفاطمي ، له الإشراف على شئون الدعوة الفاطمية بمصر ، لكونه « هادي دعاة المؤمنين » على مناقضة عهود ومواثيق العاضد ، في رعاية دعوته ، بأن عمل على محاربتها بإنشاء المدارس السنية ؛ فلقد قرن صلاح الدين ، إنشائه للمدارس السنية بمصر ، ومحاربه للدعوة الإسماعيلية ، بإزالة القضاء الشيعي من مصر ، وتفويض القضاء بالديار المصرية ، إلى قاضي شافعي المذهب في الفقه ، أشعري العقيدة في أصول الدين ، كردى الجنس ؛ ولا ريب أن صلاح الدين بهذا العمل قد ناقض أيضًا عهود ومواثيق العاضد ، وما فوضه إليه من تفويض أمر القضاء الشيعي بمصر ، لمن ينهض به من فقهاء الشيعة ، لكونه كوزير فاطمي « كافل قضاة المسلمين »^(١) . ففي سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م ، فوض صلاح الدين القضاء بالديار المصرية إلى قاضي القضاء صدر الدين عبد الملك بن درباس الهذباني الشافعي ، فجعل صدر الدين القضاء في سائر الديار المصرية شافعية ؛ فاشتهر مذهب الشافعية ، واندرس مذهب الفاطمية

= - ولا شك أن هذه النهضة في علوم الحديث التي شهدها العصر الأيوبي بمصر والشام ؛ هي التي تفسر ظهور طائفة من كبار حفاظ الإسلام بمصر والشام في العصر المملوكي ، فظهر بمصر زين الدين العراقي ، ونور الدين الهيثمي ، وابن حجر العسقلاني ، وشمس الدين السخاوي ، وجلال الدين السيوطي ، وشهاب الدين القسطلاني وغيرهم ، وظهر بالشام ابن ناصر الدين الدمشقي حافظ الشام في عصره كما وصفه السخاوي في الضوء اللامع . وقد ذكر السخاوي في كتابه استجلاب ارتقاء العرف بمجرباء الرسول وذوي الشرف إن لديه من مسانيد آل البيت مُجلدات ضخمة تفوق الحصر ، وإن اصح أسانيد آل البيت عن جعفر الصادق رضى الله عنه ، بشرط أن يكون الراوي عن جعفر ثقة .

- ويستفاد من مقدمة الحافظ زكي الدين المنذرى لكتابه مختصر سنن أبي داود ، أنه قد أقدم على اختصار الكتب الستة الصحاح ، بادئًا بصحيح البخاري ثم صحيح مسلم ثم سنن الترمذي ، بهدف إملاء هذه المختصرات وتدريبها لطلبة العلم من طلاب مدرسة دار الحديث الكاملية بمصر . كما يستفاد من مقدمة الحافظ ابن الصلاح لكتابه مقدمة في علوم الحديث ، أن علوم الحديث قد شهدت تدهورًا في العصر الفاطمي .

ودار الكتب المصرية ، ومكتبة الجامع الأزهر بمصر ، والمكتبة الظاهرية بدمشق ، والمكتبة الوطنية بتونس ؛ هذه المكتبات على الخصوص لا تزال إلى اليوم عامرة بعدد كبير من مخطوطات كتب الحديث التي ألقت في العصرين الأيوبي والمماليكي بمصر والشام ، وظلت تدرس بمدارس مصر الأيوبية والمماليكية ، والجامع الأزهر بمصر ، ومدارس الحديث بالشام ، وجامع الزيتونة بتونس ؛ كما أن عددًا ضخمًا من هذه المؤلفات قد تم نشره بالفعل ويمثل جانبًا له أهميته بل لا يستغنى عنه ضمن كتب مصطلح الحديث وشرح وتفسير الحديث ، وكتب الزوائد ، وكتب الجرح والتعديل ونقد الرجال .

كذلك امتدت هذه النهضة الخاصة بنشر علوم الحديث والسنة إلى بلاد العراق في ظل الخلافة العباسية السنية ، فظهر الإمام أبو الفرج ابن الجوزي الحنبلي البغدادي سنة ٥٩٧ هـ .

(١) أنظر قبله ..

بالكلية ، وانحى أثره ، ولم يبق أحد من أهل البلاد يمكنه التظاهر به^(١) ، وقام ابن درباس بعزل سائر القضاة ، واستتاب قضاة شافعية ، فظاهر الناس من تلك السنة بمذهب مالك والشافعي .. ، واختفى مذهب الشيعة إلى أن نسى من مصر^(٢) .

وتأكيداً لسرعة تطبيق وتعميم الفقه السننى بمصر ، سواء فى الحياة اليومية فى الأسواق ، أو فى المصالح الحكومية ، وكذلك لنشر الفقه السننى بين المصريين المترددين على المساجد ، أضافت الحكومة الأيوبية فى سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨م ، الخطابة والإحباس والحسبة ودار الضرب ، إلى ولاية القضاء ، وعهد بهذه الولايات مجتمعة إلى قاضى القضاء صدر الدين ابن درباس^(٣) ؛ وصارت مهمة الإشراف على المدارس السننية ، بل وجلس قاضى القضاء بنفسه لتدريس الفقه السننى فى هذه المدارس ، من أهم وظائف قاضى القضاء بمصر ، بحيث تذكر فى تقليد تعينه ، كما ورد فى تقليد قاضى القضاء ، عين الدولة ابن بندار ، الذى خلف ابن درباس على قضاء الديار المصرية^(٤) . والمتبع لتراجم

(١) ابن واصل : مفرج ج ١ ص ١٩٨ ويعلق الشيال على هذا الحدث بقوله : وهذه النسبة تدل على أن القاضى كردى كصلاح الدين ومن نفس القبيلة التى ينتمى إليها ، وتحويل القضاء فى مصر إلى المذهب الشافعى ، وتعيين قاضى قضاء كردى والخليفة الفاطمى لا زال حياً - إجراء له دلالة سياسية الواضحة . الشيال هامش " ٢ " على مفرج الكروب ، ١ : ١٩٨ ، سبط : امرأة ٨ : ٢٨٣ ، أنظر ترجمة صدر الدين بن درباس ، عند السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، الطبعة القديمة ٨ : ٣٣٧ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ١ : ٤٠٨ ، ابن حجر : رفع الأصر ، طبع القاهرة ١ : ٣٦٧ - ٣٧٠ ، وفى ترجمة أخيه ضياء الدين ، وقد ناب عنه فى القضاء ، عند ابن خلكان : وفيات ٣ : ٢٤٢ - ٢٤٣ وأنظر عودته إلى القضاء سنة ٥٩٥هـ ، عند ابن تغرى بردى : النجوم ٦ : ١٥٠ - ١٥١ .

(٢) المقرئى : الخطط ، طبعة بولاق ، ١ : ٣٥٨ - ٣٥٩ ، وأنظر أيضاً السيوطى : حسن المحاضرة ، ٢ : ١٨٠ وما بعدها . يقول : لما استولى الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب على القاهرة ، وزيراً عن العاضد ، أزال الرفض والشيعة ، وصرف ابن كامل (أبو القاسم جلال الدين هبة الله ابن عبد الله بن كامل بن عبد الكريم الصعدى) ، وولى صدر الدين عبد الملك بن درباس الكردى الشافعى قضاء القضاء بالقاهرة .

(٣) ابن حجر : رفع الأصر ، ج ٢ ، ص ٣٦٩ ، س ١١ - ١٥ .

(٤) جاء فى نص التقليد ، الذى صاغه ضياء الدين بن الأثير ، لتوليه زين الدين بن بندار قاضى قضاة للديار المصرية سنة ٥٩٥هـ : " فقد رأينا أن نجمع لك بين تنفيذ الأحكام وحفظ أصولها ، وإلا تخليك من النظر فى دليلها ومدلولها ، فإن الترك يوحش العلوم من معهود أمانتها ، ويذهب بها من تحت أقفال خزائنها ، ومنصب التدريس كمنصب القضاء ، أخ يشد من عضده ويكثر من عوده ، فنزل المدرسة الفلانية ، عالماً أنك قد جمعت بين سيفين فى قراب ، وسلكت باين إلى تحصيل الثواب ، وركبت أعز مكان وهو تنفيذ الحكم ، وجالست خير جليس وهو الكتاب " ، (أنظر نص هذا التقليد كاملاً عند السيوطى ، حسن المحاضرة ٢ : ١٥٤ - ١٥٩ ، وأنظر نص تقليد قاضى سنجار ، بعد أن ضمها صلاح الدين إلى ممتلكاته عند العماد : البرق الشامى ج ٥ لوحة ٢٨ أ - ٢٩ ب ، وأنظر منشور لمدرس بحلب من إنشاء العماد : البرق ج ٥ لوحة ٤٦ ب - ٤٨ أ ، وما يفيد تولى ابن درباس لتدريس علوم الفقه لسنوات طويلة ، ما ذكره الأديب المغربى الساخر ركن الدين الوهرانى ، وهو يسخر من صدر الدين بن درباس : وهو من كوادن المدارس ، له أرجون سنة يقرأ ، لا يحفظ مسألة من الفقه ، ولا أية من كتاب الله تعالى (الوهرانى : الملمات والمقامات ، ص ٥٥ س ٧ - ٨) .

قضاة مصر فى العصر الأيوبى ، ونوابهم فى أقاليم الديار المصرية يجدهم جميعاً بلا استثناء تقريباً ، قد جلسوا بأنفسهم للتدريس فى المدارس السنية التى أنشأها الأيوبيون بالقاهرة والفسطاط وأغلب أقاليم الديار المصرية^(١) .

وقامت الدولة الأيوبية ، منذ عهد صلاح الدين ، بتفويض قضاء الشام ، لبيتين من كبار البيوتات السنية ، التى اشتهرت بتولى القضاء والوظائف الدينية منذ عهد نور الدين زنكى ، وهما بيتا الشهر زورى وابن عسرون^(٢) ، وبهذا تم نشر الفقه السنى بمصر والشام ، إبان العصر الأيوبى ؛ وغنى عن التذليل ، أن تولى قضاة سنين ، لمنصب قاضى القضاء فى العصر الفاطمى ، الذى كان له الإشراف على الدعوة الفاطمية ، - وأغلب الظن أن ذلك تم على يد وزراء التفويض السنين مثل

(١) جاء فى ترجمة القاضى أبو طاهر الأسوانى ت ٥٩٩ هـ : أقام بأسوان حاكماً ومدرساً (السيوطى : حسن : ١ : ٤٠٨ الأدفوى : الطالع السعيد ص ٩٦) ، وفى ترجمة ابن الخراط الدمايطى ت ٦١٩ هـ أنه تميز فى الفقه والخلاف ، ورجع إلى بلده فأقام بها قاضياً مدرساً ثم ولى قضاء مصر والوجه القبلى (السيوطى : حسن : ١ : ٤١٠) وفى ترجمة عماد الدين بن عسرون الكردى ت ٦٢٠ هـ ، أنه قدم مصر ، فتولى قضاء دمايط ، ثم ناب بالقاهرة ودرس بالجامع الأحمر وغيره (السيوطى : ١ : ٤١٠ - ٤١١) وفى ترجمة صدر الدين موهوب الجزرى . ت ٦٦٥ هـ ، أنه : تخرجت به الطلبة ، وجمعت عنه الفتاوى المشهورة ، وولى القضاء بمصر (السيوطى : ١ : ٤١٥) وفى ترجمة نجم الدين الخضراوى ت ٦٦٢ هـ : تولى قضاء أسبوط وتدريس القانزية بها (السيوطى : ١ : ٤١٥ - ٤١٦) وفى ترجمة شيخ الشيخ ، صدر الدين بن شيخ الشيخ ابن حمويه ، أنه : أفتى ودرس ، وولى تدريس الشافعى والمشهد الحسينى ومشيخة سعيد السعداء ، (السيوطى : ١ : ٤١٧) وجاء فى ترجمته إسماعيل ابن قاضى القضاء عبد الملك ابن درباس ت ٦٢٤ هـ أنه ناب عن والده فى القضاء ودرس بالسيفية بالقاهرة (الصفدى : الوافى ، ٩ : ١٥٣ ترجمة ٤٠٥٨) .

(٢) سبط : مرآة ، ج ٨ ص ١٢١ ، ص ٢٦٦ - ٢٦٧ ، ص ٣٤٠ - ٣٤٢ ، أبو شامة ، الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٧١ - ٦٧٥ . حيث يقول نقلاً عن العماد الأصفهانى : كان السلطان لإحياء القضاء فى البيت الزكوى مؤثراً ، وذلك بعد أن استعفى من القضاء ، القاضى ضياء الدين الشهرزورى الذى تولاه منذ العصر النورى ، وفى نفس هذه السنة سنة ٥٧٢ هـ ، وهى التى سيطر فيها صلاح الدين على أغلب بلاد الشام ، وقف صلاح الدين قرية من قرى حوران على الجماعة الذين يشتغلون بعلم الشريعة أو يعلم يحتاج إليه الفقيه أو لمن يحضر لسماع الدروس بالزاوية الغربية من جامع دمشق وعلى من هو مدرسههم بهذا الموضع من أصحاب الإمام الشافعى ، وجعل النظر لقطب الدين النيسابورى . ثم أضاف أبو شامة : ورأيت كتاب الرقوف بذاك على هذه الصورة وعليه علامة السلطان رحمة الله ، الحمد لله وبه توفيقى ، أنظر الروضتين ص ٦٧٥ ، وعن نشاط تدريس علوم السنة بالجامع الأموى بدمشق ، فى عصر صلاح الدين ، أنظر ابن جبير : الرحلة ص ٢٤٤ - ٢٤٥ ، وعن المنشآت التعليمية والخيرية بدمشق فى العصرين النورى والصلاحى أنظر أيضاً ابن جبير : الرحلة ص ٢٥٥ - ٢٥٧ . وعن اقتران وظيفة التدريس ببلاد الشام مع وظيفة قاضى القضاء ، جاء فى ترجمة يونس بن بدران المعروف بجمال الدين المصرى ت ٦٢٣ ، أنه ولد بمصر سنة ٥٥٥ هـ وسمع من السلفى وغيره ، واختصر الأم للشافعى ، وولى قضاء الشام ، ودرس التفسير بالعادلية بدمشق (السيوطى : حسن : ١ : ٤١١) .

ابن السلاز وشيركوه وصلاح الدين ، أو قليلى الولاء للمذهب الفاطمى مثل المأمون البطائحي - ، كان من أقوى أسباب ضعف الدعوة الفاطمية بمصر ، فى النصف الثانى من العصر الفاطمى^(١) .

(١) قال السيوطى : وفى القرن الرابع الهجرى ، ملكت العبيديون مصر ، وأفتوا من كان بها من أئمة المذاهب الثلاثة ، مثلاً ونفيًا وتشريدًا ، وأقاموا مذهب الرضى والشيعة ولم يزالوا منها إلى أواخر القرن السادس ، فتراجعت إليها الأئمة من سائر المذاهب (السيوطى : حسن ١ : ٤٨٥) ، ولكن لا شك أن فى هذا القول تعصب ضد الفاطميين وإنكارًا لتسامح الفاطميين تجاه المذاهب الفقهية السنية بمصر ، خاصة وأن الفقه الإسماعيلى نفسه لا يخالف فقه أهل السنة إلا فى مسائل نادرة جدًا ، أصلها الخلاف حول نظرية " الإمامة " بين السنة والشيعة ، (أنظر محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ، ص ١٢ - ١٣ ، وأنظر ماجد : نظم الفاطميين ١ : ١٣٦ حيث يذكر أنه فى عهد المعز ترك أبو الطاهر الذهلى فى وظيفة القضاء فى ظل النظام الفاطمى الجديد ، رغم أنه تولى القضاء منذ العصر الأخشيدى وبالرغم من أنه مالكى المذهب ، كما أقام المعز بمصر مع هذا القاضى قضاة شيعة جاءوا مع المعز من المغرب مما يبرهن على تشابه التشريعين السنى والشىعى . (أنظر : ماجد نفس المرجع ص ١٣٦) . والواقع أن عبارة السيوطى سالفة الذكر لا يخفى فيها التعصب والكراهية للفاطميين ؛ ولقد أنصف القلقشندى حين ذكر أن الفاطميين تركوا مذاهب مالك والشافعى ظاهرة الشعار فى مصر . أنظر القلقشندى : صبح ج ٣ ، ص ٥٢٤ . وعن تسامح الفاطميين مع أهل السنة طوال عصرهم أنظر نصوص هامة أوردها كل من المؤرخين السنيين المصريين الذين عاصروا حكم الفاطميين بمصر وهما ابن الطحان وابن الحبال ، ونص أورده القفطى وهو مؤرخ مصرى عاصر سقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية خاص بأسرة شيث الإسنائى التى تظاهرت بالمذهب المالكى طوال العصر الفاطمى دون معارضة من الدولة . وراجع ما ذكرته المصادر عن مدرسة السلفى ومعجم السفر للحافظ السلفى ، و عن أسرتى ابن قريش المخزومى ، والتابلسى .

غير أن تولى قضاء على غير المذهب الإسماعيلى ، منصب قاضى القضاء بمصر ، تم فى نهاية العصر الفاطمى كعمل سياسى الغرض منه القضاء على الدعوة الإسماعيلية التى تدرج ، تحت إشراف وتوجيه قاضى القضاء . حدث ذلك فى سنة ٥٢٥ هـ ، على يد الوزير أبو أحمد على بن الأفضل شاهنشاه ابن بدر الجمالى الملقب كتيفات . الذى رتب فى الحكم أربع قضاة ، يحكم كل قاضى بمذهب ، ويورث بمذهبه ، فكان قاضى الشافعية سلطان بن رشا ، وقاضى المالكية أبا محمد عبد المولى بن الليثى ، وقاضى الإسماعيلية أبا الفضل ابن الأزرق ، وقاضى الإمامية ابن أبى كامل ، ولم يسمع بمثل هذا فى الإسلام (أنظر : تقى الدين المقرئى : المنتقى من اخبار مصر لابن ميسر ، تحقيق أمين فؤاد سيد ، المعهد العلمى الفرنسى للأثار الشرقية ١٩٨١ ، ص ١١٤ - ١١٥ وقد نقل عنه هذا النص السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ١٦٥ ، س ١١ - ١٧ . ويخبرنا السيوطى أنه فى سنة ٥٣٣ هـ ، شغرت مصر من قاضى ثلاث أشهر ، فعرض القضاء على أبى العباس أحمد بن عبد الله بن أحمد بن هشام بن الحطينة اللخميى القاسر ، فاشترط ألا يقضى بمذهب الدولة ، فأبوا وتولى غيره . السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ٤٥٣ ، القفطى : اباه الرواه ، ١ : ٣٩ ، وحين تولى القاضى مجلى المخزومى لمنصب قاضى القضاء بمصر ، رغم أنه شافعى المذهب ، إبان وزارة العادل بن سلاز ، وزير التفويض السنى الكردى ، أنظر الذهبى : العبر ، ج ٤ : ١٤١ . كذلك كان المؤرخ المصرى ، القاضى القضاعى ، سنى المذهب وتقدم فى الدولة الفاطمية ولكن يبدو أنه كان يظهر التشيع للفاطميين . (أنظر محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ١١٢ - ١١٣ . وعن الإصلاحات السنية التى قام بها وزير التفويض الفاطمى المأمون البطائحي ، بالنسبة للنظم القضائية بمصر ، استجابة لتوجهات الفقيه السنى الطرطوشى ، أنظر قبله .

قطع الخطبة الجامعة من الجامع الأزهر وإبطال تدريس الفكر الفاطمي به :

وما لبث صلاح الدين في سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م أن وجه للدعوة الفاطمية بمصر ، طعنة قاتلة ، كانت كفيلة ولا ريب بالإجهاز عليها ، وذلك بقطعه للخطبة الجامعة من الجامع الأزهر ، الذي اتخذها الفاطميون جامعة لنشر علوم الدعوة الإسماعيلية^(١) . وذلك بعد أن قلد وظيفة القضاء صدر الدين عبد الملك بن درباس ، فعمل بمقتضى مذهبه ، وهو امتناع إقامة الخطبتين للجمعة في بلد واحد ، كما هو مذهب الإمام الشافعي ، فأبطل الخطبة من الجامع الأزهر ، وأقر الخطبة بالجامع الحاكمي من أجل أنه أوسع ، فلم يزل الجامع الأزهر معطلاً من إقامة الجمعة فيه مائة عام ، من ذلك التاريخ ، إلى أن أعيدت الخطبة في أيام الملك الظاهر بيبرس^(٢) .

وأيد صلاح الدين هذه الخطوة الجريئة ، بإزالة الشعائر الشيعية ، التي أدخلها الفاطميون إلى مصر ، واستمرت بها طوال عصر دولتهم ، من الآذان ، وإبان إقامة الصلوات ، فأبطل من الآذان قول (حى على خير العمل) ، وصار يؤذن في سائر إقليم مصر والشام بأذان أهل مكة ، وفيه ترييع التكبير ، وترجيع الشهادتين ، فاستمر الأمر على ذلك إلى أن انتشر مذهب أبي حنيفة بمصر في العصر المالكي ، فصار يؤذن في بعض المدارس التي للحنفية بأذان أهل الكوفة ، وتقام الصلاة أيضاً على رأيهم ، وما عدا ذلك ، فقد استمر الآذان بمصر كما أقره صلاح الدين^(٣) . ومنع صلاح الدين ما كان قد تعود عليه المؤذنون في العصر الفاطمي ، من السلام على الخليفة الفاطمي في الآذان ، وذلك احتراماً للخليفة العباسي ببغداد ، فجعلوا عوض السلام على الخليفة السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم واستمر ذلك قبل الآذان للفجر في كل ليلة بمصر والشام والحجاز^(٤) . وكان الذى أملى هذا التعديل السنى في الآذان أنه كان ينتحل مذهب الإمام الشافعي ، وعقيدة الشيخ أبي الحسن

(١) يذكر المقرئى أنه بعد بناء جوهر الصقلي للجامع الأزهر في سنة ٣٦٠هـ ، كانت الجمعة تقام في جامع عمرو وجامع ابن طولون والجامع الأزهر ، وجامع القرائه الذى يعرف في عصر المقرئى بجامع الأولياء ، ثم أن الخليفة العزيز بالله ، ثانى خلفاء الفاطميين بنى في ظاهر القاهرة من جهة باب الفتوح ، الجامع الذى يعرف اليوم بجامع الحاكم في سنة ٣٨٠هـ وأكماله ابنه الحاكم بأمر الله وبنى جامع المقس وجامع راشد ، فكانت الجمعة تقام في هذه الجوامع كلها إلى أن انقرضت دولة الخلفاء الفاطميين في سنة ٥٦٧هـ ، فبطلت الخطبة من الجامع الأزهر ، واستمرت فيما عداه . (المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٧) .

(٢) المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٥٣ .

(٣) المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٤٦ ، س ١٨ - ٢٥ .

(٤) نفس المصدر ، ٤ : ٤٥ - ٢٦ - ٢٩ ، ويذكر سبط ابن الجوزى انه في سنة ٥٨٢هـ ، دخل سيف الإسلام طغتكين الأيوبي إلى مكة (وكان أمرانها شيعة) ومنع من الآذان بحى على خير العمل ، (مرآة ، ج ٨ :

٣٨٨) .

الأشعري^(١)، وكان تحمس صلاح الدين وقاضيه ابن درباس للعقيدة الأشعرية ، حتى كانا يكفران من خالف اعتقاد الأشعري ، سبباً في ترتيبهم المؤذنين لقراءة العقيدة المسماة بـ « المرشدة » الأشعرية ، طوال الليل على المآذن ، بدلاً من تقليد التسييح طوال الليل على المآذن ، الذى عرف بمصر منذ العصر الطولونى ، وكان يرتب له المؤذنين والقراء من قبل الدولة^(٢) .

وأقيمت الخطبة الجامعة بجامع الحاكم بأمر الله ، على نحو يأخذ الخطيب فيها مأخذاً سنياً ، يجمع فيه الدعاء للصحابة ، رضى الله عنهم ، وللتابعين ومن سواهم ، ولأمهات المؤمنين زوجات النبى ، صلى الله عليه وسلم ، ولعميه حمزة والعباس رضى الله عنهما ، ويأتى للخطبة لابساً السواد على رسم العباسية ، وصفة لباسه برودة سوداء عليها طيلسان شرب أسود ، وعمامة سوداء ، متقلداً سيقاً . وعند صعوده المنبر ، يضرب بنعل سيفه المنبر فى أول ارتقائه ضربة يسمع بها الحاضرين ، كأنها أيدان بالإنصات ، وفى توسطه أخرى ، وفى انتهاء صعوده ثالثة . ثم يسلم على الحاضرين يميناً وشمالاً ، ويقف بين رايتين سوداوين فيهما تجزيع بياض قد ركزتا على أعلى المنبر . وجاء دعاء الخطيب فى تاريخ زيارة الرحالة ابن جبير لمصر ، للإمام العباسى أبى العباس أحمد الناصر لدين الله ابن الإمام أبى محمد الحسن المستضىء بالله ابن الإمام أبى المظفر يوسف المستجد بالله ، ثم لمحى دولته أبى المظفر يوسف بن أيوب صلاح الدين ، ثم لأخيه ولى عهده أبى بكر سيف الدين^(٣) .

(١) يقول المقرئى : وأما مصر ، فلم يزل الأذان بها على مذهب القوم (أى الفاطميين) إلى أن استبد السلطان صلاح الدين .. سلطنة ديار مصر ، وأزال الدولة الفاطمية فى سنة ٥٦٧هـ ، وكان ينتحل مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه ، وعقيدة الشيخ أبى الحسن الأشعري رحمه الله ، فأبطل من الأذان قول حى على خير العمل ، وصار يؤذن فى سائر إقليم مصر والشام بأذان أهل مكة . (الخطط ، ج ٤ ، ص ٤٦ ، س ١٨-٢١) .

(٢) يقول المقرئى : ومن حينئذ (عصر أحمد بن طولون) اتخذ الناس قيام المؤذنين فى الليل على المآذن ، وصار يعرف ذلك بالتسييح ، فلما ولى السلطان صلاح الدين .. سلطنة مصر ، وولى القضاء صدر الدين عبد الملك ابن درباس الهذبانى المارائى الشافعى ، كان من رأيه ورأى السلطان اعتقاد مذهب الشيخ أبى الحسن الأشعري فى الأصول ، فحمل الناس إلى اليوم على اعتقاده حتى يكفر من خالفه ، وتقدم الأمر إلى المؤذنين أن يعلنوا فى وقت التسييح على المآذن بالليل يذكر العقيدة التى تعرف بالمرشدة ، فواظب المؤذنون على ذكرها فى كل ليلة بسائر جوامع مصر والقاهرة إلى وقتنا هذا (الخطط ، ج ٤ ، ص ٤٨ - ٤٩) .

(٣) راجع تفاصيل هذا الوصف الشيق للرسوم السنوية العباسية للخطبة الجامعة بمصر كما رآها ابن جبير ، فى رحلته (ابن جبير ص ٢٤ - ٢٥) . وثمة ملحوظة هامة أمدنى بها الأستاذ عبد الرحمن عبد التواب وهى أن المدارس والخوانق الأيوبية كانت مساجد لإقامة الصلوات الخمس ، وليست مساجد لإقامة الخطبة الجامعة يوم الجمعة ، ويؤيد هذا المقرئى عند ذكره لموكب صوفية خانقاه سعيد السعداء ، عند انتقالهم من الخانقاه إلى المسجد الحاكمى لإقامة صلاة الجمعة أنظر المقرئى : الخطط ٤ : ٢٧٣ . كما أفادنى الأستاذ عبد الرحمن عبد التواب أيضاً أن المدارس الأيوبية لم يكن بها منبر ، ولم تقام خطبة الجمعة فى هذه المدارس الأيوبية إلا منذ العصر المماليكى ، كما أفادنى الأستاذ عبد التواب أن القلقشندى قد فرق فى كتابه صبح الأعشى ، بين المسجد الخاص بالصلوات الخمس ، والمساجد التى تقام بها شعائر الجمعة ، قلت : وهكذا فعل النابلسى أيضاً عند حصره لمساجد إقليم القيوم من واقع ديوان الأحباس ، أنظر النابلسى : إظهار صنعة الحى القيوم ، ص ٢٠ - ٢٢ .

ولدينا نص تقليد بخطابة المسجد الجامع بدمشق ، في العصر الأيوبي ، من إنشاء ضياء الدين بن الأثير ، يوصى فيه الخطيب ، أن تكون الصلاة طويلة والخطبة قصيرة ، وأن يدعو في الخطبة للإمام العباسي ، ثم للسلطان الأيوبي ، وإن أمر الصلاة هو أيضًا موكول إلى الخطيب مقرونًا بمهمته ، وبالتبكير يوم الجمعة لوعظ الناس وترتيل القرآن . كما أوصى التقليد متولى الخطابة بأن يحتفل بصلاة الرغائب ، وصلاة النصف من شعبان ، وصلاة التراويح السنونة في شهر رمضان ، كذلك أوصى بالاحتفال لمصليات الأعياد ، لكون الناس في مواظبتها أشد حرصًا من الجمعة ، كما أوصى بأن يذكر الناس في هذه المصليات بأحسن الأذكار ، ويعرفهم ما يجب عليهم في ذبيحة الأضاحي وصدقة الإفطار ، ويشوقهم في العيد الأكبر إلى بيت الله الحرام^(١) . ويستشف من مهام الخطبة اهتمام الأيوبيين ، بنوافل الصلوات ، وخاصة صلاة التراويح ، وهو ما يخالف الشعائر الشيعية ، والجدير بالملاحظة أن الأيوبيين جعلوا الخطابة تابعة لولاية القضاء وإشراف قاضي القضاء^(٢) .

وحرص صلاح الدين ، على إزالة جميع النقوش والآثار التي تحلح أسماء خلفاء الفاطميين ، على الجوامع الكبرى بمصر ، ففي سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م ، قلع المناطق الفضة التي كان قد عملها الخليفة المستنصر بالله الفاطمي في صدر المحاربي بجوامع القاهرة ، وخاصة جامع عمرو بن العاص^(٣) . ومن ناحية أخرى جدد جامع عمرو في السنة التالية ٥٦٨هـ / ١١٧٢م ، وأعاد صدر الجامع والمحراب الكبير ، ورسم عليه اسمه ، وعمر في الجامع أغلب أجزائه ، ولقد تتبع المقرئى بالتفصيل إصلاحات صلاح الدين المعمارية في هذا الجامع^(٤) . وفي سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٢م ، التي كان فيها انتهاء خلفاء الفاطميين ، خلع صلاح الدين المنطقة الفضة من محراب الجامع الأزهر ، وقلع أيضًا المناطق من بقية الجوامع^(٥) .

وأغلب الظن أن الأيوبيين قد عنيوا ، - منذ قدوم نجم الدين أيوب والد صلاح الدين إلى مصر سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م ، بهدف الإشراف بنفسه من قبل نور الدين على إعادة شعائر السنة إلى مصر ومحو المذهب الإسماعيلي منها - ، على إنشاء عدد كبير من المساجد بمصر ، وترتيب مجالس الوعظ

(١) أنظر نص هذا التقليد بخطابة المسجد الجامع ، بإنشاء ضياء الدين بن الأثير ، في رسائل ابن الأثير ، تحقيق أنيس المقدسى ، بيروت ١٩٥٩ ، ص ١٢٤ - ١٢٧ . وعن وظيفة الخطابة كما استقرت في العصر المالكي ، أنظر السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ، ص ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٥ .

(٢) ابن حجر : رفع الإصر ، ج ٢ ، ص ٣٦٩ ، س ١٥ ، وأنظر قبله .

(٣) المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٢ .

(٤) المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٣ .

(٥) المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٥٢ .

السنى بها . وهذا ما أفادنا به الوهرانى وهو معاصر لهذه الأعوام الحاسمة^(١) ، ولقد نسب المقرئى إلى نجم الدين أيوب مسجداً عرف باسمه ، فى ظاهر باب النصر وهو من أبواب القاهرة ، وذكر أنه أنشاه فى سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م ، وجعل إلى جانبه حوض ماء للسبيل ترده الدواب^(٢) . كذلك أشاع الأيوبيون ظاهرة بناء المساجد فى المشاهد والقبور المنسوبة لآل البيت أو للصحابة والأولياء ، بغرض التبرك بها واجتذاب العامة إليها . ويخبرنا ابن جبير أنهم رتبوا على هذه المشاهد القومة ، وأجروا عليهم الأرزاق^(٣) ، وذلك فى منطقة قبر الشافعى^(٤) . وفى منطقة القرافة الكبرى^(٥) .

ويبدو أن مدينة الإسكندرية ، لغلبة المذهب السنى عليها طوال العصر الفاطمى قد حظيت بمزيد اهتمام الأيوبيين عند بنائهم للمساجد ، فبنوا بها عدداً ضخماً من المساجد رآها ابن جبير عند زيارته للإسكندرية ، وأبدى إعجابه الشديد بآثارها وعظمتها^(٦) ؛ وربما يكونوا قد أقدموا على بناء المساجد بالإسكندرية ، قبل مصر ، خاصة وأن ظهور المدارس السنية بمصر ، قد ظهر بالإسكندرية منذ وقت مبكر ، كما أن قطع الخطبة الفاطمية والدعوة لبني العباس قد تمت بالإسكندرية قبل إعلانها بمصر

(١) أنظر الوهرانى : النمامات والمقامات ، ص ١٣ - ١٤ . وعن مجالس الوعظ السنى فى العصر الممالكى ، أنظر السبكى : معيد النعم وميد النعم ، ص ١١٣ - ١١٤ .

(٢) المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .

(٣) ذكر ابن جبير مشاهد مصر بالقرافة الكبرى ، أنظر الرحلة ، ص ١٩ - ٢٤ : وقد وكل بها قومه ، يسكنون فيها ويحفظونها . والجرايات متصلة لقوامها فى كل شهر ، ابن جبير الرحلة ص ٢٠ ، س ٢٠ - ٢١ ، ص ٢٢ س ١ - ٢ . ثم يقول : ومن العجب أن القرافة المذكورة كلها مساجد مبنية ومشاهد معمورة يأوى إليها الغرباء والعلماء والصلحاء والفقراء ، والإجراء على كل موضع فيها متصل من قبل السلطان فى كل شهر ، والمدارس بمصر والقاهرة كذلك وحقق عندنا أن الإجراء على ذلك كله نيف على الفى دينار مصرية فى الشهر ، وهى أربعة آلاف دينار مؤمنة (ابن جبير : الرحلة ص ٢٤ س ٧ - ١٢) .

(٤) ابن جبير : نفس المصدر ، ص ٢٢ - ٢٤ .

(٥) أنظر بالتفصيل عن هذه المساجد . المقرئى : الخطط ، ج ٤ : ٣٠٦ ، ص ٣٢١ .

(٦) يقول ابن جبير عن الإسكندرية : وهو أكثر بلاد الله مساجد ، حتى أن تقدير الناس لها يطفف ، فمنهم المكثر والمقلل ، فالكثير ينتهى فى تقديره إلى اثنى عشر ألف مسجد ، والمقلل ما دون ذلك لا ينضب ، فمنهم من يقول ثمانية آلاف ، ومنهم من يقول غير ذلك . وبالجملة فهى كثيرة جداً تكون منها الأربعة والخمسة فى موضع وربما كانت مركبة (أى مسجد ومدرسة وغيرهما) ، وكلها بائمة مرتين من قبل السلطان ، فمنهم من له الخمسة دنانير مصرية فى الشهر .. ومنهم من له فوق ذلك ومنهم من له دونه . وهذه منقبة كبيرة من مناقب السلطان (ابن جبير : الرحلة ، ص ١٧ ، س ١٠ - ١٨) .

بحوالى أسبوع^(١) . ولكن للأسف أن هذه المساجد التي شيدها الأيوبيون بمدينة الإسكندرية ، قد اندرست كلها ولم يبق منها اليوم مسجد واحد ، وأغلب الظن أنها أيدت كلها إبان حملة القبارصة على مصر في القرن السابع الهجرى^(٢) .

والواقع أن نص الوهرانى وابن جبير وكلاهما معاصر لصلاح الدين ، إلى جانب نصوص المقرئى عن مسجد نجم الدين أيوب ، وعن مساجد أيوبية أخرى أنشأها سلاطين بنى أيوب ووزرائهم^(٣) ، تشكك فيما ذكره الدكتور أحمد فكرى في أنه لم يجد فى المصادر ذكراً لأى مسجد أنشاه الأيوبيون^(٤) .

ومما لا شك فيه أن قطع الخطبة الجامعة من الجامع الأزهر ، الذى ارتبط باسم السيدة فاطمة الزهراء ، بنت النبى صلى الله عليه وسلم ، والأم الكبرى التى تفاخر أئمة وخلفاء الفاطميين بالانتماء إليها ، وما صاحب هذا من تعطيل دراسة مذاهب الشيعة بالأزهر ، الذى ظل طوال العصر الفاطمى أضخم مراكز الدعوة الإسماعيلية بمصر^(٥) ، ثم تحويل الأزهر إلى جامعة سنية لتدريس علوم السنة ، وهو ما استمر عليه الحال حتى اليوم ، - إذا أتاحت أهمية مصر بالنسبة للعالم الإسلامى للجامع الأزهر ، أن يصبح أكبر جامعة إسلامية ، بحيث عدَّ شيخ الجامع الأزهر ، شيخاً للإسلام ؛ والواقع أن هجرة علماء أهل السنة ، بعد سقوط الخلافة الفاطمية ، من القسطنطينية إلى القاهرة ، وجلسهم لتدريس علوم السنة بالجامع الأزهر ، بالإضافة إلى توافد علماء السنة من العراق وباقي أرجاء العالم الإسلامى^(٦) وتصديهم للتدريس بالأزهر ، وكان منهم الرحالة العراقى الشهير عبد اللطيف البغدادى^(٧) - ؛ قد أدى إلى نشر علوم السنة بمصر ، وفى أغلب أرجاء العالم الإسلامى ، واستمر غلبة المذهب السننى على العالم الإسلامى إلى اليوم .

(١) أنظر أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٤ ، وأنظر قبله وبعده .

(٢) راجع أحمد فؤاد سيد : مصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر الأيوبى ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م ، ص ١٧٨ - ١٨٥ .

(٣) أنظر المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٦٦ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٩ .

(٤) أحمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها ، الجزء الثانى ، العصر الأيوبى ، دار المعارف بمصر ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٩م ، ص ٤٥ ، والمقدمة ص (و) .

(٥) أنظر المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٤ - ٥٥ ، محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٢٣ - ٢٥ ، عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ج ١ ، ص ١٨٦ .

(٦) أنظر عبد المتعال الصعدي : تاريخ الجامع الأزهر ، عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر ، ص ١١٤ . د. عبد العزيز الشناوى : الأزهر جامع وجامعة .

(٧) عبد اللطيف البغدادى : تذكرة الأسفار .

استخدام الحسبة لإعادة شعائر السنة :

وشأن الدولتين المرابطية والموحدية ، اللتين قامتتا فى أعقاب زوال السيطرة والنفوذ الفاطمى الشيعى من بلاد المغرب ، واستخدمتا وظيفة الحسبة السنوية^(١) ، للقضاء على الدعوة الإسماعيلية والتشيع ببلاد المغرب ؛ استخدمت الدولة الأيوبية أيضًا عند قيامها بمصر ، وظيفة الحسبة - وهى الوظيفة التى رتبها النظم الإسلامية لمراقبة الأسواق والحياة اليومية العامة للتأكد من مطابقتها لأحكام الشريعة - كوسيلة للقضاء على الدعوة الإسماعيلية بمصر ، والتأكد من إزالة الشعائر الشيعية فى الآذان والصلوات بالمساجد . وفى رأى كل من الدكتور العبادى والعربى أن عبد الرحمن الشيزرى ، الذى عاصر صلاح الدين وأهدى إليه كتاب المنهج المسلولك فى سياسة الملوك^(٢) ، قد ألف كتابه « نهاية الرتبة فى طلب الحسبة » بطلب من صلاح الدين ولمساعدة الحكومة الأيوبية فى مراقبة أرباب الحرف لميولهم للدولة الفاطمية^(٣) ؛ لذلك حرصت الدولة الأيوبية على إضافة الحسبة فى سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨م ، إلى جملة ولاية قاضى القضاء بالديار المصرية ، القاضى الكردى ابن درباس^(٤) . ولما كانت الدولة الأيوبية ، كما مر بنا قد جعلت التدريس والإشراف عليه شريكًا لمهمة فصل الأحكام ومباشرة القضاء بالنسبة لقاضى القضاء^(٥) ، فإن إشراف القاضى على الحسبة أيضًا يعنى أن الأيوبيين قد جعلوا من منصب قاضى القضاء ، الذى كان له الإشراف الكامل على جميع شئون الدعوة الإسماعيلية فى العصر الفاطمى ، له الإشراف الكامل على تتبع مراحل القضاء على بقايا الدعوة الإسماعيلية بمصر فى العصر الأيوبي ، وفى نفس الوقت الإشراف الكامل على نشر مذهب أهل السنة وعلوم السنة فى أرجاء الديار المصرية .

- (١) أنظر إقبال موسى : الحسبة فى المغرب ، مع بعض نصوص خاصة بها ، رسالة مقدمة إلى قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، للحصول على درجة الماجستير فى التاريخ الإسلامى سنة ١٩٦٨ .
- (٢) عن دراسة وافية لهذا الكتاب ، راجع الجزء الثانى من كتابنا مصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر الأيوبي ، تحت الطبع إن شاء الله ، وراجع الآن ، نقد مصادر رسالتنا للماجستير ، التى نوقشت بجامعة عين شمس سنة ١٩٨١م ، وكانت بعنوان نظم الحكم والإدارة فى العصر الأيوبي بمصر .
- (٣) عبد الحميد العبادى : كتب الحسبة وفانديتها فى وضع المعجمين الوسيط والكبير ، مجلة مجمع اللغة العربية ، الجزء الثامن ، سنة ١٩٥٥ ، ص ٤٢٢ - ٤٢٧ ، وعلى الخصوص ص ٢٢٤ - ٤٢٥ ، الباز العربى : مقدمة لكتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة للشيزرى ، طبع مصر ١٩٦٥ ، ص ١٥ - ص ١٥ .
- (٤) ابن حجر : رفع الأصر ، ج ٢ ، ص ٣٦٩ ، ص ١٥ .
- (٥) أنظر قبله .

وثمة ملحوظة على قدر كبير من الأهمية ، لاحظها المؤرخ الكبير ابن خلدون ، خاصة بالتطور الذى طرأ على نظام الحسبة فى الإسلام ، مما اقتضى فصلها عن القضاء ، وإندراجها فى وظائف الملك السياسية ، وأفرادها بالولاية ، وذلك لما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة وصار نظر السلطان عامًا فى أمور السياسة ؛ إذ قال ابن خلدون عن الحسبة : وقد كانت فى كثير من الدول الإسلامية ، مثل العبيدين (أى الفاطميين) بمصر والمغرب ، والأمويين بالأندلس ، داخله فى عموم ولاية القاضى ، يولى فيها باختياره . ثم لما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة ، وصار نظره عامًا فى أمور السياسة ، اندرجت فى وظائف الملك وأفردت بالولاية^(١) .

ويفسر عبد الحميد العبادى ، هذه الملحوظة الخلدونية ، على أساس أنه منذ ظهور منصب « إمرة الأمراء » فى بغداد سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م ، وما تلاه من أنظمة عسكرية استحوذت السلطات الفعلية العامة فى شئون الحكم الفعلية وبقي للخلفاء الإسم والسلطة الروحية فقط ، صادف هذا الحدث السياسى قيام حالة خطيرة فى الأمصار الإسلامية الكبرى ، من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ، مثل غزة وبغداد ودمشق والقاهرة وفاس ومراكش ومدن الأندلس ، إذ غدت هذه المدن العظام مراكز صناعية وتجارية كبيرة وبيئات اجتماعية مختلطة تتزاحم فيها الميول السياسية المتعارضة ، والمذاهب الدينية المختلفة ، الأمر الذى اقتضى من ولاة الأمور ، فى الدول الإسلامية المختلفة ، سهرًا ويقظة ، حتى لا يضطرب جبل الأمن وتعم الفوضى ، خاصة وقد كان معظم أهل الحرف والصناعات ، ذوى ميول سياسية ، ونزعات مذهبية ، وكان كثير من أهل المذاهب الدينية متعصبين لمذهبهم ، مستعدين فى سبيل نصرته لحمل السلاح وإراقة الدماء ؛ وقد ضرب العبادى أمثلة لهذه الصراعات السياسية والمذهبية بين السنة والشيعة ببغداد وبلاد الشام فى القرن الخامس الهجرى ، وبمدينة القاهرة ، بعد أن قضى صلاح الدين على الدولة الفاطمية ، إذ كان هوى كثير من أهل الحرف والصناعة مع الدولة الفاطمية الذاهبة^(٢) .

وأغلب الظن ، أن وظيفة الحسبة ، كوظيفة سياسة مستقلة عن القضاء ، قد اتخذت كوسيلة سياسة لمحاربة المذهب الفاطمى ، وتتبع أنصاره المندسين فى النقابات الصناعية ، على يد سلاطين السلاجقة ، ونوابهم فى حكم بلاد الشام ، الذين عرفوا بالاتابكة ، منذ القرن الخامس الهجرى ، وذلك لاستقواء دعوة الإسماعيلية النزارية فى بلاد إيران والشام فى هذا القرن^(٣) ، لذلك فإن كتاب

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٢٦ ، س ٢ - ٥ .

(٢) عبد الحميد العبادى : كتب الحسبة ، ص ٤٢٢ - ٤٢٣ . وأنظر برنارد لويس النقابات الإسلامية ، ترجمها إلى العربية عبد العزيز الدورى ، مجلة الرسالة سنة ١٩٤٠م أعداد ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٦٢ .

(٣) أنظر قبله .

عبد الرحمن بن أبي بكر الدمشقي المعروف بالجويري ، الذي يعد من أقدم كتب الحسبة المشرقية التي وصلت إلينا . كان مؤلفه من كتاب الدولة الأرتقية^(١) ، وهم أتابكة السلاجقة ونوابهم في حكم بلاد الجزيرة الفراتية التي كانت معبر النزارية من بلاد إيران إلى بلاد الشام^(٢) . وقد وضعه الجويري كما يقول في مقدمته بطلب من السلطان مسعود ، وبناء على ثلاثين فصلاً ، كلها في التعريف بطرق الفسح والتدليس في الصناعات المختلفة وما يقع من طوائف معينة من الناس - والمقصود أغلب الظن النزارية - من الشعوذة والاحتيال ؛ فلا غرابة أن جمع لأحد المحتسبين في العصر الأتابكي البوري بدمشق بين نظر الحسبة ونظر الشرطة^(٣) .

وإذا كان انفصال الحسبة عن القضاء وصيرورتها أداة رقابة وضبط وتنفيذ سريع ، قد أدى إلى اتساح شخصية المحتسب^(٤) ، فإن إحدى وثائق العصر الأيوبي ، الخاصة بسجل تقليد محتسب^(٥) ، تؤكد لنا أن متولى الحسبة في هذا العصر - وخاصة في بلاد الشام التي ظلت الفرق الشيعية والكلامية بها ، تظهر مقاومة مستميتة - ، قد منحت الدولة الأيوبية سلطات ضخمة جداً ، تجاوزت السلطات التي عرفت للمحتسب من قبل ، وخاصة في العصر الفاطمي ، على نحو ما شهدت وثيقة خاصة بسجل تقليد محتسب فاطمي^(٦) .

ولقد اصطلح على تسمية سلطة المحتسب ، وعقوباته التي ينزلها بالمخالفين بـ « التعزير »^(٧) ، بمعنى توقيع العقوبة على مرتكب إحدى المنكرات ، على أساس الاجتهاد الشخصي للمحتسب الذي

(١) أنظر عبد الرحيم (أو الرحمن) بن عمر الدمشقي الجويري : المختار من كشف الأسرار ، المطبعة المحمودية ، القاهرة ، د . ت .

(٢) طه شرف : دولة النزارية ، ص ٢٠٤ .

(٣) الشيزري : نهاية الرتبة ، ص ٧ - ٨ .

(٤) عبد الحميد العبادي : كتب الحسبة ، ص ٤٢٣ .

(٥) أنظر تقليد أنشأه ضياء الدين بن الأثير لمنصب الحسبة ، عند ضياء الدين بن الأثير : رسائله ، تحقيق أنيس المقدسي ، ص ١٣٩ - ١٤٨ .

(٦) أنظر سجل فاطمي بولاية الحسبة ، من إنشاء القاضي الفاضل ، القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ٤٦٠ - ٤٦٢ .

(٧) عن التعزير ، أنظر الشيزري : نهاية الرتبة ، ص ٩ ، ص ١٦ - ١٨ ، ص ١٠٩ - ١١٠ ، ابن تيمية : الحسبة في الإسلام أو وظيفة الحكومة الإسلامية ، طبع بمطبعة المؤيد ١٣١٨ هـ ، ص ٣٨ - ٤٦ وهو يفرق بين " الحدود " ، و " التعزير " وهو يقرر في ص ٤٠ أن المحتسب ليس له القتل والقطع ، ثم يضيف أن من أنواع التعزير النفي والتعريب ، وأن التعزير بالعقوبات المالية مشروع أيضاً ، وأنظر أيضاً نفس المصدر ، ص ٤٨ - ٤٩ فصلاً بعنوان : " الثواب والعقاب يكونان من جنس العمل " .

كان يشترط في اختياره تفقه في علوم الشريعة^(١) ، وكانت القاعدة الأساسية في تحديد طريقة «التعذير» ، المبدأ القائل بأنجزاء على قدر جنس العمل ، وقد كانت سلطة المحتسب في تنفيذ عقوباته ، تسمح له بمعاينة صاحب الجرم ، بأى عقاب يراه من تشهير أو زجر أو مصادرة للسلعة المغشوشة ، أو إخراج التاجر المتلاعب من السوق ، أو ضربه ضرباً يسيراً بـ «الدرة»^(٢) ، وهى آلة الحسبة ، على ألا تتجاوز العقوبة التى يقررها المحتسب ، إطار «التعذير» ، إلى إطار إقامة الحدود الشرعية التى نص عليها الشرع ، بالنسبة للجرائم الكبرى ، مثل السرقة والقتل والزنا ... إلخ . وهى عقوبات ثابتة ، يحكم فيها القاضى ، وينفذها صاحب الشرطة^(٣) ، بحيث لم تكن عقوبة التعذير تتجاوز الضرب بأى حال من الأحوال .

إلا أننا نجد المحتسب الأيوبي ببلاد الشام ، يمنح حتى إقامة الحدود فى الأسواق ، وقتل معتقى المذاهب الشيعية والكلامية والفلسفية بمجد السيف^(٤) ، وهذا أمر لم يسمع به من قبل بالنسبة لسلطة المحتسب ، وهو إذ دل على شىء ، فعلى مدى المقاومة القوية التى واجهها الأيوبيون من فرق الشيعية وأنصارهم فى بلاد الشام ، لذلك فإننا نجد فى سجل آخر ، خاص بتقليد محتسب أيوبى بمدينة حلب ،

(١) يقول الشيزرى : لما كانت الحسبة أمراً معروفاً ، ونهياً عن منكر ، وإصلاحاً بين الناس ، وجب أن يكون المحتسب فقيهاً عارفاً بأحكام الشريعة ، ليعلم ما يأمر به وينهى عنه . فإن الحسن ما حسنه الشرع ، والقيح ما قبحه الشرع ، ولا مدخل للعقول فى معرفة المعروف والمنكر إلا بكتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم (نهاية الترتبة ص ٦) .

(٢) يقول الشيزرى : ويتخذ المحتسب له سوطاً ، ودره ، وطرطوراً وغلماًناً وأعوأناً ، فإن ذلك أرفع لقلوب العامة وأشد خوفاً : (الشيزرى : نهاية الترتبة ، ص ١٠ س ١ - ٣ ، و ص ١٠٨ - ١٠٩) .

(٣) أنظر ابن تيمية : الحسبة فى الإسلام ص ٣٨ - ٤٠ ، وأنظر أيضاً ابن تيمية : السياسة الشرعية ، تحقيق على سامى النشار ، وأحمد زكى عطية ، الطبعة الثالثة ١٩٥١ ، القسم الثانى : "الحدود والحقوق" ص ٦٦ - ١٦٦ .

(٤) جاء النص على منح المحتسب سلطة القتل وإقامة الحدود على المنتسبين للفرق المتدعة المخالفين لعقائد السلف أول أمر فى تقليد المحتسب الذى أورده ضياء الدين يقول : أعلم أن الناس قد أماتوا سنناً وأحياوا بدعاً ، وتفرقوا فيما أحدثوه من المحدثات شيعاً ، ونحن نأمرك أن تصفح أحوال الناس فى أمر دينهم فابداً أولاً بالنظر فى العقائد ، وأهد فيها إلى سبيل الفرقة الناجية الذى هو سبيل واحد ، وتلك الفرقة هى السلف الصالح الذين لزموا موطن الحق .. ومن عداهم فتشعب دانوا أدياناً ، واتبعوا ما لم ينزل به سلطاناً ، فمن انتمى من هؤلاء إلى فلسفة فاقته ولا تسمع له قولاً ، وليكن قتله على رؤس الأشهاد (ضياء : رسائله ، ص ١٤٠) وكرر الأمر بعد ذلك بقوله (فإن أبت هذه الطوائف إلا الأضرار فخذهم عند ذلك بمجد الجلود . (نفس المصدر ص ١٤١) .

مناشدة للنواب وولاية الشرطة بتقوية يد المحتسب ومعاونته على إنفاذ أحكامه^(١) ، فى حين كانت هبة المحتسب الشخصية فى الأسواق ، واحترام التجار له ، واستجابة نقبائهم^(٢) لتوجيهاته ، إلى جانب « أعوان »^(٣) المحتسب المكلفين بتتبع مظاهر المنكرات وإبلاغه بها ومساعدته فى مهامه ، كقيلة بإذعان المدلسين من التجار لعقوباته و « تعذيره » ، طالما كان الأمر متعلقًا بالمخالفات التجارية العادية .

وقد نص سجل تقليد المحتسب ، على البحث عن كتب أهل الملل والنحل ، والفلاسفة والمتكلمين ، والمنتمين إلى الفرق الإسلامية المخالفة فى المذهب لأهل السنة والجماعة ، وأمر المحتسب بتمزيق وإحراق كتبهم التى ألّفوها للدعوة إلى مذاهبهم ، بل ذهب إلى حد القبض على كل من يوجد فى بيته مثل هذه الكتب ، والتكيل والتشهير به^(٤) ، ولقد خص السجل بالذكر بعض الفرق الإسلامية ، يبدو أنه كان لها خطرهما بالنسبة للنظام الأيوبي ، كنظام يقوم على أساس نصره الدعوة السنية ، ومحاربة الدعوة الإسماعيلية الشيعية ، وما يتعاطف معها من فرق إسلامية أخرى ، بسبب ميلها لقضية الشيعية السياسية ، أو للتقارب العقائدى بينها وبين العقائد الإسماعيلية ، خاصة وأن أغلب الفرق الإسلامية ، المغايرة لمذهب أهل السنة والجماعة ، القائم على ظاهر النصوص ، والاعتماد على العلوم الشرعية الثقيلة ، تشابه مذهب الإسماعيلية فى تزييل متشابه القرآن ، وتفسير آياته تفسيرات باطنية ، هذا إلى جانب جنوح أغلب هذه الفرق الإسلامية إلى التأثر بالفلسفات القديمة وخاصة الفلسفة اليونانية .

(١) أورد العماد الأصفهاني منشور من إنشائه لمحتسب حلب ، متضمنًا شروط الاحتساب أنظر البرق الشامى - خ ج ٥ لوحة ١٠١ ب - ١٠٤ جاء فيه : وليذع المتلبسين بالتعجيم والشعبذة والكهانة .. وليصن المساجد .. من اتخاذها .. حلقًا لذوى الخرافات وليكيف صوت المحدثين فى العقائد بما يوتغها (كذا) ، ويقطع عما يطلقها فى أغراض السلف الصالح ويولفها .. وسبيل الولاية والأمراء والشحن والنواب معاونة على ما وليناه .. وتنفيذ أحكامه .. وموافقته على حيس من يراه .. وإرهاق حد من نبا على الحق ..

(٢) عن وظيفة العريف ، أنظر الشيزرى : نهاية الرتبة ص ١٢ - س ٣ - ٧ .

(٣) عن أعوان المحتسب / أنظر نفس المصدر ص ١٠ ، س ٨ - ١٠ .

(٤) جاء فى سجل تقليد المحتسب : وما يجده من كتبها التى هى سموم ناقعة لا علوم نافعة ، وأفاع ملففة لا أقوال مؤلفة ، فاستأصل شافيتها بالتمزيق ، وأفعل بها ما يفعله الله بأهلها من التحريق ، ولا ينفعك ذلك حتى تجتهد فى تتبع آثارها ، والكشف عن مكامن أسرارها ، فمن وجدت فى بيته ، فليؤخذ جهارًا ، ولينكل به إشهارًا (ضياء الدين ابن الأثير : رسائله ، نشر المقدسى ، ص ١٤٠ س ١٧ - ٢١) . ومن كان ذا مكانة نابهة فلتهبط ، أو شهادة عادلة فلتسقط ، (نفس المصدر ، ص ١٤١ ، س ٣ - ٤) .

فلم يقتصر السجل بإلزام المحتسب بالقبض على الإسماعيلية الذين سماهم بالرافضة ، واتهمهم بالخروج عن الإسلام ، وقيام مذهبهم على العصبية ، والأهواء السياسية المخالفة لجوهر الشريعة والعقيدة الإسلامية ، وإساءتهم للإمام علي بن أبي طالب بإدعائهم أنه أحق بالخلافة من سبقه من الخلفاء الراشدين ، كما اتهم الإسماعيلية أيضاً بوضع الأحاديث الخاصة بولاية علي ، وأنهم قد أولوا هذه الأحاديث بالباطل لخدمة دعوتهم السياسية^(١) ، بل نجد السجل يلزم المحتسب أيضاً بالقبض على القدرية^(٢) ، والمشبهة والمجسمة^(٣) ، والقائلين بخلق القرآن^(٤) ، ثم يأمر السجل المحتسب بعرض التوبة على أتباع هذه الفرق المخالفة لأهل السنة ، فإن أصروا على مذاهبهم فليأمر بجلدهم ، فإن بقوا على إصرارهم ، فليأمر بقتلهم^(٥) .

ولقد عقد الفقيه السني ابن تيمية ، في كتابه عن الحسبة في الإسلام - الذي ألفه في العصر المالكي - فصلاً هاماً ، ناقش فيها أهمية الاحتساب على من سماهم بأهل «التدليس في الديانات» ،

(١) جاء في نفس هذا السجل : وأما الفرقة المدعوة بالرافضة ، التي هي لما رفعة الله خافضة ، فإنهم أناس ليس لهم من الدين إلا اسمه ، ولا من الإسلام إلا رسمه ، وإذا نقب عن مذهبهم ، وجد على العصبية موضوعاً ، وغير ما شرعه الله ورسوله شروغاً ، ذبوا على عن علي فأسلموه ، وأخروه إذ قدموه ، وهؤلاء وضعوا أحاديث فنقلوها وأولوها على ما أولوها ، فتبع الآخر منهم الأول على غمه ، وقالوا أنا وجدنا آباءنا على أمه (نفس المصدر ، ص ١٤١ ، س ١٦ - ٢١) .

(٢) جاء في نفس السجل : وأما من تحدث في القضاء والقدر ، وقال فيه بمخالفة نص الخبر ، فليس في شيء من ربه الإسلام ، وإن تسك بمداومة الصلاة والصيام . قال النبي صلى الله عليه وسلم ، القدرية مجوس هذه الأمة . والمراد بذلك أنهم ماثلوا بين الله والعد والظياء والظلمة ، فعلاج هذه الطائفة أن تجزى بأن تجزى فليقابل حقها بالتكسير واسمها بالتصغير ، ولتنقل إلى يقل الحدود عن خفة التعذيب (نفس المصدر ، ص ١٤٠ - ١٤١) . والقدرية هم القائلين بجريمة اختيار الإنسان لأفعاله ورفضهم لقول الجبرية بأن الإنسان مجبر ومصير غير مخير في اختيار أفعاله .

(٣) كذلك مجرى الحكم فيمن قال بالتشبيه والتجسيم ، (نفس المصدر ، ص ١٤١ س ٤) . والقول بالتشبيه هو الاعتقاد بأن الصفات الإلهية والأسماء الإلهية التي وردت في القرآن ، يجب أخذها وفهمها على نصها الحرفي وليس المجازي ، وفي هذا تشبيه الله عز وجل ببعض خلقه من الإنسان . أما التجسيم فهو الاعتقاد بأن الله عز وجل جسم ، يمكن أن تحده الأبصار وتراه ، والقول بالتجسيم في الواقع ، قد ترتب على القول بالتشبيه .

(٤) أو قال بحدوث القرآن القديم . ومن ملحدى القرآن ، فرقة فرقت بين المعنى والخط ، وفرقة قالت فيه بالشكل والنقط ، وكل هؤلاء قوم خيشت سرائرهم ، وعميت بصائرهم ، وعظمت عند الله جرائمهم ، (نفس المصدر ص ١٤١ س ٤ - ٦) وأول من قال بحدوث القرآن أو خلق القرآن هو المتكلم القدرى الشهير الجعد بن درهم ، الذى عاش في نهاية العصر الأموى ، وعنه أخذ المعتزلة ، القول بخلق القرآن .

(٥) فخذهم بالتوبة .. فإن أبت هذه الطوائف إلا الأصرار .. فخذهم عند ذلك بجد الجلد ، فإن لم ينجح فنجد ذوات الحد (نفس المصدر ص ١٤١ س ٧ - ١٥) .

وأصحاب البدع المخالفة للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة من الأقوال والأفعال ، والملاحظ أن الأراء الكلامية التي ذكرها ابن تيمية . واتهمها بتهمة التدليس فى الديانات ، لا تنسحب إلا على فرق الشيعة ، وخاصة الشيعة الإسماعيلية ، وإن لم يصرح باسم الإسماعيلية صراحة ، وقد اتهم دعائهم باللجوء إلى وسائل السحر والشعوذة^(١) ، وهو أمر سبق وروده فى سجل محتسب حلب^(٢) واعترف به كبير دعاة الفاطميين القاضى النعمان ، حين لم ينكر أن الداعى أبو عبد الله الشيعى ، عند أول قدومه إلى المغرب ، قبل قيام الخلافة الفاطمية بها ، قد استخدم وسائل السحر والشعوذة للتأثير فى القبائل البربرية التى استجابت لدعوته^(٣) .

كذلك ، وجه ابن تيمية اهتمامًا خاصًا بالنسبة لفرقة كلامية أخرى ، هى فرقة المعتزلة ، على أساس أنها تأخذ من مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، الذى هو الأساس الشرعى لوظيفة الحسبة فى الإسلام ، زريعة للخروج على أئمة المسلمين وإعلان خلعتهم والمطالبة بتولية غيرهم ممن تتوفر فيهم شروط الخلافة ؛ وفى رأى ابن تيمية أن الخروج على خلفاء الإسلام ، مُخالف لمذهب أهل السنة والجماعة ، لأنه يوقع الأمة فى الفتن^(٤) ، التى تبتدئ شمل وحدتها ؛ وغنى عن البيان ، أن اتخاذ مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ذريعة للخروج على الخلافة الإسلامية القائمة ، وهو المبدأ الذى عدته فرقة المعتزلة أحد أصول مبادئها الخمس الشهيرة ، على أساس أن الخروج على الأئمة الظالمين ، يعد من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كان يعطى لأنصار الدعوة الإسماعيلية ، بعد سقوط خلافتهم بمصر ، سندًا شرعيًا للعمل على إسقاط الخلافة العباسية .

وعلى هذا الأساس نفسر عداء الأيوبيين بالشام لفرقة القدرية ، وهى من أقدم فرق المعتزلة بالشام^(٥) ، كما نفسر أيضًا قتل الأيوبيين بالشام للفيلسوف والمتصوف الشهير السهروردى^(٦) ، الذى كان فى الغالب يظهر التصوف وعلوم الكلام والفلسفة ، ويطن التشيع والمذهب الإسماعيلى .

(١) أنظر ابن تيمية . الحسبة فى الإسلام ، ص ٣٧ - ٣٨ وهو نص هام فليراجع .

(٢) أنظر قبله .

(٣) أنظر القاضى النعمان بن حيون : كتاب الفتاح الدعوة ، طبع بيروت ، ومقدمة المحققة الدكتورة وداود القاضى .

(٤) أنظر ابن تيمية : الحسبة فى الإسلام ، ص ٥٥ ، وهو نص هام فليراجع .

(٥) كان ظهور هذه الفرقة فى بداية العصر الأموى ، أنظر زهدى محمد جابر الله : المعتزلة طبع مصر ١٣٦٦هـ ص ٦ - ٩ .

(٦) ابن شداد : التوادر السلطانية ، ص ١٠ ، ص ٣ - ٧ .

وثمة إشارات عديدة أوردها الشيزرى ، توضح أهمية وظيفة الحسبة فى العصر الأيوبي ، فى محاربة المذهب الشيعى ، فقد كان المحتسب يشرف على تعليم الصبيان والصغار فى الكتاتيب ، ويمنع مؤديهم فى هذه الكتاتيب من تحفيظهم أشعار الشعراء الذين اشتهروا بتشيعهم ومدحهم للخلفاء الفاطميين بمصر مثل الشاعر صريع الدلا ، الذى مدح الخليفة الفاطمى الظاهر ، ومثل الشاعر أبو عد الله بن الحجاج ، الذى اشتهر اسمه ببغداد فى عهد ملوك بنى بويه الشيعة ؛ كما أمر الشيزرى المحتسب أن ينهى مؤدى الصبيان عن تحفيظهم الأشعار التى عملتها الروافض (أى الإسماعيلية) فى أهل البيت ، بل يعلمهم الأشعار التى مدح بها الصحابة ، ليرسخ ذلك فى قلوبهم^(١).

كما أفاد الشيزرى أنه كان على المحتسب أن يتقدم إلى جيران كل مسجد ، بالمواظبة على صلاة الجماعة عند الأذان ، لإظهار معالم الدين وإشهار شعار الإسلام ، وأوضح الشيزرى أهمية هذه الأمور بالنسبة لعصره ، لوجود بقايا للشيعة ، وإن فى هذا العمل تقوية لعقائد عوام الناس ، الذين قد تنجح وسائل الشيعة فى استمالتهم إلى دعوتهم^(٢) . كما كان على المحتسب أن ينهى الشعاذين وأهل الكدية والعميان : عن إنشاد الشعر الذى عملته الروافض فى أهل البيت ، ومن ذكر المصرع (أى ملحمة قتل الحسين فى كربلاء) وإشابهه لأن هذا كله فتنة للعامة^(٣) .

فمجمال القول أن وظيفة الحسبة فى العصر الأيوبي ، إلى جانب المهام التقليدية للحسبة الإسلامية ، قد خضعت للإشراف المباشر لقاضى القضاة ، واتصفت بصفة سياسة لخدمة الاتجاه السياسى للسلطنة الأيوبية السنية فى محاربة بقايا الوجود الشيعى فى مصر والشام ، سواء المتمثل فى دغاة الإسماعيلية والقدرية^(٤) بالشام ، الذين عمد المحتسب إلى القبض عليهم وتمزيق كتبهم

(١) الشيزرى : نهاية الرتبة ص ١٠٣ - ١٠٥ . والجدير بالذكر أن الأيوبيين فى بلاد الشام ، كانوا يعهدون بالحسبة إلى من تفقه على كبار علماء أهل السنة بالشام ، وعرف عنه التمسك بتعاليم المذهب السنى . وأنظر الصفدى : الوافى بالوفيات ، ج ٤ ، ص ٩٨ ، فى ترجمة جمال الدين ابن كروم المحتسب الدمشقى ، الذى وصف بأنه كان رئيساً محتشماً قيماً بالحسبة ، وأنظر عن حسبة القاهرة ، المقرئى : السلوك ج ١ ق ١ ، ص ٣٠٥ .

(٢) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ١١١ ، س ٢ - س ٦ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١١٣ ، س ٥ - س ٨ .

(٤) هى فرقة جمعت بين القول بحرية الإرادة ، أى أن الإنسان له حرية الاختيار فى أفعاله وليس مجبراً وليس مبصر ، وتعاطفوا مع الدعوة الشيعية وأظهروا العداء للحكومة الأموية التى روجت للقول بالجبر ويررت به انتقال الخلافة من البيت العلوى إلى البيت الأموى .

وإحراقها ثم استنابتهم وتوقيع حد الجلد ثم القتل على من أصر منهم على دعوته ومذهبه ؛ أو المتمثل في النقابات الحرفية والمهنية في أسواق القاهرة ، التي كان هوى أصحابها لا يزال مع الدولة الفاطمية الزائلة ؛ ولم تقتصر جهود الحسبة الأيوبية في مقاومة الدعوة الإسماعيلية على التصدى لفئة المثقفين الممثلة في دعاة المذاهب الكلامية ومعتنقها وفي أرباب الصناعات والحرف ، بل اهتمت اهتماماً خاصاً بالعوام الذين قد تؤثر فيهم الملاحم الشيعية الخاصة بوصف مصرع الحسين ومصارع الطالبين ، فعمدت إلى منع أهل الكُذبة من ترديدها في الأسواق ، كما منعت الصبيان في الكتابيب من حفظ الأشعار التي نظمها الشعراء المتشيعين في حب آل البيت ، ومدح خلفاء وملوك الشيعة ، هذا بالإضافة إلى التأكد من أن شعائر الآذان والصلوات تقام وفق الشعائر السنية^(١) ، حتى لا يستمر العامة على ما ألفوه من شعائر شيعية ، فرضها الفاطميون إبان دولتهم ؛ هذا بالإضافة إلى احتفاء المحتسب ، بالصلوات الخاصة بالأعياد والمواسم السنية^(٢) .

تشجيع التصوف والفكر الصوفي :

وإذا كان إنشاء الأيوبيين للمدارس السنية بمصر سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م ، قد هدف إلى نشر علوم السنة بين مثقفي الشعب المصري ، ثم جاء قطع الخطبة والدراسة في سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٢م من الجامع الأزهر معقل الدعوة الشيعية بمصر ، تأكيداً لعدم منافسة علوم الدعوة الإسماعيلية الفلسفية ، للعلوم الفقهية السنية التي عملت المدارس السنية على نشرها بين المصريين ؛ وإذا كان تحويل المذهب الفقهي الرسمي للدولة المستخدم في القضاء إلى الفقه الشافعي ، قد أكد أن المذهب الفقهي الرسمي للدولة الأيوبية هو المذهب الشافعي السني ؛ وجاء إسناد مهمة الإشراف المباشر على المدارس السنية بمصر لقاضي القضاء ، نوعاً من الإشراف الرسمي للدولة على التعليم - رغم ما جرى

(١) الشيزري : نهاية الرتبة ، ص ١١١ ، س ٣ - ٦ .

(٢) ضياء الدين بن الأثير : مجموع رسائله ، تحقيق المقدسي ، ص ١٤٢ ، الذي يوصي المحتسب بالاهتمام بالإشراف على صلاة يوم الجمعة الذي هو في الأيام بمنزلة الأعياد في الأعوام .. ، والصلوات الخاصة بالمواسم والأعياد السنية ، فيقول : وفي الأعوام مواسم لصلوات مخصوصة ، كالتراويح في شهر رمضان والרגائب في أول جمعة من رجب ، وليلة النصف من شعبان . فلتنمأ المساجد في هذه المواسم .

عليه العرف منذ صدر الإسلام ، واعتبار التعليم ملكًا للأمة^(١) ، بحيث لم تتدخل الدولة في تنظيم شئون التعليم ، إلا في حالات خاصة أملت الظروف السياسية ، كما حدث في العصرين الفاطمي والأيوبي - قد استهدف أيضًا نشر علوم السنة بين المثقفين .

وإذا كانت وظيفة الحسبة السنوية قد قامت بدور مزدوج لمحاربة التشيع والتأكد من تطبيق الشريعة السنوية على مستوى الفقهاء والمتكلمين ومتقفي الصانع والتجار من ناحية ، وفي نفس الوقت على مستوى طلبة الكتاتيب والعامّة والجهال في الأسواق ؛ فإن الحكومة الأيوبية ، قد لجأت إلى وسيلة أخرى ، لمحاربة الدعوة الإسماعيلية بمصر ، ونشر المذهب السني ؛ استهدفت أيضًا استمالة قلوب المصريين من المثقفين والعامّة الأيمن على حد سواء ، وإن كانت قد استهدفت بالدرجة الأولى ، طبقة العوام ، وأعنى بهذه الوسيلة « التصوف » .

(١) المقصود بأن التعليم في الإسلام كان ملكًا للأمة ، يعنى أن المسلمين منذ صدر الإسلام قد شغفوا بدراسة العلوم الدينية النقليّة مثل الحديث ، والفقه والتفسير وبقاى علوم القرآن ، فكان طلبة العلم يرتحلون في تحصيله وجمعه من أفواه الشيوخ والأئمة ، من أطراف العالم الإسلامي ، الذى امتد في بعض الأوقات من حدود الصين شرقًا إلى بلاد الأندلس غربًا . وكانت العلاقة بين الشيوخ وطلبة العلم ، أى بين العالم والمتعلم ، تقوم على أساس المعرفة الشخصية المباشرة بين العلماء وتلامذتهم ، وإن عيّنت كثيرًا كتب آداب التعلم بوضع قواعد وأصول تنظيم آداب التعامل والسلوك في مجالس الدرس والتعليم ، وقد استمدت هذه المؤلفات مادتها من كتب الفقه وتفرعاتها ؛ أنظر مثلاً الخطيب البغدادي : تقييد العلم ، تحقيق يوسف العث ، طبع دمشق ١٩٤٩ ، ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ، وما يتبع في روايته وحمله ، طبع المطبعة النيرية بمصر ، طبعة قديمة ، د. ت ، أحمد فؤاد الأهواني : التعليم في رأى القابسي (من علماء القرن الرابع) ، طبع القاهرة ، ١٣٦٤هـ / ١٩٤٥م ، أحمد فؤاد الأهواني : التربية في الإسلام ، طبع القاهرة ١٩٥٥ ، أحمد شلبي : التربية والتعليم في الإسلام ، طبع القاهرة سنة ١٩٦٠م ؛ مجموعة رسائل عن التعليم من تأليف إخوان الصفا ، والغزالي ، والطوسي ، وابن جماعة ، وابن خلدون ، وابن حجر ، جمعها وقدم لها مجهول لم يذكر اسمه ، وطبع على نفقة السيد حسن الشربتلى ، بدار الفتح للطباعة بالقاهرة ، د. ت. ؛ ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم ، طبع الهند ١٣٥٣هـ .

والجددير بالاتفات ، أن مفهوم كلمة مدرسة في الإسلام ، تختلف عن مفهوم المدرسة في المصطلح المعاصر لنا اليوم ، فكلمة مدرسة في الإسلام تعنى بناء خاصًا ، يخصص له من الأوقاف والموارد ، ما يكفى لإطعام وإسكان الطلبة والمدرسين ؛ وسواء إذا كانت هذه المدرسة قد تولت إنشاءها الدولة أو الأفراد ، فقد كان للمدرس ، مطلق الحرية في اختيار المؤلفات والتصانيف التى يدرسها للطلبة ، إلا إذا كان من شرط وقيّة المدرسة أن تكون مختصة بنوع من العلوم (الحديث مثلاً) ، أو بمذهب معين من المذاهب الفقهية (الشافعى مثلاً) - وهذا ما وجدناه في العصرين الزنكى والأيوبي - ؛ ولم يكن ثمة التزام بالنسبة للطلبة لحضور جميع العلوم التى تدرس ، كذلك لم تكن تمنح شهادات للتخرج ، كما لم يكن يشترط سن معين للالتحاق بالمدرسة .

ويخبرنا ابن شداد أن صلاح الدين بدأ في غرس التصوف في أهل مصر لمحاربة التشيع ، وهو لا يزال وزيراً للفاطميين^(١) ، ويفسر محمد كامل حسين ، اتخاذ الأيوبيين للتصوف ، كوسيلة لمزاخمة بقايا العقائد الإسماعيلية بمصر ، بأن الأراء الصوفية ، كانت منذ أواخر العصر الفاطمي ، هي التي شغلت الفراغ الذي تركه دعاة الإسماعيلية ، إذ كان المصريون قد تأثروا بمعتقدات وتعاليم الإسماعيلية ، ولما وجدوا أنفسهم بعد إنقراض الدولة الفاطمية قد حرموا مما يغذى عاطفتهم الدينية ، اتجهوا إلى التصوف ، وأحلوه في نفوسهم وحياتهم محل ما كانوا يسمعون من الدعاة الإسماعيلية ، ويعتقد كامل حسين أن القائمين على الدولة الأيوبية ، فهموا هذه الناحية النفسية في الشعب ، فحاربوا العقائد الفاطمية بمصر بتعاليم الصوفية^(٢) .

وذهب الباحثون مذاهب شتى في تفسير سبب انتشار التصوف بمصر في نهاية العصر الفاطمي وبداية العصر الأيوبي ، فأرجع بعضهم هذه الظاهرة من ناحية إلى سوء الأحوال السياسية والاقتصادية التي عاشها الشعب المصري في مرحلة الانتقال بين العهدين الفاطمي والأيوبي ، من فتن داخلية ومجاعات ، وحروب صليبية ، ردت مصر إلى لون من الحياة فيه شعور حقيقي بالفقر مما خلق في الناس استعداداً للخضوع لدينهم وأملًا في نعيم الآخرة^(٣) ، وقوى الاتجاه الصوفي عند المصريين دخول الفكر الأشعري إلى مصر على يد صلاح الدين وأثر ذلك في ميل أهل مصر للعلوم الدينية الثقيلة ، أكثر من ميلهم إلى العلوم الفلسفية العقلية^(٤) ، هذا بالإضافة إلى أن الشعب المصري ، شعب متدين بطبيعته ، وأن للدين عليه سلطانًا عظيمًا^(٥) ، وأن التصوف قد عرف بمصر الإسلامية منذ وقت مبكر يرجع إلى القرن الثالث الهجري ، واشتهر بمصر منذ القرن الثالث الهجري ، متصوفه أحرزوا شهرة كبيرة ، وإن لم تنتشر مذاهبهم الصوفية الفلسفية بها مثل المتصوف ذو النون المصري^(٦) . هذا بالإضافة إلى طائفة عرفت بـ « الصوفية » ظهرت بمصر بالقرن الثالث الهجري أيضًا ، وقامت بالاحتساب على الحكام ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(٧) ، كما تميز التصوف بمصر الإسلامية ،

(١) ابن شداد : التوادر السلطانية ، ص ٤٠ - ٤١ .

(٢) أنظر محمد كامل حسين : بين التشيع وأدب الصوفية بمصر ، بحث نشر بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، الجزء الثاني ، المجلد السادس عشر ، ٥ ديسمبر ١٩٥٤ م ؛ محمد كامل حسين : دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ص ٦٣ .

(٣) عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية ، ص ٩٥ .

(٤) نفس المرجع ، ص ٨٧ - ٩٤ ، وأنظر بعده .

(٥) نفس المرجع ، ص ٩٦ .

(٦) نفس المرجع ، ص ١٢٠ ، أنظر محمد كامل حسين : دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ، ص ٥٣ .

(٧) نفس المرجع ، وأنظر محمد كامل حسين : المرجع السابق ، ص ٥٢ .

باعتناق عدد كبير من الفقهاء المصريين له ، كمنهج حياة الزهد والورع ، وذلك رغم الخصومة التقليدية بين الصوفية والفقهاء^(١) .

في حين يرى البعض الآخر تقاربًا بين آراء الصوفية وآراء الإسماعيلية ، ويلاحظ أن دعاة الإسماعيلية الذين أنشؤا في جميع أقاليم الديار المصرية في العصر الفاطمي ، كانوا يظهرن الزهد والورع والتقوى ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويظهر بهذا المظهر الخارجي من التقوى لجذب من لم يعتنق الدعوة ، بحيث لم يختلفوا في مظهرهم عن الصوفية ، وكانوا يأمرن العامة بالتمسك بالعبادة العملية ، التي تعرف عند الإسماعيلية « بالعلم الظاهر » ، وينشرون بين الخاصة العبادة العلمية التي سموها علم الباطن أو التأويل ، مما قارب بين آراء المتصوفة وآراء الإسماعيلية ،

(١) عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية ص ١٣٢ ، وأنظر محمد كامل حسين : دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ، ص ٥١ . ولكن مع تسليمتنا بهذه الآراء التي علل بها عبد اللطيف حمزة انتشار التصوف بمصر في نهاية العصر الفاطمي وبداية العصر الأيوبي إلا أننا نشكك فيما ذكره مسأيراً لآراء آدم متر ونيكسون والشيخ مصطفى عبد الرزاق من أن التصوف الإسلامي قد ظهر بمصر ، قبل أي بلدة أخرى من بلاد العالم الإسلامي ، وذلك لكون مصر ، كانت هي المتكررة لنظام الرهبة المسيحية في العصر البيزنطي ، وعن مصر انتشر نظام الرهبة والأديرة في كافة أنحاء العالم المسيحي ؛ ونحن نؤيد رأينا على أساس أن أول ظهور للتصوف الإسلامي كان مرتبطاً بأهل الصفة وهم جماعة من فقراء الصحابة في أول عهد الدعوة الإسلامية ، هاجروا مع النبي إلى المدينة وأسكنهم صفة مسجده النبوي بالمدينة ، فعاشوا عيشة أشد ما تكون زهداً وتقشفاً واشتغلوا بدراسة القرآن والسنة ، وكان أغنياء المسلمين يتصدقون عليهم ويطعمونهم ، ومن هنا جاء فتوة الفقهاء المتأخرين كما لاحظ السنخاوي بأن المنقطعين للعلم والدراسة يستحقون أن تجرى عليهم الأرزاق والجرايات وتوقف للصرف عليهم الأوقاف ؛ وأكد نشأة التصوف في الإسلام ونشأة الأوقاف التعليمية في الإسلام اعتماداً على أحوال أهل الصفة المؤرخ شمس الدين السنخاوي ت ٩٠٢هـ في رسالة مخطوطة له سماها : رجحان الكفة في أحوال أهل الصفة ؛ ومن هذه الرسالة الهامة التي تعالج نشأة التصوف في صدر الإسلام نسخة وحيدة بالجمعية الآسيوية بالهند برقم ١٣٢١ ومعهد المخطوطات برقم ١٠٦٣ . هذا وقد أفاد المقرئزى ميله لاعتبار أحوال أهل الصفة كالأصل الأول الذي بنى عليه نظام خواتم الصوفية في الإسلام (المخطوط : ٤ : ٢٧٢) فهو يناقش إذا ما كان اسم الصوفية مشتقاً من أهل الصفة ثم يقول عن الرباطات والزوايا : الرباط هويت الصوفية ومنزلهم ، وشابهوا أهل الصفة في ذلك . قال مؤلفه ولاتخاذ الربط والزوايا أصل من السنة وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ لفقراء الصحابة الذين لا يأوون إلى أهل ولا مال مكاناً من مسجده عرفوا بأهل الصفة (المخطوط : ٤ : ٢٣٩) ويؤيد ما ذهبنا من رفض الرأي القائل أن التصوف الإسلامي ظهر بمصر متأثراً بنظام الرهبة المسيحية الذي ظهر في مصر أيضاً ، ملاحظة محمد كامل ، أن الفقهاء الذين عرفوا بالصوفية من المسلمين لم يتأثروا بالرهبة المسيحية في مصر ، ولم يكن لهم تعاليم خاصة تمايزوا بها عن غيرهم من المسلمين إلا مغاللتهم في هذه الناحية فقط (الزهد) (محمد كامل حسين : دراسات س ٥١ - ٥٢) .

وفي اعتقاد صاحب هذا الرأي ، أن بعض الصوفية بمصر كانوا من دعاة الفاطميين^(١) ؛ هذا وقد دلت الأبحاث الحديثة التي تدارست ظهور التشيع وتطوره ، تآثر التشيع منذ نشأته بالفكر الصوفي ، وتقارب فرق الشيعة في أغلب فترات التاريخ الإسلامي ، مع طوائف وفرق الصوفية^(٢) ؛ ومما يؤكد هذا ما رده الصوفية ، من أن خرقه التصوف سندن ، أولهما ينتهي إلى علي بن أبي طالب ، وثانيهما ينتهي إلى علي الرضى^(٣) .

وإذا كان عبد اللطيف حمزة ، قد لاحظ أن المدرسة السنية ، هي مؤسسة ابتكرتها الدعوة والمدعاة للمذهب الأشعري السني^(٤) ؛ اعتمادًا على النقش التأسيسي لمدرسة قبة الإمام الشافعي ؛ فالذي

(١) محمد كامل حسين : دراسات في الشعر في العصر الأيوبي ، ص ٥٧ - ٥٨ . والتأويل الباطن للقرآن معروف أيضًا عند الصوفية ، وإن لم يكن لهدف سياسي مثل الحال عند الشيعة الإسماعيلية .

(٢) أنظر علي الشيبى : الصلة بين التشيع والتصوف ، طبع دار المعارف بمصر ، ١٩٦٨ م .

(٣) قال سبط ابن الجوزى : وكان الشيخ عبد القادر الجليلي لبس خرقه المشايخ من أبي سعد المخزومي ، ولبس المخزومي من أبي الحسن علي بن محمد القرشى ، ولبس القرشى من أبي الفرح الطرسوسى ، ولبس الطرسوسى من أبي الفضل بن عبد الواحد التميمي من والده عبد العزيز ، ولبس عبد العزيز من أبي بكر الشبلى ، ولبس الشبلى من أبي القاسم الجنيد ، ولبس الجنيد من خاله سرى السقطى ، ولبس سرى من معروف الكرخى ، ولبس معروف من داود الطائى ، ولبس داود من حبيب العجمى ، ولبس حبيب من الحسن البصرى ، ولبس البصرى من علي بن أبي طالب عليه السلام ، وللخرقة طريق آخر إلى علي بن موسى الرضا ولا يثبت سنده . (مرآة الزمان : ٨ : ٢٦٦) وأنظر بعده سند " الفتوة وسراويل الفتوة " حيث ينتهي أيضًا إلى علي بن أبي طالب .

(٤) يلاحظ عبد اللطيف حمزة : أن أول من ولى التدريس فى مدرسة قبة الإمام الشافعي ، التى كانت أول مدرسة أنشأها صلاح الدين بمصر ، كان فقيهه الخبوشانى . ثم يضيف أن الخبوشانى ، كان من أخطر الفقهاء السنيين ، الذين وقعوا على الوثيقة التى خلعوا فيها آخر خلفاء الدولة الفاطمية (العاضد) ، كما كان أول من خطب فى جامع عمرو للخلافة العباسية ؛ ثم يلاحظ أيضًا أن الخبوشانى هذا فارسى الأصل وأن نشأة المدارس نفسها فارسية أيضًا ، وأن النقش التأسيسى لمدرسة الخبوشانى بقبة الإمام الشافعي ، يشير إلى أنه كان فى أصول الدين وقضايا العقائد أشعري المذهب ، ثم ينتهى د . عبد اللطيف حمزة ملاحظاته بتقرير قوله : إن المؤسسة الإسلامية التى تسمى المدرسة ، كانت أداة من أدوات الحركة الأشعرية ، (أنظر عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية ، ص ١٦١) .

أما النقش الوارد على شاهد قبر الخبوشانى . ويؤكد اعتناقه للعقيدة الشعرية ، فهو على هذا النحو كما أورده الأستاذ جاستون فايت Gaston Wiet فى مقاله ، عن نقوش قبة الإمام الشافعي فى مجلة المعهد المصرى . " بيت هذه المدرسة باستدعاء الشيخ الفقيه الإمام الزاهد نجم الدين ، ركن الإسلام قدوة الأنام ، مفتى الفرق ، أبو البركات بن الموفق الخبوشانى ، أدام الله توفيقه لفقهاء أصحاب الشافعي ، رضوان الله عليه الموصوفين بالأصولية الواحدة الأشعرية ، على الحشوية وغيرهم من البدعة ، وذلك فى شهر رمضان سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩ م ، وأنظر .

Gaston wiet: Les Inscriptions du Mausoleé de Shafi, B. I. E., Tome Xv, Session 1932-1933. pp. 167-185; p 170.

قلت : وفى هذا النقش ما يؤكد أيضًا ما سنقره بعد ذلك عند حديثنا عن نشر الأيوبيين للدعوة الأشعرية بمصر أن جميع فقهاء الشافعية منذ القرن الخامس الهجرى ، قد أخذوا فى قضايا أصول الدين والعقائد بالعقيدة =

نعتقه أيضًا أن الخوانق^(١)، وهي بيوت الصوفية في الإسلام، رغم أنها عرفت منذ القرن الرابع الهجري، عند الكرامية، وهي فرقة من الصوفية القائلين، بالأرجاء والتجسيم^(٢)؛ إلا أن اتخاذ

= الأشعرية، وأن الأيوبيين أيضًا كانوا يأخذون في فروع الفقه بالفقه الشافعي، ويأخذون في أصول الدين والعقائد بالعقيدة الأشعرية. وثمة نقش على قدر خطير من الأهمية، لم يلتفت إليه الباحثون من قبل، يؤكد حرص بني أيوب على نشر الفقه الشافعي بمصر، واقتراح ذلك بنشر الدعوة العباسية بمصر أيضًا، وفي نفس الوقت بنشر العقيدة الأشعرية، كما أكد النقش السالف وهذا النقش الهام قد نشره أيضًا جاستون فايت في نفس المقال السابق، جاء فيه: الشافعي أمام الناس كلهم.. في العلم والحلم والعلباء والبأس، له الإمامة في الدنيا مسلمة.. كما الخلافة في أولاد عباس، أصحابه خير أصحاب ومذهبه.. خير المذاهب عند الله والناس، وذلك لسبع خلون من جمادى الأولى، من سنة ثمان وستمانه (٥٦٠٨هـ) أنظر.

Gaston Wiet: Les Inscriptions du. Shafi, p. 179.

وعن دور الخبوشاني في عزل الخليفة العاضد، والخطبة لبني العباس بمصر، أنظر بعده، الوضع الشرعي لمصر.

- (١) عن الخوانق، أنظر القلقشندي: صبح ٣: ٣٤٣، وص ٣٦٤، المقرئ: الخطط ج ٤: ص ٢٧٣.
- (٢) أنظر عن الكرامية ومذهبهم في التجسيم، وأراءهم السياسية والكلامية، أنظر على سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، الطبعة الخامسة، ١٩٧١، ج ١ ص ٤٠٥ - ٤٢٤، ورغم أن محمد بن كرام مؤسس مذهب الكرامية، عاش في بلاد خراسان في القرن الرابع الهجري، إلا أن فرقته قد انتشرت في بلاد الشام إبان الحكم الفاطمي لها، فيقول المقدسي، وهو رحالة قام برحله في القرن الرابع الهجري عند حديثه عن الفرق الإسلامية في بلاد الشام: مذهبهم مستقيمة، أهل جماعة وسنة، وأهل طيبة ونصف نابلس وقدس وأكثر عمان شيعه، ولا ماء فيه لمعتزلي، إنما هم في خفية، وبيت المقدس خلق من الكرامية، لهم خوانق ومجالس.. واليوم أكثر العمل على مذاهب الفاطمي، (المقدس: أحسن التقاسيم، طبع بريل ١٩٠٦، ص ١٧٩ - ١٨٠). والجدير بالملاحظة، أن متكلمي الأشاعرة، مثل الفخر الرازي، قد حرصوا على مجاهرة الكرامية بخراسان بالعداء والخصومة العقائدية العنيفة، أنظر المقرئ: السلوك ١: ١٤٤ - ١٤٥ وهامش (٤)، حوادث سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨م. وأنظر المقرئ: الخطط، ج ٤ ص ١٧٠ و ١٨٣، الذي يذكر أن أهم الأراء السياسية للكرامية هي أنه يجوز أن يكون إمامان في وقت واحد، وأن عليا ومعاوية كانا إمامين في وقت واحد، إلا أن عليا كان على السنة، ومعاوية على خلافتها. وواضح أن مذهبهم السياسي يفضل على بني أمية وأن أقروا خلافة بني أمية، مع التحفظ بالقول أن الخلافة الأصلية الشرعية، هي خلافة علي، ولما كانت الكرامية، من فرق المرجئة (أنظر عن الكرامية ومذهبهم الشهرستاني: الملل والنحل ص ٧٩ - ٨٥، السمعاني: كتاب الأنساب لوحة ٤٧٧، المقرئ: الخطط ج ٤، ص ١٧٠ و ١٨٣) فواضح أن مذهبهم السياسي، كان يهدف إلى الوقوف موقفًا وسطًا بين خلافة بني أمية وقضية الشيعة، وإن تعاطفوا مع قضية الشيعة، وأقروا بأن خلافة علي كانت هي الشرعية، ولعل هذا ما يفسر انتشار مذهب الكرامية وخوانقهم في بلاد الشام إبان الحكم الفاطمي، وأيضًا في مصر، ممثلًا في الفرقة الصوفية التي عرفت بالكيزانية. أنظر بعده. ولقد اتفاد العلامة الشيخ زاهد الكوثري أن بعد احتلال الصليبيين لبيت المقدس، هاجر هؤلاء الكرامية، إلى شمال بلاد الشام، وأنهم كانوا على الفقه الحنبلي، وحملوا بدعة التشبيه والتجسيم إلى الشام. وكان السلطان صلاح الدين الأيوبي يرعى خاطرهم لكونهم مهاجرين زهادًا ويتغاضى عن معتقدتهم. أنظر محمد زاهد الكوثري: مقدمة لكتاب تبيين كذب المفتري، فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، لابن عساكر، ص ١٦. في حين أدى عداء الخبوشاني مدرس الشافعية بمصر للحنابلة ونصرته للمذهب الأشعري: إلى محاولته إبادة الفرقة الكيزانية في مصر، كما أقدم على نبش قبر ابن كيزان النسويين إليه. (أنظر محمد كامل حسين: دراسات في الشعر الأيوبي، ص ٦١ - ٦٣) وربما كان إبادة الصوفية من الكيزانية الكرامية بمصر، كان بسبب بقاءهم على الولاء للدعوة الإسماعيلية والدولة الفاطمية.

الخوائق ، كوسيلة تعليمية لنشر علوم السنة واجتذاب مريدي المذهب الإسماعيلي إلى المذهب السنّي ، إنما قد تم على أيدي دعاة المذهب الأشعري . في القرنين الرابع والخامس الهجري ، بحيث نسب ابن عساكر ، مؤرخ الدعوة الأشعرية للإمامين ابن فورك والغزالي وهما من أئمة الأشاعرة ، بناء الخوائق في بلاد العراق وفارس وجلوسهما بها لتدريس علوم السنة ، وإلقاء دروس الوعظ الصوفي^(١) . وفي هذا تأكيدًا لما اعتقده د. حمزة إن حركة انتشار الخوائق بمصر ، تشبه من قريب أو بعيد حركة إنشاء المدارس بمصر في العصر الأيوبي ، وتقترن بها^(٢) . أما محمد كامل حسين فيعتقد أن الخانقاه أو التكايا أو مصاطب الصوفية ، وجدت منذ عصر الفاطميين ، اعتمادًا على نص

(١) يقول ابن عساكر : موضحًا جهود الإمام أبي بكر بن فورك ، في نشر الدعوة الأشعرية وإنشاء المدارس والخوائق في العراق وبلاد فارس ، قال ابن عساكر بعد أن وصف ابن فورك ، بالتكلم الأصولي الواعظ " أقام أولاً بالعراق ، إلى أن درس بها على مذهب الأشعري .. وورد نيسابور ، فبنى له الدار والمدرسة من خانقاه أبي الحسن البوشنجي ، وأحيا لله تعالى .. أنواعًا من العلوم لما استوطنها ، وظهرت بركته على جماعة من المتفقهة ، ونحرجوا به " .. (ابن عساكر : تبين كذب المفتري ، ص ٢٣٢) . ويذكر ابن عساكر موضحًا جهود الإمام الغزالي في نشر الدعوة الأشعرية ، قول الغزالي نفسه على لسانه : " ما كنت أجوز في ديني أن أقف على الدعوة ، ومنفعة الطالبين بالإفادة ، وقد حق على أن أبوح بالحق ، وأنطق به ، وأدعو إليه ، ثم علق ابن عساكر على قول الغزالي بقوله : وكان صادقًا في ذلك ثم ترك ذلك قبل أن يترك (المقصود قبل وفاته) ، وعاد إلى بيته ، واتخذ في جواره مدرسة لطلبة العلم و " خانقاه للصوفية " ، وكان قد وزع أوقاته على وظائف الحاضرين ، من ختم القرآن ، ومجالسة أهل القلوب (المقود الصوفية) ، والقعود للتدريس ، بحيث لا تخلو لحظة من لحظاته ، ولحظات من معه ، عن فائدة ، إلى أن أصابه عين الزمان .. فنقله الله إلى كريم جواره " ، (ابن عساكر : تبين كذب المفتري : ص ٢٩٥ - ١٩٦) ، وأنظر نصين هامين يتفاخر فيها كل من عبد القاهر البغدادي ، وأبو المظفر الإسفرايني ، وهما من كبار دعاة الدعوة الأشعرية ، في القرن الخامس الهجري ، بأن منشآت أهل السنة وأئمتهم وملوكهم لنشر العلوم تفوق منشآت الفاطميين العبيدين وخلفائهم (أنظر قبله ، فلقد سبق إيراد هذين النصين بتامهما عن حديثنا عن المدارس ، وأنظر عبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق ، ص ٢٢٢ - ٢٢٣ ، أبو المظفر الأسفرايني : التبصير في الدين ص ١٧٦ ، وقد أكد الراوندي مؤرخ الدولة السلجوقية في نصوص وافية صريحة مقدار عناية سلاطين بني سلجوق ، بنشر المنشآت السنّية الأشعرية في جميع أرجاء دولتهم ، أنظر قبله ، وأنظر الراوندي : راحة الصدور ، ص ١٦٠ ، ص ٧ - ١٦ ، ص ١١٣ ، ص ١٠٤) .

(٢) عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية ، ص ١٠٦ .

للمقرئى (١) ، ذكر فيه مصاطب للصوفية بقصر الأندلس بالقرافة ، وأفاد أن الخليفة الفاطمى الأمر ، كان يجرى على فقراء مصاطب القرافة الأموال ، ثم يقرر كامل حسين ، مخالفته لرأى عبد اللطيف حمزة ، الذى ذهب إلى أن أماكن الصوفية إنما وجدت فى عصر الأيوبيين (٢) .

ونحن نغىل إلى ترجيح رأى عبد اللطيف حمزة ، على رأى كامل حسين ، استناداً على دليلين ، أولهما ملاحظه حمزة ، وأكده الحافظ ابن عساكر ، من أن الخانقاه ، كوسيلة تعليمية لنشر علوم السنة ، وفى نفس الوقت منشأة اجتماعية لرعاية فقراء الصوفية ، وخاصة من الأعراب ، أبناء السبيل ، هى منشئة سنية ، استخدمتها الدعوة الأشعرية السنية ، شأنها شأن المدارس ، لنشر علوم السنة ، ومحاربة المذهب الإسماعيلى ، ومن ثم فلا يستقيم عقلاً ، أن ينشر خلفاء الفاطميين بمصر هذه المنشأة السنية ، التى تهدف إلى محاربة المذهب الإسماعيلى الفاطمى ؛ أما مصاطب الصوفية التى وصفها المقرئى ، فواضح أنها لم تكن منشأة تعليمية شأنها شأن الخوانق ؛ وثانى الدليلين على ظهور الخوانق بمصر فى العصر الأيوبرى ، نصاً صريحاً للقلقشندى ، لم يقف عليه كل من عبد اللطيف حمزة وكامل حسين ، فيقول القلقشندى : إن الخوانق والربط ، لم تعهد بالديار المصرية قبل الدولة الأيوبية ،

(١) يقول المقرئى فى حديثه عن قصر القرافة ، أنظر الخطط ، طبع مطبة النيل ، ج ٢ ، ص ٣٧٨ - ٣٧٩ . ولما كان فى سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م ، جده الخليفة الأمر ، وعمل تحته مصطبة للصوفية ، وكان يجلس فى الطابق بأعلى القصر ، ويرقص أهل الطريقة من الصوفية والمجامر بالألوية موضوعة بين أيديهم ، والشموع الكثيرة تزهر ، وقد بسط تحتهم حصر من فوقها بسط ، ومدت لهم الأسمطة ، .. فاستحسن الأمر ذلك .. فأمر فى الساعة والوقت فأحضر من خزائن الكسوات ألف نصفه ، ففرقت على الحاضرين وعلى فقراء القرافة ، ونثر عليهم متولى بيت المال من الطابق ألف دينار ، فتخاطفها الحاضرون .. وما برح قصر الأندلس بالقرافة ، حتى زالت الدولة (الفاطمية) فى شهر ربيع الآخر ، سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م . والذى نلاحظه من نص المقرئى ، أن هؤلاء الصوفية لم يكونوا من المنطقين لدراسة العلوم ، وإنهم كانوا من جهال الصوفية الدرايش وأن الدولة كانت تقدم لهم الأموال والكسوات والأسمطة كهبات ، وليس كمترتبات محددة فى كل شهر ؛ كما أن المصاطب تختلف فى تخطيطها وبنائها عن الخوانق والتكايا ؛ ولا زالت كثير من الخوانق الأيوبية والتكايا العثمانية موجودة إلى اليوم ؛ وأخيراً ، فإن هدم الأيوبيين لهذه المصاطب فى أول قيام دولتهم سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م ، تفيد بأن هؤلاء الصوفية ، كانوا من أنصار الخلافة الفاطمية ، وأغلب الظن أنهم كانوا كما ذهب د. محمد كامل حسين يقومون بالدعوة للخلافة الفاطمية والعقائد الإسماعيلية خاصة فى نهاية العصر الفاطمى ، الذى شهد تدهور الفكر الإسماعيلى ، وضعف الدعوة الإسماعيلية بمصر .

(٢) محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين ، ص ٥٦ .

وكان المبتكر لها السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب ، فإبتنى الخانقاه الصلاحية المعروفة بسعيد السعداء^(١) ، ولقد أعاد القلقشندى نفس النص تقريباً في موضع آخر^(٢) . كما نص المقرئ أيضاً على أن خانقاه سعيد السعداء « أول خانقاه عملت بديار مصر »^(٣) .

ولعل ما يؤكد ، أن نشر الخوانق بمصر ، كمنشأة تعليمية اجتماعية ، تضم الصوفية المنقطعين للعلم والعبادة ، قد تم على يد الأيوبيين ، ما ذكره البديسي ، مؤرخ الدول الكردية الإسلامية ، من أن نجم الدين أيوب ، والد الملوك الأيوبية ، قد أنشأ خانقاه ، حينما كان دزداراً (أى أمير القلعة) لقلعة تكريت ، نيابة عن سلاجقة العراق^(٤) ، كذلك نسب النعمي ، المؤرخ الشامي المتأخر ، لكل من نجم الدين أيوب ، وأخيه أسد الدين شيركوه ، أنشاء بعض الخوانق والربط والمدارس بدمشق ، إبان خدمتهما لنور الدين زنكي^(٥) .

ولقد أفاد ابن جبير تطابق وظيفتي كل من الخوانق والربط ، كدور للعبادة والتعليم ، تخصص للصوفية ، وتتولى الدولة الإشراف عليها^(٦) ، كما أكد الوهراني أن بداية نشر هذه المنشآت الصوفية بمصر ، ومنها « الزوايا » ، قد تم منذ قدوم نجم الدين أيوب إلى مصر سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م ، واقترن

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٤٣ ، س ١٥ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٦٤ ، س ١٥ .

(٣) المقرئ : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٧٣ ، س ٢٣ . والواقع أن تخطيط الخانقاه من الناحية المعمارية يختلف تماماً عن وصف المقرئ لمصاطب الصوفية التي ذهب محمد كامل حسين إلى القول بأنها كانت أول ظهور للخوانق لمصر . فالخانقاه تتكون من صحن مكشوف تطل عليه غرف صغيرة متعددة يعيش فيها المتصوفون ، ثم أيوانات أربعة ، أكبرها أيوان المحراب حيث يقيمون فيه الصلاة (أنظر محمد عبد العزيز مرزوق : الفن الإسلامي في العصر الأيوبي ص ٣٩) . وللأسف أن خانقاه سعيد السعداء لم يتبق منها سوى بعض الجدران لم يستطع علماء الآثار تمييزها عن البناء المماليكي الحديث الذي احتواها ، وهو المعروف اليوم بمسجد الشيخ مطهر بشارع المعز لدين الله بالقرب من حي الصاغة ؛ ومع ذلك فقد وصلت إلينا خانقاه من العصر الأيوبي بمدينة حلب هي خانقاه الفرافرة تعطينا تصورًا دقيقًا لتخطيط الخانقاه في العصر الأيوبي وعن خانقاه الفرافرة (محمد طلح : الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب ص ٨٨ - ٩٠ ، وأنظر فريد شافعي : العمارة العربية في مصر الإسلامية ج ١ : ٢٥٠ ، وأنظر دولة عبد الله عبد الكريم : الخوانق في مصر في العصرين الأيوبي والملوكي رسالة دكتوراه نوقشت بكلية الآثار ١٩٧٣ ؛ والجدير بالذكر أن الخوانق صارت تعرف في العصر العثماني " بالتكايا " .

(٤) البديسي : الشرفنامه الكردية ، ص ٥٦ - ٥٧ .

(٥) أنظر الحديث عن المدرسة الأسدية ، النعمي : المدارس ، ج ١ ، ص ١٥٢-١٥٧ وعن الخانقاه الأسدية ، النعمي : المدارس ، ج ٢ ، ص ١٣٩ - ١٤٠ ، وعن الخانقاه النجمية ، النعمي : المدارس ٢ : ١٧٤ -

١٧٧ ، وعن رباط أسد الدين شيركوه ، أنظر النعمي : المدارس ٢ : ١٩٤ ، رقم ٢٠١ .

(٦) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٥٦ ، وأنظر بعده .

بحركة إنشاء المدارس والمساجد^(١). كذلك أوضح كل من المقرئزي والقلقشندى ، ارتباط ظهور المنشآت التعليمية والخيرية السنوية بمصر ، مثل المدارس والخوانق والربط والزوايا والأسبله^(٢) ، بقيام الدولة الأيوبية بمصر .

والخوانك جمع خانكاه ، وهى كلمة فارسية ، معناها بيت ، وقيل أصلها خونقاه ، أى الموضع الذى يأكل فيه الملك ، وقد حدثت فى الإسلام ، فى حدود الأربعمئة من سنى الهجرة ، وجعلت لتخلى الصوفية فيها لعبادة الله تعالى^(٣) ، ولما استبد صلاح الدين بملك مصر بعد موت الخليفة العاضد ، حول دار سعيد السعداء ، وهو أحد الأستاذين المحنكين خدام القصر الفاطمى ، إلى خانقاه ، عرفت بالخانقاه الصلاحية ، وديار سعيد السعداء ، وبدويرة الصوفية . وجعلها يرسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة ، ووقف عليها فى سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م ، وولى عليهم شيخًا ، وقف عليها بعض البساتين والقيساريات وبعض الأراضى الزراعية بإقليم الديار المصرية^(٤) ، وشرط أن من مات من الصوفية ، وترك عشرين دينارًا فما دونها ، كانت للفقراء ، ولا يتعرض لها الديوان السلطانى ، ومن أراد منهم السفر يعطى تسفيره ، ورتب للصوفية فى كل يوم طعامًا ولحمًا وخبزًا ، وبنى لهم حمامًا بجوارهم ، فكانت أول خانكاه عملت بديار مصر ، وعرفت بدويرة الصوفية ، ونعت شيخها بشيخ الشيوخ^(٥) ، وجعل شرط الوقف على الخانقاه ، أن الخانقاه تكون وقفًا على الطائفة

(١) الوهرانى : النمامات والمقامات ، ص ١٣ - ١٤ ، وأنظر قبله .

(٢) أنظر المقرئزي : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٧٣ ، ٢٩٣ ، ٢٩٧ ، القلقشندى : ج ٣ ، ص ٣٤٢ ، ص ٣٦٤ .

(٣) المقرئزي : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٧١ - ٢٧٣ .

(٤) نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٢٧٣ .

(٥) المقرئزي : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٧٣ ، الذى يقول : لقب كل شيخ خانقاه بشيخ الشيوخ ، وكان سكانها من الصوفية يعرفون بالعلم والصلاح وتُرجى بركتهم ، وولى مشيختها الأكابر والأعيان كأولاد الشيوخ بن حمويه مع ما كان لهم من الوزاره والإمارة وتديبر الدولة ، وقيادة الجيوش وتقديمه العساكر . والجدير بالملاحظة أن أسرة أولاد شيخ الشيوخ بن حمويه الجوينى ، هى أسرة فارسية الأصل ، وشافعية المذهب ، سفر مؤسسها بين الخلافة العباسية وصلاح الدين فى أول قيام دولته ، وكان أكبر سفراء الخلافة العباسية مسموع الكلمة لدى جميع ملوك وسلاطين الإسلام ، أنظر بعده ؛ والطريف أن هذه الأسرة كانت تجمع بين الوظائف الإدارية والدينية والعسكرية وتولى أكثر من واحد منهم الوزارة وقيادة الجيش ، وكانت تلبس زياً يجمع بين زى العسكر وأرباب الأقالام ، وإزداد نفوذ هذه الأسرة بصفة خاصة منذ عهد السلطان الملك الكامل محمد ، لأنه كان أخوهم من الرضاع ، ولقد صبا أحدهم وهو فخر الدين بن شيخ الشيوخ إلى منصب السلطنة ذاته بعد وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، أنظر بعده فصلى السلطنة والوزارة ؛ عن وظيفة شيخ الخانقاه ، أنظر تقى الدين السبكي ، معبد النعم ومبيد النقم ، ص ١٢٤ ؛ والجدير بالاهتمام أن تولى أسرة أولاد شيخ الشيوخ لكبرى الوظائف الدينية ، الخاصة بالإشراف على المنشآت والمؤسسات الصوفية قد بدأ إبان خدمتهم لنور الدين زنكى بالشام . ففى سنة ٥٦٣هـ / ١١٦٧م ، فوض نور الدين أمر الربط والزوايا والأوقاف بدمشق وحماة وحمص وبعلبك وغيرها ، إلى شيخ الشيوخ ، أبى الفتح عمر بن على بن محمد بن حمويه ، وكتب له العماد منشورًا ، وذكره فى البرق الشامى (سيط : مرآة ، ج ٨ ، ص ٢٧٢) .

الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة ، والقاطنين بالقاهرة ومصر ، فإن لم يوجدوا ، كانت على الفقراء من الفقهاء والشافعية والمالكية ، الأشعرية الاعتقاد^(١) ، وثمة نقش أثرى هام ، من عهد السلطان العزيز عثمان ابن صلاح الدين ، يوضح أوقاف صوفية سعيد السعداء ، ويؤكد مكانتهم المرموقة^(٢) .

ويخبرنا المقرئى ، عن بعض شيوخه ، أنه كان لصوفية خانقاه سعيد السعداء ، رسوماً طريفة ، وموكب حافل ، فى كل يوم جمعة ، بحيث يخرجون من خانقتهم - ومكانها اليوم جامع الشيخ المطهر بشارع المعز لدين الله من ناحية حى الصاغة - يتقدمهم شيخهم ، حتى يصلون إلى جامع الحاكم بأمر الله ، وهو الذى كانت تقام به الخطبة الجامعة فى العصر الأيوبي ، فيقومون بأداء شعائر الصلاة الجامعة ، ثم يحتمون القرآن ، ويقوم أحد القراء منهم بالدعاء للسلطان صلاح الدين الأيوبي ، واقف الخانقاه عليهم ، ثم يعودون بنفس موكبهم الرائع - الذى كان جمع أهل مصر والقاهرة ، حتى قبيل عصر المقرئى ، يحرصون على الاصطفاف على جانبي الطريق للتفرج عليه - حتى يصلون مرة أخرى إلى الخانقاه^(٣) .

ولقد حالف بعض الباحثين الصواب ، حين لاحظ اعتماداً على نصوص المقرئى أن الحياة داخل هذه الخوانق ، جديرة بأن توصف بالترف والسعه ، على أن توصف بالفقر والخشونة ، ولذلك لأن أولئك الفقراء ، كانوا يحصلون على أموال تزيد عن حاجتهم ، مع أنهم قدموا إلى الديار المصرية بغير مال ولا متاع ؛ كذلك لاحظ بدقة أن هؤلاء الصوفية لم يكونوا يعيشون لبطونهم ، بل كانوا يشتغلون دائماً بالعلم ، وإن كان مقدار العلم الذى كان يدرس فى الخوانق ، أقل درجة من مقدار العلم الذى كان يلقى بالمدارس ، ويختتم هذا الباحث ملاحظاته الدقيقة عن الحياة داخل الخانقاه ، بأن

(١) المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٧٥ ، س ٧ - ٩ .

(٢) توجد لوحة من الخشب بمتحف الفن الإسلامى ، تتضمن النص التأسيسى بوقف قيسارية على صوفية خانقاه سعيد السعداء ، مؤرخ سنة ٥٩٤هـ / ١١٩٧م فى عهد الملك العزيز عثمان (٥٨٩هـ / ١١٩٣م - ٥٩٥هـ / ١١٩٨م) . ونص هذا النقش : العزة لله وحده ، اللهم ارحم الملك الناصر صلاح الدين ، ورضى الله عنه ، الذى أنعم على الصوفية بهذه القيصرية ، وأوقفها على بقعتهم التى تعرف بدار سعيد السعداء بحروسة القاهرة ، وأمر بهذا الباب الجديد والفتح السعيد ، سيد الملوك والعبيد ، عماد الدنيا والدين ، وسلطان الإسلام والمسلمين ، عضد الدولة القاهرة ، تاج الملة الزاهرة نظام العالم ، ملك المعالي ، الملك العزيز عثمان بن يوسف ابن أيوب ، ظهير أمير المؤمنين ، خلد الله ملكه ، فى تاريخ ربيع الأول سنة أربع وتسعين وخمسائة (٥٩٤هـ / ١١٩٨م) وصلى الله على محمد وآله وأصحابه أجمعين (عبد العزيز مرزوق : الفن الإسلامى فى العصر الأيوبي ، ص ٣٦ - ٣٧) .

(٣) راجع هذا النص الهام عند المقرئى : الخطط ج ٤ ، ص ٢٧٤ .

إستدل من كون الشيوخ المقيمين بها ، كانوا من الغرباء الناذحين من البلاد الأخرى بأولادهم ، فإن هذا يعنى أن النساء ، كن يقمن فى هذه الخوانق مع أزواجهن^(١) .

أما الربط ، فهى جمع رباط ، وهو دار يسكنها أهل طريق الله ، واصل كلمة رباط فى اللغة ، ما تربط فيه الخيول ، ثم قيل لكل ثغر يدفع أهله عمّن وراءهم رباط ، ثم استقرت كلمة رباط ، للدلالة على بيت الصوفية ومنزلهم ، وفى رأى المقرئى ، أن اتخاذا الربط والزوايا أصل من السنة ، وهو أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، اتخذ لفقراء الصحابة الذين لا يأرون إلى أهل ولا مال ، مكائنا من مسجد كانوا يقيمون به ، عرفوا بأهل الصفة ، ويلاحظ المقرئى أيضاً أن القوم فى الرباط ، سواء من المجاهدين والصوفية ، مرابطون متفقون على قصد واحد ، ومن هنا جاءت تسمية الرباط^(٢) ، ولقد شهد الرحالة ابن جبير ، الربط ببلاد الشام ، وأوضح أنها تكاد تتطابق فى غرضها ونظمها بالخوانق ، كما أوضح ابن جبير مدى رفاهية العيش التى يحظى بها الصوفية داخل هذه الرباطات ، والمكانة الاجتماعية المرموقة التى يتمتع بها أهل المتصوفة بحيث وصفهم بأنهم « هم الملوك بهذه البلاد »^(٣) .

أما الزوايا ، فلم يقدم لها المقرئى تعريفاً دقيقاً واقياً ، شأن بقية المنشآت التعليمية الخيرية ، التى أدخلها الأيوبيون مصر ، ولكن من الممكن جمع تعريف لها مما أورده المقرئى من تاريخ الزوايا الكثيرة ، التى ذكرها فى كتابه الخطط ، ويرجع أغلبها إلى العصر المماليكى ، فالزاوية مبنى صغير ، يسكنه شيخ من شيوخ الصوفية ، سواء أكان هو بانيه ، أو أن أحد السلاطين قد اعتقد فيه بعض الكرامات ، أو لمس فيه العلم والفقه ، وتبرك به ، فبنى له زاوية ، وأسكنه فيها ، وأوقف عليها بعض

(١) عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية ، ص ١١٠ - ١١١ وأنظر بحث عن حياة الصوفية بالهند داخل الخوانق فى العصور الوسطى :

K.L.A. Nizami: Some Aspects of Khanqah life in Medieval india, Studia Islamica, VIII, 8, 1957, p. 51-70.

(٢) أنظر المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٩٢ - ٢٩٣ .

(٣) يقول ابن جبير : وأما الرباطات ، التى يسمونها الخوانق فكثيرة ، وهى برسم الصوفية ، وهى قصور مزخرفة ، يطرد فى جميعها الماء على أحسن منظر يبصر ، وهذه الطائفة الصوفية ، هم الملوك بهذه البلاد ، لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضلها ، وفرغ خواطرم لعبادتهم من الفكرة فى أسباب المعيش ، وأسكنهم فى قصور تذكروهم قصور الجنان ، فالسعداء الموفقون منهم ، قد حصل لهم بفضل الله تعالى نعيم الدنيا والآخرة . وهم على طريقة شريفة وسنة فى المعاشرة عجيبة وسيرتهم فى التزام رتب الخدمة غريبة ، وعواندهم من الاجتماع للسمع المشوق جميلة ، وربما فارق منهم الدنيا فى تلك الحالات المنفعل المشاير رقة وتشوقاً . وبالجملة فاحوالهم كلها بدبعة وهم يرجون عيشاً طيباً هنيئاً (ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٥٦) .

الأوقاف للصرف عليها وعلى شيخها ، وكان المتصوف يداوم فى هذه الزاوية على تدريس علوم الفقه والحديث ، وأحيانًا كان يتردد عليه أعيان الدولة ، لتلقى العلوم الشرعية عنه ، وعادة ما كان المتصوف ، يسكن هذه الزاوية ويلازمها حتى وفاته ، وعادة أيضًا ما كان يدفن بها ، ويتبرك الناس به ويتوسلون إليه فى قضاء الحاجات ، ولكن فى العصر المماليكى ، أصبحت هذه الزاوية ، مسكنًا لطوائف معينة من الصوفية ، انتموا إلى طرق صوفية محددة ، وسكنوا بأعداد كبيرة ، وتميزوا بلبس زى صوفى مميز ، قريب بزي الأعاجم ، وما لبست هذه الطرق الصوفية ، التى تركت أسماءها على زوايا أن ابتدعت بدعًا مخالفة للشريعة ، فتهاونوا فى شئون العبادات والفرائض ، على أساس أن تشددهم فى صفاء العقيدة وجوهر الإيمان ، يسقط عنهم الفروض والعبادات الشرعية ، وتميزوا فى هياتهم بخلق لحاهم ، وخالفوا سلوك مسلك التقشف ، والزهد ، الذى عرف عن الصوفية ، مما أدى التى تحامل أهل السنة ، وخاصة الخنابلة عليهم ، وإنكار مذاهبهم وطرقهم وبدعهم^(١) ، ولقد نبهنا تقى الدين السبكى ، أن أغلب الزوايا ، كانت فى البرارى^(٢) .

والخلاصة أن الزوايا ظهرت فى العصر الأيوبي ، كمنشأة تعليمية أيضًا ، ثم ما لبثت فى العصر المماليكى ، أن تحولت إلى مراكز للطرق الصوفية ، التى أهملت التعليم ، بل أهملت الفرائض الشرعية ، وهم الذين عرفوا بعد ذلك « بالدراويش »^(٣) .

ولقد حدثنا تقى الدين السبكى ، عن نظم الصوفية ومجتمعاتهم داخل الخوانق والربط والزوايا ، فأظهر إعجابه بالصوفية ، ودفاعه عنهم ، وقند آراء الأئمة المنكرين لمجتمعاتهم ، ولقد أوضح السبكى أن أحق الناس باسم الصوفية ، هم الذين يلتزمون بالعلم والزهد والتقشف بواعز من أنفسهم ، دون طمع فيما تجريه الدولة على الصوفية فى الخوانق من أطعمة ومراتب ، فهو يقول: أعلم أن الصوفية أكثرهم لا يرضى بدخول الخوانق ، ولا التعلق بشيء من أسباب الدنيا^(٤) ، ولقد حدد السبكى ، مهام شيخ الخانقاه ، الذى كان يسمى بـ « شيخ الشيوخ » أو « شيخ شيوخ العارفين » ، ووصف له طرق تربية المريدين ، أو التدرج بهم فى شرح مراتب التصوف ، وعدم مصارحتهم لأول وهلة بأحوال الصوفية التى يصلون إليها بالمداومة على الصلاة والتلاوة والذكر ، بحيث يقتربون

(١) أنظر المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٩٧ - ٣٠٦ .

(٢) السبكى : معيد النعم ، ص ١٢٦ .

(٣) أنظر بعده ..

(٤) السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ، ص ١١٩ - ١٢٣ .

من الله ، ويصلون إلى أحوال السكر ثم الكشف ، وهى أحوال قد تنتهى بالتصوف إلى رؤية الله سبحانه^(١) .

كذلك تحدث السبكي ، عن فقراء الخوانق ونهى الناس القادرين على التكسب من منافسة الفقراء فى سكنى الخوانق ، وجعل التصوف وظيفة يتمتع منها بإدارات أوقاف الخوانق ، كما نبه السبكي على فقراء الصوفية ، عدم الاستكانة إلى البطالة ، واستمراء العيش الرغد السهل داخل الخوانق ، ونصحهم بضرورة ترك الخوانق والضرب فى الأرض للبحث عن الرزق ، فدخول الخانقاه للفقير فى رأيه ، لمجرد سد الرمق ، وليس للبقاء فيها إلى الأبد^(٢) .

وأيضاً حدد السبكي مهام خادم الخانقاه ، فألزمه بالحرص على توفير أوقاتهم للعبادة ، كما أمره بالاحتفاظ بفاضل أوقاتهم ، ووضعه فى مستحق من مسكين أوهره ونحو ذلك ، ونبه عليه ألا يرميه ، فليس من شيمة الصوفية طرح زاد ، كما ناشده بتميز وفقهم ، ومطالعة مباشرى الأوقاف بذلك^(٣) .

أما شيخ الزاوية ، فعليه تهيئة الطعام للواردين والمجتازين ، ومؤانستهم إذا قدموا ، بحيث تنزل خجلة الغربية عنهم . وينصح بإفراد مكان للوارد إذا أمكن هذا ، لتلا يستحى وقت أكله وراحته^(٤) .

وعلى هذا النحو ، أصبح للصوفية بمصر ، نظام اعترفت به الدولة ، واحاطته بعنايتها كما كانت الدعوة الإسماعيلية فى العصر الفاطمى ، فكان الصوفية يعيشون فى الخوانق مما تدره عليهم الدولة ، الأمر الذى حدا بكثير من المصريين إلى اتخاذ طريق التصوف كوسيلة للحياة الدنيا ، بل منهم من اتخذ التصوف مذهباً دينياً له^(٥) . فمنذ العصر الأيوبي ، أمسى التصوف من الظواهر اللافتة فى الحياة المصرية^(٦) .

وَوَثَّتْ الألقاب الفخرية لسلطين بنى أيوب ، بميلهم للتصوف ، وبغلبة الروح الصوفية على عصرهم ، فجاء نقش مؤرخ سنة ٦٠٨هـ/١٢١١م ، بقبة الإمام الشافعى ، خاص بقبر والدة الملك

(١) نفس المصدر ، ص ١٢٤ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٢٥ - ١٢٦ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٢٦ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٢٦ .

(٥) محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر الأيوبي ، ص ٦٥ - ٦٦ .

(٦) نفس المرجع ، ص ٥٠ .

الكامل محمد : « هذا قبر .. المرحومة الفقيرة إلى رحمة ربها ، والدة الفقير إلى رحمة به ، محمد ولد مولانا السلطان الملك العادل العالم العابد ، المجاهد المرابط .. إبي بكر بن أيوب»^(١) ، وجاءت ألقاب الملك الصالح نجم الدين أيوب ، في قبه بتاريخ ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م . « هذه التربة المباركة بها ضريح مولانا السلطان الملك الصالح ، السيد العالم ، العادل ، المجاهد المرابط ، المشاعر .. »^(٢) ، ولا يخفى أن حرص سلاطين بني أيوب التأخرين ، على أن يدفنوا في قباب ، ويقام لهم أضرحة ، هو في حد ذاته أثراً من أثر سمو مكانة الصوفية في أيامهم .

كذلك أفصحت النقوش الأيوبية ، عن مكانة الصوفية في هذا العصر ، وما قاموا به من جهود في سبيل محاربة المذهب الإسماعيلي ، ونشر علوم السنة . فلقد جاء على شاهد قبر الشيخ محمد الفارسي الصوفي بتاريخ ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م ، « هذا قبر الصدر الإمام ، الحبر الهمام ، شيخ مشايخ الإسلام ، سيد فضلاء الأنام ، إمام الموحدين ، سيد المحبين ، قدوة المحققين والعارفين ، قطب الوقت ، سر الله في أرضه ، فخر الحق والدين ، حجة الإسلام والمسلمين ، قانع المتبعدين ، شيخ الوري ، حجة الحق على الخلق ، الغريب ، أبي عبد الله محمد بن إبراهيم ابن أبي الفوارس .. الفارسي »^(٣) .

وليس أدل على احتفاء سلاطين وملوك بني أيوب ، بشيوخ وعلماء الصوفية ، من وصول أجازتان علميتان ، أجاز بهما الصوفي الأشهر ، محي الدين بن عربي^(٤) للملك بنى أيوب ببلاد الشام حين زارهم ونزل في ضيافتهم بدمشق ، الأولى أجازة إلى السلطان الملك المظفر بهاء الدين غازي ،

(١) العماد : الفتح ، ص ١٤٥ ، والأدلة متعددة على ميل ملوك البيت الأيوبي إلى التصوف ، فقد حكى عن أحد أولاد الملك الكامل ، وهو الملك الأشرف موسى ، أنه أوصى أن يكفن بعد موته في ثوب أحد الفقراء . (الحنبلي : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - خ ، ورقة ٢٥) ، كما حكى عن الملك العظيم سليمان بن الملك المظفر تقي الدين عمر ، وكان ملكاً على اليمن بين عامي ٦١١هـ - ٦١٢هـ ، أنه كان فقيراً يحمل الركوه على كتفه ، ويتقل معه الفقراء من مكان إلى مكان (الحنبلي : شفاء القلوب ، ق ١١١) .

(2) Wiet: Les Inscriptions du Mausolée de shaffei, B. I. E., Tome XV. 1932-1933, p. 175.

(3) Van Berchem: Materiau... p. 96-97, 105.

(٤) أنظر ترجمته عند ابن شاکر الکتبی : فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٢٤١ ، الحمیدی ، جذوة المتقّس ، ص ١٧٥ ، ابن حجر : لسان المیزان ، ج ٥ ، ص ٣١١ ، المقرئ : نفع الطیب ، ج ١ ، ص ٤٠٤ ، ابن الأبار : التكملة ، ١ : ٣٥٦ ، أبو شامة : ذیل الروضین ، ص ١٧٠ ، الصفدی : الوافی ، ج ٤ ، ص ١٧٣ - ١٧٨ ، ابن تغری بردی : النجوم الزاهرة ، ٦ : ٣٣٩ - ٢٤٠ ، الذهبی : میزان الاعتدال ، ٣ : ١٠٨ - ١٠٩ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ٥ : ١٩٠ - ٢٠٢ ؛ وهو محمد بن علی بن العربي ، أبو بكر الحنفي الطائفي الأندلسي ، المعروف بمحي الدين بن عربي ، الملقب بالشيخ الأكبر ، ولد بمرسية بالأندلس سنة ٥٦٠هـ وانتقل إلى أشبيلية وقام برحلة ، فزار الشام وبلاد الروم والعراق والحجاز . وأنكر عليه أهل الديار المصرية " شطحات " صدرت عنه ، فعمل بعضهم على إراقة دمه ، وحبس فسعى في خلاصة بعض مرديبه فنجا ، واستقر في دمشق فتوفي فيها سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م .

ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب وأولاده ، ومؤرخه سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م^(١) ، والثانية إلى الملك العادل أبي بكر ابن أيوب وأولاده ، ولن أدرك حياته ، بأن يرووا عنه جميع ما رواه عن أشيائه وما ألفه وصنفه^(٢) . ويبدو أن الأيوبيين ، وهم من جنس كردى^(٣) ، قد شابهوا الأتراك فى ميلهم نحو التصوف^(٤) ، إذ أشتهر بعض مشاهير فقهاء الأكراد ، بالميل إلى الزهد والتصوف على مذهب أهل السنة والجماعة^(٥) .

ولعل فى هذه الحفاوة ، التى قوبل بها كبار الصوفية الوافدين على مصر ، من بلاد الأندلس ، مثل ابن عربى ، وبلاد فارس مثل ابن أبى الفوارس ، وما أغدقته الدولة الأيوبية على المنشآت الصوفية من رواتب وخدمات ، ما يفسر نشاط الصوفية فى مصر الأيوبية ، نشاطاً منقطع النظير ، لم تشهده البلاد من قبل ولن يتكرر مثيله بعد ذلك ، خاصة وأن كثيراً من هؤلاء المتصوفة ، تفرد بأراء ، خلقت

(١) جاء فى أول هذه الإجازة : والحمد لله رب العالمين .. أقول وأنا محمد بن على العربى الخاتمى ، وهذا لفظى ، استخرت الله تعالى ، وأجزت السلطان الملك المظفر بهاء الدين غازى ابن الملك العادل أبى بكر وأولاده ، ولن أدرك حياتى ، الرواية عنى فى جميع ما روته عن أشيائى ، من قراءة وسماع ، ومناولة وكتابة وإجازة ، وجميع ما ألفته وصنفته من ضروب العلم .. وما لنا من نثر ونظم على الشرط المعتبر ، وتلفظت بالإجازة عند تقيدى هذا الخط ، وذلك فى غرة المحرم سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م ، بحروسة دمشق .. ومن هذه الإجازة ثلاث نسخ خطية بدار الكتب المصرية ، برقم ٣٦٥ مصطلح ، ١٥٨ طلعت ، ١٩٩٤٥ ب ، وأنظر فؤاد سيد : فهرست المخطوطات ، المجلد الأول ، مصطلح الحديث ، طبع دار الكتب المصرية ، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م ، ص ١٢٣ ، ولقد أورد نص هذه الإجازة العياشى فى رحلته ، أنظر الرحلة العياشى ، ج ١ ، ص ٣٤٤ . وتوجد إجازة ثالثة لابن عربى للملك المعظم ، ضمن مجموعة خطية بالمكتبة الظاهرية بدمشق ، برقم ٤٦٧٩ عام ورقة ١٥ - ٢٠ .

(٢) ونص الإجازة الثانية يكاد يتطابق مع نص هذه الإجازة ومنها نسخة ضمن مجموعة خطية بدار الكتب المصرية برقم ٦٣٣ مجاميع طلعت ، أنظر فؤاد سيد : فهرس المخطوطات المجلد الأول ، مصطلح ، ص ١٢٣ .

(٣) البديسى : الشرفامة الكردية ، ص ٥٦ .

(٤) أنظر حسين مجيب المصرى ، الأدب التركى ، مجموعة كتابك رقم ٨٢ ، طبع دار المعارف ، ١٩٧٨ ، ص ١١ ، ص ١٥ - ١٦ .

(٥) ذكر ابن تغرى بردى فى سنة ٤٨٦هـ/١٠٩٣م ، وفاة على بن أحمد بن يوسف بن جعفر بن عرفة الحافظ الفقيه الهكارى وقال : كان يعنى بشيخ الإسلام .. ، كان إماماً عالماً ، سمع الحديث ورواه ، وبنى أريطة ، وقدم بغداد ، وكان صالحاً متعبداً ، شيخ بلاده فى التصوف ، وكان من أهل السنة والجماعة ؛ ولقد أفاد ابن تغرى بردى أن الهكارية جبال فوق الموصل ، فيها قرى يسكنها الأكراد ، أنظر أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٣٨ ، ومع ذلك فلنأنا نرى فى رأى د. محمد كامل حسين فى أن اهتمام الأيوبيين والمماليك بحركة التصوف مصدره أن الجنس الآرى يميل إلى التصوف بعض المغلاة .

تيارات فلسفية شديدة ، لم يكن للتصوف بمصر الإسلامية عهداً بها من قبل^(١) ، مثل رأى ابن عربي في وحدة الوجود^(٢) ، وهو الرأى الذى قال به أغلب متصوفه مصر^(٣) .

كذلك شهد عصر بنى أيوب ، اشتهاه بعض الصوفية المصريين المولد ، مثل ابن الفارض^(٤) ، الذى خلف شعراً ، يفيض بالبرقة والعدوبة ، ويجنح فى تصوفه ، إلى القول بمذهب

(١) محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر ، ص ٦٦ .

(٢) يرى أصحاب هذا المذهب ، أن الوجود كلمة حقيقة واحدة ، وينظرون إلى الكثرة والتعدد على أنهما أمران ناجمان عن حواس الإنسان الظاهرة ، والعقل الإنسانى قاصر بطبيعته عن إدراك الوحدة الذاتية ، وقد عبر ابن عربي عن هذا المعنى بقوله :

يا خالق الأشياء فى نفسه أنت لما تخلقه جامع
تخلق ما ينتهى كونه فيك فأتت الضيق الواسع

أى أن ابن عربي لم يفرق بين الواحد والكثير ، وبين الخالق والمخلوق ، وأنه أدرك ذلك بذوقه لمعجز حواسه عن إدراكه أنظر تعليق د. أبو العلا عفيفى على الترجمة العربية .

Encyclopedie de l' Islam II: 383-384.

لدائرة المعارف الإسلامية : عبد اللطيف حمزة : المرجع السابق ص ١٠١ ، لطفى جمعة ، تاريخ فلسفة الإسلام ، ص ٢٧٥-٣٠٣ ، عيد المتعال الصميدى : المجددون فى الإسلام ، ص ٢٧٥ - ٢٨٢ .

(٣) محمد كامل حسين : المرجع السابق ، ص ٦٦ .

(٤) هو عمر بن على بن مرشد بن على الحموى الأصل ، المصرى المولد والدار والوفاه ، أبو حفص وأبو القاسم شرف الدين ، ابن الفارضى ، عرف بأشعر المتصوفين ، وكان يلقب بسلطان العاشقين ، لقوله بمذهب الحب الإلهى ، قدم أبوه من حماه إلى مصر فسكنها ، ولما شب عمر اشتغل بفقهاء الشافعية ، وأخذ الحديث عن ابن عساکر ، وأخذ عنه الحافظ المنذرى وغيره . ثم حجب إليه سلوك طريق الصوفية ، فتزهد وجعل يأوى إلى المساجد المهجورة فى خرابات القرافة (بالقاهرة) وأطراف جبل المقطم . وذهب إلى مكة فى غير أشهر الحج ، فكان يصلى بالحرم ويكثر العزلة فى واد بعيد عن مكة ، وفى تلك الحال نظم أكثر شعره . وعاد إلى مصر بعد خمسة عشر عاماً ، فأقام بقاعة الخطابة بالأزهر ، وقصده الناس بالزيارة ، حتى أن الملك الكامل كان ينزل لزيارته . وتوفى سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م . أنظر ترجمته عند ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٤٨٣ - ٤٨٤ (الطبعة القديمة) ، ابن حجر : لسان الميزان ، ج ٤ ، ص ٣١٧ - ٣١٩ ، الذهبى : ميزان الاعتدال ، ٢ : ٢٦٦ ، ابن تضرى بردى : النجوم ، ج ٦ ، ٢٨٨-٢٩٠ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ٥ : ١٤٩ - ١٥٣ ، الخوانسارى : روضات الجنات ٥٠٥ - ٥٠٦ . وفى وجود ترجمة لابن الفارض عند الخوانسارى ما يفيد أن الشيعة كانت تعد ابن الفارض من المشيعين لعلى ، وفى هذا ما يؤيد تأثر الصوفية المصريين بالمذاهب الشيعة ، ولقد وجد كامل حسين آيات صريحة فى شعر ابن الفارض تؤكد تشيعة وهو يلاحظ أن ابن الفارض اعترف فى شعره فى صراحة تامة بالأئمة من نسل على بن أبى طالب وبالتأويل الباطن الذى خص به على .

« الحب الإلهي »^(١) ، ولا شك انه لولا تشجيع سلاطين بنى أيوب للتصوف ، لما قدرت الأيام لابن فارض ، أن يحقق هذه الشهرة والمكانة بين متصوفى عصره .

وفى رأى كل من محمد كامل حسين وأبو العلاء عفيفى ، أن ابن عربى قد انتفع فى صياغة مذهبه بمصطلحات الإسماعيلية الباطنية والقرامطة وإخوان الصفا^(٢) ، كما اتفقت بعض آراء محى الدين بن عربى مع آراء الإسماعيلية ، لكون مذهبه ، شأن مذهب الإسماعيلية ، يقوم على مزج الآراء والفلسفات القديمة^(٣) ، ولعل هذا التشابه بين مذهب ابن عربى والمذهب الإسماعيلى من ناحية المصطلحات ، كان السبب فى أن ابن عربى ، كان أشد المتصوفة أثرًا فى صوفية مصر ، فقال أكثرهم برأية فى وحدة الوجود^(٤) ، رغم الخلاف الشديد بين رأى ابن عربى فى وحدة الوجود ، وبين رأى الإسماعيلية فى التوحيد^(٥) ، الذى يقوم على نفى الصفات والتشبيه عن الله ويؤكد مغايرة ذاته لذوات مخلوقاته .

ويتفرد عبد اللطيف حمزة ، برأى وصفه بأنه لا يستند إلى نصوص علمية صريحة ، وإنما يستمدده من المذاهب الصوفية التى انتشرت فى مصر فى العصر الأيوبي ، وهو أن التصوف كان يمثل فى هذا العصر ، نوعًا من السُمُوِّ الروحى والعقلى ، فوق جميع العصبية الدينية المختلفة التى ولدتها الحروب الصليبية ، وتجلب هذا الاتجاه ، فى مذهب المعرفة - أى معرفة الله عن طريق القلب لا الحواس - ومذهب وحدة الوجود ، وكلها مذاهب تصرح بأنه لا فرق بين دين ودين ، لأن الله تعالى عام للجميع .

(١) الحب الإلهي : يعنى الفناء والاتحاد فى الذات الإلهية عن طريق المبالغة فى تهذيب النفس ومفارقة اللذات والتدرج فى مصافة النفس ، حتى يصفوا الطبع عن البشرية ؛ ولقد تأثر ابن الفارض فى رأيه فى "الحب الإلهي" برأى ابن عربى فى وحدة الوجود ، ولقد أورد ابن حجر لابن الفارض آيات صرّح فيها بمذهب الاتحاد وهى :

وفى موقفى لا بل إلى توجهى ولكن صلاتى لى ومنى كعبنى

وعن مذهب الحب الإلهي ، أنظر محمد مصطفى حلمى : ابن الفارض والحب الإلهي ، (ابن حجر : لسان الميزان ، ج ٤ ، ص ٣١٨) طبع القاهرة د.ت. ، عبد الرحمن بدوى : شهيدة العشق الإلهي ، رابعة العدوية ، طبع القاهرة مكتبة النهضة المصرية د.ت. وعن آراء ابن الفارض الفلسفية الأخرى ، أنظر أحمد فؤاد الإهوانى : مجلة الكتاب ، ج ٨ ، ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(٢) محمد كامل حسين : المرجع السابق ص ٦٦ ، أبو العلاء عفيفى : فصوص الحكم ، ١ : ٧ .

(٣) نفس المرجع ، ص ٦٦ .

(٤) نفس المرجع ، ص ٦٧ .

(٥) عبد اللطيف حمزة : نفس المرجع ، ص ٩٥ ، وص ٩٩ .

والطريف أنه قد واكب انتشار هذه المذاهب الصوفية الفلسفية في مصر : انتشار مذاهب صوفية أخرى ، لا تقوم على فكر فلسفى ، ولا يتمتع شيوخها بقدر من العلم الشرعى ، بل لعل بضاعتهم العلمية كانت أقرب إلى فكر العوام ومعارفهم منها إلى فكر العلماء وثقافتهم ، وأعنى بهؤلاء مشايخ الطرق الصوفية مثل الأحمدية المنسوبة للسيد أحمد البدوى^(١) والشاذلية المنسوبة إلى أبى الحسن الشاذلى^(٢) .

كما اشتهر بالتصوف أيضاً في هذا العصر بعض الفقهاء ، مثل عبد الرحيم القناني^(٣) ،

(١) هو أحمد بن على بن إبراهيم الحسينى أبو العباس البدوى ، المتصوف صاحب الشهرة فى الديار المصرية ، أصله من المغرب ، ولد بفاس سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م ، وطاف البلاد وأقام بمكة والمدينة ، وزار سورية والعراق سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٦م ، ودخل مصر فى أيام الملك الظاهر بيبرس ، فخرج لاستقباله هو وعسكره وأنزله فى دار ضيافته ، وعظم شأنه فى ديار مصر ، فانتسب إلى طريقته جمهور كبير ، بينهم الملك الظاهر ، وتوفى فى طنطا سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م . حيث تقام فى كل عام سوق عظيمة يفد إليها الناس من جميع أنحاء القطر المصرى احتفاءً بمولده ، أنظر ترجمته عند ابن العماد : شذرات الذهب ، ٥ : ٣٤٥ ، الشعرائى : طبقات الصوفية ، ١ : ١٥٨ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ٧ : ٢٥٢ ، وهو فيه أبو القتيان ، ويعرف بأبى اللثامين السطوحى ، لأنه مكث على السطوح مدة ١٢ سنة ، وأنظر K. Vollers دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية ، ج ١ ص ٤٦٥ - ٤٧٢ ، وأنظر إبراهيم أحمد نور الدين : حياة السيد البدوى ، طبع مصر ١٩٥٨ ، سعيد عاشور : السيد أحمد البدوى ، طبع القاهرة ، دار الكتاب العربى ، ١٩٦٧ .

(٢) هو على بن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز الشاذلى العربى ، أبو الحسن رأس الطائفة الشاذلية ، ولد فى غمزة ، من قرى أفريقية سنة ٥٩١هـ/١١٩٤م ، وتفقّه وتصوف بتونس ، وسكن شاذلة ، فنسب إليها ، وطلب الكيمياء فى ابتداء أمره ، ثم تركها ورحل إلى بلاد المشرق ، فحج ودخل العراق ، ثم سكن الإسكندرية . وتوفى بصحراء عيذاب فى طريقه إلى الحج . وكان ضريباً ينتسب إلى الأدارسة أصحاب المغرب أخبره بذلك أحد شيوخه عن طريق المكاشفة ، وقد أنكر ذلك الحافظ الذهبى قائلاً : نسب مجهول لا يصح ولا يثبت ، كان أولى به تركه . أنظر ترجمته عند الصفدى : نكت الهميان فى نكت العميان ، ص ٢١٣ ، الشعرائى : طبقات الصوفية ، ٢ : ٤ ، الزيدى : تاج العروس ، ٧ : ٣٨٨ ، وأنظر على سالم عمار : أبو الحسن الشاذلى ، والواقع أن كل من الطائفة الأحمدية والشاذلية قد تأثرتا بالطائفة الرفاعية التى ظهرت بالعراق والسيد أحمد البدوى نفسه زار العراق واحتك بالرفاعية ، أنظر عن ترجمة القطب الرفاعى ، سبط : مرآة ، ج ٨ ، ص ٣٧٠ .

(٣) هو عبد الرحيم بن أحمد بن حجون بن محمد القناني ، مغربى الأصل ، ينتهى نسبه إلى الإمام جعفر الصادق ، مولده فى إحدى قرى سبته سنة ٥٩٢هـ/١١٩٥م ، أقام بمكة سبع سنين ، واستقر فى قنا بصعيد مصر الأعلى ، وقبره فيها . أنظر ترجمته عند الأدفوى : الطالع السعيد ، ص ١٥٦ - ١٦٦ ، على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٤ : ١٢٢ . والملاحظ أن كل من السيد البدوى وأبو الحسن الشاذلى وعبد الرحيم القناني ينتسبون إلى الأشراف العلويين . وأن ثلاثهم قد وفدوا إلى مصر من بلاد المغرب .

وأبى الحسن ابن الصباغ^(١)، فلا ريب أن خلفت هذه الاتجاهات الصوفية المختلفة المشارب والاتجاهات، أثرا ملحوظًا في الحياة الأدبية والعقلية في العصر الأيوبي^(٢).

ولكن مع كل هذا الاهتمام الذي أبداه الأيوبيون في تشجيع التصوف، ورعاية الصوفية، وإنشاء المؤسسات الخاصة بهم التي تشرف عليها الدولة. وتخصص لها من الأوقاف، ما يكفل لها الاستمرار والبقاء، ويحقق للصوفية الحياة الرغدة الكريمة، ومع ما قوبل به مشاهير الصوفية الوافدين على مصر والشام في ذلك العصر بالحفاوة والترحاب، ومع ما حظى به الصوفية من مكانه مرموقة لدى ملوك وسلاطين بنى أيوب، فإننا على العكس نجد السلطات الأيوبية، تبادل بعض فرق الصوفية العداء السافر، وتسعى في إبادة اتباعها والتمثيل برؤسائها.

وينسحب هذا الموقف العدائى للإيوبيين، تجاه بعض الصوفية، على الفرقة الكيزانية^(٣)،

(١) هو على بن حميد بن إسماعيل بن يوسف، أبو الحسن بن الصباغ القوصى، توفى بعد سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م، وصفه الأذفوى بشيخ الدهر بلا منازع، صاحب المعارف والكرامات المشهورة. أنظر ترجمته عند الأذفوى: الطالع السعيد، طبع الهند ١٩٦٦ ص ٣٨٣ - ٣٨٧، الذهبى: دول الإسلام، ٢: ٨٧، اليافعى: مرآة الجنان ٤: ٢٤، أبو المحاسن: النجوم، ٥: ٥٢، وأنظر على صافى حسين: الأدب الصوفى فى مصر، ابن الصباغ القوصى، شيخ التصوف المصرى فى القرن السابع الهجرى، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧١.

(٢) محمد كامل حسين: دراسات فى الشعر، ص ٦٨ - ٨٥، عبد اللطيف حمزة: الحركة الفكرية، ص ١٢٠ - ١٤٦.

(٣) هى تنسب إلى محمد بن إبراهيم بن ثابت بن فرج الكنانى المقرئ الأديب الشافعى المصرى، المعروف بابن الكيزانى، واعظ وشاعر مصرى، كان معتزليًا ومع ذلك فقد كان يقول بمذهب التشبيه على عكس المعتزلة، كما كان يقول أن أقوال العباد قديمة. توفى بالقاهرة سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م. قال ابن خلكان: دفن بالقرب من قبة الإمام الشافعى، بالقرافة الصغرى، ثم نقل إلى سفح المقطم، وقبرة مشهور هناك يزار، وزرته مرارًا. وقال العماد الأصفهانى: فقيه واعظ.. عالم بالأصول والفروع، عالم بالمعقول والمشروع.. وكان ذا رواية ودراية بعلم الحديث، إلا أنه مبتدع مقالة ضل بها اعتقاده.. وادعى أن أفعال العباد قديمة، والطائفة الكيزانية بمصر على هذه البدعة إلى اليوم مقيمة.. توفى بمصر سنة ٥٦٠هـ/١١٦٤م، والكيزانية بمصر فرقة منسوبة إليه ويدعون قدم الأفعال وهم أشباه الكرامية بخراسان. وقال ابن سعيد المغربى: كان من عباد القسطنطين الملازمين للقرافة وجبل المقطم، وكان مذهبه الاعتزال. وقال القفطى: رأيت فى بعض المجاميع أن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، لقي ابن الكيزانى بمصر لما طلع فى نصرتها، وقيل أن يلى على مملكتها، واستكتبه جزءًا من شعره، وفى نص القفطى، الذى أورده أيضًا العماد الأصفهانى، ما يفيد محاولة صلاح الدين، قبل توليه الوزارة استمالة ابن الكيزانى، الذى كان شيخًا لأكبر طريقتة صوفية فى مصر، تحظى بعطف الخلفاء الفاطميين، أنظر عن ترجمة ابن الكيزانى: العماد الأصفهانى: خريدة القصر، قسم شعراء مصر، ج ٢، ص ١٨ - ٤٠، وهى ترجمة مطولة فيها مختارات كثيرة من شعره، ابن خلكان: وفيات الأعيان، طبع بيروت، ج ٤، ص ٤٦١ - ٤٦٢، ابن سعيد المغربى: المغرب فى حلى المغرب، السفر الرابع، نشر تللكوست ص ٩٣، القفطى: المجمعودون من الشعراء، تحقيق حمد الجاسر، ص ١٠٠، سبط ابن الجوزى: مرآة الزمان ج ٨: ٢٥٤ - ٢٥٥، الصقدي: الوافى، ٢: ٢٤٤، أبو المحاسن: النجوم ٦: ٩٥، الذهبى: العبر ٤: ٢٣٨، السبكي: طبقات الشافعية، ٤: ٧٥، ابن العماد: الشذرات، ٤: ٢٦٦، وأنظر على صافى حسين: ابن الكيزانى، طبع دار المعارف.

إذ عملت السلطات الأيوبية بتحريض من الفقيه السنّي الشافعي المتعصب الخبوشاني على قتل اتباع هذه الطائفة ، وإخراج رفات ابن كيزان ، رئيس طريقتهم والتمثيل بها^(١) ، وأغلب الظن أن تفسير هذا المسلك العنيف مرده إلى ميل هذه الفرقة للمذهب الإسماعيلي ، والدعوة الإسماعيلية ، خاصة وأنها نعمت بعطف خلفاء الفاطميين المتأخرين^(٢) ، شأنهم شأن الكرامية ، وهم أيضاً من صوفية الشام ، قالوا بمقالة قريية الشبه من مقالة الكيزانية ، بخصوص القول بالتجسيم بالنسبة للذات الإلهية وحظوا بعطف الفاطميين ثم الأيوبيين^(٣) .

وأغلب الظن أن مقتل السهرودي^(٤) ، الفيلسوف المتصوف على أيدي الأيوبيين^(٥) ، أيضاً ، وهو صاحب الفلسفة الإشراقية^(٦) ، كان بسبب تشييعه أيضاً وتعاطفه مع الدعوة الإسماعيلية^(٧) .

(١) قال سبط ابن الجوزي في ترجمة الخبوشاني : كان يلقب بالنجم بالديار المصرية ، وأظهر الناموس ، ونفق على السلطان (صلاح الدين) وأهله ، وأعطاه السلطان مالاً فبنى به المدرسة التي إلى جانب الشافعي ، وكان كثير الفتن منذ دخل مصر إلى أن مات ، وما زالت الفتن قائمة بينه وبين الخنابلة وابن الصابوني وزين الدين بن نجيه ، ويكفروه ويكفروهم ، وكان طائشاً مهموماً ، نيش ابن الكيزاني ، وأخرج عظامه من عند الشافعي .. وكانت وفاته في صفر (٥٨٧هـ / ١١٩١م) وسكنت واصططح الناس .. وولى بعده تدريس مدرسة الشافعية ، شيخ الشيوخ صدر الدين ابن حمويه . (سبط ابن الجوزي : مرآة ج ٨ : ٤١٤ - ٤١٥) . وواضح من ترجمة سبط ابن الجوزي للخبوشاني ، أنه متحامل عليه لعداوته للحنابلة لأنه من مشاهير الخنابلة بل كان جده أبو الفرج ابن الجوزي من كبار مشائخهم ؛ وواضح أن عدااء الخبوشاني للحنابلة بمصر وللکيزانية ، مرجعه إنه - كما تقدم نقلاً عن نقش قبره - من أنصار العقيدة الأشعرية ، ومن ثم فهو يعادى من يقول بالتشبيه مثل الخنابلة والکيزانية ؛ والجدير بالالتفات أن سبط ابن الجوزي قد أثنى على زهد ابن الكيزاني ومدح شعره عندما ترجم له أنظر ، مرآة ، ج ٨ : ٢٥٤ - ٢٥٥ .

(٢) أنظر محمد كامل حسين : دراسات في الشعر ، ص ٥٩ - ٦٣ وهو يفيد أن ابن الكيزاني كان أول من أظهر من الشعراء والصوفية المصرية مذهب الحب الإلهي ، ونحن لا نستبعد أن يكون ابن الفارض من تلامذة ابن الكيزاني أو من أتباع فرقته ، لأنه كان - كما أسلفنا اعتماداً على ترجمته عند الخوانساري في روضات الجنات - شيعياً ، كما أنه قال بمذهب ابن الكيزاني في الحب الإلهي .

(٣) صرح العماد الأصفهاني بأن الكيزانية هم أشباه الكرامية بخراسان (الخريدة ٢ : ١٩) وقد أفاد المقدسي أن الكرامية قد حظوا بعطف الفاطميين بالشام ، أنظر أحسن التقاسم ، ص ١٧٩ - ١٨٠ ، وعن تسامح صلاح الدين مع الكرامية بالشام ، أنظر محمد زاهد الكوثري : مقدمة كتاب تبين كذب المفتري ، فيما نسب للإمام أبي الحسن الأشعري ، لابن عساكر ، ص ١٦ . وأنظر قبله .

(٤) هو يحيى بن حبش بن أميرك ، أبو الفتوح ، شهاب الدين السهرودي . ولد بسهرورد بعراق العجم ، سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م ، وسافر إلى حلب ، فنسب إلى فساد العقيدة ، فأثي العلماء بإباحة دمه ، فسجنه الملك الظاهر غازي ، وخنقه في سجنه بقلعة حلب ؛ أنظر ترجمته عند ابن خلكان : وفیات الأعيان ، ٢ : ٣٤٥ - ٣٤٨ (الطبعة القديمة) ، ياقوت : معجم الأدياء ، ١٩ : ٣١٤ - ٣٢٠ ، ابن حجر : لسان الميزان ، ٣ : ١٥٦ - ١٥٨ ، الصفدي : الوافي ، ٢ : ٣١٨ - ٣٢٣ ، ابن تفرى بردى : النجوم ، ٦ : ١١٤ - ١١٥ ، ابن العماد : شذرات ، ٤ : ٢٩٠ - ٢٩٢ .

(٥) ابن شداد : النوادر ، ص ١٠ ، س ٣ - ٧ وأنظر قبله .

(٦) مصطفى حلمي : من أين استقى السهرودي فلسفته الإشراقية ، حولية كلية الآداب ، جامعة القاهرة .

(٧) أنظر قبله ؛ والذي نلاحظه هنا أن السهرودي ، قد نشأ في عراق العجم وهو موطن قديم للشيعنة ، كما استقر عند مجيئه إلى الشام في حلب ، وهي أقوى معادل الشيعة بالشام ، أنظر قبله .

ولقد أدرك بعض المتخصصين فى التصوف^(١) ، أن دعاة الإسماعيلية ، قد استغلوا بعض مشايخ الطرق الصوفية الذين عرفوا بالدررايش ، لمحاولة نشر التشيع فى مصر مرة أخرى ، وإعادة الدولة الفاطمية ، وكان أشهر هؤلاء الدعاة ، الصوفى الشهير السيد أحمد البدوى ، الذى يظن أنه صاحب المقام الشهير بمدينة طنطا ؛ ولا شك أن السلطات الأيوبية ، لم تكن غافلة عن هذه المحاولات الخفية ، التى عمد الإسماعيلية عن طريقها ؛ إلى استغلال حركة التصوف لإعادة نشر الدعوة الإسماعيلية بمصر .

وهذا أمر غير مستبعد فى الواقع ، لأن المصريين فى العصر الفاطمى ، كانوا يهرعون إلى دعاة الإسماعيلية ، ويستغيثون بالأئمة عندما تحل بهم نواب الدهر ، اعتقاداً منهم بأن الأئمة ملاذ كل مستغيث ، كما تأمرهم العقيدة الإسماعيلية ، ولكن فى العصر الأيوبى والمماليكى ، لم يجد المصريون هذا الملاذ ، فاتجهوا إلى شيوخ الطرق الصوفية^(٢) .

ومن هنا يتضح ، كيف حاول الأيوبيون ، استغلال التصوف ، فى نشر علوم السنة ومحاربة المذهب الإسماعيلى ، فى نفس الوقت ، الذى حاول فيه دعاة الإسماعيلية بث الدعاة فى مسح الصوفية والدررايش ، لإعادة نشر الدعوة الإسماعيلية بمصر ، وإن كان النصر جاء فى صالح العقيدة السنية ، بحيث أنزوت العقيدة الإسماعيلية وتلاشت تدريجياً من مصر .

أياً كان الأمر . فلقد كان لحركة التصوف التى عاشتها مصر فى العصر الأيوبى والمماليكى ، وجهان ، وجه إيجابى تمثل فى نشر علوم السنة ، والنهوض بالطبقات الفقيرة ، ونشر الحماس الدينى للجهاد بين الناس ، وإثراء الحركة الفكرية والأدبية فى هذين العصرين ، إلى جانب بث المثل الأخلاقية الإسلامية بين الناس^(٣) . ووجه سلبى تمخض عن استقواء النفوذ السياسى والاجتماعى للطرق الصوفية والدررايش ، الأمر الذى أدى إلى تدهور المجتمع المصرى فى نهاية العصر المماليكى^(٤) ، وإبان العصر العثمانى^(٥) . والواقع أن سلبيات التصوف ، وتردى الصوفية فى مذاهب العوام ، وجهل

(١) راجع محمد فهمى عبد اللطيف : السيد أحمد البدوى أو دولة الدرايش ، القاهرة ١٩٥٨ م .

(٢) محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر ، ص ٦٥ . وفى رأينا أن ظهور علم المعاملات والحقائق عند الصوفية ، كان رد فعل للمذاهب الباطنية فى الفكر الإسماعيلى ، أنظر سبط : مرآة ، ٢٦٤ - ٢٦٥ .

(٣) عن دور التصوف فى الأدب والأخلاق ، فى التراث الإسلامى ، وإثر ذلك فى المجتمع الإسلامى ، راجع زكى مبارك : التصوف الإسلامى فى الأدب والأخلاق ، ج ١ - ٢ طبع المكتبة العصرية ببيروت ، د.ت . والواقع أن كثيراً من الصوفية فى العصر الأيوبى والمماليكى الأول كانوا يصاحبون الجيوش الإسلامية ويشتركون فى الجهاد ، أنظر قبله وليس أدل على ارتباط التصوف بالجهاد فى ذلك العصر ، مما ذكره سبط فى ترجمة الخليفة الموحدى يوسف بن عبد المؤمن ، الذى تصدى لحركة الاسترداد المسيحى بالمغرب والأندلس إذ وصفه بأنه كان لايساً للصوف ، مجاهدًا فى سبيل الله ، سبط : مرآة ج ٨ ، ص ٣٧٤ .

(٤) أنظر سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك .

(٥) توفيق الطويل : التصوف فى العصر العثمانى .

بعضهم يعلم الدين ، وركزهم إلى البطالة والتراكل ، ظاهرة اجتماعية ظهرت على استحياء فى العصر الأيوبي ، وإن قابلها الفقهاء والأدباء بالنقد اللاذع^(١) .

رصد الأحباس والأوقاف للمنشآت الخيرية والتعليمية :

واقترن بنشر الأيوبيين للمنشآت التعليمية والخيرية السنوية بمصر ، كثرة وقف الأوقاف والأحباس على هذه المنشآت التعليمية والخيرية السنوية بمصر ، سواء من قبل الحكومة^(٢) ، أو من قبل الأفراد ، مثل كبار الأمراء والموظفين ، أو من التجار وغيرهم من أغنياء الشعب المصرى^(٣) ، بحيث أصبح الوقف ظاهرة تسترعى النظر فى العصر الأيوبي^(٤) .

(١) شايح سبط : وهو فقيه حنبلى ، جده أبو الفرج ابن الجوزى ، فى حملته الشعواء على الصوفية ، كما أظهرها فى تاريخه المسمى المنتظم . إذ عمد سبط على وصفه الصوفية بأنهم أصحاب طريقة ، وأنهم " يدعون المعرفة " و " المكاشفة " و " علوم الباطن " وأنهم عارون من علوم الشريعة ، أنظر : مرآة الزمان ، ٨ : ٧ ، ٤٩ ، ٩٥ ، ١٣٨ ، وإن عمد أحياناً إلى تنفيذ اتهامات جده التى اشتط فى توجيهها للصوفية ، أنظر مرآة ، ٨ : ١٣٩ ، أما الأديب الساخر ركن الدين الوهرائى ، فهو فى الواقع من أول النقاد الاجتماعيين الذين أدركوا خطورة ظاهرة " الدروشة والدرأوش " فى تدهور المجتمعات وتواكلها واستسلامها للبطالة والأوهام فكتب فى مقاماته يسخر من عوام الصوفية متخيلاً رؤية رآها فى منامه ، جمعت النبى صلى الله عليه وسلم بهم ، فيقول الوهرائى : فلما انتهى " النبى صلى الله عليه وسلم " إلى شاطئ المشرعة ، وقف عندها فتقدمت إليه الصوفية من كل مكان وعلى أيديهم الأمشاط وأخله الأسنان ، وقدموها بين يديه ، فقال صلى الله عليه وسلم من هؤلاء فقيل له : هؤلاء قوم من أمتك غلب العجز والكسل على طباعهم فتركوا المعاش وانقطعوا إلى المساجد ، يأكلون وينامون فقال : فيماذا يتفعون الناس أو يعينون بنى آدم ، فقيل له : والله ولا يشىء البتة فساق ولم يلتفت إليه (المقامات والمنامات ص ٤٨ - ٤٩) وفى مقامة أخرى يوجه الوهرائى حديثه اللاذع ، لشيخ من شيوخ الصوفية لقيه فى القرافة . البس مرقعتك الملونة وعباتك الصوف ، واركب حمارك القصير ، وشق أسواق مصر والقاهرة واخذع الناس بلطف سلامك وكلامك وغرهم بسالوسك (السالوس ثوب من الكتاب يلبسه الصوفية) وناموسك وعلمهم بلطف اختيالك كيف يكون النصب والمحال (الوهرائى : المنامات ص ٨٨) .

(٢) أنظر المقرئى : الخطط ، ج ٤ ص ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، وأنظر نسخة توقيع من العصر الأيوبي بتدريس مدرسة النظر عليها ، والتحدث على أوقافها وسائر متعلقاتها عند القلقشندي : صبح ج ١١ : ٣٤ - ٣٧ ، ولقد نص المقرئى على أنه وقف بنفسه على حجة وقف المدرسة السيوفية التى أوقفها صلاح الدين ونقل شروط الوقفية ؛ الخطط ، ٤ : ١٩٦ . كما أورد أيضاً شروط حجة وقف الخانقاه الصلاحية ، الخطط ج ٤ ، ص ٢٧٥ وفى سنة ٥٩٢هـ / ١١٩٥م حبس الملك العزيز ناحية الخربة من المنوفية على زاوية الإمام الشافعى بالجامع العتيق بمصر ، وفوض تدريسها إلى البهاء ابن الحميرى ، (المقرئى : السلوك ، ١ : ١٢١) .

(٣) نفس المصدر : ج ٤ ، ص ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ .. إلخ . ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ١٣٥ ، ص ٥ - ٧ .

(٤) محمد عبد العزيز مرزوق : الفن الإسلامى فى العصر الأيوبي ، ص ٦٣ .

والجدير بالالتفات ، أنه منذ العصر الفاطمي ، أفردت الأوقاف بديوان مستقل ، لأول مرة في تاريخ مصر الإسلامية كما لاحظ المقرئى ، واستندت مهمة الإشراف على هذا الديوان إلى قاضى القضاة الفاطمى^(١) ، فى حين ظلت الأوقاف بمصر ، منذ الفتح الإسلامى ، وحتى عهد الفاطميين ، فى أيدي المستحقين أو نظار الوقف ، حسب شروط الواقف^(٢) ، دون أى تدخل أو إشراف من الدولة ، رغم كثرة هذه الأوقاف ، ولما زالت الدولة الفاطمية ، واستقرت دولة بنى أيوب ، أضيفت الإحباس أيضاً إلى القاضى^(٣) ، وذلك حين أضافها صلاح الدين إلى قاضية ابن درباس سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م^(٤) ، وحين صرف ابن درباس عن القضاء ، ثم أعيد إليه فى سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨م ، استمرت الأحباس ضمن ولايته بالإضافة إلى الخطابة والحسبة ودار الضرب^(٥) ، كذلك أسند الأيوبيون بالشام نظر الأحباس إلى قاضى قضاة الشام^(٦) .

وفى رأينا أن أفراد الأوقاف بديوان ، وجعلها تحت إشراف الدولة ، وإدخالها فى جملة ولاية قاضى القضاة فى العصرين الفاطمى والأيوبي ، يشير إلى أن كلتا هاتين الدولتين ، اللتين قامتتا على أساس مذهبى ، قد استخدمتا الأوقاف كوسيلة لاجتذاب المصريين إلى مذهب الدولة ، وذلك لأن قاضى القضاة ، كان فى العصر الفاطمى المشرف الأعلى على الدعوة الإسماعيلية بمصر^(٧) ، ثم أصبح فى العصر الأيوبي ، المشرف الأعلى على المدارس السننية بمصر ، التى حلت محل الدعوة الإسماعيلية^(٨) ، بمعنى أن الدولة الفاطمية ، قد استخدمت الأوقاف لاجتذاب المصريين للدعوة الإسماعيلية ، فى حين استخدمت الدولة الأيوبية الأوقاف لاجتذابهم للدعوة السننية .

(١) المقرئى : الخطط : ج ٤ ، ص ٨٣ .

(٢) محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ، ص ٤٨ .

(٣) المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٨٤ ، س ٢٢ - ٢٣ .

(٤) ابن حجر : رفع الأصر ، ج ٢ ، ص ٣٦٨ ، س ٩ .

(٥) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٣٦٩ ، س ١٥ .

(٦) أنظر ابن شداد : ملجأ الحكام عند الناس الأحكام منصوص بدار الكتب المصرية رقم ٤٦ فقه شافعى م ، البابين قبل الأخيرين من الكتاب ، المتعلقين بـ " الأوقاف " و " أموال الأيتام " المحفوظة وثانيتها فى مجلس القاضى . وقد ذكر المقرئى فى حوادث سنة ٥٩٠هـ / ١١٩٣م أنه وصل إلى (الملك العزيز عثمان) القاضى محى الدين أبو حامد محمد بن الشيخ شرف الدين عبد الله بن هبة الله بن أبى عصور ، فاحترمه ، وولاه قضاء الديار المصرية ، وضم إليه نظر الأوقاف ، المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ١١٨ .

(٧) ماجد : نظم الفاطميين ، ج ١ ، ص ١٤٠ وما بعدها .

(٨) أنظر السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ١٥٤ - ١٥٩ ، سجل تقليد القاضى ابن بندار .

ويؤيد ما ذهبنا إليه ، ما ذكره المقرئزي ، أنه منذ العصر الفاطمي ، أصبح من مهمة قاضي القضاة تفقد أحوال المساجد والجوامع قبيل شهر رمضان ، للتأكد من سلامة مرافقها ، وحسن رعاية القائمين عليها لها ، وقيامهم بواجباتهم في خدمة المساجد ووعظ المترددين عليها ، وإقامة شعائر الصلوات خير قيام^(١) ، ولا شك أن هذا الأمر ينسحب أيضاً على العصر الأيوبي ، إذ كانت المساجد في جميع أرجاء القطر المصري ، تابعة لديوان الإحباس ، مسجلة في سجلاته ، حيث قام النابلسي بحصر أسماء جميع مساجد وجوامع بلاد القيوم ، اعتماداً على سجلات ديوان الإحباس ، وذلك لأنه أراد التمييز بين المساجد التي تقام بها صلاة الجمعة ، من المساجد القاصرة على الصلوات الخمس ، وأيضاً لتمييز المساجد العامرة بمقامة الشعائر ، من المساجد التي تسرب إليها الإهمال ، فهدمت وتعطلت منها الشعائر^(٢) ، وهذا ما تقوم به وزارة الأوقاف بمصر ، في يومنا هذا .

كذلك فإن في أفراد الإحباس بديوان مستقل ، وجعله تحت إشراف قاضي القضاة ، تفسيراً لما لاحظته الباحثون ، من أن الأوقاف أصبحت تمثل مورداً من موارد الدولة في العصرين الفاطمي والأيوبي^(٣) ، خاصة وأن هذه الملاحظة ، قد استوقفت من قبل الرحالة الأندلسي ابن جبير^(٤) ، وقدم لنا أبي ممتي^(٥) والنابلسي^(٦) ، تفاصيل وافية بصدد هذا .

وترجع الأصول الأولى لارتباط الأوقاف بالمنشآت التعليمية والخيرية ، التي أقيمت لنشر علوم السنة ، إلى علماء ودعاة المذهب الأشعري ، الذي أنشأوا الكثير من هذه المنشآت السنية ، وخاصة في بلاد العراق ، وبلاد أفغانستان (غزنة) وإيران (نيسابور وخراسان) إبان العصرين الغزنوي والسلجوقي ، وأوقفوا عليها أوقافاً من أموالهم الخاصة ، وكانت هذه المنشآت الأهلية ، بجوار منازلهم ، بحيث كان هؤلاء العلماء مثل أبو بكر بن فورك ، وأبي حامد الغزالي ، يجلسون فيها

(١) المقرئزي : الخطط ، ج ٤ ، ص ٨٤ .

(٢) النابلسي : إظهار صنعة الحى القيوم : ص ٢٠ - ٢٢ .

(٣) حسنين ربيع : النظم المالية ، ص ، محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية ص ٥٢ .

(٤) يقول ابن جبير عن نغر الإسكندرية : وأما أهل بلدة ، ففي نهاية من الترفيه واتساع الأحوال ، لا يلزمهم وظيفة البتة ، ولا فائدة للسultan بهذا البلد سوى الأوقاف المحبسة المعينة من قبل لهذه الوجوه ، وجزية اليهود والنصارى ، وما يطرأ من زكاة العين خاصة ، وليس له منها سوى ثلاثة أمانها والخمسة أمان مضافة للوجوه المذكورة (ابن جبير : الرحلة ، ص ١٦) .

(٥) أنظر ابن ممتي : قوانين الدواوين ، ص ٣٥٦ - ٣٥٧ ، ص ٣٥٦ هامش "٢" فيه زيادة قيمة جداً عن إحدى النسخ المخطوطة في تعريف نظام الإحباس في العصر الأيوبي .

(٦) النابلسي : إظهار صنعة الحى القيوم ، ص ٢٥ ، النابلسي : لمع ، ص ٢٥ ، حيث يقول أن ديوان الإحباس يدخل في ديوان المال وأحد فروعه .

بأنفسهم لتدريس علوم السنة ، والوعظ الصوفي على المذهب الأشعري^(١) . وكان الوزير السلجوقي نظام الملك - وهو أيضًا أشعري المذهب^(٢) ، هو أول من جعل من نظام الوقف^(٣) ، نظامًا حكوميًا ، تصرف منه الحكومات السنوية ، على المنشآت التعليمية والخيرية ، التي تدرس علوم السنة .

ولقد تبلور نظام الوقف ، كنظام حكومي ، تشرف عليه الحكومات السنوية ، وتصرف من ريعه على رعاية المنشآت التعليمية والخيرية ، وإصلاح ما تطرق إليه الخلل من مبانيها ، إلى جانب ترتيب المرتبات والجرابات على الأساتذة والطلبة بالمدارس ، وعلى الخطباء والمقرنين والمؤذنين والقومة ، بالمساجد والمشاهد ، في العصرين السلجوقي^(٤) والزنكي^(٥) وأغلب الظن أن الأوقاف الحكومية ، كانت تمثل موردًا هامًا من موارد الدولة ، في هاتين الدولتين ، وخاصة وأن ثمة نصوص من العصر الزنكي ، تؤيد هذا الترجيح^(٦) .

وهنا يستوقفنا أن الأيوبيين ، كانوا هم أول من أنشأوا ديوان للزكاة في تاريخ مصر الإسلامية^(٧) ، على أساس أن تتولى الدولة جباية الزكاة ممن تجب عليهم أداءها ، لتوفر الشروط

(١) أنظر ابن عساكر : تبين كذب المفتري ، ص ٢٠٨ ، ٢١٦ ، ٢٣٢ ، ٢٣٦ ، ٢٨٠ ، ٢٩٢ .
(٢) ابن عساكر : تبين كذب المفتري ، ص ١٠٠ ، ١٠٩ حيث يقول ص ١٠٨ - ١٠٩ سُبَّ حزب الشيخ أبي الحسن الأشعري في دولة السلطان طغرل بك ووزارة أبي نصر منصور بن محمد الكندري ، وكان السلطان حنفيًا سنياً ، وكان وزيره معتزليًا رافضياً ، فلما أمر السلطان بلعن المبتدعة على المنابر في الجمع ، قرن الكندري للتسلي والتشفي اسم الأشعرية بأسماء أرباب البدع وامتنح الأئمة الأمائل .. فلم يكن لإيسير حتى تقشعت تلك السحابة ، وتبدد بهلك الوزير شمل تلك العصاية ، ومات ذلك السلطان ، وولى ابنه البارسلان ، وأستوزر الوزير الكامل ، والصدر العالم العادل ، أبا علي الحسن بن علي بن إسحاق (نظام الملك) ، فأعز أهل السنة وقمع أهل النفاق ، وأمر بإسقاط ذكرهم من السب .. واسترجع من خرج منهم إلى وطنه ، وبنى لهم المساجد والمدارس ، وعقد لهم الخلق والمجالس ، وبنى لهم الجامع النيعي في أيام ولد ذلك السلطان .. فاستقام في وزارته الدين وصفا عيش أهل السنة . وعن سياسات نظام الملك أنظر يحيى الخشاب ، الوزير نظام الملك ووحدة المسلمين ، مجلة رسالة الإسلام ، السنة الثانية ، العدد الثالث ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م ص ٣١٣ - ٣١٧ .

(٣) قال البنداري عن نظام الملك : ومن وجد في بلدة قد تميز وتبحر في العلم ، بنى له مدرسة ووقف عليها وقفًا وجعل فيها دار كتب .. وكان ينظر في الأوقاف والمصالح ويرتب عليها الأمناء ويشدد في أمرها ويخوف من وزرها . ويرغب في أجرها ، ويكلها إلى الأئمة ، ولا يدعها مأكله للخونة . (البنداري : تاريخ آل السلجوقي ، ص ٥٤ - ٥٥) .

(٤) أنظر الراوندي : راحة الصدر ، ص ١٦٠ ، ١١٩ ، ١١٣ ، ١٠٤ ، وأنظر قبله .

(٥) أنظر أبو شامة : الروضتين ، ١ : ق ٢ ، ص ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٤٠ ، سبط مرآة ، ٨ : ١٠٨ ،

٣١١ ، ٣١٢ ، ابن واصل : مفرج ، ١ : ٢٨١ ، ٢٨٢ - ٢٨٣ ، ٢٨٤ .

(٦) سبط : مرآة ، ج ٨ ، ص ٣٠٨ .

(٧) المقرئ : الخطط ، ص ١٧٤ ، المقرئ : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٤ - ٤٥ ، ٤٨ .

الشرعية فيهم ، وانطباق الظروف الشرعية التي نصت عليها الشريعة ، بخصوص الأموال التي تجب عليها الزكاة ، ثم تتولى الدولة صرف أموال الزكاة في وجوهها الشرعية^(١) ، وأهم أوجه صرف الزكاة - كما هو معروف - هو للأيتام والمساكين وأبناء السبيل ، وهو ما ينسحب على مكاتب الأيتام التي أنشأها الزنكيون والأيوبيون^(٢) ، وعلى ما أنشأوه من خوانق ، ومدارس للغرباء الوافدين^(٣) على البلاد ، الذين ينطبق عليهم تعريف « أبناء السبيل » .

ولا يخفى أن كلاً من « فريضة الزكاة » ، و « نظام الوقف » ، قصد بهما في النظم الإسلامية : تحقيق التكافل الاجتماعي ، بين الأغنياء والفقراء ، وضمان توفير ضروريات أسباب المعيش مثل التعليم والرعاية الصحية والطعام والملبس والكساء ، للفقراء والمحتاجين والعاجزين عن العمل ، مثل المرضى والأيتام والأيتامى ، فليس من قبيل المصادفة وحدها أن يتجه الأيوبيون ، وهم مؤسسو دولة جديدة ، راغبين في نشر عقيدة جديدة أيضاً ، وهي العقيدة السنية ، إلى الاهتمام بالزكاة والوقف ، وجعل هذين الموردين الهامين ، في خدمة المنشآت التعليمية والخيرية التي أنشأتها الحكومة الأيوبية بمصر ، بغرض نشر علوم السنة .

ولعلنا لا نعدو الصواب ، إذا قلنا أن أفراد الزكاة بديوان خاص ، قد تم على يد نجم الدين أيوب ، والد صلاح الدين ، إذ تذكر المصادر ، أن صلاح الدين قد حكمه في جميع الخرائن^(٤) ، كما أفاد الوهرائي ، وهو معاصر لقدوم نجم الدين أيوب بالشام ، أنه عمد في نشر المذهب السني بمصر ، ومحو بدعة التشيع وعقيدة الفاطميين ، إلى كثرة إخراج الصدقات وتعميم النفقات في الناس^(٥) . كما تحدث الوهرائي أيضاً عن ديوان الزكاة كظاهرة أصبح لها صداها في الحياة الاجتماعية ، في ذلك الوقت^(٦) ، والراجح أن ديوان الزكاة في العصر الأيوبي بمصر ، قد نظم على نحو ما كانت عليه « دار الزكاة »^(٧) في العصر الزنكي ؛ ومن هنا يتضح أن أغلب وسائل نشر العقيدة السنية ، ومحو العقيدة الإسماعيلية من مصر . قد تمت على يد والد صلاح الدين ، بعد قدومه من الشام سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م ، ولا ريب أن قدومه كان بتكليف من نور الدين زنكي ، كما رجحنا من قبل .

(١) ابن ممتي : قوانين الدواوين ، ص ٣٠٨ - ٣١٧ .

(٢) أنظر قبله .

(٣) أنظر ابن جبير : الرحلة ، ص ١٥ الذي يفيد أن السلطان بنى مدارس ومستشفيات للغرباء المغاربة وأوقف عليها أوقاف ، القرظي : الخطط ، ج ٤ : ٢٧٥ ، الذي يفيد أن صلاح الدين أوقف خانقاه سعيد السعداء على الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة والقاطنين بالقاهرة ومصر .

(٤) ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ١٨٦ .

(٥) الوهرائي : المنامات والمقامات ، ص ١٤ ، يقول : وتفجرت يمينه بالنفقات ، حتى عم أهل الأرض بالصدقات .

(٦) الوهرائي : المنامات ، ص ٨٣ .

(٧) ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ٢٦٩ ، ص ٧ .

ومما يؤكد اعتماد الأيوبيين على ديوان الأحباس ، كوسيلة من وسائل نشر الدعوة السنية أن ناظر هذا الديوان ، كان هو الذى يتولى تقدير رواتب أساتذة المدارس ، ويقوم بدفعها لهم من أموال الأوقاف ، وكان صاحب ديوان الأحباس هو الموظف الوحيد فى الدولة ، الذى كان له حق صرف المرتبات والأموال اعتماداً على توقيعه الشخصى ، دون رفع الأمر إلى السلطان لأخذ توقيعه « العلامة السلطانية » ، شأن الحال بالنسبة للموظفين الماليين بالدولة ، بل كان من حق صاحب ديوان الأحباس ، زيادة ونقصان مرتبات الأساتذة المدارس والطلبة المترددين عليها ، والقومة القائمين على العناية بها ، بقدر ما يرى فيه الصالح العام^(١) .

فلا غرو أن اشترط فى ناظر ديوان الأحباس ، أن يكون من العلماء المتفهمين فى الدين ، ليستطيع الفصل فى المسائل الفقهية التى قد تطرأ على أحوال الأوقاف ، أو على أحوال المستحقين فى ريعها^(٢) ، ولا غرو أن تمتع ناظر ديوان الأوقاف فى العصر الفاطمى برتبة ، كانت تزاخم قاضى القضاء نفسه ، بل كثيراً ما كانت تحدث المنافسة فيما بين الإثنين ، لنوال الحظوة والمكانة المرموقة ، فى المجلس العام للخليفة الفاطمى ، عند الاحتفال بالمواسم والأعياد^(٣) ؛ ولا غرو أن وجدنا متولى ديوان الأحباس فى بداية العصر الأيوبى ، يركب وبين يديه « الغاشية » ، وهى إحدى الآلات السلطانية الخاصة بسلاطين بنى أيوب ، ويفسر مسلكه هذا بأنه ملك على العلماء ، كما أن السلطان ملك على الرعايا^(٤) ، وفى هذا أيضاً تلميح على إشراف ديوان الأحباس فى العصر الأيوبى ، على المدارس والمؤسسات التعليمية .

وفى رأى محمد محمد أمين أن صلاح الدين اتخذ من نظام الأوقاف سبيلاً لتدعيم حكمه السياسى ، إذ يلاحظ أننا لو خاولنا تتبع أسبابا كل وقف أمر به ، لوجدنا أن غالبية أوقافه تهدف إلى تدعيم حكمه السياسى من ناحية ، وخدمة المذهب السنى والقضاء على المذهب الشيعى من ناحية أخرى^(٥) ، ونلمس ذلك مثلاً فى وقفة دار العيار على سور القاهرة ، مع ما كان جارياً فى أوقاف السور من الرباع والنواحي الجارية فى ديوان الأسوار^(٦) ، وفى وقفة بعض الأوقاف على ديوان الأسطول^(٧) ، وفى وقفة صادر الفرنج - أى الضرائب الجمركية - على

(١) أنظر ابن ممتى : قوانين ، ص ٣٥٦ ، هامش " ٢ " ، النابلسى : لمع ص ٢٥ - ٢٦ .

(٢) أنظر النابلسى : لمع القوانين ، ص ٢٦ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٨ .

(٤) كان اسم متولى الأحباس هذا ، شهاب الدين الطوسى ، أنظر نفس المصدر ، ص ٢٦ - ٢٧ .

(٥) محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية ، ص ٦٦ .

(٦) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٤٣ .

(٧) المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٧٣ ، المقرئى : الخطط (بولاق) ج ١ ، ص ٢٨٤-٢٨٣ ، ج ٢ ،

ص ١٨٩ - ١٩٧ ، القلقشندى : صبح ، ج ٣ ، ص ٢ ، ص ٤٤٠ - ٤٤٣ .

الفقهاء بالإسكندرية^(١)، مما يوحي بأن أغلب هذه الأوقاف كان في الحقيقة أرسادًا وليست أوقافًا^(٢).

والواقع أن صلاح الدين قد استخدم نظام الأوقاف أيضًا كوسيلة سياسية لاكتساب سمعة سياسية على المستوى الإسلامي العام، بحماية فريضة الحج، واستمالة شرفاء مكة بمنحهم الأوقاف والإقطاعات بصعيد مصر^(٣)، ليتنازلوا عن رسوم الغفارة التي أرهقت حجاج بيت الله^(٤)، كما وقف الأوقاف للصرف على القومة والسدنة والتكليفين بخدمة الكعبة من قبل الدولة الأيوبية^(٥)، بالإضافة إلى إيقافه الأوقاف على فكاك أسرى المسلمين الذين أسرههم الصليبيون^(٦)، واهتمامه الخاص بوقف الأوقاف التعليمية والخيرية على الغرباء الوافدين على مصر من مغرب العالم الإسلامي ومشرقة^(٧)، الأمر الذي حقق لصلاح الدين، سمعة ومكانة مرموقة في العالم الإسلامي.

ولا شك أنه كان نظام الوقف، الذي انتشر انتشارًا منقطع النظير في العصر الأيوبي، والعصر المالكي التالي له، أثارًا إيجابية كثيرة في المجتمع المصري، إذ حقق هذا النظام قدرًا كبيرًا من الرفاهية والعناية الصحية والتعليمية للطبقات الفقيرة من المجتمع المصري في هذين العصرين^(٨)، كما

(١) المقرئى: السلوك، ج ١، ص ٦٣.

(٢) محمد محمد أمين: المرجع السابق، ص ٦٠، ص ٦٤، هامش ٣.

(٣) أنظر سجل محكمة الباب العالى بمصلحة الشهر العقارى، سجل رقم ٢٧٤، الوثيقة رقم ٦٦٨، صفحة ٣٧٣، وأنظر المقرئى: السلوك، ج ١، ص ٦٤.

(٤) أنظر ابن جبير: الرحلة ص ١٣ - ١٤، ص ٣٠ - ٣١، ص ٣٨ - ٣٩، ص ٨٠ وخاضة ص ٧٤، ص ١ - ٧، وأنظر قبله.

(٥) يقول المقرئى: وفي سنة ٥٦٩هـ/ ١١٢٣م، وقف السلطان صلاح الدين ناحية نقاده من عمل قوص بناحية الصعيد الأعلى، وثلاث ناحية سنديس من القليوبية، على أربعة وعشرين خادمًا لخدمة الضريح الشريف النبوي، وضمن ذلك كتابًا ثابتًا تاريخه ثامن عشرى شهر ربيع الآخر منها، فاستمر ذلك إلى اليوم (المقرئى ج ١، ص ٥٧) وأنظر عن أوقاف الأيوبيين على مكة والمدينة فى عهد الملك العادل الأول، المقرئى: السلوك ١: ١٥١.

(٦) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، نشر د. الشماخ، المجلد الرابع ص ٢٣، محمد أمين المرجع السابق، ص ٦٢.

(٧) أنظر ابن جبير: الرحلة، ص ١٥، المقرئى: الخطط، ج ٤، ص ٢٧٥.

(٨) محمد محمد أمين: المرجع السابق، ص ٤، ص ١.

أدى إلى استمرار العناية بالعمائر الدينية والخيرية بمصر الإسلامية ، فإنه يعود الفضل فى بقاء أغلب آثار مصر الإسلامية سليمة إلى اليوم ، فاعتماداً على إيرادات الوقف ، استمر الصرف على تعمیر وإصلاح هذه المنشآت الدينية على مر العصور^(١) ، بحيث ظلت المساجد معمورة مقامة الشعائر ، وظلت الخوانق والتكايا تستقبل المعوزين ، والبيمارستانات تعنى بالمرض ، حتى نهاية العصر العثماني ، حين حل محمد على باشا أغلب الأوقاف الحكومية^(٢) ؛ كذلك ساهم هذا النظام ، وما وفره من عناية بالعمائر الإسلامية ، فى النهوض بالفنون الإسلامية الزخرفية والتطبيقية^(٣) ، بما كفله للصناع والفنانين ، من استمرارية لفنونهم ، كما كفل لهم الشهرة والخلود ، فاحتفظت كثير من حُجج الوقف بأسمائهم^(٤) .

والخلاصة أن الأيوبيين قد استخدموا نظام الوقف ، للصرف على منشآت الدعوة السنية بمصر ، ونشر المذهب السنى بها ، واستمالة قلوب المصريين ، وتحقيق المكانة المرموقة للسلطنة الأيوبية على مستوى العالم الإسلامى ، توطيداً لدولتهم السنية التى قامت على أنقاض الخلافة الفاطمية الشيعية ؛ وقد احتفظ العصر المماليكى بأغلب خصائص نظام الوقف ، كما استقر فى العصر الأيوبي . ولا ريب أن نجاح الأيوبيين فى حشد كل هذه الوسائل التعليمية والخيرية ، لنشر علوم السنة بمصر ، واجتذاب قلوب المصريين إلى المذهب السنى ، بالإضافة إلى توجيههم للنظم الدينية بمصر وجهة تخدم هذا الغرض ، كان من شأنه ولا ريب إضعاف الوجود المذهبي والعقائدى والسياسى للفكر الإسماعيلى الشيعى ، وتمهيد التربة فى مصر ، لبث دعوة عقائدية جديدة ، تهدف إلى نشر النفوذ السياسى للخلافة العباسية السنية على مصر ، وللسلطنة الأيوبية التى استمدت منها الشرعية .

(١) أنظر عبد اللطيف إبراهيم : الوثائق فى خدمة الآثار ، العصر المملوكى ، المؤتمر الثانى للآثار فى البلاد العربية ، بغداد ١٨ - ٢٨ نوفمبر ١٩٥٨ ، ص ٢٠٥ - ٢٨٧ ، فريد شافعى . العمارة العربية ، ج ١ ، ص ٢٥٩ .

(٢) محمد محمد شاکر : أباطيل وأثمار .

(٣) محمد عبد العزيز مرزوق : الفن الإسلامى فى العصر الأيوبي ، ص ٦٤ .

(٤) عبد اللطيف إبراهيم : المقال السابق .

نشر العقيدة الأشعرية والفقهاء الشافعي بمصر :

والجدير بالتبويه أن ثمة حقيقة هامة لم يلتفت إليها^(١) ، خاصة بالتطور الفكري والعقائدي لمصر الإسلامية ، تلك الحقيقة هي أن الدولة الأيوبية ، كانت دولة متمذبة ، تسعى إلى نشر دعوتها المذهبية في مصر وفي كافة أرجاء دولتها ، شأنها في ذلك شأن الدولة الفاطمية السابقة لها ، وإذا كانت عقيدة الفاطميين هي العقيدة الإسماعيلية التي ترمى في جانبها السياسي إلى نشر ولاية الخلفاء الفاطميين وسلطتهم الروحية والسياسية على العالم الإسلامي ، فإن عقيدة الأيوبيين ، كانت العقيدة الأشعرية ، التي ترمى في جانبها العقائدي والكلامي إلى تقريب أوجه الخلافات الفكرية بين الفرق الإسلامية ، وفي جانبها السياسي إلى نشر الدعوة السياسية لخلفاء بني العباس السنيين ، ولسلاطين أهل السنة القائمين على حماية خلافتهم والناهضين بفريضة الجهاد^(٢) .

ولقد صرح المقرئزي بهذه الحقيقة الهامة في أكثر من موضع من كتابه الخطط ، فيقول في الفصل الذي عنوانه بحقيقة مذهب الأشعري^(٣) وهو الفصل السابق مباشرة لحديثه عن « المدارس بمصر »^(٤) « انتشر مذهب أبي الحسن الأشعري في العراق من نحو سنة ٣٨٠هـ / ٩٩٠ م ، وانتقل منه

(١) لعل الدكتور عبد اللطيف حمزة ، هو أول من لفت لهذه الحقيقة الهامة عن أثر العقيدة الأشعرية في الحركة الفكرية والروحية بمصر الإسلامية ، طوال العصرين الأيوبي والملوكي ، فأفرد فصلاً مستقلاً من كتابه : الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والملوكي الأول بعنوان عقيدة الأشعري ، قال في أوله : ليس بد لمن أراد وصف الحركة الروحية في مصر وما وليها من الأقطار الإسلامية ، من العناية بالعقائد الدينية التي كان لها أبلغ الأثر في توجيه هذه الحركة ، وعقيدة الأشعري فيما نعتقد ، هي التي صدر عنها الناس في مصر والشام منذ القرن الرابع الهجري (عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية ، ص ٨٧) ثم قال في نهاية هذا الفصل : والخلاصة أنه لم يكن بد لمذهب الأشعري ، من أن يكون له أوضح الأثر في نوع الحياتين الفكرية والاجتماعية اللتين سادتا مصر وغيرها من أجزاء الدولة الأيوبية والدولة الملوكية أما من حيث الحياة الفكرية فسترى أن العلوم في عصر كهذا كانت علوماً ثقيلة لا عقلية في أكثرها .. من أجل هذا سيطر التصرف على الحياة الاجتماعية في مصر ، سيطرة شملت جميع أمثالها (نفس المرجع ، ص ٩٤) .

(٢) أنظر الجويني : غياث الأمم في التياث الظلم ، تحقيق فؤاد عبد النعم ومصطفى حلمي ، ١٩٧٩ ، ص ١٥ - ص ١٣١ ، وخاصة ص ١٢٥ ، حين ينص على منع نصب إمامين ، و ص ١٣٣ - ٢٨٢ ، حيث يوضح مهام السلطان ، المستولى على السلطة الزمنية بالقوة .

(٣) المقرئزي : الخطط ، طبع مطبعة النيل ، ج ٤ ، ص ١٨٤ - ١٩١ .

(٤) أنظر المقرئزي : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٩١ - ٢٥٨ .

إلى الشام» ، فلما ملك السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ديار مصر ، كان هو وقاضيه صدر الدين عبد الملك بن عيسى بن درباس المازاني على هذا المذهب ، قد نشأ عليه منذ كانا في خدمة السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بدمشق ، وحفظ صلاح الدين في صباه عقيدة ألفها له قطب الدين أبو المعالي مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري ، وصار يحفظها صغار أولاده ، فلذلك عقدوا الخناصر وشدوا البنان على مذهب الأشعري ، وحملوا في أيام دولتهم كافة الناس على التزامه ، فتمادى الحال على ذلك جميع أيام الملوك من بنى أيوب ، ثم في أيام مواليتهم الملوك من الأتراك ، واتفق مع ذلك توجه أبي عبد الله محمد بن تومرت أحد رجالات المغرب إلى العراق ، وأخذ عن أبي حامد الغزالي مذهب الأشعري ، فلما عاد إلى بلاد المغرب ، .. وضع لهم عقيدة .. ، فلذلك صارت دولة الموحدين ببلاد المغرب ، تستبجح دم من خالف عقيدة ابن تومرت .. ، فكان هذا هو السبب في اشتها مذهب الأشعري ، وانتشاره في إمصار الإسلام ، بحيث نسي غيره من المذاهب وجعل حتى لم يبق اليوم مذهب يخالفه ، إلا أن يكون مذهب الحنابلة^(١) ؛ أى أن المقرئى يفيد أن العقيدة الأشعرية قد غلبت على العالم الإسلامى فى القرن الخامس والسادس الهجرى بعد أن أصبحت العقيدة الرسمية للدولة الأيوبية بمصر والشام والجزيرة الفراتية والحجاز واليمن ، والدولة المحمدية بالمغرب والأندلس ، وذلك بعد غلبته على بلاد العراق منذ الربع الأخير من القرن الرابع الهجرى .

ويقول المقرئى فى الفصل الذى خصصه لـ « مذاهب أهل مصر »^(٢) ، « وأما العقائد ، فإن السلطان صلاح الدين حمل الكافة على عقيدة الشيخ أبى الحسن على بن إسماعيل الأشعري تلميذ أبى على الجبائى ، وشرط ذلك فى أوقافه التى بديار مصر ، كالمدرسة الناصرية بجوار قبر الإمام الشافعى من القرافة ، والمدرسة الناصرية التى عرفت بالشريفة بجوار جامع عمرو بن العاص بمصر ، والمدرسة المعروفة بالقمحية بمصر ، وخانكاه سعيد السعداء بالقاهرة ، فاستمر الحال على عقيدة الأشعري بديار مصر ، وبلاد الشام ، وأرض الحجاز واليمن ، وبلاد المغرب أيضًا ، لإدخال محمد بن تومرت رأى الأشعري إليها ، حتى أنه صار هذا الاعتقاد بسائر هذه البلاد ، بحيث أن من خالفه

(١) المقرئى : الخطط ، طبعة مطبعة النيل ، ج ٤ ، ص ١٨٥ ، س ٣ - س ٢٠ .

(٢) المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٤٣ - ١٦٢ .

ضرب عنقه ، والأمر على ذلك إلى اليوم^(١) . وهذا النص بالإضافة إلى تأكيده للحقيقة السابقة ، فهو يؤكد حقيقة جديدة ، أن الأوقاف التى أوقفها صلاح الدين على المدارس والخوانق التى أنشأها بمصر ، كانت قاصرة على معتقى العقيدة الأشعرية فقط .

ولقد أكد المقرئى فى نص ثالث ، أن خانقاه سعيد السعداء ، التى أوقفها صلاح الدين على غرباء الصوفية الوافدين من مشرق العالم الإسلامى ومغربه كانت قاصرة فقط على الصوفية المعتنقين للعقيدة الأشعرية فهو يقول عن الخانقاه الصلاحية المعروفة بخانقاة سعيد السعداء : « .. شرط الواقف ، هو أن الخانقاه ، تكون وفقاً على الطائفة الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة ، والقائنين بالقاهرة ومصر ، فإن لم يوجدوا ، كانت على الفقراء من الفقهاء الشافعية والمالكية والأشعرية الاعتقاد »^(٢) .

وفى نص رابع يفيدنا المقرئى أن الأيوبيين قد حرصوا على قراءة ملخص للعقيدة الأشعرية على مآذن مصر طوال الليل ، وعرف هذا الملخص بالعقيدة المرشدة ، فيقول المقرئى : « لما ولى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب سلطنة مصر ، وولى القضاء صدر الدين عبد الملك بن درباس الهذباني الماراني الشافعى ، كان من رأيه ورأى السلطان اعتقاد مذهب الشيخ أبى الحسن الأشعرى فى الأصول ، فحمل الناس إلى اليوم على اعتقاده حتى يكفر من خالفه ، وتقدم الأمر إلى المؤذنين ، أن يعلنوا وقت التسبيح على المآذن بالليل ، بذكر العقيدة التى تعرف بالمرشدة ، فواظب المؤذنون على ذكرها فى كل ليلة بسائر جوامع مصر والقاهرة إلى وقتنا هذا »^(٣) .

(١) المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٦١ ، س ١٣ - س ١٩ ، وهنا تجدر الإشارة إلى أن تسامح الفاطميين إبان الحديث عن عائلة ابن شيت القفطى مؤلف كتاب السياسة الملوكية لصلاح الدين ، عن مدى تسامح الفاطميين تجاه فقهاء أهل السنة فى عصرهم مثل عائلة ابن شيت القفطى وتجاهرهم بمذاهبهم طوال العصر الفاطمى كما أفاد القفطى فى أنباه الرواه فى ترجمة ابن شيت ، كذلك استدلتنا من إقدام كل من ابن الحبال ، وابن الطحان ، وهما من علماء الحديث السنين المصريين فى العصر الفاطمى على جمع تراجم المحدثين المصريين فى تاريخين رتبا على التراجم على تسامح الفاطميين تجاه أهل السنة المصريين الذين كانوا يمثلون عدداً ضخماً جداً من علماء الأقاليم المصرية (أنظر الجزء الثانى من كتابنا مصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر الأيوبرى - تحت الطبع إن شاء الله - إبان الحديث على كتابى تراجم المصريين لابن الحبال وابن الطحان) . وقد أكد القلقشندى تسامح الفاطميين تجاه رعاياهم من أهل السنة فى نص صريح قال فيه : وأما سيرهم (الفاطميين) فى رعيتهم ، واستمالة قلوب مخالفيهم ، فكان لهم الإقبال على من يفد عليهم من أهل الأقاليم جمل أو دق .. وكانوا يتألفون أهل السنة والجماعة ويمكنونهم من إظهار شعائرتهم على اختلاف مذاهبهم ، ولا يمنعون من إقامة صلاة التراويح فى الجوامع والمساجد على مخالفة معتقدهم فى ذلك (والتجاهر) بذكر الصحابة رضوان الله عليهم ، ومذاهب مالك والشافعى وأحمد ظاهرة الشعار فى مملكتهم بخلاف مذهب أبى حنيفة ، ويراعون مذهب مالك ، ومن سألهم الحكم به أجابوه (القلقشندى : صبح ، ج ٣ ، ص ٥٢٠) .

(٢) أنظر المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٧٥ ، س ٧ - ٩ .

(٣) أنظر المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٤٨ - ٤٩ . ويبدو أن العلامة الشيخ محمد زاهد الكوثرى ، قد قصد الرد على المقرئى حين قال : إن مذهب الأشعرى ، نشر بسلطان العلم ، لا شوكة السلاطين ، مقدمة تبين كذب المفتى ، ص ١٦ .

وقد أشار القاضى بهاء الدين بن شداد قاضى عسكر صلاح الدين الأيوبى ومؤرخ سيرته المعنونة بـ (النوادر السلطانية والحاسن السوفية) إلى حسن عقيدة صلاح الدين وأخذه لعقيته عن شيخه قطب الدين النيسابورى أحد كبراء متكلمي الأشاعرة ؛ فيقول ابن شداد فى الفصل الذى عنوانه بـ (ذكر ما شاهدناه من مواظبه على القواعد الدينية وملاحظته للأمر الشرعية رحمه الله) : ورد فى الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، والحج إلى بيت الله الحرام) .

وكان (أى صلاح الدين) رحمه الله حسن العقيدة ، كثير الذكر لله تعالى ، قد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء ، وتفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه ، بحيث كان إذا جرى الكلام بين يدى يقول فيه قولاً حسناً ، وإن لم يكن بعبارة الفقهاء ، فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه ، غير مارق سهم النظر فيها إلى التعطيل والتمويه ، جارية على نط الاستقامة ، موافقة لقانون النظر الصحيح ، مرضية عند أكابر العلماء .

« وكان - رحمه الله - قد جمع له الشيخ الإمام قطب الدين النيسابورى - رحمه الله - عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه فى هذا الباب ، وكان من شدة حرصه عليها يعلمها الصغار من أولاده حتى ترسخ فى أذهانهم فى الصغر ، ورأيتة وهو يأخذها عليهم ، وهم يقرؤونها من حفظهم بين يديه ، رحمه الله^(١) .. ، وأما الصلاة .. وأما الزكاة .. وأما صوم رمضان .. وأما الحج .. إلخ^(٢) » وهكذا أخذ ابن شداد يتبع من سيرة صلاح الدين ما شاهده من مواظبه على القواعد الدينية ، وملاحظته للأمر الشرعية

ومما يجزم بصحة ما أورده المقرئى ، بصدد اعتقاد الأيوبيين وقاضى قضاتهم العقيدة الأشعرية ، وعملهم على نشرها بمصر ، أنه قد وصلت إلينا رسالة ألفها قاضى قضاتهم عبد الملك بن درباس : فى الذب عن عقيدة الأشعرى ، أغلب الظن أنها كانت خطبة منبرية ، يقرأها خطباء المساجد ، وفيها تقرير أن عقيدة الأشعرى ، هى مذهب أهل السنة والجماعة وأهل الحديث ، وأنها شرح لعقيدة

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٧ .

(٢) نفس المصدر ص ٧ - ١٣ .

الصحابة والتابعين ، وموافقة لاعتقادات أئمة الفقه الإسلامى بما فيهم الإمام أحمد بن حنبل^(١) ، كذلك نظم محمد بن هبة الله المكي^(٢) ، قصيدة للسلطان صلاح الدين الأيوبي ، سماها حدائق الفصول وجواهر العقول ، وضمنها علم الكلام على أصول الأشعري^(٣) . وفى هذا كله ما يعلى نشر الأيوبيين لكتب الدعوة الأشعرية فى بلاد اليمن بعد فتحهم لها لمحاربة الدعوة الإسماعيلية هناك^(٤) .

ولقد أكد الفقيه تاج الدين السبكي (ت ٧٧١هـ) الذى عاش بمصر فى العصر المالكي ، ما ذكره المقرئى ؛ إذ أفاد أن جميع فقهاء المذاهب الأربعة ، عدا بعض الحنابلة ، قد أخذوا فى أصول الدين بالعقيدة الأشعرية . فيقول السبكي : هؤلاء الحنفية والشافعية والمالكية وفضلاء الحنابلة ولله الحمد - فى العقائد يد واحدة كلهم على رأى أهل السنة والجماعة ، يدينون الله تعالى بطريق شيخ السنة أبى الحسن الأشعري رحمه الله^(٥) .. ويقول السبكي فى موضع آخر : وهذه المذاهب الأربعة

(١) أنظر رسالة فى الذب عن أبى الحسن الأشعري ، الطبعة الثانية ، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد الركن ، ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م أولها : بسم الله الرحمن الرحيم ، قال أبو القاسم عبد الملك بن عيسى بن درباس ، الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى .. أما بعد فاعلموا معشر الإخوان ، وفقنا الله وإياكم للدين القويم ، وهدانا أجمعين للصرط المستقيم ، بأن كتاب الإبانة عن أصول الديانة الذى ألفه الإمام أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعري ، هو الذى اسقر عليه أمره فيما كان يعتقد وما كان يدين الله سبحانه وتعالى بعد رجوعه عن الاعتزال بمن الله ولطفه ، وكل مقالة تسب إليه الآن ، مما يخالف ما فيه فقد رجع عنها وتبرأ إلى الله سبحانه وتعالى منها ، كيف وقد نص فيه على أنه ديانته التى يدين الله بسبحانه بها ، وروى وأثبت ديانة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث الماضين ، وقول أحمد بن حنبل رضى الله عنهم أجمعين ، وأنه ما دل عليه كتاب الله وسنته ورسوله ، (ابن درباس : رسالة فى الذب عن أبى الحسن الأشعري ، ص ١ ، والرسالة صغيرة تقع فى ٦ صفحات لما جعلنا لرجح أنها خطبة منبرية) وقد نشرت رسالة ابن درباس ضمن مجموعة رسائل طبعت بالهند ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م بعنوان الرسائل السبعة فى العقائد . وجاء ترتيب رسالة ابن درباس رقم ٧ كما نشر فى هذه الرسائل السبع كتاب الإبانة فى أصول الديانة لأبى الحسن الأشعري الذى أشار إليه ابن درباس فى رسالته على أنه تلخيص لعقيدة الأشعري . وجاء ترتيب كتاب الإبانة رقم (٤) فى الرسائل السبعة .

(٢) أنظر ترجمته عند السبكي : طبقات الشافعية ، ج ٤ ، ص ١٩٥ - ١٩٧ .

(٣) طبع قصيدة حدائق الفصول وجواهر العقول ، لمحمد بن هبة الله المكي ، التى نظمها لصلاح الدين ، بالقاهرة ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م .

(٤) أنظر يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ، فى تاريخ اليمن ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ١٣٤٧ تاريخ ، ورقة ٢٢٣ - ٢٢٤ .

(٥) السبكي : معيد النعم ومبيد النعم ، تحقيق محمد على النجار ، أبو زيد شلى ، طبع بدار الكتاب العربى بمصر ، الطبعة الأولى ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م ، ص ٧٤ - ٧٥ ؛ وراجع النص بأكمله فهو فى منتهى الأهمية ويوضح أوجه الخلاف بين الأشاعرة والحنفية والمالكية والحنابلة والشافعية ، ويوضح تطابق عقيدة الأشعري ، مع عقيدة أبو جعفر الطحاوى وعقيدة أبو القاسم القشيري والعقيدة المعروفة بالرشدة .

ولله الحمد فى العقائد واحدة ، إلا من لحق منها بأهل الاعتزال والتجسيم ... ويدينون الله برأى الشيخ أبى الحسن الأشعري الذى لم يعارضه إلا مبتدع^(١) ؛ وينصح تاج الدين السبكي ، المسلمين بعدم النظر فى الكتب الكلامية التى ألفها المتكلمون المتأخرون ، والاقتصار على كتب ائمة متكلمى المذهب الأشعري ، فيقول : لم أجد أضر على أهل عصرنا وأفسد لعقائدهم من نظرهم فى الكتب الكلامية التى أنشأها المتأخرون .. ، ولو اقتصروا على مصنفات القاضى أبى بكر الباقلانى والأستاذ أبى إسحق الأسفرائينى ، وإمام الحرمين أبى المعالى الجوينى وهذه الطبقة لما جرى إلا الخير^(٢) ؛ ثم أوضح السبكي أسباب طعن الحنابلة فى عصره على عقيدة الأشعري لكون الأشعري ينفى التشبيه عن الله فلا يقول أن صفات الله هى هو ، وهو فى ذلك يخالف الحنابلة الذين يثبتون صفات الله ، ومن ثم يعتقدون بالتشبيه والتجسيم^(٣) .

وتؤكد أحداث التاريخ ، أن أشهر متكلمى المذهب الأشعري فى القرن السادس الهجرى قد أهدوا مؤلفاتهم إلى سلاطين بنى أيوب ، سواء ألفوها وهم فى إحدى عواصم ملك الأيوبيين مثل دمشق ، أو ألفوها وهم فى بلاط سلطنة أخرى لا تقل قوة ونفوذًا سياسيًا عن سلطنة بنى أيوب ، أعنى الدولة الخوارزمشاهية - التى امتلكت بلاد خوارزم وحدود بلاد الترك وبعض إقليم الجزيرة وبعض إقليم عراق العجم - فوجد الإمام فخر الدين الرازى ، ت ٦٠٦ هـ^(٤) ، إمام مذهب الأشعري دون

(١) السبكي : معيد النعم ، ص ٢٢ - ٢٣ . وراجع النص بأكمله أيضًا لأهميته .

(٢) السبكي : معيد النعم ، ص ٧٩ - ٨٠ .

(٣) السبكي : معيد النعم ، ص ٨٧ - ٨٨ .

(٤) هو محمد بن عمر بن الحسين التيمي البكري ، أبو عبد الله ، فخر الدين الرازى ولد بالرى بعض أعمال فارس سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م ، ونسبه إليها ورحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان وأخذ عنه خلق كثير ، وسار إلى شهاب الدين الفورى سلطان غزنة ، فبالغ فى إكرامه وبنى له مدرسة بقرب جامع هراه ومعظم أهلها كرامية وحصلت له منه أموال طائلة واتصل بالسلطان علاء الدين خوارزمشاه فحظى لديه وكان ينال من الكرامة وينالون منه سبًا وتكفيرًا حتى قيل أنهم سموه وتوفى بهراه سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م . أنظر ترجمته وأخباره عند ابن خلكان : وفيات الأعيان ، الطبعة القديمة ، ج ١ ، ص ٦٠٠ - ٦٠٢ ، السبكي : طبقات الشافعية ، ج ٥ ، ص ٣٥ وما بعدها ، أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ٦٨ ، المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ١٤٤ - ١٤٥ الذى يذكر أن ملك الفوريه فارق مذهب الكرامية وتقلد مذهب الشافعى بعد مناظرة فخر الدين الرازى للكرامية بهراه ؛ وأهم مؤلفات فخر الدين الرازى ، تفسيره المسمى " مفاتيح الغيب " ، وهو مطبوع فى ثمان مجلدات ضخام ، وله كتاب " مناقب الشافعى " ، مطبوع وكتاب " اعتقادات فرق المؤمنين والمشركين " ، مطبوع ومؤلفاته كثيرة .

منزاع في عصره، يهدى كتابه أساس التقديس إلى الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، ويصفه بأنه أعظم سلاطين الإسلام القائمين لنصره مذهب الحق والسنة، رغم أنه ألقه في بلاط الدولة الخوارزمية^(١)، ونجد المتكلم الأشعري الشهير الآمدي^(٢)، يستقر في بلاد الشام في العصر الأيوبي، ويقوم بالتدريس في مدارسها، ويهدى أهم مؤلفاته الكلامية في شرح العقيدة الأشعرية إلى سلاطين بني أيوب بالشام^(٣).

(١) قال الإمام الفخر الرازي في ديباجة كتابه "أساس التقديس": "أما بعد فإني وإن كنت ساكنًا في أقصى بلاد المشرق، إلا أنني سمعت أهل المشرق والمغرب، مطبقين متفقين على أن السلطان المعظم العالم العادل المجاهد سيف الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، أفضل سلاطين الحق واليقين أبا بكر بن أيوب، لازالت آيات راياته في تقوية الدين الحق، والمذهب الصدق، متصاعدة إلى عنان السماء.. أفضل الملوك وأكمل السلاطين في آيات الفضل، وبيئات الصدق، وتقوية الدين القويم، ونصرة السراط المستقيم، فاردت أن اتخذه بتحفة سنية، وهدية مرضية، فاتخفته بهذا الكتاب الذي سميته "بأساس التقديس"، على بعد الدار، وتباين الأقطار، وسألت الله الكريم أن ينفعه به في الدارين بفضله وكرمه". (الفخر الرازي: أساس التقديس في علم الكلام، طبع مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م، ص ٢ - ٣).

(٢) هو علي بن محمد بن سالم التغلبي، أبو الحسن، سيف الدين الآمدي، أصولي باحث، أصله من آمد بديار بكر، ولد بها سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م، وتعلم في بغداد والشام، وانتقل إلى القاهرة، فدرس فيها واشتهر وحسده بعض الفقهاء فتعصبا عليه ونسبوه إلى فساد العقيدة والتعطيل (أى في الصفات الإلهية) ومذهب الفلاسفة، فخرج مستخفيًا إلى حما ومنها إلى دمشق فتوفي بها سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م وله نحو عشرين مصنفًا في علم الكلام وأصول الدين طبع عدد منها. أنظر ترجمة عند ابن خلكان: وفيات (الطبعة القديمة) ج ١، ص ٤١٥ - ٤١٦، أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ١٦١، ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ج ١، ص ١٧٤ - ١٧٥، القفطي: أخبار الحكماء ص ٢٤٠ - ٢٤١، السبكي: طبقات الشافعية، ٥: ١٢٩، الخوانساري: روضات الجنات، ص ٤٨٩ - ٤٩٢.

(٣) أفاد الأستاذ حسن محمود عبد اللطيف أن الآمدي المفكر الأشعري، عاش أكثر أيامه في ظلال دولة صلاح الدين وخلفائه من أمراء الأيوبيين، وتقل بين مصر والشام حيث درس في مدارسهما؛ وفي حوالي سنة ٥٩٢هـ/١١٩٥م، انتقل الآمدي إلى مصر، في عهد العزيز عثمان بن صلاح الدين، الذي ألقه له الآمدي رسالة موجزة في العقائد لم نثر عليها بعد سماها: اللواء العزيز تذكرة الملك العزيز، حيث داوم على التدريس بمدارس مصر مثل مدرسة منازل العز بالفسطاط، والمدرسة الناصرية بجوار قبة الشافعي حوالي عشرين عامًا، ثم طعن الفقهاء في عقيدته واتهموه بعقائد الفلاسفة، فظهر الآمدي بعد ذلك في حما، حيث استضافه أميرها الملك المنصور بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي، وولاه التدريس في المدرسة المنصورية، ثم انتقل الآمدي بعد وفاة المنصور إلى دمشق بدعوة من الملك المعظم عيسى بن العادل أبي بكر بن أيوب صاحبها الذي ولاه شؤون المدرسة العزيزية، فقام بها عشر سنين؛ وكان الآمدي يعقد مجالس النظر في المسجد الأموي بدمشق، في يومي الثلاثاء والجمعة (أنظر حسن محمود عبد اللطيف: مقدمة كتاب غاية المرام في علم الكلام، لسيف الدين الآمدي، بتحقيقه، طبع القاهرة، ١٣٩١ - ١٩٧١، وأنظر بالإضافة إلى ذلك النعيمي: المدارس في تاريخ المدارس، ج ١، ص ٣٩٣).

وقصة ظهور المذهب الأشعري وانتشاره ، والوسائل التي اتخذها دعائه لنشره في أرجاء العالم الإسلامي ، هي في الواقع الأصل الأول للوسائل التعليمية والروحية والاجتماعية ، التي استخدمها الأيوبيون في مصر لنشر العقيدة الأشعرية ، والفقه الشافعي ، وعلوم السنة والفكر الصوفي بمصر . بحيث أننا نجد أن النظم الدينية ، التي استخدمها الأيوبيون في مصر ، تتطابق في خصائصها الجديدة ، التي استجدها الأيوبيون ، مع وسائل الدعوة الأشعرية ، التي استخدمها دعاة المذهب الأشعري من قبل لنشر مذهبهم في أرجاء العالم الإسلامي ، ومحاربة المذهب الشيعي الإسماعيلي ، في مصر والشام والمغرب ، وخاصة بلاد الشام التي شهدت مقاومة عنيفة من فقهاء ومتكلمي الأشاعرة للحكم الفاطمي بالشام وخاصة دمشق ، إذ اتخذ دعاة الأشاعرة من مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسيلة لنزاع الحكم الفاطمي بالشام^(١) ، ويبدو أنهم نجحوا في إضعاف الدعوة الإسماعيلية هناك ، بحيث استطاع السلطان شيب بن أرسلان السلجوقي القضاء على الوجود السياسي للفاطميين بالشام ، ثم اعتنق العقيدة الأشعرية وقرب دعائها^(٢) .

أما في مصر ، فلقد أدى النشاط المتزايد لدعاة الأشاعرة في عصر الخليفة الأمر بأحكام الله الفاطمي ووزيره المأمون البطانحي ، إلى استمالة الكثيرين من أتباع الدعوة الإسماعيلية المترددين على « دار الحكمة » وهي ثاني مركز لنشر الدعوة الإسماعيلية بمصر بعد الجامع الأزهر ، بل استطاع هؤلاء الدعاة استمالة بعض حاشية القصر الفاطمي من الأساتذة المحنكين ، الأمر الذي هدد بانقلاب مذهبي سني على الخلافة الفاطمية ، لولا نجاح الوزير البطانحي في قتل هؤلاء الأساتذيين ، والقضاء على فتنة دعاة الأشاعرة بمصر التي عرفت بفتنة القصار ، نسبة إلى أشهر هؤلاء الدعاة الأشاعرة بمصر ؛ وقد اضطرت هذه الفتنة الخطيرة إلى إغلاق « دار العلم »^(٣) ، بعد أن تحولت على يد دعاة الأشاعرة إلى أداة لمحاربة الدعوة الإسماعيلية بمصر .

(١) انظر ابن عساكر الدمشقي ت ٥٧١هـ : تبين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري ، طبع مطبعة التوفيق بدمشق ، ١٣٤٧هـ ، بتحقيق محمد زاهد الكوثري ، ص ٢١٥ - ٢١٦ ، ص ٢١٦ - ٢١٧ ، ص ٢٥٦ - ٢٥٧ ، وأنظر بعده .

(٢) ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ٢٨٦ .

(٣) أنظر ما كتبه المقرئ عن " نوبة القصار " خلال كلامه عن دار العلم التي أنشأها الفاطميون بمصر ، ونسب هذه النوبة إلى داعي أشعري اسمه حميد بن مكي الأطفحي القصار وحددها بسنة ٥١٦هـ ، وقال أنها طويلة أولها من أيام الوزير الأفضل بن شاهنشاه ، واستمرت حتى حكم الأمر بأحكام الله الفاطمي ووزيره المأمون البطانحي ، وأنظر المقرئ : الخطط ، مطبعة النيل ، ج ٢ : ٣٣٤ - ٣٣٥ ، عن فتنة القصار أنظر أيضًا محمد كامل حسين : دراسات في الشعر الأيوبي ص ٥٩ ، وأنظر بعده .

تبدأ قصة ظهور المذهب الأشعري بتحول الإمام أبي الحسن الأشعري^(١)، وكان من كبراء متكلمي المعتزلة والمناظرين لنصره مذهبهم عن مذهب الاعتزال، وإنكاره لمذاهب المعتزلة الكلامية، ورجوعه إلى مقالات أهل السنة والجماعة، وأهل الحديث، ومحاولته لصياغة العقيدة الإسلامية في مسائل الإيمان، على أساس الصورة الأولى لهذه العقيدة في عهد الصحابة والتابعين؛ ردًا على تأويل المعتزلة للآيات الواردة في القرآن في المسائل التوحيدية، بمذهب المعتزلة دون مذهب أهل السنة.

ويصور لنا ابن عساکر، مؤرخ الدعوة الأشعرية، ما قام به الأشعري في الانقلاب على المعتزلة؛ وكأنه انقلاب ضد مذهب المعتزلة، بعد أن أصبح المذهب الرسمي للدولة العباسية طوال عهد المأمون والمعتصم والواثق^(٢)، فذكر أن الأشعري رد على المعتزلة الذين تغلبوا على ملوك المسلمين في الخفافين^(٣)؛ ويروي المؤرخون عدة حوادث لتعليل هذا التحول، منها مناظرة الأشعري لأستاذه وزوج أمه وكبير المعتزلة في عصره أبي علي الجبائي في رأى شهير من آراء المعتزلة هو «القول بالأصلح» أى أن الله ييسر لعباده من الأعمال ما فيه صالح لهم، وذلك ترتيبًا على قول المعتزلة بفكرة «العدل الإلهي» بحيث قطع الأشعري الجبائي في هذه المناظرة والزمة الحجة^(٤). ثم تبع ذلك حادثة أخرى وهي رؤية الأشعري لرسول الله صلى الله عليه وسلم، يأمره بالرجوع إلى سنته، والرد على الفلاسفة والتكلمين^(٥)، بحيث راح الأشعري يناظر المعتزلة ويفند آراءهم ويؤلف الكتب

(١) هو علي بن اسماعيل بن إسحاق، أبو الحسن، من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري مؤسس مذهب الأشاعرة. كان من الأئمة التكلمين المجتهدين. ولد في البصرة سنة ٢٦٠هـ، وتلقى مذهب المعتزلة وتقدم فيهم ثم رجح وجاهر بخلافهم. وتوفي ببغداد سنة ٣٢٤هـ. قيل بلغت مصنفاته ثلاثمائة كتاب. أنظر ترجمته عند ابن عساکر: تبين كذب المقتري فيما نسب للإمام أبي الحسن الأشعري، ص ٣٤ - ٥٦، وأنظر حصر لمصنفات الأشعري عند ابن عساکر، نفس المصدر، ص ١٢٨ - ١٤٠، وأنظر أيضًا ترجمته عند المقرئى: الخطط، ٤: ١٨٦، ابن النديم: الفهرست، ١: ١٨١، الخطيب البغدادي تاريخ بغداد، ١١: ٣٤٦ - ٣٤٧، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ١: ٤١٢ - ٤١٣، السبكي طبقات الشافعية، ٢: ٢٤٥ - ٣٠١، ومحمود غراب كتاب "الأشعري" مطبوع.

(٢) ابن عساکر: تبين كذب المقتري، ص ١١٦.

(٣) نفس المصدر، ص ٢٥.

(٤) أنظر ابن خلكان: وفيات، ج ١، ص ٤١٢ - ٤١٣، المقرئى: الخطط، ج ٤، ص ١٨٦.

(٥) ابن عساکر: المصدر السابق، ص ٤٣ - ٤٥.

فى الرد عليهم^(١) ، ثم ما لبث أن أعلن على المنبر فى مدينة البصرة ، وكانت مقر سكناه ، أنه قد تبرأ من مذاهب المعتزلة ، وكرس حياته للرد عليهم^(٢) بحيث يقول المؤرخون : كانت المعتزلة قد رفَعوا رؤسهم ، حتى أظهر الله تعالى الأشعري ، فحججهم فى أقماع السمسم^(٣) ؛ ورغم أن حزب المعتزلة كان قوياً بمدينة البصرة آنذاك ، فكان منهم القاضى وأصحاب الرياسة^(٤) ، إلا أنه كان بالبصرة أيضاً جماعة من البيت الأشعري لهم مكانة ورياسة ، مما ساعد على ظهور أمر الأشعري ، كما يحدد ابن عساکر - بعد الثلاثمائة واستمر إلى سنة ٣٢٤هـ/٩٣٥م^(٥) ، وهى سنة وفاة الأشعري^(٦) .

ولاشك أن ثمة عامل سياسى قد ساعد على استقواء الدعوة الأشعرية ، وهو انتصار الخليفة المتوكل على الله لأهل السنة ، وعدم اعترافه بعقيدة المعتزلة كعقيدة رسمية للخلافة العباسية ، مما أدى إلى انزواء المعتزلة ، وعودة الغلبة الفكرية لأهل السنة والمحدثين ، وكان الحنابلة - أتباع أحمد بن حنبل - أقوى الممثلين لأهل السنة ، فقربهم الخليفة العباسى بعد محتهم ومحنة إمامهم ابن حنبل على يد المعتزلة فى مسألة خلق القرآن ، التى تعد من أهم عقائد المعتزلة^(٧) .

والجدير بالاهتمام أن المقرئى ، قد ألح عند حديثه عن عقيدة المسلمين منذ صدر الإسلام ، حتى ظهور الدعوة الأشعرية ، أن ظهور المذهب الأشعري جاء رد فعل لانتشار مذاهب المتكلمين من الفلاسفة والقدرية والجهمية والمعتزلة والكرامية ، إبان حكم الدولة الشيعية البويهية فى العراق وإيران ، وإبان حكم الخلافة الشيعية الفاطمية فى مصر والشام والحجاز واليمن والمغرب ، كما ألح إلى غلبة عقيدة المعتزلة على العالم الإسلامى كله إبان حكم البويهيين والفاطميين^(٨) .

(١) ابن عساکر : نفس المصدر ، ص ٩٤ - ٩٩ ، ص ١١٠ - ١١١ ، ص ١٢٨ - ١٤٠ .

(٢) قال ابن عساکر : قام الأشعري على مذاهب المعتزلة أربعين سنة ، وكان لهم إماماً ، ثم غاب عن الناس فى بيته خمسة عشر يوماً ، فبعد ذلك خرج إلى الجامع ، فصعد المنبر وقال إنى .. أشهدت الله .. فهديانى إلى اعتقاد ما أودعته فى كتيب هذه ، وألحمت من جميع ما كنت اعتقده ، .. ودفع الكتب إلى الناس ، فمنها .. كتاب أظهر فيه عوار المعتزلة ، سماه بكتاب (كشف الأسرار وهتك الأستار) ، فلما قرأ تلك الكتب أهل الحديث والفقهاء من أهل السنة والجماعة ، أخذوا بما فيها ، وانتحلوه ، واعتقدوه تقدمه ، وأخذوه إماماً حتى نسب مذهبهم إليه . (ابن عساکر : تبين كذب المفتري ، ص ٣٩ - ٤٠) .

(٣) ابن عساکر : نفس المصدر ، ص ٩٤ ، المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٨٦ .

(٤) ابن عساکر : نفس المصدر ، ص ١١٦ .

(٥) ابن عساکر : نفس المصدر ، ص ١٢٧ .

(٦) ابن عساکر : نفس المصدر ، ص ١٤٧ .

(٧) أنظر زهدى جار الله : المعتزلة ، ص ١٦٢ - ١٩٣ .

(٨) المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٨٤ .

ويفسر المقرئى هذه الملحوظة بأن الآراء الكلامية والفلسفية فى الإسلام ، قد ابتدعت فى الإسلام ، على يد حركة الشعوبية الفارسية ، التى خلطت آراء الديانات الفارسية القديمة بعقائد الإسلام ، ثم أن الشعوبية استماله أهل التشيع ، بإظهارها حب آل البيت^(١) .

ولقد أرجع المقرئى أصول الآراء الفلسفية للإسماعيلية والقرامطة ، إلا الآراء اليهودية التى نشرها عبد الله ابن سبأ اليهودى إبان الفتنة الأولى فى الإسلام ، وإلى الآراء الفارسية الشعوبية^(٢) ، ثم أعلن المقرئى صراحة ، انتقاده لأهم أسس الفكر السياسى والعقائد الإسماعيلية وهما فكرتى « النص » و « العلم اللادنى » ، على أساس أنه لا أسرار فى الدين الإسلامى ، وأن عقيدة الإسلام واضحة كما جاء بها القرآن ، وأن النبى لم يكتم عن المسلمين شيئاً من أمر دينهم ، ولم يختص آل بيته ببعض الأسرار^(٣) .

لذلك فقد عمد الأشعري ، إلى الانتصار لعقيدة اكبر متكلمى أهل السنة والحديث ، وهو أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن كلاب القطان ، فسلك الأشعري طريق الكلابى ، وبنى على قواعده^(٤) .

ثم نهج الشعري فى القضايا العقائد الإيمانية المتعلقة بالأسماء والصفات الإلهية ، وبرؤية الله بالأبصار ، وهى المسألة التى عرفت اصطلاحاً « بالرؤية السعيدة » منهجاً وسطاً^(٥) ، بين المعطلة ، أى الذين ينفون عن الأسماء والصفات الإلهية كونها ذات الله ، وهم الجهمية والمعتزلة والشيعة ، وبين المشبه والمجسمة ، الذين يثبتون الأسماء والصفات الإلهية الواردة فى القرآن ، ويعتقدون أنها

(١) أنظر المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ١٩١ ، ص ١٨٢ . والواقع أن هذه الحقيقة التى ذكرها المقرئى ، قد انتهى إليها أيضاً الدكتور محمد كامل حسين ، بعد دراسته لعقائد الإسماعيلية ، كما جاءت فى كتب الدعوة الإسماعيلية ، فيقول د. كامل حسين : والذى ألاحظه على عقائد الفاطميين ، انها مزيج من مجموعة المذاهب والديانات القديمة ، التى عرفت وانتشرت فى الأقطار الإسلامية ، منذ زمن بعيد ، بتأثير امتزاج المسلمين بغيرهم من الشعوب المختلفة ، واستطاع الفاطميون أن يخلصوا هذه المذاهب والآراء القديمة ، للآراء الإسلامية ، ويصغفوها بالصيغة الإسلامية ، فالباحث يستطيع أن يعقب أكثر عقائد الفاطميين ، ويردها إلى أصولها القديمة .. (محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ، ص ١٧) .

(٣) المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٩١ .

(٤) المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٨٤ ، ص ١٨٦ ، ابن عساكر : تبين كذب المبتدى ص ١١٦ - ١١٨ ، وعن مدرسة ابن كلاب أنظر على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ، ١٩٧١ ، ج ١ ، ص ٣٥٠ - ٣٨٤ .

(٥) المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٨٦ - ١٨٧ ، ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ١٤٩ - ١٥٠ ، محمد زاهد الكوثرى : مقدمته لكتاب تبين كذب المبتدى ، ص ١٥ .

ذات الله ، ومن ثم فقد شابها بين صفات الله وصفات مخلوقاته ، ولقد قال بهذا الرأي كل من الكرامية والحنابلة^(١) ، فأوضح للمعطة ، من الجهيمية والمعتزلة ، أن نفى المحاذاة والصورة عن الله سبحانه صواب ، على أنه يجب الاعتراف بتجلى الله سبحانه ، من غير كيف ، أى دون معرفة للعباد بكيفية هذا التجلى ، وفى نفس الوقت نها المشبه من الحنابلة والمجسمة من الكرامية ، عن إثبات الصورة والمحاذاة لله سبحانه . ثم مال إلى رأى الحنابلة فى إثبات رؤية المؤمنين لربهم بالأبصار يوم القيامة - وهو ما قال المعتزلة باستحالتها - وإن تحفظ الأشعري ، فقال أن الله يرى للمؤمنين يوم القيامة ، ولكن بغير كيف ، أى أن كيفية هذه الرؤية مجهولة^(٢) .

كذلك نهج الأشعري ، منهجًا وسطًا فى مسألة خلق القرآن ، التى اعتبرها المعتزلة جزءًا أساسيًا من عقيدتهم ، وامتحنوا العالم الإسلامى كله إبان سيطرتهم على الخلافة العباسية فى عصر الخليفة المأمون العباسى ، بضرورة الإيمان بخلق القرآن^(٣) ، فسلم للمعتزلة أنهم على الحق ، إذا كانوا يريدون بخلق القرآن ، اللفظ والتلاوة والرسم ، وسلم للحنابلة بأنهم مصيبون فى قولهم بقدوم القرآن وأنه ليس مخلوقًا ، إذا كان مقهصودهم بالقديم ، الصفة القائمة بذات الله البارئ ، غير البائنة منه ، يعنى الكلام النفسى ، وأن تحفظ الأشعري أيضًا فى هذه المسألة ، فنبه الحنابلة إلى أنه لا يصح إنكارهم لحدوث لفظ القرآن وتلاوة من يتلو القرآن ، كما أنه نبه المعتزلة ، بأنهم ليس لهم نفى الصفة القائمة بالله تعالى من غير لفظ ولا صوت ، أى الكلام النفسى^(٤) .

وأيضًا وقف الأشعري ، موقفًا وسطًا ، بين رأى المعتزلة ، ورأى أهل السنة فى مسألتى التكليف ، وحرية الإرادة الإنسانية ، فخالف المعتزلة القائلين بحرية إرادة الإنسان فى اختيار أفعاله ، بأن قرر بأن جميع أفعال العباد مخلوقة مبدعة من الله تعالى ، وهو مذهب أهل الحديث والحنابلة والجبرية ، الذين يعتقدون أن الإنسان مُصَيَّر غير مُخَيَّر فى أفعاله ، بل مجبر عليها ، وفى نفس الوقت خالف الأشعري مذهب الجبر الذين يقولون به الجبرية وقال بنظرية « الكسب » وفسرها ، بأنه إذا كانت أفعال الله

(١) أنظر المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٦٤ ، و ج ٤ ، ص ١٨٤ ، ابن عساكر : المصدر السابق ، ص ١٤٩ .

(٢) أنظر ابن عساكر : المصدر السابق ، ص ١٤٩ - ١٥٠ ، المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٨٦ - ١٨٧ .

محمد زاهد الكوثرى ، مقدمة تبين كذب المفتري ، ص ١٥ .

(٣) أنظر زهدى جار الله : المعتزلة ، ص ١٦٢ - ١٧٩ .

(٤) محمد زاهد الكوثرى : مقدمة تبين كذب المفتري ، ص ١٥ ، ابن عساكر : تبين كذب المفتري ، ص ١٥٠ ،

المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٨٧ .

مخلوقة مبدعة من الله تعالى ، فهي أيضًا مكتسبة للعبد ، حين يهيم العبد بفعلها ، فالكسب عبارة عن الفعل القائم بمحل قدرة العبد^(١) .

وعلى هذا النحو سلك الإمام أبي الحسن الأشعري في مسائل أصول الدين ، طريقًا وسطًا بين المتكلمين في مشكلة الأسماء والصفات ، ومشكلة الرؤية السعيدة ، ومشكلة الجبر والاختيار ، ومشكلة خلق القرآن ، وبقية المشكلات الكلامية والاعتقادية الأخرى ، مثل مشكلة مرتكب الكبيرة ، ومشكلة الإيمان هل يزيد وينقص ، ومشكلة شفاعاة النبي يوم القيامة « ودلل الأشعري على عقيدته ببراهين عقلية ، وأدلة شرعية » ثم لخص عقيدته في كتابه : الإبانة عن أصول الديانة^(٢) .

وواضح أن الأشعري في منهجه في الاستدلال على صحة عقيدته ، قد جمع بين منهج المعتزلة ، في الاستدلال العقلي ، وبين منهج أهل السنة والمحدثين والحنابلة في الاعتماد على النصوص والأدلة الشرعية ، كما جاءت في القرآن والسنة ، وهو ما عرف بتغليب النقل على العقل ، بعد أن دلت الحنابلة ، بأنه ليس ثمة أى تعارض بين النقل والعقل ، فمنهج الأشعري إذًا ، فى التذليل على صحة معتقده ببراهين عقلية وأدلة شرعية ، منهج شمولى جمع بين منهجى المعتزلة وأهل السنة ، ولا شك أن الأشعري قد حاول أن يجعل من مذهبه مذهبًا لجمع الشمل ، بعد أن تفرق المسلمون حول هذه العقائد فرقًا وأشياء^(٣) .

ولعل سعى الأشعري ، إلى تقريب وجهات النظر الكلامية والاعتقادية بين فرق المسلمين هو الذى دفعه فى رأينا إلى الاقتراب من فكر المرجئة المتسامح ، فى مسألة الإيمان ، وعدم تكفير مرتكب الكبيرة ، وإرجاء الحكم فى أمره إلى الله يوم القيامة^(٤) .

(١) المقرئبى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٨٧ ، ابن عساكر : تبين ، ص ١٤٩ .

(٢) راجع ابن عساكر : تبين كذب المفتري ، ص ١٤٨ - ١٦٣ .

(٣) يقول الدكتور على سامى النشار فى مقدمته لكتابه " نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام " إنى كمفكر أشعري ، يرى أن عمله الأساسى فى الحياة ، هو المحافظة على كيان المذهب الأشعري ، مذهب الجمهور العظيم من المسلمين ورباط حياتهم ، أرى أن الأشعرية هى آخر من وصل إليه العقل الإسلامى الناطق باسم القرآن والسنة ، وأن ما بقى للمسلمين بعد فى الحياة حتى نهاية الدنيا ، هو الأخذ بهذا المذهب كاملاً ، وتطويره خلال العصور ، وعلى حسب مقتضيات الأجيال المقبلة ، وأنظر على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ، الطبعة الخامسة (١٩٧١ م ، مقدمة الكتاب ، ص ج) وفى رأى الدكتور النشار أيضًا أن الأزهر أصبح معقل الدعوة الأشعرية ، وعمل على بعثها وتوضيح حقائقها والوقوف بالمرصاد لأوروبا وعلمائها جميعًا (نفس المرجع ، مقدمة الكتاب ، ص ١) .

(٤) أنظر المقرئبى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٨٧ .

كما أننا نلاحظ مع المقریزی ، ملحوظة على قدر كبير من الأهمية ، هي أن آراء الأشعري السياسية استهدفت بالدرجة الأولى ، الرد على آراء الشيعة الخاصة بفكرة النص ، هذا رغم اعترافه بتعاطفه مع مواقف الإمام على بن أبي طالب ، في حروبه في صفين ضد حزب معاوية ، وفي النهروان ضد حزب الخوارج^(١) .

كذلك نلاحظ ملاحظة أخرى لا تقل أهمية ، وهي ميل الإمام الأشعري إلى آراء الصوفية ، فذهب إلى القول بأن « كرامات الأولياء حق »^(٢) ، كما سلم بكل ما جاء به القرآن من أمور الغيب ، مثل اللوح والقلم والعرش والكرسى والجنة والنار ، وعذاب القبر ويوم القيامة والميزان والصراط .. إلخ^(٣) .

وفي هذا كله ما يؤيد ما ذهبنا إليه ، من أن مذهب الأشعري ، قام لمقارمة المذاهب الكلامية الفلسفية التي راجت تحت حكم الخلافة الفاطمية بمصر والشام والحجاز واليمن والمغرب ، وأمراء بني بويه ، في العراق وخراسان والمشرق الإسلامي ، فأقام الأشعري فكره السياسي على أساس تنفيذ مذاهب الشيعة في النص بخصوص الإمامة ، وفي اعتقادنا أيضًا ، أنه كما كان المذهب الأشعري مذهبًا لجمع شمل المسلمين في عقيدة إيمانية واحدة ، فإنه في رفضه لأراء البويهيين والفاطميين السياسية بخصوص « النص » وبخصوص « الإمام المعصوم »^(٤) ، وباعترافه بخلافة واحدة تجمع خطة الإسلام كلها^(٥) ، كان يهدف أيضًا لجمع شمل المسلمين تجت خلافة سنوية واحدة ، وإن اضطر الأشعري

(١) أنظر المقریزی : الخطط ، ج ٤ ، ١٨٨ ، س ٨ - ١٤ ، ابن عساكر : تبين كذب المفترى ص ١٢٩ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٨٨ ، س ٤ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٨٨ ، س ٥ - ٨ .

(٤) ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ١٢٩ .

(٥) الجويني : غيات الإمام ، ص ١٢٥ ، وأنظر قبله .

ولقد أشار ابن عساكر لعدة آراء سياسية أخرى للإمام أبي الحسن الأشعري ، فمفهوم الفتنة عنده ، هي التباس الحق على الخلق (ابن عساكر : تبين ، ص ٩٩) ، والأشاعرة وعلماء السنة متفقون في مسائل أصول الدين ، أن الله جعل استقامة أمور الدنيا والدين ، بصلاح الولاة والسلاطين (ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ١٠٧) ، وأولى الأمر ، المستحقين الطاعة في رأى الأشعري ، هم أهل الفقه والدين يعلمون الناس معاني دينهم ، ويأمرونهم بالمعروف ، وينهونهم عن المنكر ، فأوجب الله عز وجل طاعتهم (ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ١٢٦) ومذهبه في الإمامة أنه يبث خلافة أبي بكر ، ويرفض رأى الشيعة في (النص ، والإمام المعصوم) ، (ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ١٢٩) ، والجدير بالملاحظة أن فكرة جعل الولاية ، للعلماء ، لا للأمراء والسلاطين ، نجدها مشروحة عند مفكرة الأشاعرة ، أنظر الجويني : غيات الأمم ، ص ٤٦ - ص ٥٧ ، وهم الذين يطلقون عليهم مصطلح " أهل الحل والعقد " .

إلى التسليم بالظروف السياسية القائمة ، فسلم بجواز وجود سلطنة عسكرية سنوية تساند الخلافة ، إذا ما أقرت الأمن في بلاد الإسلام ، وأمضت شرائع الإسلام والتزم المسلمون بطاعتها ، وتولت فريضة الجهاد^(١) .

فلا غرو أن عمد المفكرون والفقهاء السياسيون للدعوة الأشعرية ، إلى تنفيذ فكرة النص التي قال بها الإسماعيلية وبنوا عليها مذهبهم في الإمامة ، وأوضحوا تهاافتها اعتماداً على ما تم من اختيار أبو بكر ومبايعة المسلمين له في يوم السقيفة^(٢) . وفي نفس الوقت ، راح دعاة الأشاعرة يؤكدون أحقية خلفاء بني العباس السنيين في الخلافة ، وحكم جميع بلاد المسلمين^(٣) ، ويظهرون مشالب الفكر الباطني الإسماعيلي ، وما انطوى عليه من مغالطات وتدليس^(٤) . بل ويطعنون حتى في صحة النسب الفاطمي ، وانتسابهم لعلي بن أبي طالب^(٥) ؛ وضماناً لحماية الخلافة العباسية السنوية ، واستقرار أمور

(١) أنظر الجويني : غياث الأمم ، ص ١٩١ - ٢٥٨ .

(٢) نص المصدر ، الباب الثاني ، فصل في القول في النص ، وفي حكم ثبوته وانتزاعه ، ص ١٩ - ص ٤٢ ، ثم يسوق الجويني من الأدلة التاريخية والفقهاء ، ما يؤكد صحة القول بإثبات الاختيار والانتخاب ، مما يبطل مذهب النص ، كما يوضح الجويني أن مبايعة المسلمين للخلفاء الراشدين الأربعة ، يؤكد مبدأ الاختيار وينفي مبدأ النص ، أنظر الجويني : نفس المصدر ، ص ٤٢ - ٤٥ .

(٣) يقول الغزالي في أول كتابه فضائح الباطنية : أما بعد ، فإني لم أزل مدة المقام بمدينة السلام ، متشوقاً إلى أن أخدم المواقف المقدسة النبوية الإمامية المستظهرية بتصنيف في علم الدين ، حتى خرجت الأوامر الشريفة ، المقدسة النبوية المستظهرية ، بالإشارة إلى الخادم ، في تصنيف كتاب في الرد على الباطنية ، فيشتمل على الكشف عن بدعتهم وضلالهم ، وفنون مكرهم واحتيالهم ، ووجه استدراجهم عوام الخلق وجهالهم ، وإيضاح غوائلهم في تلبسهم وخداعهم ، وانسلاهم عن ريق الإسلام .. وإبراز فضائحهم وقبائحهم ، مما يقضي إلى هتك أستارهم ، (الغزالي : فضائح الباطنية ، ص ١ - ٢) ثم يخص الغزالي الباب التاسع من كتابه للحديث عن إقامة البراهين الشرعية ، على أن الإمام القائم بالحق ، الواجب على الخلق طاعته في عصرنا ، هو الإمام المستظهر ، (الغزالي فضائح الباطنية ، ص ٥٨ ، وما بعدها) .

(٤) أنظر حديث الغزالي عن مراتب الدعوة الباطنية ، على أساس أنها حيل ، يجتال بها على الناس ، فيتحدث عن حيلة التائب (فضائح الباطنية ، ص ٤) وحيلة التعليق ، (نفس المصدر ، ص ٥) وحيلة التدليس ، (نفس المصدر ، ص ٦) ؛ ثم يقرر الغزالي أن الذي هداهم إلى اختراع دعوى النص المتواتر ، طائفة من الملحدين (نفس المصدر ، ص ٣٨) ؛ ثم يفند الغزالي قولهم إن الإمام لا بد أن يكون معصوماً (نفس المصدر ، ص ٣٩) .

(٥) أنظر أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ق ٢ ، ص ٥١١ - ٥١٤ ، الذي يعتمد على كتاب كشف أسرار الباطنية لأبي بكر الباقلاني ، وعلى كتاب الرد على الباطنية ، لأبي القاسم الشاشي ، وكلاهما من أكابر دعاة الأشاعرة ، أنظر بعده .

العالم الإسلامي ، أقر دعاة الأشاعرة الأمر الواقع ، واعترفوا بشرعية السلطنة السنية القائمة ، سواء الغزنوية أو السلجوقية أو الزنكية أو الأيوبية أو المماليكية على التوالي^(١) .

ولا غرو أن اعتنق السلاطين السنيين للمذهب الأشعري ، فاعتنقه على التوالي ، كل من السلاجقة بإيران وآسيا الصغرى^(٢) . والسلاجقة في بلاد الشام منذ عهد تمش^(٣) ، كما اعتنقه نور الدين زنكي^(٤) ، ثم اعتنقه الأيوبيون والمماليك^(٥) .

ولقد كان سلاطين السلاجقة ، ووزيرهم الأكبر ، نظام الملك ، بعد اعتناقهم للعقيدة الأشعرية وعملهم على نشرها ، يطلبون من دعاة الأشاعرة المعاصرين لهم تأليف مؤلفات يلخصون فيها العقيدة الأشعرية ، فألف إمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك الجويني^(٦) ، رسالة لخص فيها العقيدة

(١) أنظر الجويني : غياب الأسم ، ص ١٩١ - ٢٥٨ ، الغزالي : الاقتصاد في الاعتقاد ، ص ١١٣ - ١١٨ ، خضر بن أبي بكر : المناقب المعزية - خ ، الفصل الثاني من الباب الأول عن وظيفة السلطنة ، ق ١١ - ١٣ ، والفصل الثالث من الباب الأول ، عن الإمامة والخلافة ، ق ١٣ - ٢٠ ، ابن جماعة : تحرير الأحكام - خ ، الباب الأول والثاني . عن الإمامة ، والباب الرابع عن الأمراء ، وأنظر قبله ، وبعده .

(٢) أنظر الراوندي : راحة الصدور ، ص ٧٤ - ٧٥ ، ص ١٥٩ ، ص ١٨٦ - ١٨٧ ، ويقرر الراوندي أن سلاطين السلاجقة كانوا يجلبون فقهاء المذاهب الأربعة ، ويعملون على الخصوص الشافعي ، ويتحمسون حماسة عظيمة لنشر المذهب الحنفي ، الراوندي : راحة الصدور ، ص ٥٠ - ٥٢ . والجدير بالاهتمام أن الراوندي ، وهو يكتب في أواخر العصر السلجوقي ، يجعل الصراع بين الشيعة والأشاعرة ، في الدولة السلجوقية من أهم أسباب ضعفها ، أنظر راحة الصدور ، ص ٧٤ - ٧٥ ، وعن اعتناق السلاجقة أيضًا للدعوة الأشعرية ، أنظر ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٥ ، ص ٣٣٢ إلى ٣٣٣ .

(٣) ابن عساكر : تبين كذب المفتري ، ص ١ من المقدمة ، و ص ٦ ، و ص ١٦ ، وأنظر بعده .

(٤) ابن عساكر : نفس المرجع ، ص ٢٨٦ وأنظر قبله .

(٥) المقرئزي : الخطط ، ج ٤ ، ص ٤٨ - ٤٩ ، ص ١٦١ ، ص ١٨٥ ، ص ١٨٨ ، ص ٢٧٥ ، السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ، ص ٢٢ - ٢٣ ، ص ٧٤ - ٧٥ ، ص ٧٩ - ٨٠ ، ص ٨٧ - ٨٨ ، وأنظر قبله .

(٦) هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن عبد الله الجويني النيسابوري الشافعي ، الأشعري المعروف بإمام الحرمين ولد سنة ٤١٩ هـ ، وجازر بمكة ، وتوفي بنيسابور سنة ٤٧٨ هـ أنظر ترجمته عند ابن خلكان : وفيات (الطبعة القديمة) ج ١ : ٣٦١ - ٣٦٢ ، ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٩ : ١٨ - ٢٠ ، السبكي : طبقات ، ج ٣ : ٢٤٩ - ٢٨٣ ، ابن عساكر : تبين ، ص ٢٧٨ - ٢٨٥ ، وأنظر فوقه حسين محمود : الجويني إمام الحرمين ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٠ ، أعلام العرب ٤٠ .

الأشعرية ، وأهداها إلى الوزير نظام الملك السلجوقي ، وسماها العقيدة النظامية^(١) . كذلك ألف الإمام أبي حامد الغزالي^(٢) ، تلميذ إمام الحرمين الجويني ، رسالة العقائد والوعظ إلى السلطان ملك شاه السلجوقي^(٣) ، كما ألف الجويني لنظام الملك ، كتاباً في الأحكام السلطانية ، سماه بلقب نظام الملك ، وهو كتاب غياث الأمم^(٤) ، كذلك دعا نور الدين زنكي ، الإمام قطب الدين

(١) قال الجويني في ديباجة العقيدة النظامية : .. قد مَلَكَّك الله مولانا صاحب الأجل نظام الملك ، سيد الوزراء ، غياث الدولة ، معتمد أمير المؤمنين - أدام الله علاه - مقاليد أعمالك .. وأراد خادماً الدعاء ، أن يطير .. إلى نعيم العلاء .. ، ثم قدم تذكرة إلى المجلس الأسنى .. ، ومهرها أن تقع من السدة السامية موقع القبول ، ومتضمنها عقائل العقول ، ونخب الشرع المنقول ، وقد صدرتها بقواعد عن العقائد على أساليب لم أسبق إليها ، ثم اتبعته بما لا يسوغ الدهول عنه من أركان الإسلام ، وسميتها : النظامية في الأركان الإسلامية ، أنظر الجويني : العقيدة النظامية ، تحقيق محمد زاهد الكوثري ، مطبعة الأنوار ، ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م ، ص ٧ - ٨ .

(٢) هو محمد بن محمد الطوسي الشافعي ، المعروف بالغزالي ، ولد بطوس سنة ٤٥٠هـ ، ثم ارتحل إلى نيسابور ودرس على إمام الحرمين الجويني ، وحضر مجلس الوزير نظام الملك السلجوقي ، فاقبل عليه نظام الملك ، وعظمت منزلة الغزالي ، وأسند إليه التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد ، وتوفي الغزالي سنة ٥٠٥هـ .
أنظر ترجمته الغزالي عند ابن عساکر : تبين كذب المفترى ، ٢٩١ - ٢٩٨ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان (الطبعة القديمة) ج ١ ، ص ٥٨٦ - ٥٨٨ ، ابن الجوزي ، المنتظم ، ٩ : ١٦٩ - ١٧٠ ، السبكي : طبقات الشافعية ، ٤ : ١٠١ - ١٨٢ .

(٣) جاء في أول رسائل العقائد والوعظ إلى ملكشاه : .. قال .. أبو حامد .. الغزالي ، رحمة الله عليه ، يخاطب السلطان محمد بن ملكشاه ، رحمة الله عليه : أعلم يا سلطان العالم ، وملك الشرق والغرب ، أن لله تعالى عليك نعمًا ظاهرة ، وآلاء متكاثرة ، يجب عليك شكرها .. ؛ ثم يلخص الأشعري للسلطان ملكشاه العقيدة الأشعرية في ست قواعد ثم يقدم له مواظب خاص بالعدل في الرعية وكيفية سياسة الملك . (أنظر الغزالي : رسائل العقائد والوعظ إلى ملك شاه ، الطبعة الأولى ، نشر مكتبة الخانجي بمصر ، بتحقيق بدر الدين الحلبي ، ضمن مجموعة رسائل للغزالي ، طبع سنة ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م ، ص ٦١ - ٧٩ من المجموعة) .

(٤) صرح الجويني في أوله بإهدائه إلى نظام الملك بقوله : قد تقدم الكتاب النظامي ، محتويًا على العجب العجائب .. ووافي الجنب الأسمى .. ، والآن ، كما يقضى مساق هذا الترتيب ، إلى تسمية الكتاب والتلقب ، وقد تحقق للعالمين أن صدر الأنام .. يدعى بأسماء تبر عليها معانية .. ، فهو غياث الدولة ، وهذا إذا تم (غياث الأمم في النيات الظلم) ، فليشتهر بالغيثي ، كما شهر الأول بالنظامي ، (أنظر الجويني : غياث الأمم ، ص ٣ - ١٣) .

النيسابوري^(١)، إلى دمشق، نزولاً على طلب العلماء^(٢)، الذي ألف عقيدة، أهداها إلى صلاح الدين، فحفظها صلاح الدين إبان خدمته لنور الدين بالشام، وحفظها لأولاده، مما أدى إلى شدة تمسكهم بالعقيدة الأشعرية^(٣). وأيضاً طلب صلاح الدين من قاضيه ابن درباس تأليف رسالة في الذب عن العقيدة الأشعرية^(٤)، كما طلب من هبة الله المكي أن يؤلف له قصيدة يلخص فيها العقيدة الأشعرية، حتى يسهل على الناس حفظها^(٥).

والواقع أن دعاة الشاعرة، في سبيل نصرتهم لدعوتهم، ومحاربة دعوة الاعتزال والدعوة الفاطمية، واحتواء سلاطين ووزراء السلاجقة - الأمر الذي أدى في النهاية على غلبة المذهب الأشعري على العالم الإسلامي كله - قد لاقوا من الصعوبات وبذلوا من الجهد، ما قد لا يقل عن جهود دعاة الإسماعيلية من قبل في نشر دعوتهم؛ كما أن دعاة الأشاعرة، قد ابتكروا من الوسائل والطرق، لاجتذاب المستجيبين إلى دعوتهم، وتحويل معتنقي المذاهب الاعتزالية والشيعة إلى الدعوة الأشعرية، ما قد لا يقل أيضاً عن الوسائل التي اتخذتها الدعوة الإسماعيلية من قبل لنشر التشيع.

لقد بدأ الإمام أبو الحسن الأشعري، مؤسس المذهب، ينشر مذهبه بنفسه بمدينة البصرة بعد الثلاثمائة واستمر في ذلك حتى وفاته سنة ٣٢٤هـ/٥٩٤م^(٦). ثم استمر تلامذته العراقيون في نشر الدعوة بالعراق، بحيث انتشر مذهبه في العراق بأكمله نحو سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م ومن العراق انتشر إلى الشام^(٧)، وإن لوحظ أنه بعد وفاة الأشعري بيسير، استعاد المعتزلة بعض قوتهم في عهد بني بويه، ولكن تلميذ الأشعري الشهير، أبو بكر الباقلاني^(٨)، الذي عرف بناصر السنة، قمعهم

(١) هو أبو المعالي مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري، ولد بنيسابور سنة ٥٠٥هـ، وقدم بغداد، ثم دمشق، ودرس بالمدرسة المجاهدية والغزالية بدمشق، وتوفي سنة ٥٧٨هـ. ودفن بمقابر الصوفية، وألف عقيدة أهداها لصلاح الدين، أنظر ترجمته عند ابن خلكان: وفيات الأعيان (الطبعة القديمة)، ج ٢، ص ١٢٠ - ١٢١، السبكي: طبقات الشافعية، ٤: ٣٠٩ - ٣١٠، النعمي: المدارس في تاريخ المدارس، ج ١، ص ١٨٣ - ١٨٤، ٢٢٧ - ٢٢٨.

(٢) محمد زاهد الكوثري: مقدمة تبين كذب المفترى لابن عساكر، ص ١٦.

(٣) القرظي: الخطط، ج ٤، ص ١٨٥، وأنظر قبله.

(٤) طبقت هذه الرسالة بالهند ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م، وأنظر قبله.

(٥) عنوان هذه القصيدة .. حدائق القصور .. طبعت بمصر ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م، وأنظر قبله.

(٦) ابن عساكر: تبين كذب المفترى، ص ١٢٧ - ١٢٨، أنظر قبله.

(٧) القرظي: الخطط، ج ٤، ص ١٨٥، وأنظر قبله.

(٨) هو محمد بن الطيب البصري، ثم البغدادي المعروف بالباقلاني، أبو بكر، متكلم على مذهب الأشعري. ولد بالبصرة سنة ٣٣٨. وسكن بغداد، رد على المعتزلة والشيعة والخوارج والجهمة وغيرهم، وتصانيفه "أسرار الباطنية" أنظر ترجمته عند ابن عساكر، تبين، ص ٢١٧ - ٢٢٥، الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج ٥، ص ٣٧٩ - ٣٨٣، ابن خلكان: وفيات الأعيان (الطبعة القديمة) ج ١ ص ٦٠٩.

بمبحثه^(١)؛ فيذكر ابن عساكر مناظرة الباقلاني للمعتزلة في مجلس فناخسروا البويهى ، وقطعة لهم وتأليفه كتابه الشهير التمهيد فى الدين ، بحيث كان بداية انتشار مذهب الأشعرى فى إيران على يد الباقلاني من مدينة شيراز عاصمة ملك فناخسرو^(٢) ، ثم تابع تلامذة الباقلاني ، نشر الدعوة فى العراق وخراسان^(٣) ، بحيث دانت للسنة على الطريقة الأشعرية أهل البسيطة إلى أقصى بلاد أفريقية ، وغلبت الدعوة الأشعرية على بلاد العراق وخراسان والشام وبلاد المغرب^(٤) .

وهنا يستوقفنا أن الدعوة الأشعرية ، بعد احتوائها للدعوة البويهة الشيعية بالعراق وإيران ، راحت تركز جهودها لنشر عقيدتها السننية فى البلاد التى كانت خاضعة فى القرنين الرابع والخامس الهجرى للخلافة الفاطمية الشيعية وهى بلاد الشام ومصر والمغرب والحجاز .

وأول من نشر الدعوة بالشام ، صاحب الأشعرى ، أبى الحسن عبد العزيز الطبرى ، راوية تفسير ابن جرير الطبرى عن مؤلفه^(٥) ، ثم تأكد انتشارها بالشام ، حين بعث أبو بكر الباقلاني ، فى جملة من بعث من أصحابه إلى البلاد لنشر الدعوة ، داعيه أبا عبد الله بن حاتم الأزدي إلى الشام ثم إلى القيروان وبلاد المغرب ، فدان له أهل العلم من أئمة الشوام والمغاربة^(٦) ؛ وتعود أهل الشام ، على اجتلاب كبار الأئمة من المذهب الأشعرى حينًا بعد حين ، كالإمام قطب الدين النيسابورى ، الذى اجتلبه نور الدين زنكى ، على طلب العلماء^(٧) ، ولقد ألف القطب النيسابورى عقيدة لصلاح الدين حفظها هو وأولاده حين كان لا يزال فى خدمة نور الدين ، فاعتنقوا المذهب الأشعرى وتحمسوا له^(٨) ؛

(١) محمد زاهد الكوثرى : مقدمة تبين كذب المفترى ، لابن عساكر ، ص ١٥ .

(٢) ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ١١٨ - ١٢٠ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٢٠ ، انتشرت الدعوة الأشعرية بنيسابور على يد أبى الطيب الصعلوكى ، (ابن عساكر :

تبين كذب المفترى ، ص ٥٤) ، وفى خرجان على يد عبد الملك الجرجاني (ابن عساكر : تبين كذب

المفترى ، ص ٥٤ - ٥٥) ، ولقد نجح أبو بكر القفال الشافى فى نشر مذهب الأشعرى وفقه الشافعى

فى بلاد ما وراء النهر (ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ١٨٢) .

(٤) المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٨٥ ، محمد زاهد الكوثرى : مقدمة تبين كذب المفترى ، ص ١٥ .

(٥) ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ١٩٥ ، محمد الكوثرى : مقدمة تبين ، ص ١٥ .

(٦) ابن عساكر : تبين ، ص ١٢٠ - ١٢١ ، محمد الكوثرى : مقدمة تبين ، ص ١٥ .

(٧) محمد زاهد الكوثرى : مقدمة تبين كذب المفترى ، ص ١٦ .

(٨) المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٨٤ وأنظر قبله .

وحين توفي الإمام ابن عساكر ، مؤرخ الدعوة الأشعرية ، وناصرها في بلاد الشام بدمشق سنة ٥٧١هـ / ١١٧٥م ، حضر جنازته بالميدان والصلاة عليه السلطان صلاح الدين الأيوبي بنفسه^(١) .

والغريب أن الفاطميين بالشام ، لم يدركوا منذ الوهلة الأولى خطورة دعاة الأشاعرة على وجودهم المذهبي والسياسي في بلاد الشام ، فسمع أن إمام المسجد الأموي ، إبان قوة الفاطميين بالشام ، كان أشعري المذهب^(٢) ، وإن كان يبدو أن أبا عبد الله الأزدي ، الذي بعثه الباقلائي لنشر الدعوة بالشام ، لم يهنأ له الاستقرار هناك ، واضطر إلى مغادرة الشام إلى المغرب حيث استقر بالقيروان^(٣) .

ولكن ما لبث دعاة الأشاعرة ، أن أظهروا حقيقة نواياهم العدائية ضد الحكم الفاطمي بالشام فاتخذوا مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وسيلة لمناوئة الحكم الفاطمي بدمشق^(٤) . وأغلب الظن أنهم حققوا لدعوتهم قدراً كبيراً من النجاح ، تأييد بسقوط الحكم الفاطمي بالشام ، واستقرار الفرع السلجوقي الشامي هناك ، واتخاذهم من دمشق عاصمة له^(٥) . بحيث أننا نجد السلطان تتش بن الب أرسلان السلجوقي ، يتردد بنفسه على الفقيه والمتكلم الأشعري أبو الفتوح نصر المقدسي ، ويستشيره في أموره ، وكان أبو الفتوح المقدسي ، قد اشتهر بعداوته للشيعة^(٦) .

أما في مصر عاصمة الخلافة الفاطمية ، فلقد حاول الأشاعرة نشر عقيدتهم بمصر ، في آخر العصر الأخشيدي ، وقبيل الفتح الفاطمي لمصر ، عن طريق محاولة استمالة الوزير الأخشيدي جعفر بن الفرات^(٧) . ولكن يبدو أن هذه المحاولة باءت بالفشل ربما نتيجة للنشاط المتزايد لدعاة الفاطميين في نشر مذهبهم بمصر في نهاية العصر الأخشيدي^(٨) ، وأغلب الظن أن دعاة الأشاعرة بمصر ظلوا

(١) أنظر ترجمة ابن عساكر عند العماد : الخريدة ، ج ١ ، ص ٢٧٤ ، ابن خلكان : وفيات ج ١ ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣ ، السبكي : طبقات الشافعية ، ٤ : ٢٧٣ - ٣٤٣ ، ابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ٢٦١ ، النعمي : المدارس في تاريخ المدارس ، ١ : ١٠٠ - ١٠١ ، والجدير بالذكر أن نور الدين زنكي ، قد بنى دار الحديث النورية بدمشق ، وأوكل إلى ابن عساكر التدريس بها .

(٢) ابن عساكر : تبين كذب المقترى ، ص ٢١٥ - ٢١٦ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٢١٦ - ٢١٧ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

(٥) أنظر قبله .

(٦) ابن عساكر : مصدر سابق ، ص ٢٨٦ .

(٧) ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ١٩٣ .

(٨) ماجد : ظهور الخلافة ، ص ١٠٦ .

في خفية وتستر ، طالما ظلت الخلافة الفاطمية قوية متماسكة ، ولكن مع ضعف الخلفاء المتأخرين وتغلب وزراء السيوف على السلطة الحقيقية واستهانتهم بالسلطة الروحية للخلفاء ، مما أدى بالتالي إلى ضعف العقيدة الإسماعيلية في قلوب المصريين^(١) ، استقوى نشاط دعاة الأشاعرة بمصر ، في أيام الوزير الأفضل بن بدر الجمالي ، فحدثت فتنة ضخمة عرفت بفتنة القصار ، أشعلها داعيان أشعريان منذ سنة ٥١٦هـ / ١٢٢م . مما أدى إلى إغلاق الفاطميين لدار العلم ، إذا استطاع هذان الداعيان واسم أولهما بركات واسم الثاني حميد بن مكى الأنطقيحي ، استمالة عدد من الأساتذة المحنكين من حاشية القصر الفاطمي ، وانتهى الأمر ، بقتل هؤلاء الأساتذة المحنكين ، وقتل الداعي بركات ، ونجاح القصار في الهرب ، ثم عاد مرة أخرى ييث دعوته ويستميل المصريين إليها في عصر المأمون البطانحي ويستهوى عقول الناس ، حتى تم قتله في سنة ٥١٧هـ / ١٢٣م^(٢) .

أما بلاد الحجاز ، فكان أول من قام بنشر المذهب الأشعري بها الحافظ أبو ذر الهروي راوية كتاب الجامع الصحيح ، وعنه أخذ من ارتحل إليه من علماء الأفاق^(٣) ، ثم قام إمام الحرمين الجويني بجهود أخرى في سبيل هذه الغاية ، وذلك بعد هروبه من نيسابور سنة ٤٤٥هـ م / ١٠٥٣م ، عقبحنة الأشاعرة بها ، واستقراره لعدة أعوام مجاورا بمكة^(٤) .

ويبدو أن انتشار الدعوة الأشعرية بالمغرب والأندلس ، إبان الحكم الفاطمي ، كانت أكثر سهولة ويسراً ، وذلك لضعف السيطرة السياسية للفاطميين على هذه البلاد . فبعد استقرار أبو عبد الله الأزدي بالقيروان واستجابة أهلها لدعوته^(٥) . رحل إلى بلاد الشام عالم مغربي ، هو أبو عمرو عثمان بن أبي بكر بن حمود بن أحمد السفاقسي ، وأخذ المذهب بالشام ثم عاد ونشره بالقيروان ، بعد أن قص على أهلها قصة خروج أبي الحسن الأشعري عن مذهب المعتزلة^(٦) . ثم تناوب نشر مذهب الأشعري بالمغرب كبار فقهاء القيروان مثل محمد بن سحنون ، وابن الحداد ، وإبي محمد بن أبي زيد ، وأبي الحسن القابسي^(٧) ، وفي نفس الوقت بذل كل من ابن أبي زيد

(١) أنظر قبله .

(٢) راجع خير طويل عن فتنة القصار ، عند المقرئ : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٣٤ - ٣٣٥ .

(٣) محمد زاهد الكوثري : مقدمة تبين كذب المفتري ، ص ١٥ - ١٦ .

(٤) أنظر ابن عساكر : تبين كذب المفتري ، ص ٢٧٨ - ٢٨٥ .

(٥) ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ١٩٥ ، وأنظر قبله .

(٦) ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ٤٥ ؛ كما يفيد ابن عساكر أن المذهب الأشعري انتشر بالمغرب على يد تلميذ آخر للباقلاني غير ابن عبد الله الأزدي ، وهو أبو طاهر البغدادي الناسك الواعظ ؛ والملاحظ

أن كلاهما استقر بالقيروان (أنظر ابن عساكر ص ١٢٠ - ١٢١) .

(٧) ابن عساكر : المصدر السابق ، ١٢٢ .

وأبي عمران الفاسي ، وأبي الحسن القابسي ، وأبو الوليد ابن الباجي ، وابن بكر بن العربي ، جهودًا كبيرة ، في نشر المذهب في صقلية والأندلس على يد علماء المالكية^(١) ، بل حاول محمد بن أبي زيد المالكي ، أن ينشر المذهب الأشعري بمصر في نهاية العصر الفاطمي ، بأن ألف رسالة عن العقيدة الأشعرية ، وأرسلها إلى مصر ، فعمد محدثو مصر من أهل السنة ، مثل علي بن بقاء المصري الوراق على استنساخها بخطوطهم^(٢) ؛ أي أن المذهب الأشعري ، أحرز من النجاح والرواج بالمغرب ، ما جعل من مدينة القيروان قاعدة لنشره بالأندلس وصقلية ومصر .

ولاشك أن الغلبة الحقيقية للمذهب الأشعري على أغلب أرجاء العالم الإسلامي ، لم تتحقق إلا بعد اعتناق سلاطين السلاجقة بإيران والعراق ثم الشام له ؛ وهذا لم يتأت إلا بعد اضطهاد وأحوال ذاقها الأشاعرة ، على يد السلطان طغرل بك السلجوقي ووزيره عميد الملك الكندري ، الذي كان معتزلي المذهب ، فأمر في سنة ٤٤٥ هـ / ١٠٥٣ م ، بلعن الأشعري على المنابر ، وبطرد الأشاعرة من نيسابور^(٣) ، وكانت أهم مراكز دعوتهم . ومن نيسابور انتشرت محنة الأشاعرة في الآفاق^(٤) ؛ وذلك بعد عزل شيخهم أبي عثمان الصابوني من خطابه نيسابور ، ونفى أبو المعالي الجويني من البلدة^(٥) ، وأرغم بعضهم على التبرأ من مذهبه لتلافى النفي^(٦) ، واضطر الأشاعرة إلى رفع عريضة ، على لسان شيخهم أبي بكر البيهقي ، إلى السلطان طغرل السلجوقي ووزيره عميد الملك الكندري ، يؤكدون أنهم من أهل السنة والجماعة ، ويشرحون كيف أن الأشعري ، ليس من المتكلمين المتدعين ، بل إن مذهبه قد صيغ لنصرة مذاهب ائمة فقهاء أهل السنة المجتهدين ، وشرح منهج السلف ؛ وإن اعتقادهم السياسي ، هو أن استقامة أمور الدنيا والدين بصلاح الولاة والسلاطين ، وأنهم يقررون أن بقاء الملك يكون بالعدل ، وأن صلاح الملك بصلاح الدين^(٧) .

-
- (١) ابن عساكر : المرجع السابق ، ص ١٢٣ ؛ وأنظر ابن حجر : لسان الميزان ؛ ابن فرحون : الديباج .
(٢) محمد زاهد الكوثري: تبين كذب المفتري ، ص ١٥ . وقد رأيت هذه الرسالة مطبوعة بتونس عند زيارتي لها .
(٣) ابن عساكر : تبين كذب المفتري ، ص ١١٠ - ١١١ ، الراوندي : راحة الصدور ، ص ١٥٩ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٥٧ .
(٤) ابن عساكر : المصدر السابق ، ص ١١٢ .
(٥) ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ١٠٨ .
(٦) ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ٢٦٤ . ولقد وصلنا نص محضر كتبه شيوخ الأشاعرة بنيسابور بخصوص عقيدتهم مؤرخ سنة ٤٣٦ هـ ، أي قبل المحنة ، وعليه إمضاءات القشيري والجنزاي والجويني والشاشي والهروي والأيوبي والصابوني والأسفراني وغيرهم (أنظر ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ١١٢ - ١١٥) .
(٧) أنظر نص هذه العريضة عند ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ١٠٠ - ١٠٨ .

ثم ابتسمت الأقدار للأشاعره ، باعتناق الوزير نظام الملك لدعوتهم ، واعتناق سلطانه ألب أرسلان أيضاً لمذهبهم ، وبناء نظام الملك المدرسة النظامية لنشر دعوتهم بالعراق^(١) ، ومن يومها أصبحت المدارس السنية ، أهم وسائل نشر الدعوة الأشعرية ، وعن طريقها تحولت مصر والشام معقل الإسماعيلية إلى المذهب السنى على يد الزنكيين ثم الأيوبيين^(٢) .

ولقد شبه الأشاعرة لعنهم على المنابر فى عهد السلطان طغرل بك ووزيره الكندرى بلعن الإمام على بن أبى طالب على المنابر فى الدولة الأموية نحواً من ثمانين سنة^(٣) وسجل أبى القاسم القشبرى محتته ومحنة زملائه بنيسابور فى رسالة سماها . شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة ، رفعها إلى العلماء الأعلام بجميع بلاد الإسلام^(٤) .

وفى سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م ، أزال الوزير نظام الملك فى عصر ملكشاه ، لعن الأشاعرة على المنابر^(٥) ، وكان ألب أرسلان قد قتل الوزير المعتزلى عميد الملك الكندرى الذى امتحنهم بإجاء من وزيره الجديد نظام الملك^(٦) ، ومن يومها اعتنق جمع سلاطين السلاجقة العقيدة الأشعرية^(٧) .

وكانت وسائل نشر الدعوة الأشعرية ، سواء قبل اعتناق نظام الملك وسلاطين السلاجقة لها أو بعدها هى نفسها لم تتغير ، وهى تطابق فى الواقع الوسائل التى اتخذها الأيوبيون فى مصر لنشر الدعوة السنية والقضاء على الدعوة الإسماعيلية ، مثل إنشاء المدارس^(٨) والخوانق^(٩) ، والمنشآت الاجتماعية ، مثل دور المرضى ودورها الغرباء^(١٠) ، ووقف عليها الأوقاف^(١١) ؛ بحيث فإختر دعاة

(١) ابن عساکر : تبين كذب المفترى ، ص ١٠٨ - ١٠٩ ، ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٩ : ٦٤ - ٦٨ ،

ابن الأثير : الكامل ، ١٠ : ٢٠٤ - ٢١٠ .

(٢) أنظر المقرئى : الخطط : ص ١٩٢ - ١٩٣ ، وأنظر قبله .

(٣) ابن عساکر : المصدر السابق ، ص ١٥٩ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٠٩ - ١١٢ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ، ١٠ : ٢٠٩ ، أبو الفدا : المختصر ، ٣ : ١٩٣ ، الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٨٦

- ١٨٧ .

(٦) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٨٦ - ١٨٧ .

(٧) ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٥ ، ص ٣٣٢ - ٣٣٣ ، وأنظر قبله .

(٨) ابن عساکر : تبين كذب المفترى ، ص ١٩٩ ، ص ٢٠٨ ، ص ١ ، ص ٢١١ ، ص ٢٣٢ ، ص ٢٧٩ ،

ص ٢٨٠ ، ص ٢٩٢ ، ص ٣٢٤ وأنظر قبله .

(٩) ابن عساکر : نفس المصدر ، ص ٢٩٥ وأنظر قبله .

(١٠) ابن عساکر : نفس المصدر ، ص ٢٣٤ ، ص ٢٣٦ .

(١١) ابن عساکر : نفس المصدر ، ص ١٩٩ ، ص ٢٩٥ .

الأشاعرة المتأخرون مثل عبد القاهر البغدادي^(١)، ومظفر الدين الأسفرايني^(٢)، بأن منشآت أهل السنة وملوكهم، لم يستطع الفاطميون إنشاء مثلها؛ كما تولى الكثيرون من فقهاءهم وائمهم منصب القضاء في العصر السلجوقي^(٣)، الذي كان أغلب الظن شأن الحال في الدولتين الزنكية والأيوبية، له الإشراف الأعلى على المدارس السنية^(٤).

وإذا كان الإمام أبي الحسن الأشعري، قد عمد إلى اجتذاب جمهور الصوفية إلى دعوته باعترافه بكرامات الأولياء^(٥)، وجعله الإيمان، منوط بالقلب، شأن الصوفية والمرجئة^(٦)، على عكس المعتزلة الذين جعلوه مقترناً بالعقل^(٧)؛ فلقد لاحظ الباحثون المحدثون أنه بتأثير الأشاعرة وتأثير الغزالي بنوع خاص، اكتسب المتصوفة مركزاً ممتازاً في العالم الإسلامي^(٨).

ولا يغيب عنا أن جميع أئمة التصوف السني، كانوا من معتققي العقيدة الأشعرية^(٩)، الداعين إليها، ولقد ترجم لهم جميعاً ابن عساكر بين أئمة الأشاعرة، ومن هؤلاء الصوفية الذين اعتنقوا العقيدة الأشعرية وعملوا على نشرها أبو الحسن الباهلي^(١٠)، وبندار الشيرازي^(١١)، وأبو سهل الصعلوكي النيسابوري^(١٢)، وأبو عبد الله بن خفيف الشيرازي^(١٣)، وابن سمعون البغدادي^(١٤)، وابن الدقاق شيخ أبي القاسم القشيري^(١٥)، وأو نعيم الأصفهاني^(١٦)، صاحب أشهر كتاب

(١) أنظر عبد القاهر البغدادي، ت ٣٢٥ هـ: الفرق بين الفرق، تحقيق محمد زاهد الكوثري، طبع القاهرة، ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م، ص ٢٢٢ - ٢٢٣.

(٢) أنظر أبو المظفر الأشعرائي، ت ٤٧١ هـ، البصير في الدين، تحقيق محمد زاهد الكوثري، طبع القاهرة، ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥م، ص ١٧٦.

(٣) أنظر ابن عساكر: تبين، ص ٢٢٩، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٦١.

(٤) أنظر قبله. (٥) أنظر قبله. (٦) أنظر قبله.

(٧) عبد اللطيف حمزة: الحركة الفكرية، ٩١. (٨) نفس المرجع، ص ٩٣.

(٩) يأتي على رأس هؤلاء الإمام الصوفي الشهير محي الدين بن عربي، كما حقق الإمام شمس الدين السخاوي في رسالته المسماة (الكفاية في طريق الهداية)، وهي في بيان عقيدة ابن عربي، وإن جعل ابن عربي عقيدة الأشعري هي عقيدة العامة، وجعل عقيدة الصوفية هي عقيدة الخاصة، وجعل قوله هو في وحدة الوجود، هو عقيدة خاصته الخاصة. ومن هذه الرسالة نسخة خطية بالمكتبة الوطنية بتونس برقم ٦٦٦٢، قمت بنسخها إبان وجودي هناك، وهي تحت التحقيق والطبع إن شاء الله.

(١٠) ابن عساكر: تبين، ص ١٧٨.

(١١) نفس المصدر، ص ١٨٠ - ١٨١.

(١٢) نفس المصدر، ص ١٨٣ - ١٨٨.

(١٣) نفس المصدر، ص ١٩٠ - ١٩٢.

(١٤) نفس المصدر، ص ٢٠٠.

(١٥) نفس المصدر، ص ٢٢٦ - ٢٢٧.

(١٦) نفس المصدر، ص ٢٤٦ - ٢٤٧.

في تراجم الصوفية ، وهو كتاب حلية الأولياء^(١) ، وأبو القاسم القشيري^(٢) ، صاحب أشهر كتاب في الفكر الصوفي « الرسالة القشيرية »^(٣) ، وأبو عبد الله الفراوي^(٤) ، وإمام الحرمين الجويني^(٥) ، وأبو حامد الغزالي^(٦) ، الذي ألف كتاباً شهيراً في التصوف في نهاية حياته هو المنقذ من الضلال^(٧) ؛ فلا غرو أن أصبح التصوف من أقوى وسائل نشر الدعوة الأشعرية ومحاربة مذاهب التشيع ، وهذا ما أدركناه بوضوح في العصر الأيوبي بمصر^(٨) .

كما عمد دعاة الأشاعرة إلى عقد مجالس التذكير والوعظ الصوفي^(٩) ، وعقد المناظرات الكلامية بينهم وبين مخالفيهم من متكلمي الشيعة وغيرهم ؛ كذلك كانت الخطابة أيضاً على المنابر ، إحدى وسائل نشر العقيدة الأشعرية^(١٠) .

ولقد وجه هؤلاء الدعاة اهتماماً كبيراً نحو تأليف مؤلفات في شرح العقيدة الأشعرية وتفنيد عقائد المخالفين لها ، ونشرها في الآفاق ، فكانت كتب أبو الحسن الأشعري في الأفاق ماثرة^(١١) ، وكان للأشعري خمسة وخمسون تصنيفاً^(١٢) ، كذلك اشتهرت مؤلفات الباقلاني^(١٣) ، والجويني^(١٤) ، والغزالي^(١٥) .

(١) طبع هذا الكتاب في عشر أجزاء ضخمة بمصر على نفقة مكتبة الخالجي ومطبعة السعادة ، سنة ١٣٥١هـ / ١٩٣٢ م .

(٢) طبع هذا الكتاب لأول مرة بمصر سنة ١٢٨٤ هـ بمطبعة بولاق ثم طبع بعد ذلك مراراً .

(٣) ابن عساكر : تبين ، ص ٣٢٢ - ٣٢٥ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٨٤ .

(٥) أنظر قبله .

(٦) نفس المصدر ، ص ٢٩١ - ٢٩٨ .

(٧) طبع هذا الكتاب بمصر سنة ١٣٨٥ هـ ، بتحقيق الدكتور عبد الحلیم محمود .

(٨) أنظر قبله .

(٩) أنظر ابن عساكر : تبين ، ص ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣٢ ، و ٢٨٣ .

(١٠) أنظر نفس المصدر ، ص ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٣٣ و ٢٨٢ .

(١١) نفس المصدر ، ص ١١٢ - ١٤١ .

(١٢) نفس المصدر ، ص ١٢٨ - ١٤٠ .

(١٣) أنظر مثلاً الباقلاني : التمهيد في الدين ، في الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة ،

تحقيق محمود محمد الحضيري ، محمد عبد الهادي أبو ريدة ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م ،

ومنه طبعة أخرى بتحقيق يوسف مكارني اليسوعي ، المكتبة الشرقية ببيروت ، ١٩٥٧ ، وأنظر أيضاً كتاب

الإنتصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به ، تحقيق الكولري القاهرة ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠ م .

(١٤) أنظر قبله كتابه " غياث الأمم ، والعقيدة النظامية " ، ولقد نشرت الدكتوراة فوفية حسين أخيراً بعض

مؤلفات الجويني في علم الكلام ، كذلك نشر له من قبل كتابه الإرشاد ، في علم الكلام .

(١٥) أنظر قبله ، وأنظر عبد الرحمن بدوي : مؤلفات الغزالي ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، وأشهر مؤلفات الغزالي "

إحياء علوم الدين ، وهو موسوعة في العلوم الإسلامية ، وكتابه تهافت الفلاسفة ، الذي أظهر فيه فساد

مذاهب الفلاسفة ، وكتاب المنقذ من الضلال ، الذي دلل فيه على صدق طريقة الصوفية في تحقيق الإيمان .

وفي نفس الوقت عمد فريق آخر ، من دعاة الأشاعرة التي تأليف المؤلفات في تاريخ الفرق الإسلامية ، وعرض مذاهبها ، وتفنيدها من وجهة نظر المذهب الأشعري ؛ فكان من هؤلاء ، الأشعري نفسه في كتابه مقالات الإسلاميين^(١) والشهرستاني في كتابه الملل والنحل^(٢) ، وكتابه نهاية الإقدام في علم الكلام^(٣) ، وعبد القاهر البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق^(٤) ، وكتابه أصول الدين^(٥) ، وأبو إسحاق الأسفرائني في كتابه التبصير في الدين^(٦) .

وعنى عن البيان أن كل هذه الوسائل التي اتخذها دعاة الأشاعرة لنشر دعوتهم قد طبقها الأيوبيون بمصر ولم يقصروا في واحدة منها^(٧) ؛ ومع ذلك فلم يكن نشر العقيدة الأشعرية بمصر في العصر الأيوبي ، هينًا سهلاً ، وذلك لوجود عدد من الخنابلة ، أعداء الأشاعرة ، ومخالفهم في مسألة الصفات الإلهية ؛ فسمع عن عداء شديد بين شهاب الدين الطوسي الأشعري ، وزين الدين بن نجية الواعظ الحنبلي بمصر^(٨) ؛ كما نسمع عن عداء سافر أيضًا بين شهاب الدين الطوسي ، وطائفة الخنابلة بمصر^(٩) .

ونحن نفسر عناية الأيوبيين ، بنشر الفقه الشافعي بمصر عن طريق تفويض القضاء لقاضي قضاة شافعي أشعري هو ابن درباس الكردي ، ثم عزل جميع القضاء الإسماعيلية وتعيين بدلهم قضاة شوافع ، فتظاهر الناس من حينئذ بمذهب مالك والشافعي^(١٠) ؛ بأن العقيدة الأشعرية ، أصبحت هي العقيدة المفضلة في مسائل أصول الدين عند جميع فقهاء الشافعية ، بحيث أصبح ثلاثة أرباع الفقهاء الشافعيين على العقيدة الأشعرية^(١١) ، في حين بالغ الفقيه الحنبلي أبو الفرج ابن الجوزي ، فذكر أن جميع فقهاء

(١) طبع هذا الكتاب بتحقيق المستشرق الألماني ، هلموت ريتز ، ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٣ م .

(٢) طبع بمطبعة بولاق على هامش كتاب الفصل في الملل والنحل لابن حزام الأندلسي ، ثم طبع منفردًا مرارًا .

(٣) طبع بتحقيق المستشرق الفريد جيوم .

(٤) طبع هذا الكتاب بتحقيق محمد زاهد الكوثري ، بالقاهرة ، ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٩ م .

(٥) طبع هذا الكتاب باستانبول سنة ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٨ م .

(٦) طبع هذا الكتاب بتحقيق محمد زاهد الكوثري ، القاهرة ، ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م وأنظر أيضًا كتاب الفخر

الرازي : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، طبع بالقاهرة .

(٧) أنظر قبله .

(٨) أنظر أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ٣٤ - ٣٥ .

(٩) أبو شامة : نفس المصدر ، ص ١٨ - ١٩ .

(١٠) المقرئزي : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٦١ وأنظر قبله .

(١١) محمد زاهد الكوثري ، مقدمة تبين كذب المفتري ، ص ١٦ .

الشافعية ، قد أخذوا بمذهب الأشعري^(١) في العقائد والقضايا الإيمانية ؛ والواقع أننا كثيراً ما نسمع في تراجم الفقهاء بأنه كان يناظر على مذهب الشافعي في الفقه وعلى مذهب الأشعري في الكلام^(٢) ، كما أن الداعي الأشعري أبو بكر القفال الشاسي ، قد نشر الفقه الشافعي والعقيدة الأشعرية في بلاد ما وراء النهر^(٣) ، وفي كل هذا ما يشير إلى تمسك فقهاء الشافعية بالعقيدة الأشعرية ، واعتزاز متكلمي الأشاعرة بالفقه الشافعي .

أما الإمام الأشعري نفسه ، فقد نشأ على مذهب أبي حنيفة ، شأن أغلب المعتزلة ، وهو نفسه معتزلي في بادئ الأمر ، ثم نظر في جميع مذاهب الفقه ، مما ساعده على جمع شمل أهل السنة ، وإن كان قد صرح في حياته بإعجابه الشديد بفقه أحمد بن حنبل - ربما لاجتذاب الخنابلة إلى عقيدته^(٤) - أما في القرنين الخامس والسادس والسابع الهجري ، فقد أصبح المذهب الشافعي ، هو المذهب الفقهي المفضل لعلماء الأشاعرة ، فوجد الإمام الجويني ، يؤلف كتاباً بعنوان « عقيدة أصحاب الإمام المطليبي الشافعي » ، ذكر فيه أن مخالقات الأشعري للشافعي في فروع الفقه ، تقل وتعز^(٥) ، كما ألف الإمام الفخر الرازي كتاب « مناقب الإمام الشافعي »^(٦) .

ويذكر المقرئزي أنه لم يكن في الدولة الأيوبية بمصر ، كثير ذكر لمذهب أبي حنيفة وأحمد بن حنبل ثم اشتهر مذهب أبي حنيفة وأحمد بن حنبل في آخرها^(٧) ، وذلك على يد الفقيه الحنبلي ابن تيمية الحراني ، الذي أظهر الدعوة السلفية ، وهاجم المعتزلة والأشاعرة على حد سواء ، على أساس أن كلاهما من المتكلمين وليسوا من أهل الحديث ، شأن الخنابلة^(٨) .

ولا شك أنه من العوامل التي ساعدت الأيوبيين على نشر الفقه الشافعي بمصر ، أنه كان قد انتشر بها من قبل انتشاراً كبيراً منذ سكن الإمام الشافعي القسطنطينية ، ودفن بها^(٩) .

(١) ابن الجوزي : المنتظم ، ٥ : ٣٣٢ - ٣٣٣ ، إبان ترجمة أبي الحسن الأشعري .

(٢) ابن عساكر : تبيين ، ص ١٨٢ .

(٣) نفس المصدر ، الصفحة .

(٤) ابن عساكر : تبيين ، ص ١١٤ ، ص ١١٧ ، هامش (١) إلى ص ١١٨ .

(٥) نفس المصدر ، ص ١١٥ .

(٦) طبع هذا الكتاب بالقاهرة .

(٧) المقرئزي : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٦١ .

(٨) المقرئزي : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٨٥ .

(٩) راجع محمد كامل حسين : أدب مصر الإسلامية (عصر الولاة) دار الفكر العربي ، د. ت ، ص ٥١ - ٦٠ .

ويرى المستشرق إيرلايدوس أن الهدف الأساسى للسياسة الدينية فى العصر الأيوبى ، كان إعادة النشاط للمذاهب الشرعية فى القاهرة ومصر ، وكانت هذه المذاهب الفقهية قد تطورت بمضى الزمن إلى أجهزة ذات اهتمامات إدارية واجتماعية (مثل النظم المالية والقضائية ووسائل الدعوة) وما حل القرن الخامس الهجرى ، حتى اتخذت كل هذه المذاهب شكل الجماعات التى يغلب عليها الطابع الاجتماعى والدينى معاً^(١) .

والخلاصة أن كل من العقيدة الأشعرية ووسائل نشرها من ناحية والفقهاء الشافعى من ناحية أخرى ، كانت تمثل فى العصر الأيوبى ، إحدى شقى الدعوة السنية التى نشرها الأيوبيون بعد قضائهم على الدعوة الإسماعيلية .

(١) إيرلايدوس : السياسة الدينية فى عهد الأيوبيين ، وتطور المذاهب الشرعية فى القاهرة ، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، مارس - إبريل ١٩٦٩ م ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٧٠ م ، الجزء الأول ، ص ٢٥٣ - ٢٥٥ .

الفصل الرابع

الوضع السياسى والشرعى لمصر الأيوبية

- فقدان الخلافة لسلطتها الزمنية وظهور السلاطين .
- مصر الأيوبية « إمارة استيلاء » وداراً للـ « سلطنة الأيوبية » .
- إحياء الأيوبيين لدولة الخلافة العباسية .
- نهوض الأيوبيين بفريضة الجهاد .
- استجابة سلاطين بنى أيوب لدعوة الفتوة الناصرية الخليفية .

الوضع السياسي والشرعي لمصر الأيوبية

فقدان الخلافة لسلطتها الزمنية وظهور السلاطين :

تذكرنا أسرة بني أيوب الكردية ، بالأسر الطموحة ، التي سيطرت من قبل على السلطة الزمنية في ديار الإسلام ، بعد ضعف النفوذ السياسي لوظيفة الخلافة ، واستبداد الأمراء العسكريين من أرباب السيوف بالسلطة التنفيذية الفعلية في البلاد ؛ فمقارنة ملابسات نشأة الأسرة الأيوبية^(١) ، وظهورها في ساحة التاريخ الإسلامي ، بتاريخ ظهور أسرتي بني بويه وبني سلجوق ، يوضح لنا مدى تشابه تاريخ هذه الأسر العسكرية الثلاث ، التي استطاعت السيطرة على الخلافة العباسية ، وتولى التوجيه السياسي والعسكري للعالم الإسلامي .

ولقد عرفت دولة الخلافة العباسية بالعراق لأول مرة ، هذا النمط من الحكم العسكري ، المتغلب على وظيفة الخلافة ، صاحبة السلطات الشرعية في ديار الإسلام ، منذ ظهور وظيفة أمرة الأمراء في بغداد ، منذ عصر الخليفة العباسي الراضي بالله ، في القرن الرابع الهجري ٣٢٤ هـ / ٩٣٥ م^(٢) .

(١) أنظر ابن الأثير : الباهر ، ص ١١٩ - ١٢٠ ، الكامل ، ١٠ : ٦٧٥ ، ١١ ، ١١٨ ، ٢٥١ - ٢٥٢ ، ٣٤١ - ٣٤٣ ، سبط : مرآة ، ٨ : ٢١٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٧ ، ٢٥٢ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧٩ ، ٤٢٥ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٢٩ - ٣٣٩ ، ابن خلكان : وفيات : ١ : ٢٥٥ - ٢٦١ ، ٧ : ١٣٩ - ١٤٧ ، ابن واصل : مفرج ، ١ : ٣ - ١٠ ، ابن أيك : الدر المطلب ، ٥ - ١٠ ، المقرئ : السلوك ١ : ٤١ - ٤٣ ، وراجع على يومي : قيام الدولة الأيوبية ص ٥٥ - ٩٢ : V. Minoreskey. prehistory of Saladin, dans studies in Caucasian History, Cambridge, 1953, 107-128. حيث يذكر أن نجم الدين أيوب وشيركوه ، قد التحقوا بشبابهما بخدمة الدولة الشدادية الكردية بالجزيرة الفراتية .

(٢) أنظر الصولي : أخبار الراضي والمتقى من كتاب الأوراق ، مطبعة الصاوي بالقاهرة ، ص ٨٥ ، حسن أحمد محمود ، العالم الإسلامي في العصر العباسي ، ص ٣٦٧ - ٣٨٤ .

وما لبث هذا النمط من الحكم العسكري ، أن تحول إلى ملك وراثي في القرن الرابع والخامس الهجري ، بعد سيطرة أسرة بنى بويه الفارسية ، على الخليفة العباسي فى بغداد وحجرهم عليه ، وإرغامهم له على تفويض جميع سلطاته الشرعية لهم^(١) .

أما دولة الخلافة الفاطمية بمصر ، فكان ظهور هذا النمط من الحكم العسكري بها ، فى وقت لاحق لظهوره فى دولة الخلافة العباسية بالعراق ، إذ أن هذا الحكم العسكري المستبد بالسلطة دون الخلافة ، لم يظهر فى مصر ، إلا منذ الربع الأخير من القرن الخامس الهجرى ، حين نجح بدر الجمالى فى إنقاذ دولة الخلافة الفاطمية فى عهد الخليفة المستنصر بالله ، من التصدع والانهايار ، أثر الأزمات الاقتصادية والفتن السياسية ، التى مرت بها الخلافة فى نهاية حكم المستنصر ، واضطر هذا الخليفة إنقاذاً لدولته وخلافته ، إلى تفويض جميع سلطاته الشرعية إلى الأمير بدر الجمالى ، الذى أصبح بموجب هذا التفويض أول وزراء السيوف المفوضين فى تاريخ الخلافة الفاطمية^(٢) .

وكما سبق القول^(٣) ، فقد لاحظ مؤرخو دساتير الإنشاء بمصر ، أن وظيفة « وزارة التفويض » ، التى عرفتها مصر منذ عصر الخليفة الفاطمى المستنصر الله ، واقتصر توليها على الأمراء من أرباب السيوف ، تكاد تطابق الرضع السياسى والشرعى ، لوظيفة أمرة الأمراء والسلطنة ، اللتين سيطرتا من قبل على التوالى ، على السلطة التنفيذية الفعلية بالعراق ، بعد زوال النفوذ السياسى لخلفاء بنى العباس .

(١) أفاد المسعودى ، أن هذا حدث فى عصر الخليفة المطيع ، وكان ذلك فى السنة التى ألف فيها كتابه التبيه والإشراف سنة ٣٤٥هـ / ٩٥٦م ، أنظر التبيه والإشراف ، طبعة الصاوى ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م ، ص ٣٤٦ ، وأنظر أيضاً نفس المصدر ، ص ١٠٦ و ؛ ٢٧٧ ويرى ابن الأثير أنه فى سنة ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م أنحل أمر الخلافة والسلطنة ببغداد ، أنظر الكامل ، ٩ : ٤٤٠ ، ويذكر المؤرخون أنه فى سنة ٤٣٥هـ / ١٠٤٣م ، حدثت الوحشة بين الخليفة العباسى القائم وجلال الدولة ابن بويه ، أنظر أبو الفدا : المختصر ، ٢ : ١٧٤ - ١٧٥ ، ولقد أوجز المقرئى تاريخ سلطنة بنى بويه ، أنظر السلوك ١ : ٢٣ - ٣٠ ، وهو يتبع إسلام الديلم على يد الداعى الشيعى الزيدى الناصر الأطروش ؛ ويقول ابن الأثير : أن المماليك كانوا قديماً يخلعون الخلفاء ، ويحكمون عليهم ولم يزالوا كذلك إلى ملك الديلم واستيلائهم على العراق ، فزالت هيئة الخلافة بالمرّة ، إلى إنقراض دولة الديلم ، أنظر الباهر ، ص ٥١ ، وأنظر ابن خلدون : المقدمة ، الفصل الثامن والعشرون ، فى انقلاب الخلافة إلى ملك ، ص ٢٠٢ - ٢٠٨ .

(٢) أنظر الخالدى : المقصد العالى المنشأ ، - خ ، لوحة ١٩٢ ب - ١٩٥ ب ، القلقشندى صبح ، ٩ : ٣٩٩ -

٤٠٠ ، ٤٠٠ - ٤٠٣ ، ماجد : نظم الفاطميين ١ : ص ٨٢ - ٨٧ .

(٣) أنظر قبله ، الفصل الخاص بالقضاء على الدعوة الفاطمية .

ورغم تسليم فقهاء الإسلام ، بأن هذه الأخطا من الحكم العسكري ، الذى احتكره الأمراء العسكريين ، وفرض نفسه على ديار الإسلام ، إثر ضعف السلطة السياسية والعسكرية للخلفاء العباسيين بالعراق ، والفاطميين بمصر ، نظام عسكري ، أساسه الاستعداد واستحواذ الملك والسلطة ، اعتماداً على القوة العسكرية ، واستمالة الأنصار والأتباع بالوسائل السياسية ؛ ورغم تصريح هؤلاء الفقهاء ، بأن هذه الأخطا من الحكم العسكري ، لا تستند إلى نص شرعى ، وقل أن يتوفر فى القائمين بها الشروط الشرعية اللازم توافرها فى متولى وظيفة الإمامة الكبرى أى الخلافة ، أو ما يقوم مقامها ؛ إلا أن فقهاء الإسلام ، اضطروا إلى قبول هذه الأخطا من الحكم العسكري ، الذى تبلور فى صورته النهائية فى وظيفة السلطنة ، على أساس أن ما قام به هؤلاء الأمراء المتغلبين على الخلافة ، فى فترات ضعفها السياسى والعسكري ، من إقرار الأمن فى ديار الإسلام ، ورعاية إقامة شعائر الفرائض الدينية ، وتطبيق أحكام الشريعة ، وترويج كل هذه الجهود ، بالتهوض بأعباء فريضة الجهاد ، قد ضمن استمرار رفعة كلمة الإسلام ، وتوحيد كلمته ، مما أوجب لهؤلاء الأمراء والسلاطين ، الثناء والتقدير^(١) .

وإذا كان احتكار أمراء السيف ، منذ النصف الثانى من عصر الخلافة الفاطمية ، لوزارة التفويض ، قد أدى إلى ابتداء هؤلاء الوزراء المفوضين لهيئة الخليفة الفاطمى ، والتلاعب بنص الخلفاء على من يتولى الخلافة من أبنائهم ، الأمر الذى شكك المصريين فى العقيدة الفاطمية ، التى تركز فى جوهرها على تقديس شخص الخليفة الفاطمى ، وفى نفس الوقت جراً بعض هؤلاء الوزراء المفوضين على إعلان استهانتهم بالعقيدة والمذهب الفاطمى ، وإظهار تعاطفهم وميولهم مع المذهب السنى ، بحيث استطاع آخر وزيران سنيان للفواطم ، وهما شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، القضاء نهائياً على دولة الخلافة الفاطمية ، وإعلان عودة مصر للتبعية للخلافة العباسية بالعراق ، تمهيداً لإعلان قيام السلطنة الأيوبية السنية بمصر^(٢) ؛ فإن احتكار أمراء السيف لوزارة التفويض ببغداد ، فى ظل الخلافة العباسية ، قد شاءت الظروف أن يودى هذا الأمر فى النهاية على عكس الحال بالنسبة للخلافة الفاطمية ، إلى يقظة الخلافة العباسية مرة أخرى ، واستقواء النفوذ السياسى لدولتها .

(١) أنظر الجوينى : غياب الأمم ، ص ٢٣١ - ٢٨٣ ، وهو فصل موسع عُنُوْنَه بِـ " القول فى ظهور مستعد بالشوكة مستولى " ، الغزالي : الاقتصاد فى الاعتقاد ، ص ١١٣ - ١١٨ ، خضر بن أبى بكر : المناقب المغربية - خ ، الفصل الثانى من الباب الأول ، عن وظيفة السلطنة ، ق ١١ - ١٣ ، والفصل الثالث من الباب الأول ، عن الإمامة والخلافة ، ق ١٣ - ٢٠ ، ابن جماعة : تحرير الأحكام - خ ، الباب الأول والثانى عن الإمامة ، والباب الرابع عن الأمراء ، وأنظر بعده الفصل الخاص بالسلطنة .
(٢) أنظر قبله .

لقد كان العصر البويهى ولا ريب شديد الوطأة على خلفاء بنى العباس ؛ وبنى بويه عائلة فارسية شيعية^(١) ، تخالف المذهب السنى للخليفة العباسى ، ولا تقر بأحقية بيت بنى العباس فى الخلافة ، دون بقية بنى هاشم ، وخاصة البيت العلوى^(٢) ، لذلك تعاطف أمراء بنى بويه ، مع الدعوة الفاطمية والخلافة الفاطمية المصرية^(٣) ، إلا أن التنافس السياسى بين هاتين القوتين العظمتين فى ديار الإسلام^(٤) قد حال - رغم تقاربهما المذهبى - دون توحيد العالم الإسلامى تحت كيان سياسى وروجى موحد ، طوال فترة تعاصر الدولتين الفاطمية والبويهية^(٥) .

ومن ناحية أخرى ، استهان أمراء بنى بويه ، بخلفاء بنى العباس ، وبرسوم الخلافة العباسية ، وحجروا على الخلفاء العباسيين ، واستحوذوا على السلطة الزمنية الفعلية من دونهم ، وسرعان ما حولوا دولة الخلافة ببغداد ، إلى ملك وراثى متوارث فى أسرته الأعمجية وذلك بملاحظة ابن خلدون ، واتخذوا لقب السلطنة ، دون اعتراف خلفاء بنى العباس بشرعية هذا اللقب لأن بنو بويه اتخذوه من قبل أنفسهم^(٦) ، ومع ذلك فقد عد المؤرخون الحكم البويهى فى العراق النموذج الأول لنظام السلطنة^(٧) ، من ناحية الألقاب الملوكية لبنى بويه والوضع السياسى والشرعى لدولتهم^(٨) .

(١) عنها أنظر المقرئى : السلوك ، ١ : ٢٣ - ٣٠ .

(٢) أنظر الحاكم الجشمى : شرح عيون المسائل ، طبع بتونس بذيلى كتاب فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة للقاضى عبد الجبار الهمدانى ، بتحقيق فؤاد سيد ، ص ٣٧١ - ٣٧٤ ، المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٤٣٩ ، أبو إسحاق الصابى : ت ٣٨٤هـ : المنتزع من الجزء الأول من الكتاب المعروف بالناجى فى اختيار الدولة الديلمية ، حققه محمد صابر خان بطهران سنة ١٩٧٦م ، وتفيد هذه المصادر أن بنى بويه ، كانوا من الشيعة الزيدية المعتزلة ، وهذا ما يفسر تعاطفهم مع الدعوة والخلافة الفاطمية ، وعن هذا الموضوع ، راجع مقدمة محى الخشاب لكتاب سفر نامه لناصر خسرو ، ومقدمة محمد كامل حسين لكتاب سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعوة الشيرازى .

(٣) أنظر المؤيد فى الدين الشيرازى : سيرة المؤيد فى الدين ، داعى الدعوة ، ترجمة حياته بقلمه ، ص ٤ - ٣٠ ، ص ٦٤ - ٦٨ ، ص ٧٦ - ٨٠ ، ص ٢١ من مقدمة محمد كامل حسين لهذا الكتاب .

(٤) كان التنافس بين البويهيين والفاطميين على الدعوة الإسلامية على منبر المسجد الجامع بمدينة القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية زعيمة العالم المسيحى الشرقى ، أنظر المقرئى : الخطط ٢ : ١٣٧ ، ابن الجوزى : المنتظم ، ٧ : ٢٦٥ ، ابن الأثير : الكامل ، ٩ : ١٦ ، الخطيب : تاريخ بغداد ، ٥ : ٣٧٩ - ٣٨٠ ، ابن عساکر : تبين ، ص ٢١٨ ؛ المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ١٤٧ - ١٤٨ ، أبو الفدا : المختصر ، ٢ : ١٧٨ .

(٥) أنظر أبو المحاسن : النجوم ، ٤ : ١٢٤ - ١٢٥ ، ماجد : ظهور الخلافة ، ص ١٥٧ - ١٥٩ .

(٦) ابن خلدون : المقدمة : ٢٠٢ - ٢٠٨ .

(٧) كما عدوه أيضاً السلف الأول للسلطنة السلجوقية والزنكية والأيوبية على النوالى ، أنظر أبو المحاسن : النجوم ، ٥ : ٢٧٩ .

(٨) أنظر السيوطى : الوسائل ، ص ٧٨ ، القلقشندى : صبح ، ٥ : ٤٤٧ - ٤٤٨ ، ٩ : ٤٠٣ - ٤٠٤ .

ولكن منذ استقواء العنصر التركي السنى بالشرق الإسلامى ، شهدت الخلافة العباسية بالعراق صحوة سياسية جديدة رفع لواءها السلطان التركي محمود الغزنوى ، الذى مد نفوذه على أغلب أقاليم المشرق الإسلامى ، وكان أول من حمل لقب السلطان فى ديار الإسلام بصفة شرعية وباعتراف وتفويض من الخليفة العباسى^(١) ؛ وذلك بعد أن رفض فى سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م الاستجابة لدعوة الخليفة الفاطمى بالانضمام إليه^(٢) ، ونهض منذ سنة ٤١٢هـ/١٠٢١م باسم الخليفة العباسى ، وتفويض منه ، بحماية ألبويه الحج القادمة بالحجيج من أطراف ديار الإسلام إلى بلاد الحجاز ، وتأكيد زعامة لواء الحج العراقى الممثل للخليفة العباسى ، على جميع الروية الحجيج المثلة للملوك الأطراف المسلمين^(٣) ؛ ثم أعلنها حرباً لأهواودة فيها على الفرق الشيعية والكيانات السياسية للشيعية فى بلاد المشرق الإسلامى ، فعمل على الإطاحة بهذه الكيانات السياسية الشيعية والدعوة فى بلادها باسم الخليفة العباسى^(٤) ، ثم اضطرهاد الفرق الشيعية واستتابتها عن مذهب الشيعة ، وقد تم له ذلك فى سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م^(٥) . فكان السلطان محمود الغزنوى أول سلطان سنى ينتصر للخلافة العباسية ، وصارت أعماله نموذجاً يحتذى لجميع السلاطين السنيين بالشرق الإسلامى^(٦) ، السلاجقة ثم الزنكيين ثم الأيوبيين على التوالى .

وحين ورث سلاطين السلاجقة ، السلطنة الغزنوية وممتلكاتها فى بلاد المشرق الإسلامى ، وكان السلاجقة أيضاً أتراكاً متحمسين للمذهب السنى ؛ فقد أعلنوا بعد اتخاذهم من بغداد داراً لسلطنتهم ، وإعلان أنفسهم فى سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م - ٤٥٠هـ/١٠٥٨م سنداً للخلافة العباسية السنية^(٧) ، إن هدف سلطنتهم هو « إحياء السنة والمناضلة عن الملة »^(٨) ؛ وبعد أن حافظوا على رسوم الخلافة العباسية ، وعملوا على إحياء دولة الخلافة ونشر الدعوة السنية فى جميع ديار الإسلام ، وإظهار طاعتهم للخليفة العباسى ؛ عمدوا إلى ربط بيتهم ببيت الخلافة العباسية ، بروابط المصاهرة

(١) أنظر السيوطى : الوسائل ، ص ٧٨ ، المنبى : الفتح الوهمى ، ص ٢٠ - ٢٩ .

(٢) أنظر ابن الجوزى : المنتظم ٧ : ٢٦٢ ، ص ١٩ - ٢١ .

(٣) أنظر نفس المصدر ، ج ٨ : ص ٢ .

(٤) أنظر المنبى : الفتح الوهمى ، ص ٣٠ - ٣١ .

(٥) أنظر ابن الجوزى : المنتظم ، ٨ : ٣٨ - ٤٤ .

(٦) أنظر سيرة وترجمة السلطان محمود الغزنوى عند ابن خلكان : وفيات ، ٥ : ١٧٥ - ١٨٢ ، ابن الأثير : الكامل ، ٩ : ١٣٩ ، ابن الجوزى : المنتظم ، ٨ : ٥٢ ، القرشى : الجواهر المضية ، ٢ : ١٥٧ ، وأنظر سيرته موسعة بقلم العتبى مؤرخ دولته ، فى كتاب الفتح الوهمى .

(٧) أنظر ابن الأثير : الكامل ، ٩ : ٤٥٨ - ٤٥٩ ، ٦٠٩ - ٦١١ ، أبو الفدا ، ٢ : ١٨٢ - ١٨٥ .

(٨) ابن عساكر : تبين ، ص ١١ ، ص ٢ ، ص ١٠٧ ، ص ٧ .

والتسب ، بحيث « امتزجت » الدولتين العباسية والسلجوقية ، على حد قول المؤرخين^(١) ، وذلك إثر المصاهرات المتلاحقة بين البيتين السلجوقي والعباسي^(٢) .

وقد سعى السلاجقة إلى استرداد ممتلكات الخلافة العباسية ، التي كان قد ضمها الفاطميون إلى دولتهم^(٣) ، بادئين ببلاد الشام والجزيرة الفراتية ، التي كانت أكثر الأقاليم التي خضعت للخلافة الفاطمية قريباً من بلاد العراق^(٤) ، كما منح السلاجقة في إعادة الخطبة باسم الخليفة العباسي على منابر الحرمين الشريفين^(٥) ، وكذلك نجحوا في بعض الفترات ، في مد سيطرتهم السياسية على بلاد اليمن ، التي ظلت دائماً من أقوى معاقل الدعوة الفاطمية ، وأكثر أقاليم الخلافة الفاطمية ، ولاءً للخليفة الفاطمي^(٦) .

وصاحب هذا المد السلجوقي السني ، باسم الخلافة العباسية ، على بلاد المشرق الإسلامي ، خروج أهم ممتلكات الخلافة الفاطمية وأشدّها ارتباطاً بها عن دعوتها ، وعن تبعيتها لدولة خلافتها الشيعية ، وأعنى بهذا بلاد المغرب ، حين أعلن بنو زيري في سنة ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م في تقدير

(١) أنظر البنداري : تاريخ آل سلجوق ، ص ١١ ، الراوندي : راحة الصدور ، ص ١٧٦ - ١٧٩ .

(٢) كانت هذه المصاهرات كثيرة الحدوث ، أنظر ابن الأثير : الكامل ، ٩ : ٦١٧ ، ١٠ : ٢٥ سبط ابن الجوزي : مرآة ، ٨ : ٨ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ١١٢ ، ١١٦ ، ١٧٣ (مصاهرة مزدوجة) .

(٣) خطب امراء العرب بالشام ، وأهمهم بنو مرداس في حلب للخليفة العباسي سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م ، وخلصوا طاعة الخليفة الفاطمي ، وذلك بعد أن " رأوا إقبال دولة السلطان (السلجوقي) وقوتها ، وإقبال دعوتها " ، على حد قول ابن الأثير ، أنظر الكامل ١٠ : ٦٣ ، وأنظر أيضاً أبو الفدا : المختصر ، ٢ : ١٩٦ ، وما لبث السلاجقة بالشام أن نجحوا في استرداد أغلب ممتلكات الفاطميين الشامية مثل دمشق وحصن وبلاد الساحل ، حتى تم لهم ، " ملك الشام وما بأيدي خليفة مصر العلوي من بلاد " ، أنظر أبو الفدا : المختصر ، ٢ : ٢١٢ س ٨ - ٩ ، ابن القلائس : ذيل ١٢٢ - ١٢٥ .

(٤) يبدو أن ولاة الشام والجزيرة الفراتية ، قد تقلبوا في ولايتهم بين الخلافتين العباسية والفاطمية ، حتى قبل أن يُحكّم السلاجقة سيطرتهم على بلاد الشام ، فيذكر ابن الأثير أنه في سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م ، قطع صاحب حران والرقّة الخطبة العلوية وأقام الخطبة العباسية ، ثم أعاد الخطبة العلوية في نفس السنة ، أنظر ابن الأثير : الكامل ٩ : ٥٢١ - ٥٢٢ .

(٥) أنظر ابن الأثير : الكامل ، ١٠ : ٢١٤ ، ماجد : ظهور الخلافة ، ص ٢٢٤ ، ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(٦) أنظر الراوندي : راحة الصدور ، ص ٣٥٩ - ٣٧٠ ، مقدمة إقبال ، ص ٧ ، أبو الفرج ابن الجوزي : المنتظم ، ٩ : ٧٠ ، أبو الفدا : المختصر ، ص ٢١٣ ، ابن الأثير : الكامل ، ١٠ : ٢٠٣ - ٢٠٤ ، المقرئ : السلوك ، ١ : ٣٣ .

المؤرخين المشاركة^(١)، أو في سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م، كما يرجح الدارسون المحدثون^(٢)، الخطبة ببلاد أفريقية والمغرب الأوسط باسم الخليفة العباسي، مجاهرين بخروجهم عن طاعة الخليفة الفاطمي المصري، ودخولهم في طاعة الخليفة العباسي السنن العراقي؛ وما لبثت السيادة العباسية، أن عمت بلاد المغرب الإسلامي كله، بما فيها بلاد الأندلس، على يد دولة المرابطين، التي وحدت المغرب الإسلامي، وأغلب بلاد الأندلس تحت سيطرتها، فحين قامت هذه الدولة، أرسل أميرها يوسف ابن تاشفين، إلى الخليفة المستظهر بالله العباسي سنة ٩٨ هـ / ١٠٤٠ م، يخبره أنه قد خطب له بالمغرب ويطلب لنفسه التقليد والخلع من بغداد^(٣)، وقد ظلت الخطبة للخلافة العباسية على منابر المغرب والأندلس طوال عصر المرابطين^(٤)، الذين لم يتلقبوا بالسلطين، ولكن بـ «أمراء المسلمين»^(٥).

وعلى هذا الأساس، فقد أصبح الاتجاه السياسي والشرعي السائد في العالم الإسلامي، في القرنين الخامس والسادس الهجري، هو التبعية للخلافة العباسية السننية، على أساس أنها أقدم وأعرق خلافة إسلامية قائمة، وذلك بعد أن نجحت حركة الإحياء السلجوقي، في الاستيلاء على ممتلكات الخلافة الفاطمية الشيعية^(٦).

(١) أنظر ابن الأثير: الكامل، ٩: ٥٢١ - ٥٢٢، أبو الفدا: المختصر، ٢: ١٩٩.
 (٢) أنظر ماجد: ظهور الخلافة، ٢٥٣ - ٢٦١، الذي يقارن بين المؤرخين المشاركة والمغاربة وبين ما كتبه الرحالة.

(٣) أنظر سبط: مرآة، ٨: ١٣، أبو الفدا: المختصر، ٢: ٢٣٢.
 (٤) عبد الواحد المراكشي، ت ٦٤٧ هـ: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة ١٩٦٣ م، ص ١٤٧، الذي يقول: وأول دعاء دعي للخلافة العباسية - أبقاها الله - على منابر الأندلس في أيامهما (أى أبى يعقوب يوسف بن تاشفين وابنه على)، ولم تنزل الدعوة العباسية وذكر خلقائها على منابر الأندلس والمغرب، إلى أن انقطعت بقيام ابن تومرت على المصامدة؛ والطريف أن مؤرخي الأندلس، كانوا يقرون في تواريتهم، بتبعية بلاد الأندلس للخليفة العباسي بالعراق فكانوا يقسمون تواريتهم، على أساس تعاقب خلفاء بنى العباس، أنظر أبو الفدا: المختصر، ٢: ٢١٨، ص ٧، ترجمة ابن حميد الأندلسي.

(٥) المراكشي: المعجب، ص ٢٣٥، ص ٢ - ٣، ص ٢٤١، ص ٥.
 (٦) أنظر المؤيد الشيرازي: السيرة المؤيدية، ص ٩٤ - ٩٥، الذي يذكر أن السلاجقة، في سبيل تحقيق حلمهم في الاستيلاء على ممتلكات الخلافة الفاطمية وإسقاط دولتهم، قد تحالفوا معها مع الدولة البيزنطية؛ ويرى كامل حسين، أن كتب التاريخ لم تذكر شيئاً عن هذا التحالف، الذي تم بين السلاجقة والبيزنطيين لاقتسام ممتلكات الفاطميين، كما زعم المؤيد الشيرازي، أنظر محمد كامل حسين: مقدمة السيرة المؤيدية، ص ٢٣، ص ٩٥ هامش "١"؛ وأغلب الظن أن السلاجقة المجاهدين، الذين اكتسحوا البيزنطيين في موقعة ملا زكرت، واستولوا على أغلب ممتلكاتهم في آسيا الصغرى، لا يقدمون على هذا العمل الشائن إطلاقاً، وإنما هي العداوات السياسية والمذهبية والحيل والمهارات الإعلامية بين الدول، والمؤيد في السنين "داعية" سياسي ومذهبي أولاً وأخيراً؛ وفي نفس الوقت تؤيد ما ذهب إليه بعض الدارسين، من استبعاد إقدام الفاطميين على عقد معاهدة مع الدول البيزنطية ضد السلاجقة، رغم التعارض المذهبي بينهما، أنظر ماجد: ظهور الخلافة، ص ١٥٣، الإمام المستنصر، ص ٦٧، ٩٩.

وفى عهد السلطنة السلجوقية ، خطب باسم الخليفة العباسي ، فى بعض أقاليم ديار الحرب ، التى فتحتها سلاطين السلاجقة بسيوفهم ، مثل أطراف بلاد آسيا الصغرى ، حتى أن السلاجقة قد خطبوا لبنى العباس فى المسجد الجامع بالقسطنطينية ، عاصمة الدولة البيزنطية زعيمة العالم المسيحى آنذاك^(١) .

ولما آلت زعامة المشرق الإسلامى ، للسلطان السنى نور الدين زنكى ، الذى نجح فى ضم أغلب ممتلكات دولة سلاطين السلاجقة إلى دولته ، أظهر ولاءً متزايداً للخلافة العباسية ، بحيث وصف بأنه « كان يتدين بطاعة الخليفة العباسى »^(٢) ، وأنه « لم يكن يعمل شيئاً ، حتى يستأذن الخليفة »^(٣) ، اتخذ هذا السلطان التركي السنى ، من ولاءه للخليفة العباسى ، وجهوده فى نشر دعوته ، وسيلة لتوحيد الجبهة الإسلامية فى أقاليم المشرق الإسلامى لمحاربة الصليبيين بالساحل الشامى .

وفى عهد نور الدين زنكى ، وعلى يد أمرائه من بنى أيوب ، تم للخلافة العباسية أوج سعدتها وقام اتساع نفوذها ، حين قطع صلاح الدين الخطبة باسم الخلافة الفاطمية فى سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م وأعلن الخطبة على منابر مصر ، باسم الخليفة المستضىء بالله العباسى^(٤) .

(١) كان هذا فى بداية الأمر ، امتيازاً ودياً قدمه البيزنطيون للخلافة الإسلامية ، وتنافس فى التفرد به كل من الخلافة العباسية والفاطمية ، أنظر قبله ، ولكن أغلب الظن أنه أصبح حقاً مكتسباً للخلافة العباسية بحد السيف ، بعد الانتصار الحاسم الذى حققه السلاجقة على الجيوش البيزنطية فى موقعة ملازكرت الشهيرة ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م ، أنظر الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٨٨ - ١٩٠ ، الجوينى : غياث الأمم ، ص ٢٥٢ - ٢٥٥ ، ابن الجوزى : المنتظم ، ٨ : ٢٦٠ - ٢٦٥ ، ابن الأثير : الكامل ، ١٠ : ٦٥ - ٦٧ ، أبو الفدا : المختصر ، ٢ : ١٩٦ ، وقد ورث الأيوبيون عن السلاجقة ، حق الدعوة باسم السلطان الأيوبي والخليفة العباسى على منبر جامع القسطنطينية فى سنة ٥٨٥هـ ، أنظر بعده .

(٢) أبو الفرج بن الجوزى : المنتظم ، ١٠ : ٢٤٩ ، سبط ابن الجوزى : مرآة ، ٨ : ٣١٣ ، ص ٢ .

(٣) سبط ابن الجوزى : مرآة ، ٨ : ٢٨٢ ، ص ١٢ - ١٣ .

(٤) أنظر سبط : مرآة ٨ : ٢٥٨ ، ابن واصل : مفرج ، ١ : ٢٠٠ - ٢٠١ ، المقرئى : السلوك ، ١ : ٤٧ ، وخطورة هذا الحدث الجلل ، اختلف المؤرخون حوله ، إذ ذكروا أن صلاح الدين قد تهبب انتفاض المصريين عليه ، ولم يقدم على هذا الأمر ، إلا رجل أعجمى يعرب بـ " الأمير العالم " ، ولقد أفاد ابن الأثير ، أنه رأى هذا الرجل بنفسه بعد ذلك بالموصل ، أنظر الكامل ، ١١ : ٣٦٨ - ٣٧٣ ، وأيضاً الروضتين ١ : ١٩٤ ؛ أما ابن خلكان ، فهو يذكر أن من أقدم على قطع الخطبة صوفى فارسى اسمه الخيوشانى ، كان قد تحدى الخليفة الفاطمى العاضد قبيل زوال دولته بإظهار مثالبها ، أنظر وفيات ، ٣ : ١١١ ، ٤ : ٢٣٩ - ٢٤٠ ، سبط : مرآة ، ٨ : ٤١٤ - ٤١٥ ، وأنظر كذلك ابن الفرات - خ ، رقم ٢١١٠ تاريخ تيمور ، ٧ : ٨٢ - ٨٣ ، =

وهكذا تخضعت ظاهرة ظهور السلاطين والوزراء المفوضين ، من أرباب السيوف ، واستبدالهم بالسلطة الزمنية ، دون إخلاء أصحاب السلطة الشرعية في ديار الإسلام ، عن نتيجتين مختلفتين تمامًا: ففي العراق ، أدى ضعف العنصر الفارسي الشيعي ببلاد المشرق الإسلامي ، بعد زوال الدولة البويهية الشيعية التي تغلبت على الخلافة العباسية في القرن الخامس الهجري ، واستقواء العنصر التركي السني بظهور الغزنويين والسلاجقة والزنكيين ، إلى يقظة الخلافة العباسية ، وإحياء دولتها ، ونشر دعوتها في أغلب ديار الإسلام شرقًا وغربًا ، وبعث الهيبة الروحية للخليفة العباسي ؛ أما في مصر ، فإن نجاح أمراء السيوف السنيين في استحواد وزارة التفويض الفاطمية ، قد أدى إلى استهانة هؤلاء الوزراء السنيون بالخليفة الفاطمي والدعوة الفاطمية ، الأمر الذي مهد في النهاية للقضاء النهائي على الخلافة الفاطمية ، والخطبة على منابرها للخليفة العباسي ، وإعلان قيام السلطنة الأيوبية السنية بمصر ، بحيث أصبحت أغلب ديار الإسلام ، تدين بالولاء السياسي والروحي لخلافة إسلامية واحدة ، هي الخلافة العباسية بالعراق .

مصر الأيوبية إمارة استيلاء ودارًا للسلطنة السنية :

ومما لا شك فيه ، أن سقوط الخلافة الفاطمية بمصر سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م ، وقيام سلطنة سنية بها ، تدين بالولاء والتبعية الروحية للخلافة العباسية بالعراق ، ليعد حدثًا تاريخيًا بالغ الأهمية ، سواء بالنسبة لتاريخ الإسلام بصفة عامة ، أو لتاريخ مصر الإسلامية بصفة خاصة ، فقيام الدولة الأيوبية بمصر سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م ، تغيّر الوضع السياسي والشرعي لها ، تبعًا للدستور الإسلامي

٨ : ٢٥ ؛ أما الرسائل الفاضلية ، فقد أسندت هذا العمل لرسول الخليفة العباسي إلى صلاح الدين بمصر واسمه ابن أبي المضاء البعلبكي ، أنظر أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٣ - ١٩٥ ، وأنظر ترجمة ابن أبي المضاء ، عند ابن الديبشي : المختصر المحتاج إليه من تاريخ بغداد ، ١ : ١٤٢ ، الصفدي : الوافي ، ٤ : ٣٨٩ - ٣٩٠ ، في حين لدينا رواية غريبة أوردها المؤرخ الأندلسي ابن الأبار ، الذي أسند هذا الأمر إلى عالم يدعى اليسع بن عيسى الفافقي الجبالي الأندلسي ، أنظر ابن الأبار : تكملة الصلة ، ٢ : ٧٤٤ ، آيًا كان الأمر ، فقد حدثنا المؤرخ أبو الفرج ابن الجوزي ، المعاصر لهذه الأحداث ، عن رد الفعل العظيم لهذا النبأ في بغداد عاصمة الخلافة ، حتى أقدم هذا المؤرخ نفسه على تأليف كتاب سماه " النصر على مصر " ، أنظر ابن الجوزي : المنتظم ، ١٠ : ٢٣٧ ، وراجع بحث هام حول إعادة الخطبة العباسية إلى مصر ، عند أحمد تيمور : التذكرة الجيمورية ، ص ١٥٦ - ١٥٩ .

العام^(١) ، فبعد أن كانت مصر منذ الفتح العربي ، ولاية استكفاء إقليمية ، تابعة تبعية مباشرة للخلافة المركزية فى المدينة أو دمشق أو بغداد ، ثم ولاية استيلاء مستقلة ، منذ قيام الدولتين الطولونية والأخشيديّة ، ثم خلافة شيعية تطالب بأحققتها فى الطاعة و « الولاية » على جميع ديار الإسلام ، أصبحت مصر لأول مرة فى تاريخها الإسلامى سلطنة^(٢) .

لقد ناقش فقهاء ومؤرخو دساتير الإنشاء فى العصر المماليكى ، الأطوار المختلفة التى شهدتها الوضع السياسى والشرعى لمصر ، منذ الفتح الإسلامى لها ، ولاحظوا أن قيام السلطنة الأيوبية بمصر ، واعتراف الخليفة العباسى بها وإرساله التفويض الخليفى لسلطين بنى أيوب بمصر ، مع الخلع الخليفية ، قد جعل من مصر فى عصر بنى أيوب ، مقرّاً وداراً للسلطنة الأيوبية ، التى فوضها الخليفة العباسى سلطاته الشرعية ، فى جميع البلاد والممتلكات التى أمتد إليها النفوذ السياسى والعسكرى لسلطين بنى أيوب ؛ كما لاحظوا أيضاً أن السلطنة الأيوبية ، قد اختلفت عن كل من السلطنتين البويهية والسلجوقية ، بأن سلطين بنى بويه وبنى سلجوق ، قد تم تفويضهم السلطنة ومنحهم خلعها

(١) عن التفرقة بين " ولاية الاستكفاء " و " ولاية الاستيلاء " أنظر الماوردى : الأحكام السلطانية ٣٤ - ٣٨ ، ابن أبى يعلى : الأحكام السلطانية ٣٤ - ٣٨ ، الجوينى : غياث ، ١١٦ - ١١٩ .

(٢) لاحظ هذا مؤرخوا الإدارة المصرية فى العصر المماليكى ، حين درسوا فى دساتير دواوين الإنشاء ، تطور الوضع السياسى والشرعى لمصر ، منذ الفتح العربى حتى العصر المماليكى ، حين ناقشوا صحة تفويض السلطات الشرعية فى الديار المصرية ، أو حين ناقشوا اختلاف الوضع السياسى والشرعى لوظيفتى وزارة التنفيذ ووزارة الضيوض ، وتطابق وظيفة وزارة التفويض التى ظهرت فى العصر الفاطمى المتأخر منذ النصف الثانى من حكم الخليفة الفاطمى المستنصر بالله ، مع وظيفة السلطنة التى عرفت بالعراق فى العصرين البويهى والسلجوقى على التوالى ، ثم عرفت بمصر فى العصرين الأيوبي والمماليكى على التوالى أنظر القلقشندى : مآثر الإنافسة ، ج ٢ ، ص ٢٣٩ - ٢٤٠ ، القلقشندى : صبح ، ج ٢ ، ص ٤١٩ - ٤٣٥ ، ج ٩ ، ص ٣٩٨ - ٤٠٤ ، ج ١١ ص ٧٢ - ٧٣ ، الخالدى : المقصد العالى المنشأ الهادى إلى صناعة الإنشاء - خ ، بالمكتبة الأهلية بباريس برقم ١٥٧٣ عربى ، ومصور بدار الكتب المصرية برقم ٢١٠٣١ ، ج ١ ، لوحة ١٩٣ ب - ١٩٥ ، كما لاحظ هذا التحول الجوهري للوضع السياسى والشرعى لمصر الأيوبية الباحثون الذين درسوا نقوش الألقاب الرسمية لسلطين بنى أيوب ، كما وردت على آثارهم وعمائرهم . أنظر :

بمحضرة الخلافة ، أى فى بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، فى حين أن تفويض سلاطين بنى أيوب تم ببعض أطراف الخلافة العباسية وهى الديار المصرية ، وإن تطابقت الخلع الخليفية لكل من سلاطين بنى بويه وبنى سلجوق وبنى أيوب على التوالي^(١) .

ولقد أوضح مؤرخون ديوان الإنشاء فى العصر المالكي ، إن تفويض الخليفة الأمور فى البلاد والأقاليم إلى من يدبرها ويقوم بأعباءها على ثلاثة أقسام : القسم الأول ، وهو أعلاها « وزارة التفويض » ، والقسم الثانى ، « إمارة الاستكفاء » ، والقسم الثالث ، « إمارة الاستيلاء » ، وإن مملكة الديار المصرية ، من حين الفتح الإسلامى ، وهلم جرا إلى العصر المالكي ، دائرة بين هذه الأقسام ؛ وفى رأى هؤلاء المؤرخين أن الدولة الأيوبية كانت فى حكم « إمارة الاستيلاء » وأن ملوك مصر الأيوبيين صار لقب السلطان سمة لهم ، وذلك لبقاء الخليفة العباسى بالعراق فى بغداد دار

(١) يقول القلقشندى : وإما كيفية تولية الملوك والخلفاء وترتيبهم فى ذلك فله حالتان : الحالة الأولى ما كان الأمر عليه فى الزمن الأول والخلافة بالعراق والحال فيه مختلف ، فثارة تكون السلطنة التى تولى بمحضرة الخلافة ، كسلطنة بنى بويه وآل سلجوق وغيرهم ، وثارة تكون كبعض الأطراف ، كالديار المصرية حينئذ ونحوها . فإن كانت السلطنة بمحضرة الخلافة ، فقد جرت عاداتها فى ذلك أن يجلس الخليفة بمجلسه العام على كرسى عال ، ويحضر السلطان الذى تولى فيجلس على كرسى لطيف أمام كرسى الخلافة ، ويحضر أعيان المملكة ورؤساؤها ، ويخاطب الخليفة السلطان بالولاية على لسان الوزير ، ثم يخلع على السلطان خلعة الخلافة .. سجع جبات سود بزيق واحد ، وعمامة سوداء ، وطوق بطوق من ذهب ، وسور بسوارين من ذهب ، وأعطى سيفاً بغلاف من ذهب .. وفرس من اصطبلات الخليفة ، يركب من ذهب مقدس ، فهذا كان شأنهم فى تولية السلطنة بمحضرة الخلافة . وإن كان الذى يوليه الخليفة السلطنة من ملوك الأطراف ، جهز له التشريف من بغداد ، صحبة رسول من جهة الخليفة ، وبوجه أطلس أسود بطراز مذهب ، وطوق من ذهب يجعل فى عنقه ، وسواران من ذهب يجعلان فى يديه ، وسيف قرابة ملبس بالذهب ، وفرس يركب من ذهب ، وعلم أسود مكتوب عليه بالبياض اسم الخليفة ، ينشر على رأسه ، وصحبة ذلك تقليده بالسلطنة ، وربما جهز مع خلعه السلطان ، خلع أخرى لولده أو وزيره أو أحد أقاربه ، بحسب ما يقتضيه الحال حينئذ ؛ كما كان يُبعث مثل ذلك إلى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالديار المصرية ، ثم إلى أخيه العادل فمن بعده من ملوك بنى أيوب ، إلى أن كان آخر من وصل إليه ذلك منهم من بغداد الملك الناصر يوسف بن السلطان العزيز بن السلطان صلاح الدين عن المستعصم بالله فى سنة ٦٥٦هـ ، وكان من عاداتهم (أى ملوك بنى أيوب) فى ذلك ، أنه إذا وصل التشريف والتقليد إلى سلطان تلك الناحية ، أن يلبس السلطان الخلعة والعمامة ، ويتقلد السيف ، ويركب القرس ويسير فى موكب حتى يصل إلى مقر ملكه (انظر مآثر الإنافة ، ٢ : ٢٣٩ - ٢٤٠) .

خلافته ؛ أما بعد انتقال الخليفة العباسي إلى القاهرة في العصر المالكي ، واتخاذها منها داراً لخلافته ، أصبحت « سلطنة الديار المصرية مركبة من وزارة التفويض وإمارة الاستيلاء »^(١) .

كذلك لاحظ هؤلاء المؤرخون أيضًا ، ملاحظة على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لبقاء مصر طوال العصر الأيوبي في إطار التبعية السياسية والروحية لدولة الخلافة العباسية ببغداد ؛ إذ وصفوا ملوك بني أيوب بقولهم : وهم « أى بنى أيوب » ، وإن كانوا يدينون بطاعة خلفاء بني العباس ، فهم ملوك مستقلون ، وفي دولتهم زاد ارتفاع قدر مصر وملكها^(٢) .

(١) يقول القلقشندي : إن تفويض الخليفة الأمور في البلاد والأقاليم إلى من يديرها ويقوم بأعبائها على ثلاثة أقسام : القسم الأول ، وهو أعلاها " وزارة التفويض أنظر عنها صبح ، ج ٩ ص ٣٩٩ - ٤٠٠ ، والقسم الثاني : إمارة الاستكفاء ، أنظر عنها نفس المصدر ، ٩ : ٤٠٠ - ٤٠١ والقسم الثالث : إمارة الاستيلاء (أنظر عنها نفس المصدر ، ٩ : ٤٠١ - ٤٠٣ ، ومملكة الديار المصرية ، من حين الفتح الإسلامي وهلم جرا إلى زماننا دائرة بين هذه الأقسام الثلاثة ، فكانت في بداية الأمر إمارة استكفاء ، فلما استولى عليها الفاطميون واستوزروا أرباب السيوف في أواخر دولتهم وعظمت كلمتهم عندهم صارت سلطنتها وزارة تفويض ، وكان الخليفة يحتجب والوزير هو المتصرف في المملكة كالمملك الآن ، أو قريب منهم ، وكانوا يلقبون بالقباب الملوك الآن ، كالمملك الأفضل رضوان ، والمملك الصالح طلائع ، .. والمملك المنصور .. شيركوه ، وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب وزير العاضد .. قيل أن يستقل بالمملك ، ويخطب بالديار المصرية لبني العباس ببغداد ولما انتزعت من الفاطميين وصارت إلى بني أيوب ، وكانوا يلونها عن خلفاء بني العباس ، صارت إمارة استيلاء ، لاستيلائهم عليها بالقوة ، واستبدادهم بالأمر والتدبير ، مع أصل إذن الخليفة وتقليده .. ، فلما تغلب الملوك بالشرق على الخلفاء واستبدوا عليهم صار لقب السلطان سمة لهم مع ما يخصهم به الخليفة من ألقاب التشريف .. وهي على ذلك إلى زماننا ؛ إلا ما كان في زمن تعطيل جيد الخلافة من حين قتل التتار المستعصم آخر خلفاء بني العباس ببغداد ، إلى حين إقامة الخليفة بمصر في الدولة الظاهرية ببيرس ؛ على أن السلطنة الآن شيئاً من وزارة التفويض ، فإن الخليفة يفوض إليه في تقليده تدبير جميع المسالك الإسلامية بالتفويض العام ، لا يستثنى منها شيئاً .. ؛ وحينئذ فتكون سلطنة الديار المصرية الآن مركبة من وزارة التفويض وإمارة الاستيلاء (أنظر القلقشندي : صبح ، ج ٩ ، ص ٤٠٣ - ٤٠٤) .

(٢) قسم القلقشندي ، ولاة وملوك مصر في الإسلام على هذا النحو : الضرب الأول ، فيمن ولي نيابة ، وهو الصدر الأول ، وهم على ثلاث طبقات : الطبقة الأولى ، عمال الخلفاء من الصحابة ، الطبقة الثانية : عمال خلفاء بني أمية بالشام ، الطبقة الثالثة عمال خلفاء بني العباس بالعراق ، أنظر صبح ، ج ٣ ص ٤١٩ - ٤٢٤ ، الضرب الثاني : من وليها ملكاً ، وهم على أربع طبقات : الطبقة الأولى ، من وليها عن بني العباس قبل دولة الفاطميين (أنظر صبح : ٣ : ٤٢٤ - ٤٢٦) ، الطبقة الثانية من وليها من الخلفاء الفاطميين المعروفين بالعبيدين (أنظر نفسه ٣ : ٤٢٦ - ٤٢٧) ، الطبقة الثالثة : ملوك بني أيوب وهم إن كانوا يدينون بطاعة خلفاء بني العباس فهم ملوك مستقلون وفي دولتهم زاد ارتفاع قدر مصر وملكها (أنظر نفسه ج ٣ ص ٤٢٨ - ٤٢٩) الطبقة الرابعة ملوك الترك خلد الله تعالى دولتهم (أنظر نفس ، ج ٣ ص ٤٣٠ - ٤٣٥) .

وربما كانت هذه الأبحاث الفقهية والدستورية ، لمؤرخى دساتير الإنشاء فى العصر المماليكى ، وعلى رأسهم (القلقشندى والخالدى) متمثلة فى ذهن بعض المؤرخين المحدثين ، حين قارن بين استقلال كل من الدولة الأيوبية ، والدولة المماليكية الأولى بمصر المعروفة بدولة المماليك البحرية ، فقال : هناك فارق هام بين الدولتين ، وذلك إن الدولة الأيوبية رغم استقلالها ، كانت تدين بالولاء الروحى للخلافة العباسية .. ، فهناك إذاً نقص كان يشوب استقلالها .. ، أما الدولة المماليكية فقد عاصرت عند قيامها سقوط الخلافة العباسية ، وسعى سلاطينها حتى نجحوا فى نقل هذه الخلافة إلى مصر ، فتم لهم بهذا كل مظاهر الاستقلال^(١) .

والمواقع ، أن هدف مؤرخى دساتير الإنشاء فى العصر المماليكى ، من هذه الأبحاث الفقهية الدستورية ، الخاصة بمحققة الوضع السياسى والشرعى للسلطنة المصرية ، وتطور هذا الوضع فى العصرين الأيوبي والمماليكى ، هو فى الواقع تأكيد شرعية حكم المماليك بمصر ، على أساس أن السلطات التى خوّلت لسلاطين بنى أيوب ، ثم لسلاطين المماليك من بعدهم من قبل خلفاء بنى العباس قد أكدت « رجوع الولايات فى الديار المصرية إلى الطريق الشرعى »^(٢) ، وذلك لأن الخليفة هو صاحب السلطات الشرعية فى جميع ديار الإسلام ، لكون الخلافة هى وارثة النبوة^(٣) ، ورتب مؤرخو العصر المماليكى على مجتهم الفقهى فى مسألة « رجوع الولايات فى الديار المصرية إلى الطريق الشرعى » ، تخریجاً فقهياً هاماً وهو أنه حينئذ تكون جميع الولايات - أى الوظائف الحكومية الرسمية - الصادرة عن السلطان صحيحة شرعاً^(٤) .

نستخلص من هذه الأبحاث الفقهية الدستورية إذاً ، أن الوضع السياسى والشرعى لمصر الأيوبية كان وضعاً فريداً بالنسبة لجميع ملوك الأطراف فى ديار الإسلام ، إذ أصبح الملك الأيوبي بمصر ، سلطاناً لجميع ديار الإسلام لكونه مفوضاً بالسلطنة من قبل الخليفة العباسى ؛ ومن ثم فلقد أصبحت مصر ، لأول مرة فى تاريخها الإسلامى ، داراً للسلطنة السنية ، بعد أن كانت فى العصر الفاطمى داراً لخلافة شيعية .

(١) الشيال : مصر الإسلامية ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ١٤٤ .

(٢) راجع فضلاً هاماً ناقش فيه القلقشندى هذا الأمر فى صبح الأعشى ج ١١ ص ٧٢ - ٧٣ .

(٣) أنظر كتابنا مصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر الأيوبي ، الفصل الخاص بكتب الأحكام السلطانية والسياسية الشرعية ، تحت الطبع إن شاء الله تعالى ، وأنظر قبله هوامش الفصل الخاص بالقضاء على الدعوة الفاطمية ، وأنظر بعده الفصل الخاص بالسلطنة .

(٤) أنظر القلقشندى : صبح ، ج ١١ ، ص ٧٢ - ٧٣ .

وهنا نلاحظ أن أغلب الأجناس غير العربية ، التي اعتنقت الإسلام مثل الفرس والترك والکرد ، قد تولت أمداد الأمة الإسلامية ، بدماء فتية جديدة ، قامت بحماية نظام الخلافة الإسلامية ، الذى هو النواه الأولى والأساسية لمفهوم الدولة فى الإسلام ، والمستند أولاً على اشتراط العروبة والنسب القرشى للخليفة^(١) .

فحين ضعف نظام الخلافة الإسلامية ظهر نظام السلطنة ، وهو نظام عسكري^(٢) ، ظل مستمراً فى ديار الإسلام منذ القرن الخامس الهجرى أيام البويهيين ١١ م ، إلى القرن الثالث عشر الهجرى ١٩ م أيام العثمانيين ، وكان من نصيب الأجناس غير العربية حديثى العهد بالإسلام ، فكان بنو بويه من الفرس ، والغزنويين والسلاجقة والزنكيون من الترك ، والأيوبيون من الأكراد ؛ ثم ظلت السلطنة مستمرة فى الأجناس الأعجمية فكان سلاطين الدولة المملوكية الأولى بمصر أغلبهم من عنصر القفجاق المغولى ، وكان سلاطين الدولة المماليكية الثانية أغلبهم من العنصر الجركسى التركى^(٣) ، وكان سلاطين العثمانيين ، الذين تلقبوا بالخلفاء بعد نقل مقر الخلافة إلى عاصمتهم استانبول أيضاً من الترك^(٤) .

(١) أنظر عن الخلافة وشروطها الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص ١ - ٢٠ ، ابن ابى يعلى ، الأحكام السلطانية ص ١٩ - ٢٠ ، النونجى : فرق الشيعة ، ص ٨ ، المسعودى : مروج الذهب ٣ : ٢٦٦ - ٢٣٩ ، الشيخ المفيد : أوائل المقالات ص ١ - ١٠ ، ابن أبى الحديد : شرح نهج البلاغة ، ١ : ٧ - ١٠ ، الملتقى التبييه والرد ٥٣ - ٥٥ ، الأشعرى : مقالات الإسلاميين ، ص ١٠ - - ٣٠ ، ص ٦٥ ، البغدادي : الفرق بين الفرق ، ص ٢٢ - ٢٥ ، الجوينى غياث الأمم ص ٦٠ - ٧٣ .

(٢) أنظر قبله وبعده .

(٣) أنظر محمد مصطفى زيادة : بعض ملاحظات جديدة ، فى تاريخ دولة المماليك ، مجلة كلية الآداب ، جامعة فؤاد الأول ، المجلد الرابع ، الجزء الأول ، مايو ١٩٣٦ ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٣ م ، ٧١ - ٨٨ .

(٤) الواقع أن الخلافة العثمانية التى وحدت العالم الإسلامى طوال أربعة قرون (من ق ١٣ هـ / ١٣ م هـ) لم تكن خلافة فى حقيقة الأمر ، لأن بنى عثمان لم تتوفر فيهم شروط الخلافة ، التى اشتراطها جميع فقهاء الإسلام - عدا الخوارج - وأهمها النسب القرشى ، ومع ذلك فقد قام الأتراك العثمانيون السنيون بعد ميراثهم لسلطنة المماليك بمصر التى وصفها ابن أياس بقوله : كان سلطان مصر ، أعظم السلاطين فى سائر البلاد قاطبة لأنه خادم الحرمين الشريفين وحاوى ملك مصر ، أنظر بدائع الزهور ج ٥ ، ص ٢٠٦ ، تحقيق محمد مصطفى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م ، وميراثهم أيضاً للألقاب السلطانية لسلاطين المماليك بمصر (أنظر ابن إياس ، نفس المصدر ، ج ٥ ، ص ١٥١ ، وقيامهم بأعباء الخلافة الإسلامية ، من توحيد كلمة المسلمين ونشر الإسلام فى الأراضين وتطبيق نظم وشريعة الإسلام ، وحماية الحرمين الشريفين خير قيام (أنظر التفصيل عبد العزيز الشتاوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٨١ م ، (ج ١ - ٥) . ولا ريب فهم من غرس سلاجقة الروم (أنظر فؤاد كبرى : قيام الدولة العثمانية ترجمة د. أحمد السعيد سليمان ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٦٧ م) آخر فرع من البيت السلجوقى نهض بأعباء السلطنة . وفى رأينا أن الخلافة العثمانية ، كانت آخر سلطنة عامة شهدتها العالم الإسلامى ، إذ مزج العثمانيون بذكاء سياسى جدير بالإعجاب ، بين وظيفتى =

ولقد أدرك المؤرخ الكردي البديسي ، الذى أرخ لتاريخ أبناء عشيرته الأكراد ، الأهمية العظمى فى تاريخ الإسلام ، وفى تاريخ العنصر الكردي ، بتوليهم السلطنة فى ديار الإسلام تفويضاً من الخليفة العباسى ، فتبع البديسى أنساب العشائر الكردية ، وأشاد بدورها فى تاريخ الإسلام ، وأوضح حماسة الأكراد للمذهب السنى ، كما أرخ للدويلات الكردية التى قامت عبر التاريخ الإسلامى ، مميّزاً منها من طمع ملوكها إلى رتبة السلطنة ، خاصة من مؤسسى هذه الدويلات الكردية التى كان أقواها الدولة المروانية والشدادية ، ثم اختتم كتابه بذكر « سلاطين بنى عثمان العظام » سلاطين عصره^(١) ؛ وهذا ما يفسر إطلاق مؤرخى مصر الإسلامية ، اسم « الدولة الكردية »^(٢) ، على الدولة الأيوبية .

ولا ريب أن قيام خلافة بمصر ، دامت قرنين من الزمان (ق ٤ - ٦ هـ - ١٠ - ١٢ م) وعرفت عند مؤرخى العراق والشام بـ « الخلافة المصرية »^(٣) ، قد مهد لمصر ولبنى أيوب ، فى القرنين الـ ٦ والـ ٧ الهجرى ١٢ - ١٣ م ، الأضطلاع بمسئولية السلطنة العامة واعتراف أغلب ملوك الأطراف بهذه السلطنة ، بحيث صار السلطان الأيوبي يلقب بـ « سلطان الإسلام والمسلمين »^(٤) .

= الخلافة والسلطنة ، وذلك بعد أن حرصوا كل الحرص بعد فتحهم لمصر ، على بعث هبة الخليفة العباسى بها ، تمهيداً لإعادة السلطات الروحية ، والزمنية لخليفة المسلمين ، فأصطحبوا معهم الخليفة العباسى إلى القسطنطينية ، ثم ادعوا أنه تنازل عن الخلافة لآل عثمان (أنظر ابن أياس : بدائع الزهور ، ٥ : ٢٢٩ - ٢٣٢ ، ٢٧٢ ، ٣٨٨ - ٣٨٩ ، ٣٩٠ - ٣٩٢) وإن ظل زعيم آل عثمان يعرف فى العالم الإسلامى وأوروبا بـ " السلطان " طوال العصر العثمانى (أنظر الجبرتى : عجائب الآثار ، تحقيق عمر الدسوقي ، القاهرة ١٩٦٥ ، ٤ : ٢٨٥ ، ٢ - ٣ ، ٤ : ص ٢٨٩ ، ١٥ - ٢١ (نص مرسوم نابليون الذى فرقه على المصريين بعد دخول الحملة الفرنسية مصر) ؛ والجدير بالذكر أنه على يد سلاطين العثمانيين تم حلم الإسلام الحربى الكبير بسقوط القسطنطينية والقضاء على الدولة البيزنطية زعيمة العالم المسيحى وذلك فى ق ٩ هـ / م ١٥ .

(١) أنظر البديسى : شرفنامه ، ألفه بالفارسية ، ترجمة إلى العربية عمده على عوىلى ، راجعه وقدم له يحيى الخشاب الجزء الأول دار إحياء الكتب العربية ص ١٣ - ١٤ ، وأنظر على الخصوص ص ٥٦ - ٧٩ الفصل الخامس الذى عنوانه بـ « ذكر سلاطين مصر والشام »

(٢) يسمى المقرئى بنى أيوب الملوك الأكراد الأيوبية ويسمى المماليك السلاطين المماليك التركية والجركسية أنظر السلوك ١ : ٨ ص ٥ ، وأنظر ابن أبى الفوارس : تاريخ دولة الأكراد والأتراك ، مصور بمعهد المخطوطات برقم ٨٩٤ تاريخ .

(٣) أنظر سبط : مرآة ٨ : ٢٩١ ، ابن شداد : النوادر ص ٣٦ المنبرى : التكملة ٥ : ٤ ص ٢ ، أبو الفدا : المختصر ، ٢ : ١٧٥ آخر سطر ، ٢ : ١٨٥ ص ٨ ، ٢ : ٢١٩ - ٢٢٠ .

(٤) أنظر بعده الفصل الخاص بالسلطنة .

ولعل تفرد بنى العباس بالخلافة فى العالم الإسلامى ، بعد سقوط الخلافة الفاطمية ، هو الذى أوحى إلى مؤرخى العراق ومصر ، فى القرنين السادس والسابع الهجرى ، بتأليف مؤلفات مفردة لتأريخ الخلافة الإسلامية منذ قيامها ، وأخبار خلفاء بنى العباس بصفة خاصة ؛ وكان هؤلاء المؤرخون قد اطلعوا على لوح الغيوب ، فراح العراقيون يرثون قرب زوالها من بغداد ، وراح المصريون يحدون انتقالها إلى مصر^(١) .

إحياء الأيوبيين لدولة الخلافة العباسية :

ولا ريب ، أن السلطنة الأيوبية بمصر ، قد استطاعت فى نهاية القرن السادس الهجرى ومطلع القرن السابع الهجرى إحياء النفوذ السياسى لدولة الخلافة العباسية ، فى أغلب أرجاء بلاد المشرق الإسلامى ؛ فبعد قضاء الأيوبيين على الخلافة الفاطمية بمصر ، سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١ نجحوا فى سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م ، فى فتح بلاد اليمن ، وكانت تعد من أقدم وأقوى معاقل الدعوة الفاطمية ، واستطاعوا القضاء على الداعى الفاطمى بها عبد النبى بن مهدى ، وخطبوا لبني العباس على منابر اليمن^(٢) ؛ ومن اليمن مدوا نفوذهم إلى الحرمين الشريفين ، وخطبوا على

(١) أنظر ابن دحية الكلبي ت ٦٣٣هـ / ١٢٣٥م : النبراس فى خلفاء بنى العباس ، طبع بغداد ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م ، وكان مؤلفه وهو أندلسى قدمه سنة ٦١٣هـ / ١٢٣٥م ، إلى ولى العهد فى الدولة الأيوبية بمصر ، وهو الكامل بن العادل ، ابن أبى السرور السروجى ت ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م : بلغه الظرفاء فى ذكر تواريخ الخلفاء ، طبع مطبعة النجاح بمصر ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩ ، ابن السامى ت ٦٧٤هـ / ١٢٧٥م : مختصر أخبار الخلفاء ، طبع بولاق بمصر ١٣٠٩هـ . وعن انتقال الخلافة من العراق إلى مصر أنظر المقرئى : السلوك ١ : ٢٢ ، وعن سيطرة المماليك بمصر على الخلافة واتخاذ الظاهر بيبرس للقب " قسيم أمير المؤمنين " أنظر ابن أبيك : الدرر الزكية ، ص ٤٩ ، المقرئى : السلوك ١ : ٤٤٧ ؛ ولقد ألف مؤرخو العصر المماليكى فى أخبار الخلافة العباسية ، أنظر السخاوى : عمدة الناس فى مناقب سيدنا العباس ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٥٦٩ تاريخ ، السيوطى تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ، القاهرة ١٣٥١هـ ، وأنظر أيضا تبعاً لتاريخ الخلافة الإسلامية من وجهة النظر الفقهية الشرعية والسياسية ، حتى العصر المماليكى ، القلقشندى : مآثر الإنافة فى معالم الخلافة ، الكويت ، ١٩٦٤م ، (ج ١ - ٣) .

(٢) أنظر سبط : مرآة ، ٨ : ٢٩٩ و ٣٠٠ - ٣٠١ ، المقرئى : السلوك ١ : ٥٣ ، عمارة اليمنى : المقيد فى أخبار صنعاء وزيد ، تحقيق حسن سليمان محمود ، القاهرة ١٩٥٧ ، عمارة اليمنى : النكت العصرية ، ص ٣٥٢ - ٣٥٥ ، ابن أبى حاتم : السمط الغالى الثمن فى أخبار الملوك الغر باليمن ، تحقيق زكى سميس ، جامعة كمبردج ، ١٩٧٣ ، ابن سمرة الجعدى : طبقات فقهاء اليمن ، تحقيق فؤاد سيد ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ، ص ١٨٤ ، ٢٠٤ ، ٢١٩ ، ٢٤٢ ، باخرمه : تاريخ نجر عدن ، تحقيق أدولف لو فجرين ، طبع ليدن ، ج ١ ، ص ١٢٧ - ١٢٨ ، ابن الأثير : الكامل ١ : ٣٩٦ - ٣٩٧ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٢١٦ - ٢١٧ ، ٢٣٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ١ : ٢٣٧ - ٢٤٣ .

منابرهما لخليفة بغداد^(١)، الذى اكتمل له بهذا الأمر مظاهر نفوذه الروحى فى العالم الإسلامى ، لكونه أصبح حامى حمى الحرمين الشريفين ، بعد تفرد الخلافة الفاطمية بهذا الأمر دون بنى العباس لفترة طويلة^(٢) .

وثمة عدة إشارات ذكرها المؤرخون المصريون واليمنيون والشوام المعاصرون للفتح الأيوبى لليمن^(٣)، توضح أن هذا الفتح كان خطوة أيديولوجية للإجهاز على الدعوة الفاطمية هدف إليها السلاجقة^(٤) ثم الزنكيين^(٥) ونفذها بنو أيوب ، ولم يكن مجال من الأحوال تأييداً لاستقلال الأيوبيين عن نور الدين زنكى^(٦)، أو لهدف استراتيجى عسكري ضد أطماع الصليبيين فى البحر الأحمر كما ذهب بعض المؤرخين المحدثين^(٧)، خاصة وقد حرص الأيوبيون عند فتحهم لليمن على إدخال كتب الدعوة الأشعرية مع جيوشهم ، والعمل على نشرها فى بلاد اليمن^(٨)، وذلك للقضاء على كتب الدعوة الشيعية هناك ، مثل كتب المعتزلة والزيدية والفاطميين التى كات قد اجتلبت إلى بلاد اليمن من بلاد الجليل والديلم فى عهد ائمة اليمن الزيدية ، وإبان سيطرة النفوذ الفاطمى على بلاد اليمن^(٩) .

واستكمالاً للقضاء على آخر معاقل المقاومة الفاطمية ، وأعنى الدعوة السنانية النزارية ببلاد الشام ، حاصر صلاح الدين قلعة السنانية بمصياب سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦م^(١٠)، حصاراً قوياً أرغمهم بعده على التوقيع فى جبالهم الوعرة ، وتوقيع صلحاً مع صلاح الدين ، يقضى بتعاون الطرفين على قتال الفرنج^(١١) .

- (١) أنظر ابن جبير : الرحلة ، ص ٧٣ ، ابن القوطى : الحوادث الجامعة ، ص ٤٢ .
- (٢) أنظر جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٥٩م .
- (٣) أنظر على الخصوص سبط : مرآة : ٨ : ٢٩٩ و ٣٠٠ - ٣٠١ ، باخرمة : تاريخ ثغر عدن ، ص ١٢٧ - ١٢٨ .
- (٤) أنظر قبله نفس هذا الفصل .
- (٥) أنظر سبط : مرآة : ٨ : ٢٩٩ و ٣٠٠ - ٣٠١ .
- (٦) أنظر ابن الأثير : الكامل ، ١ : ٣٩٦ - ٣٩٧ .
- (٧) أنظر الشيبالى : تاريخ مصر الإسلامية ، ١ : ٣٦ - ٣٩ .
- (٨) أنظر يحيى بن الحسين : أنباء الزمن فى تاريخ اليمن - خ ، نسخة دار الكتب المصرية رقم ١٣٤٧ تاريخ ، ورقة ٢٢٣ - ٢٢٤ ، وأنظر قبله الفصل الخاص بإعادة الشعائر السنانية إلى مصر ونشر الدعوة الأشعرية بها .
- (٩) أنظر فؤاد سيد : مقدمة كتاب فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ، للقاضى عبد الجبار الهمدانى ، طبع تونس .
- (١٠) أنظر ابن العديم : زيد الخلب ، ٣ : ٣٢ - ٣٤ ، سبط : مرآة : ٨ : ٣٢٩ ، ٣٣٥ ، المقرئى : السلوك ، ١ : ٦٣ ، وأنظر قبله الفصل الخاص بالقضاء على الدعوة الفاطمية .
- (١١) أنظر أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٦٩ - ٦٧٠ .

ومن ناحية أخرى استطاع الأيوبيون ، بعد جهود دامت حوالي خمسة عشر عامًا (٥٦٨هـ / ١١٧٢م - ٥٨٣هـ / ١١٨٧م) إعلان الخطبة للخليفة العباسي على منابر القيروان بعد انتزاعها من يد الخليفة ابن عبد المؤمن الموحدى^(١) ، ذلك لأن الدولة الموحدية ، كان أمراؤها من بنى عبد المؤمن قد أعلنوا الخلافة لأنفسهم^(٢) ، فتلقب أمير الموحدين بـ « سيدنا ، ومولانا الخليفة ، أمير المؤمنين »^(٣) ، وعرفت دولتهم في وثائقها الرسمية بـ « الدولة السعيدة والخلافة الحميدة »^(٤) ، رغم عدم توفر شروط الخلافة في أمراء الموحدين لكونهم من البربر^(٥) ، ومن هنا جاء موقف سلاطين بنى أيوب العدائي من الخلافة الموحدية ، إذ كان الأيوبيون يسعون لإحياء دولة الخلافة العباسية ، في حين كان الموحدون يسعون لقيام خلافة إسلامية جديدة مستقلة ببلاد المغرب والأندلس .

والجدير بالذكر أن بعض فقهاء الأشاعرة ، الذين أخذ الموحدون بدعوتهم السياسية ، قد أجازوا تعدد الخلافة في حالة بُعد الشقة ما بين الخلافتين القائميتين في ديار الإسلام^(٦) ، واتساع خطة

(١) تم هذا بعد ضم الأيوبيين لإقليم برقة أثر حملات قراقوش التقوى على المغرب الأوسط ، أنظر ابن شاهنشاه : مضمار الحقائق ، ص ٣٤ ، ٣٨ ، ٥٣ - ٥٧ ، ٦٧ - ٧٣ ، ١٦٤ - ١٦٨ ، ٢٠٢ - ٢٠٤ ، ٢٢٩ - ٢٣٠ ، ابن الأثير : الكامل ، ١ : ٣٨٩ ، ٤٦٧ - ٤٨٦ ، ٥١٩ - ٥٢٢ ، ٥٢٣ - ٥٢٤ ، ابن شداد : النوادر ، ص ٧٣ - ٧٤ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٤٢ - ٢٦٠ ، ٢٦٩ - ٢٧٠ ، ٢ : ١٦ ، ٢٧ ، ٣٨ ، ابن واصل : مفرج ، ١ : ٢٣٦ وهامش " ٤ " ، ٢ : ١٨٠ - ١٨٢ ، المراكشي : المعجب ص ٣٤٩ - ٣٥٠ . وأنظر بعده .

(٢) أنظر كتاب مؤرخهم عبد الملك الباجي الشهير بابن صاحب الصلاة ، ت ٥٧٨هـ / ١١٨٢م : تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين ، بأن جعلهم الله أئمة ، وجعلهم الوارثين ، وظهور المهدي بالموحدين ، نشر عبد الهادي التازي ، بيروت ١٩٦٤م .

(٣) أنظر كتاب مؤرخهم ابن القطان : نظم الجمان ، تحقيق محمود مكي ، المطبعة المهدية بطنوان ، د. ت. ص ١٣٠ ، في حين يطلق المؤرخ العراقي الشامي ، سبط ابن الجوزي ، على ابن عبد المؤمن لقب " أمير المؤمنين " ، ولا يلقبه بالخليفة ، أنظر امرأة ٨ : ٣٨٤ ص ٢ ، ٤٤٦ - ٤٤٩ ، ٤٦٤ - ٤٦٧ ، وعلى العكس ، أنظر إشارة ابن جبير الأندلسي بدعوة الموحدين وتمنيه سيطرتها على مكة نفسها ، ابن جبير : الرحلة ص ٥٥ - ٥٦ ، وأنظر سخريته من " احتجاج " خلفاء بنى العباس ، الرحلة ، ص ٢٠٢ .

(٤) أنظر ابن القطان : نظم الجمان ، ص ١٧٨ ، ٤ .

(٥) هذا ما يؤكد عنوان كتاب مؤرخهم ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين .. إلخ .

(٦) أنظر أبو بكر الصنهاجي ، ت ٦ هـ : أخبار المهدي ابن تومرت ، وابتداء دولة الموحدين ، نشر ليفي برونفسال ، باريس ١٩٢٨م ، وأنظر ابن القطان : المصدر السابق ، ص ١٦ وهامش " ٥ " ، وأنظر المراكشي : المعجب ص ٢٤٥ - ٢٥١ .

الإسلام ، ووجود ديار للإسلام متفرقة فى جزائر البحر ، أو خلف دار الكفر ، بحيث تحجب دار الحرب ، نظر الإمام عن هؤلاء المسلمين^(١) ، وكان هذا ينطبق على دولة الموحدين الذين تولت جهاد حركة الاسترداد المسيحى Reconquista بالمغرب والأندلس ، وهذا ما دعى أمراء الموحدين على تلقيب أنفسهم بالخلفاء ، رغم أنهم فى الواقع سلاطين لا تتوفر فيهم شروط الخلافة ، أما سلاطين بنى أيوب ، فرغم أنهم من أنصار الدعوة الأشعرية أيضًا^(٢) . إلا أنهم فى عدائهم للدولة الموحدية نظروا أولاً إلى مصلحة دولتهم التى استمدت سطوتها السياسية من الخلافة العباسية ، ونظروا ثانيًا إلى مصلحة العالم الإسلامى فى الوحدة حول خلافة واحدة ، هى أقدم خلافة إسلامية قائمة فى ديار الإسلام ، وهى المتمثلة فى الخلافة العباسية بالعراق ؛ وهذا ما أجمع عليه أغلب الفقهاء الدستوريون^(٣) وإن كان هذا لم يمنع فيما بعد ، من تقارب كل من الدولتين الأيوبية والموحدية ، ومحاولة عقد تحالف بحرى فيما بينهم لقتال القوى الصليبية فى البحر المتوسط^(٤) .

وما لبثت جهود الأيوبيين ، فى إحياء دولة الخلافة العباسية ، أن تمخضت عن حدث ذو أهمية سياسية ومذهبية كبرى ، وهو وصول سفير من قبل جلال الدين حسن صاحب حصن الموت ، أقوى معاقل الشيعة النزارية بإيران إلى بغداد فى سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م ، يخبر الخليفة العباسى ، بأنهم تبرعوا من الدعوة الباطنية الشيعية وأعادوا الشعائر السنية إلى مساجدهم وجوامعهم ، فبسر الخليفة والناس بذلك^(٥) . ولا شك أن هذا الحدث كان يعنى اجتماع السنة والشيعة فى العالم الإسلامى ، تحت راية خلافة إسلامية واحدة ، هى خلافة بنى العباس ، ولا ريب أن هذا قد تم بعد أن سُدَّت أمام دعاة الشيعة الإسماعيلية المسالك وصم المسلمون آذانهم عن دعوتهم ، بعد أن ترددت فى أرجاء ديار الإسلام ، أصدااء نداءات صلاح الدين والخلافة العباسية ، داعية إلى وحدة المسلمين ، للجهاد فى سبيل الله ضد الصليبيين .

(١) أنظر الجوينى : غياث الأمم ، ص ١٢٦ - ١٣٢ .

(٢) أنظر قبله الفصل الخاص بإعادة الشعائر السنية إلى مصر .

(٣) قال أغلب الفقهاء ، بضرورة تنازل الخليفة الجديد للخليفة القائم لجمع شمل المسلمين أنظر الماوردى :

الأحكام ، ص ٧ - ٨ ، ابن أبى يعلى : الأحكام ، ص ٢٢ - ٢٥ .

(٤) أنظر بعده الفصل الخاص بالسلطنة .

(٥) أنظر أبو المحاسن : النجوم ، ٦ : ٢٠٣ .

وظل الاتجاه السائد ، طوال القرن السابع الهجرى ، هو وحدة العالم الإسلامى حول الخلافة العباسية^(١) ، بحيث أصبحت فكرة قيام خلافة أخرى ، أمراً مستهجناً من مؤرخى المشرق الإسلامى^(٢) .

نهوض الأيوبيين بفریضة الجهاد :

آلت القيادة السياسية والعسكرية فى بلاد المشرق الإسلامى إذا إلى بنى ایوب ، منذ الربع الأخير من القرن السادس الهجرى ، بعد أن ورثوا ممتلكات الفاطميين بجنوب الشام والحجاز واليمن وبرقه ، وممتلكات الزنكيين فى الموصل والجزيرة الفراتية وشمال الشام ؛ كما أمتد نفوذهم السياسى والعسكرى ، إلى أقاليم مشرقية لم يمتد إليها من قبل نفوذ أى دولة حكمت مصر الإسلامیة ، بما فيها الخلافة الفاطمیة ذاتها ، أعنى إقليم أرمينية الإسلامیة ، أى أرمينية الصغرى ، وهى بلاد خلاط

(١) أنظر خبر سفارة سلطان غزنة والهند إلى الخليفة العباسى ببغداد سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م يعلن خضوعه وولاه للخلافة العباسیة (أبو المحاسن : النجوم ، ٦ : ٢٠٣) .

وراجع كتاب ابن النساخ الى أرسله إلى صاحب بغداد أمير المؤمنين الناصر لدين الله أحمد . وابن النساخ هو الفقيه حسن بن محمد أحد علماء المطرفیة الزیدیة باليمن ، من رجال أوائل القرن السابع . وقد كتب هذه الرسالة ، بسبب ما تعرضت له هذه الفرقة من حرب الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة إمام الزیدیة باليمن المتوفى سنة ٦١٤هـ لهم ، وما تعرضوا له من اضطهاد وتشريد ، وحكمه عليهم بالكفر والخروج عن الملة . وأول الكتاب . السلام عليك أيتها المنازل المقدسة بالأکیاس المطهرة من الأدناس .. إلخ يطلب فيه من الخليفة إطفاء فتنة تأججت فى اليمن ، وقد أذكى وقودها القائم (فى اليمن) من بنى الحسن (وهو الإمام المنصور المذكور) . ومن هذا الكتاب نسخة بمكتبة الأمیروزیانا ، فى ثلاث ورقات ، برقم E33 ؛ ونسخة أخرى بدار الكتب الوطنیة ببيروت . والنسختان مصورتان بمعهد المخطوطات برقم ١١٧٨ تاریخ ، راجع فؤاد سید : فهرس المخطوطات المصورة ، ج ٣ ، ق ٣ ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣ ، وأنظر يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ، ورقة ٦٨ ب ، من نسخة دار الكتب المصریة رقم ١٣٤٧ تاریخ ؛ وأنظر السید محمد زیادة فى كتابه : أئمة اليمن ، ص ١٣٦ ، طبع صنعاء ١٩٥٢م .

(٢) يذكر ابن الفوطى أنه فى سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م ، وصل رسول من محمد بن يوسف ابن هود إلى بغداد يخبر باستيلائه على معظم بلاد المغرب واستعادتها من أيدي غصابها بنى عبد المؤمن وإقامة الدعوة بها للدولة العباسیة ، أنظر الحوادث الجامعة ص ١٦ - ١٧ ، فى حين يذكر سبط ابن الجوزى فى حوادث سنة ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م عند حديثه عن قيام الدولة الخفصیة التى ورثت الدولة الموحدية بشمال إفريقيا أنه : فيها وصلت الأخبار باستيلاء إنسان على إفريقيا وادعى الخلافة وتلقب بالمستصر وخطب له فى تلك الضواحي وأظهر العدل والإنصاف ، أنظر سبط : مرآة ٨ : ٧٩١ ، والطريف أن مؤرخى الدولة الخفصیة قد ذكروا أنه فى سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م ، التى انقضت فيها الخلافة العباسیة ببغداد ، وصلت من مكة بيعة بالخلافة للخليفة المستصر الخفصى ، أنظر الزركشى : تاریخ الدولتين الموحدية والخفصیة ، تحقيق محمد ماضور ، المكتبة العتیقة بتونس ١٩٦٦م ، ص ٣٤ - ٣٧ .

وميفارقين ونواحيهما ، وتاخذت ممتلكاتهم بشمال الشام والجزيرة الفراتية ممتلكات دولة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى ، والدولة الخوارزمية بإيران^(١) .

ومنذ وطد الأيوبيون أقدامهم في حكم مصر ، وتوجيه من نور الدين زنكى ، سلطان الشام والجزيرة الفراتية ، والزعيم السياسى للشرق الإسلامى فى ذلك الوقت ، قام الأيوبيون بإرسال حملة من مصر فى سنة ٥٦٨هـ / ١١٧٢م لغزو مملكة النوبة المسيحية ، أغلب الظن لفتح بلاد النوبة وضم هذه المملكة المسيحية إلى مصر ، وتأمين الحدود الجنوبية للديار المصرية ، ونشر الإسلام فى هذه المملكة المسيحية ، إذ كان أهل النوبة نصارى يعقوبية ؛ وإذا كانت هذه الحملة الأيوبية على بلاد النوبة ، لم تكمل كلياً بالنجاح ، إلا أنها قد حققت بعض الانتصارات العسكرية ، فعادت بأعداد كبيرة من الأسرى والعبيد ، وساعدت على تقوية النفوذ السياسى والعسكرى لمصر على حدودها الجنوبية ، كما تمخضت أيضاً عن بناء بعض التحصينات والقلاع على هذه الجهة ، التى ظلت منذ الفتح الإسلامى فى حكم المهادين من أهل العهد ، بواقع معاهدة البقط التى وقعها المسلمون مع أهل النوبة بعد فتح مصر . ولقد أرسل نور الدين زنكى ، يهنئ الخليفة العباسى بأن نوابية بمصر وقواده بنى أيوب قد وصلوا فى غزوهم للنوبة إلى أراضى لم تطأها من قبل سنايك الخيل الإسلامية ، كما راح نور الدين يبشر الخليفة العباسى ، بأن فتح القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية زعيمة العالم المسيحى ، سيكون قريباً^(٢) .

(١) أنظر زانباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ، ترجمة زكى محمد حسن وآخرين ، القاهرة ١٩٥١م ، ١ : ١٥٠ - ١٥٥ ، لين بول : تاريخ الدولة الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، ترجمة أحمد السعيد سليمان ، دار المعارف بمصر ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩ ، ١ : ١٣٩ - ١٥٨ ، كارل هنريش بيكر : دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية مادة "أيوبون" المجلد الثالث ، ص ٢٢١ و ٢٢٢ . وأنظر قبله ، وأنظر بعده الفصل الخاص بالسلطنة .

(٢) أنظر ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ : ٩٨ - ١٠٠ ، ابو شامة : الروضتين ، وعن ذكر بلاد النوبة والبجة وأحوالهم والحديث عن نهر النوبة ومذهب أهلها وتوقيعهم معاهدة البقط مع والى مصر منذ أول الفتح العربى بمصر ، والتى تقضى بدفعهم ضريبة عينية سنوية من القمح والعبيد على أن يكونوا فى حكم المعاهدين ، أنظر قدامة بن جعفر ، كتاب الخراج ، الباب الثامن ، وهو لا يزال مخطوط ولم ينشر ضمن النُبذ التى نشرها دى غويه من هذا الكتاب ، ومنه نسخة مخطوطة كاملة بدار الكتب المصرية برقم ١٩٧١ فقه حنفى ، وعن معاهدة البقط أنظر أيضاً المقرئى : الخطط ، طبع النيل ج ١ : ٣٢٢ - ٣٢٧ ، ابن الفقيه : مختصر البلدان ، ص ٧٦ - ٧٧ ، وقد عاب خضر بن أبى بكر ، فى كتابه المناقب المغزية - خ ، بدار الكتب المصرية ، الذى ألفه للسلطان عز الدين أيبك أول سلاطين المماليك بمصر على الدولة الأيوبية التى سماها " المغزية " إنها لم تهتم بجهة النوبة الجنوبية ولم تكمل فتحها ونشر الإسلام بها ؛ والمعروف أن فتح النوبة ونشر الإسلام بها قد تم فى عصر المماليك ٦٨٩هـ فى عهد السلطان قلاوون الذى أبقى أيضاً على شروط معاهدة البقط حتى بعد ضم النوبة إلى مصر ، أنظر المقرئى : السلوك ، ٢ : ٧٥٢ .

كذلك نهض الأيوبيون بفریضة الجهاد فی جهة أخرى ، لم ينتشر فیها الإسلام من قبل ، وهى مملكة أرمينية المسيحية ، وكان نور الدين زنكى ، سلطان بلاد الشام ، وزعيم بلاد المشرق الإسلامى قبل بزوغ نجم صلاح الدين ، قد حاول غزوها مراراً ، فقام صلاح الدين بمحاولة تحقيق حلم سلفه العظيم ، وذلك بغزوة فى سنة ٥٧١هـ / ١١٧٥م لبلاد أرمينية المسيحية ، التى كانت تتعاطف مع الحملات الصليبية القاطعة لبلاد آسيا الصغرى ، كما كانت تقف موقف العداء الحربى المسلح مع دولة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى التى كانت تتولى صد الموجات الأولى للحملات الصليبية القادمة من آسيا الصغرى ، بحيث جاء غزو صلاح الدين لمملكة أرمينيا المسيحية استجابة لاستنفار سلطان سلاجقة الروم له وتحقيقاً لحلم نور الدين زنكى^(١) . وقد أحرز هذا الغزو العسكرى الأيوبى لمملكة أرمينية نصراً سياسياً هاماً ، وهو اضطرار ملك أرمينية المسيحية إلى إعلان دخوله فى طاعة صلاح الدين ، وتبادل السفارات الدبلوماسية معه ، وإعلانه الالتزام بنقل أخبار تحركات الحملات الصليبية عبر آسيا الصغرى إلى صلاح الدين^(٢) .

ولا يخفى أن حملات صلاح الدين على مملكتى النوبة المسيحية وأرمينية المسيحية ، كانت بمثابة موجة جديدة من موجات الفتوحات الإسلامية ، إذ جعل صلاح الدين أجهها ديدنة وصيرة هجيره^(٣) .

وما لبث صلاح الدين ، أن كلل جهوده فى الجهاد ، باسترداد بيت المقدس من أيدي الصليبيين فى سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م^(٤) ، باسم الخليفة العباسى بحيث أعلن الأيوبيون الخطبة للعباسيين على منابر بيت المقدس وغيره من بلاد الشام التى تم استردادها من الصليبيين ، وذلك بعد إعادة الشعائر الإسلامية إلى هذه البلاد ، التى كان الصليبيون قد حولوا مساجدها إلى كنائس ، فكان سلاطين بنى

(١) أنظر ابن واصل : مفرج ، ج ٢ ، ص ٩٨ - ١٠٠ ، أبو شامة : الروضتين .

(٢) أنظر ابن شداد : النوادر السلطانية ، ١٢٤ - ١٢٦ .

(٣) أنظر ابن شداد : كتاب فضائل الجهاد ، ألقه لصلاح الدين ، مخطوط بمكتبة كوبرلى باستانبول برقم ٧٦٤ ، ويقول ابن شداد فى كتابه النوادر السلطانية ص ٢١ : " ولقد كان الجهاد وحب ، والشغف به ، قد استولى على قلبه (أى صلاح الدين) وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً ، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ، ولا نظر إلا فى آتله ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله .. ، وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحشه على الجهاد ، أو يذكر شيئاً من أخبار الجهاد ، وأنا ممن جمع له فيه كتاباً ، جمعت فيه آدابه ، وكل آية وردت فيه ، وكل حديث روى فى فضله ، وشرحت غريبها ، وكان - رحمه الله - كثيراً ما يطالعه ، حتى أخذه منه ولده الملك الأفضل عز نصره " .

(٤) أنظر العماد : الفتح ، ص ٤٨ - ٥٨ ، و ص ١١٦ - ١٤٧ ، ابن واصل : مفرج ، ٢ : ٢١١ - ٢٤١ ،

ابن شاهنشاہ : مضممار ، ص ٤ .

أيوب يغسلون هذه المقدسات الإسلامية لإزالة شعائر الكفرة عنها ، ويرفعون الرايات السود - شعار العباسيين - على منابرها ، ثم يرتبون القومة لحفظها ، والمؤذنين والقراء لمدائمة أداء الشعائر بها ، مع رصد الأوقاف عليها للعناية بإصلاحها وترميمها^(١) .

وهنا نلاحظ أن جميع غزوات صلاح الدين ضد الصليبيين ، وفتوحاته لبلاد الساحل الشامي ، التي كانت خاضعة لسيطرتهم العسكرية ، قد تمت باسم الخلافة العباسية ، فكان صلاح الدين يستشير الخليفة ثم يرسل له مكاتبات رسمية فيها خبر البشارة بالنصر ، وتفصيل هذه الانتصارات^(٢) .

وليس أدل على اعتبار الخليفة هو الوجه الأعلى لرسالة الجهاد ، التي حملها الأيوبيون على أكتافهم فخورين ، من إطلاع صلاح الدين للخليفة ، على أسرار سياسته الخارجية الحربية الخاصة بعزل الجمهوريات الإيطالية التجارية ، جنوا والبندقية وبيزا ، عن الحركة الصليبية ، عن طريق عقد المعاهدات التجارية والعسكرية معهم ، ومنحهم بعض التسهيلات الجمركية في ثغور مصر الشمالية ، نظير عدم تقديم أى مساعدة بحرية للقوى الصليبية بالشام ، وفي نفس الوقت إقرارهم بتخليهم التام عن مبادئ الدعوة الصليبية بالتزامهم بإمداد صلاح الدين بالأخشاب اللازمة لبناء الأساطيل وإمداده أيضًا بالأسلحة والعبود المسيحيين ، كذلك اطلع صلاح الدين ، أيضًا الخليفة العباسي ، على خبايا علاقاته الخارجية وسياسته الحربية تجاه الإمبراطورية البيزنطية ، وتجاه ملك صقلية النورماندى ، وكان كلاهما في عداد أكبر ملكين من ملوك النصرانية^(٣) .

وكما استطاع صلاح الدين عزل الجمهوريات الإيطالية عن الحركة الصليبية بواقع المعاهدات التجارية الحربية التي وقعتها مع هذه الجمهوريات^(٤) ، استطاع أيضًا فى سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م ، أى بعد سنتين من استرداده لبيت المقدس ، توقيع معاهدة مع إمبراطور الدولة البيزنطية ، تقضى بعزل

(١) أنظر العماد: الفتح ، ص ٩٥ ، ص ١٠٨ ، ص ١١٨ - ١٢١ ، ص ١٣٧ - ١٤٠ ، ص ١٤١ - ١٤٤ ، ص ١٤٥ - ١٤٦ ، ابن واصل : مفرج ، ٢ : ٢٢٩ - ٢٤١ .

(٢) أنظر نص خطاب عمادى بالبشرى بفتح القدس عند القلقشندى : صبح ج ٦ : ٥١٧ - ٥٢٠ ، وأنظر أيضًا ثلاث مكاتبات فاضلية بالبشرى بفتح القدس عند القلقشندى أيضًا : صبح ج ٦ ، ص ٤٩٦ - ٥٠٤ ، ٦ : ٥٠٤ - ٥٠٦ ، ٨ : ٢٨١ - ٢٨٩ ، وأنظر أيضًا خطاب فاضلى إلى الخلافة بالبشرى بفتح بلد من بلاد النوبة ، القلقشندى : صبح ج ٦ : ٥٠٦ - ٥١١ ، ج ٦ ، ص ٥١١ - ٥١٥ ، وأنظر أحمد فؤاد سيد : مصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر الأيوبي ، دار النهضة العربية ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م ، ص ٦ - ٥٤ . حديثنا عن الوثائق التي فقدت أصولها الأثرية .

(٣) أنظر القلقشندى : صبح ج ٦ : ٥١٥ - ٥١٦ ، ج ١٣ : ٨١ - ٩٠ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٤١ - ٢٤٣ .

(٤) راجع تراجم تنشر لأول مرة لهذه المعاهدات ، مترجمة عن اللاتينية والإيطالية الدارجة ، عن أصولها المحفوظة بالأرشيفات الإيطالية ، أحمد فؤاد سيد : مصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر الأيوبي ، (ملاحح الكتاب) .

الدولة البيزنطية كذلك عن الحركة الصليبية ، ومنح السلطان الأيوبي الامتياز الذى منح من قبل سلاطين السلاجقة ، وهو الخطبة باسم السلطان الأيوبي والخليفة العباسى على منبر المسجد الجامع بمدينة القسطنطينية . وهو الأمر الذى تم رسمياً فى سنة ٥٨٦هـ / ١١٩٠م^(١) .

والجدير بالملاحظة ، أن المراسلات بين بنى أيوب والخلافة العباسية ، كانت تتعرض لدقائق المسائل الإدارية الخاصة بإدارات الأقاليم التابعة للدولة الأيوبية ، كما أنها أبدت اهتماماً خاصاً بطمأنة الخليفة العباسى على مداومة بنى أيوب ، تتبع بقايا الدعوة الإسماعيلية ودعاتها فى كل مكان ، واستمرار الدعوة للخلافة العباسية فى جميع البلدان التى يفتحها الأيوبيون^(٢) . كذلك فإن تردد الرسل والسفارات بين سلاطين الأيوبيين والخلافة العباسية لم ينقطع إبدأً^(٣) ، وهذا ما يفسر الخبر الذى أورده المؤرخون مقتضباً ، ويفيد أنه حين استقر الملك العادل فى السلطنة الأيوبية بعد أخيه صلاح الدين فى سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م « تراسل العادل مع الخليفة العباسى فى أمور مخفية »^(٤) .

استجابة سلاطين بنى أيوب لدعوة الفتوة الناصرية الخليفية :

وفى سبيل اكتمال الوحدة السياسية والمذهبية لبلاد المشرق الإسلامى ، حول الخلافة العباسية ، عمد خلفاء بنى العباس ، منذ عصر الخليفة العباسى الناصر لدين الله ، الذى عاصر صلاح الدين ، وبلغت الخلافة فى عهده الطويل أقوى مراحل يقظتها ، إلى جمع ملوك الأطراف والسلاطين حول

(١) العماد : الفتح ، ص ٤١٤ ، ابن شداد : النوادر ، ١٣٢ - ١٣٣ ، سبط : مرآة ، ٨ : ٤٠٤ ، ابن واصل : مفرج ، ٢ : ٣٢٨ - ٣٢٩ ، ابن عبد الظاهر : الدر النظيم ، ص ٣٧ - ٤٢ ، المقرئ : السلوك ، ١ : ٩٨ ، هامش " ١ " .

(٢) يفيد العماد الأصفهاني ، أن القاضى الفاضل وزير صلاح الدين ، ونائبه بمصر ، كان قبل ترأسه مع صلاح الدين بالشام ، يقف بنفسه على نسخ الرسائل العراقية الواردة من الخلافة العباسية ، أنظر العماد : البرق - خ ، ٣٨ - ٣٩ ، وراجع أحمد فؤاد سيد : مصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر الأيوبي ، ص ٦ - ٥٤ . وأنظر رسائل فاضليه لصلاح الدين بالشام ، عند العماد : البرق ، ٣ : ١٥٠ - ٥٧ ب ، ٦٤ ب ، ٦٧ ب .. الخ .

(٣) أنظر العماد : الفتح ، ص ١٨٣ - ١٨٩ ، ٢٧٩ - ٢٨٤ ، ٣٦٥ - ٣٦٦ ، العماد : البرق - خ ، ج ٣ ، لوحة ١١٤ ب - ١١٥ أ ، وأنظر ابن واصل : مفرج ج ٢ ، ص ٢٤٨ ، ٣١٤ ، وأنظر نص خطاب " تذكرة " ، حملة سفير من قبل صلاح الدين ، إلى " أبواب الخلافة العباسية " عند القلقشندي : صبح ، ج ١٣ ، ص ٨٧ - ٩٠ .

(٤) أنظر المصادر الواردة فى الحاشية السابقة .

الخلافة ، فى تنظيم اجتماعى عسكرى ، عرفته تجمعات الفتيان العرب منذ الجاهلية^(١) ، وبعثه الخليفة المتصر من جديد ، لأسباب سياسية وعسكرية ، هى محاربة الصليبيين^(٢) ، والنهوض بفريضة الجهاد .

ففى سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م ، لبس الخليفة الناصر سراويل الفتوة ، على يد اثنين من رؤساء جماعات الفتوة ، وهما عبد الجبار ويوسف المعروف بالعقاب ، ولم يبق أحد ممن كان قريباً منه إلا ولبس منه سراويلاً ، وأمر الخليفة أبا على الدارمى ، أن يكون نقيب الجماعة ، وأن يخطب ويذكر شروط الفتوة ، ويشيد بأخلاقها الشريفة^(٣) ، ثم أخرج الخليفة منشوراً من قبله ، ليقراً على الناس ، بشأن الفتوة والإشادة بتعاليمها ، وإظهار فضائلها^(٤) .

وقد أوحى الخليفة الناصر لدين الله ، إلى مفكرى وفقهاء عصره ، بالتأليف فى قواعد ونظم الفتوة^(٥) ، وشروط وصفات الفتيان^(٦) ، ورسوم التحاق الفتى بهذا التنظيم ، عن طريق شرب كأس الفتوة هو من ماء وملح^(٧) ، ثم يتولى نقيب الجماعة حزمه بحزام ، يعبر عنه بـ «الشد» و«التكميل»^(٨) ، كنوع من أخذ العهد ، ثم إيراد القصص التى تشيد ببطولات الفتيان وشهامتهم^(٩) ؛ وقد ساق من ألف فى نظم الفتوة ، سنداً للفتيان لسراويلهم التى يتزبون بها ، يرجع إلى الإمام على بن أبى طالب ، الذى لقبوه بسيد الفتيان ، ثم إلى النبى صلى الله عليه وسلم^(١٠) .

(١) أنظر مصطفى جواد : الفتوة والفتيان قديماً ، مجلة لغة العرب ، إبريل ١٩٣٠ ، أحمد أمين : الصلطنة والفتوة فى الإسلام ، القاهرة ، مجموعة أقرأ ١٩٥١ ، أحمد أمين : الفتوة فى الإسلام ، مجلة كلية الآداب ، ج ١ ، مايو ١٩٤٢ ، الطبعة الثانية ١٩٥٣م ، ص ١ - ٢١ .

(٢) عن هذه الفكرة ، أنظر عمر الدسوقي : الفتوة عند العرب ، د. ت. ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

(٣) أنظر ابن شاهنشاه : مضار الحقائق ، ص ٨٦ ، ص ١٧٧ و ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(٤) ابن الساعى : الجامع المختصر ، بغداد ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م ، تحقيق مصطفى جواد ، ٩ : ٢٣٣ - ٢٣٥ .

(٥) أنظر ابن المعمار الحنبلى : كتاب الفتوة ، تحقيق مصطفى جواد وآخرون ، بغداد ١٩٥٨ ؛ كتاب الفتوة ، تحقيق فؤاد حسنين ، القاهرة ١٩٥٩ م .

(٦) نفس المصدر ، طبعة مصطفى جواد ، ص ١٥٢ - ١٦٨ .

(٧) ابن المعمار الحنبلى : كتاب الفتوة ، ص ٢٥١ - ٢٥٤ .

(٨) نفس المصدر ، ص ٢٣١ - ٢٤١ .

(٩) نفس المصدر ، ص ٢٦٢ - ٢٨٥ .

(١٠) نفس المصدر ، ص ١٤٨ .

كذلك أوعز الخليفة الناصر إلى مفكرى وفقهاء عصره ، بالتأليف فى آداب الرمى بالبندق ، ورسومها وفنونها ، وأحكامها الفقهية^(١) ، وهى رياضة عرفها المسلمون منذ عهد الخليفة الراشد عثمان ، ولكن الخليفة العباسى الناصر ، جعل رمى البندق فناً ، لا يتعاطاه إلا الذين يشربون كأس الفتوة ويلبسون سراويلها^(٢) .

والتبع لكتب الحوليات ، يلاحظ أن سلاطين بنى أيوب ، كانوا أول من قصدهم الخليفة الناصر ، ليضمهم إلى تنظيمه الجديد الخاص بالفتوة ، الذى جعل من نفسه فيه الرئيس الأعلى ، ففى سنة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م ، بعث الخليفة الخلع وسراويلات الفتوة إلى الملك العادل أبى بكر بن أيوب وأولاده ، مع عبد الجبار والعقاب ، نقيبى تنظيم الفتوة بالعراق ، فلبس العادل الخلع والسراويلات^(٣) ، ولا ندرى إن كان الخليفة ، قد كرر هذه السفارة مرة أخرى سنة ٦٠٥ هـ / ١٢٠٨ م^(٤) ، وهى السنة التالية مباشرة لإرسال التقليد والخلع الخليفية للملك العادل سنة ٦٠٤ هـ . إثر الاعتراف به سلطاناً على جميع البيت الأيوبي^(٥) ، أم أن ثمة خلاف بين المؤرخين حول تحديد سنة هذا الحدث ، إذ تشير بعض المصادر أنه فى سنة ٦٠٥ هـ ، وصل إلى السلطان الملك العادل وإلى جميع أولاده سراويلات الفتوة ، صحبة رسل الخلافة ، وصحبتها خلع عظيمة ، فلبسوا ولبس كل أحد ممن يلوذ به من أمرائه وخاصته وشاع لبس ذلك فى الناس^(٦) .

ويبدو أن استجابة بنى أيوب للاتساب للخليفة فى لبس سراويل الفتوة ، عن طريق «وكلائه» وسفرائه ، من رؤساء التنظيم ببغداد ، قد شجع الخليفة على مراسلة بقية ملوك الأطراف بالمشرق الإسلامى ، لنفس هذا الغرض ، ففى سنة ٦٠٧ هـ / ١٢١٠ م ، وردت الرسل على ملوك الأطراف ، تماشدهم شرب كأس الفتوة للخليفة الناصر ، ولبس سراويلها ، « ليكون ائمتانهم له » ، وأمر كل

(١) أنظر ابن البقال : كتاب المقترح فى المصطلح ، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس برقم ٤٦٣٩ منه نسخة بالفوتستات بدار الكتب المصرية .

(٢) جورجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ، ج ٥ ، ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(٣) سبط : مرآة ، ٨ : ٥١٣ .

(٤) ابن أيك : الدر المطلوب ، ص ١٦٥ .

(٥) أنظر بعده الفصل الخاص بالسلطنة .

(٦) ابن أيك : الدر ، ص ١٦٥ ، وقارن بحث المستشرق نشر : الفتوة والخليفة الناصر ، ترجمة صلاح الدين

المنجد فى كتابه المنتقى من دراسات المستشرقين الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٥ م ، ص ١٨٧ - ٢٠٤ .

ملك أن يسقى رعيته ويلبسهم ، « لتتبنى كل رعية إلى ملكها » ، ففعلوا ذلك ، وأحضر كل ملك قضاة مملكته وفقهاءها وأمراءها وأكابرها ، وألبس كلَّ منهم له ، وسقاه كأس الفتوة ، كما أمر الخليفة الملوك أيضًا ، أن تنتسب إليه في رمى البندق ، وتجعله قدوتها فيه^(١) .

فكان من أراد الانتظام في سلك هذا التنظيم من ملوك الأطراف ، يأتي بغداد ، فيلبسه الخليفة السراويل بنفسه ، أو يعهد بهذا إلى أحد أكابر أمرائه بالوكالة عنه ، فبطلت الفتوة في البلاد جميعها ، إلا من لبس سراويلها منه ، ومنع الرمي بالبندق ، إلا من ينتسب إليه^(٢) .

وأغلب الظن أن الخليفة الناصر ، قد أراد جمع شمل رعية كل ملك ، في تنظيم شعبي عسكري لا ينقسم ، وربط جميع ملوك وسلاطين المشرق الإسلامي حول الخلافة ، في رباط موحد أيضًا ، لتكوين جبهة إسلامية واحدة ، تستمد وحدتها وتآلفها من الشعور الشعبي الموحد للأمة الإسلامية في جهاد الصليبيين ، بحيث تم تجميع القوى المعنوية الإسلامية ، والقيم الأخلاقية ، والمهارات الحربية للفتوة ، في سبيل الإعداد المعنوي والحربي للأمة ، تحت راية الخليفة العباسي ، الزعيم الروحي للإسلام .

ويبدو أن تزعم البابوية لحركة الصليبيات Goisades ، قد أدى إلى مسارعة المسلمين حكمًا وشعوبًا لقبول هذه الفكرة ، خاصة وقد لاحظ المؤرخون في هذا العصر ، « أن البابا هو خليفة الفرنج »^(٣) .

(١) ابن واصل : مفرج ، ٣ : ٢٠٦ - ٢٠٧ ، المقرئ : السلوك ، ١ : ١٧٢ ، ٢١٨ س ٦ - ٧ ، الذي يقول : " وحمل أهل الأمصار على ذلك " ، ابن الساعي : مختصر أخبار الخلفاء ، ص ١٠٩ ، ابن الأثير : الكامل ، ١٢ : ٤٤٠ ، س ١٠ - ١٨ ، أبو المحاسن : النجوم ، ٦ : ٢٦١ - ٢٦٣ ، الذي يذكر أن الملك شهاب الدين صاحب غزنة والهند قد لبس سراويل عن الخليفة الناصر أيضًا .

(٢) أنظر مصطفى زيادة : هامش "١" على السلوط للمقرئ ، ج ١ : ١٧٢ ، جمال الشيال : هامش "٢" على مفرج ابن واصل ، ج ٣ ، ص ٢٠٦ ، وأنظر ابن واصل : مفرج ٤ : ١٦٤ - ١٦٥ .

(٣) أنظر نصوص هامة أوردتها سبط ابن الجوزي تفيد هذا المعنى على لسان ملوك وأباطرة أوروبا وبملاحظة المؤرخين المسلمين أيضًا ، أنظر سبط : مرآة ، ٨ : ٨٠ ، ٦٢٠ س ١٩ ، ٦٥٣ - ٦٥٧ ، ٦٨٥ ، ٧٦٣ ، ابن واصل : مفرج ، ٤ : ٢٥١ . والواقع أن أغلب ملوك الأطراف المسلمين قد استجابوا لدعوة الفتوة الناصرية ، ففي سنة ١٢٢٦ هـ / ١٢٢٨ م راسل الخليفة الناصر جلال الدين منكبرتي سلطان الدولة الخوارزمية وأرسل إليه اثنين من نقيب الفتوة ليلبسوه سراويلها وكالة عن الخليفة ، وكان ذلك بموجب سؤاله ، وقد أظهر خوارزمشاه قبوله لهذه المنحة الخليفية ، بأن أرسل إلى بغداد بعد أيام رسول من قبله برسالة يشكر فيها =

وأغلب الظن أن نقباء الفتوة ، الذين عاصروا عصرى الناصر وابنه المستنصر ، أرادوا تقوية هذا النظام ، وأثره النفسى والمعنوى فى نفوس مرديه ، حين أوحوا إلى الخليفة المستنصر ، وقد بات زوال نجم خلافة بنى العباس وشيكًا ، بأن يوهم الناس بأنه لبس سراويل الفتوة من أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، فامتثل لهم المستنصر ، بحيث توجه إلى مشهد الإمام على سنة ٦٤٩هـ / ١٢٥١م ، ولبس السراويل فى ضريحه^(١) ، فلا غرواً أن توارث خلفاء الخليفة الناصر نظام الفتوة ، حتى زمن المستنصر ، آخر خلفاء بنى العباس بالشرق^(٢) .

وفى رأينا أن نظام الفتوة ، كما أراد الخليفة الناصر تعميمه فى العالم الإسلامى ، كان يهدف من ناحية أخرى إلى محاربة الدعوة الفاطمية واستقطاب المتحمسين للتشيع للاختراط فى زمرة الفتيان الناصرية ، فليس عن قبيل الصدفة أن هذا السند - المفصل بلا ريب - لسراويل الفتوة ، يرتقى إلى الإمام على - أول إمام تشيع له شيعة بنى هاشم ، ثم إلى النبى ، فالذى ابتكر هذا السند ولقّقه ، قد حرص كل الحرص على إرضاء الشيعة وجذبهم إلى هذا التنظيم الذى ترأسه الخليفة العباسى الناصر ، خاصة وقد عرفت عن هذا الخليفة ، أو ربما روج هو هذا القول عن نفسه ، أنه كان يميل إلى التشيع للإمام على^(٣) .

= الخليفة على هذا الإنعام . (ابن القوطى : الحوادث ص ٤ - ٥ و ص ١٤) . وفى سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٦م وفد إلى بغداد أرسلان شاه بن عماد الدين زنكى صاحب شهرزور ، فشرفه أحد كبار أمراء البلاط الخليفى بلباس الفتوة نيابة ووكالة عن الخليفة ، بعد أن خلع عليه (نفس المصدر ، ص ٨٩ - ٩٠) وفى سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م ، سأل الملك الأشرف موسى الأيوبى ، صاحب دمشق ، سراويل الفتوة من الخليفة الناصر ، فأنفذ إليه الخليفة من فتاة - أى جعله فتاً - بطريق الوكالة . (نفس المصدر : ١٠٦) . كذلك وفد إلى بغداد رسول من قبل بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل فى سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م شهد أن ابنه رضى باللهدق ، وانتسب فى ذلك إلى الخليفة الناصر ، فقبل ذلك (نفس المصدر ، ص ١٤٣) ، ويبدو أن هذا الأمر أصبح عرفاً متبعاً ، شأنه شأن التشرىفات الخليفية ، لجميع ملوك الأطراف الوافدين على دار الخلافة ، فحين وصل إلى بغداد أمير المدينة المنورة سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م ، تشرف بلباس الفتوة عن الخليفة (نفس المصدر ، ص ١٢٦) ، وما يؤكد أن هذا التنظيم كان يهدف إلى تأكيد الولاء للخليفة ، أن الناصر لدين الله كان إذا أراد العفو عن بعض أمرائه بعد الوحشة بينهما ، كان يليسه هذه السراويل (نفس المصدر ، ص ١٣٠) ، بمعنى أنه أصبح من خواص رجاله .

(١) ابن القوطى : الحوادث ، ص ٢٥٧ .

(٢) عمز الدسوقى : الفتوة عند العرب ، ص ٢٤٩ .

(٣) أنظر ابن الأثير : الكامل ، ١٢ : ٤٣٨ - ٤٤٠ ، ابن دحية : النبراس ، ص ١٦٤ ، الذهبى : المختصر المحتاج إليه من تاريخ بغداد لابن الديبى ، ص ١٧٩ ، المقرئى : السلوك ، ١ : ٢١٧ - ٢١٩ .

ويقوى هذا الظن أن دعاة الفتوة ، كانوا قد نجحوا في اجتذاب أغلب نقابات الصناعات والحرفيين^(١) ، التي ظلت طوال العصر الفاطمي ، وحتى أوائل العصر الأيوبي ، من المستجيبين للدعوة الفاطمية^(٢) ، وفي نفس الوقت نجحوا في جذب فتيان الصوفية ، الذين عرفوا بالملامية ، وعرفت لهم من أخلاق الفروسية والنخوة والشهامة منذ حوالي القرن الرابع الهجري ، ما يقرب تنظيماتهم وأهدافهم مع طائفة الفتوة^(٣) والصلة بين التصوف والتشيع معروفة^(٤) .

والواقع أن نظام الفتوة ، كان أحد الوسائل التي حاول دعاة الفاطميين استغلالها لتكوين جماعات من الفتيان تدين بالولاء للخليفة الفاطمي في العراق وباقي ممتلكات الخلافة العباسية^(٥) . وتؤكد مشاهدات ابن جبير في بلاد الشام ، تحت الحكم الأيوبي ، تحول طوائف الفتوة بالشام إلى الدعوة السنية وتحمسهم لها ، وتبعهم للرافضة (الشيعة الفاطميين) بدمشق ، وقد تميزت هذه الطائفة السنية من الفتيان باسم « الطائفة النبوية » فيقول أنه وجد في الشام جماعة من السنين ، يعرفون بأهل الفتوة ، ويعرفون كذلك بطائفة النبوية ، وكانوا حرباً على الشيعة .. وهم يقتلون هؤلاء الروافض أينما وجدوهم ؛ ثم راح ابن جبير يتحدث على مذاهب الشيعة ، مشوهاً لها لكونه سني المذهب ، ويتهمهم بالضلال ، إذ « قد أضلهم الله ، فأضل بهم كثيراً من خلقه ، وسلط الله على هذه الرافضة ، طائفة أهل الفتوة ، الذين عرفوا بالنبوية »^(٦) .

وبالإضافة إلى ما حققته « دعوة الفتوة الناصرية » ، من نفوذ للخليفة العباسي لدى ملوك وسلاطين المسلمين ، وما نجحت فيه من محاربة بقايا الشيعة الإسماعيلية وضم شيعتها إلى الدعوة السنية ، أحدثت مفاهيم وخلق المثل العليا للفتوة والفروسية الإسلامية ، ردود فعل في الغرب

(١) أنظر أحمد أمين : الصلح والفتوة في الإسلام ، فؤاد حسين علي : مقدمة كتاب الفتوة لابن المعمار .

(٢) أنظر عبد الحميد العبادي : كتب الحسبة وفانديتها ، ص ٤٢٣ .

(٣) أنظر أبو العلا عفيفي : الملامية والصوفية وأهل الفتوة ، د. ت . وأنظر محمد فهمي عبد اللطيف : الفتوة الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٤٨ م .

(٤) راجع ما تقدم .

(٥) راجع خبر طويل هام أورده ابن الجوزي يؤكد هذا في المنتظم ، ج ٨ : ٣٢٦ - ٣٢٧ ، حيث يقول علي جماعة فتيان الفتوة الذين قبضت عليهم السلطات العباسية بالعراق سنة ٤٧٣ هـ " إن هؤلاء القوم يدعون لصاحب مصر (أي الخليفة الفاطمي) ، ويعجلون ذكر الفتوة عنواناً لجميع الكلمة على هذا الباطن " (٦) .

(٦) أنظر ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٥٢ .

الأوربي، جسدتها في خيال الأوروبيين سيرة البطل العربي الشهير أسامة بن منقذ^(١)، وسيرة البطل الكردي السلطان صلاح الدين، الذي أصبح اسمه الأوربي Saladin رمزاً للعظمة والمجد والوفاء؛ ويؤكد البعض أن الفروسية جسماً وروحاً قد نقلتها أوروبا عن العرب، وتبددت في نظام فرسان المعبد، كما اكتسبت ثروة نفسية وخلقية من الفروسية العربية^(٢)، وقد نقل الأيوبيون عن الخلافة العباسية نظام الفتوة، وورثة عنهم المماليك، بحيث صار السلطان المماليكي، هو الرئيس الأعلى لطائفة الفتوة في عصره^(٣).

ولا يغيب عن أذهاننا، أن الظروف السياسية والحربية، التي عاشها العالم الإسلامي، في القرنين السادس والسابع الهجري، ١٢ - ١٣ م، نتيجة للوجود الصليبي في بلاد الساحل الشامي، قد حتم على الخلافة العباسية، وملوك الأطراف المسلمين، فضلاً عن تجمعهم حول هذا التنظيم السياسي والاجتماعي للفتوة، بغرض جمع شمل الوحدة السياسية والعسكرية في ديار الإسلام؛ حتم عليهم أيضاً إعداد شعوبهم وخاصة الشباب والفتيان والأحداث، إعداداً رياضياً عسكرياً، هو أقرب ما يكون إلى تنظيمات «المقاومة الشعبية» أو هيئات «الكشافة»؛ ولا ريب، أن إطلاق تسمية «الفتوة» على التدريبات العسكرية والرياضية التي يتلقاها طلبة المدارس والجامعات اليوم، هي تسمية موفقة جداً، ولها دلالتها المستمدة من أحداث التاريخ الإسلامي.

(١) أنظر عمر الدسوقي: الفتوة عند العرب، ص ٢٧٧، وأنظر أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار أو سيرة أسامة، وقد نشره Derembourg بباريس ١٨٩٩ م، وإعادة نشره فليب حتى في برن سنة ١٩٣٠ م.

(٢) أنظر عمر الدسوقي. المرجع السابق، ٢٦٧ - ٢٧٦.

(٣) أنظر نفس المرجع، ص ٢٥٥، نقلاً عن السلوك للمقريزي، ١: ٧٢٥.

الفصل الخامس

حماية سلاطين بني أيوب

لطريق وفريضة الحج ؛ وللحرمين الشريفين ، والقبليتين

عودة ظاهرة الإهلال بالحج والعمرة من بيت المقدس بعد استرداد صلاح الدين للقدس سنة ٥٨٢هـ

وطبعي وقد أضحت الخلافة العباسية ، تستند أولاً وأخيراً على سلطاتها الروحية ، التي باتت تحظى بالتبجيل والطاعة ، من ملوك وسلاطين الإسلام ، أن تعتمد إلى بسط هيمنتها وإشرافها على فريضة الحج ، وهي إلى كونها ركن من الأركان الخمس التي بنى عليها الإسلام ، تعد ولا ريب مؤتمراً إسلامياً عالمياً ، يضم الأمة الإسلامية عن بكرة أبيها ، حين تهفوا أفئدة المسلمين في موسم الحج لأداء مناسكه ، وزيارة قبر الرسول الكريم ، والإلتقاء بإخوانهم في الدين - وقد جاءوا زرافات ووجداناً ، من كل فج عميق - في بقعة شريفة مباركة ، كانت المهدي الأول لدعوة الإسلام ودولته .

ولاشك أن ارتباط الحروب الصليبية بفكرة انتزاع بيت المقدس من يد المسلمين ، بما فيه من مقدسات إسلامية ونصرانية ويهودية ، وكون أغلب المحاربين الصليبيين - إذا ما استثنينا الجنود النظاميين لملوك أوروبا ، واستثنينا المنظمات والمؤسسات الدينية الحربية مثل الداوية والاسبتارية وغيرها التابعة للبابوية - جاءوا حجاجاً لبيت المقدس^(١) ، وإن كان الدافع المباشر لتحركهم من أوروبا ، هو مساوئ النظام الإقطاعي بها ، الذي كان قد بلغ في هذا الوقت ذروة نضوجه واستفحلت مساوئه ، التي جعلت من الإقطاعي مالئاً للأرض ومن عليها^(٢) ، فلا غرو أن كان الجوع والرغبة في الخلاص والهروب من نير الاسترقاق ، هو الدافع الحقيقي لجموع الدهماء ، الذين كانوا يمثلون الجمع الغفير من جحافل الحملات الصليبية الأولى^(٣) .

وغير خاف أن هذا الوضع الطارئ ، وما تمخض عنه من نجاح المسلمين في استرداد بيت المقدس على يد صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧ م ، وذلك بعد استيلاء الفرنج عليه اثنتين وتسعين سنة (٩٢ سنة) ، لأنهم أخذوه سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٧ م ، بحيث دخل السلطان الصخرية بعد تمام الفتح ، وغسلها بالماورد ، وقيل غسلها بلحيته وهو يبكي ، ومحى الصور فيها ، وكسر الصليبان ، وعمر المسجد الأقصى^(٤) . ومنذ استرداد بيت المقدس نلحظ ظاهرة الحج المزدوج عند المسلمين ،

(١) أنظر مؤلف مجهول : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة حسن حبشي ، دار الفكر العربي ، ١٩٥٨ م .

(٢) أنظر بالتفصيل ج . و . كويلاند : الإقطاع والعصور الوسطى بغرب أوروبا ، نقله إلى العربية محمد مصطفى زيادة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٦ م .

(٣) أنظر سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، مكتبة الأجلو المصرية ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٣ ، ج ١ ، الفصل الخاص بدوافع الحروب الصليبية ، وهو يؤكد أن الدافع الديني لهذه الحروب كان ضعيفاً جداً ، وأن الدافع الاقتصادي لدى البرجوازية الجديدة في أوروبا وخاصة في الجمهوريات الإيطالية كانت هي المحرك الحقيقي لهذه الحروب التي أرتدت مسوحاً دينياً تسترت وراءه .

(٤) العماد : البرق الشامي ، ص ٤٨ - ٥١ ، ص ١١٦ - ١٣٠ ، ص ١٣٧ - ١٤٧ ، سبط بن الجوزي : مرآة ، ٣٩٧ : ٨ ، وأنظر السائح الهروي ت ٦١١هـ : الإشارات إلى معرفة الزيارات ، تحقيق جانيب سورديل ، المعهد الفرنسي بدمشق سنة ١٩٥٣ م ص ٢٤ - ٢٨ .

أى إلى الأراضى الحجازية ، ثم إلى بيت المقدس ^(١) .

حماية دولة الخلافة الفاطمية لفريضة الحج ، بعد انتقالها إلى مصر ، والخطبة لها بالحرمين الشريفين ، وكسوتها للكعبة :

والواقع أن حماية سبيل الحجاج ، وتيسير أسباب الحج للمسلمين ، هو من أهم مهام أى خلافة إسلامية ، فنحن نعرف أن الخلافة الفاطمية ، كانت قد برزت ففتحها لمصر سنة ٣٥٨هـ / ١٩٦٨م ، وحق الخليفة الفاطمى فى السيطرة على العالم الإسلامى كله شرقاً وغرباً ، بعجز الخلافة العباسية عن مداومة جهاد البيزنطيين ، وانقطاع طرق الحج وتعطله ، وعدم استطاعة الحجاج أداء الفريضة ^(٢)

= وقد زار الهروى المقدسات الإسلامية بيت المقدس ، قبل أن يحو صلاح الدين منها آثار الإثم الصليبي ، والصور والأيقونات الوثنية ، ووصف حالة قبة الصخرة والمسجد الأقصى وصفاً يشعل صدور المسلمين غيرة على مقدساتهم التى ابتذلها الصليبيون ؛ ولقد ذكر الهروى أنه دخل بيت المقدس "زمان الفرتج سنة ٥٦٩هـ" ، أنظر ، الإشارات ، ص ٢٥ ، س ٨ - ٩ .

(١) سبط : مرآة ، ٨ : ٥٧٥ ، ابن الفوطى : الحوادث ص ١٣٤ ، ويقول سبط ابن الجوزى فى حوادث سنة ٦١٣هـ وحج بالناس من العراق ابن أبى فراس ، ومن الشام الفقيه علم الدين الجعبرى ، وعدت من الحج على تبوك والعلا ، وجمعت بين زيارة النبى صلى الله عليه وسلم ، وبين زيارة الخليل فى المحرم ولله المنة وفى الحديث : (من زارنى وزار أبى إبراهيم فى عام واحد ، ضمنت له على الله الجنة) ، وإن لم يتفق على نقل هذا الحديث الثقات ، والأعمال باليات ، أنظر سبط : مرآة ، ٨ : ٥٧٥ . وأنظر ابن شداد : النوادر ص ٣١ س ١٥ - ١٧ ؛ والذي جمع بين حج الحجاز وبيت المقدس ، رجل متصوف ، من أهل إيران . كان أبوه صاحب توريز وقدام لشكر صلاح الدين ؛ ويقول ابن واصل فى حوادث سنة ٦٢٤هـ : (وكتب والدى - رحمه الله - فى هذه السنة ، وهو مقيم بالقدس بالمدرسة الناصرية الصلاحية ، إلى السلطان الملك المعظم ، يستأذنه فى الحج ، فأذن له فى ذلك ، وأحرم عند الصخرة الشريفة ، وسافر إلى مكة محرماً ، وحج وجاور ، ثم حج سنة ٦٢٥ ، وعاد فى سنة ٦٢٦ ، وأقامت مكانه بالمدرسة المذكورة ، (مفرج الكروب ج ٤ ، ص ٢٠٨) ، ويقول ابن شداد فى حوادث سنة ٥٨٣ ، وهى السنة التى أستردها فيها بيت المقدس : " ثم اتفق لى العود من الحج (بالحجاز) على الشام لقصد القدس وزيارته ، والجمع بين زيارة النبى صلى الله عليه وسلم وزيارة أبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فوصلت إلى دمشق ، ثم خرجت إلى القدس ، أنظر ابن شداد النوادر السلطانية ، ص ٨٥ ، س ١٠ - ١١ .

(٢) أنظر ماجد : ظهور الخلافة ، ص ١٢٠ - ١٢٣ وأنظر مجير الدين الحنبلى ت ٩٢٨هـ : الأئس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، نشر مكتبة المحاسب ، عمّان - الأردن ، د. ت. (ج ١ - ٢) ، ١ : ٢٣١ (باب فضل الإهلال بالحج والعمرة من بيت المقدس) وفيه : عن أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من أمَلَّ بحج أو عمرة من المسجد الأقصى الشريف إلى المسجد الحرام ، غفر له الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ووجبت له الجنة . وقد أحرم منه عمر بن الخطاب رضى الله عنه .. وأحرم منه ابنه عبد الله رضى الله عنه أيضاً .

وهذا ما أكده جوهر الصقلي في أمانة لأهل مصر^(١)، ثم ردهه الخطيب الفاطمي في أول خطبة جامعة دعا فيها للخليفة المعز لدين الله، أول خلفاء الفواطم بمصر، على منبر الجامع العتيق (عمرو بن العاص) بالقسطاط^(٢).

وحين تم للخلافة الفاطمية السيطرة على الحرمين، أصبح إرسال الكسوة الفاطمية للكعبة من مصر^(٣)، مع أمير الحج المصري^(٤). أهم ما يهتم به الخليفة الفاطمي، لأن في ذلك تأكيداً لميراثه لتراث النبوة والخلافة، وحمائته لفريضة الحج، التي تجمع شمل المسلمين من كافة أرجاء العالم،

(١) جاء في هذا الأمان الذي يعد أهم وثائق العصر الفاطمي كله، لأنه يظهر هدف الفاطميين من نقل خلافتهم من المغرب إلى مصر، وأخيراً أهدافهم بالنسبة لتكوين خلافة إسلامية عامة: " أنه صلوات الله عليه (الخليفة المعز لدين الله الفاطمي) لم يكن إخراجهم للعساكر المنصورة، إلا لما فيه إعزازكم وحمائتكم والجهاد عنكم .. وأثر إقامة الحج الذي تعطل، وأهمل العباد فروضه وحقوقه خوف المستولى عليهم، وإذ لا يأمنون على أنفسهم ولا على أموالهم، وإذا قد أوقع بهم مرة بعد أخرى فسفكت دماؤهم، وابتزت أموالهم، مع اعتماد ما جرت به عادته من صلاح الطرقات، وقطع عبث العابثين فيها، ليتطرق الناس آمنين، ويسيروا مطمئنين، ويتحفوا بالأطعمة والأقوات، إذا كان قد انتهى إليه - صلوات الله عليه - انقطاع طرقاتها، لخوف مارتها، إذ لا زاجر للمعتدين، ولا دافع للظالمين ". أنظر المقرئى: اعاط الخنفا، نشر الشيال، دار الفكر العربى، ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م ص ١٤٨ - ١٤٩.

(٢) أنظر نفس المصدر ص ١٦٣، س ١٠ - س ١٢.

(٣) أنظر عن كسوة الكعبة المقرئى: الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك نشر الشيال، القاهرة، ١٩٥٥م، ص ٤٣ - ٤٤ حيث يذكر كسوتها العباسية السوداء على عهد المهدي العباسى، وص ٦٦ حيث يذكر كسوتها بالديباج الأبيض شعار الدولة الفاطمية على يد الدولة الرسولية باليمن. وأنظر عن صناعة الكسوة بمصر من قبل الخلافة العباسية ثم من قبل الخلافة الفاطمية، الشيال: مقدمة الذهب المسبوك للمقرئى ص ٢٠ - ٢١ وهامش "١" ص ٤٣ - ٤٤ على كتاب الذهب للمقرئى أيضاً، المقرئى: الخطط، طبع مطبعة النيل بالقاهرة، ١٣٢٤هـ، ج ١ ص ٢٩٢، ٢٩٣، ٣٦٥، الأزرقى: أخبار مكة، المطبعة الماجدية بمكة ١٣٥٢هـ، ص ١٦٩ - ١٧٧، وعن وصف الكسوة الفاطمية أنظر محمد عبد العزيز مرزوق: الزخرفة المنسوجة في الأقمشة الفاطمية القاهرة ١٩٤٢ ص ١٦، ٥٢ - ٥٣، ٦١، وعن رسوم خروج المحمل الفاطمي إلى الحجاز، أنظر J. Jomier: Le Mahmal وأحب أن أوجه شكرى الجزيل لهذا المستشرق الفرنسي الكبير والأب الدومينيكانى، على ما امتعنى به من حديث شيق عن المحمل المصرى، وما اتسع له صدره من مناقشة بينى وبينه بدير الأباء الدومينيكان بالعباسية.

(٤) كانت إمارة الحج في العصر الفاطمي من وظائف أرباب السيوف، أنظر القلقشندى: صبح الأعشى، ج ١٠ ص ٣٠٨، وأنظر تقليد إمارة الحج صادر عن الخليفة الفاطمي بمصر القلقشندى: صبح، ج ١٠ ص ٤٠٤ - ٤٠٦، وأنظر كذلك نسخة توقيع من الخليفة الفاطمي لقاضى ركب الحج المصرى: القلقشندى: نفسه، ج ١٠ ص ٤٤٢ - ٤٤٣.

وكان تفرد الخليفة الفاطمي بهذا الأمر ، من أعظم مفاخر الخلافة الفاطمية^(١) . وقد استجد في العصر الفاطمي عيد عرف بعيد الحجاج^(٢) .

ولعل في سيطرة الخلافة الفاطمية على إرسال كسوة الكعبة ، وتولى أمير الحج المصري لحماية الحجيج وطريق الحج ، وطاعة أمراء الحجاز للخليفة الفاطمي والخطبة للفاطميين بالحرمين^(٣) ، هو ما يعلل وجود سنوات متلاحقة ، انقطعت فيها أخبار لواء الحج العراقي ، حتى في فترات ضعف الخلافة الفاطمية ، منذ مطلع القرن السادس الهجري ، خاصة وأن أمراء الحجاز ، كانوا يتأرجحون في الولاء بين الخلافتين العراقية والمصرية^(٤) . كما كان تعرض عرب بادية الشام والحجاز ، لنهب الحجاج إذا لم يدفعوا رسوم الغفارة ، سبباً آخر لتعطيل لواء الحج العراقي ، وعودته دون أداء الفريضة في بعض السنين^(٥) وهذا ما يستدل من تتبع أخبار لواء الحج العراقي ، لدى المؤرخين

(١) جاء في تقليد أمير الحاج المصري ، عن لسان الخليفة الفاطمي : " الحمد لله الذي طهر بيته من الأرجاس ، وجعله مثابة للناس ، وآمن من حله وتزله ، وأوجب أجر من هاجر إليه ووصله بحمده أمير المؤمنين أن خصه بجائزة البيت الأعظم ، والحجر المكرم والحكم وزمزم ، وأفضى إليه ميراث النبوة والإمامة ، وتراث الخلافة والزعامة ، وجعله لفرضه مؤثراً ، ولحقوقه مؤدباً ، ولحدوده حافظاً ، ولشرائعه ملاحظاً ، ويسأله أن يصلى على من امره بالتأذين في الناس بالحج إلى بيته الحرام لشهادة منافعهم ، وتأدية مناسكهم .. وإن أولى ما صرف أمير المؤمنين إليه همته ، ووفر عليه رعايته ، مثابراً عليه وناهضاً لحق الله تعالى فيه ، النظر في أمر رفق الحجيج الشاخصة إلى بيت الله الحرام ، وزيارة قبر نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام .. " ، أنظر القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ٤٠٤ - ٤٠٦ .

(٢) أنظر ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٣ ، ج ١ ، ص ١٣٠ - ١٣١ ، وأنظر أيضاً ماجد : ظهور الخلافة ص ٢٢١ - ٢٢٣ .

(٣) أنظر بالتفصيل : جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٥٩ ، وأنظر قبله .

(٤) أنظر ماجد : ظهور الخلافة ، ص ٢٢٩ وأنظر قبله . ولعل هذا التآرجح من قبل أمراء الحجاز ، في التبعية للخلافتين العراقية والمصرية ، ما يفسر الخبر الذي أورده سبط ابن الجوزي سنة ٥١٠ هـ ، فيذكر أنه حج بالناس من العراق أمير الجيوش بمن عبد الله المستظهرى ، ودخل مكة وعلى رأسه الأعلام ، وخلفه الكوسات واليوقات والسيوف في ركابه ، ويلق سبط ابن الجوزي قائلاً : وإنما قصد إزال أمير مكة ، أنظر مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٣ ، ص ٧٠ . ثم يزيد الأمر وضوحاً بقوله : وهذا الجيش إنما دخلها معظماً ، لأن أميرها والسودان كانوا عصاة على بنى العباس ، لا يرون أمانتهم ، ويخطبون لغيرهم . فقصد بذلك الطاعة والإذعان ، لا الهوان والعصيان ، سبط : نفسه ج ٨ ص ٦٤ .

(٥) أنظر سبط ابن الجوزي : مرآة ، ج ٨ : ٢٠٥ حوادث سنة ٥٤٥ هـ ، ج ٨ ص ٥٦٨ - ٥٦٩ حوادث سنة ٦١٠ هـ ، ابن الفوطى : الحوادث ، ص ٦ - ٧ ، حوادث سنة ٦٢٦ هـ ، ص ٦٠ - ٦١ ، حوادث سنة ٦٣١ هـ ، ص ٩٠ حوادث ٦٣٢ هـ .

العراقيين ، الذين حرصوا على ذكر أخباره في كل سنة^(١) .

عودة الخطبة للخلافة العباسية ببلاد الحجاز والحرمين الشريفين على يد سلاطين بني زنكي وبني أيوب ، والكسوة العباسية للكعبة :

ويبدو أن عودة السيادة العباسية على الحجاز ، وعودة زعامة الوية الدول الإسلامية في موسم الحج إلى لواء الحج العراقي ، يرجع إلى مساعي السلاجقة في الاستيلاء على ممتلكات الفاطميين الدعاء على منابرها للخلافة العباسية^(٢) . وقد تم هذا على يد تلميذ السلاجقة النجيب نور الدين زنكي ، الذي بالغ في الإحسان لأهل مكة والمدينة ، وبعث العساكر لحفظ المدينة النبوية ، وأقطع أمير مكة إقطاعًا ، وأقع أمراء العربان إقطاعات لحفظ الحاج فيما بين دمشق والحجاز ، وأكمل سور المدينة النبوية ، واستخرج لها العين ، فدعى له بالحرمين على منبريهما^(٣) . بعد اسم الخليفة العباسي .

ولمة معلومة على جناب كبير من الأهمية ، لدارس تاريخ الأسرة الأيوبية ونشأتها ، تشير إلى أن تولى مؤسسى هذه الأسرة ، لإمارة لواء الحج الشامي ، إبان خدمتهما لنور الدين زنكي ، كان من أهم عوامل استقواء نفوذ هذه الأسرة الطموحة . فنعرف أن نجم الدين أيوب ، كبير البيت

(١) أنظر سبط ابن الجوزي : مرآة ، ج ٨ ص ٦٣ حوادث سنة ٥١٠هـ ، ص ٩٨ حوادث ٥١٥هـ ، ص ١٥٨ حوادث سنة ٥٣٠هـ ، ص ١٧٤ حوادث سنة ٥٣٤هـ ، ص ١٧٧ حوادث سنة ٥٣٥هـ ، ص ١٨٠ سنة ٥٣٦هـ ، ص ١٨٢ ، ص ١٨٤ سنة ٥٣٩هـ ، ص ١٨٥ سنة ٥٤٠هـ ، ص ١٨٨ سنة ٥٤١هـ ، ص ١٩٦ سنة ٥٤٢هـ ، ص ٢٠٠ سنة ٥٤٣هـ ، ص ٢٠١ سنة ٥٤٤هـ ، ص ٢١٣ سنة ٥٤٧هـ ، ص ٢١٥ سنة ٥٤٨هـ ، ص ٢٢٤ سنة ٥٥٠هـ ، ص ٢٢٧ سنة ٥٥١هـ ، ص ٢٣٢ سنة ٥٥٤هـ ، ص ٢٣٤ سنة ٥٥٥هـ ، ثم تقطع أخبار الحج العراقي تمامًا حوالي سبعة عشر عامًا ثم تعود سنة ٥٧٢هـ ، وهي السنة التي ذكر فيها ابن الجوزي إيصال صلاح الدين الغفارة عن الحجاج ، أنظر مرآة الزمان ، ٨ : ٣٣٨ - ٣٣٩ ، وبعد ذلك تتطرد أخبار لواء الحج العراقي ولا تقطع إلا نادرًا ، أنظر مرآة ج ٨ ص ٣٥٥ ، ٣٦١ ، ٣٧١ ، ٣٨٣ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٤٠٥ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٦ ، ٥١٠ ، ٥١٩ ، ٥٢٤ ، ٥٢٦ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ - ٥٢٨ ، ٥٣٠ ، ٥٣٥ ، ٥٣٩ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٦ ، ٥٥٦ - ٥٥٧ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٥ ، ٦٠٦ ، ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ ، ٧٤٩ . والملاحظ أن إنقطاع لواء الحج العراقي منذ مطلع القرن السابع الهجري وإلى سقوط بغداد ٦٥٩هـ ، مرده التحرك المغولي ، أنظر أخبار لواء الحج العراقي في هذا القرن عند ابن الفوطي : الحوادث ص ١٦ ، ٣٧ ، ٥٢ ، ٧٤ ، ٨٨ ، ١٨٧ - ١٨٨ ، ١٩١ ، ٢٢٧ ، ٣١١ - ٣١٢ . وحدنا المارودي عن المهام الدينية والسياسية لأمير الحج العراقي ، الأحكام السلطانية ص ١٠٣ - ١٠٥ . عن الولاية على الحج وبيان إقسامها . وعن وظيفة إمارة الحج في العصور المتأخرة أنظر كتاب : حسن الصفا والابتهاج ، يذكر من ولي إمارة الحج ، للشيخ أحمد الرشيدى . (برولكمن ملحق ٢ / ٥١٦) . أوله : حمدًا لك يا من رفع معالم البيت الشريف على أثبت ببيان ، منه نسخة خطية بمكتبة سوهاج : برقم ٨٢ تاريخ ، ٨٨ ، ق ، ١٣ × ٢١ سم . وهي مصورة بمعهد المخطوطات برقم ٢١٥ تاريخ .

(٢) أنظر قبله .

(٣) القرزى : الذهب المسبوك ص ٦٩ .

الأيوبي ، كان قد تولى إمارة الحج الشامي لنور الدين زنكي منذ سنة ٥٥١هـ / ١١٥٦^(١) ، والجدير بالملاحظة أنه قد ورثه في هذا المنصب اخوه أسد الدين شيركوه ، الذي وصف أنه قد تقدم عند نور الدين زنكي ، وبعثه أمير الحاج من دمشق^(٢) . وكان شيركوه فى حياته قد أنفق من أمواله المبالغ الضخمة ، فى سبيل إقامة العمائر الدينية والخيرية بالحرمين هو وصديقه الوزير جمال الدين وزير صاحب الموصل ، وأوصى صديقه بأن يدفن فى تربة بجوار المسجد النبوى بالمدينة المنورة^(٣) . وقد حرص ملوك بنى أيوب على تحقيق هذه الأمنية والوصية ، فقاموا بنقل رفاة نجم الدين أيوب وأخيه شيركوه بعد دفنهما بمصر ، وأعادوا دفنهما بالمدينة المنورة ، طبقاً لوصيتهما^(٤) .

واستمرت السيادة العباسية على الحجاز ، على يد سلاطين وملوك الدولة الأيوبية ، وتبدت مظاهر عودة هذه السيادة فى الخطبة للخليفة العباسى بالحرم المكى ، قبل أمير مكة ، وقبل السلطان الأيوبي صاحب مصر ، وملك اليمن من بنى أيوب^(٥) . وفى إرسال التقاليد الخليفية بالإمارة لكل من أمير مكة والمدينة ، صُحبه أمير الحاج العراقى - وكان تقليد أو عزل أمير المدينة ومكة أو أولياء

(١) سبط : مرآة ، ٨ : ٢٢٧ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٠ س ٧ .

(٣) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ٨ : ٢٥٠ . ولقد بقيت عمائر الوزير جمال الدين الموصلى عامرة ووصفها ابن جبير فى رحلته ، أنظر ابن جبير : الرحلة ص ١٠٤ ، وأنظر ترجمته هذا الوزير عند ابن الأثير : الباهر ، ص ١٢٧ - ١٣٠ .

(٤) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ٨ : ٢٧٨ . يقول ابن واصل بعد ذكر وفاة نجم الدين أيوب سنة ٥٦٨هـ . ولما توفى دفن إلى جانب أخيه أسد الدين شيركوه فى بيت بالدار السلطانية ، ثم نقلوا بعد سنتين إلى مدرسة بنيت لهما بالمدينة ، بإزاء حجرة النبى - صلى الله عليه وسلم - وسعدا بجوار النبى - عليه السلام - فتم لهما بذلك سعادة الآخرة ، مضافة إلى ما نلاه من سعادة الدنيا ، ولما حججت سنة ٦٤٩ وقدمت المدينة - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام رأيت قبريهما بهذه المدرسة . ابن واصل : مفرج ج ١ ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

(٥) ابن جبير : الرحلة ص ٧٣ حيث يقول : ثم قام الخطيب للخطبة الثانية ، فأكثر بالصلاة على محمد ، صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله ورضى عن أصحابه ، واختص الأربعة الخلفاء بالتسمية ، رضى الله عن جميعهم ، ودعا لعلى النبى حمزة والعباس ، وللحسن والحسين ، ورواى الترضى عن جميعهم . ثم دعا لأمهات المؤمنين زوجات النبى صلى الله عليه وسلم ، ورضى عن فاطمة الزهراء وعن خديجة الكبرى بهذا اللفظ . ثم دعا للخليفة العباسى ، أبى العباس أحمد الناصر ، ثم لأمير مكة مكث بن عيسى بن فليته .. بن هاشم الحسنى . ثم لصالح الدين .. ولولى عهده أخيه أبى بكر بن أيوب .. وأنظر أيضاً ابن جبير : الرحلة ص ٨٠ ، يقول وفى أثر كل صلاة مغرب ، يقف المؤذن الزمزمى فى سطح قبة زمزم رافعاً صوته بالدعاء للإمام العباسى أحمد الناصر لدين الله ثم للأمير مكث ، ثم لصالح الدين أمير الشام وجهات مصر كلها واليمن .. ثم يصل ذلك بدعاء لأمرء اليمن من جهة صلاح الدين ثم لسائر المسلمين والحجاج والمسافرين وينزل . هكذا دابة دائماً .

عهدهما يقرأ بجوار المسجد النبوي^(١)، وإرسال كسوة الكعبة كل سنة بشعار بنى العباس وهو السواد، ويطرُزُ حمراء تحمل اسم الخليفة العباسي وعبارات دعائية له^(٢). كما تولى خلفاء بنى العباس، عمارة الحرم المكي^(٣)، والمسجد النبوي^(٤). كذلك كان الخليفة العباسي وحده، هو صاحب الحق في رفع لواءه يوم الوقوف بعرفات^(٥).

(١) أنظر سبط : مرآة ، ٨ : ٥٢٤ ، ٦١١ ، ولقد أورد القلقشندي أكثر من نسخة تقليد لأمير مكة الحسني صادرة عن ديوان الإنشاء المالكي بعد انتقال الخلافة العباسية للقاهرة ، وهو يوصي أمير مكة بتأمين الحاج وحسن وفادتهم وحماية أموالهم وأرواحهم ، أنظر صبح ج ١٢ ص ٢٣٣ - ٢٤٠ ، وأورد القلقشندي أكثر من نسخة تقليد لأمير المدينة من العصر المالكي لأنه كان بالمدينة المنورة الكثيرون من أنصار الشيعة الإسماعيلية ، وأمير مكة الحسيني مكلف بمراقبتهم ، صبح : ج ١٢ : ٢٤٢ - ٢٥٨ ، وأنظر ابن الفوطي : الحوادث ص ٢٧٤ ص ٢٧٤ ، ص ١ - ٢ .

(٢) يقول ابن جبير : يصف الكسوة العباسية للكعبة ، " وسقف البيت ، مجلل بكساء من الحرير الملون ، وظاهر الكعبة كلها من الأربعة الجوانب ، مكسو بستور من الحرير الأخضر ، وسداها قطن ، وفي أعلاها رسم بالحرير الأحمر ، فيه مكتوب أن أول بيت وضع للناس للذي ببكة ، الآية ، واسم الإمام الناصر لدين الله ، في سعته قدر ثلاث أذرع ، يطيف بها كلها . قد شكل في هذه الستور ، من الصنعة الغريبة التي تبصرها ، أشكال محاريب رائعة ، ورسوم مقرّوة مرسومة بذكر الله تعالى ، وبالنداء للناصر العباسي المذكور ، الأمر بإقامتها ، وكل ذلك لا يخالف لونها . وعدد الستور من الجوانب الأربعة أربعة وثلاثون سترًا ، وفي الصفحتين الكبيرين فيها ثمانية عشر ، وفي الصفحتين الصغيرين ستة عشر ، وله خمسة مضايء ، وعليها زجاج عراقى بديع النقش .. وبين الأعمدة أكواس من الفضة ، عددها ثلاث عشرة ، وأحدها من ذهب . ابن جبير : الرحلة ص ٦٠ - ٦١ ، أنظر أيضًا ص ٩٦ - ٧٠ ، وأنظر بعده .

(٣) أورد ابن جبير النصوص التأسيسية الخاصة بعمارة بنى العباس للحرم المكي وتوسيعه فيقول " توجد " رخامتان متصلتان بجوار الحجر المقابل للميزاب .. أمر بصنعهما إمام المشرق أبو العباس أحمد الناصر بن المستضيء بالله . العباسي . ويقابل الميزاب .. رخامة نقشت .. نقشًا عجيبًا ، فيه مكتوب : لما أمر بعمله عبد الله وخليفته ، أبو العباس أحمد الناصر لدين الله ، أمير المؤمنين ، وذلك سنة ست وسبعين وخسمائة (٥٧٦ هـ) أنظر ابن جبير : الرحلة ص ٦٤ - ٦٥ . ولقد أورد ابن جبير نصوص نقوش خاصة بعمارة الكعبة وأما ، ترجع إلى عهد الخلفاء العباسيين الأول ، فأورد نقشين من عهد الخليفة المهدي لدين الله ، مؤرخين سنة ١٦٧ هـ ونقش من عهد الخليفة المقتفي لأمر الله مؤرخ بسنة ٥٥٠ هـ ، أنظر الرحلة ص ٦٨ - ٦٩ . وآخر من عهد الخليفة المستضيء بأمر الله مؤرخ سنة ٥٧٣ هـ وأنظر الرحلة ص ٨٤ ص ١٢ - ١٦ ، وآخر من عهد الخليفة المهدي لدين الله مؤرخ سنة ١٦٧ هـ أيضًا وأنظر الرحلة ص ٨٥ - ٨٦ .

(٤) حدث هذا سنة ٦٥٤ حين أحترق المسجد النبوي ، بسبب حريق عارض ، فأحترقت الحجرة النبوية ، والمنبر الذي من عهد النبي ، فلما بلغ الخليفة المستعصم لذلك أرسل قاضي القضاء ، وعدة من العدول ، وأصحابهم مالا لعمارة ما احترق ، فعمروا ما خرب وأعادوه أحسن ما كان ، أنظر ابن الفوطي : الحوادث ص ٣١٦ .

(٥) أنظر ابن جبير : الرحلة ص ١٦٣ - ١٦٤ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٦ : ١٠٥ .

وتأكيداً لإشراف الخلافة العباسية على الحرم المكي ، كان أمير الحج العراقي يقوم بنفسه بكسوة الكعبة مع خواصه^(١) ، كما كانت الخلع الخليفة شعار السواد العباسي ، ترسل من بغداد إلى خطيب الحرم المكي ، شأنه شأن خطباء البلاد التابعة للخلافة العباسية على حد قول ابن جبير ، وذلك كي يلبسها عند صعوده للخطبة الجامعة ، كما كان لمقرئ الحرم أيضاً خلعة عباسية بشعار السواد ، وفي أثناء الخطبة تركز رايتان سوداوان في أول درجة من المنبر^(٢) .

كذلك لاحظ ابن جبير أنه كان للحرم المكي أربعة أئمة سنّية ، وإمام زيدى شيعي ، وكان الإمام الشافعي المذهب ، يعد المقدم على بقية الأئمة ، الحنفي والمالكي والحنبلي والزيدى ، لأنه المقدم من الإمام العباسي ، وكان أول من يصل^(٣) ؛ وأخيراً فقد كان الخليفة العباسي هو الذي يقربني شيبية وهي الأسرة التي توارث سدانة الكعبة وحجابتها وحمل مفاتيحها منذ الجاهلية وبعد الإسلام^(٤) ، على وظيفة سدانة الكعبة ويجدد تقليدهم كل عام^(٥) .

أصبح السلطان الأيوبي منذ عهد صلاح الدين هو خادم الحرمين الشريفين :

وكما ورث صلاح الدين عن استاذة نور الدين زنكي ، السلطنة العامة ، ورسالته في توحيد الجبهة الإسلامية لجهاد الصليبيين ، عن طريق إحياء الخلافة العباسية ، ونصرة الدعوة السنّية^(٦) ، ورث عن استاذة أيضاً مهمة الحجاج وتأمين طريق الحج .

(١) يقول ابن جبير يصف رسوم وصول الكسوة العباسية الجديدة للكعبة : وفي يوم السبت يوم النحر المذكور ، سبقت كسوة الكعبة المقدسة من محلة الأمير العراقي إلى مكة على أربعة جمال ، تقدمها القاضي الجديد بكسوة الخليفة السوادية والرايات على رأسه والطول تهر ورائه وابن عم الشيبى .. معها ، فوضعت الكسوة على السطح المكرم أعلى الكعبة . فلما كان الثلاثاء الثالث عشر من الشهر المبارك المذكور ، اشتغل الشيبون بأسيالها خضراء يانعة .. في أعلاها رسم أحمر ، مكتوب في الصفح الموجه إلى المقام الكريم ، حيث الباب المكرم ، وهو وجهها المبارك ، بعد البسمة : إن أول بيت وضع للناس ، الآية ، وفي سائر الصفحات اسم الخليفة والدعاء له ، وتحف بالرسم المذكور طرزان حمراوان ، بدوائر صفار وبيض ، فيها رسم بخط رقيق ، يتضمن آيات من القرآن ، وذكر الخليفة أيضاً .. أنظر ابن جبير : الرحلة ص ١٥٧ - ١٥٨ .

(٢) أنظر ابن جبير : الرحلة ص ٧٢ - ٧٤ ؛ وكانت هذه الرسوم العباسية الخاصة بالدعاء لبني العباس على المنابر متبعة أيضاً في مصر زمن صلاح الدين ، أنظر ابن جبير الرحلة ص ١٧ ، ٢٦ - ٢٧ ، ٢٩ ، وأنظر قبله وبعده .

(٣) أنظر ابن جبير : الرحلة ص ٧٨ - ٨٠ .

(٤) عن قصة بنى شيبية في مفتاح الكعبة ، أنظر القلقشندي : نهاية الأرب رقم ٨٩٨ تاريخ تيمور ، دار الكتب ، ص ٣٠٨ - ٣٠٩ ، وأنظر : التذكرة التيمورية ص ٣٤٠ - ٣٤١ " الكعبة " .

(٥) أنظر ابن جبير : الرحلة ص ١٥٧ - ١٥٨ .

(٦) أنظر قبله وبعده .

فأمر في سنة ٥٧٢هـ / ١٧٧٦م ، بأبطال الغفارة ، التي كانت تؤخذ من الحاج بحجده ،
المسافرين عن طريق البحر الأحمر ، و عوض صاحب مكة في كل سنة ثمانية آلاف أردب قمح تحمل
إليه في البحر ، ويعمل مثلها فترفق في أهل المارستان بمكة ؛ كما أوقف على الحجاج وعلى الحرمين
الأوقاف^(١) ، وذلك للصرف على مؤنتهم إبان أداء الفريضة^(٢) ؛ كما أقطع أمير مكة الإقطاعات
بصعيد مصر وباليمن^(٣) .

وأيضاً أوقف على أمير المدينة الأمير جواز وأولاده أوقافاً بصعيد مصر ، لم تذكرها
المصادر الأيوبية ، وإن أكدتها وثائق المحكمة الشرعية ، المحفوظة اليوم بسجلات مصلحة الشهر

(١) أنظر سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان : ٨ : ٣٣٨ .

(٢) أنظر ابن جبير : الرحلة ص ٣٠ - ٣١ و ص ٥٤ - ٥٥ حيث يقول موضحاً عسف أمراء مكة بالحجاج
عند تأخر وصول رواتب صلاح الدين إليهم ، لما جعل فقهاء الأندلس يفنون أهل الأندلس والمغرب بسقوط
أداء الفريضة عنهم : " وأكثر هذا الجهات الحجازية وسواها ، فرق وشيع لا دين لهم قد تفرقوا على مذاهب
شتى . وهم يعتقدون في الحاج ما لا يعتقد في أهل الذمة ، قد صبروهم من أعظم غلاتهم التي يستغلونها :
ينتهونهم انتهائياً .. فالحاج معهم لا يزال في غرامة ومؤدنه إلى أن يسر الله رجوعه إلى وطنه . ولولا
ما تلافى الله به المسلمين في هذه الجهات بصلاح الدين ، لكانوا من الظلم في أمر لا ينادى وليده ولا يلين
شديده . فإنه رفع ضرائب المكوس عن الحاج وجعل عوض ذلك مالاً وطعاماً يأمر بتوصيلهما إلى مكثر أمير
مكة ، فمتى أبطأت عنهم تلك الوظيفة المترتبة لهم ، عاد هذا الأمير إلى ترويع الحاج ، وإظهار تثقيفهم بسبب
المكوس . واتفق لنا من ذلك أن وصلنا جدة ، فأمسكنا بها خلال ما خوطب مكثر الأمير المذكور . فورد أمره
أن يضمن الحاج بعضهم بعضاً ويدخلوا إلى حرم الله ، فإن ورد المال والطعام اللذان يرسمه من قبل صلاح
الدين وإلا فهو لا يترك ماله قبل الحاج ، هذا لفظه كان حرم الله ميراث بيده محلل له إكترأؤه من الحاج
فسبحان مغير السنن ومبدلها .. فمن يعتقد من فقهاء أهل الأندلس إسقاط هذه الفريضة عنهم
فاعتقاده صحيح لهذا السبب . فراكب هذا السبيل راكب خطر .. والله قد أوجد الرخصة فيه على غير هذا
الحال .

(٣) يقول ابن جبير : " والذي جعل له صلاح الدين بدلاً من مكس الحاج ، ألفا دينار الثمان ، وألفاً أردب
من القمح ، وهو نحو الثمانمائة مغيز بالكيل إلا شيللي عندنا ، حاشا إقطاعات أقطعها بصعيد مصر وبجهة
اليمن لهم بهذا الرسم المذكور . ولولا مغيب هذا السلطان العادل صلاح الدين بجهة الشام في حروب
له هناك مع الإفرنج ، لما صدر عن هذا الأمير المذكور ما صدر في جهة الحاج " ، الرحلة ص ٥٥ ، ص ١ -

العقارى^(١)؛ وقد شفع صلاح الدين ذلك برفع جميع المكوس - وهي ضرائب غير شرعية كانت تجبى من التجار^(٢) - عن الحجاج ، فسهل سبيل الحج ، بعد أن كاد ينقطع ، ولم يعد فى استطاعة الحجاج أداء فريضة الحج^(٣) .

(١) أنظر سجل محكمة الباب العالى ، وكان مقرها بالقرب من منطقة بيت القاضى بشارع بين القصرين ، ورقم السجل بمصلحة الشهر العقارى ٢٧٤ ، الوثيقة رقم ٦٦٨ ، صفحة ٣٧٣ وما بعدها بالسجل ، والسجل يتضمن أحكام قاضى القضاة محمد أفندى وناليه فى الحكم ، إسماعيل أفندى الناظر فى الأحكام الشرعية بمصر المحمية ، فى شهر ذى الحجة سنة ١١٨٣ هـ . ومجمل القضية أن بعض أهل ناحية قفا ، و " الديرية " أو لعلها " الديرية " و " الطوايبة " بالوجه القبلى ، وكانوا من أسرة شخص يدعى مجرم البططى ، قد ادعوا أن عميد عائلتهم البططى هذا شريفاً من ذرية الشريف جهاز ، أمير المدينة المنورة ، واستندت عائلة البططى فى إدعائها على حجة نسب أى شجرة عائلة رق غزال أوصال (بمعنى قطع موصله بعض) مخططة ، مسطرة من محكمة مكة المشرفة بالأقطار الحجازية مؤرخة بـ ٤ سفر سنة ١٢٧٤ هـ . وعلى هذا الأساس طالبوا باستحقاقهم حصة قدرها قيراطان إنسان من الرزقة (الرزقة : هي الأرض السوداء الخصبة التى تأتى أكلها وتكون وقفاً) الطين السوداء المعروفة بجهاز ، التى عبرتها ٨٧٥٠ فدانا ، الكائنة بأرض ناحية قفا والديرية والطوايبة ، بالوجه القبلى ، وأن المدعى عليهم واضعون أيديهم على هذه الأرض ، ولا يدفعون لهم كمستحقين عنها خراجاً . فلما سئل المدعى عليهم أجاب كل منهم : " بأن كامل الرزقة المذكورة موقوفة من قبل مولانا السلطان الملك المؤيد (كذا) المنصور (كذا) أبو الفتح (كذا) ، صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب ، أمير المؤمنين (كذا) ؛ كان تقمده الله بالرحمة والرضوان أوقفه على السادة الأشراف الحسينية وعلى السادة الشراف الحسينية بمكة والمدينة ، وأنهم ومن يشركهم ، من الأشراف الحسينية والأشراف الحسينية ، واضعون أيديهم على ذلك نسلًا بعد نسل من حين صدور الوقف فى ذلك ، من قبل مولانا السلطان المشار إليه أعلاه ، والولاية فى مدة تزيد على خمسمائة سنة ، سابقة على تاريخه . فحكم القاضى ببطالان الدعوى ، وبقاء الأرض الموقوفة فى يد أصحابها الواضعين أيديهم عليها لكونهم من ذرية الشريف جهاز أمير المدينة . ومنطوق الحكم مؤرخ بـ ٤ جمادى الأولى سنة ١١٨٤ هـ . وأحب هنا أن أشكر الأستاذ أحمد الحين ، خير حجيج الوقف وسجلات الشهر العقارى ، لأنه هو الذى دلتنى على وجود هذه القضية ، كما أشكر الزميل الأخ عراقى يوسف مدرس التاريخ الحديث بأداب عين شمس ، الذى عرفنى على الأستاذ أحمد الحين .

(٢) أنظر بعده .

(٣) يقول ابن جبير : ومن مفاخر هذا السلطان (صلاح الدين) الملقبة من الله تعالى وأثاره التى أبقاها ذكراً جليلاً للدين والدنيا : إزالة رسم المكس المضروب ، وظيفته على الحجاج ، مدة دولة العبيديين (الفاطميين) . فكان الحجاج يلاقون من الضغط فى استيادتها ، عننا مجحفاً ، ويسامون فيها خطة خسف باهظة ؛ وربما ورد منهم من الافضل لديه على نفقته ، أولاً نفقة عنده ، فيلزم أداء الضريبة المعلومة ، وكانت سبعة دنانير ونصف دينار من الدنانير المصرية التى هى خمسة عشر ديناراً مؤمنة على كل رأس ، ويعجز عن ذلك فيتناول بأليم العذاب .. هذا السلطان هذا الرسم اللعين ، وسهل السبيل للحجاج وكانت فى حيز الانقطاع وعدم الاستطلاع ، أنظر ابن جبير: الرحلة ص ٣٠ - ٣١ . ولقد أورد العماد الأصفهاني فصلاً كاملاً فى كتابة البرق الشامى ج ٣ لوحة ١٧٣ - ١٧٤ اعنونه به ذكر ما استقطه السلطان من مكوس مكة شرفها الله تعالى عن الحجيج وتعويضه أميرها عنها بجلاب غلة تحمل إليه فى كل سنة ، وتعيين ضياع موقوفه عليها بالديار المصرية . وأنظر لوحة ٧٤ وصف طريق الحجاج من مصر إلى جدة عبر البحر الأحمر وركوب الحجاج ؛ ثم يوضح العماد ورود أخبار عن اضطراب الأمور ببلاد الحجاز وأنه على صلاح الدين الاهتمام بالحجاز خاصة بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس . وعن تفاصيل خاصة برفع المكوس عن الحجاج والإقطاعات والرواتب الخاصة التى رتبها صلاح الدين لأمرء الحجاز ، أنظر المقرئى السلوك ، ج ١ ص ٦٤ حوادث سنة ٥٧٢ هـ . وسنة ٥٧٧ هـ ، كتب إلى قوص بإبطال المكوس التى تستادى من الحجاج وتجار اليمن ، أنظر المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٤ .

وكل هذه الأيادي البيضاء التي أسداها صلاح الدين ، لحجاج بيت الله الحرام ، جعلت من السلطان المصري الأيوبي ، حامى حمى الحرمين الشريفين ، وهو مظهر من مظاهر الزعامة السياسية في العالم الإسلامي كله ، نلمس خطورته في غنى الرحالة الأندلسي ابن جبير - وكان أغلب الظن أحد دعاة الدعوة الموحدية^(١) التي تفرعت عن الدعوة الأشعرية^(٢) - ، بأن يكون هذا الشرف ، من نصيب سلطانه^(٣) ، الخليفة عبد المؤمن الموحدى^(٤) ؛ هذا رغم إعجابه المتناهي بصلاح الدين وإغرابه في الدعاء له ، والإشارة بعد له لتأمينه طريق الحج ، كلما ورد ذكر اسمه عرضاً عند تدوينه لأخبار رحلته^(٥) ؛ وهو يقرر - رغم إدعائه أنه قد وجد أنصاراً للدعوة الموحدية المؤمنية في مصر

(١) عن الدعوة الموحدية ، أنظر كتاب الفيلسوف المغربي المعاصر مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي ؛ وهو يوضح كيف أن الدعوة الموحدية بالمغرب ، هي أصل الدعوة الموحدية بالجزيرة العربية التي أعلنها المصلح الدينى الإمام محمد بن عبد الوهاب ، ونشرتها الدولة السعودية الأولى في مطلع القرن التاسع عشر ، وأطلق عليها الاستعمار الإنجليزي اسم الدعوة الوهابية ؛ وأنظر بعده .

(٢) أنظر قبله وبعده .

(٣) عن كون " الخليفة " ابن عبد المؤمن الموحدى سلطاناً في حقيقة الأمر ، أنظر قبله وبعده .

(٤) حاول ابن جبير إظهار الفساد المذهبي لأهل الحجاز ، وتفرقتهم فرق وشيع ، وارتكابهم المعاصى بإذلالهم حجاج البيت الحرام ؛ ثم أزدف هذا بالتأكيد أن صلاح بلاد الحجاز ، مهد الإسلام ، لن يتم إلا بسيطرة الدعوة الموحدية ، وخلفاء بنى عبد المؤمن ، على هذه البلاد ؛ فيقول : فأحق بلاد الله بأن يطهرها السيف ، ويقسل أرجاسها وأدناسها بالدماء المسفوكة في سبيل الله ، هذه البلاد الحجازية .. تلافها الله عن قريب بتطهير يرفع هذه البدع المصحفة عن المسلمين ، بسيوف الموحدية أنصار الدين ، وحزب الله أولى الحق والصدق والدفاع عما حرم الله عز وجل ، والغائرين على مخادمه ، والجادين في إعلاء كلمته وإظهار دعوته ونصر ملته ، إنه على كل شىء قدير .. ولتتحقق التحقق ويعتقد الصحيح الاعتقاد أنه لا إسلام إلا ببلاد المغرب ، لأنهم على جادة واضحة ؛ ومن سوى ذلك ممن بهذه الجهات المشرقية ، فأهراء وبدع ، وفرق ضالة وشيع ، إلا من عصم الله عز وجل من أهلها ؛ كما أنه لا عدل ولا حق ولا دين على وجهة ، إلا عند الموحدين ، أعزهم الله ، فهم آخر أئمة العدل في الزمان (أنظر ابن جبير : الرحلة ص ٥٥ - ٥٦) .

(٥) يقول ابن جبير بعد حديثه عن رفع صلاح الدين للمكوس عن الحجاج : وكفى الله المؤمنين على يدي هذا السلطان العادل ، حادثاً عظيماً ، وخطباً أليماً ، فترتب الشكر له على كل من يعتقد من الناس ، أن حج البيت الحرام ، إحدى القواعد الخمس من الإسلام ، حتى يعم جميع الأفاق ، ويوجب الدعاء له في كل صقع من الأصقاع وبقعة من البقاع ، والله من وراء مجازاة المحسنين ، وهو جلت قدرته ، لا يضيع أجر من أحسن عملاً .. (إذ) أزال هذا السلطان هذه البدع للعبنة كلها ، وبسط العدل ، ونشر الأمن ، ابن جبير : الرحلة ص ٣١ س ١١ - ١٧ . حين تحدث ابن جبير عن إجحاف جباة الضرائب المصريين التابعين لصلاح الدين بالحجاج ، لأخذهم الزكاة عن أموال الحجاج التي لم يحل عليها الحول ، فلا تجب عليها الزكاة ، وذلك في محطات الحجاج بمصر بالإسكندرية (أنظر ابن جبير : الرحلة ص ١٣ - ١٤ ، ص ١٦) ، وبلاد الصعيد كأخميم وقوص ومنية ابن الخصيب (أنظر ، نفسه ص ٣٨) وأكد ابن جبير أن صلاح الدين لا علم له بذلك ، وأنه لو علم به لعاقب مرتكبيه فيقول : وهذا أمر يقع القطع على أن صلاح الدين لا يعرفه . ولو عرفه لأمر بقطعه ، كما أمر بقطع ما هو أعظم منه ، وجاهد المتنازل له ، فإن جهادهم من الواجبات ، لما يصدر عنهم من التعسف ، وعسير الإرهاق وسوء المعاملة ، مع غرباء انقطعوا إلى الله عز وجل ، وخرجوا مهاجرين إلى حرمة الأمين .. هذا السلطان العادل ، الذى قد شمل البلاد عدله ، وسار في الأفاق ذكره .. والله الآخذ على أيدي هؤلاء الظلمة ، بيد هذا السلطان العادل ، وتوفيقه إن شاء الله ، (أنظر ابن جبير : الرحلة ص ٣٨ - ٣٩) .

والإسكندرية في عصر صلاح الدين^(١) ، بأن الدعاء لصلاح الدين على منابر الحرمين بعد الخليفة العباسي وأمير مكة ، وتأمين جميع الحجيج على هذا الدعاء ، أقل واجب على المسلمين ، في جميع الآفاق ، تجاه هذا السلطان العادل ، الذي أمن فريضة الحج^(٢) .

والواقع أن صلاح الدين لم يدخر وسعاً لاستمرار تأمين طريق الحج ، بحيث جعل هذا الأمر هجيراً ، بحيث دام على مكاتبة أمير مكة يوصيه برعاية الحجاج عند وصولهم إلى الحرم المكي^(٣) ؛ كما كاتب أمير بركة من قبله ، يوصيه بحماية الحجاج المغاربة والأندلسيين المارين بولايتيه^(٤) ، كذلك حرص على تبادل السفارات الودية مع أمير المدينة المنورة وتعظيم رسوله والاعتزاز بهدياه ، لكونها من قبل أمير المدينة النبوية الشريفة^(٥) .

وليس أدل على الأهمية العظمى لموسم الحج ، ، والهيمنة الروحية عليه بالنسبة للخلافة ، مما يخبرنا به مؤرخو صلاح الدين ، وكانوا من خواص رجاله ؛ أنه حين عزم للحج سنة ٥٩١ هـ /

(١) أنظر ابن جبير : الرحلة ، ص ٥٦ - ٥٧ وأنظر بعده .

(٢) يقول ابن جبير بعد ذكره لدعاء خطيب الحرم المكي لصلاح الدين : وعند ذكر صلاح الدين ، تخفق الألسنة بالتأمين عليه من كل مكان . وإذا أحب الله يوماً عبده إذا ألقى عليه محبة الناس ، وحق ذلك عليهم لما يبذله من جميل الاعتناء بهم ، وحسن النظر لهم ، ولما رفعه من وظائف المكوس عنهم (ابن جبير : الرحلة ص ٧٣ ص ٢٠ - ٢٤) . ويقول بعد ذكره لدعاء خطيب زمزم لصلاح الدين ، أنه " ذى المآثر الشهيرة ، والمناقب الشريفة ، فإذا انتهى إلى ذكره بالدعاء ، ارتفعت أصوات الطائفين بالتأمين ، بالسة تمدها القلوب الخالصة ، والنيات الصادقة . وتخفق الألسنة بذلك خفقاً ، يذيب القلوب خشوعاً ، لما وهب الله لهذا السلطان العادل ، من الشئ الجميل ، وألقى عليه من محبة الناس ، وعباد الله شهدائه في أرضه " (ابن جبير : الرحلة ص ٨٠ ص ٩ - ١٤) .

(٣) يقول ابن جبير : أعلمنا بأن كتابه (صلاح الدين) ، وصل إلى الأمير مكثر ، وأهم فصوله ، التوصية بالحاج ، والتأكيد في مبرتهم وتأمينهم ، ورفع أيدي الاعتداء عنهم ، وإلا يعاز في ذلك إلى الخدام والاتباع . وقال : إنما نحن وأنت متقلبون في بركة الحاج . فتأمل هذا المنزع الشريف ، والمقصد الكريم . وإحسان الله يتضاعف إلى من أحسن إلى عباده ، واعتناؤه موصول لمن جعل همه الاعتناء بهم ، والله عز وجل كفيل بجزاء المحسنين (ابن جبير : الرحلة ص ٧٤ ص ١ - ٧) .

(٤) جاء في نسخة تقليد بولاية بركة ، التي كانت على عهد صلاح الدين " قد انتظمت في سلك أعمال المملكة الناصرية ، - أي الدولة الصلاحية - ، ؛ وراع أمور التجار والحجاج ، مراعاة تشملهم في السفر والإقامة ، وتحميمهم من تطرق استهانة ، إلى أحد منهم واستضافة " ، أنظر القلقشندي : صبح الأعشى ج ١ ص ٥٩ - ٦١ ، وخاصة ص ٦١ ص ٩ - ١٠ .

(٥) أنظر ابن حجة الحموي : كتاب ثمرات الأوراق في المحاضرات ، طبع بالقاهرة ، بهامش كتاب المستظرف من كل فن مستظرف للأبشيهي ، سنة ١٣٥٢ هـ / ١٩٣٣ م ص ٤٥ .

١١٩٤ م ، أى قبل وفاته بعام واحد ، - وهو الذى يسر سبيل الحج لجميع المسلمين فى جميع أنحاء العالم الإسلامى - نصحه خواصه بضرورة اطلاع الخليفة أولاً على هذا العزم ، حتى لا يصل إليه الخبر عن طريق آخر ، فيظن بصلاح الدين الظنون^(١) .

تهديد الفرنج الصليبيين لطريق الحج البرى لحجاج مصر والمغرب والأندلس :

ولعل أمراء الصليبيين ، قد أدركوا خطورة فريضة الحج ، كركن أساسى من أركان الإسلام ، يحقق للمسلمين الوحدة الروحية ، ويوثق بينهم روابط اجتماعية وفكرية ، كقيلة ولا ريب بتعصيد شعورهم بالولاء إلى أمة واحدة ، وكيان اجتماعى واحد ؛ فعمدوا أحياناً إلى مهاجمة قوافل الحج والتجارة المصرية ، المارة عبر صحراء سيناء ، فى طريق الحجاج الشهير ، ونهبها^(٢) ؛ مما أدى إلى تعطيل الطريق البرى للحجاج ، الوافدين من الأندلس والمغرب ومصر ، واضطراهم إلى سلوك طريق طويل يبدأ من الإسكندرية ، إلى القسطنطينية ، إلى مدينة قوص بصعيد مصر ، ثم منها يخترق الحجاج صحراء عيذاب ، حتى يصلوا إلى ميناء عيذاب على البحر الأحمر ، ومنها يركبون السفن الصغيرة المعروفة بـ « الجلاب » حتى ميناء جدة ؛ وكانت هذه الرحلة طويلة شاقة عانى منها الحجاج الأمرين^(٣) .

(١) العماد : الفتح القسى ص ٦١١ ، قال له خواصه : " لو كتبت إلى أمير المؤمنين ، وأعلمته بمجرك .. حتى لا يظن بك أمر أنت منه برىء " ، والجدير بالذكر أن صلاح الدين كان ينوى أن يحج بجميع جنوده الذين يرغبون فى أداء الفريضة ، وذلك بعد أن وقع صلح الرملة ، وتم الصلح مع الصليبيين ، وأعطى العساكر الإسلامية دستوراً ، أى سمح لهم بالعودة إلى بلادهم . فيقول ابن شداد : وأشاع السلطان أمر الحج ، وقوى عزمه على براءة الذمة منه ، وكان هذا مما وقع لى ، وبدأت بالإشارة به فى يوم تمه الصلح ، ووقع منه - رحمة الله عليه - موقفاً عظيماً ، وأمر اللديون : " إن كل من عزم على الحج من العسكر ، يثبت اسمه ، حتى يحصر عدة من يدخل معنا فى الطريق ، وكعب جرائد بما يحتاج إليه فى الطريق من الخلع والأزواد وغير ذلك ، وسيرها إلى البلاد ليعدها (ابن شداد : النوادر ص ٢٣٦ - ٢٣٧) ؛ ولكن الموت عاجل صلاح الدين قبل أن يتم أمنيته فى الحج إلى بيت الله الحرام " ، وأنظر العماد : الفتح ج ٣ لوحة ٧٥ حيث يورد فصلاً من إنشاء القاضى الفاضل عن عزم السلطان على الحج فى هذه السنة .

(٢) يذكر ابن واصل أن أول خروج لصلاح الدين من مصر إلى غزاة الفرنج السنة ٥٦٦ هـ ، كان حين وصله الخبر بخروج قافلة من دمشق فيها أهله ، فأشفق عليها ، وخاف عليهم من الفرنج ، فالتقى بالقافلة وخفّرهم إلى مصر . أنظر ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٩٨ . وقد ظل نهب الفرنج لقوافل الحج والتجارة ، حتى بعد انتصار حطين واسترداد بيت المقدس ٥٨٣ هـ ، فنسمع عن نهب الانكثار لقافلة مصرية سنة ٥٨٨ هـ ، أنظر ابن شداد : النوادر ص ٢١٣ - ٢١٥ ، سبط : مرآة ٨ : ٤١٥ إلى ٤١٦ .

(٣) أنظر ابن جبير : الرحلة ص ٣٨ - ٥٣ ، الذى يسمي ميناء عيذاب بـ (العذاب) ، وهو يذكر أن الركوب من جدة إليها " أفة للحجاج عظيمة " ، وهو ينصح الحجاج بعدم سلوك هذا الطريق عند العودة بل يرجعون صحبة أمير الحج العراقى ، ثم يذهبون إلى ميناء عكا على ساحل الشام ، ومنه يأخذون المراكب إلى المغرب والأندلس أو مصر . وأغلب الظن أن قطع الفرنج لطريق الحجاج البرى عبر سيناء ، هو سبب عدم سماعنا عن أخبار الأمير الحج المصرى قبل استرداد صلاح الدين للقدس ولخسنى الكرك والشوبك اللذين كانا يقطعان طريق الحج الشامى والمصرى .

وكان قطع الصليبيين لطريق الحج البرى عبر سيناء ، قد تم لهم بعد استيلائهم على حصن الكرك ؛ مما جعل استرداد هذا الحصن من أهم أهداف نور الدين زنكى^(١) ، ثم صلاح الدين الأيوبي ، حين كان نائبه بمصر ، قبل استقلاله بالسلطنة ؛ لذلك عمد نور الدين إلى محاصرة الكرك حصاراً مزدوجاً من ناحية الشام ومن ناحية مصر فى نفس الوقت ، وكاد يتم له استرداده ، لولا نكوص صلاح الدين وعودته إلى مصر ، خشية أن يعزله نور الدين بعد وضوح نزعاته الاستقلالية بمصر^(٢) .

ولكن حين استقرت السلطنة لصلاح الدين ، جعل الكرك هدفاً لأول غزوة من مغازيه للفرنج ، ليصل طريق القوافل والتجارة عبر سيناء ، بين مصر والشام^(٣) ، ويؤمن طريق الحج المصرى البرى بعد انقطاعه .

(١) يذكر ابن الأثير أن حصار نور الدين زنكى لحصن الكرك سنة ٥٦٥هـ ، كان لحماية قافلة مسلحة خارجة من دمشق بها نجم الدين أيوب والد صلاح الدين ، ومعه عدد كبير من التجار ، وأهل صلاح الدين ، أنظر ابن الأثير : الباهر ص ١٤٤ ؛ ولعلها نفس القافلة التى خرج صلاح الدين لغفارتها ، أنظر قبله .

(٢) كان انسحاب صلاح الدين من أمام الشام ، وعودته إلى مصر قبل وصول نور الدين من الشام ، هو السبب المباشر لما عرف عند المؤرخين بـ "الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين" ، أنظر ابن الأثير : الباهر ص ١٥٨ - ١٥٩ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٢١ - ٢٢٣ .

(٣) كان ذلك سنة ٥٦٨هـ ، ويقول ابن شداد : وإنما بدأ بها لأنها كانت أقرب إليه ، وكانت فى الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية ، وكان لا يمكن أن تصل قافلة حتى يخرج هو بنفسه يعبرها بلاد العدو ، فأراد توسيع الطريق وتسهيله لتصل البلاد بعضها ببعض وتسهل على السابلة ؛ النوادر ص ٤٥ ، أنظر ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ٢٢٤ . وفى سنة ٥٧٩هـ كرر صلاح الدين حصار الكرك هو من الشام وأخوه العادل من مصر بعد أن خرج مع العادل جمع غفير من التجار وغيرهم ، أنظر : النوادر ص ٦٣ . ثم كبر المحاولة مرة ثالثة ، أنظر أيضاً النوادر ص ٦٦ - ٦٨ حيث يقول عن الكرك : وكان على المسلمين منه ضرر عظيم ، فإنه كان يقطع عن قصد مصر ، بحيث كانت القوافل لا يمكنها الخروج إلا مع العساكر الجمة الغفيرة ؛ فاهتم السلطان بأمره ليكون الطريق سائبة إلى مصر ، ويسر الله ذلك ولله المنة ، وفى سنة ٥٨٣هـ خرج صلاح الدين من دمشق حين علم أن أرناط صاحب الكرك قد خرج برجاله لقطع الطريق على لواء الحج الشامى عند عودته إلى دمشق ، العماد : الفتح ص ٥٨ - ٥٩ ؛ ويذكر ابن شداد أن صلاح الدين أقام بأرض الكرك حتى وصل الحاج الشامى إلى الشام ، وأمنوا غائلة العدو ، أنظر النوادر ص ٧٤ من ١١ - ١٢ . ولقد أوضح مؤرخو سيرة صلاح الدين أن موقعة حطين التى كانت إرهاباً يفتح بيت المقدس كانت بسبب قطع أرناط لطريق الحج والتجارة مما جعل صلاح الدين يهدر دمه ، أنظر العماد : الفتح ص ٨٠ - ٨١ ، ابن شداد النوادر ص ٧٤ - ٧٩ . وبعد فتح بيت المقدس أعاد صلاح الدين حصار حصن الكرك والشوبك سنة ٥٨٣هـ وذلك لقطع الفرنج طريق الحج كما صرح العماد ، أنظر الفتح ص ١٩١ ولقد استعصى هذين الحصنين على صلاح الدين حتى بعد فتح القدس ، العماد الفتح ص ٢٠٤ ، إلى أن استسلمت صاحبة الحصن لصلاح الدين ، العماد : الفتح ص ٢٠٥ - ٢٠٧ فتسلم الملك العادل نائب صلاح الدين بمصر هذا الحصن (العماد : الفتح ص ٢٢٦ - ٢٦٧) ؛ ولعل كون أول حملة بحرية للأسطول المصرى الأيوبي كانت سنة ٥٦٦هـ لتفتح قلعة أيلة على البحر الأحمر ، أنظر مفرج الكروب : ١ : ١٩٩ ، كانت لتأمين طريق الحج والتجارة أيضاً .

ولاشك أن حملة أرناط البحرية على البحر الأحمر ومحاولتها الوصول إلى الأراضي الحجازية واختطاف جثمان النبي الكريم ، صلى الله عليه وسلم ، كانت على علم تام بأهمية حج المسلمين إلى الأراضي الحجازية ، وزيارة قبر رسولهم بالمدينة المنورة ؛ لذلك لم يقصر لؤلؤ قائد الأسطول المصرى فى أسر هؤلاء الفرنج ، وإدخالهم إلى القاهرة فى هيئة مزرية ، وعلى صورة من الذلة والمهانة وصفها لنا ابن جبير ؛ ثم أرسل لؤلؤ بعض هؤلاء الأسرى إلى المدينة المنورة ، حيث ذبحوا ذبح الإبل^(١) ؛ فلا غرو أن لقب صلاح الدين بـ « خادم الحرمين الشريفين » و « منقذ بيت المقدس من أيدي المشركين »^(٢) ؛ وليس أدل على الأهمية العظمى التي أولاها العالم الإسلامى ، لتأمين طريق الحجاج المسلمين إلى مكة ، وحرص الأيوبيين على إنجازها ، مما صرح به العماد الأصفهاني مؤرخ صلاح الدين ، من أن تأمين طريق الحج إلى مكة كان من أهم دوافع صلاح الدين ، لفتح بيت المقدس واسترداده من الصليبيين^(٣) .

الإشراف المباشر لملوك بنى أيوب باليمن على موسم الحج، وعموم إشراف سلاطين بنى أيوب بمصر ، على لواء الحج : الشامى ، والعراقى ، والمصرى :

ولقد داوم ملوك بنى أيوب ، على حماية طريق الحج وتأمينه ، وحماية لواء الحج العراقى ، الممثل لسيادة الخليفة الروحية على العالم الإسلامى ؛ وكان هذا عادة ما يكون من حظ أيوبى اليمن ، وذلك حتى فى حياة صلاح الدين ، فكان يخطب لهم بالحرمين ، بعد صلاح الدين سلطان مصر^(٤) .

ففى سنة ٥٨٢هـ / ١١٨٦ ، وصل سيف الإسلام طشتكين ملك اليمن الأيوبى بنفسه إلى الكعبة ، ليمنع الآذان الشيعى بها بـ « حى على خير العمل » ، وليمنع العبيد الموالين لأمير مكة الذين يأخذون الحجاج ؛ وطلب مفتاح الكعبة من أمير مكة ، ليكون هو الحامى للحرم المكى من الناحية الفعلية ؛ وذلك بعد أن حاول أمير مكة إغلاق باب الكعبة ، وإعطاء مفتاحه لسدنته من بنى شيبه ، الذين ذكر الرسول ، أنه سيبقى فى أيديهم إلى يوم الدين ، حتى يرغم طشتكين على العودة دون طلب مفتاح الكعبة ؛ فهدد طشتكين بأخذه قصرًا ، وهنا أذعن أمير مكة ، وسلم المفتاح لطشتكين ، الذى سلمه بدوره لبنى شيبه^(٥) .

(١) عن حملة لؤلؤ أنظر ابن واصل : مفرج الكرب ، ٢ : ١٢٧ - ١٣٢ ، ابن جبير : الرحلة ص ٣٤ ، ص ٣٥ ، العماد : الفتح ص ١١٥ ، وأنظر ترجمته لؤلؤ عند العماد : الفتح ص ٣٤٠ - ٣٤١ .

(٢) ابن شداد : النوادر ص ٣ س ١٠ - س ١١ .

(٣) يقول العماد : أنا استفتحنا سنة ٥٨٤هـ ، بقمع أهل التلث ، وكنا اشفقنا على طريق الحج ، من قصد الفرنج ، فثقلناهم عن القصد بقصدهم ، وتصلينا جهادهم وبردهم عن المراد وصددهم . وأقمننا بظاهر بصرى محيمين على سمت الكرك ، وقدمنا الطلائع إلى المناهل ، ونظمننا سلك إمدادهم فى ذلك المسلك ، حتى وصل الحاج سالمًا ، وذل الكفر عن قصده راغمًا ، (العماد : الفتح ص ١٩١) .

(٤) أنظر ابن جبير : الرحلة ص ٨٠ ، وأنظر قبله .

(٥) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ٨ : ٣٨٨ .

ولقد أكد ابن جبير في وصفه لأدائه فريضة الحج ، أن أيوبى اليمن ، كانوا يشرفون إشرافاً مباشراً على موسم الحج ، فيخلعون على أمير مكة ، وتفتح لهم الكعبة تشریفاً لهم فى غير موسم الحج ، ويعود ركب الحجاج المصريين ، صحبة ملك اليمن الأيوبى ، طلباً لحمايته فى طريق العودة^(١) .
والواقع أن مكة كانت تابعة إدارياً تبعية مباشرة لملك اليمن الأيوبى^(٢) ، شأنها شأن عدن^(٣) ؛ ولعل فى إقدام المعظم تورانشاه - فاتح اليمن وأول ملوكها والأخ الأكبر لصلاح الدين - على الحج ، فكان أول من حج من بنى أيوب ، بعد توليهم الملك^(٤) ؛ كان أول شعور من ملوك الأيوبيين باليمن ، نحو الطموح إلى شرف رعاية فريضة الحج .

وقد ظلت السيطرة السياسية على مكة تتأرجح بين أيوبى اليمن وأيوبى مصر ، فى حالات الصراع الأسرى بين هذين الفرعين من البيت الأيوبى^(٥) ؛ ثم أصبح هذا التنافس على السيطرة على سدانة الكعبة وكسوتها والإشراف على موسم الحج بين أيوبى مصر من ناحية ، وبين الدولة الرسولية - وبنو رسول فى الأصل من ممالك أيوبى اليمن^(٦) - ؛ فأحياناً ما كانت ترجح كفة بنى أيوب ، وأحياناً ما ترجح كفة الرسولين^(٧) .

ومنذ عهد صلاح الدين ، كان لواء الحج الشامى ، معضداً للواء الحج العراقى ، حامياً له ، والواقع أننا لم نسمع عن لواء الحج الشامى ، كلواء مستقل عن لواء الحج العراقى ، إلا منذ سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩ ،^(٨) وكان أول من تولى إمارته ، رجل من رجال القلم - وليس من رجال السيف ، كما هو الحال دائماً فى أمراء الحج سواء فى العصر الفاطمى^(٩) ، أو العصر العباسى^(١٠) - وهو الصفى

(١) ابن جبير : الرحلة ص ١٢٤ - ١٢٧ .

(٢) أنظر بعده .

(٣) ابن جبير : الرحلة ص ١٤٨ .

(٤) المقرئى : الذهب المسبوك ، ص ٧٠ - ٧٣ .

(٥) أنظر ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ص ١٢ - ١٣ ، ص ٤٢ ، ص ١٢٣ - ١٢٤ ، المقرئى : الذهب المسبوك ص ٧٦ - ٧٩ .

(٦) أنظر عن هذه الدولة بالتفصيل كتاب مؤرخهم الحزرجى : العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية ، طبع ليدن ١٩٠٦ - ١٩١٨ .

(٧) أنظر الشيال : مقدمة كتاب الذهب المسبوك للمقرئى ص ٢١ ، ابن الفوطى : الحوادث ص ١٢٢ - ١٢٤ ، المقرئى : الذهب المسبوك ص ٧٩ - ٨٠ ، ٨٤ - ٨٥ .

(٨) سبط : مرآة ، ٨ : ٣٥٥ .

(٩) أنظر قبله .

(١٠) أنظر بعده .

بن القبايض وزير صلاح الدين بالشام^(١)؛ ثم اسندت إلى سيف الدين المشطوب^(٢)، وهو أعظم أمراء الأكراد في الدولة الأيوبية، وكان يعرف بـ «ملك الأكراد»^(٣)؛ ثم أسندت إمارة الحج الشامي^(٤) بعد ذلك لكبار مماليك الدولة الصلاحية ثم العادلية، ثم لكبار مماليك المعظم عيسى بن الملك العادل، ملك الشام الأيوبي؛ وغالبًا ما كان هؤلاء المماليك من ولاية بلاد الشام من قبل بنى أيوب، الواقعة ولا يتهم في طريق الحج الشامي^(٥)، وعادة ما كان لواء الحج الشامي، يلتحق بلواء الحج العراقي وينضم إليه^(٦).

وكان أول تدخل حقيقي للواء الحج الشامي لحماية لواء الحج العراقي سنة ٦٠٨هـ / ١٢١١ التي حج فيها بالناس من العراق طشتكين مملوك الخليفة، ومن الشام ربيعة خاتون، المعروفة بست الشام أخت صلاح الدين، وولدها حسام الدين لاجين، وجماعة من المعتبرين^(٧)؛ إذ تعرض قتادة أمير مكة، لمحاولة اغتياله، على يد رجل من الحشيشية الفداوية - وهم أنصار الدعوة النزارية الإسماعيلية^(٨) -؛ واعتقد أمير مكة أن هذا الحشيشي، كان يعمل لحساب صاحب آلموت، الذي كانت أمه في رفقة أمير الحج العراقي، أو لحساب أمير الحج العراقي نفسه؛ لذلك أمر أتباعه بمهاجمة الحجاج العراقيين، وقتلهم وأميرهم، ونهب أموالهم وأمتعتهم؛ فلجأ أمير الحج العراقي، إلى خيمة ربيعة خاتون، التي أرسلت إلى أمير مكة تنوعده، وتذكره بقوة أولاد أخيها صلاح الدين مملوك الشام؛ ثم أرسلت ابن البلاد، أمير الحج الشامي، الذي كرر هذه التهديدات، مؤكِّدًا أن بنى أيوب

(١) عن هذا الوزير وعن ظاهرة تعدد وزراء بنى أيوب منذ عصر صلاح الدين بمصر والشام، أنظر بعده.

(٢) كان ذلك سنة ٥٧٦هـ، أنظر سبط: مرآة: ٨: ٣٦١.

(٣) أنظر بعده ..

(٤) كانت بلاد الشام والعراق ومصر واليمن، هي أهم مراكز تجمع الحجاج القادمين إلى بلاد الحجاز من شتى أرجاء بلاد العالم الإسلامي؛ أنظر كتاب " منازل الحج " لمحب الدين محمد بن شمس الدين محمد بن العطار؛ ذكره حاجي خليف (كشف الظنون ٢: ١٨٢٨)، وسماه منازل الحج، في المنازل التي تلقى الحاج في طريقه من اليمن والشام ومصر والعراق. نسخة كتبت في القرن السابع بخط المؤلف، بمكتبة لاله لي ٣/٤٨٦، ٢، ١٠ - ١٩ ق، ومصورة بمعهد المخطوطات برقم ٥١٣ تاريخ.

(٥) أنظر سبط: مرآة: ٨: ٤٤٨ حوادث سنة ٥٩١هـ، ص ٤٥٦ حوادث سنة ٥٩٤ و ٥٩٦ ص ٥٢٤ حوادث سنة ٦٠١، ص ٥٣٥ حوادث سنة ٦٠٤، ص ٥٣٩ حوادث سنة ٦٠٥، ص ٥٤١ - ٥٤٢ حوادث سنة ٦٠٦، ص ٦٠٦ حوادث سنة ٦١٦ هـ. ص ٧٤٩ حوادث سنة ٦٤٢ هـ.

(٦) أنظر سبط: مرآة: ٨: ٥٥٦ - ٥٥٧.

(٧) نفس المصدر والصفحة، وهذه هي ثاني حجة لربيعة خاتون رفقة لواء الحج العراقي، لأنها حجت من قبل سنة ٥٨٢هـ، أنظر سبط: مرآة: ٨: ٣٨٩.

(٨) أنظر قبله وبعده.

لن يترددوا في إرسال العساكر من الشام لمحاربتة ، في نفس الوقت الذى سيرسل فيه الخليفة من قبله العساكر من العراق للاقتصاص منه ؛ فأسقط في يد أمير مكة ، واكتفى حفظاً لماء وجهه ، بأخذ دية من أمير الحج العراقى ، ومن أم الكيا حسن صاحب الموت ، لاتهامه لهما بمحاولة قتله^(١) .

ومرة أخرى حين حاول أمير مكة ، نهب لواء الحج العراقى سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م ، خوفاً خواص رجاله من انتقام الكامل والمعظم للخليفة ، فتراجع عن عزمه^(٢) .

أما لواء الحج المصرى ، فنحن لا نسمع عنه إلا سنة ٥٩١هـ / ١١٩٤م ، أى قبل وفاة صلاح الدين بسنة واحدة ، فحج بالناس من بغداد سنجر الناصرى ، ومن الشام قراسنقر وأيبك فطين الصلاحيان ، ومن مصر الشريف إسماعيل بن ثعلب الجعفرى من ولد جعفر بن أبى طالب^(٣) ؛ أى أن هذه الوظيفة أسندت لأمير من أشرف العرب المصرين ، من قبيلة بنى ثعلب ؛ وقد كان هذا الأمير من أثرياء الصعيد ، بحيث كان يفرق على الناس القمح الذى تجتلبه مراكبه فى أوقات المجاعات وغلاء الأسعار^(٤) ؛ وكان مقدماً فى قبيلته ، التى كانت مع غيرها من قبائل عرب الحوف الشرقى والغربى للدلتا ، يستخدمون فى جيوش مصر الإسلامية ، كجند احتياطيين ، وذلك منذ العصر الطولونى ، وطوال العصر الفاطمى ، وحتى نهاية العصر الأيوبى^(٥) ؛ فوجد الأيوبيون فى جاهه

(١) سبط : مرآة ٨ : ٥٦٦ - ٥٥٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ٢١٠ - ٢١١ ؛ الغريب أن ابن واصل يقول أن المقصود بالخوارزمى ، الكيا حسن ، صاحب الموت ، أهم معاقل الإسماعيلية النزارية بإيران ، ثم يذكر أنه فى هذه السنة قد تتخلى عن العقيدة الإسماعيلية ، وأقام شعار الإسلام على المذهب السنى الشافعى ، وكتب إلى الخليفة والملوك يعلمهم ذلك ، وبعث والدته لتحج فأكرمت ببغداد ثم حجت . أنظر قبله .

(٢) أنظر سبط : مرآة ٨ : ٦١١ ؛ والجدير بالذكر أن لواء الحج الشامى قد تولاه فى بعض السنين بعض الفقهاء والعلماء وبعض أمراء الأكراد ، وبعض أمراء الأتراك ، أنظر سبط : مرآة ٨ : ٥١٠ ، ٥٢٦ ، ٥٣٥ ، ٥٤٦ . وإن ظل الممالك ، هم فى الغالب الذين يتولون هذا المنصب ؛ والطريف أننا نسمع فى سنة ٦٠٨هـ عن الحج من القدس ، مستقبلاً عن لواء الحج الشامى ، تحت إمارة الأمير الشجاع على بن ملار ، سبط : مرآة ٨ : ٦٠٨ ؛ هذا وقد حاول أمير مكة فى سنتى ٦٠٧هـ ، ٦٠٨هـ ، نهب لواء الحج العراقى ؛ ولما لم يجد من ينجده من ملوك بنى أيوب ، نهب عن آخره ، وفر من مكة نواب الخليفة ، فبعث أمير مكة ولده إلى الخليفة يعتذر له ، فقل عذره وعفا عنه . (أنظر المقرئى : السلوك ج ١ ص ١٧٤ ، ص ١٧٥ - ص ١٧٦ ؛ وعن حادثة أخرى نهب أمير مكة لواء الحج العراقى سنة ٦٥٣هـ ، أنظر ابن الفوطى : الحوادث ص ٣١١ - ٣١٢ ؛ هذا ويوجد نقش جنازى بتاريخ ٦٥٠هـ خاص بأمير من أمراء الحج الشامى ، عثر عليه فى الصالحية بدمشق باسم الأمير جمال الدين بن الأمير الكبير زين الدين ، بن عضد الدين خالد ، " أمير الحاج والحرمين " أبى سعد قراجا الناصرى الصلاحى ، أنظر سولطانية : الجماع Repentione للنقوش العربية ، ج ١١ ص ٢٣٤ رقم ٤٣٥٢ .

(٣) سبط : مرآة ٨ : ٤٤٨ .

(٤) أنظر المقرئى : السلوك ١ : ١٣٤ وهامش (٤) للدكتور مصطفى زيادة ، وأنظر بعده .

(٥) أنظر بعده .

وثرائه ، وفي قوة قبيلته وقبائل الأعراف المنتشرين في الحوف الشرقي للدلتا وصحراء سيناء^(١) ، خير من يقوم بحماية الحجاج ؛ وقد لقب ابن ثعلب - على شاهد قبره ، في مدفن الشرفاء الثعالبة ، الذى بقيت واجهته إلى اليوم ، وهى بمنطقة الإمام الشافعى - لقب بـ « أمير الحج والحرمين »^(٢) .

ولاشك أن عدم وجود هذه الوظيفة بمصر أيام صلاح الدين ، مردة تعطل طريق الحج عبر سيناء ، قبل استرداد صلاح الدين للقدس والساحل ، وتوقيعه صلح الرملة ، مع ملوك أوروبا ، وما تبقى من شرازم الصليبيين بساحل الشام^(٣) ؛ لذلك كان حجاج الأندلس والمغرب ومصر ، يسلكون طريقاً طويلاً ، يبدأ بعد وصولهم إلى الإسكندرية بحراً أو برّاً ، من الإسكندرية إلى القسطنطينية ، ثم إلى صعيد مصر بمحاذاة النيل ، حيث يستريحون بمدينة قوص ، التى أصبحت مركزاً تجارياً وثقافياً هاماً فى العصر الأيوبي ، لوفود الحجاج إليها من الأندلس والمغرب ، والتجار من اليمن والهند^(٤) ؛ كما أصبحت مركزاً عسكرياً هاماً ، إذ أسند إلى واليها مهمة قيادة الأسطول المصرى فى البحر الأحمر^(٥) .

فكان الحجاج يغادرون قوص ، قاطعين صحراء عيذاب ، حتى يصلوا إلى نجر عيذاب ، حيث كانوا يعبرون من الشاطيء المصرى للبحر الأحمر ، حتى الشاطيء الحجازى ، ليرسو فى ميناء جدة ، على مراكب صغيرة الحجم تعرف بالجلاب ، كان يشحنها أصحابها بالحجاج بعضهم فوق بعض لتحقيق أكبر ربح^(٦) ؛ ولهذا نصح ابن جبير الحجاج - بعد أن عانى هو الأمرين فى عيذاب وسماتها

(١) أنظر عباس عمار : شعب الشرقية (باللغة الفرنسية) ، القاهرة ، ١٩٤٨م وأنظر أيضاً نفس المؤلف ، عباس

عمار : المدخل الشرقى لمصر (سيناء) القاهرة ١٩٤٦م ص ١٠٩ - ١١٥ .

(٢) هذا النص الجنائزى مؤرخ سنة ٦١٣هـ وهو باسم " أمير الحج والحرمين " ، أبى الطاهر اسماعيل بن الشريف الأجل الأمير الكبير ، حصن الدين ثعلب بن يعقوب ابن مسلم أبى حميد الجعفرى الزينى .. أنظر فان برشم : Conpus ج ١ ص ١٣٠ رقم ٣٧٨٨ . ولقد أفاد القلقشندى ، أن أمير الحج المصرى ، كان يكتب له تقليداً من السلطان (بمعنى الخليفة أو وزير السيف المفروض عنه فى العصر الفاطمى ، أو السلطان الأيوبي) ، وذلك فى عصر الدولة الفاطمية وما تلاها ؛ أما فى عصره هو - عصر المماليك الجراكسة - فقد ترك هذا ورفض ، ولم يبق من يكتب له توقيع من ديوان الإنشاء سوى قاضى ركب الحاج ؛ وقد أورد القلقشندى نسخة هذا التوقيع ، أنظر صبح الأعشى ، ج ١٢ ص ٤٤٢ - ٤٤٣ ، وأهم ما فيه التوصية بمراعاة تطبيق الشريعة فى حالة إحرام الحجاج وتوضيح ما ينقضها ، ومراقبة ثبوت الأهلة التى تترتب مناسك وأحكام الحج عليها ، والحكم فى محظورات الإحرام .

(٣) أنظر بعده .

(٤) ابن جبير : الرحلة ص ٤٥ س ٩ .

(٥) أنظر بعده .

(٦) أنظر ابن جبير : الرحلة ص ٤٦ - ٤٨ .

بالعذاب - حجاج الأندلس والمغرب والإسكندرية ومصر ، بمصاحبة لواء الحج العراقي عند العودة ،
والذهاب من العراق إلى ميناء عكا ، ثم أخذ سفينة بحرية ، إلى مصر أو المغرب أو الأندلس ، لتلافي
العودة عن طريق ميناء عيذاب^(١) .

على كل حال حج بالناس من مصر في سنة ٥٩٢هـ / ١٩٥م الشريف ابن ثعلب^(٢) ؛ ففى
جمادى الأولى من هذه السنة نودى فى القاهرة ومصر ، « بأن الشريف ابن ثعلب مقدم على الحاج ،
فليتجهز أرباب النيات »^(٣) ؛ وفى رابع عشر شوال خرج الشريف ابن ثعلب سائراً بالحاج ، وخيم
على سقاية ريدان^(٤) - بمنطقة العباسية اليوم - وفى ثلثى عشر شوال رحل الحاج^(٥) ، متخذاً طريقه
المعهود الذى يبدأ من مدينة السويس ، مخترباً صحراء سيناء^(٦) .

وكان بعض ملوك البيت الأيوبي ، يتولون بأنفسهم نيابة عن سلطان مصر وظيفه إمارة لواء
الحج المصرى ؛ ففى سنة ٦٢٠هـ ، « حج الملك الجواد والملك الفائز من القاهرة ، وقدموا علم الخليفة
على علم السلطان الكامل فى طلوع عرفة »^(٧) .

(١) نفس المصدر ص ٤٨ وعن كون عكا مركزاً تجارياً فى العصر الأيوبي ، أنظر ابن شداد : النوادر ص ٧٩
س ١٣ إذ يقول عنها " إنها كانت مظنة التجارة " .

(٢) المقرئى : السلوك ، ١ : ١٣٩ .

(٣) نفس المصدر ، ١ : ١٣٤ .

(٤) نفس المصدر ، ١ : ١٣٧ وسقاية ريدان ، هى التى وقعت عندها معركة الريدانية بين طومان باى آخر سلاطين
المماليك بمصر ، والسلطان سليم الأول العثمانى التى قتل فيها طومانباى ، وأصبحت مصر بعدها ولاية
عثمانية ، أنظر هامش للدكتور زيادة على السلوك للمقرئى ، ١ : ١٣٧ .

(٥) المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٢١٤ .

(٦) أنظر مصطفى عمار : سيناء أو المدخل الشرقى لمصر ، ص ٢٠ ، ص ٥٨ - ٦٠ .

وأنظر الجزيرى : درر القرائد المنظمة فى أخبار الحج وطريق مكة المكرمة ، طبع السلفية بالقاهرة ١٣٨٤ ؛
وأنظر درر القرائد المنظمة فى أخبار الحج وطريق مكة المكرمة . تأليف عبد القادر بن محمد بن عبد القادر
بن محمد بن إبراهيم الأنصارى الجزيرى الحنبلى . فرغ من تأليفه سنة ٩٦١هـ . ضمنها أخبار الحاج وإمرته
والمنازل ، وكيفية الرحول والنزول والمناهل ، والإقامة والمناسك ، على مذهب الإمام ابن حنبل ، ورتب
الحوادث فيه على السنن الهجرية . منه نسخة بقلم معتمد كتبت سنة ٩٦١هـ (بخط المؤلف) ، ٢٦٤ ورقة
بالمكتبة الأزهرية ، برقم ٢٨٤٤ تاريخ ، ومصورة بمعهد المخطوطات برقم ٦٥٦ تاريخ . وقد أهداه الأستاذ
مصطفى عمار ، أن طريق الحج عبر سيناء الذى عرف بـ " درب الحاج " ، كان يبدأ من بركة الحاج
أو بركة الحاج ، وهى قرية تقع فى الشمال الشرقى للقاهرة ، ثم يمر بقلعة الحجزود فى صحراء السويس ،
ثم يقطع هضبة التية ، بمدينة " نخل " ثم يصل إلى العقبة ، ثم يأخذ طريقه صوب الجنوب الشرقى متجهماً
إلى مكة .

(٧) المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٢١٤ .

زعامة أمير لواء الحج العراقي المفوض من الخليفة العباسي لموسم الحج ، ولجميع ألوية الحج الخاصة بالأمصار الإسلامية وسلاطين وملوك الإسلام :

والجدير بالملاحظة ، أنه مع وجود لواء للحج الأيوبي من الشام ، سمعنا عنه منذ سنة ٥٧٥هـ / ١٧٩م^(٢) ، حين كان صلاح الدين مستقراً بالشام متخذاً من دمشق قاعدة لأعماله العسكرية ضد الصليبيين^(٣) ، وآخر من اليمن سمعنا عنه منذ سنة ٥٨٢هـ / ١١٨٦^(٤) ، وكان يرفع علم سلطان مصر^(٥) ، وثالث من مصر سمعنا عنه منذ سنة ٥٩١هـ / ١١٩٤^(٦) ، ورابع من الجزيرة الفراتية ، سمعنا عنه في سنة ٦٢٤هـ / ١٢٢٦م ، على عهد الملك الأشرف موسى بن العادل ، وكان يلحق بموكب الحج العراقي ، ولم تورّد الحوليات من أخباره الأخبارا يتيماً^(٧) ، فإن لواء الحج العراقي ، المرسل من قبل الخليفة ، كانت له الزعامة ، على جميع ألوية الحج الأخرى ، المرسلة من قبل الأيوبيين ، سواء من مصر أو الشام أو اليمن أو الجزيرة الفراتية .

فلم يكن من حق أحد من أمراء هذه الألوية ، رفع أى لواء ، غير لواء الخليفة ، على جبل عرفات^(٨) ، حيث يجتمع جميع حجاج المسلمين من كافة أنحاء العالم . وذلك لأن وظيفة أمرة الحج ، عند أول ظهورها في الإسلام ، كان النبي يعهد بها إلى بعض كبار صحابته للحج بالناس بدلاً منه^(٩) ؛ ولما كانت الخلافة - سواء الفاطمية أو العباسية - هي وراثية السلطة الزمنية والروحية للنبوة ، لكون الإسلام دين ودولة^(١٠) ؛ فقد كان الخلفاء يتوبون عنهم أحد أمراء السيف ، لحماية الحجيج ومرافقتهم ، أثناء أداء فريضة الحج ، وذلك لأن الحج بالناس هو من مهام النبي في الأصل ، ثم أصبحت من مهام الخليفة من بعده .

(٢) أنظر سبط : مرآة : ٨ : ٣٥٥ وأنظر قبله .

(٣) أنظر بعده .

(٤) أنظر سبط : مرآة : ٨ : ٣٨٨ وأنظر قبله .

(٥) أنظر سبط : مرآة : ٨ : ٦٢٤ وأنظر قبله .

(٦) أنظر سبط : مرآة : ٨ : ٤٤٨ وأنظر قبله .

(٧) أنظر سبط : مرآة : ٨ : ٦٤٤ حيث يذكر أن ثقل هذه الركب كان ستمائة جمل ، ومعه خمسون هجين وأنه دخل بغداد والتحق بركب الحاج العراقي .

(٨) أنظر ابن شداد : النوادر ص ٨٥ ، سبط : مرآة ، ٨ : ٦٢٤ ، أبو المحاسن : النجوم ٦ : ١٠٥ ، وأنظر بعده .

(٩) أنظر حسن الياشا : الوظائف الإسلامية ، القاهرة ١٩٦٩ ، ١ : ٢٠٢ - ٢٠٤ .

(١٠) محمود البليدي : نظام الإسلام السياسي ، وعلاقة الدين بالدولة في هذا النظام ، مجلة رسالة الإسلام ،

السنة الرابعة ، العدد الرابع ، محرم ١٣٧٢هـ / أكتوبر ١٩٥٢م ص ٣٧٦ - ٤٠٢ ، محمود شلتوت : من

توجيهات الإسلام ، ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م ص ٥١٩ - ٥٣٦ ، محمود ضياء الدين الرئيس : النظريات

السياسية الإسلامية ، القاهرة ١٩٥٧م ، ص ٢٩٠ - ٣١٠ .

ولكن نتيجة لوجود دولة القرامطة في جنوب العراق والبحرين ، منذ مطلع القرن الرابع الهجرى^(١) - وكانت في أول الأمر تابعة للدعوة الفاطمية ثم انشقت عنها^(٢) - وقطعها لطريق الحج بين العراق والحجاز ؛ بل أقدم القرامطة على عمل مطرف ، إذ هاجموا مكة وسرقوا الحجر الأسود ، بهدف إظهار مدى عجز الخلافة العباسية عن حماية الكعبة^(٣) ؛ وأن اضطروا إلى رده ، استجابة لأمر الخليفة الفاطمي الذي استهجن هذا الأمر^(٤) ؛ فإن أحدًا من خلفاء بنى العباس ، لم يحج بعد عصر هارون الرشيد^(٥) .

كذلك فإن خشية خلفاء القواطم من التعرض للاغتيال من قبل القرامطة المنشقين عن دعوتهم ، أو من قبل الخلافة العباسية وأنصار دعوتها ، التي قاسمتهم منصب الخلافة في العالم الإسلامي ، وناصبتهم العداة السياسية ، كان السبب في رأينا ، لعدم أداء أى خليفة من خلفاء الفاطميين لفريضة الحج^(٦) ؛ الأمر الذي جعل من وظيفة إمارة الحج في العصر العباسي الثاني ، وطوال العصر الفاطمي ،

(١) أنظر محمد عبد الفتاح عليان : قرامطة العراق والبحرين ، طبع هيئة الكتاب ، القاهرة ، وعن ظهور دعوة القرامطة ، أنظر ابن الأثير : الكامل ٧ : ٤٤٩ ، حوادث سنة ٢٧٨هـ ، وعن ابتداء أمرهم بالبحرين ، أنظر نفس المصدر ج ٧ ، ٤٩٣ - ٤٩٥ حوادث سنة ٢٨٦هـ وأنظر أخبارهم بالشام والعراق ، نفس المصدر ، ٥١١ - ٥١٣ حوادث سنة ٢٨٩هـ .

(٢) أنظر عارف تامر : الإسماعيلية والقرامطة ، مقال بمجلة المشرق ، سنة ١٩٥٩ ج ٤ ، ٥ .

(٣) نسمع لأول مرة عن قطع القرامطة الطريق أمام قافلة الحج العراقية التابعة للخليفة العباسي سنة ٢٩٤هـ . أنظر ابن الأثير : الكامل ٧ : ٥٤٨ - ٥٥٠ ، وكانت المحاولة الثانية سنة ٣١٢هـ ، عند مهاجمة القرامطة للكوفة . نفس المصدر ٨ : ١٥٥ ، وفي سنة ٣١٧هـ ، سار القرامطة إلى مكة ، وأخذوا الحجر الأسود ، ابن الأثير ، نفس المصدر ٨ : ٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٤) ماجد : ظهور الخلافة ص ١١٢ - ١١٣ .

(٥) الجدير بالالتفات أن المؤرخ الشيعة يعقوبى ، هو أول من لاحظ أن أحدًا من الخلفاء لم يحج بالناس بنفسه بعد وفاة الخليفة هارون الرشيد ، فقد عقد يعقوبى فصلًا في تاريخه ذكر فيه من أقام الحج في عهد الرشيد ، وذكر أن آخر حجة حجها الرشيد بنفسه كانت سنة ١٨٨هـ ثم قال : وهي آخر حجة حجها ولم يحج بعده خليفة ، أنظر أحمد بن أبى يعقوب المعروف بأبى واضح الأخبارى ت ٢٩٢هـ : تاريخ يعقوبى ، طبع النجف بالعراق سنة ١٣٥٨هـ ج ٣ ص ١٦٠ - ١٦١ .

(٦) وذلك للأهمية الكبرى لمنصب الخلافة ، بالنسبة للفكر السياسي الإسماعيلي ، أنظر قبله ، لكون الخلافة وراثية في نسل على وفاطمة ، فقد لا يتوفر هذا الانتساب العلوى الفاطمي في أحد حين وفاة الخليفة ، وعدم وجود أبناء له ، مما يعرض أركان الدولة والخلافة الفاطمية كلها للتقود بمجرد موت الخليفة ، لافتران طاعة العالم الإسلامي والرعية بمصر ، والدولة الفاطمية ، بطاعة الخليفة ، أنظر الشيال : مقدمة الذهب المسبوك ص ١٠ - ١٤ وهو يقول أنه لا يجد تفسيرًا لعدم حج أحد من الخلفاء الفاطميين ، وقد تجرأنا فأبدينا هذا الرأى الذى أثبتناه فى المتن ، والله أعلم بالصواب .

وظيفة في غاية الأهمية ، وذلك لخوف كل من خلفاء بنى العباس وخلفاء الفاطميين ، للخروج بأنفسهم ، على رأس لواء الحج للحج بالناس .

وللأهمية الكبرى ، لو وظيفة إمارة الحج العراقي ، كان الخليفة العباسي عادة ما يعهد بها ، إلى أحد كبار أمراء المماليك من خواصه وترايبه^(١) ، ويخلع عليه قبل رحيله بالحاج خلعه سنوية^(٢) ؛ كما تعود الخلفاء أن يقطعوا من يتولى إمارة الحج ، بعض المدن الواقعة على طريق الحج العراقي إلى الحجاز ، مثل الكوفة^(٣) أو الحلة^(٤) ؛ وتفيد تراجم هؤلاء المماليك ، أن أغلبهم قد عرف عنه الورع ، والنزوع الصوفي ، وإيقاف الأموال عن سعة لإقامة العمائر الدينية والخيرية^(٥) ؛ كما كانوا متفهمين في الشريعة الإسلامية ، حتى عمل بعضهم - تواضعاً منه وتقرباً إلى الله في نهاية حياته - كاتباً لأحد القضاة ، الذين اشتهروا بالتقى والورع والعدل في الأحكام^(٦) .

(١) ينص سبط ابن الجوزي مثلاً أن الذي حج بالناس سنة ٥٨٩ هـ ، قطب الدين سنجر " مملوك الخليفة " ، أنظر مرآة ، ٨ : ٤٢٢ - ٤٢٣ ، وهو ينسب إلى أستاذه الخليفة كعادة المماليك في أسمائهم فيسميه " سنجر الناصري " أنظر مرآة ٨ : ٤٤٨ ، كذلك فإن أسماء جميع أمراء الحج العراقي ، تؤكد أنهم كانوا من المماليك . وأغلبهم من مماليك الخليفة نفسه ، مثل يمن ابن عبد الله المستظهرى ، أنظر سبط : مرآة ، ٨ : ٦٣ ، ونظر الخادم بنفس المصدر ٨ : ٩٨ ، وقيمار الأرجواني ، نفس المصدر ٨ : ١٩٦ ، وطاشتكين بن عبد الله النستري ، نفس المصدر ٨ : ٥٢٧ . وأقباش الناصري ، نفس المصدر ٨ : ٦١٠ . وأنظر ترجمته نظر الخادم نفس المصدر ٨ : ٢٠٥ ، وقيمار نفس المصدر ٨ : ٢٣٤ ، وترجمته طاشتكين ، نفس المصدر ٨ : ٥٢٧ ، وترجمة سنجر ، نفس المصدر ٨ : ٥٦٨ - ٥٦٩ . وفي رأينا أن وظيفة إمارة الحج من أهم الوظائف التي أدت إلى ارتفاع مكانة المماليك ، مما أدى إلى وصولهم لوظيفة السلطنة ذاتها ، أنظر بعده ، والجدير بالملاحظة أن إمارة الحج كانت أحياناً يتوارثها أبناء المماليك عن آباءهم أو ينوب فيها الإبن عن أبيه ، أنظر سبط : مرآة ٨ : ٥٤٦ .

(٢) أنظر ابن الفوطى : الحوادث ص ٢٥ ، ص ١٦٦ . الذى يقول : " وشرف في الموضع الذى جرت عادة أمير الحج أن يشرف فيه .

(٣) أنظر سبط : مرآة ٨ : ٥٥٦ ، ابن الفوطى : الحوادث ص ٢٢٧ ، أبو المحاسن : النجوم ٦ : ٢٠٣ .

(٤) سبط : مرآة ٨ : ٥٢٧ وعن كون مدينتى الكوفة والحلة واقعتين على بداية طريق الحج العراقي ومن محطاته ، أنظر ابن جبير : الرحلة ص ١٨١ - ١٩٣ .

(٥) أنظر أعلاه هامش (٢) .

(٦) أنظر سبط : مرآة ٨ : ٥٣١ .

وكان أمير الحج العراقي ، يلقب بأمر الحج والحرمين^(١) ، وذلك لأنه كان يستصحب معه التقليد الخلفي لأمر مكة والمدينة أو لأولياء عهدهما في كل عام^(٢) ؛ لذلك فإن موكب خروجه للحج كان موكبًا عظيمًا ، « مثل موكب الملوك »^(٣) ، تصاحبه البوقات (النفير) والكوسات (الطبول) ، كي تضرب عند الرحيل ، أو عند مغادرة أى منزلة أو محطة على طول الطريق ، لتنبية الحجاج ، وعلى رأسه الأعلام^(٤) ؛ ويتقدم الموكب « المهدي »^(٥) وهو ما عرف بمصر بالمحمل ، وكان عبارة عن حجرة خشبية فارغة ، مكشوفة السطح ، قرية الشبه بالهودج ، توضع فوق ظهر حمل ضخم أعد لهذه المهمة ؛ وكان « المهدي » ، كما سمي في العراق ، أو المحمل كما سمي بمصر ، يعد في أول الأمر لركوب بعض الأميرات أو الملكات اللاتي خرجن لأداء الفريضة ؛ أما فيما بعد ، فقد أصبح رمزًا لسلطة الخليفة أو السلطان المماليكي^(٦) .

وبطبيعة الحال ، كانت المهمة الأولى لأمر الحج ، هى حماية الحجاج فى أنفسهم وأموالهم ، فكانت تصحبه حامية رمزية مسلحة عددها خمسمائة فارس^(٧) ؛ وكانت سلطته على الحجاج قرية الشبه جدًا بالسلطات الممنوحة فى يومنا هذا لقواد السفن المدنية ، بحيث كانت له السلطة القضائية أيضًا ، وربما رافقه قاضي^(٨) ؛ بالإضافة إلى مراقبته التزام الحجاج بشعائر الإحرام ، وصحة أداءهم لمناسك الحج^(٩) .

ويخبرنا ابن جبير بمعلومة هامة تؤكد تزعم أمير الحج العراقي ، لموسم الحج كله ، وهى أن ثبوت رؤية الهلال ، لإعلان بداية موسم الحج ، كانت لا تعلن بمكة ، إلا عند وصول أمير الحج العراقي ،

(١) أنظر سبط : مرآة ٨ : ٥٢٧ وإيراده لقب أمير الحج على هذا النحو " أمير الحج والحرمين " ، أو إمرة الحج والحرمين ، أنظر سبط : مرآة ٨ : ٦١١ ، يؤكد ما تشكك فيه الدكتور حسن الباشا من اقتران اللقبين ، أنظر حسن الباشا : الوظائف الإسلامية ، دار النهضة العربية ١٩٦٥ ج ١ ص ٢٠٤ .

(٢) أنظر سبط : مرآة ٨ : ٥٢٤ ، ٦١١ .

(٣) سبط : مرآة ٨ : ٥٢٧ .

(٤) نفس المصدر ٨ : ٦٣ ، ابن جبير : الرحلة ص ١٦٣ - ١٦٤ .

(٥) سبط : مرآة ٨ : ٥٢٨ - ٥٢٩ .

(٦) أنظر : Jomier: Le Mahmed .

(٧) سبط : مرآة ٨ : ٥٦٨ - ٥٦٩ .

(٨) أنظر قبله عن الحديث عن لواء الحج الفاطمي ، وأغلب الظن هذا ينسحب أيضًا على لواء الحج العباسي .

(٩) أنظر قبله أيضًا عند الحديث عن لواء الحج الفاطمي .

وإعلانه بنفسه هذه البشارة العظيمة^(١)، التي على أساسها يبدأ المسلمون الوافدون الذين أتوا عن بكرة أبيهم من جميع أرجاء العالم الإسلامي في تأدية مناسك الحج . ويوم الوقوف بعرفة ، كان أمير الحج العراقي ، هو الوحيد من أمراء الحاج الوافدين من كافة أقطار دار الإسلام ، الذي يرفع علم الخليفة^(٢) ؛ وكانت خيامه فوق عرفات تتصف بالعظمة والفخامة^(٣) ، وحولها يضرب الحجاج المصاحبين له ، وغيرهم خيامهم ؛ وبعد رمي الجمرات ، كان يتولى بنفسه كسوة الكعبة بكسوتها الجديدة^(٤) .

وعادة ما كان يصطحب أمير الحج العراقي معه في قافلته ، حجاجًا من قبل سلاطين العجم (الخوارزمشاهات ومن الخراسانيين)^(٥) ، وملوك الموصل الزنكيين ، وملوك بنى أيوب بالجزيرة الفراتية وأرمينية^(٦) ؛ وكان أغلب الحجاج ، قبل اتصال طريق لواء الحج المصري حتى المغاربة والأندلسيين ، يعودون برفقة أمير الحج العراقي ، ليتفرقوا من بلاد العراق والشام ، عائدین إلى بلادهم^(٧) .

والجدير بالملاحظة أن أمراء الحج العراقي ، كانوا يتولون هذا المنصب ، لسنوات طويلة متوالية ، قد تتجاوز أحيانًا العشرين عامًا^(٨) ؛ وليس أدل على أهمية هذا المنصب بالنسبة للخلافة العباسية

-
- (١) ابن جبير : الرحلة ص ١٤٩ س ٥ - ١٥ .
(٢) أنظر ابن شداد : النوادر ص ٨٥ ، أبو المحاسن : النجوم ٦ : ١٥٥ ، سبط : مرآة ٨ : ٦٢٤ وأنظر بعده ، ويفيد ابن جبير أن أمير الحج العراقي ، كان يترأس المسلمين عند الوقوف بعرفة ، ويضرب ابنة فوق جبل الرحمة في استقبال القبلة ، وكان حوله جملة من جنده الدارعين ، أنظر الرحلة ص ١٥٢ - ١٥٣ .
(٣) يقول ابن جبير : وكانت محلة هذا الأمير العراقي جميلة المنظر .. رائعة المضارب والأبنية ، عجيب القباب والأروقة ، على هيئات لم ير أبداع منها منظر ، أنظر الرحلة ص ١٥٣ - ١٥٥ .
(٤) ابن جبير : الرحلة ص ١٥٧ - ١٥٨ وأنظر قبله .
(٥) ابن جبير : الرحلة ص ١٥٣ - ١٥٥ ، ص ١٥٨ - ١٦٠ ، ص ١٦٣ - ١٦٤ .
(٦) كان هؤلاء الحجاج في الغالب ، من النساء العقائل المعروفات بالخواتين ومن بنات الأمراء ، أنظر ابن جبير : الرحلة ص ١٥٣ - ١٥٥ ، وكانت فيهم ابنة الملك مسعود ملك الدروب والأرمن ، وأم صاحب الموصل سليل البيت الزنكي ، وابنة صاحب أصبهان من بلاد خراسان ، أنظر الرحلة ص ١٦١ - ١٦٢ .
(٧) ابن جبير : الرحلة ص ٤٨ وأنظر قبله .

(٨) حج نظر الخادم ، أمير الحج ، نيفا وعشرين حجة أميرًا . أنظر سبط : مرآة ٨ : ٢٥٥ ، أما قيماز الأرجواني فقد حج بالناس عشر سنين ، نفس المصدر ٨ : ٢٣٤ . ونجد هذا الأمر أيضًا عن بعض أمراء الحج الشامي في العصر الأيوبي ، إذ حج الشجاع علي بن أقرش ابن السلال ، أمير الحج ، بالناس نيفا وعشرين حجة ، وكان المعظم يحبه ويحترمه ويعتمد عليه ، سبط : مرآة ٨ : ٧٠٢ .

من ذكر بعض من ترجم خلفاء بنى العباس لأميرى الحج اللذين حججا بالناس فى عصره الطويل^(١) ؛
 وحين كانت أم الخليفة ، تخرج للحج مع قافلة الحجاج ، كان الخليفة يخرج بنفسه لوداع الموكب حتى
 الكوفة ثم يعود^(٢) ، وأحياناً ما كان الخليفة يخرج لوداع أمير الحج ، إكراماً لذات أميره وإظهاراً
 لإعزازه له^(٣) . وكانت وفاة أمير الحج ، أو عدم عودته مع قافلة الحجاج ، لأى سبب من الأسباب ،
 يعد أمراً شديداً الخطورة ، بحيث كان موكب الحاج يدخل إلى بغداد ليلاً ، وتلغى رسوم الاحتفال
 الخاصة باستقباله ، وكان الأمر يصل بالحجاج إلى حد البكاء ، فى حين كان الخليفة يظهر الحزن
 الشديد^(٤) لهذا الخطب الجلل .

فلا ريب أن أصبح لأمير الحج العراقى ، مكانة سياسية ضخمة ، فى العالم الإسلامى ؛ لذلك
 حين وشى بعضهم إلى الخليفة بأن أمير حجه يكاتب صلاح الدين الأيوبى سرّاً ، سارع إلى عزله
 والقبض عليه ، ثم ما لبس أن أطلق سراحه ، بعد ان تأكد من براءة ساحته^(٥) ؛ كذلك حين وقعت
 وحشة بين الخليفة العباسى ، وأمير حجه المعروف بوجه السبع ، ترك قافلة الحجاج ، ولجأ إلى الملك
 العادل أبو بكر وأولاده بالشام ، كلاجئ سياسى ، فأكرموا وفادته ، وأنزلوه لديهم معزراً مكرماً^(٦) ؛
 وأيضاً حين اختلف أمير حاج آخر مع الخليفة العباسى ، لجأ إلى الملك الكامل بمصر ، فاحتفى به ،
 وجعله مقدماً على أمراء دولته^(٧) .

وثمة إشارات أوردتها المصادر ، تفيد حدوث أزمات دبلوماسية ، بين الخلافة العباسية ،
 والسلطنة الأيوبية ، سببها العرف السائد ، وهو تفرد أمير الحج العراقى ، برفع لواء الخليفة العباسى
 يوم الوقوف بعرفة ؛ ففى سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧ م ، حين كان صلاح الدين فى ذروة مجده الحربى ،
 أراد ابن المقدم ، أحد كبار أمراء الدولة الصلاحية ، رفع علم صلاح الدين ، يوم وقفة عرفات ، فمنعه

(١) ذكر سبط ابن الجوزى فى ترجمة الخليفة المقتضى بالله ، أنه " حج فى أيامه نظر الخادم " وقيماز الأرجوانى ،
 أنظر مرآة ٨ : ٢٣٥ .

(٢) ابن الفوطى : الحوادث ص ١٨٧ - ١٨٨ ، ص ١٩١ (٤) سنة ٥٥٠ خرج الخليفة المقتضى لوداع الحاج ،
 فبلغ الكوفة ، وخرق أسواقها وعاد إلى بغداد أنظر سبط : مرآة ٨ : ٢٢٤ .

(٣) سبط : مرآة ، ص

(٤) نفس المصدر ؛ راجع ما تقدم .

(٥) نفس المصدر ؛ راجع ما تقدم .

(٦) نفس المصدر ؛ راجع ما تقدم .

(٧) نفس المصدر ؛ راجع ما تقدم .

طشتكين أمير الحج العراقي ، وقال : « لا يرفع هنا سوى علم الخليفة » ، فقال ابن المقدم « والسلطان مملوك الخليفة » ، ولكن ممالك طشتكين ، نكسوا علم صلاح الدين ، فأقتل الطرفان وقتل ابن المقدم ، فأرسل الخليفة يعتذر إلى السلطان ، غلى أساس أن أميره كان الباغي ، فلم يقبل صلاح الدين ، ولم يرد على سفارة الخليفة^(١) .

كذلك كادت تحدث أزمة دبلوماسية أخرى بين السلطنة الأيوبية والخلافة العباسية في عهد السلطان الكامل ، بسبب هوج ابنه الأقيسيس صاحب اليمن ، الذي حج سنة ٦١٩ هـ / ١٢٢٢ م ، فلما كان يوم عرفة منع أعلام الخليفة التقدم على أعلام أبيه^(٢) ؛ ولقد وصف سبط ابن الجوزي هذا العمل بأنها جرأة كبيرة أظهرها الأقيسيس ، وعلل هذا المسلك بأنه كان مختل العقل^(٣) .

ومع تسليم سلاطين بنى أيوب ، بهيمنة الخليفة على موسم الحج ، وحرصهم على تأكيد هذه الفكرة ، تذكر بعض المصادر ، خبراً في غاية الخطورة والأهمية - إذا صح - ، وهو أن كسوة الكعبة ، كانت ترسل في العصر الأيوبي من مصر ، وأن أول من أرسلها من ملوك بنى أيوب صلاح الدين نفسه ، وكانت إذا أكملت حزمتم وأرسل بها إلى مكة ، من غير أن يراها أحد ، حتى أحدث بيبرس الطواف بها في القاهرة^(٤) ؛ كذلك أسند صلاح الدين ، مهمة تفويض الحجاج إلى الحجاز ، إلا أدلاء

(١) أنظر ابن شداد : النوادر ص ٨٥ ، أبو المحاسن : النجوم ٦ : ١٠٥ ، العماد : الفتح القسى ص ١٨٨ - ١٨٩ ، وأنظر عن تفاصيل واقعة عند ابن واصل : مفرج ج ٢ ، ص ٢٥٠ - ٢٥٢ .

(٢) المقرئى : الذهب المسبوك ص ٧٧ .

(٣) سبط : مرآة ٨ : ٦٢٤ ، وأنظر ابن واصل : مفرج ج ٤ : ١٢٤ - ١٢٥ .

(٤) أورد هذه المعلومة الفريدة ، العلامة أحمد تيمور باشا ، في كتابه التذكرة التيمورية ص ٣٤٣ ، مادة الكعبة (كسوتها) . نقلاً عن كتاب ذخيرة الأعلام ، وهي منظومة في التاريخ القمري . وقد ذكرت المصادر أن الخليفة الناصر لدين الله العباسي ، هو أول من كسا الكعبة السواد . وأنظر الكتاب الجامع للطيف لابن ظهيره ، رقم ١٤٢٩ ، تاريخ تيمور ، ص ١٠٤ - ١٠٩ ، أحمد تيمور : التذكرة التيمورية ص ٣٤٢ ، وأنظر أبو شامة : الروضتين ، طبع بولاق ٢ : ١٦٠ . ولقد رأى ابن جبير هذه الكسوة ووصفها أنظر الرحلة ٦٠ - ٦١ ، ٩٦ - ٧٠ ؛ وأنظر قبله فرمبا كانت الكسوة تصنع في مصر في دار الكسوة الفاطمية القديمة ، القاهرة أو تيس - قبل خرابها - أو شطا . عنها أنظر المقرئى : الخطط ، طبعة بولاق ج ١ ص ١٨١ و ٢٢٦ ، والتذكرة التيمورية ص ٣٤٦ ، ولكن بشعار السواد العباسي وباسم الخليفة العباسي وترسل من مصر سرّاً ؛ أو لعل الكسوة ، كانت في العصر الأيوبي تصنع بالقلعة مقر سلاطين بنى أيوب ، إذ ذكر الرحالة النابلسي ، (القرن ٧هـ) أن حياكة كسوة الكعبة كانت تتم بالقلعة . أنظر رحلة النابلسي المسماة : الحقيقة والمجاز بين مكة والحجاز مخطوط ٧٣٢ تاريخ تيمور بدار الكتب المصرية ورقة ٣٦٠ وأنظر أحمد تيمور : التذكرة التيمورية ص ٣٤٣ .

من قبيلة عرب الشواكر ؛ وقد ظل هذا الأمر كما رتبته صلاح الدين طوال العصر الأيوبي ، وحتى العصر المماليكي أيضاً^(١) .

كذلك أظهر سلاطين الأيوبيين ، اهتماماً كبيراً ، بترتيب القومة والخدام للحرمين ، ووقف الأوقاف لهذا الغرض . فتذكر بعض المصادر أن صلاح الدين ، كان أول من رتب الخصيان لخدمة الحرم النبوي ، وهو أمر استمر طوال العصر الأيوبي ، حتى العصر المماليكي^(٢) .

ومما يؤكد اهتمام سلاطين بنى أيوب بموسم الحج ، ما ذكره مؤرخو سيرة صلاح الدين ، من استحداثه رسوماً خاصة باستقبال موكب الحج الشامي ، وذلك خلال إقامته بدمشق ، فكان صلاح الدين يركب ركوباً عسكرياً ، مرتدياً الزي العسكري الكامل ، ويخرج في احتفال عام ، يقطع به شوارع دمشق ، سالكاً طرقاً محددة^(٣) ، وهو أمر قريب الشبه بطواف المحمل بمصر منذ عهد بيبرس إلى ما بعد قيام ثورة ١٩٥٢ ، سالكاً أيضاً طرقاً محددة ، ليتسنى للنظارة متابعة الاحتفالات ؛ كذلك

(١) أنظر القلقشندي : نهاية الأرب ٨٩٦ تاريخ تيمورية بدار الكتب المصرية ص ١٤٨ ، أحمد تيمور : التذكرة التيمورية ص ١٣٣ مادة " الحج " .

(٢) أنظر ابن أبياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٧٢ ، رقم ٩١ تاريخ تيمور بدار الكتب المصرية ، أحمد تيمور : التذكرة التيمورية ص ١٤٤ .

(٣) أنظر ابن شداد : النوادر ص ٢٤٢ - ٢٤٣ ، وأنظر أيضاً هذه الرسوم عند ابن واصل : مفرج ج ٢ ص ٤١٤ - ٤١٦ وفيه : ولما لقي السلطان الحج ، استعبرت عيناه ، كيف فاته الحج وسألهم عن أحوال مكة وأميرها وحال الخصب بها ، وكم وصلهم من غلات مصر وصدقاتها ، والفقراء المجاورين له ، ورواتبهم وإداراتهم ، وسر يسلامة الحج ؛ وهذا النص يفيد أن صدقة القمح التي كانت ترتب للحجاج من مصر منذ العصر العباسي الأول وحتى العصر العثماني ، أنظر بعده ، قد ظلت مستمرة في عصر صلاح الدين ، وخلفائه سلاطين بنى أيوب . ولعل مما يؤكد الأهمية التي أظهرها الملوك والسلاطين في ذلك الوقت نحو رعايتهم طريق الحج ، ما ذكر المنشيء النسوي ، مؤرخ سيرة جلال الدين منكبرتي ، آخر سلاطين الدولة الخوارزمية ، أن سبب الوحشة بينه وبين الخليفة العباسي ، التي جعلته يفكر تفكيراً جدياً في تحقيق حلم أبيه في قصد بغداد والتحكم في الخليفة ، وإقامة سلطنة بغداد في أسرته على مشاكلة السلطنة السلجوقية ، أن الخليفة العباسي ، قدم سبيل صاحب بلاد الموت أمام الإسماعيلية ، على سبيل سلطان خوارزم ، الذي رتبته في طريق مكة لسقاية الحجيج . أنظر النسوي : سيرة جلال الدين منكبرتي ، ص ٥١ . ويذكر ابن واصل ، أن مظفر الدين كوكبرى ، الذي كان يعد نفسه سلطاناً مستقلاً عن بنى أيوب ، تابعا تبعه مباشرة للخليفة العباسي ، بعد نزاعه مع أولاد الملك العادل الأيوبي الأكبر ، أنظر قبله ، اعتنى بتأمين فريضة الحج ، فيقول ابن واصل : وكان يقيم في كل سنة سبيلاً للحجاج ، ويسير مع السبيل جميع ما تدعو حاجة المسافر إليه في الطريق ، ويسير صحبته أميناً معه خمسة أو ستة آلاف دينار ، لينفق بالحرمين على المحاويع وأصحاب الرواتب ؛ وله بمكة حرسها الله تعالى ، آثار جميلة وبعضها باق إلى الآن ، وهو أول من أجرى الماء إلى جبل عرفات ليلة الوقوف وغرم عليه جملة كبيرة ، وعمر بالجبل مصانع للماء وبنى تربة هناك . (ابن واصل : مفرج ج ٥ ص ٥٦ - ٥٧) .

نلاحظ عناية سلاطين بنى أيوب ، بعد وفاة صلاح الدين ، وحتى عصر شجرة الدر القصير ، بشق طرق جديدة عبر صحراء سيناء ، وتعبيدها ، لتسهيل سبل قوافل الحج والتجارة^(١) .

وإذا كان المؤرخون قد لاحظوا ، أن أحدًا من سلاطين مصر الأيوبية ، لم يحج بنفسه ، لانشغالهم الدائم بجهاد الصليبيين^(٢) ؛ فقد حج من أيوبى اليمن الملك المعظم شمس الدولة تورانشاه ، أخو صلاح الدين ، وفتح اليمن ، وأول ملوكها^(٣) ؛ ثم الملك المسعود المعروف باقيس ، ابن الملك الكامل سلطان مصر^(٤) ، وحج من أيوبى الشام ، الملك المعظم عيسى ، ابن العادل أبى بكر ، صاحب دمشق ؛ والملك الناصر داود بن المعظم عيسى صاحب الكرك^(٥) .

انقطاع طريق لواء الحج العراقى بسبب تحرك المغول من آسيا الوسطى صوب العراق :

وليس أدل على اقتران حماية ورعاية فريضة الحج فى تاريخ الإسلام ، باستقرار أحوال الخلافة الإسلامية أو ما يساندها ، وأعى وظيفة السلطنة العامة ؛ من تعطيل موسم الحج ، نتيجة لانقطاع طريق لواء الحج العراقى ، سنوات متتالية ، منذ سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٦^(٦) ، بسبب تحرك المغول ،

(١) أنظر عباس مصطفى عمار : المدخل الشرقى لمصر ، أهمية شبه جزيرة سيناء كطريق للمواصلات ومعبر للموجات البشرية ، القاهرة ١٩٤٦ ص ١٠٩ - ١١٥ ، وقال ابن واصل فى ترجمته للسلطان الملك الكامل: وبلغ من هيئته ، أن الرمل الذى بين العريش وديار مصر ، كان يمر به الإنسان وحده ومعه الذهب الكثير ، أو الجماعة اليسيرة ومعهم الأحمال من القماش ، فلا يخافون سارقًا ولا قاطع طريق .. (ابن واصل : مفرج ج ٥ ص ١٥٧) .

(٢) الشيال : مقدمة الذهب المسبوك للمقريزى ص ١٥ ، ولقد ذكر مؤرخو صلاح الدين ، أنه كان قد عزم على الحج ، بعد توقيعه الهدنة مع الفرنج ، ولكنه تخوف من نقض الفرنج للهدنة ، لو عرفوا بأنه قد ترك الشام إلى الأراضى الحجازية ، أنظر ابن شداد ؛ النوادر ص ٢٣٧ س ٧ ، ص ٢٣٩ س ٨ ، وأنظر ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٠٨ ، الذى يذكر أنه كان قد كاتب أخاه العادل بمصر ، وأخاه صاحب اليمن ، يجبرهما بغرضه على الحج . وقد علق ابن شداد على عدم استطاعة صلاح الدين الحج بقوله ص ٢٣٩ س ٨ : وانقطع شوقه إلى الحج ، وكان من أكبر المصالح التى فاتته ، ولقد تعرض ابن شداد فى الفصل الأول من كتابه النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، وهو فى سيرة صلاح الدين ، إلى حرصه على أداء جميع أركان وفرائض الإسلام من صلاة وصيام وزكاة ، وحين تعرض لفريضة الحج قال ابن شداد : أما الحج فإنه لم يزل عازمًا عليه ، وناويًا له ، بينما فى العام الذى توفى فيه ، فإنه صمم العزم عليه ، وأمر بالناهب ، وعملت الروادة ، ولم يبق إلا المسير ، باعتناق عن ذلك بسبب ضيق الوقت وفراغ اليد عما يليق بأمناله ، فأخره إلى العام المستقبل ، ففضى الله ما قضى ، وهذا شئ اشترك فى العلم به الخاص والعام . راجع النوادر السلطانية ، ص ١٧ - ٣٤ .

(٣) المقريزى : الذهب المسبوك ص ٧٠ - ٧٣ .

(٤) نفس المصدر ص ٧٦ - ٧٩ .

(٥) نفس المصدر ص ٧٣ - ٧٦ .

(٦) نفس المصدر ص ٨١ - ٨٤ .

وانشغال الخليفة في بغداد ، وملوك بنى أيوب بالشام والجزيرة الفراتية ومصر ، بجمع العساكر لمواجهة ، مما جرأ البدو في بادية الشام والحجاز على نهب ركب الحجاج^(١) ؛ فلا غرو أن اقترنت صحوة الموت ، التي بعثها الخليفة المستعصم بالله العباسي ، آخر الخلفاء العباسيين ببغداد ، في دماء الخلافة العباسية ؛ بالاهتمام بأمور الحج سنة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م ، من تأمين طرقه ، وتوكيل إمارته لأمير كفاء شجاع ، جدير بتحمل تبعاته ، وتكليفه بإخضاع أمير مكة ، ثم عمارة الأسبلة التي أنشأها من قبل خلفاء بنى العباس في طريق الحج ، لسقاية الحجيج ، وتعيين السبلدارية المخصصين لحفظها ورعايتها ، إلى جانب إصلاح الآبار بطريق الحج^(٢) .

إلا أن غارات التتار ، ما لبثت أن اشتدت ، وأصبحت تهدد عاصمة الخلافة نفسها ، بل استطاعت أن توجه للأمة الإسلامية كلها ، طعنة كادت تكون قاتلة - لولا لطف الله بالإسلام والمسلمين ، ونهوض المماليك لإحياء الخلافة وحماية الإسلام^(٣) - وذلك بإسقاط الخلافة العباسية وقتل الخليفة المستعصم بالله سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ ، فصار الناس بغير خليفة إلى سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ م إذ أقيم في تلك السنة خليفة عباسي بمصر^(٤) ، الأمر الذي أدى إلى تعطيل أداء فريضة الحج من العراق تمامًا من سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م إلى سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٧ م^(٥) . ولكن حج ملك اليمن الرسولي - والملوك الرسولين هم مماليك بنى أيوب باليمن كما تقدم القول - الملك المظفر شمس الدين بن رسول سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ م ، وغسل الكعبة بنفسه ، وطيبها وكساها من داخلها وخارجها ، فكان أول من كسى الكعبة من الملوك ، بعد قتل الخليفة المستعصم ببغداد ؛ وعلى هذا النحو ، قام الملك المظفر بمصالح الحرم وأهله ، وخطب له بمكة ، واستمر يخطب له بعده ملوك اليمن الرسوليين على منبر مكة ، إلى عصر المقرئزي (القرن ال ٩ هـ) ، بعد الخطبة لسلطان مصر^(٦) .

(١) نسمع عن تهديد الأعراب لقافلة الحج العراقي منذ سنة ٦٢٦ هـ ، فكانوا يقطعون طريق الحاج ، ويطلبون رسوم الخفارة ، مما ألزم الخلافة دفع هذه الرسوم من الديوان (أنظر ابن الفوطى : الحوادث ص ٦ - ٧) ونسمع سنة ٦٣١ هـ أنهم كانوا يطمون الآبار ، مما أضطر الحجاج للرجوع ، حتى تحقق فوات الحج (نفس المصدر ٦٠ - ٦٦) ، وفي السنة التالية سنة ٦٣٢ هـ منعوا الحج أيضًا (نفسه ص ٩٠) ؛ ولكن الهجمات المغولية التي وصلت أطراف بلاد العراق سنة ٦٣٨ ، هي التي أدت إلى تعطل ركب الحج العراقي (ص ١٤٦) وما لبس أن انقطع تمامًا سنة ٦٤٣ (ص ٢٠٨) وسنة ٦٤٤ (ص ٢١٥) وسنة ٦٤٧ (ص ٢٤٥) ؛ ولم يستطع لواء الحج العراقي الحج مرة أخرى إلا سنة ٦٥٣ هـ (ص ٣١١ - ٣١٢) .

(٢) يفيد ابن الفوطى أن الخليفة المستعصم ، عاد إلى الاهتمام بأمور الحج سنة ٦٤٠ هـ ، وكان منقطعًا من سنة ٦٣٤ هـ ، عن مظاهر هذا الاهتمام ، أنظر بالتفصيل ابن الفوطى : الحوادث ص ١٦٣ - ١٦٤ ، ص ١٦٦ ، ص ١٧٣ - ١٧٥ .

(٣) أنظر قبله وبعده .

(٤) المقرئزي : السلوك ١ : ٢٢ .

(٥) ابن الفوطى : الحوادث ص ٣٥٨ ، المقرئزي : الذهب المسبوك ص ٨٤ - ٧ - ٨ .

(٦) المقرئزي : الذهب المسبوك ، ص ٨٤ .

مداومة سلاطين بنى أيوب ، وسلاطين المماليك من بعدهم ، على إرسال كسوة الكعبة من مصر ؛ وكان السلطان المماليكى الظاهر بيبرس ، بعد نقله لِمقر الخلافة العباسية إلى القاهرة ، هو أول من أدار محمل الكسوة الشريفة بمصر ؛ وصيرورة سلاطين الأيوبيين ، ومن بعدهم سلاطين المماليك وسلاطين العثمانيين ، حماة الحرمين الشريفين والقبليتين :

ويرى الشيال ، أنه كان هناك نزاع خفى دائم ، بين ملوك اليمن الرسولين ، وبين ملوك الأيوبيين أولاً ، وسلاطين المماليك ثانياً في مصر ، حول السيطرة على الأراضي المقدسة بالحجاز ، ومظهر ذلك رغبتهم في أن يخاطب لهم على منابر مكة ، وسعيهم أن يكسواهم الكعبة^(١) ، خاصة وقد استن السلطان المملوكى الظاهر بيبرس سياسة محكمة ، تجاه السيطرة على موسم الحج ، فتعمد إدارة محمل الكسوة الشريفة بمصر ، قبل إرساله إلى مكة فكان أول من استحدث هذا الرسم من سلاطين المماليك^(٢) ، الأمر الذى تعمد إخفاؤه - فيما يبدو - ملوك بنى أيوب ، منذ عصر صلاح الدين ؛ رغم أن الكسوة كانت تصنع بمصر^(٣) ، وذلك إجلالاً للخليفة ، ولإستكمال مظاهر سيادته على موسم الحج .

فجح السلطان بيبرس بنفسه سنة ٦٦٨هـ / ١٢٦٨م ، ورتب أموالاً سنوية لأمير مكة ، عوضاً عما يؤخذ بمكة من المكوس عن الحجاج ؛ كما اشترط على أميرى مكة والمدينة ، أن يخاطب له بمكة والمشاعر ، وتضرب السكة باسمه ؛ وكتب التقليد ، لأميرى مكة والمدينة من قبله ، وسلم أوقاف الحرم بمصر والشام لنوابهما ، وأنعم على الطواشية خدام الحجر الشريفة^(٤) ، الذين كان صلاح الدين أول من رتبهم^(٥) .

وهنا نلاحظ أن سياسة بيبرس لرعاية الحرمين الشريفين ، مستمدة من سياسة نور الدين زنكى ، ثم صلاح الدين الأيوبي^(٦) ، فبعد أداء بيبرس لفريضة الحج ، غسل الكعبة بيده بماء الورد ، وعلق كسوتها بنفسه ومعها خواص رجاله^(٧) ؛ ومن هذه السنة ، أصبح محمل الحج المصرى ، رمزاً لسلطة

(١) الشيال : مقدمة كتاب الذهب المسبوك للمقريزى ص ٢١ . وأنظر عن علاقات بنى رسول بالخلافة العباسية ابن الفوطى : الحوادث ص ١٢٢ وأنظر عن محاولة بنى رسول الاستيلاء على مكة ، بعد موت الملك الأقسيس بن الملك الكامل ، صاحب اليمن الأيوبي ، ونجاحهم فى طرد نواب الملك الكامل من مكة ، أنظر ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ص ١٢٣ - ١٢٤ ، وأنظر تفاصيل اشتباك مسلح كاد يقع بين عساكر الملك الصالح نجم الدين أيوب سلطان مصر ، وعساكر الملك المنصور نور الدين بن رسول ملك اليمن سنة ٦٤٠ هـ ، داخل مكة إبان موسم الحج (أنظر المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣١٢) ولعل هذا الخبر ما يفسر الحملة البحرية التى أرسلها الصالح نجم الدين أيوب إلى اليمن سنة ٦٣٨ هـ (المقريزى ، ١ : ٣٠٦) .

(٢) الشيال : نفس المصدر ص ١١ .

(٣) أنظر قبله .

(٤) المقريزى : الذهب المسبوك ص ٨٧ - ٨٩ .

(٥) أنظر قبله .

(٦) أنظر قبله .

(٧) المقريزى : الذهب المسبوك ص ٩١ .

سلطان مصر ، وحميته للحرمين الشريفين ، وبسط نفوذه الروحي والزماني ، على كافة أنحاء العالم الإسلامي ، في كل مدينة ينزل بها المحمل ، على طول الطريق من القاهرة إلى مكة^(١) .

فلا غرو أن اتخذ بيبرس ، بعد نقله للخلافة العباسية إلى مصر ، ألقاباً لم يتخذها من قبله ، سلاطين البويهيين أو السلاجقة أو حتى أساتذته بنو أيوب : فتلقب بـ « سلطان الإسلام والمسلمين » ، وهو لقب جديد ظهر بعد أن هوت الخلافة العباسية ببغداد سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨ م ، وأصبح السلطان المملوكي بمصر ، هو الزعيم الحقيقي للعالم الإسلامي ، كما تلقب بـ « صاحب القبلتين » ، أى الكعبة والمسجد الأقصى ، و « خادم الحرمين الشريفين » أى الحرمين المكى والمدنى ، وهو لقب اتخذته من قبل صلاح الدين^(٢) ، « والامر ببيعة الخليفين » ، أى الخليفة المستنصر العباسي ، ثم الحاكم بأمر الله العباسي ، وكلاهما يوبع بمصر على التوالي ؛ وأخيراً توج الظاهر بيبرس هذه الألقاب ، بلقب « قسيم أمير المؤمنين »^(٣) .

وظل لقب « حامى حمى الحرمين الشريفين » أهم الألقاب التى يتفاخر بها سلاطين المماليك ، ويتناولون به على كافة سلاطين الإسلام المعاصرين لهم ، بحيث جعلهم هذا اللقب ، بالإضافة إلى تربعهم على عرش مصر ، أعظم ملوك الإسلام بملاحظة مؤرخهم ابن إياس^(٤) ؛ وكان ميراث العثمانيين لهذا اللقب ، عن سلاطين المماليك المصريين ، إلى جانب أصحاب الخليفة العباسي المصري إلى استانبول ، من أهم الأسباب التى شجعت سلاطين بنى عثمان ، على إعلان قيام خلافتهم^(٥) .

وقد حرص السلطان سليم العثماني ، فاتح مصر ، على أن يحى تقليد إرسال صدقة القمح إلى الحرمين من مصر^(٦) ، إشعاراً وتأكيداً بأنه أصبح حامى حمى الحرمين الشريفين ؛ وكانت صدقة

(١) أنظر : Jomier: Le Mahmed وهو فصل بعنوان " المحمل وسياسة بيبرس " ،

(٢) أنظر قبله .

(٣) أنظر دراسة وافية لهذه الألقاب وغيرها من ألقاب السلطان الظاهر بيبرس فى مقال محمد عبد العزيز مرزوق :

جامع الظاهر بيبرس البندقدارى : المجلة التاريخية المصرية المجلد الثالث ، العدد الأول ، مايو سنة ١٩٥٠ ،

ص ٩١ - ١٠٢ .

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ٥ : ٢٠٦ .

(٥) أنظر قبله .

(٦) أنظر كتاب السناء الباهر رقم ٢٠٣٣ تاريخ تيمور بدار الكتب ص ٢٢٤ ، وكتاب الإعلام لقطب الدين

رقم ١٢٣٩ تاريخ تيمور بدار الكتب ص ٣٣٢ ، وكتاب نزهة الجليس رقم ٩٤ أدب - تيمور بدار الكتب

المصرية ج ١ ص ١٧٦ ، وأنظر أحمد تيمور : التذكرة التيمورية ص ١٣١ - ١٣٢ ، مادة " الحجاز " .

الحرمين من القمح ، ترسل من مصر أيضاً منذ العصر العباسي الأول ، وكان أول من قررها البرامكة^(١) ، وهم من وزراء بني العباس ، واستمرت في عصر صلاح الدين وخلفائه من سلاطين بني أيوب^(٢) .

ويستلفتنا هنا ، أن الخطبة للخليفة العباسي السنّي ، على منابر الحرّمين ، قد استمرت منذ عصر نور الدين زنكي^(٣) ، وطوال العصر الأيوبي منذ عصر صلاح الدين^(٤) ، كما استمر يخطب خلفاء بني العباس السنين ، حتى بعد انتقال الخلافة العباسية إلى القاهرة في العصر المماليكي^(٥) ، وإن تخللت هذه الفترة ، التي استمرت قرابة ثلاثة قرون ، شهور وجيزة ، أذن فيها أمراء مكة بالأذان الشيعي « حتى على خير العمل »^(٦) كنوع من المشاغبة السياسية لخلفاء بني العباس ببغداد وسلاطين بني أيوب بمصر ، تذكّرة بالسيادة الفاطمية على الحرّمين ، إذ كان أمراء مكة على المذهب الشيعي الزيدي^(٧) ، أو مجاملة لأنمة اليمن الزيدية كما حدث سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م^(٨) . وقد كان لأنمة الزيدية دولة مستقلة بصعده بشمال اليمن ، منذ القرن الرابع الهجري ، ولم يستطع الأيوبيون في اليمن القضاء عليها^(٩) .

- (١) أنظر الجهشيارى : رقم ٢٢٤٤ تاريخ تيمور بدار الكتب المصرية ص ٢١١ - ٢١٢ ، وأنظر أحمد تيمور : التذكرة التيمورية ص ١٣١ .
- (٢) أنظر قبله ، وأغلب الظن أن العثمانيين ، ورثوا إرسال صدقة القمح من مصر إلى مكة عن المماليك .
- (٣) المقرئى : الذهب المسبوك ص ٦٩ .
- (٤) أنظر ابن جبّير : الرحلة ص ٧٣ ، المقرئى : الذهب المسبوك ص ٧٠ - ٧٩ ، ٨١ - ٨٣ .
- (٥) أنظر المقرئى : الذهب المسبوك ص ٦١ - ٦٢ ، ٨٥ - ٩٥ ، ٩٥ - ١٠٩ .
- (٦) سبط : مرآة ٨ : ٣٨٨ .
- (٧) يقول ابن جبّير : وللحرم أربعة أئمة سنّية ، وإمام خامس لفرقة تسمى الزيدية ، وأشرف أهل هذه البلدة على مذهبيهم ، وهم يزيدون في الأذان : حتى على خير العمل ، أثر قول المؤذن حتى على الفلاح ، وهم روافض سبّابون ، والله من وراء حسابهم وجزائهم ، ولا يجمعون مع الناس (أى أنهم لا يصلون صلاة يوم الجمعة) إنما يصلون ظهراً أربعاً ، ويصلون المغرب ، بعد فراغ الأئمة من صلاتها (أنظر الرحلة ص ٧٨ س ١٥ - ١٩) .
- (٨) أنظر ابن الفوطى : الحوادث ص ٢٥٣ ، وليس صدفة ولا ريب ، أن أمراء مكة الزيدية ، لم يجرؤا على إظهار ميلهم لأنمة اليمن الزيدية ، وترتيب أمام بالحرم يؤذنه بالشعار الشيعي " حتى على خير العمل " إلا في سنة ٦٤٨هـ ، وهى التى أصبح فيها زوال ملك بني أيوب من مصر ، أمراً أكيد الوقوع .
- (٩) أنظر محمد عبد الله ماضى ، دولة أئمة اليمن الزيدية ، مقال بمجلة الجمعية التاريخية المصرية ، المجلد ٣ ، ج ١ ، ١٩٥٠م ، ص ١٥ - ٣٥ ، وأنظر أمين فؤاد : المذاهب الدينية باليمن فى القرن الرابع الهجرى ، رسالة ماجستير جامعة القاهرة ١٩٨٠ تحت إشراف الدكتور حسن محمود .

ويبدو أن الأيوبيين قد اكتفوا إقراراً للأمر ، نتيجة للبعد التاريخي المرتبط بحكم الأئمة الزيدية باليمن ، وشدة حماسة اليمنيين للمذهب الزيدى ، بأن يخاطب أئمة الزيدية باليمن للخليفة العباسى السنى ، ويعترفون بخلافته^(١) .

أما الخليفة العثمانى السنى ، فقد ظل يخاطب له بالخرمين ، اربعة قرون ، حتى سقوط الخلافة العثمانية فى مطلع القرن العشرين^(٢) ، بمعنى أن الخلافة السنية ، بعد سقوط الخلافة الفاطمية بمصر سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م ، قد دعى لها على الخرمين طوال سبعة قرون ، بدأت بالعصر الأيوبى ، وانتهت بالعصر العثمانى ، وهو مظهر من أهم مظاهر غلبة الدعوة السنية على العالم الإسلامى ، منذ ظهور حركة الأحياء السلجوقى^(٣) .

حاز السلطان الأيوبى إذاً منذ عصر صلاح الدين ، شرف حماية فريضة الحج والإشراف على الخرمين الشريفين ، وتعويض النفوذ السياسى لأمير لواء الحج العراقى على بلاد الحجاز ؛ كما أصبحت السلطنة الأيوبية هى حامية الدعوة العباسية ، والعاملة على نشر دعوتها فى جميع ديار الإسلام ، سواء فى ممتلكات الخلافة الفاطمية أو الخلافة الموحدية ، وفوق ذلك فى البلاد الإسلامية بالشام التى يتم استردادها من الصليبيين ، وأخيراً على منبر المسجد الجامع بمدينة القسطنطينية ، عاصمة الدولة البيزنطية زعيمة العالم المسيحى . ولا ريب أن تفرد سلاطين بنى أيوب ، بالتهوض بأعباء الدعوة العباسية ، وحماية الخليفة العباسى ، والزام ملوك الأطراف إظهار الطاعة والتبعية له ، قد أمد السلطنة الأيوبية بسند شرعى ، جعلها تتصدر الزعامة السياسية للعالم الإسلامى .

والجدير بالملاحظة أن أول السلاطين السنيين الذين اضطلعوا بحماية فريضة الحج ، قبل نور الدين زنكى وتلامذته سلاطين بنى أيوب ، كان السلطان محمود الغزنوى أول السلاطين السنيين وأقدمهم ظهوراً فى تاريخ المشرق الإسلامى^(٤) ؛ ثم ورثة تلامذته السلاجقة ، فالسلطان ملكشاه السلجوقى ، كان أول من استن وسائل حماية هذه الفريضة لمن بعده من السلاطين ، فبنى أجواض الماء

(١) أنظر ابن القوطى : الحوادث ص ٢٥٨ .

(٢) أنظر سيد رجب حراز : الدولة العثمانية والجزيرة العربية ص .

(٣) أنظر قبله وبعده .

(٤) قال ابن الجوزى فى حوادث سنة ٤١٢هـ : فمن الحوادث فيها ، أنه كان حاج العراق تأخر عن الحج سنة ٤١٠ و ٤١١هـ ، فلما جاءت سنة ٤١٢هـ ، قصد جماعة من الناس يمين الدولة أبو القاسم محمود بن سبكتكين ، وقالوا له : أنت سلطان الإسلام ، وأعظم ملوك الأرض ، وفى كل سنة تفتح من بلاد الكفرة قطعة ، والثواب فى فتح طريق مكة أعظم ، والتشاغل به أوجب ، وقد كان بدر الدين بن حسنوية ، وما فى أصحابك إلا من هو أكبر شأناً منه ، يسير الحاج بماله وتدييره عشرين سنة ، فأنظر لله تعالى ، واجعل لهذا الأمر حظاً من اهتمامك ، فتقدم إلى أبى محمد الناصحى ، قاضى القضاة فى مملكته بالتأهب للحج ، وتنادى فى سائر أعمال خراسان بالتأهب للمسيرة ، وأطلق للعرب فى البادية ، ثلاثين ألف دينار ، وسلمها إلى الناصحى ، سوى ما أطلقه من الصدقات ، (ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٨ ص ٢) .

على طريق الحجاز ، ورفع المكوس ورسوم الخفارة عن طريق الحاج ، وأقطع أمراء الحرمين نظير ذلك الإقطاعات والأموال ، وكانوا يأخذون قبل ذلك من كل حاج سبعة دنانير ذهبية ، وأنعم كذلك على عرب البادية وعلى مجاورى الكعبة بالإنعامات الطائلة^(١) .

ويبدو أن حماية فريضة الحج ، كان عهداً قطعه السلاجقة على أنفسهم ، حين أعلنوا قيام سلطنتهم سنة ٤١٣ هـ / ١٠٤١ م ، وطاعتهم وتبعيتهم للخلافة العباسية ، بحيث وعدوا الخليفة بمدارمتهم على زيارة الكعبة ؛ وإن كانت ظروف دولتهم قد حالت أغلب الظن دون قدمهم بأنفسهم إلى الحجاز^(٢) ، لأن القرينى فى كتابه الذهب المسبوك فى من حج من الخلفاء والملوك لم يترجم لأحد من سلاطين بنى سلجوق .

وقد أكد تقليد الخليفة العباسى المستنصر بالله ، الذى فرض بمقتضاه السلطنة للملك الكامل الأيوبي سلطان مصر ، أن حماية فريضة الحج ، أصبحت من أهم الواجبات الدينية ، التى عهدت بها الخلافة العباسية ، لسلاطين بنى أيوب^(٣) ؛ فلا غرابة أن أصبحت حماية فريضة الحج فى العصر

(١) أنظر الراوندى : راحة الصدور ، ص ٢٠٥ .

(٢) أكد هذا الظن الإمام الجوينى ، الذى كان الفقيه والمفكر السياسى الأكبر فى عصر السلاجقة ، وذلك فى كتابه الشهير غياث الأمم ، وهو كتاب فقهى فى علم الأحكام السلطانية ، ألفه باسم الوزير السلجوقى الشهير نظام الملك وأهداه إليه ؛ إذ أفاد الجوينى أنه إذا كان حج السلطان إلى مكة سوف يعوقه من مباشرة أمور الإمامة بأكملها ، وهى الخاصة بامضاء شريعة الإسلام ، ورعاية شئون الرعية ، وإقرار الأمن فى ديار الإسلام ، والدفاع عن بيضة الإسلام بالمناغرة فى الثغور ، فإن فريضة الحج تسقط عن السلطان ؛ كذلك إذا كان الحج ، سوف يعرضه هو ورعيته للأخطار ، سقط وجوب الحج عن السلطان ورعيته ؛ ومن ثم فالجوينى يناشد السلطان السلجوقى فى عصره ، ضرورة العناية بتأمين طريق الحج وحماية الحجيج . أنظر مناقشة فقهية طويلة لهذه القضية عند الجوينى : غياث الأمم ، تحقيق فؤاد عبد المنعم ومصطفى حلمى ، القاهرة ١٩٧٩ م . ص ٢٦٤ - ٢٧٠ . ولاشك أن هذه الأسباب التى أجازت شرعاً لسلاطين السلاجقة - فى رأى الجوينى - إسقاط فريضة الحج عنهم " لعدم الاستطاعة " ، هى ذاتها التى تفسر عدم إقدام أحد من خلفاء الفاطميين على أداء فريضة الحج ، وعدم استطاعة أحد من الخلفاء العباسيين بعد عصر هارون الرشيد ، الذى شهدت الخلافة فى عصر أولاده الانقسام وظهور الدويلات المنقطعة ، أيضاً أداء هذه الفريضة ، وهى تفسر أخيراً عدم استطاعة صلاح الدين الحج ، رغم رغبته فى ذلك ، وإظهار العزم على أداء هذه الفريضة قبيل موته . ولقد أوضح الجوينى أن ارتباط العبادات بنظر الإمام وإشرافه عليها ، ينسحب على العبادات والفرائض التى ترتبط باجتماع جمع غير من المسلمين مثل فريضة الحج ، كما أوضح أن وظيفة إمارة الحج ، كان النبى يقوم بها بنفسه ، وأحياناً ينب فيها أبا بكر الصديق ، ثم أصبح خلفاء المسلمين يستيون فيها الأمراء أو ذوى الألوية (غياث الأمم ص ١٤٦ - ١٤٧) .

(٣) جاء فى هذا التقليد على لسان الخليفة : وأمره باعتبار أسباب الاستظهار والأمنة ، واستقصاء الطاعة المستطاعة ، والقدرة الممكنة ، فى المساعدة على قضاء تفت حجاج بيت الله الحرام ، وزوار نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام ، وأن يمددهم بالإعانة فى ذلك على تحقيق الرجاء وبلوغ المرام ، ويحرسهم من التخطف والأذى فى حائى الظعن والمقام ، فإن الحج أحد أركان الدين ، المشيدة ، وفروضه الواجبة المؤكدة ، قال الله تعالى : " ولله على الناس حج البيت " سورة آل عمران الآية ٩٧ ، أنظر القلقشندي : مآثر الإنافة ، ص ١١٤ - ١١٥ .

الماليكى بمصر ، وبعد انتقال مقر الخلافة العباسية إلى القاهرة ، إثر سقوط بغداد عاصمة الخلافة أمام الغزو المغولى ، من أهم واجبات السلطان المملوكى ، وراثه عن سلاطين بنى أيوب^(١) .

(١) أجمع الفقهاء المصريون ، الذين ألفوا كتب الأحكام السلطانية والسياسة الشرعية ، فى العصر المالىكى ، أن تأمين طريق الحج ، من أهم الواجبات الشرعية التى يلتزم بها السلطان المملوكى . وقد حرص هؤلاء الفقهاء على أفراد فصول وقرات من مؤلفاتهم لشرح أهمية إشراف السلطان على تعيين أمير للحج ، وحماية فريضة الحج ، وإرسال الكسوة إلى الكعبة . فيقول خضر بن أبى بكر فى الفصل الثالث من الباب الرابع من كتابه المناقب المعزية وعنوانه : " فى أمير الحج " : ينبغى له (أى السلطان) أعزه الله ، أن يقيم شعار الحج ، فإنه من أركان الإسلام .. وليؤمر عليه أميراً ، وهى ولاية سياسية وحراسة ، ومن شرطه أن يكون مطاعاً ، ذا رأى وشجاعة وهداية ، عارفاً بمناسك الحج وأوقاته ، وأن يجمع الناس ويرتبهم ، ويرفق بهم ويحميهم ، ويصلح بين المتنازعين فيهم (أنظر المناقب المعزية - خ ، ص ٩٠) . أما ابن جماعة فيذكر أن الحق الثالث من حقوق الرعية العشر على السلطان لإقامة شعائر الإسلام ، والإعتناء بتيسير الحجيج من نواحي البلاد ، وإصلاح طرقهم وأمنها فى مسيرهم ، وانتخاب من ينظر فى أمورهم (أنظر تحرير الأحكام - خ ، ص ١٥ ، الباب الثانى) . وكان عبد الصمد الصالحى ، أكثر فقهاء العصر المالىكى توضيحاً لدور السلطان فى حماية فريضة الحج ، وعمارة الكعبة وكسوتها ، فكذب يقول : وأما كسوة الكعبة زادها الله تشریفاً وتعظيماً ، فينبغى للملك أن يكسوها فى كل سنة كما جرت به العادة ، ويكون ثمن الكسوة وما ينصرف عليها من مال الخراج والجزية ، وما يهديه أهل الحرب إلى الملك ، وهذه جهة مصرفها قديماً ، وأما الآن فلها جهة مخصوصة ، فتكسى منها مع شمول نظر الملك فى أمرها ، وعرض الكسوة بين يديه وتفقد أحوال ذلك ، ويكون الناظر عليها رجلاً ديناً أميناً عفيفاً عاقلاً ، ذا ثروة ومال ، يتمتع من التماس شىء من مالها المعد لها فى كل سنة .. ، وأما إصلاح طريق الحاج ، فينبغى للملك أن يصهد ذلك فى كل سنة ، بعمارة البرك فى الطريق ، وتطرق الماء إليها ، ونزح الطين من الأعين ، وتمهيد ما فى الطريق من الوعر ، وتسهيل ذلك وتوسيع المضائق وبناء العلامن (أى العلامات الهادية فى الطريق) ويصرف على ذلك من المال المتقدم ذكره ؛ وأما تجهيز المحمل الشريف فى كل سنة فكذلك ، ويصرف عليه من المال المذكور . وينبغى للملك أن يوصى أرباب الإدراك بطريق الحاج بحفظ الحاج ورعايتهم ممن يؤذيهم ، وأن يصرّف لهم معاليمهم المرتبة لهم فى كل سنة من بيت المال ، ويجهز خلعهم الجارى بها العادة إليهم ، فإذا صرف لهم ذلك بتمامه من غير نقص ، وحصل للحاج مع ذلك ، أذى من قطع طريق أو غيره مما يكون حفظه لازماً لهم ، ينبغى للملك أن يرسل خلقهم ويعنفهم على ذلك ويهددهم إذا عادوا فى التقتير لحفظ الحاج ؛ وأما ترتيب سير الحاج ، فينبغى للملك أن يوصى أمير الحاج فى كل سنة بالرفق فى السير ، وحفظ الحاج ، وتفقد أحوالهم ، ولا سيما الفقراء منهم ، وإقامة الحرمة ، والإقامة بهم فى الأماكن التى جرت بها العادة بالمقام فيها ، وينبغى للملك أن يرسل معهم فى كل سنة طائفة تحميهم وتمنع عنهم العدو . أنظر عبد الصمد الصالحى : هدية العبد القاصر إلى الملك الناصر - خ ، مكتبة كوبرلى برقم ٢٩٠ ، ومصور بالمكتبة الزكية بدار الكتب المصرية برقم ٢٦٠٢ تاريخ ، ٥٥٨٣٦ عمومى ، الفصل الرابع لوحة ٥١ - ٥٢ .

الفصل السادس

تَبَعِيَّةُ سَلَاطِينِ بَنِي أَيُوبَ ، لِدَوْلَةِ الْخَلِيفَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ الشُّنِّيَّةِ ،
وَنَهْوُضُهُمْ بِفَرِيضَةِ الْجِهَادِ ، وَتَوْحِيدُهُمْ كَلِمَةَ الْمُسْلِمِينَ ،
وَنَشْرَهُمْ لِعُلُومِ السُّنَّةِ .

- التقليد والتفويض الخيفى لسلاطين بنى أيوب .

- ألقاب السلطنة الأيوبية .

- سلطنات إسلامية متعاصرة، وأسباب تفرد السلطنة الأيوبية بالتفويض الخيفى فى ديار الإسلام .

- الوضع الشرعى للسلطنة الأيوبية .

تبعية سلاطين بنى أيوب ، لدولة الخلافة العباسية السنية

ونهوهم بفريضة الجهاد ، وتوحيدهم كلمة المسلمين ، ونشرهم لعلوم السنة :

التقليد والتفويض الخليفى لسلاطين بنى أيوب :

لا ريب أن التفويض الخليفى لصالح الدين وخلفه، كان بالإضافة إلى إسباغه الشرعية ، فى نظر العالم الإسلامى ، على الممتلكات النورية والفاطمية التى ضمها إلى دولته الفتية ، فإنه كان تفويضًا من الخليفة العباسى إلى صلاح الدين ، بجميع السلطات الشرعية ، التى يعد الخليفة هو القائم بها ، من واقع تفويض الأمة الإسلامية له هذه السلطات عن طريق مبايعة أهل الحل والعقد له بالخلافة^(١) .

ولقد حدد القلقشندى ، الوظائف الرئيسية فى الدولة الإسلامية ، بوظائف عشر ، يفوضها الخليفة إلى من يرى فيه الكفاءة على القيام بها على خير وجه ، ثم أفاد أن هذه الوظائف العشر ، أصبحت يفوضها الخليفة إلى السلطان ، ثم يفوضها السلطان بدوره إلى من يستطيع النهوض بأعبائها^(٢) .

ولدينا حسن الحظ ، وثيقتان هامتان ، إحداهما خاصة بتقليد الخليفة الناصر لدين الله العباسى لصالح الدين^(٣) ، وثانيهما تقليد الخليفة المستنصر بالله العباسى للملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر^(٤) .

وبدراستنا لهاتين الوثيقتين ، دراسة مقارنة ، نستطيع أن نحدد السلطات الشرعية التى فوضها الخلفاء العباسيين لسلاطين بنى أيوب ، على أساس أن الوثيقة الأولى ، ترجع إلى عهد قيام الدولة الأيوبية ، والوثيقة الثانية ، ترجع إلى عصر استقرارها وبلوغها أوج اتساعها فى عصر السلطان الملك الكامل محمد .

كما أن لدينا أيضًا ، وصفًا دقيقًا شائقًا ، لرسوم وصول الخلع الخليفية ، مع رسل وسفراء الخلافة العباسية إلى مصر ، واستقبال سلاطين الأيوبيين لهؤلاء السفراء ، وركوب السلاطين المصريين فى موكب رسمى ، بالآلات الملوكية والخلع والأعلام الخليفية ، المميزة باللون الأسود شعار بنى العباس ، وبين يدي السلطان وزيره راجبًا فرسه ، حاملًا عهد الخليفة « التقليد الخليفى » ، الذى يسبغ الشرعية على سلطنة بنى أيوب ، أمام رعاياهم المصريين وأمام العالم الإسلامى كله^(٥) .

(١) أنظر قبله ، وبعده .

(٢) أنظر القلقشندى : مآثر الإنافة فى معالم الخلافة ، ١ : ٧٤ - ٨٠ .

(٣) أنظر نص هذا التقليد عند القلقشندى : مآثر ، ٣ : ٨٦ - ٩٨ ، صبح ، ١٠ : ١٤٥ - ١٥٢ .

(٤) أنظر نص هذا التقليد عند القلقشندى : مآثر ، ٣ : ٩٩ - ١٢١ ، صبح ، ١٠ : ٩٨ - ١١١ .

(٥) أنظر وصف تفصيلى لهذه الرسوم عند المقرئى : الخطط ، ٣ : ١٧٤ - ١٧٥ .

وقد حدّدت التقاليد الخليفة لسلطين بنى أيوب ، حدود ممتلكات الدولة الأيوبية ، التى سوف يسرى فى أراضيها هذا التفويض الخلفى ؛ وهنا نلاحظ أنه إلى جانب البلاد والممتلكات ، التى كان كل من صلاح الدين ، ثم السلطان الكامل ، قد ضمّوها إلى دولتهم بالفعل ؛ فإن الخليفة العباسى ، كان يعتمد تفويضهم سلطاته الشرعية ، على كل البلاد التى سوف ينجحون فى ضمها إلى ممتلكاتهم؛ سواء من البلاد التى كان الفرنج قد استولوا عليها ببلاد الشام، أو البلاد التى كانت الخلافة الفاطمية، والكيانات السياسية الشيعية التابعة لها ، قد نشرت فيها المذهب الفاطمى ، وخطبت على منابرها للخليفة الفاطمى^(١) ؛ وقد داوم .. الخليفة فى هذه التقاليد على تذكير سلطين بنى أيوب ، على ما يجب عليهم شرعاً من طاعة الخليفة العباسى ، والولاء للخلافة العباسية ، وأن يطالعوا الخلافة بأحوال دولتهم ، ويطلبوا منها المشورة عند الملمات^(٢) .

ثم تنتقل التقاليد ، إلى التنويه بميراث البيت العباسى ؛ لنص النبى على أن الخلافة والإمامة فى بيت عمه العباس !! ؛ ثم تعداد فضائل ومناقب البيت العباسى ، بل الغريب أن صرّحت هذه التقاليد ، بمبدأ عصمة الأئمة ، ووصفت الخليفة بأنه « إمام المسلمين خليفة الله فى أرضه » ، وأنه الذى حاز « موارث النبوة والإمامة ، وخصّه الله من حسن التوفيق الإلهى بأمتن عصمه » ، .. واختاره للمسلمين إماماً؛ وفى هذا جنوح للنظريات السياسية الفاطمية، الخاصة بالإمامة، مثل مبدأ « التنصيص » ، و عصمة الأئمة مع التلميح إلى مبدأ « الحكم الإلهى » والمفاهيم الثيوقراطية للدولة ، كما ألمحت هذه التقاليد أيضاً إلى فكرة حق الخليفة فى الولاية والطاعة على جميع المسلمين وهو ما عبرت عنه التقاليد بـ « الطاعة الواجبة على الخلائق » ، وفى هذا أيضاً تأثيراً بمبدأ « الولاية » ، عند الفاطميين ؛ كذلك تبدى تأثير الخلافة العباسية ، غداة القضاء على الخلافة الفاطمية بالصيغ والمفاهيم الشيعية الخاصة بالصفات الدينية للخلفاء ، من دعاء كاتب هذه التقاليد ، للخليفة العباسى ، بصيغة « صلوات الله عليه وسلامه » ، وهى أيضاً صيغة شيعية^(٣) .

(١) أنظر القلقشندى : مآثر ، ٣ : ٨٨ ، س ٩ - ١٧ (تقليد صلاح الدين) ، ج ٣ ، ص ١٠٤ - ١٠٥ ، (تقليد الملك الكامل) .

(٢) أنظر القلقشندى : مآثر ٣ : ٨٨ ، س ٢ - ٨ ، ٨٧ - ٩٨ (تقليد صلاح الدين) ، ٣ : ١٠٠ - ١٠١ ، (تقليد الملك الكامل) .

(٣) عن هذه التعابير والصيغ الشيعية الواردة فى التقاليد الخلفية لسلطين بنى أيوب أنظر القلقشندى : مآثر ، ٣ : ١٠٠ - ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، وعن النظريات السياسية الفاطمية أنظر ماجد: نظم الفاطميين ، ١ : ٥١ - ٧٧ ، وأنظر قبله هامش وافي الفصل الخاص بالقضاء على الدعوة الفاطمية ، فيه مناقشة هذه النظريات السياسية الفاطمية .

والملاحظ أن هذا الأثر الواضح ، للفكر السياسي الفاطمي ، في المفاهيم والصيغ السياسية للخلافة العباسية ، وخلفاء بني العباس ، إثر سقوط الخلافة الفاطمية بمصر ، وتفرد العباسيين بالخلافة ، قد وجدنا أثره في مدائح الشعراء خلفاء بني العباس التي ترجع إلى هذا العصر ، بل وجدناه أيضًا في الوثائق الرسمية والنقوش التي ترجع إلى هذا العصر أيضًا^(١) .

أما جوهر السلطات الشرعية ، التي فوضها الخليفة لسلطين بنى أيوب ، فهي فى الواقع جميع السلطات الشرعية التي عرفت فى الدولة الإسلامية ، وهى فى مجملها تدور فى فلك الوظائف العشر التي قسم القلقشندى^(٢) عليها ، السلطات السياسية العامة ، التي يمنحها الخليفة للسلطين ، ويمنحها السلطين بدورهم لمن يتولى مباشرتها من الأكفاء ؛ وهى : إمامة الحرب أى قيادة الجيوش ، وإمامة الصلاة ، ونظر المظالم ، والمعاون والأحداث - أى ولاية الشرطة - ، والحسبة ، ونظر الأوقاف ، والأشراف على جباية الجبايات الشرعية مثل الخراج والزكوات والجوائى وسائر وجوه الجبايات وصرفها فى أوجه صرفها الشرعية واختيار الأئمة العارفين بأحكام الشريعة لجبايتها وصرفها ؛ وبخصوص ولاية القضاء ، أى السلطة التشريعية فى البلاد ، فلقد أمر الخليفة السلطان ، بتقوية يد القضاء لتمكينهم من تنفيذ الأحكام والحدود الشرعية ؛ ويستلقتنا بخصوص وظيفة نظر المظالم ، أمر السلطان بأن يتولى نظرها بنفسه ، ولا يفوض أو يستتبع فيها أحد ، ليظهر العدل فى الرعية ، ويساوى بين أقربائهم وضعفائهم ، ويمنعهم عن التظالم فيما بينهم .

ولقد عمدت التقاليد الخليفة لسلطين بنى أيوب ، على توضيح كل سلطة مَحْوَلَة إلى السلطان الأيوبي على حدة ، وشرح كيفية اختياره لمباشريها ، أو إشرافه عليهم ، لتؤدى مصالح المسلمين على الوجه الأكمل .

وقد نوّهت هذه التقاليد ، بضرورة التزام السلطان بإقامة وإظهار شعائر الإسلام ، وتشيد قواعده ، بالتهوض بنفسه بإمامة الصلاة فى صلوات الجمع والأعياد ، والإشراف بنفسه على تعمير المساجد ، كما أناطت به وظيفة دينية هامة ، وهى حماية وتأمين طريق الحج^(٣) .

كما حثت التقاليد الخليفة ، سلطين بنى أيوب على ضرورة جهاد الفرنج فى بلاد الشام ، لكون جهاد المشركين ، فريضة إسلامية^(٤) .

(١) أنظر تتبع لهذه النصوص فى الفصل الخاص بالوضع السياسى والشرعى لمصر الأيوبية .

(٢) أنظر القلقشندى : مآثر ، ١ : ٧٤ - ٨٠ .

(٣) أنظر ما تقدم بحثًا مستوفيًا عن حماية الأيوبيين لفريضة الحج . وأنظر القلقشندى : مآثر ، ٣ : ١١٤ - ١١٥ (تقليد الكامل) .

(٤) أنظر القلقشندى : مآثر ، ٣ : ٩٤ ، س ٩ - ١٧ (تقليد صلاح الدين) ، ج ٣ : ص ١١١ - ١١٤ (تقليد الكامل) .

ولم يفت التقليد الخلفي ، أن ينبه السلطان الأيوبي ، إلى العهد الذي التزمه بالخطبة على منابر مملكته للخلافة العباسية « فيقيم الدعوة الهادية على المنابر على عادة من تقدمه »^(١) ؛ ولما كان صلاح الدين ، هو مؤسس الدولة الأيوبية ، وأول سلاطينها ، فأغلب الظن أن الخليفة يعنى بعبارة « على عادة من تقدمه » ، السلاطين السنيين ، الغزنويين والسلاجقة والزنكيين على التوالي .

وفي حين ألمح التقليد الخلفي لصلاح الدين إلى أنّ تتبع فلول الشيعة ودعاتهم من المهام الموكولة إلى المحتسب^(٢) ، وإلى وجود رجال للشرطة في أطراف البلاد مكلفين بالقبض على دعاة الشيعة ؛ لم يشر تقليد الملك الكامل إلى اهتمام المحتسب بتتبع الشيعة ودعاتهم^(٣) ؛ وأغلب الظن لأن الدعوة الفاطمية ، كان قد تم القضاء عليها تقريباً في عصر الملك الكامل^(٤) .

فعلى هذا النحو إذاً ، فوضّ الخليفة لسلاطين بنى أيوب ، جميع سلطاته الشرعية ، بوظائفها الدينية والحربية والإدارية ، وترك لهؤلاء السلاطين اختيار الأكفاء من رعاياهم القادرين على النهوض بأعباء هذه الوظائف على الوجه الأكمل ، ليفوض السلطان بدوره ، لكل منهم ، سلطات الوظيفة التي يستطيع الاضطلاع بها ؛ ولقد أوضحت كتب السياسة الشرعية ، أن تفويض السلطان الوظائف العامة للأكفاء ، يعد في الفقه الدستوري الإسلامي ، من باب أداء الأمانات إلى أصحابها^(٥) ؛ وذلك لأن حق الرعية ، يعد من الناحية الشرعية النظرية هو حق الله^(٦) ؛ بمعنى أن من فرط في مصلحة الرعية ، وفي حق من حقوقها ، فكأنه فرط في حق من حقوق الله .

والجددير بالالتفات ، أننا نجد في التفويض الخلفي لسلاطين بنى أيوب ، تلخيصاً شاملاً لأهم قواعد وأسس النظرية السياسية في الإسلام ؛ فنجده ينص على المبدأ والمحور الأساسى لهذه النظرية ، وهو مبدأ الشورى^(٧) ؛ كما يؤكد ارتكاز المفاهيم السياسية في الإسلام على أساس أخلاقى يستمد أصوله من السنة النبوية^(٨) .

(١) أنظر القلقشندي : مآثر ، ٣ : ٨٩ ، س ٨ - ١٨ (تقليد صلاح الدين) ، ٣ : ١٠٩ ، س ٢ - ١٥ (تقليد الكامل) .

(٢) أنظر القلقشندي : مآثر ، ٣ : ٩٣ - ٩٤ (تقليد صلاح الدين) .

(٣) أنظر القلقشندي : مآثر ، ٣ : ١١٩ ، س ١ - ١٥ (تقليد الكامل) .

(٤) أنظر قبله ، الفصل الخاص بالقضاء على الدعوة الفاطمية .

(٥) أنظر ابن تيمية : السياسة الشرعية ، تحقيق على سامى النشار ، ١٩٥١م ، ص ٤ - ١١ .

(٦) نفس المصدر ، ص ٦٦ - ١٧٢ .

(٧) أنظر القلقشندي : مآثر ، ٣ : ٩٢ ، س ٨ - ١١ (تقليد صلاح الدين) ، ٣ : ١١٠ ، س ٧ - ١٣ (تقليد الملك الكامل) .

(٨) أنظر القلقشندي : مآثر ، ٣ : ٨٧ - ٨٩ (تقليد صلاح الدين) ، ٣ : ١٠٧ - ١١٠ (تقليد الملك الكامل) .

وترتيب هاتين الوثيقتين ، يكاد يتطابق ، بل أن الأفكار في الوثيقتين واحدة ، ولم يتغير سوى الأسلوب ؛ ومنهج الوثيقتين ، هو النص على الأمر الخلفي ، أى السلطة أو الوظيفة المفوضة ، ثم الاستشهاد على كونها مستمدة من الشرع ، أى من القرآن والسنة .

وبستلفتنا عند مقارنة رسوم المكاتبات الإنشائية فى كلتا الوثيقتين ، أن ديوان الإنشاء الخلفي ، لم يفته التمييز فى رسوم الإنشاء الرسمية ، بين تقليد صلاح الدين ، وكان فى ذلك الوقت ، حاكمًا مستقلًا بمصر وبلاد اليمن والحجاز والقيروان وبعض مدن الشام ، وبين تقليد الملك الكامل ، وكان فى ذلك الوقت سلطانًا على أغلب بلاد المشرق الإسلامى ، بما فيها بلاد الشام والجزيرة الفراتية وأرمينية وأجزاء من آسيا الصغرى ، وهذا ما لاحظته مؤرخو ديوان الإنشاء فى العصر الأيوبي مثل ضياء الدين بنى الأثير ، وفى العصر المماليكى ، مثل القلقشندي^(١) .

ألقاب السلطنة الأيوبية :

وسنقف قليلًا ، لمناقشة الألقاب الرسمية ، التى منحها الخلفاء العباسيون ، لسلطين بنى أيوب ، متخذين فى دراستها ، المنهج المقارن ، الذى سبق أن أشرنا إليه ، فى نقدنا للمصادر^(٢) ؛ وهو مقارنة هذه الألقاب الرسمية الواردة فى سجلات تقليد سلطين بنى أيوب ، بالألقاب الرسمية والشرفية التى وردت على آثار ونقوش ومسكوكات الدولة الأيوبية ، والتى وردت أيضًا على المؤلفات ذات الصفة الرسمية ، ألقت برسم خزانة السلطين الأيوبيين وأهديت إليهم بصفة رسمية .

لقد لُقّب صلاح الدين فى التقليد العباسى بـ « الملك ، الأجل ، السيد ، صلاح الدين ، ناصر الإسلام ، عماد الدولة ، جمال الأمة ، فخر الملة ، صفى الخلافة ، تاج الملوك والسلطين ، قانع الكفرة والمشركين ، قاهر الخوارج والتمردين ، عز المجاهدين ، ألب غازى بك يوسف بن أيوب »^(٣) .

ولُقّب الملك الكامل بـ « الملك ، الأجل ، السيد ، الكامل ، المجاهد ، المرابط ، نصير الدين ، ركن الإسلام ، أثير الأنام ، تاج الملوك والسلطين ، قانع الكفرة والمشركين ، قاهر الخوارج والتمردين ، ألب غازى بك ، محمد بن أبى بكر بن أيوب ، معين أمير المؤمنين »^(٤) ؛ وعلل الخليفة منح هذه الألقاب له بأنها « رعاية لسوابق خدمه وخدم أسلافه وآبائه »^(٥) .

(١) أنظر القلقشندي : مآثر ، ٣ : ٨٦ ، ٩٩ ، صبح ، ١٠ : ٩٨ ، ١٣٥ .

(٢) أنظر أحمد فؤاد سيد : مصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر الأيوبي ٥٦٧هـ - ٦٤٨هـ (دراسة مقارنة بمصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر المماليكى ؛ مع ترجمة ونشر ١٤ وثيقة أيوبية من الأرشيفات الإيطالية ، تنشر لأول مرة) ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٤١٧هـ/١٩٩٦م ، ص ١٢-١٣ ، ص ١٤٥-١٧٢ .

(٣) القلقشندي : مآثر ، ج ٣ ، ص ٨٧ ، ص ١٢ - ١٤ ، ص ٨٨ ، ص ١ - ٢ .

(٤) القلقشندي : مآثر ، ج ٣ ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(٥) القلقشندي : مآثر ، ج ٣ ، ص ١٠٦ ، ص ٤ - ٦ .

وأول ما نلاحظه فى هذه الألقاب ، أن الثلاثة الأول منها ، قد ورثت عن وزراء السيوف المفوضين فى العصر الفاطمى ، وهى على ترتيب ظهورها فى العصر الفاطمى ، السيد ، الأجل ، الملك^(١) ؛ وإن كنا نلاحظ أنها وردت فى التقليدين العباسيين بعكس هذا الترتيب ، بحيث جاء لقب «الملك» ، - وهو آخر هذه الألقاب ظهوراً فى العصر الفاطمى ، وأضحىها ، وأكثرها دلالة على استقواء نفوذ هؤلاء الوزراء المفوضين - أول هذه الألقاب الثلاثة فى التقليد العباسى .

ثم تستلفتنا الألقاب الخاصة بالعلاقة بين سلاطين بنى أيوب والخلافة العباسية ، فللقب صلاح الدين بـ « عماد الدولة » ، و « صفى الخلافة »^(٢) ، ولقب الملك الكامل بـ « معين أمير المؤمنين »^(٣) ؛ والألقاب الدالة على جهاد الأيوبيين للصليبيين أى لقب « قاصع الكفرة والمشركين »^(٤) ؛ والدالة على قضاء الأيوبيين على الدعوة الإسماعيلية وتتبعهم لفلول الشيعة ، أى لقب « قاهر الخوارج والمتحدرين »^(٥) ؛ والدالة على مكانة سلاطين الأيوبيين فى العالم الإسلامى ، وتصدرهم للملوك وسلاطين الأطراف كالألقاب « ناصر الإسلام » ، « جمال الأمة » ، « فخر الملة » ، « تاج الملوك والسلطين » ، التى لقب بها صلاح الدين^(٦) ، وألقاب « ركن الإسلام » ، « أثير الأنام » ، « تاج الملوك والسلطاني » ، التى لقب بها الملك الكامل^(٧) ؛ وأغلب الظن أن لقب « ألب غازى بك »^(٨) ، الذى لقب به كلا السلطانين الأيوبيين ، يشير إلى تاريخ اسرتهم المجيد فى محاربة الفرنجة فنذ التحاق أجدادهم بخدمة نور الدين زنكى .

والجدير بالملاحظة ، أن اللقب الذى منحه الخليفة الفاطمى العاضد لصلاح الدين ، وهو « الناصر لدين الله »^(٩) ، لم يرد فى التقليد العباسى لصلاح الدين ، بل أغلب الظن أنه قد تُعمد حذفه ، وذلك لأن الخليفة العباسى الناصر لدين الله ، كان قد تغير على صلاح الدين لمشاركته له فى لقبه كما ذكر القلقشندى^(١٠) ، وإن لاحظ بعض المؤرخين أن اتخاذ صلاح الدين لهذا اللقب ،

(١) أنظر ماجد : نظم الفاطميين ، ج ١ ، ص ٨٣ - ٨٧ .

(٢) القلقشندى : مآثر ، ج ٣ ، ص ٨٧ - ٨٨ .

(٣) نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(٤) أنظر القلقشندى : مآثر ، ج ٣ ، ص ٨٧ - ٨٨ ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(٥) نفس المصدر فى الموضوعين .

(٦) القلقشندى : مآثر ، ج ٣ ، ص ٨٧ - ٨٨ .

(٧) نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(٨) نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ٨٧ - ٨٨ ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(٩) أنظر تقليد العاضد لصلاح الدين عند القلقشندى : صبح ، ج ١٠ ، ص ٩١ - ٩٨ ، وأنظر قبله .

(١٠) القلقشندى : مآثر ، ج ٣ ، ص ٨٧ .

كان سابقًا لخلافة الخليفة الناصر لدين الله ولا وجه لفضب الخليفة من صلاح الدين^(١) ، وذلك في حين ذكر اللقب الملكي وهو « الكامل » في تقليد الملك الكامل^(٢) ؛ والواقع أن هذا اللقب الملكي المزوج مع لقب الملك قد ورثه الأيوبيون أيضًا عن وزراء السيف المفوضين في العصر الفاطمي ، فلقب شيركوه (الملك المنصور)^(٣) وصلاح الدين (الملك الناصر) ، ولقب نجم الدين أيوب والد صلاح الدين (الملك الأفضل)^(٤) ، وصار هذا تقليدًا في ألقاب جميع الأسرة الملكية الأيوبية^(٥) ، كما ورث المماليك فيما بعد هذا اللقب المزوج عن الأيوبيين .

كذلك ، فقد لقب كل من السلطانين ، بلقب مضاف إلى الدين ، أولهما (صلاح الدين)^(٦) ، وثانيهما (نصير الدين)^(٧) .

وأخيرًا لقب الملك الكامل بـ (المجاهد) ، والمرابط^(٨) ، وهى ألقاب أعتر بها سلاطين الأيوبيين ثم سلاطين المماليك من بعدهم ، لدلالاتها على رسالتهم في تزعم حركة جهاد الصليبيين في الشرق الإسلامي ؛ مثل ألقاب (المشاعر)^(٩) ، والمجاهد^(١٠) ، والمرابط^(١١) ، والمظفر^(١٢) ، والمنصور^(١٣) ، والمؤيد^(١٤) .

ولاشك أن هذه الألقاب التي منحها الخليفة العباسي لسلاطين بنى أيوب ، قد اسبغت على سلطنتهم الشرعية ، في نظر العالم الإسلامي كله ، خاصة وقد زالت الخلافة الفاطمية من مصر ،

(١) أنظر كتاب إنسان العيون في مشاهير سادس القرون ، مخطوط رقم ٩١٩ تاريخ تيمور بدار الكتب المصرية ورقة ١٥٩ - ١٦٢ ، وأنظر السيوطي : حسن المحاضرة ، الطبعة القديمة ، ج ٢ ، ص ٢٧ ، وأنظر أحمد تيمور : التذكرة التيمورية ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ ، حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ، ص ٧٩ .

(٢) القلقشندى : مآثر ، ج ٣ ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(٣) أنظر تقليد العاضد لشيركوه ، عند القلقشندى : صحيح ، ج ١٠ ، ص ٨٠ - ٩٠ .

(٤) أنظر قبله .

(٥) أنظر حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ، ص ٧٣ - ٧٤ ، و ص ٨٢ ، و ص ٥٢٥ .

(٦) القلقشندى : مآثر ، ج ٣ ، ص ٨٧ - ٨٨ .

(٧) نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(٨) نفسه ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(٩) القلقشندى : صحيح ، ج ٦ ، ص ٢٦ .

(١٠) نفس المصدر ، ج ٦ ، ص ٢٦ .

(١١) نفس المصدر ، ج ٦ ، ص ٢٧ .

(١٢) نفس المصدر ، ج ٦ ، ص ٢٨ .

(١٣) نفس المصدر ، ج ٦ ، ص ٣١ .

(١٤) نفس المصدر ، ج ٦ ، ص ٣٢ .

وأصبحت الخلافة العباسية هي مستقر السلطات الشرعية في العالم الإسلامي ، بما يشبه الإجماع بين الفقهاء ؛ ولاشك أيضًا أنها قد اظهرتهم أمام بقية ملوك الأطراف التابعين للخلافة العباسية ، كحماة لهذه الخلافة ، وللمذهب السنّي ، ولديار الإسلام أمام الخطر الصليبي ، مما كان له أبعاد الأثر في استقواء النفوذ السياسي والأدبي لسلاطين بني أيوب في بلاد المشرق الإسلامي بصفة عامة ؛ وقد أيد هذا النفوذ تفرد الخلافة العباسية بالعراق ، بعد سقوط الخلافة الفاطمية بمصر ، بحق منح الألقاب الرسمية لملوك الأطراف .

لقد أنفرد الخلفاء دائمًا بسلطة التلقيب ، وذلك نتيجة لتمتعهم بحق التعيين ، وكان من تقاليد الدولة العباسية أن ينص على اللقب عند كتابة التقليد^(١) ؛ كما احتفظ الخلفاء الفاطميون أيضًا بحق التعيين والتلقيب ، وحرصوا على عدم التفريط في هذا الحق حتى نهاية العصر الفاطمي ، حتى أن الألقاب التي أطلقها وزراء السيوف المتغلبين على الفوادم في نهاية دولتهم ، ظلت في نظر الناس معتصبة وغير رسمية^(٢) ؛ وظل حق الخليفة في التولية باقيا حتى الدولة الأيوبية ، بحيث حرص الملوك مهما كبر سلطانهم واتسع نفوذهم على الحصول على عهد أو تقاليد من الخلافة تثبتهم في مراكزهم ؛ وكان من الطبيعي أن يستتبع ذلك احتفاظ الخليفة بسلطته في التلقيب ، فكانت الألقاب تثبت في العهد نفسه^(٣) ، على نحو ما رأينا في التقليدين السابقين ، لصالح الدين والسلطان الكامل ؛ ولكن بسقوط الخلافة العباسية في بغداد وانتقالها إلى القاهرة ، فقد خلى العباسي سلطته في التعيين ، والتلقيب ، واقتصرت مهمته على مبايعة السلطان المملوكي وإعلان لقبه^(٤) .

بمعنى أن هذه الألقاب ، التي منحها الخلافة العباسية لسلاطين بني أيوب ، قد منحت لهم بعد أن استعادت هذه الخلافة هيمنتها العامة تقريبًا على ديار الإسلام بسقوط الخلافة الفاطمية ، وبعد تفردا بحق التلقيب الرسمي ، وحين أصبحت كلمتها مسموعة مهابة بين جميع ملوك الأطراف ، حتى أصبحت طاعتهم في العرف الإسلامي العام آنذاك مفروضة واجبة على المسلمين جميعًا^(٥) .

ونستطيع أن نصنف الألقاب التي أضفاها ملوك وسلاطين بني أيوب على أنفسهم ، إلى ألقاب رسمية منحها لهم الخلفاء العباسيون ووردت في تقاليدهم ، وألقاب فخرية اسبغها عليهم كتاب

(١) حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ، ص ٩٢ .

(٢) حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ، ص ٩٣ .

(٣) حسن الباشا : نفس المرجع ، ص ٩٩ .

(٤) نفس المرجع ، ص ١٠٢ .

(٥) أنظر قبله .

دولتهم ومتملقوهم ، أو نعوت نعت بها ملوك بنى أيوب أنفسهم للاتصاف بالصفات التي أمثلتها روح العصر ، مثل الزهد والعلم ؛ كما حملت بعض هذه الألقاب الفخرية ، معانى المبالغة فى النفوذ السياسى والحربى والروحى للسلطنة الأيوبية .

والواقع ان هذا الصنف الأخير من الألقاب الفخرية الطنانة لم يظهر بجلاء إلا فى ألقاب السلاطين الأيوبيين المتأخرين ، حين إنكمش النفوذ السياسى لسلطان مصر ؛ باستقلال ملوك الأطراف الأيوبيين عنه ، أو بضم سلاطين خوارزم بإيران ، أو سلاطين سلاجقة الروم بآسيا الصغرى ، لبعض الممتلكات الأيوبية ببلاد الجزيرة الفراتية وشمال الشام من ناحية ؛ ونتيجة لتزايد الأطماع الصليبية فى غزو مصر من ناحية أخرى .

وبعض الألقاب الرسمية ، يظهر العلاقة الوثيقة بين الخلافة وبنى أيوب^(١) ، مثل الإشارة إلى قيامهم بإحياء الخلافة العباسية ، أو إلى تقسيم السلطة السياسية بينهم وبين الخلافة ، أو تأكيد طاعتهم وولائهم للخليفة ، أو التنويه بالمعونات العديدة التى أسدوها له ، أو تحليداً لمظاهر الود والصداقة ، التى ربطت بين الخلافة العباسية ، وهؤلاء السلاطين السنيين .

ومن هذه الألقاب : « صفى الخلافة » ، الذى منح لصلاح الدين^(٢) و « خليل أمير المؤمنين » ، الذى منح لأخيه الملك العادل^(٣) « وظهير أمير المؤمنين » ، الذى يبدو أنه منح للملك العزيز عثمان ابن صلاح الدين وخليفته فى حكم مصر بصفة رسمية ، بدليل استخدامه على نقوشه^(٤) ، و « معين أمير المؤمنين » ، الذى منح للملك الكامل بعد توليه سلطنة مصر^(٥) .

(١) عن هذه العلاقة الوثيقة ، أنظر قبله .

(٢) القلقشندي : مآثر ، ج ٣ ، ص ٨٧ - ٨٨ .

(٣) المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ١٦٨ ، G. Wiet: Les inscriptions du Mausolée de Sha fiei ، p.175.

(٤) أنظر لوحة تأسيسية من الخشب مؤرخة سنة ٥٩٤هـ محفوظة بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، خاصة بوقف قيسرية على صوفية خانقاه سعيد السعداء . وأنظر .

Jean David weill : Catalogue général du Musée Arabe du Caire, les Bois a Épigaphes jusque Lépoque Mamlouke, Le Caire, 1931, p. 14. No 484.

ولأهمية هذا النقش واشتماله على جميع ألقاب الملك العزيز عثمان سوف أوردته بتمامه وهو : " اللهم أرحم الملك الناصر صلاح الدنيا والدين ، ورضى الله عنه ، الذى أنعم على الصوفية بهذه القيسرية ، وأوقفها على بقعتهم التى تعرف بدار سعيد السعداء بحروسة القاهرة ، وقد أمر بهذا الباب الجديد والفتح السعيد ، سيد الملوك والعبيد ، عماد الدنيا والدين وسلطان الإسلام والمسلمين عضد الدولة القاهرة ، تاج المللة الزاهرة ، نظام العالم ملك المعالى ، الملك العزيز عثمان بن يوسف بن أيوب ظهير أمير المؤمنين ، خلد الله ملكه ، فى تاريخ ربيع الأول سنة أربع وتسعين وخمسائة (٥٩٤هـ) ، وصلى الله على محمد وآله وأصحابه أجمعين " .

(٥) القلقشندي : مآثر ، ج ٣ ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

والواقع أن لقب « خليل أمير المؤمنين » ، هو اللقب الذى توارثه أغلب سلاطين بنى أيوب بمصر ، وأثبتوه على نقوشهم^(١) ؛ ويبدو أن السلطان العادل الأول أبو بكر بن أيوب ، هو أول من لقب به بصفة رسمية ، إذ أثبت فى التقليد الخليفى للملك العادل بالسلطنة ، الذى أرسل إليه فى سنة ٦٠٤هـ - ١٢٠٧م^(٢) ، رغم أنه لم يرد من قبل فى التقليد الخليفى لأخيه صلاح الدين^(٣) ؛ ويفيدنا القلقشندى ، أن لقب « خليل أمير المؤمنين » ، هو الأدنى مرتبة مباشرة ، من لقب « قسيم أمير المؤمنين »^(٤) .

(١) قد ورد هذا اللقب ، ضمن ألقاب الملك العادل فى نقوش أثرية ببيت المقدس بتاريخ ٥٨٩هـ / ١١٩٣م ، وبدمشق من سنة ٦٠٥هـ / ١٢٠٨م إلى سنة ٦١٠هـ / ١٢١٤م ، وبالقاهرة بتاريخ سنة ٦٠٥هـ / ١٢٠٨م (حسن الباشا : الألقاب ، ص ٢٠١) كما لقب به ابنه السلطان الكامل محمد (انظر :

G. Wiet: Les inscriptions de Shafiei , p. 175

وحفيده السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب أنظر :

Van Barchem: Matériaux, p. 103, p. 105.

(٢) أنظر المقرئى : السلوك ١ : ١٦٨ ، الذى يذكر أنه لما تسلطن العادل فى سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م أرسل إليه الخليفة العباسى الناصر ، يقلده جميع البلاد التى فتحها ، ويخاطبه بـ " شاهنشاه ملك الملوك ، خليل أمير المؤمنين " .

(٣) أنظر قبله ، والغريب أن هذا اللقب ، جاء ضمن ألقاب صلاح الدين فى نص إنشاء بتاريخ ٥٨١هـ / ١١٨٥م ، من قلعة جندي بسوريا (حسن الباشا : الألقاب ، ص ٢٠٠ ؛ واستعمل لأخيه العادل أثناء سلطته صلاح الدين ، فى نقش على قلعة القاهرة بتاريخ ٥٧٩هـ - ١١٨٣م) انظر : Van Barchem: Matériaux, p. 81 ؛ فأغلب الظن أن هذا اللقب ، كان العادل ، هو أول من خصّ به من الخلافة العباسية ، فى حياة أخيه صلاح الدين ، ثم استعاره منه صلاح الدين على نقوشه ، إذ أنه من المستبعد أن يلقب الخليفة العباسى صلاح الدين وأخاه بنفس اللقب ؛ ويبدو أن هذا اللقب كان محبباً للملك العادل ، فحين ناشده الخليفة رفع الحصار عن مدينة سنجار ، بعد أن حاول العادل ضمها لممتلكاته فى بلاد الجزيرة الفراتية ، قدم إليه رسول الخليفة يأمره بالرحيل ، وقال له عن الإمام الناصر ، قال لك : « يجاتى يا خليلى أرحل » (المقرئى : السلوك ١ : ١٧١) .

(٤) أنظر القلقشندى : صبح ، ٦ : ١١٣ - ١١٤ . ولقب قسيم أمير المؤمنين ، أول من اتخذها السلطان المملوكى الظاهر بيبرس بعد نقل مقر الخلافة العباسية من بغداد إلى القاهرة (أنظر ابن أيبك : الدرّة الزكيّة ، ص ٤٩ ، المقرئى : السلوك ١ : ٤٤٧ ، حسن الباشا : الألقاب ، ص ٢٠٤) ؛ وهو لقب يشى بمحاولة السلطان المملوكى بيبرس ، الظهور أمام العالم الإسلامى ، بمظهر من يقاسم الخليفة سلطانه على ديار الإسلام (أنظر محمد عبد العزيز مرزوق : جامع الظاهر بيبرس البندقدارى ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث مايو ١٩٥٠م ، ص ٩١ - ١٠٢) ففيه دراسة وافية لألقاب بيبرس اعتماداً على النقوش النأسيية لجامعه .

ويبدو أن لقب « قسيم أمير المؤمنين » ، قد أطلق على صلاح الدين ، فى الأوساط الشعبية بمصر^(١) ؛ وهو لقب حمله من قبل بعض سلاطين السلاجقة^(٢) ، كما حمل نور الدين زنكى بعض ألقاب مشابهة له^(٣) ؛ ولكن الأرجح أن صلاح الدين وخلفاءه من سلاطين بنى أيوب^(٤) ، لم يحملوه ، وذلك للإبقاء على النفوذ السياسى للخليفة العباسى ، مهأباً مصوناً .

(١) نقش هذا اللقب على طاسة نحاسية من الطاسات التى عرفت بطاسة الخضة ، إذ وصلتنا طاسة من هذا النوع ، حقق الأثريون أنها من عصر صلاح الدين ، ولقد جاءت ألقاب صلاح الدين على هذه الطاسة على هذا النحو " عز لمولانا السلطان الملك المؤيد المنصور أبو المظفر يوسف قسيم أمير المؤمنين .. ، أنظر: Ahmed Zabi: Goupe Magique, p. 265. حيث يلاحظ أن مصطلح " عز نصره " ، ظهر لأول مرة على هذه الطاسة النحاسية وظل مستخدماً طوال العصر المماليكى .

(٢) أنظر الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٤٣ ، حيث يفيد أن بعض سلاطين السلاجقة ، قد تلقب بـ " يمين أمير المؤمنين " ، و " برهان أمير المؤمنين " ، و " قسيم أمير المؤمنين " ، وأنظر قبله .

(٣) تلقب نور الدين زنكى بـ " قسيم الدولة وعمادها " ، و " اختيار الخلافة ومعدها " ، و " رضى الإمامة وأميرها " ، و " ناصر دولة أمير المؤمنين " ، أنظر سبط : مرآة ، ٨ : ٣٢٢ - ٣٢٣ ، ابن عساكر : تاريخ دمشق - خ ، نسخة المكتبة الأزهرية رقم ٧١٤ ، مصورة بمعهد المخطوطات ف ٧٦ ، ج ١٩ ، لوحة ٥ ب .

(٤) وردت ألقاب الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين ، على لوحة تأسيسية من الخشب ، مؤرخة سنة ٥٩٤ هـ - ١١٩٧ م ، محفوظة بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، خاصة بوقف قيسرية على صوفية خانقاه سعيد السعداء ، على هذا النحو : " .. الملك ، الناصر ، صلاح الدنيا والدين .. سيد الملوك والعييد ، عماد الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، عضد الدولة القاهرة ، تاج الملة الزاهرة ، نظام العالم ، ملك المعالي ، الملك العزيز عثمان بن أيوب ، ظهير أمير المؤمنين .. ، أنظر : عبد العزيز مرزوق : الفن الإسلامى فى العصر الأيوبي ص ٣٦ - ٣٧ .

ووردت ألقاب الملك الكامل محمد بن العادل ، على نقش تأسيسى بقبعة الإمام الشافعى مؤرخ سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م على هذا النحو : " .. هذا قبر .. والدة الفقير إلى رحمة ربه محمد ، ولد مولانا السلطان الملك العادل العالم الصابد المجاهد المرابط المؤيد المظفر المنصور ، سيف الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، سيد الملوك والسلاطين قاصع الخوارج والمتهمدين ، قاهر الكفرة والمشركين ، أبو بكر بنى أيوب ، خليل أمير المؤمنين .. وأنظر G. Wiet: Les inscriptions du Mausolee de shafiei, B.I.E. Tome XV, 1932-1933, p. 175 ووردت ألقاب الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل على نقوش ضريحه فى قبته ومدرسته على النحو التالى : " .. مولانا الملك الصالح السيد العالم العادل المجاهد المرابط المشاعر ، نجم الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، سيد ملوك المجاهدين ، وارث الملك عن آياته الأكرمين .. أنظر :

. Van Berchem: Matériaux.

ويبدو أن رجال دولة صلاح الدين ، قد لقبوه بـ « محي دولة أمير المؤمنين »^(١) ؛ وأغلب الظن أن هذا اللقب لم يمنحه الخليفة العباسي لصلاح الدين ، أولاً لعدم وروده في وثيقة تقيده ، وثانياً لاستبعاد تصريح الخليفة بمثل هذا اللقب ، حتى ولو كان حقيقياً الدلالة ؛ فأغلب الظن إذا أنه جاء من وحى اعتزاز كتاب رسوم المكاتب والبروتوكولات بديوان الإنشاء المصري بسطانهم ، وإشادتهم بدوره في توحيد العالم الإسلامي حول الخلافة العباسية . ويرى بعض الباحثين أن لقب « محي دولة أمير المؤمنين » الذي لقب به صلاح الدين بصفة غير رسمية ، كان المصدر للقب الذي ابتكره كتاب ديوان الإنشاء في العصر المملوكي ، وهو لقب « محي الدولة العباسية » ، الذي اتخذته الملك الأشرف خليل ابن قلاوون^(٢) .

ولكن رغم أن لقب « محي دولة أمير المؤمنين » ، لم يكن لقباً رسمياً لصلاح الدين ، فقد استجاز كتاب ديوان الإنشاء بمصر الأيوبية لأنفسهم ، محاكاة للقاضي الفاضل ، إثبات هذا اللقب على نقوش صلاح الدين^(٣) ، وعلى نقوده^(٤) .

(١) جاء هذا اللقب على نقش بقلعة القاهرة مؤرخ سنة ٥٧٩هـ - ١١٨٣م أنظر : Van Berchem: Matériaux, p. 81 ، وهذا اللقب لقب به من قبل ، السلطان السني محمود الغزنوي ، أنظر الكرملي : النقود العربية ، ص ١٣٣ ، حسن الباشا : الألقاب ، ص ٤٦٣ ، وعن بقية الألقاب محمود الغزنوي ومنها لقب سلطان ، أنظر العتيبي : التاريخ اليميني ١ : ٢٠ - ٢٩ .

(٢) تتبع أحمد زكي باشا في دراسته الممتعة لألقاب صلاح الدين التي وردت على طاسة الخضة لقب " محي دولة أمير المؤمنين " ، لكونه قريب الدلالة من لقب " قسيم أمير المؤمنين " ، الذي نقش على هذه الطاسة ، وانتهى إلى أن الخليفة العباسي لم يمنح هذا اللقب قط لصلاح الدين ، ولكنه كان من ابتكار القاضي الفاضل رئيس ديوان الإنشاء المصري في عهد صلاح الدين لوروده في نص رسالة فاضلية أوردتها أبو شامة في الروضتين ، وما لبث أن شاع هذا اللقب بين كتاب وأدباء العصر الأيوبي ، بحيث استخدمه الخطباء في أول خطبة جامعة أقيمت على منابر بيت المقدس بعد أن استرده صلاح الدين من الصليبيين سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م ، وأيد أحمد زكي رايه في أن هذا اللقب لم يكن رسمياً ، بأن القلقشندي حين عرض للألقاب الرسمية ، لم يذكر سوى لقبى " محي السنة " و " محي العدل في العالمين " ، ومن ناحية أخرى فقد تدارس زكي باشا الوثائق والمكاتب التي أرسلها خلفاء بني العباس لصلاح الدين ، فلم يجد إلا لقباً شبيهاً له ، هو " معز أمير المؤمنين " ولكنه ولا ريب مخالف له في الدلالة . أنظر : Ahmed Zaki: Coupe magique, p. 263 - 265 .

(٣) أنظر : Van Benchem: Matériaux p.81, Corpus, Egypte, v.1, No, 527 ، حسن الباشا : الألقاب ، ص ٢٠٧ .

(٤) Lane pool: Catalogue of oriental Coins in the British museum, v.4, p. 71-72; solet; (٤) Eléments de la numismatique musulmane, p. 168.

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نلاحظ ، أن ثمة ألقاب حملها صلاح الدين بطريقة رسمية لورودها في تقليده الخلفي ؛ وثمة ألقاب حملها أخوه الملك العادل بعد توحيد الدولة الأيوبية سنة ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م ، وإقرار الخليفة العباسي له بالسلطنة ، ومنحه التقليد الخلفي الذي لقبه فيه بـ « شاهنشاه ، ملك الملوك ، خليل أمير المؤمنين »^(١) ؛ أى أن هذه الألقاب الجديدة المضافة إلى ألقاب صلاح الدين الرسمية قد منحت للسلطان العادل بصفة رسمية أيضاً ، من ثم فقد توارثها سلاطين بني أيوب ، حتى آخر دولتهم .

وأول الألقاب الرسمية ، التي توارثها سلاطين بني أيوب « لقب سلطان » ، وهو لقب أطلق - كما سبق القول - على وزراء السيوف المفوضين ، سواء في العراق العباسي أو بمصر الفاطمية ، ابتداء من القرن الخامس الهجري^(٢) ، وأصبح بمرور الوقت ، وبظهور ملوك الأطراف المستقلين ، يعنى في العرف السائد ملك الملوك ، أو كبير ملوك الأطراف^(٣) ؛ وفي اعتقادنا أن أول من حمله بصفة رسمية ، هو السلطان محمود الغزنوي ، سلطان غزنة والهند وإيران ، الذي كان في القرن الخامس الهجري ، أقوى ملوك المشرق الإسلامي ، الذين رفضوا الدعوة الفاطمية ، وعمد إلى مساندة الخلافة العباسية في صراعها مع الخلافة الفاطمية ، من أجل السيطرة على العالم الإسلامي^(٤) ؛ ولقد أفاد العتبي مؤرخ سيرة هذا السلطان ، أن الذي أوحى إلى الخليفة العباسي بمنح محمود الغزنوي لقب « سلطان » الإمام أبو إسحاق الأسفرايني^(٥) ، وهو من أئمة الدعوة الأشعرية السنية التي وقفت من الدعوة الفاطمية الشيعية موقف الخصومة المذهبية والسياسية^(٦) ؛ فلا غرو أن اعتر محمود الغزنوي ،

(١) أنظر عن الخلع والألقاب الخلفية التي منحت للسلطان العادل سنة ٦٠٤ هـ ، القلقشندي : مآثر الإنافة ، ٢ : ٥٩ - ٦٠ ، سبط : مرآة ، ٨ : ٥٣٤ ، المكين ابن العميد : أخبار ، ص ١٣٥ - ١٣٦ ، المقرئزي : السلوك ، ١ : ١٦٨ .

(٢) أنظر قبله ، الفصل الخاص بالقضاء على الدعوة الفاطمية ، حيث ناقشت مسألة تطابق وظيفتي وزارة التفرير والسلطنة .

(٣) عن التطور التاريخي للقب "السلطان" ، أنظر القلقشندي : صبح ، ٥ : ٤٤٧ - ٤٤٨ ، ٩ : ٣٩٨ ، ٤٠٣ ، ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٣٨ - ٢٣٩ ، أبو المحاسن : النجوم ، ٥ : ٢٧٩ ، السيوطي : الوسائل ، ص ٧٨ .

(٤) أنظر قبله الفصل الخاص بالقضاء على الدعوة الفاطمية ، والوضع الخاص بالوضع السياسي والشرعي لمصر الأيوبية . وأنظر السيوطي : الوسائل ، ص ٧٨ ، حيث ينص على أن محمود الغزنوي هو أول من حمل لقب سلطان .

(٥) أنظر العتبي : التاريخ اليميني ، ص ٣١ ، وفيه مناقشة لغوية وفقهية لمعنى لقب " سلطان " .

(٦) أنظر قبله الفصل الخاص بإعادة الشعائر السنية إلى مصر ، ونشر الدعوة الأشعرية بها .

بهذا اللقب وذكره على نقوشه^(١)، ثم توارثه عنه جميع سلاطين المشرق الإسلامي السنيين، المفوضين من قبل الخليفة العباسي، والقائمين بدعوته، وهم: السلاجقة ثم الزنكيين ثم الأيوبيين^(٢).

وإذا كان البعض قد ذهب إلى أن لفظ «سلطان» يرجع إلى أصل فارسي^(٣) أو أصل سرياني أو آرامي^(٤)، فنحن نستطيع أن نؤكد أن هذا اللفظ عربي، لوروده أكثر من مرة في القرآن الكريم^(٥)؛ وقد تتبع المؤرخ بدر الدين العيني، مرات ذكر هذا اللفظ في القرآن، فوجد أن الله قد ذكره في القرآن في اثنين وثلاثين موضعاً^(٦)؛ وقد ذهب اللغويون في شرح معنى كلمة السلطان، كما وردت في القرآن بأنها أحياناً ما تكون في معنى «البرهان»، ومنها ما يكون في معنى «القدرة»، وأحياناً ما تأتي في القرآن بمعنى «الحجة»^(٧)؛ وحاول بعض اللغويين، تفسير إطلاق هذه اللفظة على خليفة المسلمين، أو من ينوب عنه في مباشرة السلطة السياسية في ديار الإسلام، فذهب أحدهم إلى أنه إنما قيل للخليفة سلطان لأنه ذو السلطان أي ذو الحجة، وقيل لأنه به تقام الحجج والحقوق^(٨)، وذهب آخر إلى أنه «قيل للأمراء سلاطين، لأنهم الذين تقام به الحجّة والحقوق»^(٩)، وذهب ثالث إلى أن «السلطان إنما سمي سلطاناً، لأنه حجة الله في أرضه»^(١٠)، في حين حاول فريق آخر من اللغويين، تفسير هذه اللفظة بتفسيرات مجازية مستمدة من الأوضاع السياسية، فلاحظ الزبيدي أن «السليط» في اللغة ما يضاء به، «والسلطان»، الوالي، لتتويره الأرض وكثرة الانتفاع به^(١١)، في حين ذهب ابن منظور إلى أن «السلطة» في اللغة القهر، ومن ثم فإن «السلطان»، قدرة الملك، وقدرة من جعل ذلك له^(١٢).

(١) أنظر حسن الباشا: الألقاب، ص ٣٢٣.

(٢) أنظر أبو المحاسن: النجوم، ٥: ٢٧٩.

(٣) أنظر F. Steingais; A Comprehensive Persian- English Dictionary ..., New impression 1970, p. 693

(٤) أنظر حسن الباشا، الألقاب، ص ٣٢٣.

(٥) أنظر محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألقاب القآن الكريم، القاهرة ١٣٦٤هـ، ص ٣٥٤ - ٣٥٥، ويستناد منه أن لفظه «سلطان»، قد وردت في القرآن ٣٧ مرة، وليس ٣٢ مرة كما ذكر البدر العيني.

(٦) أنظر البدر العيني: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر (ططر)، تحقيق محمد زاهد الكوثري، القاهرة، ٢٣ - ٢٤.

(٧) أنظر ابن دريد: كتاب الإشتقاق، تحقيق عبد السلام هارون، نشر الخانجي، ١٩٥٨، ص ١١١ - ١١٢؛ ابن منظور، لسان العرب، مادة، "سلط"، الزبيدي: تاج العروس ٥: ١٥٩، مادة "سلط".

(٨) نقل هذا الرأي الزبيدي: تاج العروس، ٥: ١٥٩، عن الأزهري في كتابه "تهذيب اللغة".

(٩) هذا رأى ابن منظور، صاحب لسان العرب.

(١٠) هذا رأى محمد بن يزيد اللغوي، كما أورده ابن منظور في لسان العرب.

(١١) أنظر الزبيدي: تاج العروس، ٥: ١٥٩.

(١٢) أنظر ابن منظور: لسان العرب، مادة "سلط".

ونحن نستطيع اعتماداً على هذه التعريفات اللغوية لكلمة السلطان ، مع مطابقتها على الأوضاع السياسية والشرعية ، والظروف التاريخية التى صاحبت تلقيب السلاطين السنيين به ، أن نقرر أن هذا اللقب ، عمدت دول الخلافة العباسية برضاها ، إلى منحه لأعظم الملوك السنيين المعاصرين لها ، للإشارة إلى أن هذا الملك ، هو السلطان أو الحجة أو البرهان ، الذى يعلن عن سلطة الخليفة السياسية وعن وجوده الشرعى ، على أساس أنه بالخليفة أو بحجته الذى هو السلطان ، تقام الحجج والحقوق الشرعية ؛ ولما كان هذا اللقب لا يمنح إلا للأمرء العسكريين من أرباب السيوف ، فقد اقترن مفهوم هذه اللفظة فى اللغة بمعنى القدرة والشدة والحدة والسطوة ، وأصبحت تسمية عامة ، لكل من يتولى أمراً من الأمور أو ولاية من الولايات .

وبالنسبة للأسرة الأيوبية فالجدير بالالتفات حقاً ، ما لاحظته الباحثون المحدثون ، أنه من الشابت تاريخياً أن صلاح الدين لم يتخذ لقب « سلطان » رسمياً ، وإن كان بعض المؤرخين قد أضفوا عليه هذا اللقب^(١) ؛ فى حين ذهب بعض الباحثين المحدثين ، إلى أن صلاح الدين هو الذى أطلق هذا اللقب على نفسه^(٢) ، وهى ملحوظة هامة يؤيدها التقليد الخليفى لصلاح الدين الذى سبق دراسته^(٣) .

وعلى هذا الأساس ، فنحن نستطيع أن نقرر ، أن الملك العادل ، هو أول من حمل لقبى « السلطان » ، و « خليل أمير المؤمنين » ، بصفة رسمية ، من الخليفة العباسى سنة ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م ، وعنه توارث جميع سلاطين بنى أيوب هذا اللقب ، حتى نهاية دولتهم ، بل ورثه عنهم سلاطين المماليك بمصر .

أما صلاح الدين ، فقد ورث عنه خلفاؤه لقب « تاج الملوك والسلاطين » ، الذى منحه له الخليفة^(٤) ، إذ توارث جميع السلاطين الأيوبيين^(٥) ؛ ويرى البعض أنه فى العصر الأيوبي ، أخذ اللقب

(١) أنظر سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ، دار النهضة العربية ١٩٧٠ ص ١٧٥ .

(٢) أنظر : Ahmed zaki: Coupe Magine, p. 260.

(٣) أنظر قبله نفس هذا الفصل ، وعلى هذا الأساس نحن نرفض ما ذهب إليه البدر العيى حين ذهب إلى : " أن لفظة السلطان إنما ظهرت فى دولة بنى أيوب ، أول من ملك منهم هو السلطان صلاح الدين .. ولم يكن أحد قبله يخاطب بالسلطان " ، أنظر العيى : الروض الزاهر ، ص ٢٣ - ٢٤ ، وذلك لأن هذا اللقب قد تلقب به كثيرون قبل صلاح الدين ، سواء بصفة رسمية أو اغتصاباً ، أنظر بعده الفصل الخاص بالوضع السياسى والشرعى ، وأغلب الظن أن البدر العيى ، وهو مؤرخ الف كتابه فى عصر السلطنة المماليكية بمصر ، وارثة السلطنة الأيوبية ، قد حاول أن يبالغ فى أهمية السلطنة الأيوبية ، بالنسبة لتاريخ الخلافة الإسلامية .

(٤) أنظر القلقشندى : مآثر ، ٣ : ٨٧ - ٨٨ .

(٥) حسن الباشا : الألقاب ، ص ٢٣٢ .

المضاف إلى « الدنيا والدين » ، يختص بالسلطين دون غيرهم ، وأن أول من تلقب بهذه الألقاب المضافة إلى الدنيا والدين بصفة رسمية من الخلفاء العباسيين ، هو السلطان طغر لبك ، أول سلطين السلاجقة^(١) .

ولاشك في أن توارث سلطين بنى أيوب لهذه الألقاب « السلطان » ، و « تاج الملوك والسلطين » ، قد ميزهم عن معاصريهم من ملوك الأطراف فى المشرق الإسلامى ، خاصة بعد أن نهضوا بفريضة الجهاد ضد الصليبيين باسم الخليفة العباسى ، وقيامهم بحماية فريضة الحج ، فضلاً عن إحيائهم لدولة الخلافة العباسية^(٢) ، وقضائهم على الخلافة الفاطمية والكيانات السياسية الشيعية^(٣) ؛ كما أن فى حملهم للألقاب المضافة إلى « الدنيا والدين » ، إشارة خفية لتفويض الخليفة العباسى لهم لسلطاته الشرعية التى تشمل الدنيا والدين ، لكون الإسلام دين ودولة .

ولقد استلقت نظر بعض الباحثين^(٤) ، أن سلطين بنى أيوب ، قد حملوا جميعاً لقباً مزدوجاً ، هو « السلطان الملك » ، وعللوا هذا القب المزوج بإشارة القلقشندى وابن خلدون ، أن الوزير جعفر البرمكى ، هو أول من حملة^(٥) ، وأن وزراء السيوف فى العصر الفاطمى المتأخر ، قد توارثوا لقب « الملك »^(٦) ، فى حين أطلق على العادل بن سار - وكان سنى المذهب - لقب سلطان^(٧) ، كما اتخذ بعض أخوة وزراء السيوف الفاطميين هذا اللقب^(٨) ، فى حين منح الخليفة الفاطمى العاضد لقب الملك لشيركوه ولصلاح الدين بصفة رسمية .

وعلى هذا الأساس ، فقد ورث الأيوبيون عن وزراء السيوف الفاطميين لقب ملك^(٩) ، فى حين آل إليهم لقب سلطان عن طريقتين :

(١) نفس المرجع ، ص ١٥٤ .

(٢) أنظر بعده الفصل الخاص بالوضع السياسى والشعرى لمصر الأيوبية .

(٣) أنظر قبله الفصل الخاص بالقضاء على الدعوة الفاطمية .

(٤) أنظر : Ahmed zaki: Coupe Magique, p. 260-262

(٥) أنظر القلقشندى : صبح الأعشى ، طبع بولاق ٩ : ٤٠٥ ، ابن خلدون : المقدمة ، طبع بولاق ١٢٨٤هـ ، ص ١٩٩ .

(٦) أنظر القلقشندى : صبح ، طبعة دار الكتب المصرية ، ٥ : ٤٤٧ - ٤٤٨ ، الخالدى : المقصد - خ ، لوحة ١٩٣ - أ ١٩٣ ب ، القلقشندى : صبح ، ٩ : ٣٩٩ - ٤٠٤ .

(٧) أنظر المقرئى : إتعاظ الحنفا ، حسن الباشا : الألقاب ، ص ٣٢٣ .

(٨) أنظر المقرئى : الخطط ، طبعة بولاق ، ١ : ٤١١ ، ٤٨٦ ، رغم أن هذا الأخ لم يكن إلا مجرد والياً للإسكندرية .

(٩) ماجد : نظم الفاطميين ، ١ : ٨٧ .

أولهما السلاطين الزنكيين الذين عمل أباء الأيوبيين في خدمتهم .

وثانيهما عن وزراء السيوف الفاطميين^(١) .

ويفيدنا القلقشندي ، أن الفرق بين « السلطان » ، و « الملك » ، أن الملك أحصّ ، بمعنى أن السلطان قد يكون تابعًا له أكثر من ملك ، بمعنى أن السلطان يعنى ملك الملوك^(٢) ، وهو اللقب الذى لقب به الخليفة العباسى الملك العادل سنة ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م ، فخاطبه بـ « شاهنشاه » ، ملك الملوك^(٣) .

ورثمة بعض الألقاب ، التى منحتها الخلافة العباسية لسلاطين بنى أيوب ، منذ عصر صلاح الدين ، للإشارة إلى قضائهم على الدعوة الفاطمية ، مثل « جامع كلمة الإيمان »^(٤) ، « وقامع الخوارج والتمردين »^(٥) ، و « دافع التمردين فى البلاد »^(٦) ، و « دامغ المفسدين فى البلاد »^(٧) ، و « ماحى البغى والعدا » ، و « ماحى البغى والفساد »^(٨) ، و « مهلك الطغاه والمارقين »^(٩) .

كذلك منح سلاطين بنى أيوب ، ألقابًا تجدد دورهم السياسى فى توحيد الجبهة الإسلامية لمواجهة الصليبيين فى بلاد الشام ، ودورهم الحربى فى التصدى للقوى الصليبية بالشام ، وإلحاق الهزائم بها ، واسترداد بيت المقدس من أيديهم مثل ألقاب : « المجاهد »^(١٠) ، « المشاعر »^(١١) ، « سيد ملوك المجاهدين »^(١٢) ، « مطهر قبور الإسلام والمسلمين من رجس الكافرين »^(١٣) ،

(١) أنظر : حسن الباشا : الألقاب ، ص ٣٢٥ - ٣٢٦ .

(٢) القلقشندي : صبح ، ٩ : ٣٩٨ .

(٣) المقرئى : السلوك ، ١ : ١٦٨ .

(٤) حسن الباشا : الألقاب ، ص ٥٠٥ - ٥٠٦ .

(٥) أنظر ابن شداد : النوادر ، ١٢٤ - ١٢٦ ، حسن الباشا : الألقاب ، ص ٢٣٥ - ٢٣٦ .

(٦) أنظر حسن الباشا : الألقاب ، ص ٤٢٥ .

(٧) نفس المرجع ، ص ٢٨٦ .

(٨) نفس المرجع ، ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .

(٩) نفس المرجع ، ص ٥١٥ .

(١٠) نفس المرجع ، ص ٤٥١ - ٤٥٢ .

(١١) نفس المرجع ، ص ٤٤٩ - ٤٥٠ .

(١٢) القلقشندي : صبح ، ١٠ : ٩٩ - ١١١ ، نفس المرجع ، ١٩٣ ، ٣٥٠ .

(١٣) حسن الباشا : نفس المرجع ، ص ٤٧٣ .

« قامع عبدة الأوثان »^(١)، « قامع عبدة الصليبان »^(٢)، « حافظ الجمهور »^(٣)، « حامى الثغور »^(٤)، « سيف الإسلام »^(٥)، « سيف الدولة »^(٦)، « منقذ بيت المقدس من أيدي الكافرين »^(٧).

وأغلب الظن أن بعض هذه الألقاب ، قد منحت رسمياً من الخلافة العباسية ، ووردت فى العهود الخليفة لسلاطين بنى أيوب ، والبعض الآخر أطلقه بنو أيوب على أنفسهم ، ولكننا لا نستطيع التمييز بدقة بين كلا النوعين من الألقاب ، لعدم توفر جميع التقاليد الخليفة لسلاطين بنى أيوب^(٨).

ومن الألقاب الكثيرة والمتنوعة لسلاطين بنى أيوب ، نولى اهتماماً خاصاً بالألقابهم التى تدل على اتساع نفوذهم السياسى والدينى على ديار الإسلام ، لكونهم قد أصبحوا بسيطرتهم على الحرمين الشريفين مكة والمدينة ببلاد الحجاز ، واستردادهم لبيت المقدس من أيدي الصليبيين بالشام ، وحميتهم لفريضة الحج التى صاحبها بعد استردادهم القدس ، ظاهرة الحج لبيت المقدس ، بعد الحج لمكة وذلك بعد انتهاء موسم الحج^(٩) ، وأهم هذه الألقاب ولا ريب ، « خادم الحرمين الشريفين »^(١٠) ،

(١) نفس المرجع ، ص ٤٢٥ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٢٥٣ .

(٣) نفس المرجع ، ص ٢٥٣ .

(٤) نفس المرجع ، ص ٢٥٥ .

(٥) نفس المرجع ، ص ٣٤١ .

(٦) نفس المرجع ، ص ٣٤٣ .

(٧) نفس المرجع ، ص ٥١٣ .

(٨) أغلب الظن أن الكتابات الرسمية على النقوش ، كانت تلتزم بالألقاب الرسمية التى منحها الخليفة لسلاطين بنى أيوب ، وفى بعض الأحيان ، كان ديوان الإنشاء المصرى ، يزيد بعض الألقاب التى يؤثرها هؤلاء السلاطين لأنفسهم ويجدونها جديرة بهم ، أو أحياناً لاستغلالها كوسيلة دعائية إعلامية عن مكانتهم فى العالم الإسلامى ؛ والملاحظ أن هذه الألقاب الفخرية الواردة على النقوش الأثرية للعصر الأيوبى ، الخاصة بمنشآت سلاطين بنى أيوب ، تكاد تطابق الألقاب التى أوردها كتاب ومؤرخو هذا العصر فى الكتب الرسمية التى أهدوها لهؤلاء السلاطين ، أو الفوها باسمهم ، وذلك فى دياجة هذه المؤلفات ، أنظر ابن شداد نوادر ، ص ٣ ، س ٩ - ١١ ، ابن عماتى : قوانين ، ص ٥٢ ، س ١ - ٢ ، الشيزرى : المنهج السلوك ، ص ٣ ، س ٩ - ١١ ، ابن يعر : كشف الأسرار العلمية ، ص ٥٠ ، س ٢٠ ، النابلسى : تجريد سيف الهممة ، لوحة ٢ ، أ - ب لوحة ٩٢ ب ، س ٦ ، النابلسى : إظهار صنعة الحى القيوم ، ص ٢ ، س ٧ - ٨ ، النابلسى : لمع القوانين ، ص ٣ ، س ٦ - ٩ .

(٩) أنظر قبله ، الفصل الخاص بالوضع السياسى والشرعى لمصر الأيوبية .

(١٠) أنظر ابن شداد ، نوادر ، ص ٣ .

و « صاحب الحرمين الشريفين »^(١) ، « ومالك الحرمين الشريفين والبيت المقدس »^(٢) .

ولا يخفى أن السيادة على الحرمين الشريفين ، تعتبر رمزاً لشمول النفوذ على العالم الإسلامي كله^(٣) ، فلا غرو أن أطلق بعض سلاطين الأيوبيين ، على أنفسهم لقب سلطان الإسلام والمسلمين^(٤) ، وشجعوا رجال دولتهم على مخاطبتهم به^(٥) ، بحيث ذاع هذا اللقب في ديار الإسلام ، وطار في الآفاق ، وصار علماً على سلاطين بنى أيوب ، يلقبهم به العلماء والمفكرون ، حتى من حظى برعاية عظماء ملوك الإسلام ، المزاحمين للدولة الأيوبية في نفوذها السياسى ، وأعنى بهم ملوك الدولة الخوارزمية في إيران وما وراء النهر وعراق العجم^(٦) .

كما دلّت بعض ألقاب سلاطين بنى أيوب على اتساع نفوذهم السياسى ، وامتداد ممتلكات دولتهم ، وأغلبها ذات دلالة حقيقية ، فى حين أن بعضها ، « صاحب ديار مصر وزيد وعدن واليمن وديار بكر »^(٧) ، « ملك الديار المصرية والشامية والأخلاقية »^(٨) ، « شاه أرمن »^(٩) ، « فاتح الطراز الأخضر من بنى الأصفر »^(١٠) .

(١) أنظر حسن الباشا : الألقاب ، ص ٣٧١ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٤٤٥ ، والواقع أن لقب حامى حمى الحرمين الشريفين ، كان هو اللقب الذى ورثه الظاهر بيبرس ، عن سلاطين بنى أيوب ، وجعله أحد دعائم زعامته للعالم الإسلامى ، بعد أن ساهم فى هزيمة المغول فى عين جالوت سنة ٦٥٨هـ / ١٢٥٨م ، ونقله للخلافة العباسية إلى مصر سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦٠م أنظر ابن أيبك : الدررة الزكية ، ص ٤٩ ، والمقرئزى : السلوك ١ : ٤٤٧ ، وأنظر دراسة مستفيضة لألقاب بيبرس ، فى مقال عبد العزيز مرزوق : جامع الظاهر بيبرس البندقدارى : المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث ، مايو ١٩٥٠ ، ص ٩١ - ١٠٢ ، وقد ورث هذا اللقب عن سلاطين المماليك ، سلاطين العثمانيين ، أنظر قبله ، الفصل الخاص بالوضع السياسى والشرعى لمصر الأيوبية .

(٣) حسن الباشا ، الألقاب ، ص ٣٦٨ .

(٤) نفس المرجع ، ص ٣٣١ - ٣٣٣ .

(٥) أنظر ابن شداد : النوادر ، ص ٣ ، النابلسى : تجريد الهمة ، لوحة ٢ ، أ - ب .

(٦) ألف الإمام فخر الدين الرازى ت ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م ، الذى عاش فى بلاط الدولة الخوارزمية وحظى عند ملوكها ، كتابه أساس التقديس ، واهدها للسلطان العادل أبى بكر ابن أيوب ، ولقبه بهذا اللقب ، أنظر أساس التقديس ص ٣ ، س ٣ - ٦ ، وأنظر قبله .

(٧) أنظر حسن الباشا : المرجع السابق ، ص ٣٧٢ .

(٨) أنظر : المقرئزى : الخطط ٤ : ٢١١-٢١٦ (المدرسة الكاملة) ، وخاصة ص ٢١٤ - ٢١٥ .

(٩) أنظر ، سبط : مرآة ، ٨ : ص ٧١١ ، حسن الباشا : المرجع السابق ، ص ٣٥٢ - ٣٥٣ ، وأنظر ديوان

ابن النبيه ، ص ١٥ ، ص ٢٢ ، ص ٥٦ ، ص ٧٦ .

(١٠) أنظر حسن الباشا : المرجع السابق ، ص ٤١٥ .

ونجد أن آخر سلاطين الأيوبيين ، وهو الملك الصالح نجم الدين أيوب ، تلقب بـ « شهريار الشام » ، « سلطان العرب والعجم » ، « صاحب الحرمين الشريفين » ، « ملك البرين والبحرين » ، « ملك الهند والسند واليمن » ، « ملك صنعاء وزيد وعدن » ، سلطان المشارق والمغرب »^(١) ، والطريف أن الملك الأشرف موسى بن الملك العادل أبي بكر ، وجد في سيطرته على أغلب أجزاء الجزيرة الفراتية مسوغًا له لينعت نفسه بـ « سلطان العراق »^(٢) وبـ « خسروا إيران »^(٣) .

وبالنسبة لألقاب سلاطين بني أيوب ، التي استقر عليها مصطلح رسوم المكاتبات في ديوان الإنشاء الأيوبي ، فلقد كان سلاطين بني أيوب ، يخاطبون بـ « مولانا »^(٤) ، و « المجلس »^(٥) ، و « المقام العالی »^(٦) ، و « الجناب »^(٧) ، و « المقر الشريف »^(٨) ، في حين كان جميع أفراد الأسرة المالكة الأيوبية ، يطلق عليهم لقب « الأمير »^(٩) .

وتختتم ألقاب الأسرة الأيوبية ، بإيراد النعوت التي نعت بها صلاح الدين نفسه ، قبل أن يستقل بحكم مصر ، حينما كان نائبًا عن نور الدين ، ثم عن ابنه الصالح إسماعيل في حكم مصر ، والنعوت التي نعت بها صلاح الدين نفسه في مراسلاته مع الخلافة العباسية ، مثل « المملوك »^(١٠) ، و « المولى »^(١١) ، و « الخادم »^(١٢) ، في حين كان نور الدين يلقب صلاح الدين «بالاسفهلار»^(١٣) بمعنى مقدم العسكر .

(١) أنظر حسن الباشا : المرجع السابق ، ص ٥٠٦ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٣٣٦ - ٣٣٧ .

(٣) نفس المرجع ، ص ٢٧٥ .

(٤) أنظر القلقشندي : ٦ : ٣٠٥ ، ٧ : ٨٧ ، ٧ : ٨٨ ، حسن الباشا : الألقاب ، ص ٥٢٠ .

(٥) حسن الباشا : المرجع السابق ، ص ٤٥٥ - ٤٥٦ .

(٦) ابن شيث : معالم الكتابة ، ص ٣٦ ، حسن الباشا : نفس المرجع ، ص ٤٨٢ - ٤٨٣ .

(٧) ابن شيث : المصدر السابق ، ص ٣٦ ، القلقشندي : صبح ، ٥ : ٤٩٩ ، الباشا : المرجع السابق ، ص ٨٤ ،

٢٤٢ .

(٨) ابن شيث : المصدر السابق ، ص ٣٦ ، الباشا : المرجع السابق ، ص ٨٤ ، ٤٨٩ .

(٩) الباشا : نفس المرجع ، ص ١٨٤ .

(١٠) نفس المرجع ، ص ٥٠٨ - ٥٠٩ .

(١١) نفس المرجع ، ص ٥٠٨ - ٥٠٩ .

(١٢) نفس المرجع ، ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

(١٣) نفس المرجع ، ص ١٥٦ - ١٥٧ .

ولعل من الطريف أن نذكر لقبين ، حملهما بعض ملوك الأيوبيين ، كانا لهما دالتين فريدتين هما : « بقية الملوك والسلاطين »^(١) ، و « شيخ الملوك والسلاطين »^(٢) .

وإذا كانت الألقاب الرسمية والفخرية ، لسلاطين بنى أيوب ، قد أوضحت النفوذ السياسى والدينى ، الذى تمتع به سلاطين بنى أيوب ، وأهمية السلطنة الأيوبية ، بالنسبة للعالم الإسلامى ، والخلافة العباسية ؛ وإذا كان أغلب هذه الألقاب ، قد تتشابه كما أوضحنا مع ألقاب السلاطين المشاركة السنين ، الذين قاموا من قبل بنفس رسالة السلطنة الأيوبية فى تعضيد الدعوة السنية والخلافة العباسية ، وهم على التوالى سلاطين الغرناطين ثم السلاجقة ثم الزنكيين ؛ فقد لاحظ القلقشندى ، أن الخلع والتشريف الخليفية ، التى منحت لسلاطين بنى أيوب ، تكاد تطابق الخلع والتشريف التى منحها الخلفاء العباسيين للأمراء والسلاطين ، الذين قاسموهم السلطة فى بغداد ، مثل أسرتى البويهيين ثم السلاجقة على التوالى ؛ وفى رأى القلقشندى ، أن الأيوبيين ، قد أصبحوا من واقع هذه الخلع ، هم سلاطين الإسلام ، وحماة الخلافة العباسية ، شأنهم شأن سلاطين السلاجقة ، إلا فى كون هؤلاء كانوا قد اتخذوا من بغداد ، مقرّاً رسمياً لدار سلطنتهم ، فى حين اتخذ الأيوبيون من مصر ، مقرّاً لسلطنتهم^(٣) .

سلطنات إسلامية متعاصرة ، وأسباب تفرد السلطنة الأيوبية بالتفويض الخليفى فى ديار الإسلام :

والجدير بالملاحظة ، أنه بعد سيطرة صلاح الدين على مصر ، وممتلكات الدولتين التورية والفاطمية ، وتوحيده للجهة الإسلامية بالمشرق الإسلامى لمحاربة الصليبيين^(٤) ، عاصر قيام الدولة

(١) أفاد القلقشندى ، أن هذا اللقب من ألقاب من له سلف من الملوك ، كصاحب حصن كيفا من الملوك الأيوبية ، أنظر القلقشندى : صبح ، ٦ : ٤١ .

(٢) أفاد القلقشندى أن هذا اللقب من ألقاب المسنين من الملوك ، قال القلقشندى : هذا اللقب رأته عن كتاب عن الملك الكامل محمد بن العادل أبو بكر بن أيوب بعث به نجم الدين أيوب ، والد السلطان صلاح الدين ، أنظر صبح ، ٦ : ٥٧ .

(٣) أنظر القلقشندى : مآثر ، ٢ : ٥٩ - ٦٠ ، ٢٣٧ - ٢٤٠ ، صبح ، ٣ : ٢٦٩ - ٢٧٢ ، وأنظر قبله ، الفصل الخاص بالوضع السياسى والشرعى لمصر الأيوبية .

(٤) لاحظ سبط ابن الجوزى ، أنه فى بدء سنة ٦١٥هـ ، توفى ثلاثة من الملوك الأكابر ، العادل الأيوبي ، ومحمد بن تكش " خوارزمشاه " ، وعز الدين كيكافوس ، سلطان سلاجقة الروم (مرآة ، ٨ : ٦٠٠) ، وفى هذا ما يفيد أن أعظم ثلاثة ملوك بالشرق فى مستهل العصر الأيوبي ، كان سلطان سلاجقة الروم ، و سلطان الدولة الأيوبية ، وخوارزمشاه ملك الدولة الخوارزمية ؛ وإلى جانب هؤلاء الملوك الذين وصفوا بـ " الأكابر " ، اشتهر عدد آخر من ملوك الأطراف بديار المشرق الإسلامى ، فيذكر سبط ابن الجوزى أن سنة ٥٨٩هـ ، يقال لها سنة الملوك ، مات صلاح الدين ، وبكتمرشاه أرمن ، وعز الدين صاحب الموصل (مرآة ، ٨ : ٤٢١) .

الأيوبية بمصر ، ملكان عظيمان من ملوك الأطراف ، ببلاد المشرق الإسلامي ، زاحماه الزعامة السياسية والعسكرية ، وهما : خوارزمشاه ، ملك الدولة الخوارزمية^(١) ، التي ورثت ممتلكات السلاجقة في العراق وإيران وما وراء النهر ، وسلطان سلاجقة الروم ، وهم آخر الفروع التي تبقت من الأسرة السلجوقية^(٢) ، وذلك بعد ان أزال خوارزمشاه محمد بن تكش السلطنة السلجوقية من بغداد سنة ٥٩٠هـ / ١١٩٣م^(٣) وبعد سيطرة أسرة البهلوان على سلاطين سلاجقة العجم^(٤) ، بحيث لم يتبق من الدولة السلجوقية ، إلا فرع سلاجقة الروم بآسيا الصغرى .

(١) أعظم ملوك خوارزم الذين عاصروا صلاح الدين ، هو محمد بن تكش ، ت سنة ٦١٦هـ ، قال ابن واصل : " كانت مملكته من حدّ العراق إلى تركستان من بلاد الترك ، مضافاً إلى غزنه وبعض الهند وسجستان وكرمان وطبرستان وغير ذلك من الممالك ، وبالجملة لم يملك أحد بعد إنقراض الدولة السلجوقية مثله ، غير أن السعادة أدبرت عنه ، وزال بزوال ملكه ملك البلاد الإسلامية في جميع هذه الممالك ، فسبحان من لا يزول ملكه " ، (أنظر مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٤٥ - ٤٦) . ويقصد ابن واصل بزوال ملكه على يد الغارة المغولية ، ولقد عبر المنشيء النسوي ، مؤرخ البيت الخوارزمي ، الذي دخل في خدمة سلاطين بني أيوب بعد زوال الدولة الخوارزمية ، عن اتساع دولة محمد بن تكش بقوله : " بلغ من أمر السلطان الأعظم محمد بن تكش ، وعظم شأنه ، أنه جمع إلى ما أورثه أبوه من خراسان وحوارزم ، ملك العراق ، ومازندران ، وضم إلى هذه الواسطة كرمان ومكران وكيش وسجستان ، وبلاد الغور وغزنة وباميان ، إلى ما يليها من الهند بأغوارها وأتجادها .. وملك على الخطائية وغيرهم من ملوك الترك وما وراء النهر بعد إخافتهم واستئصال شأفتهم ، وألجأ المفلتين منهم إلى أقاصى الصين ، .. وخطب له على منابر فارس وإيران وأذربيجان إلى ما يلي دربند شروان ، فتواصلت له فتوح الأقاليم (أنظر النسوي : سيرة جلال الدين منكبرتي ، ص ٣٥ - ٣٧) .

(٢) أنظر عدة إشارات هامة عن أهمية دولة سلاجقة الروم عند الراوندى في راحة الصدور ، ولقد ألف الراوندى هذا الكتاب لسُلطان سلاجقة الروم في عصره كيسخروين قلعج أرسلان ، ولقد ناشد الراوندى سلطانه " أحياء دولة آل سلجوق " ، و " إحياء مراسم العدل ، بتقريب العلماء وتقوية الإسلام ونصرة الشريعة ، وأن يسلك النهج الذى سلكه السالفون من سلاطين آل سلجوق أنظر راحة الصدور ، ص ٨٣ ، كما ناشده أحياء علوم الدين في آسيا الصغرى ، وأن يحرص على أن تصبح علوم الفقه والكلام ولغة العرب والخط والأدب والشعر الفارسى والعربى متداولة على ألسنتهم في هذه الناحية ، وأن يعمل على أن تكون آثار السلاجقة ومنشأتهم الدينية والاجتماعية سائدة في جميع أرجاء العالم (راحة الصدور ، ص ١٠٤) ؛ هذا إلى جانب إنشاء المدارس السنية بآسيا الصغرى ووقف الأوقاف عليها (راحة الصدور ص ١٤٠) . وفي رأى الراوندى أن اقتداء ملوك سلاجقة الروم في زمانه بالسلاجقة الأوائل سيكون سبباً في تأكيد دينهم ودولتهم وتأسيس قواعد ملكهم وسلطنتهم (راحة الصدور : ص ١١٨ ، ص ٢ - ٣) .

(٣) استعان الخليفة العباسي الناصر لدين الله ، بالسلطان محمد بن تكش الخوارزمي ، للقضاء على آخر سلاطين السلاجقة بالعراق سنة ٥٩٠هـ . أنظر النسوي ، سيرة منكبرتي ، ص ٤٩ ، هامش (٤) ، ويبدو أن الخطبة لسلطان خوارزم قد استمرت ببغداد منذ سنة ٥٩٠هـ وراثة عن سلاجقة العراق ، ثم انقطعت سنة ٦١٤هـ ، كما ذكر النسوي ، أنظر سيرة منكبرتي ، ص ٥٢ ، ويبدو أنه كان خوارزم شاه شحنة ببغداد أيضاً ، شأن السلاجقة ، أنظر النسوي ، سيرة منكبرتي ، ص ٥٣ - ٥٤ ، وأنظر قبله .

(٤) ابن واصل : مفرج ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ .

ولكن رغم مزاحمة هاتين الدولتين الإسلاميتين العظيمتين ، للدولة الأيوبية ، النفوذ السياسي في بلاد الشرق الإسلامي ، فلقد استطاع صلاح الدين الأيوبي ، أن يحقق له ولدولته وخلفائه من بعده - مكان الصدارة في المشرق الإسلامي ، ولقد ساعده على ذلك أسباب عدة إذ توفرت في شخصيته ولا شك صفات الزعامة ، وأيده تاريخ أسرته المجيد في جهاد الفرنج بمصر والشام ، إبان خدمتهم لنور الدين زنكي ، فضلاً عن ميراثه لرسالة نور الدين في توحيد الجبهة الإسلامية ضد الفرنج ، إلى جانب الموقع المتوسط لملكاته ، بالشام والجزيرة الفراتية ومصر والحجاز واليمن وبرقة ، إذ تشغل قلب العالم الإسلامي ، وتضم أغلب الأقطار الناطقة بالعربية ، بالإضافة إلى اشتغالها على المقدسات الإسلامية ، في الأراضي الحجازية .

وفي اعتقادنا ، أن حصول صلاح الدين على تفويض الخليفة العباسي له سلطاته الشرعية في ديار الإسلام ، سواء في أرجاء الممتلكات الأيوبية ، أو فيما يستجد للسلطان فتحه من ديار الحرب أو استرداده من البلاد التي اغتصبها الصليبيون ؛ ثم تخويل الخليفة للسلطان ، حق ذكر اسمه بعد اسم الخليفة ، على منابر ممتلكات الدولتين النورية والصلاحية الزائلتين^(١) ؛ وخاصة منابر الحرمين الشريفين بمكة والمدينة^(٢) ، وبيت المقدس بعد استرداد صلاح الدين له من الفرنج سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م^(٣) ، وأخيراً بالمسجد الجامع بالقسطنطينية ، عاصمة الدولة البيزنطية زعيمة العالم المسيحي سنة ٥٨٦هـ / ١١٩٠م^(٤) ؛ قد جعل صلاح الدين في الواقع نائباً عن الخليفة العباسي في جميع أرجاء الدولة الأيوبية ، التي اتسعت ، وبلغ امتدادها من أطراف أرمينية الإسلامية والجزيرة الفراتية شمالاً إلى اليمن وبلاد النوبة جنوباً ، وامتدت غرباً حتى بلاد القيروان^(٥) ؛ وما لبث السلطان العادل

(١) أنظر قبله ، نفس هذا الفصل دراستا للتقليد الخلفي لبني أيوب .

(٢) أنظر قبله ، الفصل الخاص بالوضع السياسي والشرعي ، وأنظر على الخصوص ، ابن جبير : الرحلة ، ص ٧٢ - ٧٣ ، ٨٠ .

(٣) دعا خطيب صلاح الدين ، على منبر بيت المقدس " للخليفة والسلطان " ، على حد قول العماد الأصفهاني ، أنظر الفتح القسي ، ص ١٤٠ ، ص ٢ ، ص ١٣٧ - ١٤٠ ، ص ١٤٥ - ١٤٦ ، ص ١٤٧ ص ١٦ - ١٧ ، حيث يقول عن القدس " رفعت الأعلام العباسية على منبره " ، وأنظر أيضاً ص ١٩٨ ، ص ٦ - ٢٠ .

(٤) أنظر ابن شداد : النوادر ، ص ١٣٢ - ١٣٣ ، العماد : الفتح ، ص ٤١٤ ، سبط : مرآة ، ص ٨ : ٤٠٤ ، الذي يقول : " خطب للخليفة والسلطان بقسطنطينية " ، ابن واصل : مفرج ٢ : ص ٣٢٨ - ٤٢٩ ، ابن عبد الظاهر : الدر النظيم ، ص ٣٧ - ٤٢ ، المقرئ : السلوك ١ : ٩٨ وهامش (١) ، وأنظر قبله ، الفصل الخاص بالوضع السياسي والشرعي لمصر الأيوبية .

(٥) أنظر كارل بيكر : دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية ، الطبعة الأولى ، مادة أيوبيين ، أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ، ج ١ ، ص ١٤٢ - ١٥٧ ، ٣٥٠ - ٣٥١ ، وأنظر قبله .

الأول أبي بكر بن أيوب ، أن ربط دولته بدولة الخلافة العباسية ، برباط وثيق ، امتزجت فيه دعوة الجهاد ، بروح الصوفية وأخلاق الفتوة والفتيان ، بالأهداف السياسية والمذهبية للخلافة العباسية ، حين بادر بالاستجابة لدعوة الفتوة الخليفة الناصرية في سنة ٥٥٩هـ / ١٢٠٢م قبل تفرده بالسلطنة الأيوبية ثم في سنة ٦٠٥هـ / ١٢٠٨م ، عقب تربعه على السلطنة الأيوبية ووصول تقليده الخلفي وخلعه الخليفة بسنة واحدة ، مما حدا بجميع ملوك الأطراف المسلمين ، إلى الانضمام إلى دعوة الفتوة الناصرية ، متابعة للسلطان الأيوبي^(١) .

ولقد سبق التدليل ، اعتماداً على وثائق العصر الأيوبي ، وعلى الحوادث التاريخية ، أن ممتلكات الدولة الأيوبية الواسعة ، وعلى رأسها مصر ، كانت من الناحية الشرعية النظرية ، ملكاً للخليفة العباسي^(٢) ؛ ذلك لأن صلاح الدين كما أكدت رسائله المتبادلة مع الخليفة العباسي ، بغرض إطلاعه على أسرار سياسته الحربية الخارجية ، أو بغرض البشارة بما تم من الفتح^(٣) ، كان يقوم بكل هذه الفتوحات باسم الخلافة العباسية ، ونيابة عنها ؛ وهذا في الواقع ما منحه حق استنفار ملوك الأطراف المسلمين ، إلى الانضمام إلى جيوشه ، للقيام بفريضة الجهاد ، وفي نفس الوقت ، ألزم هؤلاء الملوك ، ضرورة الاستجابة لاستنفاره لهم^(٤) .

ولاشك أن ميراث صلاح الدين لمكانة نور الدين ببلاد المشرق الإسلامي^(٥) ، كان من أقوى الركائز التي استند عليها لتأكيد سطوته بين ملوك الشرق ، فكما ورث صلاح الدين ممتلكات نور الدين^(٦) ، ومكانته السياسية ، فقد ورث أهدافه البطولية في استرداد بيت المقدس^(٧) ، وورث

(١) أنظر ابن شاهنشاه : مضمّن الحقائق ، ص ٨٦ ، ١٧٧ ، ١٧٩ - ١٨٠ ، سبط : مرآة ، ٥١٣ ، ابن أيك : الدر ، ص ١٦٥ ، ابن واصل : مفرج ، ٣ : ٢٠٦ - ٢٠٧ ، المقرئ : السلوك ، ١ : ١٧٢ ، ٢١٨ : ٦ - ٧ ، ابن الساعي : الجامع المختصر ، ٩ : ٢٣٣ - ٢٣٥ ، وأنظر قبله .

(٢) أنظر قبله ، الفصل الخاص بالوضع السياسي والشرعي لمصر الأيوبية .

(٣) أنظر قبله ، نفس الفصل السابق .

(٤) أنظر قبله ، نفس الفصل السابق .

(٥) قال سبط ابن الجوزي ، بعد أن عدد الحصون والبلاد التي استردها نور الدين زنكي من الصليبيين بالشام " فتح ليفا وخمين حصناً .. واتسع ملكه ، ففتح الموصل والجزيرة وديار بكر والشام والعوامم ودمشق وبعلبك وبنائيس ومصر واليمن ، وخطب له في الدنيا " (مرآة ، ٨ : ٣٠٥ - ٣٠٦) .

(٦) أنظر قبله .

(٧) قال سبط ابن الجوزي ، نقلاً عن ابن الأثير : " ما كان يرى نور الدين إلا خلاص القدس من الفرنج واستنصالهم من الساحل " ، مرآة ، ٨ : ٣٢١ ، س ٤ - ٥ ، وقال في موضع آخر : كان في عزمه (نور الدين) ، أن يفتح بيت المقدس ، فعمّر منبراً وقبلة بجامع حلب على اسم القدس ، فتوفي قبل الفتح ، فلما ملك صلاح الدين البيت المقدس ، حمل المنبر إليه وأبقى القبلة بجامع حلب ، أنظر مرآة ، ٨ : ٣١٣ .

كذلك طموحاته السياسية في الاستيلاء على ممتلكات سلاجقة الروم في شمال الجزيرة الفراتية وفي أرمينية الإسلامية ، بل والإطاحة بسلطنتهم التي أقاموها بآسيا الصغرى حتى تنضوى دولتهم تحت لوائه^(١) ، في كيان سياسى وعسكرى موحد .

لهذا لا نعجب من إقدام صلاح الدين ، بعد استقواء دولته على محاربة سلطان سلاجقة الروم في سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩م ، وإرغامه على الدخول فى طاعته^(٢) ، ثم توقيع صلحًا مشتركًا يقضى بتعاون السلطانيين فى وجه الكيانات الصليبية فى سنة ٥٧٦هـ / ١١٨٠م^(٣) ، وهو ما تم فى نفس هذه السنة ، حين ساند السلطان صلاح الدين ، سلطان سلاجقة الروم ، إبان صراعه مع مملكة أرمينية المسيحية^(٤) ، تلك المملكة المسيحية المتعاطفة مع الحركة الصليبية والتي كان الاستيلاء عليها يمثل إحدى طموحات نور الدين قبيل وفاته^(٥) .

ثم ما لبث سلطان سلاجقة الروم ، أن أعلن فى سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م ، بعد انتصار صلاح الدين على الصليبيين فى حطين ، دخوله فى طاعة صلاح الدين واتحاده معه^(٦) ، وتابعه فى ذلك ، جميع ملوك الأطراف المسلمين ، الذين راسلوا صلاح الدين بعد تمام فتح القدس فى سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م ، يطلبون لأنفسهم منه تقليدًا على بلادهم^(٧) ، وكان على رأس هؤلاء الملوك ، آخر ملوك سلاجقة العجم الذين سيطروا على عراق العجم ، وملوك الأراتقة الذين سيطروا على أغلب أقاليم الجزيرة الفراتية^(٨) ؛ وفى هذا إقرار رسمى من جميع ملوك المشرق الإسلامى ، بشمول النفوذ السياسى لصلاح الدين على جميع بلاد المشرق الإسلامى على أساس أنه « سلطان » المسلمين ، أى ملك ملوك الإسلام^(٩) ؛ فلا غرو أن أصبح لقب « سلطان » يشير إلى صلاح الدين دون غيره ،

(١) عن محاولة نور الدين زنكى ، ضم دولة سلاجقة الروم إليه سنة ٥١٨هـ ، أنظر سبط : مرآة : ٢٣٣ - ٢٣٤ ، ٢٩٤ ، ابن واصل : مفرج ، ١ : ٢٣٣ - ٢٣٤ ، ٢ : ٩٦ - ٩٨ .

(٢) أنظر العماد : الفتح ، ص ١٨١ ، ص ٢١١ - ٢١٣ ، المقرئى : السلوك ١ : ٦٨ - ٦٩ و ١١٢ ، ابن واصل : مفرج ، ٢ : ٧٩ .

(٣) أنظر ابن شاهنشاه : مضمار ، ص ٤٢ ، ابن واصل : مفرج ، ٢ : ٩٦ - ١٠٠ ، أبو المحاسن : النجوم ، ٦ : ٢٧ ، ٢٨ .

(٤) أنظر واصل ، ٢ : ٩٦ - ١٠٠ ، أبو المحاسن : النجوم ، ٦ : ٢٧ - ٢٨ .

(٥) أنظر ابن واصل : مفرج ، ١ : ٢٣٦ .

(٦) أنظر على الخصوص : العماد : الفتح ، ص ٢١١ - ٢١٣ ، وأنظر قبله .

(٧) أنظر العماد : الفتح ، ص ١٨١ ، وص ٢١١ .

(٨) أنظر العماد : الفتح ، ص ٢١٢ - ٢١٣ ، ص ٥٧٢ - ٥٧٦ .

(٩) أنظر قبله مناقشة المفهوم الاصطلاحى للفظ " سلطان " .

حتى لو ورد في سياق الحديث أخبار أحد سلاطين السلاجقة المعاصرين له^(١) .

وكما اقنع صلاح الدين ملوك الأطراف المسلمين بالانضمام إليه والاعتراف بسلطنته ، وشمول نفوذه السياسي على ممالكهم اثر استرداده لبيت المقدس سنة ٥٨٣هـ ؛ فإن هذا الانتصار الحاسم للسلطان صلاح الدين على القوى الصليبية قد أرغم الإمبراطور البيزنطي الذي عرف بملك القسطنطينية على التخلي عن الحركة الصليبية ، وإرسال سفارة لصلاح الدين لتوقيع صلح معه يقضى بإقامته الخطبة « للدعوة الإسلامية العباسية » في جامع القسطنطينية باسم السلطان صلاح الدين ، الذي أرسل مع السفير البيزنطي الخطيب والمنبر وجمعاً من المؤذنين^(٢) ؛ وقد شجعت هذه الخطوة الجرئية من الأمبراطور البيزنطي - زعيم العالم المسيحي الشرقي - ملك مملكة أرمينية المسيحية المعروف بالكيكاوس على مراسلة صلاح الدين بدوره ، وعرض عليه خدماته بخصوص إبلاغه بتحركات الحملات الصليبية^(٣) .

وفي هذا ما يؤكد أن صلاح الدين قد أصبح بعد انتصاره في حطين واسترداده بيت المقدس ، سلطان الإسلام والمسلمين ، سواء في نظر الخلافة العباسية ، أو في نظر ملوك الأطراف المسلمين ، أو حتى في نظر الممالك والدول المسيحية ، ببلاد الشرق ، وهي الأمبراطورية البيزنطية ، ومملكة أرمينية المسيحية .

وإذا كان سلطان سلاجقة الروم ، قد أقرّ للسلطنة الأيوبية بالزعامة على بلاد المشرق الإسلامي ، وأعلن انضمامه رسمياً للدولة الأيوبية في تحالف سياسي وعسكري سنة ٥٧٦هـ / ١١٨٠م ، فإن هذا في واقع الأمر قد ضمن للسلطنة الأيوبية زعامة العالم السني في ذلك الوقت ، وعلى رأسه الخليفة العباسي ، ذلك لأن الدولة الخوارزمية ، التي كانت ولا ريب أقوى مملكة إسلامية بالمشرق الإسلامي في القرن السادس الهجري ، إذ ضمت بلاد ما وراء النهر إلى حدود

(١) انظر سبط : مرآة ، ٨ : ٤٠١ ، وقد تأكدت سيطرة وزعامة السلطان الأيوبي على جميع ملوك الأطراف ، حين وافقت رسل ملوك الأطراف المسلمين ورسل الخليفة العباسي ورسل الفرنج السلطان الكامل محمد بن العادل سنة ٦٢٩هـ ، حين نهض لحرب المغول ، وألبسه رسل الخليفة خلعة السلطنة ، وكان من ضمن رسل ملوك الإسلام ، رسل ملك الهند ورسول صاحب جزيرة الأندلس ، انظر ابن أيك : الدر المطلوب ، ص ٣٠٥ - ٣٠٦ ، المقرئ السلوك ١ : ٢٤٣ .

(٢) انظر ابن شداد : النوادر ، ١٣٢ - ١٣٣ ، العماد : الفتح ، ص ٤١٤ ، سبط مرآة ، ٨ : ٤٠٤ ، ابن واصل : مفرج ، ٢ : ٣٢٨ - ٤٢٩ ، ابن عبد الظاهر : الدرّ النظيم ، ص ٣٧ - ٤٢ ، المقرئ السلوك ، ١ : ٩٨ ، وهامش (١) ، وانظر قبله .

(٣) انظر ابن شداد : النوادر ، ص ١٢٤ - ١٢٦ .

الصين وبلاد الهند وإيران وعراق العجم والجزيرة الفراتية - كانت تعتنق الدعوة الشيعية^(١)، شأن الدولة البويهية من قبل^(٢)، وعلى هذا الأساس فإن ملك خوارزم الشيعي، لم يكن من ناحية الانتماء العقائدي، يصلح لتبني الدعوة العباسية السنية، التي التفت المسلمون حولها بعد سقوط الخلافة الفاطمية الشيعية بمصر على يد الأيوبيين^(٣).

ومع ذلك فقد اعتبر خوارزمشاه نفسه، وارثاً لسلطين السلاجقة السنيين، في السيطرة على الخلافة العباسية ببغداد، والخطبة باسمه بعد الخليفة العباسي على منابر العراق، وذلك بعد أن نجح خوارزمشاه في سنة ٥٩٠هـ / ١١٩٣م، في إنهاء الوجود السياسي والعسكري لسلطين السلاجقة من العراق^(٤)، وأغلب الظن أن استقواء النفوذ السياسي والعسكري لخوارزمشاه محمد بن تكش، وطموحه في السيطرة على الخلافة العباسية بالعراق، سيطرة مباشرة لقربها من دولته، هو الذي

(١) إن غلبة دعوة الشيعة المعتزلة على بلاد خوارزم، قد تم في اعتقادنا منذ أيام الدولة الخوارزمية الأولى، التي كانت تعرف بالدولة المأمونية، وهذا هو السبب في الواقع في عدااء السلطان محمود الغزنوي، أول السلطين السنيين، للدولة الخوارزمية الأولى وإبادته لها، وعلى هذا الأساس يكون دخول الدعوة الشيعية إلى خوارزم، قد تم على الأقل في مطلع القرن الخامس الهجري، إذ ألف القاضي عبد الجبار الهمداني ب ٤١٥هـ / ١٠٢٤م، أهم كتب الدعوة الاعتزالية، وهو كتاب فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، لخوارزمشاه مأمون بن مأمون الذي تولى سنة ٣٩٠هـ، وتوفي سنة ٤٠٧هـ. أنظر القاضي عبد الجبار: فضل الاعتزال، تحقيق فؤاد سيد، تونس ١٩٧٤م، ص ١٣٧ وهامش (١). وقد بقيت دعوة الاعتزال قوية في خوارزم حتى بعد إباداة السلطان محمود الغزنوي للدولة الخوارزمية الأولى، حين أرسل المعتزلة إلى خوارزم أحد كبار دعائها وهو أستاذ المفسر الشهير الزمخشري، صاحب التفسير المسمى بالكشاف، وعنه أخذ الزمخشري دعوة الاعتزال (أنظر زهدى: جوار الله: المعتزلة، القاهرة ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م، ص ٢١٧ - ٢١٨)، وقد صرح الزمخشري في ديباجة تفسيره الكشاف أنه أملاه في مكة، بعد أن ألح عليه أصحابه من المعتزلة أهل العدل والتوحيد في خوارزم في تأليفه. بمعنى أن الاعتزال ظل قوياً في خوارزم طوال القرن السادس الهجري في عهد الدولة الخوارزمية الثانية، وهذا ما دعى إلى إقدام الإمام فخر الدين الرازي ت ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م أشهر علماء الدعوة الأشعرية السنية في عصره، على إهداء كتابه أساس التقيديس، للسلطان العادل الأيوبي، رغم أنه كان من أصدقاء خوارزمشاه والمقربين إلى بلاطه والمقيمين في دولته، وقد ألح الفخر الرازي إلى هذا السبب في ديباجة كتابه أساس التقيديس، أنظر قبله الفصل الخاص بإعادة الشعائر السنية إلى مصر، ونشر الدعوة الأشعرية بها.

(٢) أنظر قبله.

(٣) أنظر قبله.

(٤) أنظر المنشئ النسوي: سيرة جلالة الدين منكبرتي، ص ٤٩ هامش (٤)، ص ٥٠ - ٥٣، ص ٦٤،

ص ٢٠٧.

وقف حائلاً دون تمتع صلاح الدين رسمياً بلقب «سلطان» حتى وفاته^(١) سنة ٥٩٨هـ / ١٤٠١م؛ ويبدو أن الخطبة خوارزمشاه استمرت ببغداد منذ سنة ٥٩٠هـ / ١١٩٣م، وراثتاً عن سلاجقة العراق، ثم انقطعت سنة ٦١٤هـ / ١٢١٧م^(٢).

ورغم تشييع الدولة الخوارزمشاهية، ورغم الدلالة السنية للقب «السلطان»، فإن ملوك الدولة الخوارزمشاهية، الذين عاصروا سلاطين بنى أيوب، قد حاولوا إرغام الخلافة العباسية وملوك الأطراف المسلمين على مخاطبتهم بلقب «سلطان»، الذي خوطب به ملوك بنى أيوب منذ عصر السلطان العادل الأول سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م^(٣)، ولكن الخلافة العباسية أبت عليهم هذا اللقب، أغلب الظن لتشييعهم، من ثم رفض ملوك المسلمين، تلقيب ملك الدولة الخوارزمية بلقب «سلطان»^(٤)، الذي صار علماً على ملوك بنى أيوب.

وكان تشييع خوارزمشاه محمد بن تكش، واستهائته بالخلافة العباسية، ودعوتها السنية هو الذي زين له - في رأينا - فكرة الاستيلاء على العراق، والسيطرة على الخلافة العباسية سنة ٥٩٠هـ / ١١٩٣م^(٥)، وإقامة سلطنة استبدادية شيعية، تجر على خلفاء بنى العباس^(٦) كما فعل أمراء بنى بويه، الشيعة من قبل بعد سيطرتهم على بغداد، في حين ظل سلاطين الأيوبيين وسلاجقة الروم، وكلاهما من أهل السنة، على ولائهم التقليدي المتوارث نحو الخلافة العباسية.

(١) أنظر قبله.

(٢) أنظر النسوي: سيرة منكبرتي، ص ٥٢، وص ٣.

(٣) أنظر قبله، نفس هذا الفصل.

(٤) يقول النسوي: كان جلال لادين يكتب إلى الخليفة... والروحشة قائمة، حذوا على منوال أبيه (خادمه المطواع منكبرتي بن السلطان سنجر)، ولما خلعت علي خلعت السلطنة.. سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م، كتب إليه - أي إلى الخليفة - (عبدة) والخطاب (سيدنا ومولانا أمير المؤمنين وإمام المسلمين وخليفة رسول رب العالمين، وإمام المشارق والمغرب)، وكان جلال الدين يكتب إلى علاء الدين كيقباز - سلطان سلاجقة الروم - وملوك مصر والشام أجمع - بنى أيوب - اسمه واسم أبيه متعوتاً بالسلطان ولم يكتب شيئاً مما جرت به العادة من خادمه أو محبه أو أخيه...، وقد خاطبوه من الخليفة... بـ (الجناب الرفيع الخاقاني)؛ ولم يزل يقترح عليهم خطابته بـ "السلطان" فلم يجب إلى ذلك، إذ لم تجر العادة به، مع من تقدمه من كبار الملوك، فلما كثر إلحاحه، خاطبوه حين حملت إليه خلعت السلطنة، بـ (الجناب العالی الشاهنشاه)، (أنظر سيرة منكبرتي، ص ٣٨٤ - ٣٨٥).

(٥) أنظر سبط: مرآة، ٨: ٤٧٢.

(٦) يقول ابن واصل: "حدثته نفسه بقصد العراق وتملكه وتصيير الخليفة تحت حكمه، كما كان الأمر في استيلاء السلجوقية وبنى بويه قبلهم على الخلفاء، (مفرج: ٤: ٣٥).

وحين كاتب خوارزمشاه الخلافة العباسية بأنه : يطلب ما كان لبني سلجوق من الحكم والملك ببغداد ، وترددت الرسل في ذلك مرارًا ، فلم تجب إلى مراده لعلم الخلافة بمشاغل خوارزمشاه في حروب مع الترك المغول ، بعد أن أوضح رسل الخلافة له ، أن تحكم بني سلجوق في بغداد ، اقتضته الظروف السياسية والمذهبية الحرجة التي صاحبت فتح البساسيري القائد والداعية الفاطمي حين تغلب على بغداد سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م وخطب بها للخليفة الفاطمي : وإلا فليس يحتم أن يكون مع الزمان على أكتاف الخلافة ، متحكماً يأمر فيها ، وينهى كيف شاء^(١) ، على حد قول سفراء الخلافة العباسية .

ومع ذلك فقد قام خوارزمشاه بمحاولتين عسكريتين للسيطرة على بغداد والحجر على الخليفة العباسي ، أولهما سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م^(٢) ، حين أعاقه سقوط الثلج فظن أن هذا من كرامات البيت العباسي ، وخطبه بعض خواصه بأن « ذلك غضب من الله ، حيث قصدت بيت الخلافة »^(٣) ، فأبدى خوارزمشاه الندم عن مهاجمته عاصمة الخلافة^(٤) ؛ إلا أن هذا لم يحل دون قيام ابنه جلال الدين منكبرتي ، آخر ملوك خوارزم بمحاولة أخرى لقصد بغداد والحجر على الخليفة العباسي ، وذلك في سنة ٦٢٢ هـ ، وكاتب الملك المعظم عيسى الأيوبي صاحب بلاد الشام والجزيرة الفراتية ليشارك معه في هذه الحملة على بغداد إلا أنه اعتذر له قائلاً : « أنا معك على كل حد ، إلا الخليفة ، فإنه إمام المسلمين »^(٥) .

وعلى هذا نستطيع أن نقرر أن تشيع ملوك الدولة الخوارزمية^(٦) ، واستهانتهم بالدعوة العباسية والخليفة العباسي ، ومحاولتهم الحجر عليه والسيطرة على بغداد وإقامة حكم عسكري استبدادي بها ، قد حال دون اعتراف الخليفة العباسي وملوك الأطراف باتخاذ ملوك خوارزم للقب سلطان ، الذي أصبح علمًا على سلاطين بني أيوب ، حاة الخلافة العباسية ، والدعوة السنية .

(١) النسوي : سيرة منكبرتي ، ص ٥٠ .

(٢) أنظر سبط : مرآة ، ٨ : ٥٨٢ ، أبو المحاسن : النجوم ، ٦ : ٢٦٩ - ٢٢٠ .

(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩٨ .

(٤) أنظر نص هام أورده النسوي في هذا المعنى : سيرة منكبرتي ، ص ٦٤ .

(٥) سبط : مرآة ، ٨ : ٦٣٤ .

(٦) يعتقد د. أحمد السعيد سليمان أن ملوك خوارزم اعتنقوا التشيع ابتداء من سنة ٦١٤ هـ ، وهذا الذي دفعهم لقصد بغداد أنظر : تاريخ الدول الإسلامية ، ٢ : ٣٧٥ ، ولكننا أوضحنا أن دعوة الشيعة المعتزلة انتشرت في خوارزم من القرن الخامس الهجري ، أنظر قبله .

أصبحت السلطنة الأيوبية إذا ، منذ عهد صلاح الدين ، وطوال عصور خلفائه ، هي الممثلة للخلافة العباسية ، والمفوضة من قبلها ، والمتحدثة باسمها ، والمنفذة لسياستها ، سواء على المجال الإسلامي أو العالمي على حدّ سواء ؛ ولقد أملى هذا الولاء للخلافة العباسية ، والتبعية لدعوة خلفاء بني العباس ، على الدولة الأيوبية منذ قيامها ، موقفاً معادياً تجاه الخلافة الموحدية بالمغرب ، التي كان قد أعلن قيامها بنو عبد المؤمن ، مظهرين بذلك استقلال خلافتهم عن الخلافة العباسية ، وعلّموا هذا المسلك ، بأنهم قد احتسبوا على خلفاء بني العباس بعض المنكرات^(١) ؛ وقد أقرّ فقهاء الإسلام الأمر الواقع ، واعترفوا بشرعية قيام الخلافة الموحدية بالمغرب ، وبنوا تخرجهما الفقهي هذا ، الذي ينافي رأى أغلب الفقهاء في عدم شرعية تعدد الخلافة في دار الإسلام ، على أساس وقوع ممتلكات الخلافة الموحدية بالمغرب والأندلس ، في بقعة بعيدة عن نظر الخليفة العباسي ، الذي يمثل بيته ، أقدم خلافة إسلامية قائمة في ديار الإسلام ، وتداخل بلاد المغرب والأندلس ، مع بلاد ديار الحرب ، ووجود بعض رعاياها المسلمين في الجزائر الواقعة فيما وراء دار الحرب ، الأمر الذي جعل الخليفة الموحدى المباشر الفعلي لمصالحهم^(٢) .

ولكن رغم هذا التخريج الفقى لشرعية الخلافة الموحدية بالمغرب ، فإن خلفاء بني عبد المؤمن ، كانوا من الناحية الفعلية والشرعية ، سلاطين عسكريين ، لعدم توفر شروط الخلافة فيهم ، لأنهم ليسوا من قريش ، فهم إذاً سلاطين حملوا لقب الخلافة ، شأن الخلفاء العثمانيين الأتراك في القرن العاشر الهجرى / ١٦م^(٣) .

ويبدو أن الدعوة المؤمنية الموحدية ، قد تميزت بنوع من التشدد ، إذ نظرت إلى دعوتها على أنها هي الدعوة الإسلامية الحقّة ، في حين أن باقى ديار الإسلام ، قد تابع فى دعواته المذهبية آراء الفرق الكلامية ؛ فوجد الراحلة المغربى ابن جبير ، وهو فى أغلب الظن أحد كبار الدعوة المؤمنية الموحدية ، يقرّر بعد مشاهدته لتعدد الفرق الإسلامية ، والميول السياسية فى بلاد المشرق الإسلامى أنه « لا إسلام إلا ببلاد المغرب ! » « ولا عدل ولا حق ولا دين على وجهه إلا عند الموحدين » ؛ وهو يصف خلفائهم بأنهم « آخر أئمة العدل فى الزمان ، وكل من سواهم من الملوك فى هذا الأوان على

(١) أنظر قبله ، الفصل الخاص بالوضع السياسى والشرعى ، وأنظر الآن سبط : مرآة : ٨ : ١٥١ و ٢٤٥ -

٢٤٦ ، ٣٧٤ - ٣٧٥ ، ٤٤٦ - ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٦٤ - ٤٦٥ .

(٢) أنظر الجوينى : غياث الأمم ، ص ١٢٨ - ١٣٠ .

(٣) أنظر قبله ، الفصل الخاص بالوضع السياسى والشرعى .

غير الطريقة « ؛ والطريف أنه استثنى عن حكمه التعسفى هذا السلطان صلاح الدين بقوله : « اللهم
إلا هذا السلطان العادل صلاح الدين »^(١) .

وإذا كان الأيوبيون قد استطاعوا بعد جهود دامت حوالى خمسة عشر عامًا (من ٥٦٨هـ /
١١٧٢م - ٥٨٣هـ / ١١٨٧م) ، إعادة الخطبة للخليفة العباسى على منابر القيروان ، بعد انتزاعها
من يد الخليفة ابن عبد المؤمن الموحدى^(٢) ، فإن هذا قد سبب ولا ريب عداًءاً حريماً وتناحراً سياسياً
بين الدولتين الأيوبية والموحدية ؛ غير أن ظروف الوجود الصليبي ببلاد الشام ، ونهوض الدولتين
بفريضة الجهاد ، الأيوبيين ضد الصليبيين بالشام ، والموحدين ضد حركة الاسترداد المسيحى بالمغرب
والأندلس ، قد دفع بعاهلى الدولتين إلى محاولة التقارب ، بغرض التعاون العسكرى ضد الخطر
الصليبي ، الذى أضحي خطراً مشتركاً ، يهدد ديار الإسلام ، من الشرق والغرب على السواء .

فتراسل صلاح الدين مع الخليفة الموحدى المنصور أبى يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن
على مدى سنتين ، بعد تمام فتح بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م ، إذ استمرت هذه المراسلات
من سنة ٥٨٤هـ / ١١٨٨م إلى سنة ٥٨٦هـ / ١١٩٠م ؛ ولدينا نصوص لبعض هذه المكاتبات التى
أرسلها صلاح الدين بإنشاء القاضى الفاضل ، وفيها يعرض صلاح الدين على الخليفة الموحدى أسرار
سياسته الحربية تجاه القوى الصليبية ، ويناشده عقد حلف بحرى بينهما ، يقضى بإمداد الخليفة
الموحدى لصلاح الدين بالأساطيل البحرية ، حتى يتسنى له عزل الصليبيين فى ساحل الشام ، وقطع
الإمدادات البحرية المرسله إليهم من وراء البحر من قبل ملوك أوربا والبابوية ؛ وقد أفصح صلاح
الدين للخليفة الموحدى فى هذه المراسلات ، إلى أنه يصبو إلى فتح القسطنطينية عاصمة الدولة
البيزنطية ؛ وقد بالغت المراسلات الفاضلية على إسباغ الألقاب على الخليفة الموحدى ،

(١) أنظر ابن جبير : الرحلة ، ص ٥٥ - ٥٦ ، ٥٦ - ٥٧ ، وهما نصان هامان فراجعهما بتامهما ، والغريب
حقاً أن ابن جبير ، حاول أن يقنع قارئ رحلته ، بانتشار الدعوة الموحدية المؤمنية بمصر وفى بلاد الحجاز ،
وبوجود أنصار لها يرأسلون الخليفة الموحدى بالمغرب ، ويلحون عليه فى المجيء إلى المشرق الإسلامى ، لإزالة
ما فيه من منكرات ، بل ويجاهرون فى إعلان ولاءهم للخليفة الموحدى ؛ بل ذهب ابن جبير إلى القول بأنه
قد ثما إلى علمه أن بعض علماء مصر الإسكندرية وفقهائها وزعمائها ، قد حثّ خطباً أعدها للقيام بين يدي
الأمير الموحدى ، وذلك بعد فتحه لمصر ، ولقبه بـ " سيدنا أمير المؤمنين " ؟!

(٢) أنظر قبله ، الفصل الخاص بالوضع السياسى والشرعى لمصر الأيوبية .

وتعجيد الدعوة الموحدية^(١)، ثم أيد صلاح الدين هذه المكاتبات الرسمية بسفارة دبلوماسية قام بها الأمير شمس الدين ابن منقذ إلى بلاط الخليفة الموحدى فى سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م^(٢)؛ إلا أن كل هذه الدبلوماسية، لعقد التحالف البحرى بين السلطان الأيوبى والخليفة الموحدى قد باءت بالفشل، إذ عزَّ على الخليفة الموحدى، أن صلاح الدين، لم يخاطبه فى هذه المراسلات بـ «أسير المؤمنين»، وهو اللقب المحبب والمميز خلفاء المسلمين.

لم تستطيع السلطنات الأربع، التى تعاصرت فى ديار الإسلام فى القرنين السادس والسابع الهجرى (١٢ - ١٣ م)، الأيوبية، وسلاجقة الروم، والخورازمشاهية، والموحدية، اتخاذ سياسة موحدة وخطة عسكرية مشتركة، ضد الأخطار الخارجية، التى راحت تتهدد العالم الإسلامى شرقاً وغرباً؛ إذ أدَّى التنافس السياسى والاختلاف المذهبى، والطموحات الشخصية، إلى تناحر هذه السلطنات الأربع المتعاصرة فيما بينها، مما تمخض فيما بعد عن اجتياح المغول للشرق الإسلامى، وإسقاطهم للخلافة العباسية ببغداد سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م؛ فى حين استطاعت بقايا الصليبيين بالشام، البقاء بالساحل، فى شريط جغرافى ضيق، يحيط به الكيانات الإسلامية من كل جانب؟! أما فى بلاد المغرب الإسلامى، فقد استطاعت حركة الاسترداد المسيحى بالأندلس، إنهاء الحكم الإسلامى ببلاد الأندلس، بل وتهديد سواحل بلاد المغرب العربى.

ورغم أن الخلافة العباسية فى طورها الأخير، قد بذلت جهوداً دبلوماسية كبيرة، فى سبيل جمع ملوك الأطراف حولها للتصدى للخطر الممغول والصليبي^(٣)، إلا أن الانقسام المذهبى الذى ألم بالعالم الإسلامى، أدَّى إلى تفاوت ملوك الأطراف فى ولائهم وطاعتهم للخلافة العباسية، ففى حين ظل سلاطين بنى أيوب، وسلاطين سلاجقة الروم على ولائهم للخليفة العباسى؛ فإن الدولة الخورازمشاهية الشيعية، لم تظهر مثل هذا الولاء، رغم اعترافها بتبعيةها للخلافة العباسية؛ فى حين

(١) أنظر هذا الخطاب القلقشندى: صبح، ٦: ٥٢٦ - ٥٣٠، أبو شامة: الروضتين ٢: ١٧١ - ١٧٣، وأنظر رسالة أرسلها القاضى الفاضل للسلطان صلاح الدين بخصوص الخليفة الموحدى عند أبى شامة: الروضتين، ٢: ١٧٤ - ١٧٦ وأنظر: gaudfrey-Demombynes, M: "une lettre de saladin au

Calife Almohade" Mil. R. Basset II, 1925, pp. 279 - 304.

(٢) عن هذه السفارة أنظر سبط: مرآة، ٨: ٤٦٧، ابن واصل: مفرج، ٢: ٣٦١ - ٣٦٢.

(٣) أنظر قبله الفصل الخاص بالوضع السياسى والشرعى.

أعلنت الدولة الموحدية استقلالها بخلافة خاصة بها ، متوارثة في بني عبد المؤمن ، تتبنى دعوة إصلاحية سلفية مغايرة للدعوة العباسية ، الأمر الذى حال دون اتخاذ العالم الإسلامى ، لسياسة وخطة موحدة لجهاد هذه الأخطار الخارجية ، التى تهددته من جهة ديار الحرب .

الوضع الشرعى للسلطنة الأيوبية :

ولما كان منصب الخلافة ، هو الخاص بحماية أمور الدين والدنيا فى النظم الإسلامية لكون الإسلام دين ودولة ، فلقد استتبع هذا الوضع الشرعى الجديد لديار الإسلام ، بعد تفويض الخليفة مختاراً للصلاحيات ومسئوليات منصبه للسلطين السنيين ، دراسات فقهية مستفيضة ، قام بها مفكروا الدعوة الأشعرية السنية ، التى قام مفكروها بالتوجيه الفكرى والسياسى للعالم الإسلامى كله منذ منتصف القرن الخامس الهجرى^(١) .

وأهم ما يستلفتنا فى الفكر السياسى لمفكرى ودعاة الدعوة الأشعرية ، أنه يناقد تماماً الفكر السياسى للدعوة الإسماعيلية والفرع الفاطمى منها بصفة خاصة ، كما أنه يناقض جميع النظريات السياسية لمفكرى دعاة المذاهب الشيعية المختلفة بصفة عامة^(٢) ؛ وإن ظل الفكر السياسى للأشاعرة ، فى جوهره مطابقاً للفكر السياسى السنى ، كما عرضته كتب الأحكام السلطانية لفقهاء أهل السنة فى القرنين الثالث والرابع للهجرة^(٣) ؛ ولم يضيف فقهاء الدعوة الأشعرية على الفكر السياسى لأهل السنة إلا بعض الاجتهادات والتخرجات الفقهية أملتها الأوضاع السياسية والشرعية للعالم الإسلامى فى القرنين السادس والسابع الهجرى ، وكانت أهم هذه الاجتهادات لمفكرى الدعوة الأشعرية هى الخاصة بوظيفة « السلطنة » .

ويعد كل من إمام الحرمين الجوينى^(٤) ، وتلميذه أبى حامد الغزالى^(٥) ، أول من صاغوا الفكر السياسى للدعوة الأشعرية ، اعتماداً على الآراء التى كان قد أبدأها من قبل الإمام أبى الحسن الأشعرى مؤسس الدعوة ، ثم أبى بكر الباقلانى أضخم مفكريها بعد الأشعرى ؛ والواقع أن جميع من ألفت فى الفكر السياسى فى العصر الأيوبى وعلى رأسهم عبد الرحمن الشيزرى^(٦) ،

(١) انظر قبله الفصل الخاص بنشر الدعوة الأشعرية .

(٢) عن تناقض جوهر النظرية السياسية الشيعية مع النظرية السياسية لأهل السنة ، انظر قبله الفصل الخاص بالقضاء على الدعوة الإسماعيلية .

(٣) أنظر الجزء الثانى من كتابنا مصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر الأيوبى ، تحت الطبع إن شاء الله تعالى ، عند دراستنا للمؤلفات الخاصة بالأحكام السلطانية والسياسية الشرعية .

(٤) عنهما انظر قبله الفصل الخاص بالدعوة الأشعرية .

(٥) نفس المرجع عالى .

(٦) عنهم انظر الجزء الثانى من كتابنا مصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر الأيوبى ، تحت الطبع إن شاء الله تعالى .

وابن طلحة الدمشقي^(١) ، وخضر بن أبي بكر^(٢) أو في العصر المالكي وعلى رأسهم ابن جماعة^(٣) ، قاموا - وخاصة في الفصول التي عقدها لمناقشة الوضع الشرعي لمنصب « الخلافة » ، ولنصب « السلطنة » - بتلخيص آراء الجويني والغزالي في هاتين المسألتين .

لقد رفض الجويني رأى فرق الشيعة ، التي ذهبت إلى القول بأن النبي صلى الله عليه وسلم ، قد نص على ولاية علي ابن أبي طالب للخلافة من بعده ، وهو ما عرف عند الشيعة بـ « النص » ، أو « التنصيب »^(٤) ؛ كما رفض آراء جميع الفرق الإسلامية التي قالت بمبدأ النص حتى من خالف منهم الشيعة العلويين ، وذهب إلى القول بأن النبي ، قد نص على أبي بكر الصديق^(٥) ؛ بل رفض الجويني ، رأى الفرقة العباسية التي ادعت أن النبي قد نص على ولاية عمه العباس للخلافة من بعده^(٦) .

وأقام الجويني حجته على بطلان مذاهب أصحاب النصوص على أساس نقده لأسانيد الأحاديث النبوية التي استندت عليها الفرق الإسلامية ، التي اعتقت مبدأ « النص »^(٧) ، وعلى أساس شرحه للأحاديث النبوية التي أولها الشيعة للتدليل على أنه تشير إلى حق علي وإبنائه في ميراث النبوة والخلافة^(٨) ؛ وفي رأى الجويني أن يوم السقيفة أى اجتماع المسلمين فى سقيفة بنى ساعدة لمبايعة أبى بكر ، وما حدث من تناقض المهاجرين والأنصار على منصب الخلافة ، يؤكد عدم وجود نص عن النبي ، يحدد فيه خليفته ؛ ومن ثم فيوم السقيفة عند الجويني ، دليل قاطع على بطلان مذاهب أصحاب النصوص^(٩) ، أما الحججة الدامغة فى رأيه فهو أن هذا الخبر العظيم الخاص بميراث النبوة لا يمكن أن يخفى على عامة المسلمين وتنفرد به بعض الفرق الإسلامية^(١٠) .

(١) نفس المرجع عليه .

(٢) نفس المرجع عليه .

(٣) نفس المرجع عليه .

(٤) أنظر الجويني : غياث الأمم ، ص ١٩ ، وأنظر الغزالي : الاقتصاد فى الاعتقاد ؛ ص ١١٧ وأنظر قبله نقلاً عن فضائح الباطنية للغزالي ، أنظر الفصل الخاص بنشر الدعوة الأشعرية .

(٥) نفس المصدر ، ص ٢١ .

(٦) نفس المصدر ، ص ٢١ .

(٧) نفس المصدر ، ص ٢٢ .

(٨) نفس المصدر ، ص ٢٨ - ٣٢ .

(٩) نفس المصدر ، ص ٢٥ - ٢٧ .

(١٠) نفس المصدر ، ص ٢٤ - ٢٥ .

فالإمامة في رأى الجويني ، تثبت بالاختيار من أهل الحل والعقد لعدم وجود نص^(١) ، وخاصة لو أجمع أهل الحل والعقد على هذا الاختيار، لقول النبي لا تجتمع أمتي على ضلالة^(٢)؛ ولا بد من توافر شروط الإمامة فيمن يقوم بها ، وهى الشروط التى حددها فقهاء أهل السنة من قبل سواء الخاصة بسلامة الخواص^(٣) أو فيما يتعلق بسلامة الأعضاء^(٤) ، أو ما يرتبط بالصفات اللازمة مثل النسب القرشى والذكورة والحرية والعقل والبلوغ^(٥) ، أو فيما يتعلق بالفضائل المكتسبة مثل العلم والورع^(٦).

فالفكر السياسى الأشعرى إذًا كما عرضه الجوينى والغزالي ، يطابق الفكر السياسى السننى ، ويناقض الفكر السياسى الشيعى ؛ وهذا ما دعا كل من الجوينى^(٧) والغزالي^(٨) إلى توجيه عناية خاصة لدحض نظرية « عصمة الأئمة » ، التى اعتنتها فرق الشيعة .

وإذا كانت الأمة الإسلامية ، مجمعة على أن نصب « الإمام » ، واجب شرعًا ، بمعنى أن وجوب نصب الخليفة مستفاد من الشرع المنقول وليس من قضايا العقول^(٩) ، وذلك لكون الخليفة هو زعيم المسلمين وراعى شئون دينهم وديناهم ، والقائم على إقامة الدعوة الإسلامية^(١٠) ؛ ومع تأكيد الجوينى لهذه الحقائق الشرعية التى قررها فقهاء أهل السنة من قبل ، فقد عنى بالرد على الشيعة ودحض معتقدهم فى « النص » لقولهم بأن الإمامة موكولة إلى الله وليست إلى اختيار الرعية ؛ كما رفض الجوينى أيضًا قول الشيعة بعدم إمكان خلو الزمان من إمام قائم ، ولقد علل الجوينى رفضه على أساس أن الزمان يخلو من الأنبياء « فإذا جاز خلو الزمان عن نبي - وهو معصم دين الأمة - فلا بعد فى خلوه عن الأئمة »^(١١) .

(١) نفس المصدر ، ص ٣٤ ، ص ٤٣ ، وعن شروط أهل الحل والعقد وظروف عقد البيعة أنظر الجوينى : نفس المصدر ، ص ٤٦ - ٥٧ ، ويقول الجوينى فى غياث الأمم ص ١٩ " لو ثبت النص من الشارع على الإمام ، لم يشك مسلم فى وجوب الاتباع على الإجماع ، فإن بذل السمع والطاعة للنبي واجب باتفاق الجماعة ، وإن لم يصح النص ، فاختيار من هو من أهل الحل والعقد كاف فى النصب والإقامة وعقد الإمامة " .

(٢) الجوينى : نفس المصدر ، ص ٣٤ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٦٠ - ٦١ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٦١ - ٦٢ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٦٢ - ٦٥ .

(٦) نفس المصدر ، ص ٦٥ - ٦٩ .

(٧) نفس المصدر ، ص ٧٠ - ٧٤ .

(٨) أنظر الغزالي : الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١١٧ ، وأنظر قبله نقلًا عن فضائح الباطنية للغزالي ، أنظر الفصل الخاص بنشر الدعوة الأشعرية .

(٩) أنظر الجوينى : غياث الأمم ، ص ١٥ - ١٧ .

(١٠) يقول الجوينى : " الإمامة رياسة تامة ، وزعامة عامة ، تتعلق بالخاصة والعامة فى مهمات الدين والدنيا ، متضمنها حفظ الحوزة ورعاية الرعية ، وإقامة الدعوة بالهجة والسيف والانتصاف للمظلومين من الظالمين ، واستيفاء الحقوق من المعتدين وإيفاؤها على المستحقين ، أنظر غياث الأمم ، ص ١٥ .

(١١) أنظر الجوينى : غياث الأمم ، ص ١٧ - ١٨ .

وإذا كان الفكر السياسي الأشعري ، يرى منع نصب إمامين في وقت واحد ، لما في ذلك من انقسام للأمة الإسلامية^(١) ؛ فقد أجاز نصب إمام في القطر الذي لا يبلغه نظر الإمام ، خاصة إذا كان هذا القطر متداخلاً مع ديار الحرب ، أو تفصله عن ديار الإسلام بعض أقطار ديار الحرب^(٢) ؛ وفي هذا التخريج الفقهي ما ينسحب كما أسلفنا على الخلافة الموحدية التي أعلن بنو عبد المؤمن قيامها بالمغرب الأقصى ، وباشرت أحوال المسلمين في بلاد الأندلس ، إبان حركة الاسترداد المسيحي^(٣) .

ولما كان الهدف السياسي للدعوة الأشعرية ، جمع شمل المسلمين حول خلافة واحدة ، متناسقاً مع الهدف العقائدي لهذه الدعوة الساعى لجمع شمل المسلمين في مذهب كلامي وعقائدي واحد^(٤) ؛ فلقد قال الأشاعرة بمبدأ جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل ، على أساس أن التسليم بإمامة المفضول الذي تمت له البيعة يحسم الفتنة ، وعلى أساس أن المفضول في أغلب شروط الإمامة ، قد يكون أفضل من غيره في أمور الحرب التي قد تملئ ظروف ديار الإسلام أهميتها عن بقية شروط الإمامة مثل العلم والورع وغير ذلك ؛ وأن تحفظ الأشاعرة ، فقالوا أنه لو أمكن إقامة الأفضل دون إشعال فتنة ، لكان هو الأصلح للمسلمين^(٥) .

ولقد قسم الجويني نظر الإمام في أصل الدين إلى قسمين : الأول حفظ الدين بأقصى الوسع على المؤمنين ، عن طريق إرشاد أهل الزيغ والأهواء والبدع وغلاة الفرق الإسلامية ، إلى التزام جادة

(١) يقول الجويني : إذا تيسر نصب إمام واحد يطبق خطة الإسلام ، ويشمل الخليقة على تفاوت مراتبها في مشارق الأرض ومغاربها أثره ، تعين نصبه ولم يتبع والحالة هذه نصب إمامين ، وهذا متفق عليه لا يلقي فيه خلاف .. وقد تقرر من دين الأمة قاطبة أن الغرض من الإمامة جمع الآراء المشتتة .. وليس بالخافي على ذوى البصائر أن الدول إنما تضطرب بتحزب الأمر ، وتفرق الآراء .. ونظام الملك .. بالإذعان والإقرار ولدى رأى ثابت لا يستبد ولا يتفرد ، أنظر غياث الأمم ، ص ١٢٦ - ١٢٧ .

(٢) يقول الجويني : " والذي تباينت فيه المذاهب ، أن الحالة إذا كانت بحيث لا ينسبط رأى إمام واحد على الممالك ، وذلك يتصور بأسباب لا تغمض ، منها اتساع الخطة وانتسحاب الإسلام على أقطار متباينة ، وجزائر في لجج متقاذفة ، وقد يقع قوم من الناس نبذة من الدنيا ، لا ينتهي إليهم نظر الإمام ، وقد يتولج خطر من ديار الكفر بين خطة الإسلام ، ويتقطع بسبب ذلك نظر الإمام عن الذين وراءه من المسلمين ، فإذا اتفق ما ذكرناه ، فقد صار صانرون عند ذلك إلى تجويز نصب إمام في القطر الذي لا يبلغه اثر نظر الإمام ؛ وعزى هذا المذهب إلى شيخنا أبي الحسن (الأشعري) ، والأستاذ أبي إسحق الأسفراينى وغيرهما ، وابتغى هؤلاء مصلحة الخلق ، أنظر غياث الأمم ، ص ١٢٨ - ٣٢٩ .

(٣) أنظر قبله الفصل الخاص بالوضع السياسي والشرعى لمصر الأيوبية ، وأنظر أيضاً ما تقدم هنا في فصل السلطنة .

(٤) أنظر قبله الفصل الخاص بالدعوة الأشعرية السنية .

(٥) أنظر الجويني : غياث الأمم ، ص ١٢١ - ١٢٥ .

الدين القويم ، وإلزامهم بذلك قهراً إذا لزم الأمر^(١) ؛ والثاني السعى فى دعاء الكافرين إلى دين الإسلام ، أما بالحجة وإيضاح المحجة مثل إرسال السفراء والمرشدين إلى الأمم التى أبدت استعداداً لاعتناق الإسلام ، وإما عن طريق مقاتلتهم بحد السيف حتى يفتنوا إلى أمر الله^(٢) .

ثم أوضح كيف يرتبط إظهار شعائر الإسلام ، بنصب الإمام ، فأكد أولاً أن العبادات البدنية للفرد المسلم لا تتعلق صحتها بنظر الإمام^(٣) ، وإنما يرتبط بنظر الإمام ، ما يرتبط باجتماع عدد كبير وحجم غفير كالجمع والأعياد ومجامع الحجيج^(٤) .

ثم عدد مهام الإمام المتعلقة بأحكام الدنيا ، مثل الجهاد وحفظ ديار الإسلام بسد الثغور ، والقضاء على أهل البغى والصوص داخل ديار الإسلام ، وفصل الخصومات الشائنة بإنابة القضاة والحكام بنظرها ، وإقامة السياسات والعقوبات والحدود الزاجرة من ارتكاب الفواحش ، وتكفل ضعاف المسلمين ، وسد حاجات المحاييج ، لكون الإمام هو الولي على من لا ولى له ، وجباية الحقوق الشرعية وحفظ أصول أموال المسلمين ، وصرّفها فى أرجحها الشرعية^(٥) ؛ وبهذا ينهى الجوينى بسط الفكر السياسى للدعوة الأشعرية ، الخاص بموضوع الإمامة ، وهو فى هذا التناول يقصد منصب « الخلافة » .

وأغلب الظن أن الجوينى هو أول من ناقش الوضع الشرعى لمنصب « السلطنة » ، بين مفكرى الإسلام ، وكانت أبحاثه واجتهاداته فى الواقع مستمدة ومنصّبة على أوضاع السلطنة السلجوقية التى عاصرها ، وسيطرتها على الخلافة العباسية فى العراق ؛ وقد لخص هذه الأبحاث الخاصة بوظيفة السلطنة تلميذه الغزالي ، الذى دون مؤلفاته أيضاً فى العصر السلجوقى ، وعن الجوينى والغزالي ، لخص المفكرون والفقهاء فى العصرين الأيوبي والمماليكى الوضع الشرعى لوظيفة السلطنة .

نظر هؤلاء المفكرون السنيون إلى الأحوال السياسية والحربية للعالم الإسلامى ، فوجدوه قد طرأ عليه خطب جلل لم يتعرض له من قبل ، ومن ثم لم يطرحه الفقهاء من قبل للمناقشة ؛ هذا الخطب الجلل الطارئ ، هو الذى عبّر عنه الجوينى بالفرضية الفقهية التى طرحها بقوله : « إذا وطىء

(١) الجوينى : غياث الأمم ، ص ١٣٥ - ١٤٣ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٤٤ - ١٤٥ .

(٣) يريد الجوينى بهذه العبارة أن يشير إلى حقيقة أن الإسلام ليس له هيئة كهنوتية (إكليروس) . بعد الواسطة بين المتعبد والله .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٤٦ - ١٤٧ .

(٥) أنظر تفاصيل هذه المهام الموكلة للإمام والمتعلقة بأحكام الدنيا عن الجوينى ، غياث الأمم ، ص ١٤٨ - ١٩٠ .

الكفار ديار الإسلام»^(١)؛ وأغلب الظن أن هذا الظرف السياسي والحربي، كان في ذهن الجويني، حين دُلك على رأى الأشاعرة الخاص بجواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل، إذا ما توفرت في هذا المفضول الكفاءة الحربية التي تطلبتها ظروف العصر، رغم افتقاره لجميع الشروط الأخرى التي اشترط الفقهاء ضرورة توفرها في الإمام^(٢).

ولعل هذا الوضع السياسي والحربي الطارئ، هو الذى أمله على الجويني، أفراد الباب التالى، من فصول كتابه الثلاث، لمناقشة الأوضاع والافتراضات الشرعية الخاصة بوظيفة السلطنة، وقد عنون هذا الباب بعنوان: «القول فى خلو الزمان عن الإمام»^(٣)؛ فناقش فيه أولاً جواز تنصيب إمام لا تتوفر فيه أهم شروط الإمامة، مثل الانتساب القرشى، أو العلم بالشرع أو الورع، وأقر بجواز ذلك على أساس أن تعطيل الممالك عن راع يرعاها، ووال يتولاها، عظيم الأثر والموقع فى انحلال الأمور، وتعطيل الثغور^(٤)؛ وتنى بمناقشة «القول فى ظهور مستعد بالشوكة مستول»^(٥)، يقصد إذا ما استولى أحد الكفاة الشجعان من لا تتوفر فيه شروط الإمامة على السلطنة الزمنية قهراً، وكان له من الأتباع من كفّل له الأمر، فاستجاب له الناس، وأقر الجويني أيضاً بجواز إمامة هذا المستولى على الأمر قهراً، معللاً ذلك بأنه «إن لم يكن فى الزمان من يستجمع صفات أهل الاختيار.. وكان الداعى إلى اتباعه على الكمال المرعى، فإذا استظهر بالقوة، وتصدى للإمامة، كان إماماً حقاً.. وقد خلا الدهر عن أهل الحل والعقد، فلا وجه لتعطيل الزمان عن وال يذب عن بيضة الإسلام ويحمى الحوزة»^(٦).

وتأسيساً على أبحاث الجويني بصدد وظيفة السلطنة، التى نظر إليها الجويني على أساس أنها الاعتراف بشرعية إمامة الكفاة الشجعان من أولى الشهامة والنجدة، القادرين على حماية حوزة

(١) الجويني: غياث الأمم، ص ١٩١ - ١٩٢.

(٢) يقول الجويني: ولو كان أحدهما ألقه، والثانى أعرف بتجنيد الجنود، وعقد الألوية والبنود، وجر العساكر.. فينظر ذو الرأى إلى حكم الوقت، فإن كان أكناف خطة الإسلام إلى الاستقامة،.. ولكن ثارت بدع وأهواء.. والحاجة ماسة إلى من يسوس الأمور الدينية.. فالأعلم أولى، وإن تصورت الأمور على الضد مما ذكرناه، ومست الحاجة إلى شهامة وصرامة.. فالأشهم أولى بأن يقدم، أنظر غياث الأمم، ص ١٢٥.

(٣) الجويني: غياث الأمم، ص ٢٢٥.

(٤) أنظر الجويني: غياث الأمم، ص ٢٢٥ - ٢٣٠، وخاصة ص ٢٢٨، ص ٧ - ٨.

(٥) الجويني: غياث الأمم، ص ٢٣١.

(٦) الجويني: غياث الأمم، ص ٢٣٢.

الإسلام ، حتى لو لم تتوفر فيه شروط الإمامة ؛ فَرَّقَ الغزالي بين منصبى « الخلافة » و « السلطنة » ، إذ أن الخلافة كما أوضح الغزالي ، واجبه شرعاً فى حين أن السلطنة يُحتم وجودها المنطق السليم ، لأن أمور الدنيا والدين لا تستقيم فى رأى الغزالي ، إلا بسلطان مطاع^(١) ؛ وهو يقرر شرعية وظيفة السلطنة ، رغم عدم توفر شروط الإمامة والقائمين بها على أساس المبدأ القائل بأن الضرورات تبيح المحظورات ، لأن خلو الزمان من أى إمام قائم معناه عزل الولايات والوظائف الشرعية ، وإبطال جميع العقود الشرعية فى ديار الإسلام^(٢) .

وهنا لا يسعنا إلا أن نحى فقهاء الإسلام ، على جرأتهم بالتصريح فى وقت سيطر فيه على السلطة الزمنية السلاطين المتغلبون على الخلافة ، والذين لا تتوفر فيهم شروط الإمامة ، الشرعية وأهمها النسب القرشى ، بأن السلطنة وضعا شرعياً استثنائياً ، أملاه الأمر الواقع ، على أساس أن الضرورات تبيح المحظورات .

ونفس هذه الجراءة والشجاعة نجدها عند فقهاء الإسلام فى العصور المتأخرة ، وعلى رأسهم ابن خلدون حين دللوا على أن « الخلافة » قد انقلبت إلى « ملك » وظهرت إرهابات هذا الانقلاب منذ العصر الأموى ، حين استندت على « العصبية » ، وان استمر الدين وإقامة شعائره هو الوازع للملك ، ثم اتخذ خلفاء بنى أمية وبنى العباس رسوم الملك والترف والأبهة ؛ ثم ذهب رسم الخلافة وأثرها بذهاب عصبية العرب وبقي الأمر ملكاً مجتاً كما كان الشأن فى ملوك العجم بالمشرق ، والمقصود بالعجم البويهيين الفرس ، والسلاجقة الترك ، يدينون بطاعة الخليفة تبرئاً والملك بجميع ألقابه ومناحيه لهم وليس للخليفة منه شىء ؛ أى أن الملك قد انفرد عن الخلافة ، حيث افتقرت

(١) الغزالي : الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١١٤ ، وانظر الشيزرى : المنهج المسلوك ، ص ٧ - ٨ ، ابن طلحة : العقد الفريد ، ص ٣٤ - ٣٥ ، الحسن بن عبد الله : أثار الأول ، ص ١١ - ١٣ ، خضر بن أبى بكر : المناقب المعزية ، ق ٢٥ - ٢٧ .

(٢) يقول الغزالي : ليست هذه مسامحة عن الاختيار ، ولكن الضرورات تبيح المحظورات ، فنحن نعلم أن تناول الميتة محظور ، ولكن الموت أشد منه ، فليست شعري ، من لا يساعد على هذا ، ويقضى ببطان الإمامة فى عصرنا لفوات شروطها ، وهو عاجز عن الاستبدال بالتصدي لها ، بل هو فاقد للمتصف بشروطها ، فأى أحواله أحسن ، أن يقول القضاة معزولون والولايات باطلة والانكحة غير منعقدة ، وجميع تصرفات الولاية فى أقطار العالم غير نافذة ، وإنما الخلق كلهم مقدمون على الحرام ، أو أن يقول : الإمامة منعقدة ، والتصرفات والولايات نافذة بحكم الحال والاضطرار ، الغزالي : الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١١٦ .

عصيته عن عصبية الخلافة^(١) ، لكون السلاطين أعاجم والخلفاء عرب .

وليس خافيًا ، أن ما عبر عنه ابن خلدون بافتراق عصبية الملك عن عصبية الخلافة ، يشير إلى استحواز السلاطين الأعاجم على السلطة الزمنية والألقاب الخلافتية ؛ وكلمة الأعاجم تنسحب على البويهيين الفرس ، والسلاجقة الترك ، والأيوبيين الكرد ، ومن بعدهم العثمانيين الترك^(٢) .

وتأثرًا برأى الغزالي ، في أن وجود السلطنة ضرورة منطقية ، قرر الشيزري ، المفكر السياسي للدولة البويبية أن الملك هو القاعدة التي يبنى عليها المملكة ، أما الأساس الحامل للملكة فهو الدين^(٣) ؛ في حين ذهب ابن طلحة إلى القول : السلطنة أمر من أمرار الربوبية يناط بها العباد ويحفظ بها البلاد ، ويقطع بها العناد .. فالسلطان في الحقيقة قائم برعاية عباد الله ، وحماية بلاد الله ، وحراسة دين الله ، وإقامة حدود الله ، وحفظ أحكام الله ، قد ارتضاه الله من خليقته ، وأمرهم بطاعته .. وهو باتفاق ظل الله في أرضه ، وبه يقام شعائر سنته وفرضه .. ، وثمره السلطنة ، حراسة البلاد وسلامة النفوس

(١) أوضح هذا الرأي الخاص بانقلاب الخلافة إلى ملك ابن خلدون ، أنظر المقدمة ، الفصل الثامن والعشرون ، بعنوان " انقلاب الخلافة إلى ملك " ، ص ٢٠٢ - ٢٠٨ وأغلب تعابير الفقرة السابقة مأخوذة عن نفس تعابير ابن خلدون ، وهاك نص ابن خلدون بتمامه لأهنيته ، يقول ابن خلدون بعد أن دلت على تطور ظاهرة انقلاب الخلافة إلى ملك ، منذ أن ظهرت ارهاصاتها في عصر خلافة بنى أمية ، إلى أن اكتملت جميع خصائصها بسيطرة البويهيين على الخليفة العباسي في بغداد ، واستبدادهم بالسلطة الزمنية دونه : " فقد رأيت كيف صار الأمر إلى الملك ، وبقيت معاني الخلافة من تحرى الدين ومذاهبه ، والجرى على منهاج الحق ، ولم يظهر التغير إلا في الوازع ، الذي كان دينًا ثم انقلب عصبية وسيفًا ، وهكذا كان الأمر بعهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك والصدر الأول من خلفاء بنى العباسي إلى الرشيد وبعض ولده ، ثم ذهبت معاني الخلافة ولم يبق إلا اسمها ، وصار الأمر ملكًا بحتًا ، وجرت طبيعة التغلب إلى غايتها ، واستعملت في أغراضها من القهر والتقلب في الشهور والملاذ ، وهكذا كان الأمر لولد عبد الملك ولبن جاء بعد الرشيد من بنى العباس ، واسم الخلافة باقيا فيهم لبقاء عصبية العرب ، والخلافة والملك في الطورين ملتبس بعضهما ببعض ، ثم ذهب رسم الخلافة وأثرها بذهاب عصبية العرب وفناء جيلهم وتلاشي أحوالهم ، وبقي الأمر ملكًا بحتًا ، كما كان الشأن في ملك العجم بالشرق ، يدينون بطاعة الخليفة تبركًا ، والملك بجميع ألقابه ومناحيه لهم ، وليس للخليفة منه شيء ، وكذلك فعل ملوك زناته بالمغرب مثل صنهاده مع العبيدين ، ومغراوة وبني يفرن أيضًا مع خلفاء بنى أمية بالأندلس ، والعبيدين بالقيروان ، فقد تبين أن الخلافة قد وجدت بدون الملك أولًا ، ثم التقت معانيهما واختلطت ، ثم انفرد الملك حيث انفردت عصبية من عصبية الخلافة " . (ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٠٨ ، ص ١٢ - ص ٢٥) . وأنظر فصلاً هامًا أورده السيوطي ، بعنوان " ذكر الفرق بين الخلافة والملك والسلطنة من حيث الشرع " أنظر السيوطي : حسن المحاضرة ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، ج ٢ ، ص ١٢٥ - ١٢٦ .

(٢) أنظر قبله : الفصل الخاص بالوضع السياسي والشرعي لمصر الأيوبية ، الفقرة الخاصة بالسلطنة العامة .

(٣) أنظر الشيزري : المنهج السلوك في سياسة الملوك ، ص ١٤ - ص ٢٠ ، وأنظر أيضًا الحسن بن عبد الله : آثار الأول في تراتيب الأول ، ص ١١ - ١٣ ، الباب الأول : في فضل الملك وشرفه والحاجة الداعية إليه .

وحفظ الأموال ، وإدراك الأرزاق ، وإقامة المعاش ، ونشر العلم ، وإظهار الدين ، وذلك بقمع الظلمة ، وردع البغاة ، .. فتأمين السبل وتوفر الدواعي على مصالح الدين والدنيا ، فأى منقبة أنفع .. وأى مرتبة أجمع للمزايا ، وأشمل من حاله بها انتظام مصالح الدنيا ، وهى قوام الآخرة والأولى^(١) .

وكان أكثر الفقهاء وضوحاً فى رأينا ، عند عرضه للوضع الشرعى لوظيفة السلطنة ، الفقيه ابن جماعة فى كتابه « تحرير الأحكام فى تدبير أهل الإسلام » الذى ألفه فى العصر المملوكى فقال : إذ فوض الخليفة إلى رجل ولاية إقليم أو بلد أو عمل ، فإن كان تفويضاً خاصاً بعمل خاص ، لم يكن له الولاية فى غيره ، كما إذا ولاه الجيش دون الأموال ، أو الأموال دون الأحكام والحكام (أى القضاء) ونحو ذلك ، وإن كان تفويضاً عاماً كعرف الملوك والسلاطين فى زماننا جاز له تقليد القضاة والولاية وتدبير الجيوش ، واستيفاء الأموال من جميع جهاتها و صرفها فى مصارفها ، وقتال المشركين والمحاربين ، ولا ينظر فى غير الإقليم الموقوض إليه ، لأن ولايته خاصة ، وتعتبر فى السلطان المتولى من جهة الخليفة ما يعتبر فيه خلا النسب لأنه قائم مقامه .. ؛ وإذا استولى ملك بالقوة والقهر والشوكة على بلاد ، فينبغى الخليفة أن يفوض أمورها إليه استعداداً لطاعته ، ودفعاً لمشاqqته ، وخوفاً من اختلاف الكلمة وشق عصا الأمة ، فيصير بذلك التفويض صحيح الولاية ، نافذ الأحكام ، فإن لم يكن أهلاً لذلك لفقد الصفات المعتبرة ، جاز للخليفة إظهار تقليده لما ذكرناه من المصالح^(٢) .

ثم أوضح ابن جماعة حقيقة هامة خاصة بنظم الحكم والإدارة ، فى الدول التى تمثل السلطنة القاعدة الأساسية لنظمها ، وهى ضرورة اختيار وزيراً للسلطان الذى لا تتوفر فيه شروط الإمامة وخاصة الخاصة بالعلم والشرع ، ممن تتوفر فيه هذه الشروط التى تعوز السلطان ؛ وهذا فى رأينا تعليل كون وزراء جميع سلاطين الإسلام من أرباب الأقاليم ، ووزراء تنفيذ^(٣) ، فىقول ابن جماعة : وينبغى أن يعين له نائباً أهلاً لتقليد الولاية ، ينفذ الأمور لتكون صفات النائب حائزة لما فات من صفات المستولى قهراً ، فتتظم المصالح الدينية والدينية^(٤) ؛ وهذه الفكرة قد عبّر عنها من قبل الجوينى^(٥) .

(١) أنظر ابن طلحة : العقد الفريد للملك السعيد ص ١٣٣-١٤٢ ، وقارن الغزالي : الاقتصاد فى الاعتقاد ، ص ١١٤ ، فمن هذه المقارنة يتضح إلى أى مدى تأثر ابن طلحة بعبارات ومعانى الغزالي بخصوص وظيفة السلطنة .

(٢) ابن جماعة : تحرير الأحكام ، ح ، ورقة ١١ - ١٢ .

(٣) أنظر بعده الفصل الخاص بالوزارة الأيوبية .

(٤) ابن جماعة : المصدر السابق ، ورقة ١٢ .

(٥) يقول الجوينى : إذا كان سلطان الزمان لم يبلغ مبلغ الاجتهاد ، فالتبوعون العلماء والسلطان نجدتهم وشوكتهم وقوتهم .. ، فعالم الزمان فى المقصود الذى نحاوله ، كسبى الزمان ، والسلطان مع العالم ، كملك فى زمان النبى ، مأمور بالانتهاء إلى ما ينهيه إليه النبى " أنظر الجوينى : غياث الأمم ، ص ٢٧٥ .

الفصل السابع

القدس

بين الفتح العُمري سنة ١٥ هـ ، والفتح الصلاحي سنة ٥٨٣ هـ ،

والفتح الناصري الداوادي سنة ٦٣٧ هـ ، والفتح الصالحى النجمى سنة ٦٤٢ هـ .

الفتح العُمريّ للقدس سنة ١٥هـ

تنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلمين بفتحهم القدس بعد وفاته صلى الله عليه وسلم إذ روى عن الصحابي عوف بن مالك رضى الله عنه ، أنه قال : أتيتُ النبي صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك (٩هـ) ، وهو فى قبة من آدم ، فقال لى : يا عوف أعدد ستاً بين يدى الساعة ، موتى ، ثم فتح بيت المقدس ؛ وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لشداد بن أوس - رضى الله عنه - : ألا أن الشام ستفتح ، وبيت المقدس سيفتح إن شاء الله تعالى ، وتكون أنت وولدك من بعدك أئمة بها إن شاء الله تعالى . وهذا ما تم بالفعل^(١) ، وقد شهد شداد بن أوس فتح القدس وتوفى بها وقبره بها معروف مزار رآه وزارة الرحالة المقدسى البشارى صاحب كتاب أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم^(٢) .

وفى العام الثانى من خلافة الخليفة الراشد أبو بكر الصديق أول خلفاء الإسلام ، عقد رضى الله عنه أربعة ألوية وسببها لفتح بلاد الشام ، ووجه كل لواء منها وعليه أمير إلى أحد الأقسام الإدارية الأربعة لبلاد الشام ، حسب التقسيم الإدارى والحربى للروم ، وكان عقدة رضى الله عنه لهذه الألوية يوم الخميس لمستهل صفر سنة ١٣ هـ ؛ فسبّر لواء عمرو بن العاص رضى الله عنه إلى أرض فلسطين ، وأمره بفتحها ، ثم التحرك منها إلى مصر لاستكمال فتوح الشام ومصر ؛ وسبّر لواء شرحبيل ابن حسنة رضى الله عنه ، لفتح أرض الأردن ؛ ولواء يزيد بن أبى سفيان رضى الله عنه - وقيل خالد بن سعيد بن العاصى - لفتح دمشق وأرضها وساحل لبنان ؛ وجعل القيادة العامة لأبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنه أمين الأمة ، وجعل له إمامة الصلاة ، إذ جمعت هذه الألوية الأربعة ؛ وجعل القيادة العامة فى المعارك الكبرى ، للأمير التى تقع المعركة فى القسم الذى وجه إليه من أقسام الشام ؛ أما إذا اجتمعت الألوية الأربعة فى معركة كبرى ، فالقيادة العامة لأبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنه ، وأمر أبو بكر رضى الله عنه عمرو بن العاص أن يسلك طريق أيله عامداً لفلسطين ، وأمر يزيد أن يسلك طريق تبوك ، وكتب إلى شرحبيل أن يسلك أيضاً طريق تبوك^(٣) .

(١) أنظر مجير الدين الحنبلى : الأئس الجليل فى تاريخ القدس والخليل ، مكتبة المحتسب ، عمّان - الأردن ، د.ت. ، ١ : ٢٤٤ - ٢٤٥ ؛ وفيه نصّ حديث عوف بن مالك برواية أخرى مطولة .

وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا معاذ إن الله عزّ وجلّ سيفتح عليكم الشام من بَعْدَى / من العريش إلى الفرات ، رجالهم ونساؤهم وإماؤهم مرابطون إلى يوم القيامة ، فمن اختار منكم ساحلاً من سواحل الشام أو بيت المقدس ، فهو فى جهاد إلى يوم القيامة » . أنظر مجير الدين الحنبلى : الأئس الجليل ١ : ٢٦٦ - ٢٢٨ .

(٢) أنظر المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ١٧١ - ١٧٢ .

(٣) أنظر البلاذرى : فتوح البلدان ، ١٢٨ - ١٢٩ ، مجير ٣٠٢ - ٣٠٤ ؛ أبو يوسف : كتاب الجراح ، ص ٤٢ - ٤٣ ؛ ابن شيخ الربوة الدمشقى : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، طبع ليبسك ١٩٢٣ م ، ص ١٩٢ ؛ الأزدي : فتوح الشام ، ص ١ - ٥٠ .

وشهدت أرض فلسطين والأردن المعارك الكبرى التي نصرَ الله فيها المسلمين على الروم ؛ أولها معركة دائن - وهي قرية من قرى غزّة - سنة ١٢ هـ ، وتولى قيادة جيش الروم بطريق - أى والى - غزّة ، وتولى قيادة جيش المسلمين عمرو بن العاص رضى الله عنه ؛ وثانيها معركة وادى عربة - وهو وادى معروف إلى اليوم بأرض فلسطين^(١) ؛ ثم كتب الخليفة الراشد أبو بكر الصديق رضى الله عنه إلى خالد بن الوليد رضى الله عنه قائد فتوح الإسلام ببلاد العراق ، يأمره بترك العراق ، والقُدوم إلى الشام مع أهل القوة من أصحابه ، للإضمام إلى جيوش المسلمين ببلاد الشام على أن تكون له القيادة العامة لألوية الشام^(٢) ، فمضى مسرعًا حتى انضم إليهم أمام دمشق ، وتم فتح مدينة بصرى من أرض دمشق ، ومدينة مآب من أرض البلقاء^(٣) ؛ ثم توالى انتصارات المسلمين على جيوش الروم بأرض فلسطين والأردن ، فتمت معركة أجنادين بأرض فلسطين يوم الإثنين ١٢ جمادى الأولى سنة ١٣ هـ^(٤) ، ومعركة فحل بأرض الأردن فى ٢٨ ذى القعدة سنة ١٣ هـ^(٥) ، ومعركة اليرموك بأرض الأردن فى رجب سنة ١٥ هـ^(٦) .

وقد توفى أبو بكر الصديق رضى الله عنه لثمان ليال بقين من جمادى الآخرة سنة ١٣ هـ ، وبويع عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالخلافة فى اليوم الذى مات فيه أبو بكر ؛ فكان أول شئ أمر به أن عزّل خالد بن الوليد عن الإمرة ، وولى أبا عبيدة بن الجراح على الجيش والشام ؛ وأرسل بذلك إليهما ؛ فقصدا دمشق وحاصراها حتى فتحت ، وبعث أبو عبيدة ببشارة الفتح إلى عمرو ؛ ثم بعد دمشق بيسير تم فتح حصص بعد حصار طويل ، ثم فتح حمص صلحًا ، وكذلك المعرة ، ثم فتح اللاذقية عنوة ؛ وفتح جبله وأنطرسوس ، ثم فتح حلب وأنطاكية ، وفتح بلادًا أخرى منها : قيسارية وسبسطيه

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ، ١ : ١٢٩ - ١٣٠ خبر ٣٠٥ - ٣٠٨ ؛ الأزدي : فتوح الشام ، ص ٣٨ ، و ص ٥٢ .

(٢) البلاذرى : نفس المصدر ١ : ١٣١ - ١٣٣ ؛ الأزدي : فتوح الشام ، ص ٦٨ - ٨٠ .

(٣) البلاذرى : نفس المصدر ١ : ١٣٤ خبر ٣١٢ - ٣١٣ ؛ الأزدي : فتوح الشام ، ص ٨١ - ٨٦ ، و ص ٢٩ .

(٤) البلاذرى : نفس المصدر ١ : ١٣٥ - ١٣٦ ؛ الأزدي : فتوح الشام ص ٨٧ - ٩٣ .

(٥) البلاذرى : نفس المصدر ١ : ١٣٧ ؛ الأزدي : فتوح الشام ص ١١١ - ١١٤ .

(٦) البلاذرى : نفس المصدر ١ : ١٦٠ - ١٦٣ ؛ الأزدي : فتوح الشام ، ص ١٨٠ - ٢٤٥ .

- من أرض فلسطين ، ويُقال أن بها قبر يحيى وزكريا عليهما السلام - ونابلس ولُدّ ويافا ، وتلك البلاد جميعها ، حتى دخلت سنة ١٥ هـ^(١) :

وبعد أن أتم المسلمون فتح حصص العاصمة السياسية للروم ببلاد الشام ، سار أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه لفتح إيلياء (القدس) العاصمة الدينية للروم ، فسار رضى الله عنه حتى الأردن ، فعسكر بها ، وبعث الرسل إلى أهل إيلياء ، يدعوهم إلى الإسلام ، ويخبرهم بين الإسلام أو الجزية أو القتال ، وكتب بذلك إلى عمر رضى الله عنه ؛ وانتظر أبو عبيدة أهل إيلياء ، فأبوا أن يأتوه وأن يصالحوه ، فأقبل سائراً إليهم حتى نزل بهم ، وحاصرهم حصاراً شديداً وضيق عليهم ، وأوجب على نفسه أنه غير مقلع عنهم ؛ فلما لم يجدوا لهم طاقة بحربه ، قالوا : نصلحك ، قال : وإني قابل منكم ، قالوا : فأرسل إلى خليفتكم ، فيكون هو الذى يعطينا هذا العهد ، ويكتب لنا الأمان ، فقبل أبو عبيدة ذلك ، وكتب إلى عمر رضى الله عنه : « آخذنا عليهم الموائيق المغلظة بأيمانهم ، ليقبلن ويؤدّون الجزية ، وليدخلن فيما دخل فيه أهل الذمة ، ففعلوا ؛ فإن رأيت أن تقدم فأفعل ، فإن فى سيرك أجراً وصلاًحاً »^(٢) .

(١) البلاذرى : نفس المصدر ١ : ١٣٨ - ١٤٠ (أمر الأردن) . وفيه : " الفتح شرح جليل بن حسنة الأردن غنوة ، ما خلاطرية فإن أهلها صالحوه على أنصاف منازلهم وكنائسهم " . ١ : ١٤٤ - ١٥٤ (فتح مدينة دمشق وأرضها) ١٦ محرم سنة ١٤ هـ ، ١ : ١٥٥ - ١٥٩ (أمر حمص) سنة ١٤ هـ ؛ ١ : ١٦٤ - ١٧١ (أمر فلسطين) ؛ ١ : ١٧٢ - ١٨٠ (أمر جندق قيسرين والمدن التى تدعى العواصم) = فتح حمص - فتح حلب - فتح أنطاكية ، الأزدي : فتوح الشام ص ٩٨ - ٩٩ (وفاة أبى بكر رضى الله عنه ، واستخلاف عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وعزله خالد) ؛ ص ١٠٤ - ١١٠ (فتح دمشق وصلحها) ؛ ص ١١١ - ١٤٢ (وقعه فُجَل وأمر الأردن) ؛ ص ١٤٣ - ١٤٦ (فتح حمص) ؛ ص ١٤٦ - ١٤٩ (فتح حلب) ؛ ص ١٤٩ - ١٥٨ (فتح أنطاكية) ؛ ص ١٥٩ - ١٧٥ ، ص ٢٤٢ - ٢٤٥ ، فتح أرض فلسطين ومدينة أبله ، ومدينة إيلياء (القدس) ، ص ٢٤٦ - ٢٧٦ (قصة صلح إيلياء) ، ص ٢٧٦ - ٢٨٣ (فتح قيسارية من أرض فلسطين) ؛ مجير الدين الحنبلى : الأئس الجليل ١ : ٢٤٦ - ٢٤٧ .

(٢) الأزدي : فتوح الشام ، ص ١٥٩ - ١٧٠ ، ص ٢٤٢ - ٢٤٥ (وفيه نصوص المكاتبات المتبادلة بين أبى عبيدة بن الجراح وعمر بن الخطاب ، وتبين أبى عبيدة بن الجراح وأهل إيلياء) ؛ البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٦٤ - ١٦٥ ، خبر ٣٦٩ - ٣٧١ (أمر فلسطين) ؛ الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر ، ٣ : ٦٠٣ - ٦٠٤ ، حوادث سنة ١٥ هـ (ذكر فتح قيسارية وخضر غزة وفتحها) ، ٣ : ٦٠٤ - ٦٠٧ (ذكر فتح بيسان ووقعة أجنادين) - ٣ : ٦١٣ ، حوادث سنة ١٥ هـ (ذكر فتح بيت المقدس) ؛ مجير الدين الحنبلى : الأئس الجليل ١ : ٢٤٧ - ٢٥٠ (ذكر الفتح العمرى لبيت المقدس) .

فاستخلف عمر رضى الله عنه على المدينة على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وقدم إلى الجلبية - وهى من ضواحي دمشق - ، وقدم بها عليه أهل إيلياء^(١) ؛ وكتب لهم فيها الصلح ، لكل كورة كتابًا واحدًا ، ما خلا أهل إيلياء خصّهم بكتاب مفرد ، نظرًا لخصوصية مدينتهم وقداستها عند جميع أهل الأديان السماوية ؛ وكتب لأهل مدينة لُدّ ، العاصمة السياسية والإدارية لفلسطين فى المصطلح الإدارى السياسى الرومى البيزنطى ، كتاب صلح شامل ، لجميع أهل المدن والكور الفلسطينية وجميع أهل فلسطين^(٢) .

وكتب عمر رضى الله عنه بالجلبية أيضًا ، كتاب صلح لجميع نصارى أهل الشام ، تضمن الشروط العمرية الخاصة بأهل الذمة فى الإسلام ، وتأمينهم على أنفسهم ونسائهم وأولادهم وأموالهم وأراضهم وكنائسهم ، نظير أدائهم الجزية لبيت مال المسلمين ، والاشتراط عليهم استضافة من ينزل بهم من المسلمين أو جيوش الإسلام ثلاث ليال ، وعدم استخدام أى دير أو كنيسة أو قلاية أو صومعة راهب فى مدن المسلمين التى اختطها المسلمون ؛ ولا يواروا فى كنائسهم جاسوسًا ، ولا يعلموا أولادهم القرآن ، ولا يمنعوا أحدًا من ذوى قرباهم الدخول فى الإسلام ، ولا يتخذوا شيئًا من السلاح ، ولا يبيعون الخمر أو يظهرون الصليب على كنائسهم ، ولا يضروا بأحد من المسلمين . وقد اعتمد أئمة الإسلام هذه الشروط ، وعمل بها الخلفاء الراشدون^(٣) ؛ وهى شروط ضمنت حماية أهل الذمة ، وتأمينهم ومنحتهم حقوق المواطنة المدنية والقضائية فى دولة الإسلام من ناحية ؛ واقتضتها دواعى الأمن القومى والحربى من ناحية ثانية فى بداية عصر الفتوحات الإسلامية ودواعى احتفاظ المجتمعات الإسلامية بخصائصها وشرائعها ومكارم أخلاقها ، لكونها خير أمة أخرجت للناس من ناحية ثالثة ؛ ويتجلى هذا من الشروط العمرية التى ألزمت أهل الذمة مغايرة المسلمين فى النزي والهيئة ، حتى لا يُنسب إلى أمة الإسلام من ليس منها ، وتصبح الأمة الإسلامية مسؤولة عن سلوكه وتصرفاته .

(١) أنظر الأزدي : فوح الشام ، ص ٢٤٦ - ٢٥١ (قصة صلح إيلياء وقدم عمر رضى الله عنه بالشام) ، ص ٢٥١ - ٢٥٢ (خطبة عمر رضى الله عنه بالجلبية) ؛ الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ٣ : ٦٠٨ ، حوادث سنة ١٥هـ ؛ مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل ١ : ٢٥٠ - ٢٥٣ .

(٢) أنظر الأزدي : فوح الشام ، ص ٢٥٢ - ٢٥٩ ، ص ٢٦٢ - ٢٦٦ ؛ الطبرى : تاريخ الرسل ٣ : ٦٠٧ - ٦١٠ ، حوادث سنة ١٥هـ (ذكر فتح بيت المقدس) ، وخاصة ص ٦٠٨ - ٦٠٩ ، حيث يذكر نص وثيقتى صلح وعهد عمر بن الخطاب لأهل إيلياء ، ولأهل اللد وفلسطين ؛ مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل ١ : ٢٥٣ - ٢٥٤ (حيث يورد نص وثيقة صلح وعهد عمر بن الخطاب لأهل إيلياء) .

(٣) مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل ١ : ٢٥٤ - ٢٥٥ .

ولما قدم الخليفة الراشد عمر بن الخطاب بنفسه إلى القدس بعد أن فتحها الله على الإسلام والمسلمين سنة ١٥ هـ ، ومنح أهلها عهد وعقد وأمان صلحهم وذمتهم ، وهى المرة الوحيدة التى خرج فيها رضى الله عنه من بلاد الحجاز أيام خلافته ؛ قام رضى الله عنه بنفسه ببحث وتحقيق أثرى ، لتحديد موضع مسجد داود ؛ وهو يقصد - كما أفاد الطبرى وابن فضل الله العُمري والقلقشندي ومجير الدين الحنبلى - موضع المكان الذى صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأنبياء ليلة الإسراء والمعراج ، وهو كائن بالقرب من الصخرة المقدسة ، فى صدر حرم المسجد الأقصى ، على سمة القبلة إلى المسجد الحرام (الكعبة)؛ وقد اهتمدى عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى هذا التحقيق ، وهذا القول الفصل فى هذه المسألة الدينية التاريخية الأثرية الهامة ، فى ضوء الأحاديث النبوية الواردة فى هذا الشأن ، والخاصة بمعجزة الإسراء والمعراج ، وفى ضوء السنة وهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بناء المسجد الجامع النبوى بالمدينة المنورة فى جعل القبلة فى صدور الجوامع ، وهو ما استن به المسلمون فى جميع الجوامع التى أقاموها بعد ذلك فى جميع الأمصار الإسلامية ؛ وفى ضوء مجادلة بطريك القدس - أى وإيها من قبل الروم - ، وكعب الأبحار كبير أبحار اليهود بالشام ، وكان قد دخل فى الإسلام مع بواكير الفتح الإسلامى للديار الشامية .

ويقول مجير الدين الحنبلى مفصلاً قصة البحث والتحقيق الأثرى الذى قام به الفاروق رضى الله عنه ، لتحديد موضع مسجد داود ، واتجاه سمة قبلة المسجد الأقصى : « لما قدم عمر بن الخطاب رضى الله عنه بيت المقدس ، نزل على الجبل الشرقى ، وهو طور زيتا . وأتى رسل بطريكها إليه بالترحيب ، وقال : إنا سنعطى بحضورك ما لم تكن نعطيه لأحد دونك ، وسأله أن يقبل منه الصلح والجزية ، وأن يعطيه الأمان على دمايتهم وأموالهم وكنائسهم ، فأنعم عليه عمر بذلك . فسأله الرسول الأمان لصاحبه ، ليتولى مصالحته ومكاتبته ، فأنعم ؛ وخرج إليه بطريكها فى جماعة ، فصالحهم وأشهد على ذلك .

والبطريق هو الأمير ، وأما البطرك فهو الكاهن ؛ وكان اسم البطرك يوم ذلك صفريوس ، وكان قد أخبر النصارى أن الله يفتح البيت المقدس على يد عمر من غير قتال .

فلما فرغ عمر من كتاب الصلح بينه وبين أهل بيت المقدس ، قال لبطريقها : دلتى على مسجد داود ، قال : نعم . وخرج عمر مقلداً بسيفه فى أربعة آلاف من الصحابة الذين قدموا معه متقلدين بسيوفهم ، وطائفة ممن كان عليها ليس عليهم من السلاح إلى السيوف ، والبطريق بين يدي عمر فى أصحابه حتى دخلوا بيت المقدس ، فأدخلهم الكنيسة التى يقال لها القمامة ، وقال : هذا مسجد داود . فنظر عمر وتأمل ، وقال له : كذبت ، ولقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجد داود

بصفة ما هي هذه . فمضى به إلى كنيسة يقال لها صهيون ، وقال له : هذا مسجد داود فقال له : كذبت . فمضى به إلى مسجد بيت المقدس ، حتى انتهى به إلى الباب الذى يقال له باب محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد انحدر ما فى المسجد من الزباله على درج الباب ، حتى خرج إلى الزقاق الذى فيه الباب ، وكثر على الدرج حتى كاد أن يلصق بسقف الرواق ، فقال له : لا نقدر أن ندخل إلا حَبوا . فقال عمر : ولو حَبوا . فحبا بين يدي عمر ، وحبا عمر ومن معه خلفه ، حتى ظهروا إلى صحنه ، واستوا فيه قيامًا . فنظر عمر وتأمل مليًا ، ونظر يمينًا وشمالًا ، ثم قال : الله أكبر ، هذا والذى نفسى بيده مسجد داود عليه السلام ، الذى أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أُسْرِيَ به إليه .

ووجد على الصخرة زبلًا كثيرًا ، مما طرحته الروم غيظًا لبنى إسرائيل ، فبَسَطَ عمر رداءه ، وجعل يكس ذلك الزبل ، وجعل المسلمون يكسون معه الزبل .

ومضى نحو محراب داود ؛ وهو الى على باب البلد ، فى القلعة ، فصلى فيه ، ثم قرأ سورة (ص) و سَجَدَ .

وروى أنه لما جلا الزبله عن الصخرة ، قال : لا تصلوا فيها حتى يصيبها ثلاث مطرات .

ويروى أنه لما فَتَحَ عمر رضى الله عنه بيت المقدس ، قال لكعب (الأحبار ، كبير أبحار اليهود بالشام ، وكان قد دخل فى الإسلام) : يا أبا إسحاق ، أنعرف موضع الصخرة ؟ . فقال : أذرع من الحائط الذى يلي وادى جهنم كذا وكذا ذراعًا ، ثم أحفر ، فإنك تجدها . - وكانت يومئذ مزبله - ، فحفروا ، فظهرت لهم . فقال عمر لكعب : أين ترى أن نجعل المسجد - أو قال : القِبْلَة ؟ - فقال : إجمعه خلف الصخرة ، فتجتمع القبلتان ، قبله موسى ، وقبله محمد صلى الله عليه وسل ، فقال له : ضاهيت اليهود يا أبا إسحاق ، خير المساجد مقدمها ، فبناها فى مقدم المسجد .

وروى أن عمر قال لكعب : أين ترى نجعل المصلى ؟ قال : إلى الصخرة ، فقال : ضاهيت والله يا كعب اليهودية ؛ بل نجعل قِبْلَة صَدْرَه ، كما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قِبْلَة مساجدنا صدورها ؛ إذ ذهب إليك ، فإننا لم نؤمر بالصخرة ، ولكن أمرنا بالكعبة .

ولما فرغ عمر من فتح إيلياء ، وعزل الصخرة من القمامة ، وأبقى النصرارى على حالهم بأداء الجزية ، فسَمَّى المسلمون كنيسة النصرارى العظمى عندهم قمامة ، تشبيهاً بالزابل ، وتعظيمًا للصخرة الشريفة ؛ ثم ارتحل من القدس إلى أرض فلسطين .

وكان هذا الفتح في سنة خمسة عشر (١٥ هـ) ، من الهجرة الشريفة ؛ قاله ابن الجوزي وغيره من المؤرخين ؛ وقيل كان في سنة ستة عشر (١٦ هـ) في ربيع الأول ؛ وقيل لخمس خلون من ذى القعدة ؛ والله أعلم .

قال مجير الدين الحنبلي : وقد حكى المصنفون لفضائل بيت المقدس قصة الفتح ، من طرق كثيرة ، بروايات وألفاظ مختلفة ؛ فأحسن ما رأيته منها ، ما نقلته هنا ؛ والله الموفق «^(١) .

وقد أورد الأزدي ومجير الدين الحنبلي ، نص خطبة الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، التي خطبها بعد دخوله رضى الله عنه بيت المقدس ؛ وهى عظيمة الدلالة فى تاريخ الإسلام وتاريخ الفتوحات الإسلامية وتاريخ القدس ، وفى تفسير ماضى الأمة الإسلامية وحاضرها ؛ إذ قام عمر رضى الله عنه فى الناس ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : « يا أهل الإسلام ، إنّ الله قد صدقكم الوعد ، ونصركم على الأعداء ، وورثكم البلاد ، ومكّن لكم فى الأرض ، فلا يكن جزاء ربكم إلا الشكر ، وإياكم والعمل بالمعاصى ، فإن العمل بالمعاصى كفر للنعم ، وقلّ ما تكفّر قوم بما أنعم عليهم ، ثم لم يفزعوا إلى التوبة ، إلا سلبوا عزهم ، وسلط عليهم عدوهم »^(٢) . ثم إن عمر رضى الله عنه أقبل نحو المدينة ، فاستقبله الناس ، يهنؤنه بالنصر والفتح ؛ فجاء حتى دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصلى ركعتين عند المنبر ، ثم صعد المنبر ، فاجتمع الناس إليه ، فقام ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال : « إيها الناس ، إن الله قد اصطنع عند هذه الأمة أن يحمده ويشكروه ؛ وقد أعز دعوتها ، وجمع كلمتها ، وأظهر فلعجها ، ونصرها على الأعداء ، وشرفها ومكّن لها فى الأرض ؛

(١) أنظر مجير الدين الحنبلي : الأئس الجليل ١ : ٢٤٤ - ٢٥٨ (ذكر الفتح العمري الذى يسهه الله تعالى على يد أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه) .

وأنظر الأزدي : فتوح الشام ، ص ٢٥٩ ، حيث يقول : " ولما كان من الغد (أى غدّ اليوم الذى كتب فيه عمر رضى الله عنه صلحه لأهل إيلياء) قام فدخّل بيت المقدس ، وكان دخوله يوم الإثنين ، وأقام بها حتى يوم الجمعة ، وخطّ بها محراباً من جهة الشرق ، وهو موضع مسجده (يقصد المسجد العمري الموجود إلى الآن تحت قبة الصخرة ، والمعروف إلى الآن باسم المسجد العمري) ؛ فتقدم ، وصلى هو وأصحابه صلاة الجمعة " ؛ وأنظر أيضاً نفس المصدر ، ص ٢٥٦ ، حيث يورد الأزدي نص خطبة عمر بن الخطاب فى المسلمين ، حين دخل القدس ، وخبر أمرة بلال بن أبى رباح رضى الله عنه مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤذن فى الناس ، لأول صلاة حضرها عمر رضى الله عنه بعد دخوله بيت المقدس ؛ وأنظر أيضاً نفس المصدر ، ص ٢٥٩ - ٢٦٢ ، وفيه : " إن إسلام كعب الحنّبر إنما كان فى قدوم عمر رضى الله عنه الشام ، وكان كعب الحنّبر من مؤمنى أهل التوراة برسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من علمائهم وأخبارهم " ؛ الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ٣ : ٦١١ - ٦١٢ ، " ذكر فتح بيت المقدس " ، حوادث سنة ١٥ هـ .

(٢) الأزدي : فتوح الشام ، ص ٢٥٦ ، مجير الدين الحنبلي : الأئس الجليل ١ : ٢٥٧ - ٢٥٨ .

وأورثها بلاد المشركين وديارهم وأموالهم ؛ فأحدثوا لله شكرًا يزيدكم ، وأحمدوا على نعمه يدمها لكم ؛ جعلنا الله وإياكم من الشاكرين » . ثم نزل^(١) .

وقد شهد الفتح العمري للقدس ، كما تقدم القول ، حوالى ألف صحابي من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عدّدَ منهم مجير الدين الخنبلي المقدسي فى كتابه الأُنس الجليل فى تاريخ القدس والخليل : أبو عبيدة بن الجراح ، مُعَاذ بن جبل ، بلال بن أبى رباح ، عياض بن غنم ، خالد بن الوليد ، أبو ذرّ الغفارى ، أبو الدرداء ، عبادة بن الصامت ، سلمان الفارسى ، أبو مسعود الأنصارى ، تميم الدارى ، عمرو بن العاص ، عبد الله بن سلام ، سعيد بن زيد ، سعد بن أبى وقاص ، مرّة بن كعب ، شداد بن أوس ، أبو هريرة ، معاوية بن أبى سفيان ، عبد الله بن عمرو بن العاص ، عبد الله بن عباس ، عبد الله بن عمر بن الخطاب ، عوف بن مالك ، أبو جمعة الأنصارى ، وائل بن أسقع ، أبو أمامة الباهلى ، أبو نعيم محمود بن الربيع ، يزيد بن أبى سفيان ، أبو رجانه واسمه شمعون القرظى ، الشريد بن سويد ، عبد الله بن أبى الحُدّة التميمى ، فيروز الديلمى ، أبو محمد النجار الأنصارى البندرى ، سلام بن قيصر ، أبى بن أم حَرَام بنت ملحان الأنصارية ، عُصَيْف بن الحارث ، ومن دخل القدس بعد الفتح ، صفية بنت حنّ - أم المؤمنين -^(٢) .

وتوفى بعض هؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم بفلسطين ودفنوا بها ، وظلت مقابرهم معروفة مشهورة مزارّة يُتبرك بها ، على نحو ما أفاد الرحالة والجغرافيون المسلمون ؛ فذكر المقدسى البشارى أنه زار قبور ثلاثة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقدس ، وهم : عبادة بن الصامت ، ومعاذ بن جبل ، وشداد بن أوس^(٣) ، وذكر ابن بطوطة أنه زار بأرض الأردن قبر الصحابى شرحبيل بن حسنة فاتح الأردن^(٤) .

وقد أطلق المسلمون على مدينة إيلياء ، أو بيت المقدس ، اسم القدس ، وذلك بعد كنس وتطهير الخليفة الراشد عمر بن الخطاب وصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم للمزبلة التى كانت حول الصخرة المقدسة ، وظلت حولها طوال العصر البيزنطى حين ابتذلها الروم نكابة وكيدًا لليهود ؛ وقد أفاد مجير الدين الخنبلى أن إولياء معناها : بيت الله المقدس ، وبيت المقدس ، أى المكان المطهر من الذنوب ، واشتقاقه من القدس ، وهى الطهارة والبركة ، فمعنى بيت المقدس ، المكان الذى يُتطهَر

(١) الأزدى : نفس المصدر ، ص ٢٦٦ .

(٢) مجير الدين الخنبلى : الأُنس الجليل ١ : ٢٦٠ .

(٣) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٧١ - ١٧٢ و ص ١٧٨ .

(٤) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، دار صادر ، بيروت ١٣٩٧هـ - ١٩٦٦م ، ص ٦٠ - ٦٢ .

فيه من الذنوب ، ويقال المرتفع المنزه عن الشرك ، والبيت المقدس ، أى المطهر ، وتطهيره إخلازه من الأصنام^(١) .

احتلال الفرنج للقدس سنة ٤٩٢هـ ، واستمرار احتلالهم له

اثنيتين وتسعين [٩٢] سنة ؛ حتى استنقذه منهم صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٢هـ ،

وهو ما عُرف بالفتح الصلاحي للقدس

تمكنت دولة الخلافة الفاطمية - بعد قيامها ببلاد المغرب بإفريقية التونسية سنة ٢٩٦هـ ، ثم انتقالها إلى مصر سنة ٣٥٨هـ^(٢) ، من مزاحمة دولة الخلافة العباسية فى السيادة على العالم الإسلامى ؛ فمد الخلفاء الفاطميون الأوائى سيطرتهم على بلاد الحرمين الشريفين ، وخطب لهم بمكة والمدينة المنورة ، كما سيطروا على غالب ممالك وبلاد الإسلام فى بلاد المغرب ومصر وبلاد الشام والجزيرة العربية ؛ إذ أقيمت دعوة الخليفة الفاطمى المعز لدين الله (ولى الخلافة بمصر من ٣٥٨هـ - ٣٦٥هـ) ببلاد المغرب كله ، وديار مصر والشام ، والحرمين ، وبعض أعمال العراق^(٣) ؛ ونهضوا بفريضة الجهاد فى وجه الدولة البيزنطية المنتصرة فى آسيا الصغرى وبلاد الروم ذاتها ، وجزر البحر المتوسط ، حتى أرغموا الإمبراطور البيزنطى على توقيع الهدنة معهم فى سنة ٥١٨هـ ، وخطب للخليفة الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمى فى بلاد الروم ، وأعاد الجامع بالقسطنطينية^(٤) .

وقد ظلت القدس بأيدى الخلفاء الفاطميين أغلب أيام دولة خلافتهم ، وإن زاحمهم السيادة عليها خلفاء بنى العباس وسلطين سلاجقة الروم (الشام) وأتا بكتهم ونوابهم الأراتقة أصحاب دمشق ؛ إذ استولى الأراتقة على بيت المقدس سنة ٤٦٣هـ^(٥) ، ثم أقيمت الدعوة العباسية بالقدس من سنة ٤٦٥هـ - ٤٩١هـ^(٦) ، ثم استردها الخلفاء الفاطميون سنة ٤٩١هـ^(٧) ؛ الأمر الذى أضعف بلاد الشام ، وجعلها مطمعاً لحركة الفرنج منذ سنة ٤٩٠هـ^(٨) ؛ حين أجتاح الفرنج أسيا الصغرى ،

(١) مجير الدين الحنبلى : الأئس الجليل ١ : ٦ .

(٢) أنظر المقرئزى : الخطط ٢ : ١٥٨ - ١٦٧ .

(٣) نفس المصدر ٢ : ١٦٧ ، ٤ : ٦٦ - ٧٤ ؛ مجير الدين الحنبلى : الأئس الجليل ١ : ٣٠٣ - ٣١٠ .

(٤) المقرئزى : الخطط ٢ : ١٦٩ ، س ٨ - ١٠ .

(٥) مجير الدين الحنبلى : الأئس الجليل ١ : ٣٠٥ .

(٦) نفس المصدر ١ : ٣٠٥ أيضاً .

(٧) نفس المصدر ١ : ٣٠٥ أيضاً ؛ وأنظر المقرئزى : الخطط ٣ : ٢٢ .

(٨) المقرئزى : أتعاط الحنفا ٣ : ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٤ .

وانتزعوا من أيدي دولة سلاجقة الروم مدينة أنطاكية سنة ٩٢ هـ وأسسوا بها أول إمارة صليبية في ساحل الشام^(١)؛ ثم زحفوا صوب فلسطين وتمكنوا من احتلال القدس في نفس هذه السنة (٩٢ هـ)، بعد استشهاد الحامية الفاطمية بها عن آخرها في سبيل الدفاع عنها استشهادًا بطوليًا^(٢).

ويحدثنا المقرئ عن السلوك الهمجي اللا إنساني المتخلف المتعصب للفرنج، عند استيلائهم على القدس سنة ٩٢ هـ، وكيف أبادوا أهله حتى لم ينج منهم إلا النذر القليل، وكيف حرقوا المصاحف والكتب، واستباحوا المقدسات الدينية الإسلامية ونهبوا ما كان بها من كنوز وذخائر وتحف؛ فيقول: «في سنة ٩٢ هـ سار الفرنج لأخذ سواحل البلاد الشامية من أيدي المسلمين؛ فملكوا مدينة أنطاكية، وساروا لبنان فقتلوا من به؛... وخرجوا على طريق... عكا، ثم أخذوا الرملة في ربيع الآخر؛ وزحفوا منها إلى بيت المقدس فحاصروا المدينة؛ وبلغ ذلك الأفضل (بن بدر الجمالي وزير التفويض الفاطمي وأمير الجيوش الفاطمية)، فخرج بعساكر كثيرة لمحاربتهم؛ وجد الفرنج - عندما بلغهم مسيرة إليها - في حصار المدينة، وكان نزولهم عليها في شهر ربيع الآخر، حتى ملكوها يوم الجمعة الثاني والعشرين (٢٢) من شعبان، بعد أربعين يومًا؛ وهدموا المشاهد وقبر الخليل عليه السلام، وقتلوا عامة من كان في البلد؛ وكان فيه من العباد والصحاء والعلماء والقراء وغيرهم خلائق لا يقع عليهم حصر، فوضعوا السيف فيهم وأفنؤهم عن آخرهم؛ ولم يفلت منهم إلا اليسير. وانحازت عدة من المسلمين إلى محراب داود عليه السلام (وهو حصن على باب مدينة القدس، بها محراب داود كما أفاد العماد الأصفهاني في كتابه الفتح القيسي في الفتح القدسي)، فحاصروهم الفرنج نيفًا وأربعين يومًا حتى تسلموه بالأمان في يوم الجمعة ثاني عشره. وأحرقوا ما كان ببيت المقدس من المصاحف والكتب، وأخذوا ما كان بالصخرة من قناديل الذهب والفضة والآلات، وكان مبلغًا عظيمًا. ويقال أنه قُتل في المسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفًا، وأنهم لحقوا من فر من المسلمين مسيرة إسبوع يقتلون من أركوه منهم»^(٣).

وباحتلال الفرنج للقدس سنة ٩٢ هـ، تم تأسيسهم لإمارة بيت المقدس الصليبية؛ ثم ما لبثوا أن احتلوا ساحل بلاد الشام، وكونوا إمارات: الرها وطرابلس وعكا، فيما بين سنتي ٩٣ هـ - ٩٥ هـ^(٤)؛ فاكتملت بذلك إماراتهم الخمس: أنطاكية، وبيت المقدس، والرها، وطرابلس، وعكا.

(١) نفس المصدر ٣: ٢٠، ٢٤.

(٢) نفس المصدر ٣: ٢٣ - ٢٤؛ مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل ١: ٣٠٥. هذا عدا جزء من الحامية الفاطمية، تحصنوا في بُرج داود على باب مدينة القدس، ورفضوا إلقاء أسلحتهم، مما أرغم الفرنج على منحهم الأمان، فخرجوا من القدس بأسلحتهم، وعادوا إلى مصر.

(٣) المقرئ: ألقاظ الحنفا ٣: ٢٣.

(٤) المقرئ: ألقاظ الحنفا ٣: ٢٨، ٣٤.

وقد استمر احتلال الفرنج للقدس ٩٣ سنة ، حتى استنقذه منهم السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٣هـ ، وهو ما عُرف بالفتح الصلاحي للقدس ؛ وطَّهر صلاح الدين قبة الصخرة من رجس ومنكرات وتعديبات الفرنج ، إبان احتلالهم للقدس ؛ فأبرز محراب المسجد الأقصى ، - وكان الفرنج قد بنوا أمامه حائطًا - ، ونصب المنبر ، ومحا ما وضعه الفرنج على حوائط القبة من صور ، وأزال التماثيل والأصنام ، وكسر الكنيسة والمذبح اللذين استحدثهما الفرنج فوق قبة الصخرة ، وغسل القبة وما حولها بماء الورد - وقيل غسلها بلحيته وهو يبكي - ، وعمَّر قبة الصخرة والمسجد الأقصى ، ورزَّحَ محرابه وكتب عليه لوحة مؤرخة تؤرخ لهذه العمارة ؛ ونصب بالمسجد الأقصى منبر السلطان الشهيد نور الدين محمود زنكي ، الذي كان أعدّه وتعب فيه وطعمه بالأبنوس والعاج ، ووضعه بمحراب جامع حلب في سنة ٥٦٤هـ برسم القدس إذا يسر الله فتحها ، فوضعه صلاح الدين بقبة المسجد الأقصى ، حين تم الفتح القدسي على يديه سنة ٥٨٣هـ^(١) .

دَخر صلاح الدين للفرنج في موقعة حطين يوم ٢٤ ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ

يحدثنا القاضي بهاء الدين بن شداد قاضي عسكر صلاح الدين عن الانتصار الساحق الذي منَّ به الله على المسلمين في معركة حطين سنة ٥٨٣ ، بحيث ظفروا بجميع الفرنج وملوكهم ومقدميهم بين قتيل وأسير حديث شاهد عيان معاصر للأحداث ، خبير ببواطن الأمور ، عليم بروح العصر ، مقرب للسلطان صلاح الدين عارف بسريرته وطويته ؛ متجاوب مع النصر العظيم ، الذي وهبه الله للإسلام والمسلمين يوم حطين ؛ مسجل له بقلم الفخر والاعتزاز ، شاكر الله ما منَّ به على المؤمنين من

(١) أنظر بهاء الدين بن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيره صلاح الدين الأيوبي ، تحقيق جمال الدين الشيال ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٤م ، ص ٨١ - ٨٢ ؛ العماد الأصفهاني : الفتح القيسي في الفتح القدسي ، تحقيق محمد محمود صبح ، القاهرة ، د. ت ، ص ١١٦ - ١١٧ (ذكر فتح بيت الله المقدس) ، ص ١١٨ - ١٢١ (ذكر كنيسة قمامة = القيامة) ، ص ١٢٢ - ١٢٩ (وصف البيت المقدس) ، ص ١٣٠ - ١٣٤ (ذكر يوم الفتح وهو ٢٧ رجب) ، ص ١٣٥ - ١٣٦ (ذكر ما جرت عليه حال الفرنج في خروجهم من القدس) ، ص ١٣٧ - ١٤٠ (كر ما أظهره السلطان في القدس من الحسنات ومحامد من السيئات) ، ص ١٤١ - ١٤٤ (ذكر وصف الصخرة العظيمة عمرها الله) ، ص ١٤٥ - ١٤٦ (ذكر محراب داوود عليه السلام ، وغيره من المشاهد الكرام ؛ وتبجيل الكنائس وإنشاء المدارس) ، ص ١٤٧ - ١٤٩ (ذكر ما كتبه إلى الديوان العزيز - ديوان الخلافة العباسية - بمجده الله ، للبيشري بفتح القدس مع الرسول ضياء الدين الشهرزوي من رساله) ؛ العماد الأصفهاني : سنا البرق الشامي ، تحقيق فتحية النبراوي ، القاهرة ١٩٧٩م ، ص ٢٩٥ - ٣١٦ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، طبع دائرة المعارف العثمانية بمجر آباد الدكن بالهند ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م ، ٨ : ٣٩٢ - ٤٠٠ ؛ مجير الدين الخبلي : الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل ، مكتبة المحاسب ، عمَّان - الأردن ، د. ت ، ١ : ٣١٠ - ٤٠٦ .

تأييده ونصره ؛ فيقول : « ذكر وقعة حطين^(١) المباركة على المؤمنين ، وكانت فى يوم السبت الرابع والعشرين (٢٤) من ربيع الآخر من شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (٥٨٣ هـ) ؛ وذلك أن السلطان رأى أن نعمه الله عليه باستقرار قدمه فى الملك وتمكين الله إياه فى البلاد ، وانقياد الناس لطاعته ، ولزومهم قانون خدمته ، ليس لها شكر سوى الاشتغال ببذل الجهد ، والاجتهاد فى إقامة قانون الجهاد ؛ فسَّير إلى سائر العساكر واستحضرها .. ، وعرضهم ورتبهم ، واندفع قاصداً نحو بلاد العدو المخدول ، فى وسط نهار الجمعة سابع عشر (١٧) من ربيع الآخر ؛ وكان أبداً يقصد بوقعاته الجمع ، لا سيما أوقات صلاة الجمعة ، تبركا بدعاء الخطباء على المنابر ، فرمما كانت أقرب إلى الإجابة ؛ فسار فى ذلك الوقت على تعية الحرب (...) . حتى كان صباح السبت الذى بُورك فيه ، فطلب كلٌّ من الفريقين مقامه ؛ وعلمت كلُّ طائفة أن المكسورة منهما مدحورة الجنس معدومة النفس ؛ وتحقق المسمون أن من ورائهم الأردن ، ومن بين أيديهم بلاد القوم ، وأن لا ينجيهم إلا الله تعالى . وكان الله قد قدر نصر المؤمنين ويسره ، وأجراه على وفق ما قدره ؛ فحملت الأطلاب الإسلامية من الجوانب ، وحمل القلب ، وصاحوا صيحة الرجل الواحد ، فألقى الله الرعب فى قلوب الكافرين ، (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) . واحتاط أهل الإسلام بأهل الكفر والطغيان من كل جانب ، وأطلقوا عليهم السهام ، وعاملوهم بالصفاح ؛ وانهمزت منهم طائفة ، فبجها أبطال المسلمين ، فلم ينج منهم واحد . واعتصمت الطائفة الأخرى يتلّ يقال له حطين ، - وهى قرية عنده وعندها قبر شعيب عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء - ، فضايقهم المسلمون على التل ، وأشعلوا حوالبهم النيران ، وقتلهم العطش ، وضاق بهم الأمر ، حتى كانوا يستسلمون للأسر خوفاً من القتل ، فأسر مقدّمومهم ، وقتل الباقون وأسروا^(٢) .

(١) حطين : قرية بين طبرية وعكا ، بينها وبين طبرية فرسخين ، وبقريّة جبارة بالقرب منها قَبْر يقال أنه قبر النبي شعيب عليه السلام (يا قوت : معجم البلدان ج ٧ : ٢٧٣ - ٢٧٤ ، طبعة بيروت وراجع أيضاً المقرئى : الخطط ١ : ٣٦٧ (ذكر مدينة حطين) حيث يذكر أن قرية حطين التى بها الآن (على أيام المقرئى) قبر شعيب ، تقع بين طبرية وصفد ، وهى أقرب إلى صفد . وأفاد ابن شيخ الربوة الدمشقى أن حطين كانت تعد من أعمال صفد ، بأرض فلسطين والأردن وأنها بقرب من طبرية . قال : " وعلى هذه القرية كانت وقعة عظيمة بين المسلمين والفرنج ، وكان ملك المسلمين صلاح الدين ، وكسر الفرنج على قرن حطين ، وقتل منهم خلق كثير ، وأسر ملوكهم ؛ وبنى على قرن حطين قبة يقال لها قبة النصر " ابن شيخ الربوة : نخبة الدهر ص ٢١ .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٧٥ - ٧٧ ؛ وقارن العماد : الفتح القسى ، ص ٧٦ - ٨٣ (ذكر فتح طَبْرِيَّة) ، العماد : سنا البرق الشامى ص ٢٩٥ - ٢٩٨ (ذكر يوم حطين) . وما قاله العماد : " وَصَحَّتْ هذه الكسرة ، وتمت هذه النصرة ، يوم السبت ؛ وضربت ذلة أهل السبت على أهل الأحد ، وكانوا أسوداً فعادوا من النقد ؛ فما أفلت من تلك الآلاف إلا الآحاد ، وما نجا من أولئك الأعداء إلا أعداد ؛ وامتأ الملأ بالأسرى والقتلى ، والنجلى الغبار عنهم بالنصر الذى تجلى ؛ وقيدت الأسارى بالخيال واجفة القلوب ، =

وَيُفَضَّلُ بهاء الدين بن شداد ما حل بجميع ملوك ومقدمى الفرنج الذين وقعوا فى الأسر من الصَّغَارِ وَالْهَوَانَ ، وَيَبِينُ حرص السلطان صلاح الدين الأيوبي على تخيير من كان قد أهدر دمه منهم بين الإسلام أو القتل ؛ فيقول : « وكان فيمن سَلِمَ وَأَسِرَ من مُقدميهم الملك جفرى ، والبرنس أرناط (صاحب حصن الكرك) ، وأخو الملك ، والبرنس - وهو صاحب الشوبك - وابن الهنفرى ، وابن صاحبة طبرية ، ومقدم الداوية ، وصاحب جبيل ، ومقدم الأستار . وأما الباقون من المقدمين فإنهم قتلوا ، وأما الأدوان فإنهم قسموا إلى قتل وأسير ، ولم يسلم منهم إلا من أسير ، وكان الواحد العظيم منهم يخلد إلى الأسر خوفاً على نفسه . ولقد حكى لى من أتق به ، أنه لقي بجوران شخصاً واحداً معه طنب خيمة فيه نيف وثلاثون أسيراً ، يجرحهم وحده لخدلان وقع عليهم . فأما الذين بقوا من مقدميهم ، فنذكر حديثهم ، أما القومص الذى هرب فإنه وصل إلى طرابلس ، وأصابته ذات الجنب فأهلكه الله بها ؛ وأما مقدم الاستار والداوية ، فإن السلطان اختار قتلهم ، فقتلوا عن بكرة أبيهم ؛ وأما البرنس أرناط ، فكان السلطان قد نذر أنه إذا ظفر به قتله ، وذلك أنه كان عبّر بالشوبك قفل من الديار المصرية فى حالة الصلح ، فنزلوا عنده بالأمان ، فغدر بهم وقتلهم ، فناشده الله والصلح الذى بينه وبين المسلمين ، فقال ما يتضمن الاستخفاف بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وبلغ ذلك السلطان ، فحمله الدين والحمية على أنه نذر إن ظفر به قتله .

ولما فتح الله عليه بالنصر والظفر ، جلس السلطان فى دهليز الخيمة ، فإنها لم تكن نُصِبَتْ ، والناس يتقربون إليه بالأسرى ومن وجدوه من المقدمين . ونُصِبَتْ الخيمة ، وجلس فرحاً مسروراً شاكراً لما أنعم الله به عليه ، ثم استحضر الملك جفرى (ملك مملكة بيت المقدس الصليبية) وأخاه والبرنس أرناط ، وناول الملك جفرى شربة من جلاب (أى ماء الورد) مثلج ، فشرب منها وكان على أشد حال من العطش ، ثم ناول بعضها البرنس أرناط ، فقال السلطان للترجمان : قل للملك ، أنت الذى سقيته ، وأما أنا فما سقيته . وكان من جميل عادة العرب وكريم أخلاقهم ، أن الأسير إذا أكل أو شرب من ماءٍ لمن أسره آمنٌ ، فقصده بذلك ، الجرى على مكارم الأخلاق . ثم أمرهم بمسيرهم

= وَفُرِشَتْ القتلى فى الوَهَادِ والجبال واجبة الجنوب ؛ وَحَطَّتْ حطين تلك الجيف على منها ، وطاب نشر النصر بنتنها ؛ وَعَبَّرَتْ بها فلقيت أشلاء المشلولين فى الملقى ملقاه ، بالعراء عراة ، ممزقة بالمنازق ، مفصلة المفاصل مفرقة المرافق ، مفلقة المفاثق ؛ محذوفة الرقاب ، مقصوفة الأصلاب ، مقطعة الهام ، موزعة الأقدام ، مجدوعة الأناف ، منزوعة الأطراف ؛ معضاة الأعضاء ، مجزأة الأجزاء ، مفقوة العيون ، مبعوجة البطون (...) . وصارت تلك المعركة ، بالدماء دماءً ، وعادات الغبراء حمراء ؛ وجرت أنها الدم المُنْهَرُ ، وسَفَرَ بلك الخبائث المظلمة وجه الدين المطهر (...) . هذا حساب من قُل ، فقد حَصَرَتْ السنة الأمم عن حصره وَعَدَّه ، وأنا من أسير ، فلم تكف أطناب الحِجْمِ عن قَيْدِهِ وَشُدِّهِ ؛ ولقد رأيتُ فى جبل واحد ثلاثين (٣٠) وأربعين (٤٠) يقدوهم فارس ، وفى بقعة واحدة مائة (١٠٠) أو مائتين (٢٠٠) يحميهم حارس " أنظر العماد : الفتح القسى ص ٧٩ - ٨٣ .

إلى موضع عَيْنٍ لنزولهم ، فمضوا وأكلوا شيئاً ، ثم عاد فاستحضرهم ولم يبق عنده أحد سوى بعض الخدم ، واستحضرهم وأقعد الملك فى الدهليز ، واستحضر البرنس أرناط ، وواقفة على ما قال ، وقاله له : ها أنذا انتصر لمحمد عليه الصلاة والسلام . ثم عرض عليه الإسلام ، فلم يفعل . ثم سأل النمجاه (خنجر مقوس يشبه السيف القصير) وضربه بها ، فحل كتفه ، وتمم عليه من حضر ، وعجل الله بروحه إلى النار ، فأخذ ورُمى على باب الخيمة . فلما رآه الملك وقد خرج به على هذه الصورة ، لم يشك أنه يقتل به ، فاستحضره (السلطان) وطب قلبه ، وقال : لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك ، وأما هذا فإنه تجاوز حده ، فجرى ما جرى . وبات الناس فى تلك الليلة على أتم سرور ، وأكمل حبور ، ترتفع أصواتهم بالحمد لله والشكر له ، والتكبير والتهليل حتى طلع الصبح فى يوم الأحد^(١) .

(١) بهاء الدين بن شداد : النواذر السلطانية ، ص ٧٧ - ٧٩ ؛ وقد أفرد العماد الأصفهاني فى كتابه الفتح القسى فصلان عن هذا اليوم المجيد الذى أعز الله فيه الإسلام وأذل أعدائه ، وعرض فيه صلاح الدين أسرى ملوك الفرنج ، أحدها بعنوان : (ذكر الصليب الأعظم والاستيلاء عليه يوم المصاف) ، والثانيهما بعنوان : (ذكر ما اعتمده فى الأسارى الداوية والاستتارية من ضرب رقابهم) أفاد فيهما أن صليب الصليبيات الذى يعظمه الفرنج قد أخذ يوم معركة حطين ، وان أخذه كان أعظم من أسر ملك الفرنج ، وأن صلاح الدين قد سير الأسرى من ملوك الفرنج وسجنهم بمدينة دمشق . وكان لما قاله العماد : " ولم يؤثر الملك حتى أخذ صليب الصليبيات ، وأهلك دونه أهل الطاعوت (...) ؛ وهم يزعمون أنه من الخشبة التى يزعمون أنه صلب عليها معبودهم ، فهو معبودهم ومسجودهم ؛ وقد غلفوه بالذهب الأحمر ، وكللوه بالدرّ والجوهر ؛ واعدوه ليوم الروع المشهود ، ولموسم عيدهم الموعود ؛ فإذا أخرجته القسوس ، وحملتة الرؤس ؛ تبادلوا إليه ، وأنشأوا عليه ؛ ولا يسع لأحدهم عنه التخلف ، ولا يسوغ للمتخلف عن اتباعه فى نفسه التصرف ؛ وأخذة أعظم عندهم من أسر الملك ، وهو أشد مصاب لهم فى هذا المعترك (...) ؛ فلما أخذ هذا الصليب الأعظم عظم مصابهم ، ووهت أصلابهم " (العماد : الفتح القسى ، ص ٨٤) . " فلما أصبح يوم الإثنين سابع عشرى (١٧) ربيع الآخر بعد الفتح بيومين ، طلب (السلطان) الأسارى من الداوية والاستتارية ، وقال : أنا أطهر الأرض من الجنسين النجسين ، وجعل لكل من يحضر منهما أسيراً خمسين (ديناراً) ، فأحضر المسكر فى الحال منتين ؛ وأمر بضرب أعناقهم ، واختار قتلهم على استرقاقهم (...) . وكان عنده جماعة من أهل العلم والتصوف ، وعدة من ذوى التصف والتعيف ؛ فسأل كل واحد فى قتل واحد . وسل سيفه وحسر عن ساعد (...) . وسير ملك الفرنج وأخاه وهنفرى وصاحب جبيل ومقدم الداوية وجميع أكابرهم المأسورين إلى دمشق ليودعوا السجن ، وتُسبَدل بمركاتهم السكون " (العماد : الفتح القسى ص ٨٦ - ٨٧) . وزاد العماد فى البرق الشامى : " فما قتل إلا من عرض عليه الإسلام فأبى أن يُسلم ، ورأى لشدة فى كفره أن يتقاد للقتل ولا يستسلم ؛ وما أسلم إلا آحاد حَسَنَ إسلامهم ، وتأكد بالدين غرامهم " (العماد : سنا البرق الشامى ، ص ٢٩٨) . وأنظر سبط : مرآة الزمان ٨ : ٣٩٣ - ٣٩٤ ، حيث يقول : " ثم عرض السلطان الإسلام على الداوية والاستتارية ، فمن أسلم منهم استبقاه ، ومن لم يسلم قتله ، فقتل خلق عظيم ، وبعث بباقي الملوك والأسارى إلى دمشق ، إلى (الوزير) الصنسى بن القبايض ، فأعتقل الأعيان فى القلعة ، وباع الأسارى بثمن بخس ، حتى باع بعض الفقراء أسيراً بنعل ، فقتل له : هذا ثمن بخس ! ، فقال : أردت هوانهم " .

الفتح الصلاحي للقدس ليلة ٢٧ رجب سنة ٥٨٢هـ

ويصف بهاء الدين بن شداد حصار السلطان صلاح الدين للقدس ، حتى طلب الفرنج المحاصرين به الأمان ، بقوله تحت عنوان : (ذكر فتح القدس المبارك الشريف) :

« ولما تسلم (السلطان) عسقلان والأماكن المحيطة بالقدس ، شمر عن ساق الجند والاجتهاد في قصده ، واجتمعت عليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل بعد انقضاء لباتها من السلب والغارة ، فسار نحوه معتمداً على الله ، مفوضاً أمره إليه ، منتهزاً فرصة فتح باب الخير الذي حُث على انتهازه إذا فُتِح ، بقوله عليه السلام : من فُتِح له باب خير فلينتهزه ، فإنه لا يعلم متى يغلق دونه . وكان نزوله عليه يوم الأحد الخامس عشر (١٥) من رجب سنة (٥٨٢هـ) المباركة ؛ فنزل بالجانب الغربي ، وكان مشحوناً بالمقاتلة من أنخيالة والرجال ، ولقد تحازر أهل الخبرة عدة من كان فيه من المقاتلة بما يزيد على ستين (٦٠) ألفاً ما عدا النساء والصبيان ؛ ثم انتقل - رحمه الله - لمصلحة رآها إلى الجانب الشمالي ، وكان انتقاله يوم الجمعة العشرين (٢٠) من رجب ، ونصب عليه المجانيق ، وضايقه بالرحف والقتال وكثرة الرماة ، حتى أخذ النقب في السور مما يلي وادي جهنم في قرية شمالية . ولما رأى أعداء الله ما نزل بهم من الأمر الذي لا يندفع عنهم ، وظهرت لهم إمارات نصره الحق على الباطل ، وكان قد ألقى في قلوبهم الرعب مما جرى على أبطالهم ورجالهم من السبي والقتل والأسر ، وما جرى على حصونهم من الاستيلاء والأخذ ، علموا أنهم إلى ما صاروا إليه صائرون ، وبالسيف الذي قُتل به إخوانهم مقتولون ؛ فاستكانوا وأخلدوا إلى طلب الأمان ، واستقرت القاعدة بالمراسلة بين الطائفتين »^(١) .

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٨١ . وأفاد العماد الأصفهاني ، أن صلاح الدين كان قد عزم على فتح القدس عنوة كما أخذه الفرنج عنوة حين استولوا عليه سنة ٤٩٢ وبقي بأيديهم ٩١ عاماً ، ثم نزل على رأى ومشورة مستشاريه في فتحه صلحاً وتأمين من به من الفرنج بعد أن هدد الفرنج بقتل من عندهم من أسرى المسلمين وتخريب قبة الصخرة ، أنظر العماد : الفتح القسي ص ١١٦ - ١٢٩ ، العماد : سنا البرق الشامي ص ٢٠٩ - ٣١٣ ؛ وما قاله العماد : "إن أسعدنا من الله على إخراج أعدائه من بيته المقدس فما أسعدنا ، وأبى يد له عندنا إذا أيدنا ؛ فإنه مكث في يد الكفر إحدى وتسعين (٩١) سنة ، لم يتقبل الله فيه من عابد حسنة ، ودامت همم الملوك عنه مترسنة ، (...) ؛ فما أذخر الله فضيلة فتحه إلا لآل أيوب ، ليجمع لهم بالقبول القلوب ؛ وخص به عصر الإمام الناصر لدين الله ليفضله على الأعصار ، وتنفخر به مصر وعسكرها على سائر الأمصار ؛ وكيف لا يهتم بفتح البيت المقدس الأقوى ، والمسجد الأقصى المؤسس على التقوى ؛ وهو مقام الأنبياء ، وموقف الأولياء ، ومعبد الأتقياء ، ومزار أبدال الأرض وملائكة السماء ؛ ومنه المحشر والمنشر ، ويتوفاذ إليه من أولياء الله بعد المعشر المعشر ؛ وفيه الصخرة التي صينت جدة أبيهاجها من الإنهاج ، ومنها منهاج المعراج ، ولها القبة الشماء التي على رأسها التاج ؛ وفيه ومضّ البارق ومضى البراق ، وأضاءت ليلة الإسراء بجلول السراج المنير فيه الآفاق (...) وهو أول القبلتين ، وثاني البيتين ، وثالث الحرمين ؛ وهو =

وفطن ابن شداد إلى جميل المصادفة ، وخير التوفيق الإسلامي ، وعين الطالع ، وسعادة التدبير ؛ في موافقة يوم تسلم السلطان صلاح الدين للقدس وليته ليلية الإسراج والمعراج لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فيقول مشيداً بهذا الفتح المبارك متبجعاً أصدائه السارة في الأمصار الإسلامية وخاصة مصر والشام : « وكان تسلمه - القدس - قدس الله روحه - في يوم الجمعة السابع والعشرين (٢٧) من رجب ، وليته كانت ليلة المعراج المنصوص عليها في القرآن المجيد ؛ فأنظر إلى هذا الاتفاق العجيب ، كيف يَسِّرَ الله عودته إلى أيدي المسلمين في مثل زمان الإسراء نبينهم - صلى الله عليه وسلم - إليه ، وهذه علامة قبول هذه الطاعة من الله تعالى . وكان فتوحاً عظيماً شهده من أهل العلم خلقٌ عظيم ، ومن أرباب الخِرْقِ والطرق (يعني الصوفية) ؛ وذلك أن الناس لما بلغهم ما يَسِّرَ الله عليه يده من فتوح السواحل ، وشاع قصده القدسي ، قصده العلماء من مصر والشام ، بحيث لم يتخلف معروفٌ من الحضور ؛ وارتفعت الأصوات بالضجيج والدعاء والتهليل والتكبير ، وخطب فيه وصليت فيه الجمعة يوم فتحه ، وحُطَّ الصليب الذي كان على قمة الصخرة ، وكان شكلاً عظيماً ، ونصر الله الإسلام نصر عزيز مقتدر »^(١) .

= أحد المساجد الثلاثة التي جاء في الخبر النبوي أنها تشد إليها الرحال ، ويعقد الرجاء بها الرجال . ولعل الله يعيد بنا إلى أحسن صوره ، كما شرفه بذكره مع أشرف خلقه في أول سورة ، وقال عز من قائل : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ﴾ ، وله فضائل ومناقب لا تحصى ، وإليه ومنه كان الإسراء ، ولأرضه فضحت السماء ، وعنه تُولدُ أنباء الأنبياء ، (...) ، وصخرته الطولي ، القبلة الأولى ؛ ومنها تعالت القدم النبوية ، وتوالت البركة العلوية ؛ وعندها صلى نبينا صلى الله عليه وسلم بالنبين ، وصحب الروح الأمين ، وصعد منها إلى أعلى عليين ، (...) ؛ وهو الذي افتتحه الفاروق وافتحت به سورة الفرقان " . (العماد : فتح القسي ص ١٢٢ - ١٢٣) .

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٨٢ ؛ وأنظر العماد : الفتح القسي ص ١٣٠ - ١٣٤ (ذكر يوم الفتح وهو سابع عشرى (١٧) رجب) ؛ وما قاله العماد : " واتفق فتح البيت المقدس في يوم كان في مثل ليلته منه المعراج ، وتم بما وضع من مناهج النصر الابهاج ، وزاد من الألسنة بالدعاء والابتهال الالتهاج ؛ وجلس السلطان للهناء ، للقاء الأكابر والأمراء ، والمتصوفة والعلماء ؛ وهو جالس على هيئة التواضع وهيبة الوفاق ، بين الفقهاء وأهل العلم جلسائه الأبرار (...) . فبشرت بأقلامى أقاليم البشر ، وعبرت بأعاجيبى عن عجائب العيز ، وملاّت البروج بالدرارى والدروج بالدرر ، ورويت تلك البشرى حتى أطابت ريبا (الرى) وسَمَرَ (سمرقند) ، وأطربت وحلت حتى فاقت القنديد والقند ؛ وعَلَقْتُ بفتح القدس بلاد الإسلام وزينت ، وشرحت فضيلتها وبيت ، وأديت فريضة زيارتها وتعينت . (...) وكَتَبْتُ إلى كل ذى طرف بمعنى طريف ، ولفظ فصيح حصيف (...) ؛ وسارت شواردى إلى المشرق والمغرب ، معربة عن هذا الفتح المعرب ، عن النصر المذهب ، وبشرت المسجد الحرام بخلص المسجد الأقصى ، وتلوت ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى ﴾ (الآية ١٣ من سورة الشورى) ؛ وهنأت الحجر الأسود بالصخرة البيضاء ، ومنزّل الوحي بمحل الإسراء ، ومقر سيد المرسلين وخاتم النبیین بمقر الرسل والأنبياء ، ومقام إبراهيم بموضع قدم المصطفى - صلى الله عليه وعليهم أجمعين ، وأدام الله على الإسلام بشرف بيته مستمعين . وتسامع الناس بهذا النصر الكريم ، والفتح العظيم ؛ فوفدوا للزيارة من كل فج عميق ، وسلكوا إليه في كل طريق ، وأحرموا من البيت المقدس إلى البيت العتيق " (العماد : الفتح القسي ص ١٣٠ - ١٣٤) .

ويختتم ابن شداد حديثه عن الفتح الصلاحي للقدس ، بذكر شروط الصلح التي أقر عليها صلاح الدين الفرنج بعد استسلامهم وتسليمهم القدس له ؛ فيقول : « وكان قاعدة الصلح ، أنهم قطعوا على أنفسهم : عن كل رجل عشرة (١٠) دنانير ، وعن كل امرأة خمسة (٥) دنانير صورية ، وعن كل صغير ذكر أو أنثى ديناراً (١) واحداً ، فمن أحضر القطيعة سلم نفسه ، وإلا أخذ أسيراً . وفرج الله عنم كان أسيراً من المسلمين ، وكانوا خلقاً عظيماً زهاء ثلاثة آلاف أسير . وأقام - رحمه الله - يجمع الأموال ويفرقها على الأمراء والعلماء ، وإيصال من دَفَع قطيعته منهم إلى مأمنه وهو « صور » . ولقد بلغني أنه - رحمة الله عليه - رحل عن القدس ولم يبق له من ذلك المال شيء ، وكان مأتى (٢٠٠) ألف دينار ، وعشرين (٢٠) ألف دينار ؛ وكان رحيله عنه يوم الجمعة الخامس والعشرين (٢٥) من شعبان سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (٥٨٣ هـ) »^(١) .

قال مجير الدين الحنبلي : وما أصيب الفرنج من حين خرجوا إلى الشام في سنة ٤٩٠ هـ إلى الآن ، بعصية مثل هذه الواقعة^(٢) .

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٨٢ . ويقول سبط بن الجوزي عن شروط الصلح : " واستقر الأمر على أن يخرجوا بأنفسهم وأموالهم وذرائعهم ، سوى الخيل الحربية والسلاح ؛ بعد أن يؤدي كل واحد منهم عشرة دنانير ، وعن المرأة خمسة دنانير ، وعن الصبي أربعة دنانير ، وعن الطفل ديناراً ؛ ومن عجز منهم ، كان رقيقاً سيملك ؛ ومن أراد من النصارى الإقامة ، فليقم وتؤخذ منه الجزية ؛ وأقر بأيديهم القيامة (أى كنييسة القيامة) ، وعينوا أماكن يزورونها ؛ وسلموا البلد يوم الجمعة سابع عشرين (٢٧) رجب ليلة المعراج ، فكان استيلاء الفرنج عليه الثين وتسعين (٩٢) سنة ، لأنهم أخذوه في سنة ٤٩١ هـ ، وفتح في هذه السنة وهي سنة ٥٨٣ هـ (...) . قلت : ولقد ضيع السلطان الحزم بتسيير الفرنج إلى صور ، ولم ينظر في عواقب الأمور ؛ فإن اجتماعهم بصور كان سبباً لأخذهم البلاد ، وقتلهم بعاك من اأعيان وأجناد الإسلام ؛ وقد كان الواجب عرضهم على الإسلام ، فإن أبو فالسيف وهو أصدق أبناء من الكتب ؛ وأنى وكيف ، وما أشبه هذه القضية بقدية الأسارى يوم بدر ، حيث أشار بعض الصحابة بأخذ ذلك القدر ، وبعضهم أشار بضرب الرقاب ، وما صدر ذلك الرأي إلا عن صدر ؛ فلا جرم قتل منهم يوم أخذ سبعون ، وأسر سبعون من المسلمين ، كما فعلوا يوم بدر بالمشركين " (سبط : مرآة ٨ : ٣٩٧ - ٣٩٨) . قلت : والذي يستفاد من تاريخ فتوح الشام في صدر الإسلام زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وسيرة أبي عبيدة ابن الجراح رضى الله عنه القائد العام لفتح الشام ، أنه كان يصالح أهل بلاد الشام ومدنه ويأمنهم ويفتح بلادهم صلحاً لا عنوة ، حتى يسارع أهل بقية المدن لطلب الصلح على شروط عادلة ماثلة ؛ ولا شك عندى أن السلطان صلاح الدين الأيوبي قبل نهوضه لفتح الشام والسواحل ، قد قرأ سيرة وتاريخ أبي عبيدة بن الجراح رضى الله عنه ، ودرس فتوحه وبقية فتوح الشام ، واستفاد من سيرته في حروبه مع الفرنج ، والواقع أن السلطان صلاح الدين قد حصر الفرنج في شريط ساحلى ضيق على ساحل الشام محصوراً بين صور وصيدا ، حتى سهل استئصال شافتهم من الشام نهائياً وهو ما تم على يد السلطان الأشرف خليل بن قلاون ، حين فتح عكا آخر معاقل الفرنج بساحل الشام .

(٢) مجير الدين الحنبلي : الألس الجليل ١ : ٣٣ (ذكر يوم الفتح) .

ولنستمع لشهادة شاهد عيان آخر ، شهد بنفسه تسليم الفرنج للقدس سنة ٥٨٣هـ وخروجهم منها ، وعاش أحداث هذا الفتح الجليل عن قرب ، وخبر شروط التسليم ، واطلع على خبايا الأمور ، لكونه من مستشارى الدولة الصلاحية ورؤساء دواوينها ؛ وأعنى به العماد الأصفهاني ، رئيس ديوان الإنشاء الصلاحى فى بلاد الشام ؛ وقد جاء وصفه لها اليوم المجيد ، الذى أعز الله فيه الإسلام ، وأذل فيه أعدائه - كما عهدنا من أسلوب العماد البليغ وبيانه الرائع - وصفاً مؤثراً جداً - ، من شأنه ولا ريب أن يجعل هذا النصر المظفر وذكره ، ماثلة دائماً فى أذهاننا ، مهما طال عليها الأمد ؛ فيقول العماد : « فعقد السلطان محضراً للمشورة ، وأحضر كبراء عساكره المنصورة ؛ وشاروهم فى الأمر ، وحاوهم فى السر والجهر ؛ (...) . واستقر بعد مراديات ومعاودات ، ومفاوضات وتفويضات ، وضراعات من القوم وشفاعات ؛ على قطعة تكمل بها الغبطة ، وتحصل منها الحوطة ، وأشتروا بها مئتا أنفسهم وأموالهم ، وختلصوا بها رجالهم ونساءهم وأطفالهم ؛ على أنه من عجز بعد أربعين يوماً عما لزمه ، أو امتنع منه وما سألته ؛ ضرب عليه الرق ، وثبت فى تملكه لنا الحق ؛ وهو عن كل رجل عشرة (١٠) دنائير ، وكل امرأة خمسة (٥) ، وكل صغير أو صغيرة ديناران (٢) ؛ ودخل ابن بارزان (أحد كبار أمراء الفرنج) والبطرك ومقدما الداوية والاستبارية فى الضمان . وبذل ابن بارزان ثلاثين (٣٠) ألف دينار عن الفقراء ، وقام بالأداء ، ولم ينكل عن الوفاء ؛ فمن سأل خرج من بيته آمناً ، ولم يعد إليه ساكناً .

وسلموا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين (٢٧) من رجب على هذه القطيعة ، وردوه بالرغم رد الغصب لا الوديعه ؛ وكان فيه أكثر من مائة (١٠٠) ألف إنسان ، من رجال ونساء وصبيان ؛ فأغلقت دونهم الأبواب ، ورُتبت لعرضهم واستخراج ما يلزمهم النواب ؛ ووكل بكل باب أمير ومقدم كبير ، يحصر الخارجين ، ويحصى الواجدين ؛ فمن استخرج منه خرج ، ومن لم يقم بما عليه قعد فى الحبس وعدم الفرج .

ولو حفظ هذا المال حق حفظه ، لفاز منه بيت المال بأوفر حظه ؛ لكنما تم التفريط ، وعم التخليط ؛ فكل من رشا مشى ، وتكعب الأمانة نهج الرشد بالرشا ؛ فمنهم من أدلى من السور بالحبال ، ومنهم من حمل مخفياً فى الرحال ؛ ومنهم من غيرت لبسته فخرج بزى الجنند ، ومنهم من وقعت فيه شفاعاة مطاعة لم تقابل بالرد .

وكانت فى القدس ملكة رومية مترهبة ، فى عبادة الصليب متصلبة ، وعلى مصابها ملتبهة ، وفى التمسك بملتها متصعبة متعصبة ، أنفاسها متصاعدة للحزن ، وعبارتها متحددة تحدر القطرات من المزن ، ولها حال ومال وأشياء وأشياع ، ومتاع واتباع ؛ فمَن عليها السلطان وعلى كل من معها

بالإفراج ، وأيذّن في إخراج كل مالها في الأكياس والأخراج ؛ فراحت فرحى ، وإن كانت من شجنها فرحى .

وكانت زوجة الملك المأسور - ابنة الملك أمارى - ، مقيمة في جوار القدس مع مالها من الخدم والختول والجوارى ؛ فخلصت هي بمن معها ومن تبعها ، ومن إدعى أنه ممن صحبها وشيعها . وكذلك الإبرنساسة ابنة فيليب أم هنفرى ؛ أعفيت من الوزن ، وتوفّر مالها عليها في الحزن .

واستطلق صاحب البيرة زهاء خمسمائة (٥٠٠) أرمنى ، ذكر أنهم من بلدة ، وأن الواصل منهم إلى القدس لأجل متعبده ؛ وطلب مظفر الدين بن على كوجك ، زهاء ألف (١٠٠٠) أرمنى ادعى أنهم من الرها ، فأجراه السلطان من إطلاقهم له على ما اشتهى .

وكان السلطان قد رتب عدة دواوين ، في كل ديوان منها عدة من النواب من المصريين ومنهم من الشاميين ؛ فمن أخذ من أحد الدواوين خطأ بالأداء انطلق مع الطلقاء ، بعد عرض خطه على من بالباب من الأمناء والوكلاء ؛ فذكر لى من لا أشك في مقاله ، أنه كان يحضر في الدويان ويطلع على حاله ، فرمما كتبوا خطأ لن نقده في كيسهم ، ويلبس أمر تلييسهم ؛ فكانوا شركاء بيت المال لا أمناء ، وخانوه على ما حصل لكل من الغنى والنفع وما أضر غناه ؛ ومع ذلك حصل لبيت المال ما يقارب مائة (١٠٠) ألف دينار ، وبقي من بقى تحت رق وأسار ، ينتظر به انقضاء المدة المضروبة ، والعجز عن الوفاء بالقطيعة المطلوبة»^(١) .

« وشرع الإفرنج في بيع الأمتعة ، واستخراج ذخائرهم المودعة ؛ وباعوها بالمجان في سوق الوهان ، وتقاعد الناس بهم فابتاعوها بأرخص الأثمان (...) ؛ وكنسوا كنائسهم ، وأخذوا منها نفائسهم (...) ؛ ونقضوا من الكنائس الكنائس ، واستخرجوا من الخزائن الدفائن ؛ وجمع البطرك الكبير كل ما كان على القبر من صفائح التبر ومصوغات العسجد ومصنوعات اللجين ، وجمع ما كان في قمامه (كنيسة القيامة) من الجنسين والنسجين .

فقلت للسلطان : هذه أموال وافية ، واحوال ظاهرة ؛ تبلغ مائى (٢٠٠) ألف دينار ، والأمان على أموالهم لا أموال الكنائس والأديار ، فلا تتركها في أيدي هؤلاء الفجار . فقال : إذا تأولنا عليهم نسبونا إلى الغدر ، وهم جاهلون بسير هذا الأمر ؛ ونحن نجريهم على ظاهر الأمان ، ولا نتركهم يرمون أهل الإيمان بنكث الأيمان ، بل يتحدثون بما أفضناه من الإحسان .

(١) العماد : الفتح القسى ص ١٢٧ - ١٢٩ (وصف البيت المقدس) .

فتركوا ما ثقل وحملوا ما عز وخف ، ونفضوا من تراب تراثهم وقمامة قمامتهم الكف ؛ وانتقل معظمهم إلى صور ، وكتفوا بالديجور الديجور ؛ وبقي منهم زهاء خمس عشر (١٥) ألفاً امتنعوا عن مشروع الحق ، فاقتصوا بمشروط الرق . فأما الرجال وكانوا في تقدير سبعة (٧) آلاف ، فإنهم ألفوا ذلاً لم يكونوا له بالآلاف ؛ فاقسمتهم أيدي السبي أيدي سبا ، وتفرق الغائون بجمعهم في الوهاد والربا . وأحصيت النساء والصبيان ثمانية (٨) آلاف نسمة ، عادت بيننا مقتصمة ، وأصبحت بيكائها وجوه الدولة مبتسمة .

فكم محجوبة هتكت ، ومالكة ملكت ، وعزباء نكحت ، وعزيرة منحّت ، وبخيلة تسمّحت ، وحيية توقّحت ، ومجدة مزّحت ، ومصونة إنتذلت ، وفارغة شُغلت ، وعقيلة امتهنت ، وجميلة امتحنت ، وعذراء افتريعت ، وشماء فُرعّت ، ولماء رُشفت ، وظمياء فُرشّت (...) ؛ فكم تسرى منهن سري ، وتجراً عليهن جري ؛ وقضى وطره عزب ، ونفى نهمه سغب .

ولما تقدس القدس من رجس الفرنج أهل الرجز ، وخلع لباس الذل ولبس خلع العز ، أبى النصارى (يقصد نصارى الشام ذوى الأصول العربية) بعد أداء القطيعة أن يخرجوا ، وتصرّعوا فى أن يسكنوا ولا يزعمجوا ، وبذلوا خدماً وخدموا بذول ، وقابلوا كل ما ألزموا به بالتزام وقبول ؛ وأعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، وشحّت أفواههم بما شجّاهم فزاد شجّاهم وهم فاغرون ؛ ودخلوا فى الدّمة ، وخرجوا إلى العصمة ، وشغلوا بالخدمة ، واستعملوا فى المهنة ، وعادوا المحنة فى تلك المحنة ^(١) .

ويتضح من الوصف الدقيق البليغ ، الذى أمدنا به العماد الأصفهاني فى كتابه الفتح القيسى فى الفتح القدسي ، عن تسليم الفرنج للقدس فى ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ ، ورضوخهم لشروط الأمان الذى منحه لهم السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وحالهم فى خروجهم من القدس ؛ يتضح أنه كان بالقدس من الفرنج عند فتح السلطان له أكثر من مائة (١٠٠) ألف إنسان من رجال ونساء وصبيان ، فأغلقت دونهم أبواب مدينة القدس وصاروا أسارى ؛ وأن من لم يستطع من الفرنج أداء ما يفتدى به نفسه من الأسر والرق ، - وهو عشرة (١٠) دنانير عن كل رجل ، وخمسة (٥) دنانير عن كل امرأة ، وديناران (٢) عن كل طفل أو طفلة ؛ - وذلك بعد انقضاء المهلة وهى أربعين (٤٠) يوماً - ، وقع فى الأسر والرق ؛ وأنهم كانوا زهاء مائة (١٠٠) ألف نسمة ، عجز منهم عن أداء الفدية ١٥ ألف ، ٧ آلاف من الرجال ، و ٨ آلاف من النساء والصبيان ، صاروا جميعاً أرقاء للمسلمين ، وتسرى المسلمون بالنساء منهم ، وصرن ملك يمين وأمهات أولاد للمسلمين .

كذلك أفاد العماد الأصفهاني أن خزائن بيت مال المسلمين فى الدولة الصلاحية قد امتلأت من هذا الفداء ، رغم ما حدث من إنحراف وارتشاء بعض موظفى الديوان ، وتفاضيهم عن أخذ الفداء

(١) العماد : الفتح القيسى ص ١٣٥ - ١٣٦ (ذكر ما جرت عليه حال الفرنج فى خروجهم من القدس) .

من بعض الفرنج نظير رشاوى دفعوها إليهم ؛ وذكر العماد أن شهامة صلاح الدين قد آبتّ عليه إذلال من كان بالقدس من ملكات وأميرات الروم والفرنج ووقعن في الأسر ، فَمَنّ عليهن السلطان وأطلق سراحهن بغير فداء ، وسمح لهن بالخروج بأموالهن وجواديهن وعبيدهن ؛ عملاً بالقول السائر : أكرموا عزيز قوم ذلّ ؛ كما إنه - رحمه الله - قبل شفاعة بعض أمراء دولته في عدد كبير من الأرمن ، الذين كانوا مقيمين بالقدس على نية الحج والعبادة ، لا القتال مع الفرنج .

وذكر العماد أن تسامح السلطان بلغ مدها تجاه الكنائس والأديرة بالقدس ، فسمح لبطريرك كنيسة القيامة وأساقفة الأديرة ، بالاحتفاظ بدخائر وكنوز وتحف كنائسهم وأديرتهم ، كما أنه رفض ما أشار عليه به بعض المتشددين من رجال مشورته ، من هدم بناء كنيسة القيامة التي يَجُجّ إليها الفرنج مما وراء البحر ، لا اعتقادهم بوجود موضع صلب المسيح وقبره تحتها ؛ وسمح للنصارى بالحج إلى كنيسة القيامة ، وترك أبوابها مفتوحة للزيارة ، وحدد لهم مواضع معينة بالقدس يزورونها ، لكونها من مقدساتهم الدينية ، حتى يشيع ذكر ذلك التسامح الديني بين النصارى وعند الفرنج ، فينسب المسلمون إلى التسامح والعفو ، ولا ينسوا إلى التعصب والتشدد .

كما ذكر العماد الأصفهاني أن التسامح الديني لصلاح الدين تجاه المقدسات الدينية غير الإسلامية بالقدس ، الخاصة بأهل الكتاب الأول من اليهود والنصارى ، قد شملت أيضاً الأماكن المقدسة عند اليهود ، وأهمها الحصن المعروف بمحراب داوود ، الكائن - آن ذاك - عند باب مدينة القدس ، خارج حرم المسجد الأقصى ، وخارج السور المحيط بساحة وحرم المسجد الأقصى ، إذ يزعم اليهود أن بهذا الحصن كان منزل داوود وسليمان ، وبه محراب يُعرَف بمحراب داوود ؛ فأبقى صلاح الدين على محراب داوود ؛ وبقي مصوناً لا يمس حتى خربه الملك الناصر داوود صاحب الكرك سنة ٦٣٧ هـ ، لما نقض الفرنج شروط الهدنة بينهم وبين المسلمين ، وأعادوا بناء أسوار مدينة القدس وتحصين أبراجها .

ولم يفت العماد الأصفهاني ، التتية على أمر جوهرى ، خاص بشروط تسليم القدس في الفتح الصلاحي سنة ٥٨٣ هـ ، وهو أن السلطان صلاح الدين قد أقر العرب من نصارى الشام المقيمين بمدينة القدس ، على السكنى والإقامة بداخلها ؛ على أن يؤدوا الجزية السنوية الملزم بأدائها أهل الكتاب في دار الخلافة الإسلامية ، وبصيروا أهل ذمة للمسلمين ودولة الإسلام ، ويتمتعوا فيها بحقوق المواطنة المدنية والقضائية كأهل ذمة ؛ وتفسير ذلك بطبيعة الحال ، لما سبق للعرب من نصارى الشام من أهل إيلياء (القدس) وأهل لُدّ وفلسطين من عهد وعقد ذمة وصلاح ، منحهم إياه الخليفة الراشد عمر بن الخطاب بنفسه ، حين تم فتح القدس في أيام خلافته سنة ١٥ هـ ، وهو ما عرف بالفتح العمرى ، واشتهر صلحه وعهده وعقد ذمته لأهل القدس باسم صلح إيلياء ؛ الذى عُدّ بعد ذلك النموذج المحتذى لدى خلفاء الإسلام ، فى عهود صلحهم وذمتهم لأهل الذمة فى ديار الإسلام ، أو فى البلاد التى يفتحها الله على الإسلام والمسلمين من دار الحرب .

مقارنة العماد الأصفهاني بين الفتح العمري للشام والقدس سنة ١٥هـ ،

وبين الفتح الصلاحي للشام والقدس سنة ٥٨٢هـ

ولأن العماد الأصفهاني ، كان كاتب ديوان الإنشاء الصلاحي في بلاد الشام ، وأجد خواص الدولة الصلاحية ومستشاريها وأولى الراى فيها ، ورفيق صلاح الدين الأيوبي في غزواته وفتوحاته في بلاد الشام ، وأحد مؤرخي الدولة الصلاحية ؛ فقد أفرد للفتح الصلاحي كتاباً مستقلاً ، أسهب فيه في ذكر هذا الفتح العظيم ، وأرخ له بقلمه البليغ تاريخاً شيقاً حياً ، فكان يراعه ريشة رسام عبقري ، رسمت وقائع ها الفتح ، ولونته بالألوان ، حتى نطق وأفصح عن ذاته .

وقد قرن العماد في كتابه هذا الذى سماه (الفتح القيسى في الفتح القدسي ، بين هجرة صلاح الدين الأيوبي والمسلمين إلى القدس ، وبين هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة ، لما تمخض عن هاتين الهجرتين من ظهور للإسلام ؛ وعد تاريخ الفتح القدسي ، لجلاله وعظمته وأثره الباقي في تاريخ الإسلام والمسلمين ، حدثاً جليلاً من الأحداث الجسام التي تؤرخ بها الأمم ؛ وقارن بين فتوح المسلمين في بلاد الشام في عهد الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم ، على يد صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم رضوان الله عليهم الذين شهدوا معه صلى الله عليه وسلم مغازيه ومشاهده وفتوحاته ، وبشرهم صلى الله عليه وسلم بفتوح البلدان ، وكانوا عند تمام فتوح الشام قريبي العهد بوحي السماء وهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وبين الفتح الصلاحي للقدس ، الذى تم في المئة السادسة للهجرة ، حيث أصبح الإسلام غريباً ، وبعدّ العهد وطال الأمد بين المسلمين ووحى السماء ، فقست قلوبهم ، وتفرقت أهواءهم ، وضعفت شوكتهم ، وهان أمرهم أمام عدوهم الذى دهمهم من وراء البحر ، وعجز ملوكهم عن دفعه ، حتى تهضّ جهادهم السلطان . صلاح الدين . وقد أظرى العماد السلطان صلاح الدين الذى تم على يديه هذا الفتح العظيم ، وأكد أنه - رحمه الله - بتدينه وتقواه وورعه وعمله وجهاده واجتهاده ، كان مؤيداً في هذا الفتح من الله سبحانه وتعالى ، وأنه كان جديراً بهذا التأيد ، لأن الله سبحانه وتعالى قد وعد في القرآن الكريم بنصر جنده وأوليائه ، وأشاد العماد بوقوع هذا الفتح في عهد الخليفة العباسى الناصر لدين الله ، الذى فتح صلاح الدين البلاد باسمه وباسم دولة الخلافة العباسية .

فيقول العماد في ديباجة كتابه الفتح القيسى في الفتح القدسي : « هذا كتاب أسهمت فيه بين الأدياء الذين يتطلعون إلى الفرز المتجلية ، وبين المستخبرين الذين يستشرفون إلى السير المتحلية (...) . وإنما بدأنا بالتأريخ به لاستقبال سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (٥٨٣ هـ) ، لأن التواريخ معتادها ، إما أن تكون مستفتحة من بدء نشأة البشر الأولى ، وإما مستفتحة بمعقب من الدول الأخرى . فلا أمة من ذوات الملل وذوات الدول ، إلا ولهم تاريخ يرجعون إليه ، ويعولون عليه ، ينقله خلفها عن سلفها ، وحاضرها عن غابرها ، تُقيد به شوارد الأيام ، وتُنصب به معالم الأعلام ؛ ولولا ذلك لانقطعت الوصل ، وجهلت الدول ، ومات في أيام الآخر ذكر الأول (...) . ولولا التاريخ لضاعت مساعي أهل السياسات الفاضلة ، ولم تكن المدائح بينهم وبين المذام هي الفاصلة ؛ ولقل الاعتبار بمسألة العواقب وعقوبتها ، وجهل ما وراء صعوبة الأيام من سهولتها ، وما وراء سهولتها من صعوبتها (...) . وكانت العرب قبل ظهور الإسلام تؤرخ بتواريخ كثيرة ... ؛ وأظهر الله على الأديان الدين القيم ، ونسخ تاريخ الهجرة كل تاريخ متقدم (...) ؛ ووقت هذه الهجرة الوقت الذي أمر به أمر الإسلام ، ويومها اليوم الذي ما ولدت الليالي مثله من بينها الأيام ، وعامها الخاص بالفضل وكل ما بعده يعد من عوام الأعوام . وأنا أرخت بهجرة ثانية ، تشهد للهجرة الأولى بأن أمدها بالقيامه معذوق ، وبأن موعدها الموعد الصحيح غير المدفوع والصريح غير الممدوق ؛ وهذه الهجرة هي هجرة الإسلام إلى البيت المقدس ، وقائمها السلطان (صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب) ؛ وعلى عامها يحسن أن يُبنى التاريخ وينسق ، وتُسَمَّر عن أهلتها دآدىء المداد وتنشَق ؛ وهى وإن كانت هجرة الإسلام إلى القدس ثانية ، فقد كان النشئ عن وطنه لما نثته يد الكفر ثانية . وهذه الهجرة أبقى الهجرتين ، وهذه الكرة بقرة الله أبقى الكرتين (...) ، والفرق بين فتوح الشام فى هذا العصر ، وبين فتوحه فى أول الأمر ، فرق يتبين تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر .

فإن الشام فتح أول والعهد بالرسول صلى الله عليه وسلم غير بعيد ، والوحى ما كاد يتعطل فى طريقه من السماء إلى الأرض بريد ؛ والعيون التى شاهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وسلم تسيل سيوفها من أجفانها ؛ والقلوب التى شهدت مواقف معجزاته أوثق بخبره فى الفتح منها يعيانها ؛ ورسول عالم الغيب إلى عالم الشهادة بالآيات المؤتلفة مختلفة ، ونجدات السماء إلى أهل الأرض متصلة بالملائكة منزلة ومسومة ومردفة ؛ وقد أخبرهم سيدنا وسيدهم أن الأرض زويت له مشارقها ومغاربها ، وأنه سيلبغ ملك أمة المثوبة المرحومة ماضت عليه جوانبها (...) . والشام الآن قد فتح حيث الإسلام قد وهن العظم منه واشتعل الرأس شيباً ، وهريق شبابه واستشن أديمه ، وقد عاد غريباً كما بدأ غريباً ، وقد طلع شرف الستمائة (...) ؛ وطال المد على القلوب فقسست ، ورائت الفتنة على البصائر فطمست ، وعرض هذا الأذى قد أعتمى وأصم حبه ، ومتاع هذه الحياة القليل قد شغل عن الجزيل فى الآخرة كسبه . والكفار قد خشنت عرائكهم ، واتسعت ممالكهم ،

واستبصروا في الضلال ، واستبضعوا للقتال ؛ وخرجوا من ديارهم يخطبون غاشية الموت ، ونفروا من وراء البحر يطلبون أمامهم ناشية الصوت .

ومضت ملوك الإسلام ، ومضت أيامهم كالبارق وإن لم يخلع الإطلام ، وزادت أيامهم الأيام خيالاً فتنازع الناس طرائف الأحلام ، وحاربوا هذا العدو الكافر فما أثاروا فيهم وكانوا محاربين كمسالمين ، وبدلوا جهودهم فلا نقول أنهم مظلومون بالعجز وأنسيهم ظالمين (...) . فلما أراد الله الساعة التي خلاها لوقعتها ، وأظهر الآية التي لا أخت لها ، فنقول : فهي أكبر من أختها ؛ أفضت الليلة الماطلة إلى فجرها ، ووصلت الدنيا الحامل إلى تمام شهرها ، وجاءت بواحدتها التي تُضاف إليه الأعداد ، ومالكها الذي له السماء خيمة والحجك أطناب والأرض بساط والجبال أوتاد .. (صلاح الدنيا والدين) ، ومهما دعونا له فإن الله قد سبق إليه كونا ، ورأينا بين منانا وبين كرمه بونا ... ؛ فإن قلنا أحسن الله إليه ؛ فقد قال : ﴿ إِنَّا لَا نَضِيعُ أجرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ (الآية ٣٠ من سورة الكهف) . وإن قلنا : جزاه الله بالإحسان ، فقد قال : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ (الآية ٦٠ من سورة الرحمن) . وإن قلنا : هداه الله سبيله ، فقد قال : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (الآية ٦٩ من سورة العنكبوت) . وإن قلنا : لا ضيع الله عمله ، فقد قال : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَابِدٍ ﴾ (الآية ١٩٥ من سورة آل عمران) . وإن قلنا : لا جعل الله لدهر عليه سيلاً ، فقد قال : ﴿ مَا عَلَى الْمُخْسِرِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ (الآية ٩١ من سورة التوبة) ، وإن قلنا : زاده الله هدى ، فقد قال : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ (الآية ١٧ من سورة محمد) . (...) وإنا لنرجو أن نكون قد كتبنا بمدحه مع الصادقين الذين أمر الذين آمنوا أن يكونوا معهم ، وأن نكون قد كتبنا مع المحسنين لأننا أحسنا وصف إحسان الله إلى عباده . (...) .

« ويسر الله هذه الفتوح ، وأنزل بها الملائكة والروح ، في أيام سيدنا ومولانا الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين أبي العباس أحمد ، ابن الإمام المستضي بالله أبي محمد الحسن ، ابن الإمام المستجد بالله أبي المظفر يوسف ، (...) بن عبد الله بن العباس ، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين والخلفاء الراشدين (...) ؛ والسلطان صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف ابن أيوب ناصر دعوته وداعى نصرته ، ووليه الطائع وسيفه القاطع ، والمحكم بأمره ، والمؤمر بحكمه (...) . ولما كان هذا الفتح في سنة ثلاث وثمانين وخمسائة (٥٨٣ هـ) ، بدأت بها ، وأنشأت رياضي بسحبها ، وما شَهِدْتُ إلى إلا بما شاهدته وشهدته (...) »^(١) .

(١) أنظر هذه الديباجة بتمامها لأهميتها ، عند العماد : الفتح القسى ، تحقيق محمد محمود (صبح) د . ت ، ص ٤١ - ٥٨ .

إزالة صلاح الدين لتعديبات الفرنج على قبة الصخرة والمسجد والأقصى ،

وعمارته لهما سنة ٥٨٢هـ

ولندع يراع العماد الأصفهاني ، كاتب ديوان الإنشاء الصلاحي ، يقدم لنا صورة حية ملونة ناطقة بليغة ، لتطهير صلاح الدين المدينة القدس وقبة الصخرة والمسجد الأقصى من رجس الفرنج ومنكراتهم وتعدياتهم ، وإعادة الشعائر الإسلامية إليهم ، والاحتفاء بإقامة أول خطبة جامعة وأول صلاة جمعة فيها بعد استقازهم من الفرنج ؛ بحيث أمر بإظهار المحراب - وكان الداوية قد بنوا في وجهه جدار -؛ ونصب المنبر ، وفرش القبة والمسجد بالسجاجيد الفاخرة ، وأتارهما بالقناديل الباهرة ، وأقيمت الصلوات الإسلامية الخفيفة ؛ ونطق الآذان ، وعاد الإيمان ، ووحد الله سبحانه وتعالى ؛ وصدق المنبر ، وتولى المذكرون والوعاظ والحفاظ والعلماء والفقهاء والمحدثون والمفسرون إلقاء دروسهم . واختار السلطان القاضي محي الدين أبي المعالي محمد بن زكر الدين علي القرشي قاضي دمشق خطيبًا ، ليخطب خطبة أول جمعة تقام في المسجد الأقصى بعد استرداده من الفرنج ؛ فأهدى العماد الأصفهاني هذا الخطيب خلعة سوداء من خلع ديوان الخلافة العباسية ، ليرتديها حين يعتلى المنبر ؛ فألقى هذا الخطيب خطبتين ذكر فيهما فضل بيت المقدس والمسجد الأقصى وتاريخ تأسيسه ، وتطهير السلطان له ؛ ثم نزل وصلى في المحراب وأمّ الناس ، وصلى السلطان في قبة الصخرة ومن ورائه جموع المصلين الذين ملؤا ساحة المسجد الأقصى . واختار السلطان الواعظ الفقيه الحنبلي زين الدين أبو الحسن علي بن نجما ، ليجلس للوعظ على السرير الذي أعيد للوعظ في مواجهة المنبر ؛ فألقى مواعظ مؤثرة . ورتب السلطان في المسجد الأقصى خطبًا دائمة ، يتولى خطبة الجمعة به كل إسبوع .

فيقول العماد الأصفهاني في كتابه الفتح القيسي في الفتح القدسي ، في الفصل الذي عنوانه بـ (ذكر ما أظهره السلطان في القدس من الحسنات ومحاه من السيئات) : « ولما تسلم السلطان القدس ، أمر بإظهار المحراب ، وحتّم به أمر الإيجاب ؛ وكان الداوية قد بنوا في وجهه جدار وتركوه للغلة هربًا (هربًا : مخازن للغلال) ، وقيل كانوا اتخذوه مستراحًا عدوانًا وبقيا ؛ وكانوا قد بنوا من غربي القبلة دارًا وسبعة ، وكنيسة ريفية ؛ فأوعز برفع ذلك الحجاب ، وكشف النقاب عن عروس المحراب ؛ وهدم ما قدامه من الأبنية ، وتنظيف ما حوله من الأبنية ؛ بحيث يجتمع الناس في الجمعة ، في العرصة (العرصة : ساحة الدار) المتسعة . ونصب المنبر ، وأظهر المحراب المطهر ، ونقض ما أحدثوه بين السواري (السواري : الاسطوانات التي تشبه الأعمدة) ؛ وفرشوا تلك البسيطة

بالبسطة الرفيعة ، عَوْضُ الحصر والبوارى ؛ وغَلقت القناديل ، وتلى التنزيل ، وحق الحق وبطلت الأباطيل ، وتوتلى الفرقان وعُزِلَ الإنجيل ؛ وصمّت السجّادات ، وصمّت العبادات ، وأقيمت الصلوات ، وأديمت الدعوات ، وتجلت البركات ، وانجلت الكربات ، (...) وتليت الآيات ، وأعلت الرايات . ونطق الآذان وخرس الناقوس ، وحضر المؤذنون وغاب القسوس (...) ؛ وعاد الإيمان الغريب منه إلى موطنه ، وطلب الفضل من معدنه ؛ وورد القراء وقرى الأوراد ، واجتمع الزهاد والعبّاد ، والأبدال والأوتاد ، وعُبدَ الواحد ووحّد العابد ، وتوافد الراكع والساجد (...) . وصدق المنبر ، وصدق المذكر ، وانبعث المعشر ، وذكر البعث والمحشر ؛ وأملى الحفاظ ، وأسلى الوعظ ، وتذاكر العلماء ، وتناظر الفقهاء ، وتحدث ورورى المحدثون ، وتحنّف الهداه وهدى المتحنفون (...) ، ولخص المفسرون ، وفسر الملخصون .

وانتدى الفضلاء ، وانتدب الخطباء ، وكثر المترشحون للخطابة ، المتوشحون بالإصابة ، المعروفون بالفصاحة ، الموصوفون بالخصافة ؛ فما فيهم إلا منّ خطب الرتبة ، ورتب الخطبة ، وأنشأ معنى شائناً ، ووشى لفظاً رائقاً ، وسوى كلاماً بالوضع لائقاً ، (...) ؛ وما منهم إلا من يتأهب ويترقب ، ويتوسل ويتقرب ، (...) ، والسلطان لا يعين ولا يبين ، ولا يخص ولا ينص ؛ ومنهم من يقول : ليتى خطبت فى الجمعة الأولى ، وفزت باليد الطولى ، وإذا ظفرت بطالع سعدى ، فما أبالى بمن يخطب بعدى .

فلما دخل يوم الجمعة رابع (٤) شعبان ، أصبح الناس يسألون فى تعيين الخطيب السلطان ؛ وامتلاً الجماع ، واحتفلت المجامع ، وتوجست الأبصار والمسامع ، وفاضت لركة القلوب المدامع (...) ؛ وطوبى لمن عاش ، حتى حضر هذا اليوم الذى فيه انتعش الإسلام وإرتاش ؛ وما أفضل هذه الطائفة الحاضرة ، والعصبة الطاهرة ، والأمة الظاهرة ؛ وما أكرم هذه النصره الناصرية ، والأسرة الإمامية ، والدعوة العباسية ، والدولة الصلاحية ؛ وهل فى بلاد الإسلام أشرف من هذه الجماعة ، التى شرفها الله بالتوفيق لهذه الطاعة .

وتكلموا فيمن يخطب ، ولمن يكون المنصب (...) ؛ فنصب السلطان الخطيب بنصه ، وأبان عن اختياره بعد فحصه ؛ وأوعز إلى القاضى (محى الدين أبى المعالى بن زكى الدين على القرشى) بأن يرقى ذلك المرقى ، وترك جباه الباقيين بتقديمه عرفى ؛ فأعرتة من عندى أهبه سوداء من تشريف الخلافة ، حتى تكمل له شرف الإفاضة والإضافة ؛ فرقى العود ، ولقى السعود ؛ واهتزت أعطاف المنبر ، واعتزت أطراف المعشر . وخطب وأنصتوا ، ونطق وسكتوا ؛ وأفصح وأعرب ، وأبدع وأغرب ، وأعجز وأعجب ، وأوجز وأسهب ؛ ووعظ فى خطبته ، وخطب بموعظته ؛ وأبان عن فضل البيت

المقدس وتقديسه ، والمسجد الأقصى من أول تأسيسه ، وتطهيره بعد تنجيسه ، وإحراس ناقوسه وإخراج قسيسه ؛ ودعا للخليفة والسلطان . وختم بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾^(١) (الآية ٩٠ من سورة النحل) ؛ ونزل وصلى فى المحراب ، وافتتح بيسم الله من أم الكتاب ؛ فاتم بتلك الأمة ، وتم نزول الرحمة ، وكمل وصول النعمة ؛ ولما قضيت الصلاة انتشر الناس ، واشتهر الإيناس .

وكان قد نصب للوعظ تجاه القبلة سرير ، ليفرعه كبير ؛ فجلس عليه (زين الدين أبو الحسن على بن نجا) ؛ فذكر من خاف ومن رجا ، ومن سعد ومن شقى ومن هلك ومن نجا ، وخوف بالحجة ذو الحجا ، وجلا بنور عظاته من ظلمات الشبهات ما دجا (...) .

وصلى السلطان فى قبة الصخرة ، والصفوف على سعة الصحن بها متصلة ، والأمة إلى الله بدوام نصره مبتهلة ، والوجه الموجهة إلى القبلة عليه مقبلة ، والأيدى إلى الله مرفوعة ، والدعوات له مسموعة . ثم رتب فى المسجد الأقصى خطيباً استمرت خطبته ، واستقرت نصبته^(٢) .

واتبع العماد الأصفهاني هذا الفصل ، بفصل آخر عنوانه بـ (وصف الصخرة المعظمة عمرها الله) ؛ ذكر فيه أن الفرنج إبان احتلالهم للقدس ، قد تعمدوا إخفاء الصخرة المقدسة ، لارتباطها بمعجزة الإسراء والمعراج النبوية المحمدية ، حتى لا تصل إليها عيون وأيدى المسلمين المتبركين بها ؛ فبنوا فوق الصخرة كنيسة ومذبحاً ، حتى تحجب الصخرة والأبنية الإسلامية المبنية فوقها عن الرؤية ؛ وأفردوا الموضع القدم الشريف المحفور فى الصخرة ، قبة صغيرة مَذْبَحِيَّة ، قائمة على أعمدة من الرخام ؛ وأدعوا أن هذه القدم الشريفة ، هى قدم السيد المسيح عليه السلام ، وليست قدم رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، كما يعتقد المسلمون ؛ وزيّنوا هذه الكنيسة ومذبحها بالصور والتماثيل الدينية النصرانية (الأيقونات) ، ونقشوا على جدرانها صور الأنعام والحيوانات ، عاين منها العماد الأصفهاني بنفسه صوراً للخنازير ؛^١ بحيث حجبت تلك الكنيسة ومذبحها ، الصخرة المقدسة ، والأبنية الإسلامية القديمة المبنية فوقها . فأمر السلطان صلاح الدين بهدم هذه الكنيسة ومذبحها وجدرانها ، وإظهار الصخرة المقدسة للناظرين كما كانت فى الزمن القديم ؛ وتعليق القناديل فوقها

(١) أورد مجير الدين الحنبلي نص هذه الخطبة ، أنظر الأانس الجليل ١ : ٣٣٢ - ٣٣٩ (ذكر أول خطبة بعد الفتح . وهى فى غاية الأهمية ، فلترجع وتدرس لما فيها من عظة وعبرة وتصوير حَيِّ للفتح الصلاحي للقدس .
(٢) العماد الأصفهاني : الفتح القيسى ص ١٣٧ - ١٤٠ (ذكر ما أظهره السلطان فى القدس من الحسنات ومناه من السيئات) . وعن تطهير السلطان صلاح الدين للصخرة ، يقول سبط ابن الجوزى : " ودخل السلطان الصخرة وغسلها بالماورد ، وقيل غسلها بلحيته وهو يبكي ؛ ومعنى الصور منها ، وكسر الصلبان ، وأحرق در الداوية ، وعمر المسجد الأقصى " أنظر مرآة الزمان ٨ : ٣٩٧ س ١٨ - ٢٠ .

لإنارة مكانها ، وإحاطتها بحجرة مكونة من شبايك حديد لصيانتها . ثم رتب السلطان فى قبة الصخرة إمامًا من أحسن القراء تلاوة ، يُتقن القراءة بالقراءات السبع والعشر - أى القراءات السبع المتواترة ، والقراءات الأربع الشاذة ؛ وحمل السلطان إلى القبة وإلى محراب المسجد الأقصى المصاحف والختامات والربعات القرآنية الضخمة والجميلة ، وكراسى المصاحف اللازمة لفتحها وقراءتها ، لتظل بين أيدي القراء والمرتادين للمسجد الأقصى يقرؤونها ويتعبدون بقراءتها ؛ ورتب السلطان للقبة خاصة وللبيت المقدس عامة ، قومه ونظار من ذوى التدين والعبادة والفضل ؛ وبذلك صان السلطان الصخرة المقدسة من عبث الفرنج ، الذين كانوا إبان احتلالهم للقدس يقطعون منها قطعًا ، فيحملوها إلى القسطنطينية وصقلية ويتاجروا فيها بفرض التكسب ، ليبيعوا للعوام ؛ وأمر السلطان بترميم محراب المسجد الأقصى لتجميله وصيانتة ؛ وتبارى ملوك بنى أيوب ، من إخوة السلطان صلاح الدين وأبناء عمومته وأولاده فى عمارة وصيانة مدينة القدس والمسجد الأقصى وقبة الصخرة ، فكنسوا المسجد الأقصى وساحاته بأيديهم ، ومسحوه بماء الورد ، وغطوه بالعطور وبخروه بالبخور ، مقتدين فى ذلك بفعل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صدر الإسلام حين تم الفتح العمرى للقدس ، وفرشوا القبة والمسجد بالسجاجيد الفاخرة ، وشحنوهما بالذخائر والتحف والأسلحة ، بقصد تزيينهما وحمايتهما فى آن واحد ، وعمروا سور المدينة ، وحفروا الخندق حوله ، لتحصينها .

يقول العماد الأصفهاني فى الفصل الذى عنوانه بـ (وصف الصخرة المعظمة عمرها الله) :
 وأما الصخرة فقد كان الفرنج قد بنوا عليها كنيسة ومدجًا ، ولم يتركوا فيها للأيدى المتبركة ولا للعيون المدركة ملمسًا ولا مطعمًا ؛ وقد زينوها بالصور والتماثيل ، وعينوا بها مواضع الرهبان ومحط الإنجيل ، وكملوا بها أسباب التعظيم والتبجيل ؛ وأفردوا فيها لموضع القدم قبة صغيرة مذهبة ، بأعمدة الرخام منسوبة ؛ وقالوا : « محل قدم المسيح ، وهو مقام التقديس والتسييح » ؛ وكانت فيها صور الأنعام مثبتة فى الرخام ، ورأيت فى تلك التصاوير ، أشباه الخنازير ، والصخرة المقصودة المزورة ، بما عليها من الأبنية مستورة ، وبذلك الكنيسة المعمورة مغمورة .

فأمر السلطان بكشف نقابها ، ورفع حجابها ، وحسر لثامها ، وقشر رخامها ، وكسر رجامها ، ونقض بنائها ، وفض غطائها ؛ وإبرازها للزائرين ، وإظهارها للناظرين ؛ ونزع لبوسها ، وزفاف عروسها ، (...) ؛ فعادت كما كانت فى الزمن القديم ، وشهدت حين شوهدت بحسبها الكريم (...) ؛ وما كان يظهر منها قبل الفتح إلى قطعة من تحتها ، قد أساء الكفار فى نحتها ؛ وظهرت الآن أحسن ظهور ، وسفرت أئمن سفور ، وأشرقت الفناديل من فوقها نورًا على نور ؛ وعملت عليها حظيرة من شبايك حديد ، والاعتناء بها إلى الآن كل يوم فى مزيد .

ورتب السلطان في قبة الصخرة إمامًا من أحسن القراء تلاوة ، وأزيهم طلاوة ، وأنداهم صوتًا ، وأسماهم في الديانة صيتًا ؛ وأعرفهم بالقراءات السبع بل العشر . (...) . وحمل إليها وإلى محراب المسجد الأقصى مصاحب وختمات ، وربعات معظمات ؛ لا تزال بين أيدي الزائرين على كراسيها مرفوعة ، وعلى أسرتها موضوعة . ورتب لهذه القبة خاصة ، وللبيت المقدس عامة ، قومة لشمل مصالحتها ضامة ؛ فما ترتب إلا العارفون العاكفون ، القائمون بالعبادة الواقفون (...) .

وكان الفرنج قد قطعوا من الصخرة قطعًا وحملوا منها إلى القسطنطينية ، ونقلوا منها إلى صقلية ، وقيل باعوها بوزنها ذهبًا ، واتخذوا ذلك مكسبًا . ولما ظهرت ؛ ظهرت مواضعها ، وقطعت القلوب لما بانَت مقاطعها ؛ فهي الآن مبرزة للعيون بجزءها ، باقية على الأيام بعزها ، مصونة للإسلام في خدرها وحرزها . وهذا كله تم بعد انفصال السلطان ، والشروع في العمران .

« وأمر بترخيم محراب الأقصى ، وأن يبالغ فيه ويستقصى ؛ وتنافس ملوك بني أيوب فيما يؤثر بها من الآثار الحسنة ، وفيما يجمع لهم ود القلوب وشكر الألسنة (...) الخ »^(١) .

إنشاء صلاح الدين للمدارس وللخاناته الصلاحية بالقدس ؛

وعنايته بالمزارات المقدسة القديمة بها ، وعلى رأسها كنيسة القيامة ، ومحراب داود

وأتبع العماد الأصفهاني الفصل الذي عنوانه بـ (وصف الصخرة المعظمة عمّرها الله) ، بفصل آخر عنوانه بـ (ذكر محراب داود عليه السلام ، وغيره من المشاهد الكرام ؛ وتبطليل الكنائس ، وإنشاء المدارس) ؛ ذكر فيه ما قام به السلطان صلاح الدين في مدينة القدس من تدابير ، قصّد منها إحياء علوم الدين في هذه المدينة المقدسة ؛ وذلك بعمارة المساجد والمدارس والرباطات والخوانق بها ، بدلاً من الكنائس التي استحدثتها الفرنج بالمدينة إبان احتلالهم لها ؛ وعنايته بالمشاهد والمزارات الأثرية القديمة الخاصة بالأنبياء الأقدمين بمدينة القدس ، وخاصة المقدسة منها عند اليهود والنصارى ؛ وعلى رأسها محراب داود المقدس عند اليهود ، وكنيسة قيامه (القيامة) المقدسة عند النصارى ، وكلاهما يقع خارج حرم المسجد الأقصى وساحته وسوره الخارجي . فجدد السلطان محراب داود ، وجعل وإلى القدس يقيم في هذا الحصن (أو القلعة) الموجود بداخله محراب داود ، والكاثرين - آنذاك - عند باب مدينة القدس ؛ ورتب لهذا المحراب إمامًا ومؤذنين وقومه ، لإقامة الشعائر الإسلامية فيه وخدمته

(١) العماد : الفتح القيسى ص ١٤١ - ١٤٤ ؛ وقارن مجير الدين الحنبلي : الأونس الجليل ١ : ٣٣٩ - ٣٤٠ (حيث يلخص بأسلوبه هو المختصر هذا الفصل العمادي الرابع) .

وصيانتة ؛ وذلك - أغلب الظن - لأن صلح إيلياء العمرى سنة ١٥ هـ ، حرم على اليهود سكنى مدينة القدس ، نزولاً على رغبة أهل إيلياء من النصارى .

وأمر السلطان بعمارة جميع المساجد بالمدينة ، واستشار جلساءه من العلماء وذوى الرأى ، فى استحداث مدرسة للشافعية ورباط و خانقاه للصوفية بمدينة القدس ، ومدارس أخرى بها لبقية المذاهب الفقهية الإسلامية : الحنفية والمالكية والحنبلية ، لإعادة نشر العلم الشرعى بالمدينة ؛ فأشاروا عليه بذلك ، فعين لبناء هذه المدارس موضع عدّة كنائس استحدثها الفرنج بالقدس إبان احتلالهم لها ؛ ولا تزال خانقاه الصلاحية قائمة باقية بمدينة القدس إلى يومنا هذا ، وتعد من مزارتها الإسلامية الأثرية . ورفض السلطان إغلاق أبواب كنيسة القيامة ، وحرمان النصارى من زيارتها والحج إليها ؛ وهو ما أشار عليه به بعض المتشددین من أهل مشورته ؛ كما أنه لم يأخذ برأى من أشار بهدمها ؛ وذلك نظراً لما رآه أكثر أهل مشورته من أنّ النصارى تقدس موضع الصليب والقبر الكائن تحت كنيسة القيامة ، ولا تقدس بناء الكنيسة ذاته ؛ ونظراً لأنه لما فتح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه القدس فى صدر الإسلام (سنة ١٥ هـ) ، أقر النصارى على هذا المكان ، ولم يأمرهم بهدم البنيان . وبهذا المسلك التسامح تجاه المقدسات الدينية والمزارات المقدسة لليهود والنصارى بمدينة القدس ، أصبح السلطان صلاح الدين الأيوبي مضرب الأمثال على مَرِّ التاريخ للتسامح الدينى ؛ وهو ما لم تحظ به المقدسات والمزارات الإسلامية بمدينة القدس ، إبان احتلال الفرنج لها ؛ إذ حولت كلها إلى كنائس ، - شأنها فى ذلك شأن جميع المساجد والجوامع فى جميع المدن التى احتلها الفرنج من مدن ساحل الشام - ؛ وهو ما لا تحظى به اليوم المقدسات والمزارات الإسلامية بمدينة القدس ، على يد الاحتلال الإسرائيلى الصهيونى ، الذى لا يكف عن تخريبها وإحراقها وإتلافها والعبث بها ، ومحاولة تغيير هويتها وتهويدها .

فيقول العماد الأصفهاني : « واما محراب داود عليه السلام خارج المسجد الأقصى ، فإنه حصن عند باب المدينة منيع ، وموضع عال رفيع ؛ وهو الحصن الذى يقيم به الوالى ، فاعتنى السلطان بأحواله الحوالى ؛ ورتب له إماماً ، ومؤذنين وقواماً ؛ وهو مثابة للصلحين ، ومزار الغادين والرائحين ؛ فأحياه وجدده ، ونهج لقاصديه جدده (الجدد : الطرق المختلفة) . وأمر بعماره جميع المساجد ، وصورن المشاهد ، وإنجاح المقاصد ، وإصفاء الموارد ، للقاصد والوارد . وكان موضع هذه القلعة دار داود وسليمان عليهما السلام ، وكان يتابهما فيها الأنام .

وكان الملك العادل نازلاً فى كنيسة صهيون ، وأجناده على بابها مخيمون .

وفاوض السلطان جلساؤه من العلماء الأبرار ، والأتقياء الأخيار ؛ في مدرسة للفقهاء الشافعية ، ورباط للصحاء الصوفية ؛ فعين للمدرسة الكنيسة المعروفة بصندحنة - عند باب أسباط -^(١) ؛ وعين دار البطرک - وهى بقرب كنيسة قمامة (أى كنيسة القيامة) - للرباط ؛ ووقف عليهما وقوفًا ، وأسدى بذلك إلى الطائفتين معروفًا ؛ وارتاد أيضًا مدارس للطوائف ، ليضيفها إلى ما أولاه من العوارف .

وأمر بإغلاق أبواب كنيسة قمامة (القيامة) ، وحرم على النصارى زيارتها ولا الإمامة ؛ وتفاوض الناس عنده فيها : فمنهم من أشار بهدم مبانيها ، وتعفيه آثارها ، وتعمية نهج مزارها ، وإزالة تماثيلها ، وإزاحة أباطيلها ، وإطفاء قناديلها ، وإعفاء أناجيلها (...) ؛ وقالوا : إذا هُدمت مبانيها ، وألحقت بأسافلها أعاليها ، ونُيشتَ المقبرة وغُفيتَ ، وأخذت نيرانها وأطفيت ، ومُحيت رسومها ونفيت ، وحُرِّتَ أرضها ، ودُمِّرَ طولها وعرضها ، وانقطعت عنها امداد الزوار ، وانحسمت عن قسدها موارد أطماع أهل النار ؛ ومهما استمرت العمارة ، استمرت الزيارة .

« وقال أكثر الناس : لا فائدة فى هدمها ولا هدها ، ولا يؤذن بصد الزيارة عن الكفرة وسدها ؛ فإن متعبدهم موضع الصليب والقبر لا ما يشاهد من البناء ، ولا ينقطع عنها قصد أجناس النصرانية ولو نُسِقتَ أرضها فى السماء ؛ ولما فتح أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه - القدس فى صدر الإسلام أقرهم على هذا المكان ، ولم يأمرهم بهدم البنيان »^(٢) .

كتاب العماد الأصفهاني للديوان العزيز ديوان الخلافة العباسية ببغداد ،

للإشارة بفتح القدس على يد صلاح الدين سنة ٥٨٢هـ

وتخبَّر سبط ابن الجوزى - وهو مؤرخ دمشقى عاصر الجيل الثانى والثالث من ملوك بنى أيوب ، وكان على صلة وثيقة بهم ، وصديق شخصى لجميعهم^(٣) ، وهم : المعظم عيسى صاحب

(١) كنيسة صندحنة : هذه الكنيسة يقال أن فيها قبر حنة أم مريم عليها السلام ، وقد صارت مدرسة أقامها صلاح الدين (تاريخ أبو الفدا ج ٣ : ٨٣ ط . المطبعة الحسينية ١٣٢٥ هـ ، ويبدو أن كلمة صند ، هى تحريف للكلمة الفرنسية Saint ، بمعنى قديسة) عن حاشيه ، ٣) لمحمد صبح ، على الفتح القسى ، ص ١٤٥ .

(٢) العماد الأصفهاني : الفتح القيسى ص ١٤٥ - ١٤٦ ؛ وقارن مجير الدين الحنبلى : الأئس الجليل ١ : ٣٤٠ - ٣٤١ (محراب داود عليه السلام وغيره من المشاهد) .

(٣) روى سبط ابن الجوزى فى تاريخه مرآة الزمان أخبارًا شفوية عن هؤلاء الملوك والسلطين من بنى أيوب وهم : المعظم ، الكامل ، الأشرف ، الناصر داود ، الصالح نجم الدين أيوب ، الملك الجواد ، انظر سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٨ : ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥٢ - ٦٥٣ ، ٦٦٢ ، ٧٠١ ، ٧٠٥ ، ٧١١ ، ٧١٣ ، ٧١٥ ، ٧١٦ ، ٧١٨ ، ٧٢٠ ، ٧٢٧ ، ٧٢٨ - ٧٢٩ .

دمشق ، وأخوه الملك الكامل محمد سلطان مصر ، وأخوه الملك الأشرف موسى صاحب الجزيرة
 الفراتية ، وابنه الناصر داود صاحب الكرك ، والصالح نجم الدين أيوب سلطان الديار المصرية ،
 والملك الجواد - تخيير لنا سبط ابن الجوزى كتاباً عمادياً في البشارة بفتح القدس سنة ٥٨٣ هـ ، كتب
 به عن صلاح الدين الأيوبي ، إلى الديوان العزيز ببغداد ، لتهنئة الخليفة العباسي الناصر لدين الله الذي
 تم في عهده هذا الفتح ، بما فتحه الله على الإسلام والمسلمين ؛ فيقول سبط ابن الجوزى : وكان
 القاضي الفاضل بدمشق مريضاً ، لم يحضر هذا الفتح ، فأمر السلطان العماد الكاتب ، أن يكتب كتاباً
 إلى بغداد بالفتح ، فكتب في أوله : ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ
 كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ (الآية
 ٥٥ من سورة النور) .

الحمد لله الذي أنجز لعباده الصالحين وعد الاستخلاف ، وقهر بأهل التوحيد أهل الشرك
 والخلاف ؛ وخص سلطان الديوان العزيز بهذه الخلافة ، وبذل الأمن به بعد المخافة ؛ وأدخره هذا الفتح
 الأسنى ، والنصر الأهنى ، لخدام المقام النبوى ؛ ومنحه أخلص أوليائه ، وأخص أصفيائه ؛ بعد أن
 انقضى من الملوك الماضية ، والقرون الخالية ؛ على حسرة تئنيه ، وفوات ترجيه ، وتقاصرت عنه الهمة ،
 وتخاذلت عنه ملوك الأمم .

فله الحمد الذى حقق بفتحه ما كان فى النفس ، وبدّل وحشة الكفر فيه من الإسلام بالأنس ،
 وجعل عزّ يومه ما حياً ذلّ أمس ، وأسكنه العالم والفقير بعد البطرك والقس ، وعباد الصلب والشمس
 ؛ وأخرج (؟) أهله يوم الجمعة من أهل يوم الأحد ، وقمع من كان يقول بالتثليث أهل قلّ هو الله
 أحدّ .

وقد فتح الخدام بأمر الله من الداروم إلى طرابلس ، وجميع ما حوت مملكة الفرنج إلى نابلس ؛
 وغسّلت الصخرة بدموع الباكين من المؤمنين ، ونزع اليأس عنها بإفاضة ثواب المحسنين ، ورجع
 الإسلام غريبة منه إلى داره ، وطلع قمر الهدى من سراه ؛ وعادت الأرض المقدسة إلى ما كانت عليه
 من التقديس ، وأمنت المخاوف بها وفيها فصارت^(١) صباح السرى ومناخ التعريس ، وأقصى من
 المسجد الأقصى الأقصون من الله الأبعدون ، وتوافد إليه المصطفون المقربون ؛ وخرس الناقرس

(١) فى مرآة الزمان فسارت ، وبهامش المحقق لعلها فحمدت ، وما استباه من نص الكتاب كما أورده العماد
 نفسه فى الفتح القسى ص ١٤٧ .

برحيل المسيحيين ، وخرج المفسدون بدخول المصلحين ، وقال المحراب^(١) لأهله مرحباً وأهلاً ، وشمل جماعة المسلمين من إقامة الجمعة والجماعة ما جمع للإسلام فيه شمله ، ورفعت الأعلام العباسية^(٢) على منبره ، فأخذت من بره أو فى نصيب ، وتلت بالسنة عذبها نصر من الله وفتح قريب ؛ وغسلت الصخرة بدموع المتقين من دنس الكافرين ، وأبعد أهل الإلحاد من قربها بقرب الموحدين ؛ وذكر بها ما نسى من عهد المعراج النبوى ، والإعجاز المحمدى ؛ وعاد الإسلام بإسلام البيت المقدس إلى تقديسه ، ورجع بيت الله من التقوى إلى تأسيسه) «^(٣) . وذكر العماد فصلاً فى هذا المعنى^(٤) .

(١) التكملة من الفتح القسى ص ١٤٧

(٢) فى مرآة الزمان الإسلامية وما أثبتته من الفتح القسى ص ١٤٧ .

(٣) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٨ : ٣٩٨ - ٤٠٠ .

(٤) انظر بقية هذا الكتاب بتمامه ، عند العماد : الفتح القسى ص ١٤٧ - ١٤٩ ، وقد تفرد سبط ابن الجوزى بإيراد نص ديباجته ، وهى عظمة الأهمية ؛ وما جاء فى خاتمة هذا الكتاب العمادى : فذكرَ بها ما كاد يُنسى من عهد المعراج النبوى ، وقامت بدلالاتها براهين الإعجاز المحمدى ؛ وصافحت الأيدى منها موضع القدم (يقصد القدم النبوى على الصخرة المقدسة) ، وتجدد لها من البهجة والرسالة ما كان لها فى القدم ، فهو ثانى المسجدين ، بل ثالث الحرمين ؛ فليهنَّ البيت الحرام خلاص أخيه البيت المقدس من الأسر ، وإسفار صبح الإسلام بعد طول اعتكار ليل الكفر ؛ وتطهير مواقف الأنبياء صلوات الله عليهم من أذناس الأرجاس ، وتضوُّع أزج الرجاء فى أرجائه بعد لباس .

فالحمد لله الذى أبدل الإيماش بالإيناس ، ونزع عنه بإفاضة خلع الرحمة عليه لباس الباس ؛ وجعل عصر مولانا أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - على الأعصر مُفضَّلاً ، وكَمَّلَ بهذا الفتح الشريف شرف زمانه فأصبح فخر الدين والدنيا به مُكَمَّلاً (...) ؛ فالرتاج مُستفتح والرجاء مستجج (...) ؛ وأرض الكفر ينقصها الإسلام كل يوم من أطرافها ، بل يستولى على أوساطها وأكتافها (...) ؛ ولو شرح ما لهذا الفتح من جلالة العظمة ، ودلالة المُكرمة ، لَكَبَّا قَلَمُ البليغ فى مضمار البيان ، ولم يبلغ مدى ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِثَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ (...) .

وأنظر نص الرسالة الفاضلية التى أرسلها السلطان صلاح الدين الأيوبي للخليفة العباسى الناصر لدين الله للبشارة بفتح القدس ، على يد القاضى ضياء الدين الشهرزورى رسول دولة الخلافة العباسية إلى السلطان صلاح الدين ، وكانت بخط القاضى الفاضل ومن إنشائه ، عند مجير الدين الخبلى القدسى : الأُنس الجليل فى تاريخ القدس والخليل ١ : ٣٤١ - ٣٤٨ ، وأنظر نص أول خطبة جامعة أقيمت ببيت المقدس بعد استرداد صلاح الدين لها سنة ٥٨٣هـ ألهاها قاضى دمشق زكى الدين القرشى ، عند مجير الدين الخبلى : الأُنس الجليل ١ : ٣٣٢ - ٣٣٩ . وأنظر نسخة كتاب كتب به القاضى الفاضل عن السلطان صلاح الدين إلى الخليفة الناصر لدين الله الخليفة يومئذ ببغداد ، بفتح القدس وما معه ، واقتراح ذلك من أيدى الفرنج ، وإعادته إلى ما كان عليه من الإسلام ، عند القلقشندي : صبح الأعشى ٦ : ٤٩٦ - ٥٠٤ ، وأنظر كتاباً =

إحضار صلاح الدين لمنبر نور الدين الذي أعده برسم المسجد الأقصى ،

ووضعه بالمسجد الأقصى بعد استرداده من الفرنج سنة ٥٨٢هـ

قال مجير الدين الحنبلي : «وكان الملك العادل نور الدين الشهيد قد عزم على فتح بيت المقدس ، وعمل منبرًا بحلب ، وتعب عليه مدّه ، وقال : هذا لأجل القدس ؛ فأدر كته المنية ، وكان الفتح على يد من أراد الله (أى السلطان صلاح الدين الأيوبي) ؛ فأرسل السلطان صلاح الدين من أحضر المنبر من حلب ، وجعله فى المسجد الأقصى ؛ وهو الموجود فى عصرنا هذا »^(١) . وقلت : وقد ظل هذا المنبر موجودًا بالمسجد الأقصى ، حتى تم إحراقه على يد متطرف يهودى إسرائيلى إدعى الجنون ، وذلك سنة ١٩٦٩م ، بعد احتلال إسرائيل للقدس إثر هزيمة سنة ١٩٦٧ . وقد وصف مجير الدين

= آخر كتبه القاضى الفاضل عن الملك الناصر صلاح الدين إلى ديوان الخلافة ببغداد ، نفس المصدر ٦ : ٥٠٤ - ٥٠٦ ؛ وانظر كتاب كته العماد الأصفهاني عن السلطان صلاح الدين ؛ إلى الخليفة الناصر لدين الله ببغداد بفتح القدس ، نفس المصدر ٦ : ٥١٧ - ٥٢٠ ، وانظر نسخة كتاب كته به إلى ديوان الخلافة العزيز أيام الخليفة الناصر لدين الله عن السلطان صلاح الدين بفتح القدس الشريف ، من أنشاء القاضى الفاضل ، نفس المصدر ٨ : ٢٨١ - ٢٨٩ . وانظر هذه الرسالة الفاضلية فى فتح القدس ، عند ابن خلكان : وفيان الأعيان ، طبع بيروت ، ٧ : ١٧٩ - ١٨٦ ، وقال ابن خلكان فى آخرها : هذا آخر الرسالة الفاضلية ، وكان فى عزمى اختصارها والاقصار على محاسنها ، فلما شرعت فيها قلت فى نفسى : عسى أن يقف عليها من يؤثر الوقوف على جميعها ، فأكملتها (...) ، وهى قليلة الوجود فى أيدي الناس ، وكانت النسخة التى نقلتها منها سقيمة ، ولقد اجتهدت فى تحريرها ، حتى صحت على هذه الصورة حسب الإمكان (ابن خلكان : وفيان الأعيان ٧ : ١٨٦ - ١٨٧) ، وانظر نص كتاب فاضلى عن السلطان صلاح الدين الأيوبي ، إلى الخليفة الناصر لدين الله فى كتاب إنشاءات القاضى الفاضل ، لجامع مجهول ، تحقيق فتحية النبراوى ، الطبعة الأولى ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ١٩٨٠م ، ص ٧٥ - ٨٤ ؛ وانظر أيضًا نص كتاب فاضلى آخر عن السلطان صلاح الدين إلى الخليفة العباسى ببغداد ، عند محى الدين بن عبد الظاهر : الدرّ النظيم من ترسل عبد الرحيم : تحقيق أحمد أحمد بدوى ، مكتبة نهضة مصر بالقاهرة ، ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م ، ص ١٥ - ٣٤ ؛ وراجع أحمد فؤاد سيد : مصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر الأيوبي ٥٦٧هـ - ٦٤٨هـ ، دراسة مقارنة بمصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر المماليكى ؛ مع ترجمة ونشر ١٤ وثيقة أيوبية من الأرشيفات الإيطالية ، تنشر لأول مرة ، دار النهضة العربية ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م ، ص ١٢ - ٢٣ ، ص ٣٢ - ٣٣ .

(١) مجير الدين الحنبلي : الأنس الجليل ١ : ٣٣٩ .

الخبلي هذا المنبر بقوله في الفصل الذى عنوانه بـ (وصف المسجد الأقصى على ما هو عليه الآن) :
 « والمنبر الموضوع بصدر الجامع من الخشب ، وهو مرصع بالعاج والأبنوس ، وهو الذى عمله
 السلطان الملك العادل نور الدين (زنكى) الشهيد رحمه الله بحلب ، وكان عمله فى شهر سنة
 ٥٦٤ هـ ، وقال : هذا برسم القدس ؛ فلما فتح الله البلاد على يد الملك صلاح الدين ، أحضره من
 حلب ؛ وهو موجود إلى عصرنا ، وعليه مكتوب تاريخ عمله ؛ وهذا لحسن نية نور الدين الشهيد ،
 فإنه بلغه الله مراده بعد وفاته ، عفا الله عنه ؛ ومقابله ذكة المؤذنين (المبلغين) على عمد من الرخام
 فى غاية الحسن » (١) .

ترخيم السلطان صلاح الدين لمحراب المسجد الأقصى سنة ١١٥ هـ .

وتنقش تجديد وعمارة صلاح الدين لهذا المحراب وللمسجد الأقصى فى هذه السنة

يقول مجير الدين القدسى الخبلى ، مؤلف كتاب الأنس الجليل فى تاريخ القدس والخليل فى سنة
 ٩٠٠ هـ ، وناظر الحرم القدسى فى أيام السلطان المماليكى الأشرف قايتباى : « ثم شرع السلطان فى
 العمارة ، وأمر بترخيم محراب الأقصى ؛ وكتب عليها بالفصوص المذهبة ، ما قرأته : بسم الله الرحمن
 الرحيم . أمر بتجديد هذا المحراب المقدس ، وعمارة المسجد الأقصى الذى هو على التقوى مؤسس ،
 عبد الله ووليه يوسف بن أيوب أبو المظفر الملك الناصر صلاح الدنيا والدين ؛ عندما فتحه الله على
 يديه فى شهر سنة ثلاث وثمانين وخمسائة ؛ وهو يسأل الله إيزاعه شكر هذه النعمة ، وإجزال حظه
 من المغفرة والرحمة » (٢) .

جَمَل فتوح السلطان صلاح الدين الأيوبي من مُدن وحصون ديار الفرنج

أفرد القاضي بهاء الدين بن شداد قاضى عسكر السلطان صلاح الدين الأيوبي ومؤرخ سيرته ،
 فى سيرته المسماه النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، فصلاً بعنوان : (ذكر المُدن والحصون التى
 يسّر الله فتحها على يديه - رحمة الله عليه - من ديار الفرنج - خذلهم الله تعالى - من سنة ٥٨٣ هـ
 إلى سنة ٥٨٦ هـ) ؛ - يعنى بعد معركة حطين فى ٢٤ ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ ، وبعد فتح بيت
 المقدس فى ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ - ؛ رتب فيه بهاء الدين ابن شداد فتوحات السلطان صلاح الدين

(١) نفس المصدر ٢ : ١٣ . وقلت : وقد أُخبرت أخيراً أن هذا المنبر ، يعاد تصميمه وبنائه الآن على رسمه القديم
 المصور فى كتب الآثار الإسلامية ، على يد صانع مصرى .

(٢) مجير الدين الخبلى : الأنس الجليل ١ : ٣٤٠ .

الأيوبي - التي شملت أرض فلسطين والأردن وساحل لبنان وأطراف آسيا الصغرى وبلاد الروم - ؛
على النحو التالي^(١) :

طبرية^(٢) - على بحر الأردن - بالسيف . عكا^(٣) - على البحر الكبير - بالأمان . حيفا^(٤) - على
البحر - بالأمان . الناصرة^(٥) - التي تنسب إليها النصارى - . الرملة^(٦) . قيسارية^(٧) - بالسيف .
أرسوف^(٨) - بالأمان . يافا^(٩) - بالسيف (مدينتها) . عسقلان^(١٠) - بالأمان . غزة^(١١) - بالأمان .
الداروم^(١٢) .

صيدا^(١٣) - على البحر - . بيروت^(١٤) - بالإمان . جبيل^(١٥) . هونين^(١٦) - جبيلية -

(١) أنظر ابن شداد : النواذر السلطانية ص ٢٣٨ . وقد أغنا ابن شداد عن تحديد مواضع هذه المدن والحصون ،
فأوردها على ترتيب مواقعها الجغرافية مبتدئاً بأرض فلسطين والأردن ثم بلاد الساحل (ساحل الشام ولبنان)
ثم ساحل آسيا الصغرى . كما عرّف بالمجهول منها في سياق كلامه . وجمع هذه الأماكن والبلدان والحصون
ذكرها ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان على ترتيب حروف المعجم ، وعنى بتحديد سنة أخذ الفرنج
لها ، وسنة استرداد واستنقاذ صلاح الدين لها من يد الفرنج ، والمدة التي بقيت فيها بأيدي الفرنج إلى أن
استنقدها منهم السلطان صلاح الدين . وقد عدّد هذه الفتوحات أيضاً العماد الأصفهاني : الفتح القيسى
ص ١٩٩ - ٢٠٠ . وقد فصل ابن شداد والعماد الأصفهاني الحديث عن هذه الفتوحات الصلاحية ، على
ترتيب السنين . واستأنسنا في تحقيق هذه البلاد والحصون على حواشي جمال الدين الشيال في النواذر
السلطانية ومحمود محمد صبح في الفتح القيسى ومحمود حلمي في إتعاظ الحنفا وصلاح الدين المنجد على
كتاب فتح البلدان للبلاذري .

(٢) طبرية : بلدة مطلة على البحيرة المعروفة بها ، وهي بفلسطين . (ياقوت) .

(٣) عكا : مدينة مشهورة على ساحل البحر الأبيض ، في فلسطين . (ياقوت) .

(٤) حيفا : مدينة مشهورة بفلسطين .

(٥) الناصرة : قرية من قرى فلسطين - مشهورة .

(٦) الرملة : كورة ومدينة عظيمة بفلسطين . (ياقوت) .

(٧) قيسارية : بلدة على ساحل البحر المتوسط من أعمال فلسطين (ياقوت) .

(٨) أرسوف : من مدن الساحل ، بين قيسارية ويافا (ياقوت) .

(٩) يافا : مدينة على ساحل بحر الشام (المتوسط) من أعمال فلسطين (ياقوت) .

(١٠) عسقلان : بلدة من أعمال فلسطين على جانب البحر بينها وبين غزة نحو ثلاثة فراسخ (ياقوت) .

(١١) غزة : مدينة مشهورة ، كانت من فلسطين (ياقوت) وتعرف اليوم بقطاع غزة ، وهي تابعة اليوم للسلطة
الفلسطينية .

(١٢) الداروم أو الدارون ، قلعة بعد غزة لقاصد مصر ، بينها وبين البحر فرسخ (ياقوت) .

(١٣) صيداء : مدينة في لبنان ، جنوب بيروت ، على البحر المتوسط (ياقوت) .

(١٤) بيروت : (عاصمة جمهورية لبنان اليوم) - مشهورة (ياقوت) .

(١٥) جبيل : بلدة شرقي بيروت وعلى مسافة ثمانية فراسخ منها (ياقوت) .

(١٦) هونين : بدة في جبال عاملية ، تطل على نواحي مصر القرية منها (ياقوت) . قلت : وجبال عاملية بالفور

كما أفاد المقدسي والأصطخري وغيرهما .

تبين^(١) . أنطرسوس^(٢) (دون أخذ برجها) بالسيف . جبلة^(٣) (مدينتها بالسيف ، وقلعتها بالأمان) .
اللاذقية^(٤) (مدينتها بالسيف ، وقلعتها بالأمان) . السرفند .

مدينة القدس^(٥) الشريف ، خلصه الله تعالى - (ذكر ابن شداد أنه فرغ من تأليف كتابه النوادر
السلطانية في ١٢ رجب سنة ٦٢٦ هـ ، وكان السلطان الملك الكامل قد تورط في تسليم القدس
للفرنج كما سيأتي ذكره) - . نابلس^(٦) . ألبيرة^(٧) بأرض القدس . صفورية^(٨) . الطور^(٩) . حصن
دبورية^(١٠) . الفولة^(١١) . حصن عفريل^(١٢) .

حصن جنين^(١٣) . سفسطية^(١٤) . كوكب^(١٥) . حصن عفرى^(١٦) (شمالى القدس) . بيت
لحم^(١٧) . حصن العازرية (بأرض القدس) . البرج الأحمر (قريب منه) . حصن الخليل^(١٨) (عليه
السلام) . بيت جبريل^(١٩) . تل الصافية^(٢٠) . حصن مجدل يابا^(٢١) . قلعة الجيب الفوقاني . الجيب

- (١) تبين : أوتينا ، بلدة فى جبال بنى غامر المطلّة على نابلس بين دمشق وصور (ياقوت) .
- (٢) أنطرسوس : بلد من سواحل الشام ، وهى آخر أعمال دمشق من البلاد الساحلية ، وأول أعمال حمص ؛
كانت حصناً عند فتح عبادة بن الصامت لها ، ثم بنى معاوية المدينة وحصنها . (ياقوت) .
- (٣) جبلة : قلعة بساحل الشام قرب اللاذقية ، كانت أيام ياقوت من أعمال حلب (ياقوت) .
- (٤) اللاذقية : مدينة مشهورة على ساحل البحر المتوسط (ياقوت) وهى فى الجمهورية السورية اليوم .
- (٥) القدس : هى مدينة بيت المقدس ، وكانت تعرف قديماً باسم أيلياء - مشهورة .
- (٦) نابلس : مدينة مشهورة بأرض فلسطين بين جبلين (ياقوت) .
- (٧) البيرة : بلدة بين القدس ونابلس (ياقوت) .
- (٨) صفورية : بلد بفلسطين ، قرب طبرية (ياقوت) .
- (٩) الطور : جبل مُطلّ على طبرية الأردن بينهما أربعة فراسخ .
- (١٠) دبورية : بلد قرب طبرية من أعمال الأردن (ياقوت : معجم البلدان) .
- (١١) الفولة : بلدة بفلسطين (ياقوت : معجم البلدان) .
- (١٢) عفريل : بلدة قرب بيسان وطبرية بالأردن (ياقوت) . وأفاد العماد فى الفتح القسى ص ١٧٧ أنها حصن
قريب من كوكب .

- (١٣) جنين أوجانين : بليدة حسنة بين نابلس وبيسان من الأردن .
- (١٤) سفسطية : ذكرها العماد الأصفهاني سمسطيه ، وذكرها ياقوت " سبسطية " - وهكذا ذكرها البلاذرى
فى فتوح البلدان - وهى مدينة من نواحي فلسطين من أعمال بيت المقدس (ياقوت) .
- (١٥) كوكب : اسم لقلعة حصينة على الجبل المطل على طبرية ، مشرفة على الأردن (ياقوت) .
- (١٦) عفرى : أو عفريل : وهى بلدة قرب بيسان وطبرية بالأردن (ياقوت) .
- (١٧) بيت لحم : بليد عامر قرب القدس ، مكان مهد عيسى عليه السلام (ياقوت) .
- (١٨) الخليل : اسم لموضع وبلدة فيها حصن وعمارة وسوق بقرب بيت المقدس (ياقوت) .
- (١٩) بيت جبريل : أو بيت جبرين ، يُليد بين غزة وبيت المقدس ، وبينه وبين القدس مرحلتان ، كانت فيه قلعة
حصينة ضربها صلاح الدين لما استنقذ بيت المقدس من الإفرنج (ياقوت) .
- (٢٠) تل الصافية : حصن من أعمال فلسطين ، قرب بيت جبرين ، من نواحي الرملة (ياقوت) .
- (٢١) مجدليابة : أو مجدل يابا ، قرية قرب الرملة بفلسطين ؛ بها حصن محكم .

التحتاني . النطرون^(١) . الحصن الأحمر . لُد^(٢) بأرض الرملة . قنوسة (قريباً منها) . يبنى^(٣) . القاقون والقيمون^(٤) . قلعة الكرك^(٥) (بعد حصار سنة ونصف) . قلعة الشوبك^(٦) (بعد حصار سنتين) . قلعة السلع^(٧) . الوعيرة . قلعة الجمع . قلعة الطفيلة . قلعة الهرمز^(٨) : (جميع ذلك فى وادى موسى والسراه) . قلعة صفد^(٩) . حصن يازور^(١٠) .

شقيف أرنون^(١١) . حصن إسكندرونه^(١٢) (بين صور وعكا) . قلعة أبى الحسن^(١٣) (بأرض صيدا) . صيدا أيضاً حصن . بلدة^(١٤) (بالساحل الأعلى) . المرقية^(١٥) (على البحر) . حصن يحمور^(١٦) (بأرض عكا) . بلنياس (بين جبلة والمرقب^(١٧)) . صهيون^(١٨) . بلاطنس .

-
- (١) النطرون : اسم مُحَرَّف للماطرون وهو موضع قرب دمشق (ياقوت) .
 - (٢) لُد : قرية من نواحي فلسطين قرب القدس (ياقوت) .
 - (٣) يبنى أو يبنى : بليد قرب الرملة (ياقوت) .
 - (٤) القيمون : حصن قرب الرملة من أعمال فلسطين (ياقوت) .
 - (٥) الكرك : قلعة حصينة على الطريق البرى بين مصر والشام والحجاز ، وهى اليوم مدينة بالمملكة الأردنية الهاشمية .
 - (٦) الشوبك : حصن منبع ، كان بالقرب من حصن الكرك ، ويعد كل منهما ، بوابة مدينة القدس . وهو اليوم بالمملكة الأردنية الهاشمية .
 - (٧) السلع : حصن بوادى موسى عليه السلام بقرب البيت المقدس . (ياقوت) .
 - (٨) هرمز : هى قلعة بوادى موسى عليه السلام بين القدس والكرك (ياقوت) .
 - (٩) صفد : مدينة فى جبال عاملة المطللة على حصص بالشام ، وهى من جبال لبنان (ياقوت) .
 - (١٠) يازور : أو يازور ، بليدة بسواحل الرملة من أعمال فلسطين بالشام (ياقوت) .
 - (١١) شقيف أرنون : قلعة حصينة جداً ، فى كهف من الجبل ، قرب بانياس ، من أرض دمشق ، بينها وبين الساحل . (ياقوت) . قلت : وهى اليوم بجنون لبنان ، وانسحبت منها إسرائيل مؤخراً .
 - (١٢) اسكندرونه : مدينة فى شرق أنطاكية على ساحل البحر المتوسط بينها وبين أنطاكية ثمانية فراسخ (ياقوت) . قلت : وتعرف اليوم بلواء الإسكندرونه ، وكانت تابعة للجمهورية السورية ، ثم ضمتها تركيا إليها الآن .
 - (١٣) قلعة أبى الحسن : قلعة ساحلية قرب صيداء . (ياقوت) .
 - (١٤) بلدة : من مدن بحر الشام ، قرية من جبلة . (ياقوت) .
 - (١٥) مرقية : قلعة بساحل الشام قرب حمص (ياقوت) .
 - (١٦) حصن يحمور : حصن فى بلدة يحمور الواقعة شمال بلد العريمة ، والعريمة بلد تناخم الدهناء (ياقوت) .
 - (١٧) حصن المرقب : قلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام (البحر المتوسط) ، وعلى مدينة بانياس ، وعلى ساحل جبلة . (ياقوت) . وبلنياس : كورة ومدينة صغيرة وحصن بسواحل حمص على البحر . (ياقوت) .
 - (١٨) حصن صهيون : حصن حصين من أعمال سواحل بحر الشام (البحر المتوسط) ، من أعمال حمص ، ليس بمشرف على البحر . (ياقوت) .

حصن الجماهيرية . قلعة العيذد^(١) . بكّاس^(٢) . الشُّعر^(٣) . بكسراويل^(٤) . السُّرمانية^(٥) . قلعة بُرْزِيَّة^(٦) .
دَرِبْسَاك^(٧) . بُغْرَاس^(٨) : (قريبا من أنطاكية) . الدانور (بأرض بيروت) . السوفند (قريبا من صيدا) .

توروا السلطان الكامل محمد في تسليم القدس للفرنج سنة ٦٢٦هـ ،

نظراً للصراع الأسرى الذي دار بينه - آنذاك - وبين أخويه : المعظم عيسى ملك دمشق ،

والأشرف موسى ملك الجزيرة الفراتية ، حول السلطنة وزعامة البيت الأيوبي

وبقى القدس في يد المسلمين ٤٢ عاماً ، إلى أن وقع الخلاف والتفرق والتحرُّب بين ملوك بني أيوب - على حد قول مجير الدين الحنبلي - وأضطر السلطان الملك الكامل محمد إلى تسليم القدس للإمبراطور فردريك ملك الألمان وصقلية ، وذلك في سنة ٦٢٥هـ ، إذ وقع التنافر سنة ٦٢٤هـ بين الملك الكامل صاحب مصر وأخيه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق لأمر بينهما ، فكاتب الملك الكامل الإمبراطور ملك الإفرنج في أن يقدم إلى عكا ليشغل سِرَّ أخيه الملك المعظم عما هو فيه ، ووعد الإمبراطور بأن يعطيه القدس - وكان الإمبراطور قد أظهر ميلاً للإسلام وعداءً للبابوية - ؛ وسار الإمبراطور إلى عكا ، وبلغ المعظم ذلك ، ثم توفي الملك المعظم عيسى في هذه السنة ، وترتب في مملكته بعده ولده الناصر صلاح الدين داود ؛ فأرسل الملك الكامل صاحب مصر في سنة ٦٢٥هـ يطلب من ابن أخيه الناصر داود حصن الشوبك ، فلم يعطه إياه ، ولا أجاب إليه ، فسار الملك الكامل من مصر إلى الشام ، ونزل على تل العجول بظاهر غزّه ، وولى ابن يوسف على نابلس والقدس وغيرهما من بلاد ابن أخيه ، ووقع بينهما أمور ومراسلات . وقدم الإمبراطور إلى عكا بمجموعه - وقد مات الملك المعظم ، فاستول على صيدا - وكانت مناصفة بين المسلمين والإفرنج وسورها خراب - ؛

(١) قلعة العيذو أو العيذ أو عيذون ، بنواحي حلب (ياقوت) .

(٢) و (٣) : حصن بكاس والشُّعر : قلعتان متقابلتان على نهر العاصي ، من نواحي حلب ، بينهما واد ضيق (ياقوت) .

(٤) حصن بكسراويل : حصن من سواحل حصص ، مقابل جبله ، في الجبل . (ياقوت) .

(٥) سرمانية أو سرمينية : بلدة مشهورة من أعمال حلب ، أهلها إسماعيلية . (ياقوت) .

(٦) قلعة برزية : حصن بالسواحل الشامية ، والعامّة تقول برزوية - على سن جبل شاهق ، وعلو قلعته ٥٧٠ ذراعاً ؛ كانت بيد الفرنج حتى فتحها صلاح الدين سنة ٥٨٤هـ . (ياقوت) .

(٧) دربسك : قلعة مرتفعة حصينة ، لها أعين وبساتين ، ولها من شرقها مروج كثيرة العشب ، وهو في شمال بغراس بميلة إلى الشرق ، وبينهما عشرة أميال .

(٨) بغراس : مدينة في لطف جبل اللكام (قلت : هو جبل لبنان حالياً - أحمد) ، بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ ، على يمين القاصد إلى أنطاكية ، في حلب ، في المنطقة المطلّة على نواحي طرسوس (ياقوت) .

فعمر الإفرنج سورها واستولوا عليها . فلما دخلت سنة ٦٢٦هـ ، واستهلت وملك بنى أيوب متفرقون مختلفون ، قد صاروا أحزاباً ، بعد أن كانوا إخواناً وأصحاباً ، فقوى الإفرنج بذلك ، وموت المعظم عيسى ، ومن وفد إليهم من البحر . ولم يجد الكامل بدءاً من المهاتنة ، فأجاب الإمبراطور إلى تسليم القدس إليه ، على أن تستمر أسواره خراباً ولا يعمره الفرنج ، ولا يتعرضوا إلى قبة الصخرة ولا إلى الجامع الأقصى ، ويكون المرجوع في الرستاق إلى والى المسلمين ، ويكون لهم من القرى ما هو على الطريق من عكا إلى القدس فقط ؛ ووقع الأمر على ذلك وتحالفا عليه ، وتسلم الإمبراطور القدس في ربيع الآخر سنة ٦٢٦هـ ، على القاعدة المذكورة^(١) .

ويقول المقرئى عن تسليم السلطان الملك الكامل القدس للفرنج : « خرج الملك الكامل من القاهرة فى العساكر يريد دمشق ، فأخذ نابلس والقدس ؛ فخرج الناصر داود من دمشق ومعه عمه الأشرف ، وسارا إلى الكامل يطلبان منه الصلح ... ؛ فاتفق قدوم الملك الإمبراطور إلى عكا باستدعاء الملك الكامل له ، فتحير الكامل فى أمره لعجزه عن محاربه ، وأخذ يلاطفه ؛ وشرع الفرنج فى عمارة صيدا - وكانت مناصفة بين المسلمين والفرنج ، وسورها خراب - ، فلما بلغ الناصر موافقة الأشرف للكامل ، عاد من نابلس إلى دمشق واستعد للحرب ، وأقام الكامل بتل العجوز وقد تورط مع الفرنج ؛ فلم يجد بدءاً من إعطاءهم القدس ، على أن لا يجدد سورها ، وأن تبقى الصخرة والأقصى مع المسلمين ، ويكون حكم قرى القدس إلى المسلمين ، وأن القرى التى فيما بين عكا وبيافا وبين لد والقدس للفرنج ؛ وانعقدت الهدنة على ذلك لمدة عشر (١٠) سنين وخمسة أشهر وأربعين يوماً ، أولها ثامن ربيع الأول سنة ٦٢٦هـ .

ونودى فى القدس بخروج المسلمين منه وتسليمه إلى الفرنج ، فكان أمراً مهولاً من شدة البكاء والصراخ ؛ وخرجوا بأجمعهم ، فصاروا إلى تخيم الكامل ، وأذنوا على بابه فى غير وقت الأذان ، فشق عليه ذلك ، وأخذ منهم الستور وقناديل الفضة والآلات ونجرتهم ، وقيل لهم أمضوا حيث شئتم ، فعظم على المسلمين هذا ، وكثر الإنكار على الملك الكامل ، وشنعت المقالة فيه . وعاد الإمبراطور إلى بلاده بعدما دخل القدس ، وكان مسيره فى آخر جمادى الآخرة سنة ٦٢٦هـ ؛ وسير الكامل إلى الآفاق بتسكين قلوب المسلمين وإنزعاجهم لأخذ الفرنج القدس . ورحل الكامل من تل العجوز يريد دمشق - والأشرف على محاصرتها - ، فجد فى القتال واشتد الأمر على الناصر إلى أن ترامى فى الليل على الملك الكامل ، فأكرمه وأعاه إلى قلعة دمشق وبعث من تسلمها منه ، وعوضه عن دمشق الكرك

(١) مجير الدين الحنبلى : الأناجىل ٢ : ٤٠٥ - ٤٠٧ ، سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٨ : ٦٤٦ - ٦٤٨ ،

٦٥٣ - ٦٥٤ ؛ المقرئى : الخطوط ٣ : ٢١٣ - ٢١٤ ، ١ : ٣٥٩ .

والشوبك والصلت والبقاء والأغوار ونابلس وأعمال القدس ، ثم ترك الشوبك للكامل مع عدة
لما ذكر ، وتسلم الكامل دمشق في أول شعبان سنة ٦٢٦ هـ وأعطاها للأشرف . وأخذ منه ما معه
من بلاد المشرق (الجزيرة الفراتية) وهي حران والرّها وسروج وغير ذلك^(١) .

ويحدثنا مجير الدين القدسي الحنبلي عن ردود الفعل المتشائمة في أرجاء الدولة الأيوبية ، التي
صاحبت تسليم الملك الكامل القدس للفرنج ؛ فيقول : « ولما وقع ذلك ، كان الناصر داود في
الحصار لانتزاع دمشق منه ، فأخذ في التشجيع على عمه الملك الكامل بذلك ، وكان بدمشق الشيخ
شمس الدين يوسف سبط أبي الفرج الجوزي ، وكان واعظًا له يقول عند الناس ؛ فأمر الناصر داود
أن يعمل مجلس وعظ ، يذكر فيه فضائل بيت المقدس وما حَلَّ بالمسلمين من تسليمه إلى الفرنج ، ففعل
ذلك ، فكان مجلسًا عظيمًا ؛ ومن جملة ما أنشد ، قصيدة تائية ضمنها فضل بيت المقدس ، منها :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مُقْفَرُ العرصات

وارتفع بكاء الناس وضجيجهم لذلك ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم^(٢) .

ويحدثنا سبط ابن الجوزي نفسه ، عن ما قاله في هذه المناسبة التي عظم بها الخطب ، فيقول :
ووصلت الأخبار بتسليم القدس إلى الفرنج ، فقامت القيامة في جميع بلاد الإسلام ، واشتدت العظائم
بحيث أقيمت المآتم . وأشار الملك الناصر داود بأن أجلس بجامع دمشق ، وأذكر ما جرى على البيت
المقدس ، فما أمكنتني مخالفته ، ورأيت من جملة الديانة الحمية للإسلام موافقته ، فجلست بجامع
دمشق ، وحضر الناصر داود على باب مشهد على ، وكان يومًا مشهودًا لم يتخلف من أهل دمشق
أحد ؛ وكان من جملة الكلام : انقطعت عن البيت المقدس وفود الزائرين ، يا وحشة المجاورين ، كم
كان لهم في تلك الأماكن من ركة ، وكم جرت لهم على تلك الأماكن من دعة ، تالله لو صارت
عيونهم عيونًا لما وفّت ، ولو تقطعت قلوبهم أسفًا لما شفت ، أحسن الله عزاء المؤمنين ، يا خجلة ملوك
المسلمين ، لمثل هذه الحادثة تُسكَبُ العَبْرَات ، لمثلها تنقطع القلوب من الزّقرات ، لمثلها تعظم
الحسرات . وذُكِرَ كلام كثير ، وأكثر الشعراء في حديث القدس^(٣) .

وقد أوضح سبط ابن الجوزي أن الإمبراطور فردريك كان يتلاعب بدين النصرانية ، ويستنكف
ما ابتدعه القسس من صكوك الغفران ، ويتعاطف مع المسلمين ، ويتسامح معهم في أداء شعائر دينهم

(١) القرظي : المخطوط ٣ : ٢١٣ - ٢١٤ (ذكر المدرسة الكاملية) ؛ مجير الدين الحنبلي : الأُنس الجليل ٢ : ٤٠٧ .

(٢) مجير الدين الحنبلي : الأُنس الجليل ٢ : ٤٠٦ - ٤٠٧ .

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ٨ : ٦٥٤ .

بالقدس ، بعد أن تسلّمه من الملك الكامل سنة ٦٢٦ هـ ؛ فيقول سبط ابن الجوزي في حوادث هذه السنة : « وفيها دخل الأنبرور إلى القدس ، والحصار على دمشق ؛ وجرى له عجائب ؛ منها أنه لما دخل الصخرة ، رأى قسيساً قاعداً عند القدم ، يأخذ من الفرنج القراطيس ، فجاء إليه كأنه يطلب منه الدعاء ، ولكمه فرماه إلى الأرض ، وقال : يا خنزير ، السلطان قد تصدق علينا بزيارة هذا المكان ؛ تفعلوا فيه هذه الأفاعيل ، لن عاد واحد منكم دخل على هذا الوجه لأقتلنه ... ، ولما دخل وقت الظهر وآذن المؤذن ، قام جميع من معه من الفرائشين والغلمان ومعلمه . وكان من صقلية يقرأ عليه المنطق فصولاً - فصتوا ، وكانوا مسلمين .. وكان الأنبرور أشقر في عينيه ضعف ، لو كان عبداً ما ساوى مائتي درهم . قالوا : والظاهر من كلامه أنه كان هديباً ، ولم يبق بالقدس سوى ليلتين ، وعاد إلى يافا من الداوية ، فإنهم طلبوا قتله^(١) . »

ويحدثنا مجير الدين الحنبلي عن الصراع الأسرى على زعامة البيت الأيوبي الذي وقع بين السلطان الكامل صاحب مصر وأخيه الملك المعظم عيسى صاحب الشام ؛ وتمتخض عن تورط الملك الكامل في تسليم القدس إلى الفرنج ، فيقول : ولما دخلت سنة ٦٢٤ هـ ، وقع تنافر بين الملك الكامل صاحب مصر ، وأخيه المعظم عيسى صاحب دمشق ، لأمر بينهما ؛ فكتب الملك الكامل الإمبراطور ملك الإفرنج ، في أن يقدم إلى عكا ، ليشغل سير أخيه الملك المعظم عما هو فيه ، ووعد الإمبراطور بأن يعطيه القدس . فسار الإمبراطور إلى عكا ، وبلغ المعظم ذلك ؛ ثم توفي الملك المعظم في هذه السنة يوم الجمعة مستهل ذي الحجة سنة ٦٢٤ هـ ، وذفن بقلعة دمشق (...) ؛ ولما توفي الملك المعظم ، ترتب في مملكته بعده ولده الملك الناصر صلاح الدين داود . فلما دخلت سنة ٦٢٥ هـ ، أرسل الملك الكامل صاحب مصر يطلب من ابن أخيه الناصر داود حسن الشوبك ، فلم يعطه إياه ولا إجابة إليه . فسار الملك الكامل من مصر إلى الشام في رمضان من هذه السنة ، ونزل على تلّ العجول بظاهر غزّه ، وولى ابن يوسف على نابلس والقدس وغيرهما من بلاد ابن أخيه ، ووقع بينهما أمور ومراسلات . وقدم الإمبراطور إلى عكا بجموعه - وقد مات الملك المعظم - ، فاستولى على صيدا - وكانت مناصفة بين المسلمين والإفرنج وسورها خراب - ، فعمّر الإفرنج سورها . والإمبراطور معناه : ملك الأمراء بالإفرنجية ، وكان صاحب جزيرة صقلية ، وكان فاضلاً يحسن الحكمة والمنطق والطب ، ويميل إلى المسلمين . ولما دخلت سنة ٦٢٦ هـ ، واستهلت وملوك بنى أيوب متفرقون مختلفون ، قد صاروا أحراباً ؛ بعد أن كانوا إخواناً وأصحاباً ؛ فقوى الإفرنج بذلك ، وعمت المعظم عيسى ، ومن وقد إليهم من البحر . وكان الملك الكامل قد عزم على انتزاع دمشق من ابن أخيه الناصر داود ، وسير الملك الكامل أخاه الملك الأشرف موسى لحصار دمشق ، والكامل مشغول بمراسلة الإمبراطور . ولما طال

(١) نفس المصدر ٨ : ٦٥٦ - ٦٥٧ ، وراجع النص بطوله .

الأمر ، ولد يجد الكامل بُدًا من المهادنة ، اجاب الإمبراطور إلى تسليم القدس إليه ؛ على أن تستمر أسواره خرابًا ، ولا يعمره الإفرنج ، ولا يتعرضوا إلى قبة الصخرة ، ولا إلى الجامع الأقصى ؛ ويكون المرجوع في الرستاق إلى والى المسلمين ، ويكون لهم من القرى ما هو على الطريق من عكا إلى القدس فقط ؛ ووقع الأمر على ذلك ، وتحالفا عليه . وتسلم الإمبراطور القدس في ربيع الآخر (سنة ٦٢٦ هـ) ، على القاعدة المذكورة ؛ وعظم ذلك على المسلمين ، وحصل به وهن شديد وإرجاف في الناس^(١) .

مقدمات الفتح الناصري الداودي للقدس

يقول مجير الدين الحنبلي ، حاكياً لنا ظروف الصلح الذي تم بين السلطان الملك الكامل وابن أخيه الملك الناصر داود صاحب الكرك ابن الملك المعظم عيسى صاحب دمشق ، مما أدى إلى خلو سِرِّ الملك الناصر داود من هذه الحروب الأسرية ، وإقدامه على استرداد القدس من الفرنج ، وفتحها الفتح الثاني لها الذي تم على يد ملوك بني أيوب ، وعرف بالفتح الناصري الداودي ، وذلك سنة ٦٣٧ هـ ، وبقاء القدس في يد المسلمين أربع سنوات ، حتى اضطر الناصر داود إلى تسليمها مرة أخرى للفرنج سنة ٦٤١ هـ ، حين تجددت الحروب الأسرية بين ملوك بني أيوب بالشام ومصر ؛ فيقول مجير الدين الحنبلي : « ولما عقد الملك الكامل الهدنة مع الإنبرطور ، وخلا سِرّه من جهة الإفرنج ، سار إلى دمشق فوصل إليها في جمادى الأولى (سنة ٦٢٦ هـ) . واشتد الحصار على دمشق ،

(١) مجير الدين الحنبلي : الألس الجليل ١ : ٤٠٥ - ٤٠٦ ؛ وأنظر سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ٨ : ٦٤٣ ، حوادث سنة ٦٢٤ هـ ، حيث يقول : وفيها قدم رسول الأنبرور على (الملك) المعظم ، بعد اجتماعه بـ (الملك) الكامل ، يطلب الفتح ؛ فأغلظ عليه ، وقال : قُلِّ لصاحبك ما أنا مثل الغير ، ماله عندي سوى السيف ؛ وأنظر أيضاً سبط ابن الجوزي : مرآة ٨ : ٦٤٦ معلومات عن التدابير التي قام بها المعظم عيسى للحيلولة دون وصول الأنبرور إلى عكا ، و ٨ : ٦٥٣ - ٦٥٥ ، حوادث سنة ٦٢٦ هـ ، حيث يقول : وفيها أعطى الكامل الأنبرور البيت المقدس ، ووصل الأنبرور إلى يافا ، وخرج الكامل من مصر فنزل تل العجول . وفيها دخل الأنبرور إلى القدس والحصار على دمشق . ولقد ذكر ابن واصل الحموي في كتابه مفرج الكروب ، تعليقا على تسليم السلطان الملك الكامل للقدس للفرنج ، أن السلطان فعل هذا لإنشغاله في حروبه مع ملوك بني أيوب بالشام ؛ وأنه كان قادراً على استرداد القدس في أي لحظة ، والراجح أن ابن واصل كان صادقاً ومحققاً في قوله هذا ، لأنه السلطان الكامل اشترط على الفرنج عدم عمارة سور مدينة القدس ، ومن ناحية أخرى ، ظل في حوزته حصن الكرك . والشويك ، وهما الحصنان المتحكمان في مصير مدينة القدس من الناحية العسكرية ، فيغيرهما لا يستطيع المسيطر على القدس حمايتها والدفاع عنها ؛ وهو الأمر الذي يقسر سرعة نجاح الملك الناصر داود في فتح القدس سنة ٦٣٧ هـ ، وسرعة نجاح السلطان الصالح نجم الدين في فتح القدس سنة ٦٤٢ هـ كما سيأتي بيانه .

واستولى عليها الملك الكامل ، وسلمها لأخيه الملك الأشرف موسى ؛ وعوّض الناصر داود عنها الكرك والشوبك والبلقاء والصلت والأغوار (بأرض الأردن وفلسطين) ؛ ثم نزل الناصر داود عن الشوبك وسأل عمه في قبولها قبله - واستمر الأشرف موسى بدمشق ، إلى أن توفي في المحرم سنة ٦٣٥ هـ ، وتملك دمشق بعده أخوه الملك الصالح إسماعيل بعهد منه - ثم سار الملك الكامل إلى دمشق ومعه الناصر داود صاحب الكرك ونزلا عليها في جمادى الأولى من هذه السنة (٦٣٥ هـ) وحصلت أمور ووقائع ؛ ثم سَلَّم الصالح إسماعيل دمشق إلى أخيه الكامل لإحدى عشرة (١١) ليلة بقيت من جمادى الأولى ، وتعوض عنها بعلبك .

ولم يلبث الكامل غير أيام حتى مرض واشتد مرضه ، ومات لتسع بقين من رجب سنة ٦٣٥ هـ ؛ واستمر بعده في السلطنة بمصر ولده الملك العادل أبو بكر بن الكامل ، فإنه كان نائبه بمصر . واتفق الأمراء بدمشق حين وفاة والده على تحليف العسكر له ، وأقاموا في دمشق الملك الجواد يونس بن مودود بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، نائباً عن الملك العادل بن الكامل . ورحل الناصر داود إلى الكرك ، وتفرقت العساكر .

فلما دخلت سنة ٦٣٦ هـ ، استولى الملك الصالح نجم الدين أيوب (صاحب الجزيرة الفراتية وبلاد الشرق وحصن كيفا) ابن الملك الكامل ، على دمشق وأعمالها ، بتسليم الملك الجواد يونس في جمادى الآخرة . ودخلت سنة ٦٣٧ هـ ، وكان الملك الصالح أيوب سار من دمشق واستخلف فيها ولده الملك المعيث فتح الدين عمرو .

ووصل الصالح أيوب إلى نابلس ، لقصد الاستيلاء على الديار المصرية ؛ فسار الصالح إسماعيل صاحب بعلبك ، ومعه شركوه صاحب حمص ، بمجموعهما ؛ وهجموا على دمشق ، وحصروا القلعة ؛ وتسلمها الصالح إسماعيل ، وقبض على الملك المعيث في صفر .

فلما بلغ الصالح أيوب ذلك ، رحل من نابلس إلى الغور ، وتشنت عنه عساكره ، وضاق به الأمر فقصد نابلس ، ونزل بها بمن معه ؛ فسار إليه الناصر داود بعسكره من الكرك ، وأمسك الصالح أيوب وأرسله إلى الكرك ، واعتقله بها ، وأمر بالقيام في خدمته بكل ما يختاره ؛ ولما اعتقل بالکرك ، أرسل أخوه الملك العادل أبو بكر صاحب مصر يطلبه من الناصر داود ، فلم يسلمه الناصر داود ، فأرسل العادل وتهتّد الناصر بأخذ بلاده ، فلم يلتفت إلى ذلك^(١) .

(١) مجير الدين الحنبلي : الأئس الجليل ٢ : ٥ ؛ وانظر سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ٨ : ٧٢٤ .

الفتح الناصري الداودي للقدس سنة ٦٢٧هـ

بعد اعتقال الملك الناصر داود صاحب الكرك للملك الصالح أيوب بالكرك ؛ قصد الملك الناصر داود القدس ، وكان الإفرنج قد عمروا قلعتها بعد موت الملك الكامل (سنة ٦٢٥هـ) - أى نقضوا شروط العهد والهدنة بينهم وبين المسلمين التى وقعها معهم الملك الكامل سنة ٦٢٦هـ - فحاصرها وفتحها ، وخرَّب القلعة ، وبرج (محراب) داود أيضاً ؛ فإنه لما خربت القدس أولاً (سنة ٥٨٣هـ فى الفتح الصلاحي) ، لم يخرَّب برج (محراب) داود ، فخربه فى هذه المرة وذلك فى سنة ٦٣٧هـ ، بعد أن بقى فى أيدي الإفرنج نحو إحدى عشرة (١١) سنة ، من حين تسليم الكامل له فى سنة ٦٢٦هـ .

فأنشد فى ذلك الفتح وفى مدح الملك الناصر داود ، ومقارنة فتحه للقدس سنة ٦٣٧هـ ، بفتح السلطان صلاح الدين الأيوبي للقدس سنة ٥٨٣هـ ؛ أنشد الشاعر الوزير الأيوبي جمال الدين بن مطروح قصيدة جاء فيها :

المسجد الأقصى له آية	سارت فصارت مثلاً سائراً
إذا غدا للكفر مستوطناً	أن يبعث الله له ناصراً
فناصرَ ظهرَ ظهـوره أولاً	وناصرَ ظهرَ ظهـوره آخراً

ولقد شارك الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن عمه الناصر داود - وكان معتقلاً عنده - الفرحة باسترداد القدس من الفرنج ؛ ففى أواخر رمضان سنة ٦٣٧هـ ، أفرج الناصر داود صاحب الكرك عن ابن عمه الملك الصالح أيوب ، واجتمعت عليه نماليكه ، وسار هو والناصر داود إلى قبة الصخرة ؛ وتحالفا على أن تكون ديار مصر للصالح ، ودمشق للناصر ؛ ولما ملك الصالح ، لم يف له بذلك ، وكان يتاول فى عينه أنه كان مكرها ، ثم سار إلى غزة^(١) .

تجدد الصراع الأسرى بين ملوك بنى أيوب بمصر والشام ؛

وتورط الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق فى تسليم صفد وقلعة الشقيف للفرنج سنة ٦٢٨هـ ، وتورط الملك الناصر داود صاحب الكرك فى تسليم طبرية وعسقلان والقدس للفرنج سنة ٦٤١هـ ، ليعضدهما الفرنج على السلطان الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر ، لتفكيكه فى توحيد مصر والشام ؛ فلما بلغ الملك العادل صاحب مصر ظهور أخيه الصالح ، عظم عليه ؛ وبرز بعسكر مصر ، ونزل على بلبس ، لقصد أخيه الصالح والناصر داود ؛ وأرسل إلى عمه الصالح إسماعيل المتولى على دمشق ، أن يبرز ويقصدهما من جهة الشام ؛ فسار الصالح إسماعيل بعساكر دمشق .

(١) مجير الدين الحنبلى : الأناجيل ٢ : ٥ ؛ وأنظر سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٨ : ٧٢٤ - ٧٢٩ .

فبينما الصالح أيوب والناصر داود ، وهما بين عسكرين قد أحاط بهما (عسكر الصالح إسماعيل من دمشق ، وعسكر العادل من مصر) ؛ إذ رَكَتْ جماعة من المليك الأشرفية ، ومقدمهم أيك الأسمر ، وأحاطوا بدهليز الملك العادل أبي بكر ابن الكامل ، وقبضوا عليه في ليلة الجمعة ثامن (٨) ذى القعدة (سنة ٦٤٠ هـ) ؛ وأرسلوا إلى الملك الصالح أيوب يستدعونه ، فاتاه فرج لم يسمع بمثله ؛ وسار معه الناصر داود إلى مصر ، وصار يلتقيه في كل يوم فرج من العساكر ، إلى أن دخل إلى قلعة الجبل بكرة يوم الأحد لست بقين من ذى القعدة (سنة ٦٤٠ هـ) وزينت له البلاد ، وفرح الناس بقدمه ؛ ولما استقر في ملك مصر ، خاف الناصر داود ابن يقبض عليه ، فطلب دستوراً ، وتوجه إلى بلاد الكرك (١) .

وفي سنة ٦٣٨ هـ ، قوى خوف الصالح إسماعيل صاحب دمشق ، من ابن أخيه الصالح أيوب صاحب مصر ؛ فسلم صفد والشقيف إلى الإفرنج ، ليعضدوه ويكونوا معه على ابن أخيه الصالح أيوب ؛ فعظم ذلك على المسلمين .

ولما دخلت سنة ٦٤١ هـ ، حصلت فيها المراسلة بين الملك الصالح أيوب صاحب مصر ، والملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق بالصلح ؛ وأن صاحب دمشق يطلق الملك المغيث فتح الدين عمر ابن الصالح أيوب ، وحسام الدين بن علي الهذباني ، وكانا معتقلين عند الصالح إسماعيل ؛ فأطلق حسام الدين وجهزه إلى مصر ، واستمر الملك المغيث في الاعتقال . واتفق الصالح إسماعيل مع الناصر داود صاحب الكرك ، واعتضدا بالإفرنج ، وسلما إليهم طبرية وعسقلان ، فعمر الإفرنج قلعتهما ، وسلما أيضاً إليهم القدس بما فيه من المزارات .

قال القاضي جمال الدين (ابن واصل الحموى) : ومَرَرْتُ إذ ذاك (سنة ٦٤١ هـ) بالقدس ، متوجّهاً إلى مصر ، ورأيت القسس قد جعلوا على الصخرة قناني الخمر للتربان ، فالحكم لله العلي الكبير .

(١) المقرئى : الخطط ٣ : ٣٨٣ ، ٤ : ٢٠٩ - ٢١١ ؛ سبط : مرآة الزمان ٨ : ٧٣٢ ، حيث يقول : وفي سنة ٦٣٨ هـ ، سلم إسماعيل الصالح الشقيف لصاحب صيدا ، وعزل عبد العزيز (العزّ) ابن عبد السلام من الخطابة ؛ مجير الدين الخبلى : الأبنس الجليل ٢ : ٦ وقد أمدنا السيوطى فى كتابه حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، فى الفصل الذى أفرده للحديث عن قضاة مصر بمعلومات طريفة وهامة عن هذه الحادثة ، وكيف أن العز بن عبد السلام - حين علم بتسليم الملك الصالح إسماعيل لقلعة الشقيف لصاحب صيدا من أمراء الفرنج - أسقط اسم الملك الصالح إسماعيل من الخطبة ، ولجأ إلى مصر ، فاحتفى به الملك الصالح نجم الدين أيوب وعرف قدره وولاه قضاء القضاء بمصر . أنظر السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ١٠٩ (طبعة مطبعة الموسوعات) .

قال مجير الدين الحنبلي : وكان الناصر داود فتح بيت المقدس - كما تقدم - فى سنة ٦٣٧ هـ ؛ ثم فعل هذه الفعلة القبيحة ، فأبدل حسنة بسينة ؛ وقد انتقم الله منه فيما بعد ... ؛ فعوذ بالله من سوء الخاتمة والضلال بعد الهداية (١) .

الفتح الصالحى النجمى للقدس سنة ٦٤٢ هـ ؛

واسترداده لغزة وسواحل الشام والقدس الشريف ،

بعد هزيمته للفرنج فى معركة غزة الكبرى سنة ٦٤٢ هـ ،

وهى التى اشتهرت لدى الفرنج بحطين الثانية ، لكثرة من قُتل وأسرى فيها من الفرنج

ولما وقع ما تقدم ذكره من تسليم القدس للإفرنج فى سنة ٦٤١ هـ ، استدعى الملك الصالح نجم الدين ايوب الجند الخوارزمية - وكانوا قد دخلوا فى خدمته حين ولاه أبوه الملك الكامل الجزيرة الفراتية وبلاد المشرق وحسن كيفاً - لينصروه على عمه الصالح إسماعيل (٢) ؛ فسار الخوارزمية ، ووصلوا إلى غزة فى سنة ٦٤٢ هـ ؛ ووصل إليهم عدّة كثيرة من العساكر المصرية مع ركن الدين بيبرس مملوك الصالح أيوب وكان أكبر مماليكه . وأرسل الصالح إسماعيل عسكر دمشق مع الملك المنصور إبراهيم بن شيركوه صاحب حمص ، وسار صاحب حمص جريدة ودخل عكا ، واستدعى الإفرنج على ما كان قد وقع عليه الاتفاق معهم ، ووعدهم بجزء من بلاد مصر (٣) .

فخرج الإفرنج واجتمعوا بالفارس والراجل ، ولم يحضر الناصر داود ؛ والتقى الفريقان بظاهر غزة ، فولى عسكر دمشق وصاحب حمص والإفرنج منهزمين ، وتبعهم عسكر مصر والخوارزمية فقتلوا منهم خلقاً عظيماً ، واستولى الملك الصالح صاحب مصر على غزة والسواحل والقدس الشريف ولله الحمد ؛ ووصلت الأسرى والرؤس إلى مصر ، ودقّت بها البشائر عدّة أيام (٤) .

وكما أبدى مجير الدين الحنبلي ، استكافه من تسليم الملك الناصر داود القدس للفرنج سنة ٦٤١ هـ ، وصرّح بحنقه الشديد على الملك الناصر داود لأنه أقدم على هذه الفعلة الشنعاء ، وفسر وفاة الملك الناصر داود غريباً سليب الملك ، بغضب الله عليه ؛ فإن مجير الدين قد أشاد باسترداد الملك الصالح نجم الدين أيوب للقدس ، واستعادته فتح غزة وساحل بلاد الشام من الفرنج سنة ٦٤٢ هـ ، وأشاد بسيرة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ودعاه لبرحمة الله وعفوه والجنة ؛ فيقول

(١) مجير الدين الحنبلي : الأُنس الجليل ٢ : ٥ - ٦ .

(٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٨ : ٧٤١ ، حوادث سنة ٦٤١ هـ ؛ مجير الدين الحنبلي : الأُنس الجليل ٢ : ٧ .

(٣) سبط : مرآة ٨ : ٧٤٥ - ٧٤٦ ، حوادث سنة ٦٤٢ هـ ؛ مجير الدين الحنبلي : الأُنس الجليل ٢ : ٧ .

(٤) مجير الدين الحنبلي : الأُنس الجليل ٢ : ٧ .

مجير الدين : وهذا الفتح الواقع فى سنة ٦٤٢ هـ لبيت المقدس ، هو آخر فتوحاته ، فإنه استمر بأيدى المسلمين إلى عصرنا (سنة ٩٠٢ هـ) ؛ والمرجو من كرم الله تعالى استمراره كذلك إلى يوم القيامة ، بحول الله وقوته ... وكان (السلطان الصالح نجم الدين أيوب) مهيباً على الهمة ، عفيفاً طاهر اللسان ، شديد الوقار ؛ ولو لم يكن من علو همته إلا مبادرته لاستنقاذ البيت المقدس من أيدى الكفار فى أسرع وقت لكفى ؛ رحمة الله وعفا عنه وعوضه الجنة^(١) . وقد لاحظ المؤرخون المحدثون أن الفتح الصالحى النجمى للقدس سنة ٦٤٢ هـ ، كان آخر مرة يفتح فيها المسلمون بيت المقدس فى عصر الحروب الصليبية ، إذ لم يقدر لجيش مسيحي أن يدخلها بعد ذلك أبداً حتى الحرب العالمية الأولى^(٢) .

وقد أمدنا سبط ابن الجوزى بوصف حى لمعركة غزّة الكبرى ، التى اندحر فيها الفرنج ومن استعان بهم من ملوك بنى أيوب سنة ٦٤٢ هـ ، إذ يذكر سبط ابن الجوزى ، أنه فى هذه السنة : « فيها كانت وقعة عظيمة بين الخوارزمية والفرنج ... وكنت يومئذ بالقدس ، والناصر بالكرك ، واجتمعوا بأسرهم على يافا ، والخوارزمية وعسكر مصر على غزّة ... ؛ وكان يوماً عظيماً ، لم يجر فى الإسلام مثله ، ولا فى زمان نور الدين وصلاح الدين !؟ ... ، وكان الفرنج عشرة (١٠) آلاف وخمسمائة (٥٠٠) فارس (...) وعشرة (١٠) آلاف راجل ؛ وما كانت إلا ساعة حتى حصدهم الخوارزمية بالسيوف حصداً جيداً ، وأسروا منهم ثمانمائة (٨٠٠) أسير ؛ ولقد أصبحت ثانى يوم الكسرة إلى غزّة ، فوجدت الناس يعدّون القتلى بالقصب ، فقالوا : هم زيادة على ثلاثين (٣٠) ألفاً ؟ ! ، وقد بعث الخوارزمية بالأسارى والرؤس إلى مصر ... ؛ ووصل الأسارى إلى مصر (...) ، وعلقت الرؤس على أبواب القاهرة ، وامتألت الجبوس من الأسارى ؛ وكان يوماً عظيماً »^(٣) .

ويرى المؤرخون المحدثون أن معركة غزّة الكبرى هذه ؛ كانت ولا شك أعظم كارثة حلت بالفرنج منذ وقعة حطين سنة ٥٨٣ هـ ؛ حتى أطلق المؤرخون الأوربيون عليها اسم «حطين الثانية»^(٤) . وقد تفرغ الملك الصالح نجم الدين أيوب بعد هذه المعركة ، لتوحيد الدولة الأيوبية من جديد تحت

(١) نفس المرجع ٢ : ٨ (ذكر الفتح الصالحى النجمى الذى يسره الله تعالى على يد السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب تقمده الله تعالى برحمته وأسكنه فسيح جناته) .

(٢) سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ، دار النهضة العربية ، ١٩١٨ ، ص ١٣٣ .

(٣) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٨ : ٧٤٥ - ٧٤٧ .

(٤) سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك فى مصر ص ١٣٤ .

لواء سلطنته ، وخاصة مصر والشام ، فخطب له بمصر والشام والجزيرة الفراتية واليمن وبلاد الحجاز والحرمين الشريفين . واسترد من الفرنج طبرية وعسقلان^(١) .

تطور عمارات وتجديدات قبة الصخرة والمسجد الأقصى في العصر الإسلامي ،
على يد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ثم خلفاء بني أمية وخلفاء بني العباس والخلفاء الفاطميين ،
وسلاطين بني أيوب وسلاطين المماليك على التوالي

وقد قام مجير الدين الخنبلي صاحب كتاب الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل - نظراً لأنه كان ناظر الحرم القدسي في سلطنة السلطان الملك الأشرف قايتباي ، حين ألف كتابه هذا في سنة ٩٠٠هـ - قام مجير الدين ببحث أثري دقيق تمتع ، عن تطور عمارة المسجد الأقصى في العصر الإسلامي ، اعتماداً على الشواهد الأثرية المعينة من ناحية ، وعلى النقوش المؤرخة للتجديدات المتعاقبة التي قام بها خلفاء وملوك الإسلام على قبة الصخرة والمسجد الأقصى ، والمزارات والمشاهد والمدارس والخوانق الواقعة داخل حرم المسجد الأقصى ، أو المتصقة بجوانبه ، أو الواقعة خارج حرمه ، فضلاً عن مناراته (مآذنه) الأربع ، وبواباته العديدة ، وبوابات سورة الأثرى ؛ وحقق في هذا الوصف التفصيلي الأثرى ، أن أول من عمّر قبة الصخرة والمسجد الأقصى في الإسلام الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضی الله عنه بعد الفتح العمري للقدس ، اعتماداً على ما صح عنده وعند من شهد هذا الفتح من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحاديث نبوية مرتبطة بتاريخ المسجد الأقصى وفوائده وتحديد سمّ قبلته ومعجزة الإسراء والمعراج ؛ وأنه يرجع إلى عصر العمارة العمرية مسجد عمر بن الخطاب الكائن تحت قبة الصخرة ، وبعض المباني الملحقة بالمسجد مثل جامع المغاربة وبعض أبوابه ؛ في حين ترجع أغلب مباني قبة الصخرة والمسجد الأقصى لعمارة الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ، ومازید على هذه العمارة أو لحق بها من تجديدات زمن خلفاء بني أمية من بعده (ابنه الوليد بن عبد الملك ، وسليمان بن عبد الملك) ، وزمن خلفاء بني العباس الأوائل (أبو جعفر المنصور ، والمهدي) ، وزمن الخلفاء الفاطميين الأوائل (المعز لدين الله ، والعزیز بالله ، والحاكم بأمر الله ، والظاهر بالله ، والمستنصر بالله) ، وزمن سلاطين وملوك بني أيوب (صلاح الدين الأيوبي ، المعظم عيسى ، الصالح نجم الدين أيوب) ، وزمن سلاطين المماليك

(١) أحمد فؤاد : مصادر تاريخ مصر الإسلامية في العصر الأيوبي ص ١٦٨ ، اعتماداً على ألقاب الملك الصالح كما وردت على نقوشه ؛ وراجع سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ص ١٣٤ - ١٣٧ ؛ مجير الدين الخنبلي : الأنس الجليل ٢ : ٨ .

(المنصور قلاوون ، الناصر محمد بن قلاوون ، الأشرف شعبان بن حسين ، حسام الدين لاجين ، الأشرف قايتباي) وذلك على يد نظارهم على الحرم القدسي ، ونوابهم على نيابة غزة (فى العصر المالكي)^(١) .

(١) أنظر مجير الدين الخبلى : الأُنس الجليل ٢ : ١١ - ٣٠ . ذكر (صفة المسجد الأقصى وما هو عليه فى عصرنا) ، وأنظر أيضاً ، نفس المصدر ، ١ : ١٨١ - ١٨٥ (قصة المعراج وما وقع لنا محمد صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء بالمسجد الأقصى) ، ١ : ٢٢٦ - ٢٤٣ (ذكر فضائل المسجد الأقصى الشريف وما ورد فى ذلك من الآيات والأحاديث) ، ١ : ٢٨٠ - ٢٨٥ (ذكر صفة المسجد الأقصى وما كان عليه فى زمن عبد الملك وبعده) ، وما قاله : المتعارف عند الناس أن الأقصى من جهة القبلة الجامع المبنى فى صدر المسجد الذى به المنبر والمحراب الكبير ؛ وحقيقة الحال : أن الأقصى اسم لجميع المسجد كما دار عليه السور .. ، فإن هذا البناء الموجود فى صدر المسجد وغيره من قبة الصخرة والأروقة وغيرها مُحدثة ، والمراد بالأقصى هو جميع ما دار عليه السور ، نفس المصدر ٢ : ٢٤ ؛ وما قاله أيضاً : " ولم يختلف اثنان أنه عُرج به صلى الله عليه وسلم عن بين الصخرة " ، نفس المصدر ٢ : ٢٠ ، وهو يذكر أيضاً فى نفس هذا الموضع أن النبى صلى الله عليه وسلم صلّى بالأنبياء والملائكة ليلة الإسراء فى صحن الصخرة ، إلى جانب ما يعرف بقبة المعراج ومقام النبى محمد .

وقد تراكب مع تزايد الاهتمام بتحرير القدس فى القرنين الخامس والسادس الهجريين ، ظاهرة الاهتمام بتأليف كتب فى فضائل بيت المقدس والمسجد الأقصى أنظر أبو بكر محمد بن أحمد الواسطى المقدسى من علماء القرن الخامس الهجرى : فضائل البيت المقدس ، تحقيق إسحاق حسون ، معهد الدراسات الآسيوية والإفريقية ، الجامعة العبرية ، القدس ١٩٧٩ م ؛ بهاء الدين بن عساكرت ٥٧١ هـ : المستقصى بفضائل المسجد الأقصى ، طبع بيروت ١٩٧٨ م ؛ أبو المعاطى المشرف ابن المرجا المقدسى : فضائل بيت المقدس ، طبع بيروت ١٩٨٠ م ؛ أبو الفرج ابن الجوزى : تاريخ بيت المقدس أو فضائل بيت المقدس ، تحقيق محمد زينهم عزب ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ١٩٩٤ م . أما الكتب التى ألفت عن فضائل القدس والمسجد الأقصى فى العصر المالكي ، فقد اهتمت بالجانب الأثرى والطبوغرافى للمدينة ، أنظر أبو عبد الله بن شهاب الدين المنهاجى السيوطى ٨٨٠ هـ : إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى ، تحقيق أحمد رمضان أحمد ، القاهرة ١٩٨٢ م ؛ قاضى القضاة أبو اليمن القباضى مجير الدين عبد الرحمن بن محمد العليمى المقدسى الخبلى العمري ، المنتهى نسبة إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب ، ولد بالقدس سنة ٨٦٠ هـ ، ورحل إلى القاهرة سنة ٨٨٠ هـ ودرس بها ، وعاد إلى القدس سنة ٨٨٩ هـ ، وتولى قضاء القدس ولعله بقى فيه مدة حتى وفاته سنة ٩٢٨ هـ : الأُنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، تحقيق محمد موسى المحتسب ، مكتبة المحتسب ، عمان - الأردن ، ١٩٧٣ م ، (ج ١ - ٢) .

وأنظر فضلاً عن الصخرة المقدسة ، وعن قبة الصخرة ، والمسجد الأقصى ، وإزالة السلطان صلاح الدين الأيوبي للتعدييات والمنكرات والكنيسة والمذبح ، التى بناها الفرنج فوق الصخرة ، ومحبه للصور والأيقونات وتخطيمه للتماثيل التى وَضَعَهَا الفرنج إبان احتلالهم للقدس ، وإظهاره المحراب وترخيمه ، ونصبه للمنبر ، وتطهيره لقبة الصخرة ومسحه لها سنة ٥٨٣ هـ بعد فتحه للقدس واستنقاذه لها من أيدي الفرنج ، عند العماد الأصفهاني : الفتح القيسى فى الفتح القدسي ، تحقيق محمد محمود صبح ، القاهرة ، =

ولم يغب عن الجغرافيين والرحالة المسلمين عند تسجيل رحلاتهم ، تقديم وصفًا حضاريًا أثرياً مُسهبًا للمسجد الأقصى ، كما أروه عند زيارتهم له ، كل منهم حسب عصره الذي سجل فيه رحلته ومشاهداته ؛ وكان أكثر هؤلاء الجغرافيين والرحالة والمؤرخين إسهابًا وتفصيلاً ودقة في وصف المسجد الأقصى ، المقدسي^(١) والأصطخري^(٢) في العصر العباسي ، والهروي^(٣) في العصر الأيوبي ، وابن بطوطة^(٤) ، وابن فضل الله العمري^(٥) ، والقلقشندي^(٦) في العصر المماليكي .

= د. ت. ص ١١٦ - ١١٧ . (فتح بيت المقدس) ، ص ١١٨ - ١٢١ ذكر كيسة قمامة (القيامة) ، ص ١٢٢ - ١٢٩ (وصف البيت المقدس) ، ص ١٣٠ - ١٣١ (ذكر يوم الفتح) ، ص ١٣٥ - ١٣٦ (ذكر ما جرت عليه حال الفرنج في خروجهم من القدس) ، ص ١٣٧ - ١٤٠ (ذكر ما أظهره السلطان في القدس من الحسنات ومناهج من السيئات) ، ص ١٤١ - ١٤٤ (وصف الصخرة المعظمة عمرها الله) ، ص ١٤٥ - ١٤٦ (ذكر محراب داود عليه السلام ، وغيره من المشاهد الكرام ؛ وتبطل الكنائس ، وإنشاء المدارس) .

(١) أنظر المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص ١٦٨ - ١٧١ ، وقد أبدع المقدسي في وصف زخارف قبة الخصرة ، ثم قال : " وعلى الجملة ، لم أر في الإسلام ، ولا سمعت أن في الشرك مثل هذه القبة " .

(٢) أنظر الأصطخري : المسالك والممالك ص ٤٣ - ٤٩ ، حيث يقول : " وبيت المقدس .. بها مسجدة ليس في الإسلام أكبر منه " .

(٣) أنظر الهروي : كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات ، تحقيق جانين سورديل طومين ، نشر المعهد العلمي الفرنسي بدمشق للدراسات العربية ، دمشق ، ١٩٥٣م ، ص ٢٥ - ٢٦ ؛ وهو يصف تعديتات الفرنج على قبة الصخرة والمسجد الأقصى إبان احتلالهم للقدس ٤٩٢هـ - ٥٨٣هـ وما وضعوه بداخله من رسوم وشارات نصرانية .

(٤) أنظر ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٧هـ - ١٩٦٠م ، ص ٦٠ - ٦٢ .

(٥) أنظر ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار وممالك الأمصار ، (ممالك مصر والشام والحجاز واليمن) ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، القاهرة ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م ، ص ١٣٦ - ١٣٩ . ومما قاله : " وأما مدينة القدس الشريف فعلى جبل مدينة مستديرة في وسطها السور المحيط على الصخرة والمبجد المسمى الآن - المسجد الأقصى ؛ وإنما حقيقة المسجد الأقصى جميع ما يحيط بالسور المذكور وهو المعروف بالسور السلیماني " .

(٦) أنظر القلقشندي : صبح الأعشى ٤ : ١٠٠ - ١٠٢ ، وهو يرجع بناء المسجد الأقصى وقبة الصخرة في العصر الأموي إلى الوليد بن عبد الملك لا عبد الملك بن مروان ، ويروي هذا أيضاً عن الحميري صاحب كتاب الروض المعطار . وهو يقول " على أن المسجد الأقصى على الحقيقة جميع ما هو داخل السور " .

وعنى المؤرخون من جانبهم بتسجيل وتتبع العمارات والتجديدات التي قام بها سلاطين المماليك ونوابهم وولاتهم على القدس والخليل ، فى المسجد الأقصى ، وفى الحرمين القدسي والخليلي ؛ وذلك بعد أن أصبح سلاطين المماليك ، هم حماة الحرمين الشريفين مكة والمدينة ، وحماة القبلتين ، وحماة المسجد الأقصى ، وهذا ما دلت عليه ألقاب سلاطين الأيوبيين ومن بعدهم تلامذتهم سلاطين المماليك ، وأهمها : « خادم الحرمين الشريفين » ، و « صاحب الحرمين الشريفين » و « ملك الحرمين الشريفين والبيت المقدس »^(١) . فذكر هؤلاء المؤرخون أن السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الذى يعدّ المؤسس الحقيقى لدولة المماليك البحرية بمصر اهتم بعمارة المقدسات الإسلامية فى بلاد الحجاز وفلسطين ، لإعلان نهوضه بحماية وخدمة الحرمين الشريفين بمكة والمدينة ، وحماية وخدمة القبلتين ، الكعبة المسجد الحرام و المسجد الأقصى ؛ وتديلاً على احييته فى حمل لقبى : خادم الحرمين الشريفين والقبلتين ؛ وهو ما حقق له الزعامة على العالم الإسلامى ، حتى لقب بـ « سلطان الإسلام والمسلمين »^(٢) ؛ ويقول المقرئى معذراً آثار وعمائر السلطان بيبرس فى الحجاز وفلسطين : « وعمّر الحرم النبوى ، وقبة الصخرة ببيت المقدس ، وزاد فى أوقاف الخليل عليه السلام (فى الحرم الإبراهيم فى مدينة الخليل) »^(٣) .

وعَدّد ابن أبيك الدوادار فى سيرته للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الجوامع التي عمّرها واستجدها هذا السلطان هو ونوابه وولاته على الشام ، بالقدس وغزّة وصفد ودمشق وطرابلس ؛ ثم قال : « وأما الخوانق والرباطات والزوايا وكذلك المساجد ، فلا تحصى كثرة ؛ وجميع هذه الأماكن مشحونة بالأئمة والخطباء والفقهاء والمدرسين والمحدثين والطلبة والمؤذنين والقسّوام والفقراء والمساكين ؛ وكل من هؤلاء ، فله المقرر من سائر ما يحتاج إليه ، مما أوقف عليهم من الضياع والأموال والخوانيت ؛ ولهذه الأوقاف مباشرين وعمّال وغير ذلك »^(٤) .

والجدير بالذكر ، أن بعض آثار وعمائر السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وآثار وعمائر نوابه وولاته على المدن الفلسطينية ، وفى طبيعتها القدس والخليل وغزّة ، لا تزال بعضها باقية إلى الآن ؛

(١) راجع أحمد فؤاد سيد : مصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر الأيوبي ، دار النهضة العربية ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م ، ص ١٦٣ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٩٣ .

(٣) المقرئى : الخطط ٤ : ٩٧ (ثم جامع الظاهر) .

(٤) ابن أبيك الدوادار : الدرّ الفاخر فى سيرة الملك الناصر ، تحقيق هانز روبرت رومر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م ، ص ٣٨٨ .

مثل عمارة الملك الناصر محمد لُقبة الصخرة بالقدس ؛ ومثل الجامع الذى أنشأه بغزة الأمير علم الدين سنجر الجاولى^(١) ، نائب السلطنة بفلسطين ، وناظر الحرمين الشريفين بها (القدس والخليل) ، ووالى غزة ؛ ولازال هذا الجامع قائماً بغزة إلى اليوم^(٢) ؛ كما وصلنا خبر الجامع الذى أقامه هذا الأمير بمدينة الخليل ، ونص فى نقوشه على أنه قد أنشأه من خالص ماله ، ولم يُنفق عليه من مال الحرمين الشريفين ؛ كما لدينا أيضاً وصفاً أثرياً دقيقاً لهذا الجامع^(٣) .

وحدثنا ابن فضل العُمري ت ٧٤٩ هـ وهو رئيس ديوان الإنشاء فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، عن تزايد الاهتمام بعمارة قبة الصخرة والمسجد الأقصى ومدينة القدس ، بعد استردادها من الفرنج ، وبلوغ هذا الاهتمام زروته فى عهد سلطنة السلطان الناصر محمد بن قلاوون ؛ فيقول : وبالقدس مدارس وخوانقاه وربط وزوايا وتُرب ؛ وللمسجد الأقصى بها وقوف كثيرة جارية على مصالحة والمؤذنين به وخدمته وجماعة من العلماء والقراء به ؛ (...) فإن فى القدس لكل الملل معتقداً وإليه توجهاً ، وأن اليهود تزوره ، والنصارى تُحج به (كنيسة) فُمامة (القيامة) وتزور كنيسة بيت لحم مكان مولد عيسى عليه السلام . وقد كانت مدينة القدس ، بعد تولى أيدي الفرنج عنها ، تغلب عليها الهدم والخراب ، إلى هذه المدة القريية ، انصرفت إليهم إلى عمارة أماكن بها ، وتوفرت الدواعى إليها ؛ وقرّر نائب السلطنة بالشام الآن الاهتمام بذلك ، وساق إليها قناة بسطها إلى بركة ، وهو مجتمع يرفدها بالماء زمن قلة الماء ، وتجري إلى مدينة القدس ، وتدخل إلى سور المسجد الأقصى وتجري به ؛ وعمّر نائب السلطان إلى ما جاور الرباط المنصور قلاوون ، مدرسة جليية ، وقفها على مدرس وفقهاء ومتفقهة على مذهب الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه ؛ وباعلاها خانقاه مشرفة ، وبحضرتها مكتب أيتام حصل به الأجر التام وللناس الرفق العام ، وأثابه الله وتقبل منه ؛ وعمّر بها

(١) قال أبو المحاسن بن تغرى بردى فى وفيات سنة ٧٤٥ هـ : " توفى الأمير علم الدين سنجر الجاولى ، أحد أعيان الأمراء بالديار المصرية (...) ، وهو صاحب الجامع بغزة والخليل عليه السلام ... ، وكان فاضلاً فقيهاً ، وله مصنفات فى الفقه وغيره " أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١٠ : ١٠٩ - ١١٠ . وأفاد المقرئى أن السلطان الملك الناصر محمد قد جعل الأمير سنجر الجاولى فى سنة ٧١١ هـ نائباً على غزة والساحل والقدس وبلد الخليل وجبل نابلس ، وأن لسنجر هذا آثار جميلة فاضلة بغزة والخليل بناها إبان توليه نيابة غزة ، إذ بنى جامعاً فى غاية الحسن على حد قول المقرئى ؛ ووصفه المقرئى بأنه هو الذى مدّن غزة ، أنظر المقرئى : الخطط ٤ : ٢٧٤ - ٢٤٨ (ذكر الخانقاه الجاولية) و ٢٨٣ .

(٢) راجع حسن روى : المختصر فى جغرافية فلسطين ص ١٠٥ ؛ محمد رمزى ، النجوم الزاهرة لأبى المحاسن بن تغرى بردى ١٠ : ١١٠ حاشية (١) .

(٣) أنظر مجير الدين الحنبلى : الأئمة الجليل فى تاريخ القدس والخليل (الطبعة القديمة ٢ : ٥٨ ؛ محمد رمزى : النجوم الزاهرة ١٠ : ١١٠ ، حاشية (٢) ؛ وراجع أحمد فؤاد سيد : مصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر الأيوبي ، دار النهضة العربية ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م ، ص ٢١٧ - ٢١٨ ، ص ٢٥٦ - ٢٥٨ .

حمامين جليلين ، كانت أحوج شيء إليه ، لأنه لم يكن بها حمامات مُرضية ، وأنشأ بها الأسواق والعمائر ؛ وأصبحت مدينة القدس ضاحية المرأة أهلة الرحاب ، وعادت إلى ما كانت إليه من المدن ، بعد أن كانت لا تُعدّ من القرى ولا يندى في جوانبها الثرى^(١) .

ويحدثنا مجير الدين القدسي الحنبلي ، صاحب كتاب الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل ، وقاضى القدس ، وناظر الحرم القدسي في عهد السلطان الملك الأشرف قايتباى (ولى السلطنة من ٨٧٢ - ٩٠١ هـ) ، الذى ألف كتابه هذا سنة ٩٠٠ هـ ، عن أهمية مدرسة الشافعية التى أنشأها السلطان الأشرف قايتباى بمدينة القدس ، وعُدّت من محاسن بيت المقدس ، والحق بها سيلاً ، وهى لاتزال باقية عامرة إلى يومنا ، معدودة من الآثار الإسلامية الهامة بمدينة القدس ؛ فيقول مجير الدين ، فى مقدمة كتابه الأنس الجليل : « ثم أختتم الكتاب ، بذكر ترجمة ملك العصر والزمان ، مولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى نصره الله تعالى ؛ وأذكر مدرسته الشريفة ، وأنها من محاسن بيت المقدس ، لا سيما كونها فى المسجد الأقصى الشريف ، وهى آخر مدرسة بُنيت فيه ؛ وأذكر ابتداء ولايته السلطنة ، وأحوال بيت المقدس وأحوال بلد سيدنا الخليل عليه الصلاة والسلام فى أيامه ؛ وأذكر سبب بناء مدرسته ، وتوليه مشيختها لشيخ الإسلام الشيخ كمال الدين أبى المعالى محمد بن أبى شريف الشافعى أدام الله النفع بعلمه ؛ وأذكر تاريخ مولده ، وأسماء مؤلفاته ، وما تيسر من ترجمته »^(٢) .

ولقد أولى الأثريون المحدثون اهتماماً كبيراً بدراسة عمارة المسجد الأقصى ، وتسجيل النقوش التاريخية المؤرخة الخاصة بعماراته وتجديداته طوال عصور التاريخ الإسلامى التى سجلها على عمائرهم وتجديداتهم بالحرم القدسي خلفاء وملوك الإسلام^(٣) ؛ وهو أمر إذن ما قُرُن بأوصاف الرحالة

(١) ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ، تحقيق إبن فؤاد ، ص ١٣٨ .

(٢) مجير الدين الحنبلي : الأنس الجليل ١ : ٤ ؛ وأنظر الفصل الأخير من كتابه هذا .

(٣) راجع

Creswell, (R.A.C.), Early Muslim Architecture., 2vols. Clarendon press, oxford, 1932-1940, I/ 1, pp. 65-131; I/2, pp. 373-380.

كمال الدين سامح : العمارة فى صدر الإسلام ، القاهرة ١٩٧١م ، ص ١١٠ ؛ فريد شافعى : العمارة بمصر فى عصر الولاة ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة دراسة المحارب والمحارب (المُجَوَّف) .

Marguerite van Berchem et solonge ory, "la jérusalem musulmane dans l'oeuvre de Max van Berchem", lausanne 1978.

Van - Berchem, (Max), Corpus Inscriptionum Arabicarum, Mémoires publiés par les Membres de la Mission Archéologique Française au Caire, tome x1x (19), paris, 1894=

والمؤرخين المسلمين القدماء لقبه الصخرة والمسجد الأقصى في صعيد واحد ، من شأنه ولا ريب أن يوقف العالم الإسلام والرأى العام العالمى ، على محاولات إسرائيل العبث بهذا الحرم الإسلامى الجليل ، الذى ندعو الله مخلصين له الدين أن يفك أسره فى القريب العاجل ، ويعيده مرة أخرى إلى حوزة الإسلام والمسلمين .

= (Jérusalem II) Combe, Sawaget et wiet, Répertoire chronologique d Epigraphie Arabe, 12 vols, le Caire, 1931 - 1950 T. xiv (14), xv (15), xvi (16).

أحمد عبد الرازق : أضواء على المسجد الأقصى وبعض الكتابات الأثرية فيه ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ٢٧ ، ١٩٨١ م ، ص ٨١ - ١١٨ ؛ وهو يهتم على الخصوص بدراسة نقوش العصر المماليكى .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية المخطوطة :

- ابن الأثير (عز الدين) : أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزرى ، ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م .
- ١ - مجموعة رسائل مجد الدين بن الأثير ، وهو المبارك بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزرى ، مجد الدين أبو السعادات ، ت ٦٠٦هـ / ١٢١٠م ، ولد بجزيرة ابن عمر ونشأ بها ، ثم انتقل إلى الموصل، وكتب لأمرائها وكانوا يحترمونه ، جمع هذه المجموعة من الرسائل أخوة عز الدين ابن الأثير المؤرخ الشهير ، وهي مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم ٢٠٤٠ أدب فى ١٧٧ ق ، ومصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٤١٦ أدب ، وهي مؤرخة سنة ٦٠١هـ أى فى حياة المؤلف ، وأولها خط جامعها .
- ابن الأثير (ضياء الدين) : أبو الفتح ، نصر الله بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزرى ، وزير الملك الأفضل الأيوبي ، وكتاب إنشاءه ت ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م .
- ٢ - « كتاب رسائل بين الملوك فى أيام الأيوبيين » مخطوط بمكتبة نور عثمانية باستانبول برقم ٣٧٤٥ فى ٩٩ ق ومصور بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٤١٩ أدب ، وهو منسوب فى فهرسها خطأ للعماد الأصفهاني ، لورود اسم العماد بخط حديث على صفحة العنوان ، ولكن تبين لى بعد دراسة الميكروفيلم أنه الجزء الثانى المفقود من مراسلات الوزير الأيوبي ضياء الدين بن الأثير .
- ٣ - « المفتاح المنشأ فى حديقة الإنشاء . منه ثلاث نسخ خطية الأولى فى ٢٢ لوحة مصور ، بدار الكتب المصرية برقم ٤٩٣٤ أدب ، عن نسخة بمكتبة نور الدين بك مصطفى بالقاهرة ؛ والثانية مصورة بدار الكتب المصرية أيضاً برقم ٨٤٧ أدب تيمور من لوحة ٢٧٩ إلى ٣٢٠ ، أغلب الظن عن الأصل المخطوط بمكتبة شستري ، وهى التى اعتمدنا عليها ؛ والثالثة نسخة فى ٤٢ لوحة بدار الكتب المصرية كذلك برقم ٤٩٠٨ أدب طلعت .
- ٤ - « مؤنس الوحدة » مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٠٧٠ أدب .
- الأحمد بن (نجم الدين) : محمد بن عيسى بن اسماعيل الحنفى ، الفارس الجواد (بروكلمن ٢ : ١٣٦) .
- ٥ - نهاية السؤل والأمنية فى تعلم أعمال الفروسية ، مخطوط بمكتبة أحمد الثالث باستانبول برقم ٢٦٥١ ومصور بمعهد المخطوطات بالقاهرة ، برقم ٥٠ معارف عامة .
- الأسدى (ابن خليل) : محمد بن محمد بن خليل الأسدى ، ت بعد سنة ٨٥٥هـ / ١٤٥١م .
- ٦ - « التيسير والاعتبار والتحذير والاختيار » فى تدبير الملك والأسباب الموجبة للخراب إليه ، ألفه سنة ٨٥٤هـ / ١٤٥٠م . نسخة بخط المؤلف بتاريخ ٨٥٥هـ / ١٤٥١م . بدار الكتب المصرية برقم ٧٧ اجتماع تيمور .
- الأشرفى (الحنفى) : أحمد المحمدى الأشرفى المتوفى سنة ٨٧٥هـ / ١٤٧٠م .

٧ - « البرهان في فضل السلطان » ألفه للسلطان الظاهر خشقدم مخطوط بهم، كتبه سوهاج برقم ٨٠ تاريخ في ١٠٤ ق ومصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٩ سياسة واجتماع . ومنه نسخة أخرى مخطوطة بالمكتبة العمومية باستانبول .

- الأشرفي (الأحدى) : طوغان شيخ الأحمدي الأشرفي ، ت ٨٨١هـ / ١٤٧٦م ، (السخاوي : الضوء ، ٤ : ١٠) .

٨ - « المقدمة السلطانية في السياسة الشرعية » ، ألفه للسلطان الأشرف قايتباي سنة ٨٧٨هـ . مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٠٣ أدب ، ومنه نسخة خطية أخرى بدار الكتب المصرية أيضاً في ١٨٣ ق ، برقم ١٧٢٦ فقه حنفي ، ومن المحتمل أن طوغان الأحمدي الأشرفي ، مؤلف « المقدمة السلطانية » هذا ، هو نفسه أحمد المحمدي الأشرفي مؤلف « البرهان » المذكور قبله .

- الباعوني (الدمشقي) : محمد بن يوسف الباعوني الدمشقي ، ت ٩١٦هـ / ١٥١٠م (السخاوي : الضوء ، ١٠ : ٨٩ ، الفزى : الكواكب السائرة ١ : ٧٢) .

٩ - « إيضاح السلوك ونزهة الملوك » ألفه - علي الأرجح - للسلطان الأشرف قايتباي ، منه مخطوطان بدار الكتب المصرية ، إحداهما بالخزانة التيمورية والأخرى بالخزانة الزكية .

- ابن البقال (البغدادي) : عز الدين أبو عبدالله محمد بن اسماعيل بن عبد الله بن وداعه ، ت ٥٨٨هـ / ١١٩٢م .

١٠ - « المقترح في المصطلح ، في تعليم رمى البندق والصيد » ألفه للخليفة الناصر لدين الله العباسي . مصور بدار الكتب المصرية برقم ٣٥٠٦ ج ، عن مخطوط المكتبة الأهلية بباريس برقم ٤٦٣٩ .

- البغدادي (موفق الدين) : عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي الموصلي ثم البغدادي ، الشافعي ، ويعرف بابن اللباد ، أبو محمد ت ٦٢٩هـ / ١٢٣١م .

١١ - « العمدة في أصول السياسة » مخطوط بمكتبة برلين برقم ٥٦٤٤ (١٠) .

- ابن بهادر (كمال الدين) : محمد بن محمد بن محمد المؤمن الشافعي ، أبو الفضل ، ت ٨٧٧هـ / ١٤٧٣م .

١٢ - « فتح النصر في تاريخ ملوك مصر » ضمنه تاريخ ملوك الدولة الكردية والتركية بالديار المصرية إلى أواخر المائة التاسعة ، مخطوط بخط المؤلف سنة ٨٧٧هـ ، بمكتبة آيا صوفيا بالآستانة ، ومصور بدار الكتب المصرية برقم ٢٣٢٩ تاريخ ، ومعه المخطوطات بالقاهرة ، برقم ٣٦٣ تاريخ ، وبمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٦١٦٦ .

- الترمذي (الواعظ) : عمر الترمذي الصوفي ، ت بعد سنة ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م .

١٣ - « تفسير سورة الإخلاص » ألفه للملك الظاهر محمد أبي سعيد جقمق المتوفى سنة ٨٥٧هـ ، ذكر فيه مقدمة في نصيحة هذا الملك تتعلق بالإخلاص . مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٢٧ وعظ ١٧٩٤ عام .

- التيفاشي (شرف الدين) أحمد بن يوسف بن أحمد بن أبي بكر بن حمدون القيسي ، ت ٦٥١هـ / ١٢٥٣م .

١٤ - « منافع الأحجار » مخطوط في ٨٢ ق بدار الكتب المصرية برقم ٢٢٢ طبيعة وكيمياء .

١٥ - « نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب » مخطوط بمكتبة الجامع الأزهر برقم ٤٢٣ أباطة - ٧٠١٩ أدب .

- الجعفرى : عبد الله بن على بن محمد (؟) .
- ١٦ - « عيون الرسائل الفاضلية » مخطوط بالمتحف البريطانى برقم ٢٥٧٥٦ ، ١٥٤٠ ، ١٥٤١ .
- ابن جماعة (بدر الدين) : محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة بن على بن حازم الكنانى الحموى البليانى الشافعى ، ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٣م .
- ١٧ - « تحرير الأحكام فى تدبير أهل الإسلام » مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٢٣٨٤١ ب ومكتبة بلدية الإسكندرية برقم ٤٣ ، وقد استخدمنا نسخة الدار . وطبع أخيراً .
- ابن الجوزى (أبو الفرج) : عبد الرحمن بن على بن محمد بن الجوزى القرشى التيمى البغدادى الحنبلى ، جمال الدين ، ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م .
- ١٨ - « مناقب بغداد » مخطوط بدار الكتب المصرية بالخزانة التيمورية برقم ١٤٤٣ تاريخ .
- ١٩ - « المصباح المضيء فى خلافة المستضى » مصور بدار الكتب المصرية فى ٢١٥ لوحة برقم ١٩٧٨٨ ب ، وطبع أخيراً بالعراق .
- الجيزى (ابن إبراهيم) : محمود بن إسماعيل بن إبراهيم بن ميكائيل بن خضر بن يوسف بن يعقوب الجيزى كان موجوداً سنة ٨٤٣هـ / ١٤٣٩م .
- ٢٠ - « الدررة الغراء فى نصيحة السلاطين والقضاة والأمراء » ، ألفها للملك الظاهر محمد أبو سعيد جقمق . مخطوط بخط المؤلف سنة ٨٤٣هـ بدار الكتب المصرية برقم ٢٣٢٩٢ ب .
- جمال الدين (الإسئوى) : عبد الرحيم بن الحسن بن على الإسئوى الشافعى ت ٧٧٢هـ (الزركى : الأعلام ٣ : ٣٤٤ ؛ كحاله : معجم المؤلفين ٥ : ٢٠٣ و ١٣ : ٣٩٧) .
- ٢١ - « رسالة فى قبح استخدام أهل الذمة » يطولها رسالة أخرى فى هذا الموضوع لنفس المؤلف وذكر منشور الملك الناصر محمد بن قلاوون بشأن أهل الذمة . مخطوط بدار الكتب المصرية ضمن مجموعة برقم ١٧٥ مجاميع تيمور (اخلاق) الرسالتان ١٨ و ١٩ بالمجموعة . وللإمام الحافظ جمال الدين الأسئوى أيضاً كتاب مطبوع بعنوان : « الكلمات المهمة فى مباشرة أهل الذمة » ، لعله نفسه الرسالة الأولى ، والراجع أنه ألفها للسلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وأنظر كتاب فتاوى السبكي ، وكتابه فى كراهية بناء الكنائس ، لعله ألفه للسلطان الناصر محمد بن قلاوون أيضاً ، أنظر خطط المقرئى (ذكر كنائس مصر) .
- ابن حبيب (الدمشقى) : بدر الدين أبى محمد الحسن بن عمر بن حبيب الدمشقى الحلبي الشافعى ، ت ٧٧٩هـ / ١٣٧١م .
- ٢٢ - « درة الأسلاك فى دولة الأتراك » بدأ فيه من سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م ، وانتهى إلى آخر سنة ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م ، مخطوط بخط المؤلف بمكتبة أحمد الثالث باستانبول برقم ٣٠١١ ومصور بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٢٣٥ تاريخ ، الجزء الثانى من نسخة أخرى مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٦١٧٠ ح ، الجزء الأول من نسخة ثالثة مصورة عن الآستانة بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٢٩٦١ .
- ابن الحداد (الواعظ) محمد بن منصور بن جيش الواعظ المعروف بابن الحداد الموصلى ، ت بعد سنة ٦٧٣هـ / ١٢٧٤م (كحاله : معجم المؤلفين ١١ : ٥١ - ٥٢) .

- ٢٣ - « الجواهر النفيس في سياسة الرئيس » نسخة خزائية بخط المؤلف كتبت سنة ٦٤٩هـ / ١٢٥٩م بمكتبة أبا صوفيا باستانبول برقم ١/٤٨٢٨ في ٣٥ ق مصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ١٨ سياسة واجتماع .
- الخلبى (أمين الدين) : عبد المحسن بن حمود بن عبد المحسن بن على التوخى الخلبى ثم الدمشقى ، ت ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م ، صاحب ديوان الإنشاء فى عهد السلطان الكامل الأيوبى :
- ٢٤ - « الأنوار المقتبسة من أوار النار » مصور بدار الكتب المصرية برقم ٨٥٠٣ أدب .
- ٢٥ - « مفتاح الأفراح فى امتداح الراح » مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٦٠٣ أدب .
- ابن حموية (الجوينى) : الأمير فخر الدين يوسف بن أبى الحسن صدر الدين شيخ الشيوخ ، وزير السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، ومقدم عسكره ونائب سلطنته ، ت ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م .
- ٢٦ - « تقويم النديم وعقبى المقيم » وهى مقامات ، مخطوطة قديمة بمكتبة الأزهر برقم ٧٢٠٦ أدب ، و بدار الكتب المصرية برقم ١٥٠١ أدب .
- الخلبى (عز الدين) : أحمد بن إبراهيم بن نصر بن أحمد الكنانى العسقلانى الأصل ، القاهرى الصالحى الخلبى القادرى ، أبو البركات ، ت ٨٧٦هـ / ١٤٧١م .
- ٢٧ - « شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب » مخطوط بالمتحف البريطانى برقم ٧٣١١add مصور بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٢٩٤ تاريخ وبجامعة القاهرة برقم ٢٤٠٣٠ ، ٢٤٠٣١ . وطبع أخيراً بمكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة .
- الخالدى (بهاء الدين) : محمد بن لطف الله بن عيد الله العمري ، ت ٨٣٦هـ / ١٤٣٢م (مصطفى زيادة ، هامش (٣) على السلوط للمقريزى : ١ : ٢٤٥) .
- ٢٨ - « المقصد الرفيع المنشأ الهادى لصناعة الإنشاء » ، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس برقم ١٥٧٣ كتب سنة ٩٢٧هـ ، ومصور بدار الكتب المصرية برقم ٢٤٠٤٥ عام ، ٢١٠٣١ ز ، ومصور بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٤٥ .
- الخازندار (الموصلى) : مبارك بن خليل الخازندار البدير الموصلى ، ثم الاموى ت قبل سنة ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م .
- ٢٩ - « آداب السياسة بالعدل » نسخة بمكتبة كوبرلى باستانبول مصورة بدار الكتب المصرية فى ٥٦٤ لوحة برقم ٤٣٠٠ أدب ، ومنه نسخة ثانية بمكتبة آيا صوفيا باستانبول برقم ٢٨٤٠ ، وثالثة بمكتبة أحمد الثالث باستانبول برقم ١٤٠٢ ، كتبت سنة ٨١٥هـ / ١٤١٢م فى ٤٠١ ق ، مصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم (١) تصوف وآداب شرعية .
- ابن خلف (الكاتب) : أبو الحسن على بن خلف بن على بن عبد الوهاب الكاتب ، ت ق ٥ هـ ، كان معاصراً للخليفة الفاطمى المستنصر بالله .
- ٣٠ - « مواد البيان » نسخة بمكتبة فاتح باستانبول برقم ٤١٢٨ ، كتبت فى القرن السابع تقريباً ، فى ٢٠١ ق ، مصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٨٤٢ أدب .
- خضر (الشيخ) : الشيخ خضر بن أبى بكر بن أحمد « من رجال الربع الثانى من القرن السابع الهجرى » .

٣١ - « كتاب الوظائف المعزية » فى السياسة الشرعية ، والنائب المعزية فى إصلاح الراعى والرعية ، ألفه للملك المعز أيبك التركمانى (تولى سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م وتوفى سنة ٦٥٥هـ / ١٢٥٠م) ، مخطوط قديم بدار الكتب المصرية برقم ٤٧٥ الخزانة التركية .

- ابن دقماق (صارم الدين) : إبراهيم بن محمد ابن إيدير بن دقماق القاهرى الحنفى ، ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م .

٣٢ - « الجواهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين » ، ألفه بإشارة السلطان الظاهر برقوق . مخطوط بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية برقم ١٤٩٢ ومنه نسخة أخرى بدار الكتب أيضًا برقم ١٥٨٧ تاريخ ومنه عدة نسخ أخرى مصورة عن مكبات تركيا بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٢٠٨ تاريخ و ٦٤٣ تاريخ . طبع أخيرًا بالقاهرة .

- الدوادار (المنصورى) : ركن الدين بييرس المنصورى الدوادار المصرى ، ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م . (ابن حجر : الدرر ، ١ : ٥٠٩ - ٥١٠) .

٣٣ - « زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة » وهو تاريخ كبير مرتب على السنين ، فى ١١ مجلدًا استعان فيه بكتابه ابن كبر النصرانى ، وانتهى فيه إلى سنة ٧٢٤هـ منه الأجزاء ٤ ، ٥ ، ٦ ، ١٠ مصورة فى مكاتب المتحف البريطانى بلندن ، ومكتبة أكسفورد بالجلترا ، والمكتبة الأهلية بباريس ، ومعهد المخطوطات بالقاهرة ، برقم ٢٧٦ تاريخ ومكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٢٦ ، ٢٤٠٢٧ ، ٢٤٠٢٨ وهناك مختصر لهذا الكتاب بعنوان « مختصر الأخبار » ، مخطوط بمكتبة الأميروزيانا بإيطاليا ومصور بمعهد المخطوطات برقم ١٢٠٢ .

٣٤ - « التحفة الملوكية فى الدولة التركية » ذيل به على كتابه « زبدة الفكرة » الذى انتهى فيه إلى بدء الدولة التركية بعد انقراض الدولة الأيوبية . وبدأ فى هذا الذيل بذكر الدولة المعزية (عز الدين أيبك التركمانى) إلى انتهاء دولة الملك المنصور قلاوون . مخطوط ق ٩ هـ ، بمكتبة فينا ، فى ١٥٠ ق ، ومصور بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٢٩ ومعهد المخطوطات برقم ٦١٤ تاريخ . طبع أخيرًا بالقاهرة .

- ابن أبى الدم (الحموى) : إبراهيم بن عبد الله بن عبد المؤمن ، شهاب الدين الشافعى ، ت ٦٤٣هـ / ١٢٤٤م .

٣٥ - « التاريخ المظفرى » بدأه من الهجرة إلى سنة ٦٤٢هـ ، مخطوط بمكتبة البلدية بالإسكندرية برقم ١٢٩٢ ب ومصور بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٦٠٤ تاريخ . ومنه نسخة أخرى بمكتبة خدابخش بنه بالهند رقم ٢٨٦٨ ومصور بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٩٦٦ تاريخ .

- ابن الديقاجى (موفق الدين) : أبو على الحسن بن أبى المكارم أحمد بن الحسين ، المتوفى بالموفق ابن الديقاجى الكاتب ، ت ٦١٧هـ / ١٢٢٠م . صاحب ديوان الإنشاء فى عهد السلطان الكامل الأيوبى (المنذرى : التكملة ج ٥ ، ص ٢٤) .

٣٦ - « من ترسل القاضى الفاضل » الجزء الأول منه مخطوط بخط جامع الديقاجى ، بمكتبة بشير اغا أيوب باستانبول برقم ١٢٦ فى ١٥٢ ق ، وهو مصور بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٨٠٨ أدب .

- ابن الزبير (القاضى الرشيد) : أحمد بن على بن إبراهيم بن محمد بن الحسين بن محمد المصرى الفسانى ، ويعرف بالرشيد الأسوانى ، ت ٥٦٣هـ / ١١٦٧م من مشاهير كتاب الإنشاء فى نهاية العصر الفاطمى .

- ٣٧ - « المقامة اليحصية وشرحها » في المفاخرة والمفاضلة بين الفنون وأربابها ، مخطوط في ١٠٧ ق بدار الكتب المصرية برقم ١٣٤٦٩ ز ، ومنها نسخة بمكتبة بلدية الإسكندرية .
- ٣٨ - « أمنية الأملعي ومنية المدعي » ، مخطوط بمكتبة الجامع الأزهر بالقاهرة برقم ٢٢٨٥١ أدب .
- ابن الرفعة المصري : أحمد بن محمد بن الرفعة المصري الشافعي ، نجم الدين ، محتسب القاهرة ، ت ٧١٠هـ / ١٣١٠م . (ابن حجر : الدرر ، ١ : ٢٨٤ - ٢٨٧) .
- ٣٩ - « بذل النصائح الشرعية فيما على السلطان وولاية الأمور وسائر الرعية ، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس برقم ٢٤٥١ ومكتبة غوطا برقم ١٢١٩ .
- الرماح (نجم الدين) حسن الأخذب الرماح ، كان موجوداً في القرن السابع (بروكلمن ، ملحق ١ : ٩٠٥) .
- ٤٠ - « القروسية والمناصب الحربية » أخذ مادته عن أبيه وأجداده الأستاذين في هذه الصناعة ، وعمن صحبهم ، كما جاء بصفحة العنوان ، نسخة خزائية لعلها كتبت في القرن الـ ٩ هـ ، في ٢٢٠ ق بمكتبة الحرم المكي الشريف برقم ٥٠ تاريخ ومصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٣٨ معارف عامة .
- ابن السعالي (بهاء الدين) : علي بن رستم بن هرذور ، أبو الحسن ، الشاعر الشهير ، ت ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م .
- ٤١ - « مقطعات الليل » وهو ديوان شعر ، غير ديوانه المشهور المطبوع في مجلدين ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٢٨ أدب .
- سبط ابن الجوزي (أبو المظفر) : يوسف بن قزاوغلي بن عبد الله البغدادي ، ثم الدمشقي شمس الدين ، ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م .
- ٤٢ - « كنز الملوك في كيفية السلوك » مخطوط بمكتبة ميخائيل عواد بالعراق .
- السخاوي (شمس الدين) : محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر ابن عثمان بن محمد السخاوي الأصل القاهري الشافعي ، ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٧م . (السخاوي : الضوء ، ٨ : ٢ - ٣٢) .
- ٤٣ - « عمدة الناس في مناقب سيدنا العباس » ألفه للخليفة العباسي بمصر المتوكل على الله كما ذكر في مقدمة الكتاب . وفرغ من تأليفه سنة ٨٩١هـ / ١٤٨٦م . نسخة كتبت سنة ٨٩١هـ ، في ١٤٢ ق بدار الكتب المصرية برقم ١٥٦٩ تاريخ .
- ٤٤ - « كتاب استجلاب ارتقاء الغرف ، بحسب أقرباء الرسول وذوى الشرف » ، فرغ من تصنيفه سنة ٨٧٧هـ / ١٤٧٢م . منذ نسخة مصورة بدار الكتب المصرية برقم ٨٠٤٩ ولعلها مصورة عن النسخة التي ذكرها ببولكمن بمكتبة ليزج بألمانيا برقم ٦٤٨ .
- ٤٥ - « الدررة المنضية في المآثر الأشرفية » وهي سيرة للسلطان الأشرف قايتباي ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٦١ تاريخ ورقم ٨٥٥٤ ح وبالمكتبة الأهلية بباريس برقم ١٦١٥،٣٠ وهذه النسخ الثلاث منسوبة للسخاوي . وثمة نسخة أخرى من الكتاب منسوبة للسويطي بمكتبة الجامع الأزهر برقم ٣٨٥ أباطة والصواب نسبتها للسخاوي .
- ٤٦ - « رجحان الكفة في أخبار أهل الصفة » وهي رسالة هامة جداً في دراسة نشأة التصوف في الإسلام . نسخة وحيدة في ٣٢ ق بمكتبة الجمعية الآسيوية بالهند برقم ٣٢١ ومصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ١٠٦٣ .

- ابن سعيد (المغربى) : على بن موسى بن عبد الملك بن سعيد العنسى ، الأندلسى الفرناطى المغربى ، أبو الحسن ، ت ٦٧٣هـ / ١٢٧٤م .
- ٤٧ - « المغرب فى حلى المغرب » الجزء الثانى وعنوانه « الروض المهبوب فى حلى دولة بنى أيوب » والجزء الثالث وعنوانه « كتاب الاغتباط فى حلى مدينة القسطاط » ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٢٧١٢ تاريخ .
- ٤٨ - « المشرق فى حلى أهل المشرق » مخطوط بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية برقم ٢٥٣٢ ، ومصور بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٤٧٧ تاريخ .
- السلامى (أبو عبد الله) : محمد بن إبراهيم السلامى البصرى الأصل الحلبى الشافعى ت ٨٧٩هـ / ١٤٧٤م . (السخاوى : الضوء ، ٦ : ٢٧٥ - ٢٧٦) .
- ٤٩ - « طاعة السلطان وإغاثة اللهفان » مخطوط بمكتبة بغداد كشك برقم ٩٣ ، عن نسخة كتبت برسم الملك الأشرف قايتباى سنة ٨٨٠هـ / ١٤٧٥م ، وهى مصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة ، برقم ٣٨ سياسة واجتماع .
- السلفى (أبو الطاهر) : أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن سلفة السلفى الأصفهانى ، ت ٥٧٦هـ / ١١٨٠م .
- ٥٠ - « معجم السَّفَر » مخطوط بمكتبة البلدية بالإسكندرية ومصورة فى ٢٤٤ لوحة بدار الكتب المصرية برقم ٣٩٣٢ تاريخ ، وطبع أخيراً .
- ٥١ - « كتاب المشيخة البغدادية » مخطوط بمكتبة الأسكور يال بأسبانيا برقم ١٧٨٣ ومصور بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٤٧٩ تاريخ .
- السنامى (ابن عوض) : عمر بن محمد بن عوض السنامى ، ت . بين سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م وسنة ٩١٢هـ / ١٥٠٦م . (كوركيس عواد : مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، ج - ص ٤٣٣ - ٤٣٨) .
- ٥٢ - « نصاب الاحتساب » نسخة بالمكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية برقم ١٨٩ ، اجتماع تيمور . ونسخة أخرى بدار الكتب أيضاً (فهرس الكتبخانة الخديوية ٣ : ١٤٣) . وطبع أخيراً بالرياض .
- السيوطى (جلال الدين) : عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد بن أبى بكر بن عثمان بن محمد بن خضر ابن أيوب بن محمد بن همام الدين الخضيرى الأصل ، الطولونى ، المصرى الشافعى ، أبو الفضل ، ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م .
- ٥٣ - « الرتبة النيفة فى فضل السلطنة الشريفة » . مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٢٦٥ مجاميع ومصور بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٢٣ سياسة واجتماع . ومنه نسخة خطية أخرى بمكتبة الزيتونة بتونس .
- ابن شاکر (الكتبى) : محمد بن شاکر بن أحمد بن عبد الرحمن الكتبى ، الدارانى الأصل ، الدمشقى الشافعى ، صلاح الدين ، ت ٧٦٤هـ / ١٦٨٧م .
- ٥٤ - « عيون التواريخ » وهو تاريخ ضخم على السنين من صدر الإسلام إلى سنة ٧٦٠هـ / ١٣٥٨م ، منه أجزاء من نسخة بخط المصنف بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية برقم ١٣٧١ تاريخ ومنه أجزاء أخرى من نسخة ملوكية كتبت للخزانة العالية المولوية الناصرية ق ٨هـ ، فيها من سنة ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م إلى سنة ٧١٠هـ / ١٣١٠م ، بدار الكتب المصرية أيضاً برقم ١٤٩٧ تاريخ . ومنه أجزاء أخرى بالمكتبة الظاهرية بدمشق ومكتبات أستانبول ومصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٣٤٥ تاريخ .

- ابن شادان : أحمد بن جعفر بن شادان ، ت. قبل سنة ٦٢١هـ / ١٢٢٥م .
- ٥٥ - « آداب الوزارة » انتهى من تأليفه سنة ٦٢١هـ / ١٢٢٤م . نسخة كتبت سنة ٧٠٨هـ / ١٣٠٨م في ١٢٧ ق بمكتبة ليدن بهولندا برقم ٧٠١٧ (١) .
- ابن شاهنشاه (الأيوبي) : الملك المنصور أبى المعالى محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماه ، ت ٦١٧هـ / ١٢٠٢م .
- ٥٦ - « أخبار الملوك » ، ونزهة الممالك والملوك في طبقات الشعراء المتقدمين من الجاهلية والمخضرمين والإسلاميين والمحدثين وذكر مختصر من أخبارهم ومختار أشعارهم ومن تلاهم من الشعراء إلى هذا الزمان والأوان . أملاه مؤلفه سنة ٦٠٢هـ / ١٢٠٥م . نسخة خزائنية كتبت سنة ٦٠٢هـ ، عن نسخة من إملاء مصنف الكتاب في مجالس آخرها يوم الأربعاء ٢٣ ربيع آخر ، سنة ٦٠٢ في دار المزة من قلعة حماة . مخطوط بمكتبة ليدن بهولندا برقم ٦٣٩ ومصور بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٨٧٥ تاريخ .
- ابن شداد (بهاء الدين) : يوسف بن رافع بن قسيم ، أبو المحاسن الحلبي ، ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٩م .
- ٥٧ - « ملجأ الحكام عند اختلاف الأحكام » مخطوط بدار الكتب المصرية في ١٧٠ ق برقم ٤٦ فقه شافعي م .
- ٥٨ - « فضائل الجهاد » ألفه وأهداه للسلطان صلاح الدين الأيوبي ، مخطوط بمكتبة كوبرلي باستانبول برقم ٧٦٤ .
- ابن الشعار (الموصلى) : المبارك بن أبى بكر بن حمدان الموصلى ، كمال الدين أبو البركات ، ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م .
- ٥٩ - « عقود الجمال في شعراء هذا الزمان » (أجزاء من ١ - ١٠) مخطوطة بمكتبة أسعد أفندي باستانبول ينقص منها جزءان الثانى والثامن ، وهى مصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٣٣٩ تاريخ ٣٣٣٠ - ٢٣٣٠ تاريخ .
- الشيرازى (المكي) : على بن أحمد بن محمد الشيرازى ، ثم المكي الشافعي ت ٨٦١هـ / ١٤٥٦م . (السخاوى : الضوء ، ٥ : ١٨٩) .
- ٦٠ - « تحفة الملوك والسلطين في الخلافة والسلطنة والوزارة » ألفه للسلطان جقمق سنة ٨٤٣هـ / ١٤٣٩م مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٧٣ إجتماع تيمور .
- أبو صالح (الأرمنى) : أبو المكارم جرجس بن مسعود ويعرف بالشيخ أبى صالح الأرمنى ، ويدعى أبو صالح كان معاصراً لصلاح الدين الأيوبي (سركيس : معجم المطبوعات ، ١ : ٣٤٧ ، لويس شيخو : المخطوطات العربية لكنتبة النصرانية ص ٢١) .
- ٦١ - « تاريخ أبو صالح الأرمنى » عن تاريخ مصر وتوسع في ذكر أحوالها الدينية ولاسيما أديارها ، كذلك ذكر فيه أخبار الكنائس بمصر . وغيرها من البلاد الرومية وبر الشام . منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية برقم ٤٠٢٨ تاريخ ، وكانت منه نسخة خطية كاملة أخرى بمكتبة جرجس فيللو تاؤس عوض صاحب المجلة القبطية ، والمطبوع من هذا الكتاب جزء واحد ذكر فيه أخبار من نواحي مصر وإقطاعها . طبع مع الترجمة الإنجليزية لايفتس B.L.A. Evetts مع حواشى للمستشرق بتلر ، طبع باكسفورد . ١٩٨٤م .

- الصالحى (ابن يحيى) : عبد الصمد بن يحيى بن أحمد بن يحيى الصالحى ت بعد سنة ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م .
(بروكلمن ، ملحق ٣ : ١٦٦) .

٦٢ - « هدية العبد القاصر للسلطان الملك الناصر » ألفه للسلطان الملك الناصر أبو السعادات (٩٠١هـ /
١٤٩٥م - ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م) . مخطوطة بخط المؤلف سنة ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م . بمكتبة كوبرلى برقم
٢٩٥ مصور بدار الكتب المصرية برقم ٢٦٠٢ تاريخ بالخزانة الزكية ومنه نسخة أخرى مصورة
عن مكتبة كوينهاجن كتبت سنة ٩٧٣هـ / ١٥٦٥م ، مصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ١٣٠٠
تاريخ .

- ابن الطحان (المصرى) : يحيى بن على بن محمد بن إبراهيم الحضرمى ، المصرى ، أبو القاسم . ت . ٤١٦هـ /
١٠٢٥م . (الزركلى : الاعلام ٩ : ١٩٦ ، يوسف العث : مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، ١٦ : ٣٢٦ -
٣٢٩) .

٦٣ - « تاريخ علماء أهل مصر » مخطوط بالمكتبة الظاهرية بدمشق برقم ١١٦ تاريخ ، ضمن مجموعة خطية
من ق ٢٤٠ - ٢٥٩ .

- الطرسوسى : مرضى بن على بن مرضى الطرسوسى (معاصر للسلطان صلاح الدين الأيوبى) .

٦٤ - « كتاب التذكر فى كيفية التجارة فى الفروسية فى أمور السلطنة » ، أو « تبصرة أرباب الألباب
فى كيفية التجارة فى الحروب من الأسواء ونشر أعلام الاعلام ، فى العدد والآلات المعينة على لقاء
الأعداء » ألفه لمولانا وسيدنا الملك الناصر ، جامع كلمة الإيمان قاصع عبدة الصليبان ، صلاح الدين
والدنيا .. أبا المظفر يوسف بن أيوب .. ، منه نسخة مخطوطة سنة ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م ، فى ١٧١ ق
بمكتبة آياصوفيا باستانبول برقم ٣٨٤٨ . ومصورة بمعهد المخطوطات برقم ١٠ فنون حريرية وفروسية .
ومنه نسخة بمكتبة المتحف الحربى بالقاهرة ، ونشر كلود كاهين جزء منه فى B.E.O .

- الطرسوسى (نجم الدين) : إبراهيم بن على بن أحمد الطرسوسى الخنفي ت ٧٥٨هـ / ١٣٥٦م . (ابن حجر :
الدرر ، ١ : ٤٣) .

٦٥ - « تحفة الترك فيما يجب أن يعمل فى الملك » مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس برقم ٢٤٤٥ ، وبمكتبة
برلين برقم ٥٦١٤ ، ومكتبة آياصوفيا باستانبول برقم ٢٨٥٤ . وبمكتبة جامعة القاهرة فى ٢٩ ق برقم
١٩٤٧٤ .

- ابن طلحة (النصبى) محمد بن طلحة القرشى النصبى ، كما الدين ، الوزير الأيوبى بالشام ، ت ٦٥٢هـ /
١٢٥٤م .

٦٦ - « نفائس العناصر لمجالس الملك الناصر » ، ألفه للملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز الأيوبى ،
صاحب حلب . منه نسخة خطية بالمتحف البريطانى برقم ١٥٣٠ ، ومنه نسخة خطية أخرى ضمن
مجموعة خطية بمكتبة برلين برقم ٨٧٧٩،٩٠ ، وبرقم ٥٦٤٤ (١١) .

- ابن طولون (الصالحى) : محمد بن على بن محمد الشهير بابن طولون الدمشقى الصالحى الخنفي ، شمس الدين
أبو عبد الله ، ت ٩٥٣هـ / ١٥٤٦م .

٦٧ - « العقود الدرورية فى الأمراء المصرية » وهو مختصر يشتمل على دولة الأتراك وسلاطينهم بمصر .
نسخة بخط المؤلف سنة ٩٤٢هـ / ١٥٣٥م فى ٧ ورقات ، مكتبة بلدية الإسكندرية رقم ٢٢٠٨ تاريخ .

- ابن ظافر (الأزدى) : على بن ظافر بن الحسين الأزدى ، المصرى ، المالكى ، جمال الدين أبو الحسن ،
ت ٦١٣هـ / ١٢١٦م .

٦٨ - « الدول المنقطعة » الموجود منه جزء ناقص من أوله . ويبتدىء من أثناء أخبار الدولة الحمدانية ،
ثم أخبار الدولة الزيدية بالجلال ، وأخبار الدولة الطولونية ، وأخبار الدولة الفاطمية بأفريقية ومصر والشام
واليمن ، والصنهاجية بأفريقية والأندلس ، وفي أخبار الدولة العباسية . نسخة بخط قديم بدار الكتب
المصرية برقم ٨٩٠ تاريخ مصورة عن المتحف البريطاني ، ومصورة أيضاً بمعهد المخطوطات برقم ٩٦٤
تاريخ . وطبع منه جزء بالمعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة .

٦٩ - « أساس السياسة » مخطوط بمكتبة برلين برقم ٥٦٤٤ (٨) ضمن مجموعة .

- ابن العديم (الحنفى) : عمر بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن محمد الحلبي الحنفى ، ويعرف
بابن العديم . ق ٩ هـ / ١٥ م . (السخاوى : الضوء ٦ : ٩٣ - ٩٤) .

٧٠ - « سوق الفاضل فى مناقب القاضى الفاضل » جمع فيه ما ذكر فى الكتب عن القاضى الفاضل
عبد الرحيم البيسانى ، ت ٥٩٦هـ / ١١٩٩م وزير صلاح الدين ، وذكر من عاصره من الأدباء
ومن أخذ عنه أو نحى نحوه . نسخة بخط المؤلف فى ٢٠٠ ق بمكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة برقم
٤١٠ تاريخ ومصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ١٠٩٩ تاريخ .

- ابن العديم (الحلبي) : عمر بن أحمد بن هبة الله بن محمد بن هبة الله بن أبى جرادة صاحب على بن أبى طالب ،
العقيلي ، الحلبي الحنفى ، كمال الدين أبو القاسم ، ت ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م .

٧١ - « بغية الطلب فى تاريخ حلب » هو تراجم لأهل حلب ومن دخلها ، رتبته على حروف المعجم ، منه
نسخة بخط المؤلف بمكتبة أحمد الثالث باستانبول برقم ٢٩٢٥ ومصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم
٩٠ تاريخ . وطبع أخيراً .

- ابن أبى عذبية (المقدسى) : أحمد بن محمد بن عمر ، شهاب الدين الشافعى ت ٨٥٦هـ / ١٤٥٢م .
(السخاوى : الضوء ٢ : ١٦٣ - ١٦٣ ، العزاوى التعريف بالمؤرخين ، ٢٣٦ - ٢٣٨) .

٧٢ - « إنسان العيون فى مشاهير سادس القروس » منه نسخة بخط المؤلف بجزائة قراجلبي باستانبول ، ومنه
نسخة بالمكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية . نسخة مصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ١٤١٠
تاريخ عن مخطوطة جامعة بغداد رقم ٢٤٨ فى ١٩٥ ق . وقد اهتم الكتاب بصفة خاصة بأخبار الملك
الناصر داود ابن الملك العادل عيسى بن محمد بن أيوب .

- العز (ابن عبد السلام) : عبد العزيز بن عبد السلام بن أبى القاسم بن الحسن المهذب السلمى الدمشقى
الشافعى ، عز الدين أبو محمد . ت ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م .

٧٣ - « ملحة الاقتصاد فى الاعتقاد » مخطوط فى ٧ ق بدار الكتب المصرية برقم ٦٥١ علم كلام .

- ابن العميد (الشيخ المكين) : جرجس بن العميد بن إلياس ، ت ٦٧١هـ / ١٢٧٢م .

٧٤ - « تاريخ ابن العميد » مخطوط فى ١٣٦ ق بدار الكتب المصرية برقم ٥٠١ تاريخ ومنه نسخة أخرى
مصورة عن مخطوط بالمتحف القبطى بالقاهرة فى ١٣٥ لوحة بدار الكتب المصرية برقم ٣٧٤٠ تاريخ
ونشر جزء منه كلود كاهين فى B.E.O .

- ابن عساكر (الحافظ) : على بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين الدمشقي الشافعي ، أبو القاسم ثقة الدين ، ت ٥٧١هـ / ١١٧٦م .
- ٧٥ - « تاريخ مدينة دمشق » يشتمل على ذكر من حلها أو اجتاز بها ، رتبته على حروف المعجم . منه نسخة كاملة بالمكتبة الظاهرية بدمشق ، وأجزاء في دار الكتب المصرية برقم ٤٩٢ تاريخ وبمكتبة الجامع الأزهر الشريف برقم ٧١٤ ع ومنه نسخة ملفقة من أجزاء مخطوطة باستانيول مصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ١٢٥ تاريخ . وطبع أخيراً .
- ابن عطية (الحموي) : علوان بن عطية الحموي ، ت ٩٣٦هـ / ٢٥٢٩م . (الفزى : الكواكب السائرة ، ٢ : ٢٠٦ - ٢١٣) .
- ٧٦ - « كتاب النصائح المهمة للملوك والأئمة » مخطوط بمكتبة خالص أفندي باستانيول .
- العماد (الكاتب) : محمد بن محمد بن حامد بن محمد بن عبد الله بن هبة الله المعروف بالعماد الكاتب الأصبهاني ويعرف بابن أخي العزيز ، عماد الدين أبو عبد الله . ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م .
- ٧٧ - « البرق الشامي » منه ثلاث قطع مخطوطة استخدمنا ثلاثها في دراستنا ، وهي المجلد الثالث ، مخطوط البودليانة برقم Bruce II ، والمجلد الخامس مخطوط البودليانة برقم Marsh 452 وقطعة مخطوطة بمكتبة ليدن بهولندا برقم ١٥٩٢ .
- العمري (شهاب الدين) : أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي ، العدوي العمري ، الدمشقي الشافعي ، أبو العباس ، ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م . (ابن حجر : الدرر ، ١ : ٣٣١ - ٣٣٣) .
- ٧٨ - « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » نسخة مصورة بدار الكتب المصرية برقم ٥٥٩ معارف عامة عن إحدى النسخ المحفوظة بمكتبات استانيول ، ورجعنا بصفة خاصة للجزئين الأول والثاني .
- العيني (بدر الدين) : محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن يوسف ، أبو محمد ، ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م .
- ٧٩ - « عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان » ١٩ جزء ، منه نسخة بخط المؤلف بمكتبة أحمد الثالث باستانيول برقم ٢٩١١ ومصور بمعهد المخطوطات برقم ٣٣٤ تاريخ وبرقم ٧٣٨ تاريخ . وطبع منه أجزاء أخيراً .
- الفزى (الشافعي) : عبد الله بن محمد الفزى الشافعي ، ت ٩٠٩هـ / ١٥٠٥م (السخاوي: الضوء، ٥ : ٨٥) .
- ٨٠ - « الأدلة القطعية في عقود الولايات والسياسة الشرعية » مخطوط بمكتبة كوجك أفندي باستانيول .
- الغيطي (نجم الدين) : محمد بن أحمد بن علي بن أبي بكر السكندري ، ثم المصري ، الغيطي الشافعي أبو المواهب ، ت ٩٨١هـ / ١٥٧٣م .
- ٨١ - « التأيدات العلية للأوقاف المصرية » رسالة في ٩ ورقات بدار الكتب المصرية برقم ١١٦٢ فقه شافعي ، ومنها نسخة أخرى برقم ٦٦٥ فقه تيمور .
- أبو القدا (الملك المؤيد) : إسماعيل بن علي بن أيوب ، الملك المؤيد ، صاحب حماه ، ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م .
- ٨٢ - « النبر المسبوك في تواريخ أكابر الملوك » رسالة في ١٩ ق بدار الكتب المصرية ، برقم ٥٤٧ الخزانة الزكية .

- ابن الفرات (المصري) : محمد بن عبد الرحيم بن على بن الحسن بن محمد بن عبد العزيز بن محمد الخنفي .
ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م .
- ٨٣ - « تاريخ الدول والملوك » بدأه من سنة ٥٠١هـ / ١١٠٧م ووصل فيه إلى سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م
مصور بدار الكتب المصرية برقم ٣١٩٧ تاريخ عن مخطوطه فينا ، ومصور أيضاً بمعهد المخطوطات
بالقاهرة برقم ١١٤ تاريخ ومنه نسخة أخرى بدار الكتب المصرية برقم ٢١١٠ تاريخ . وطبع منه أجزاء
أخيراً .
- ابن أبي الفوارس (الخزرجي) : محمد بن إبراهيم بن محمد بن أبي الفوارس عبد العزيز الأنصاري (الخزرجي)
ق ٧هـ / ١٣م .
- ٨٤ - « تاريخ دولة الأكراد والأتراك » مصور بدار الكتب المصرية برقم ٢٢٨٨١ في مجلدين ١٠٠ ، ٩٩
لوحة ، عن النسخة المخطوطة بمكتبة حكيم أوغلو على بالاستانة برقم ٦٩٥ . وهو مصور أيضاً بمعهد
المخطوطات العربية بالقاهرة برقم ٨٩٤ تاريخ .
- قدامه (ابن جعفر) : قدامه بن جعفر بن قدامة ، ابو الفرج ، ت ٣٣٧هـ / ٩٤٨م .
- ٨٥ - « كتاب الخراج » مصور بدار الكتب المصرية برقم ١٩٧١ فقه حنفي عن المكتبة الأهلية بباريس .
وطبع كاملاً أخيراً .
- القفطي (ابن الحاج) : شيب بن إبراهيم بن محمد بن حيدرة العبادي ، ضياء الدين أبو الحسن ، ت ٥٩٨هـ /
١٢٠٢م . (القفطي : انباه الرواه ، ٣ : ٧٣ - ٧٤) .
- ٨٦ - « تهذيب ذهن الواعي في إصلاح الرعية والراعي » ألفه للسلطان صلاح الدين الأيوبي . مخطوط
ضمن مجموعة خطية بمكتبة برلين برقم ٥٦٤٤ ، ٧٣ .
- القفطي (جمال الدين) : على بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الواحد الشيباني القفطي ، ويعرف بالقاضي
الأكرم ، أبو الحسن ، وزير أيوبي ، ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م .
- ٨٧ - « أساس السياسة » ، مخطوط بمكتبة خالص باستانبول .
- الكافيحي (محي الدين) : محمد بن سليمان بن سعد بن مسعود الرومي ، أبو عبد الله ، ت ٨٧٩هـ /
١٤٧٤م . (السخاوي : الضوء ، ١١ : ١٩٦) .
- ٨٨ - « سيف الملوك والحكام » مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٢٤٢٦٣ ب .
- ابن كنان (الخلوئي) : محمد بن زين القاه عيسى بن محمود بن محمد بن كنان الحنبلي الصالحي الدمشقي ،
ت ١١٥٣هـ / ١٧٤٠م (المرادى : سلك الدرر : ٤ : ٨٥ - ٨٦) .
- ٨٩ - « حقائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين » مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٦٨٨٩
أدب ، ومصور بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ١٩ ، سياسة واجتماع .
- مجهول (: معاصر للسلطان صلاح الدين الأيوبي ، ق ٦هـ / ١٢م .
- ٩٠ - « المقامة الصلاحية في الخيل والبيطرة والفروسية » ألفها للسلطان صلاح الدين الأيوبي . مخطوطة في
١٥ ق بدار الكتب المصرية برقم ٨١ فرسية تيمور .
- مجهول (: معاصر للسلطان العزيز عثمان الأيوبي) ق ٦هـ / ١٢م .

- ٩١ - « كتاب محاسن الملوك » ألفه للملك العزيز عثمان بن صلاح الدين ، ت ٥٩١هـ / ١١٩٤م مخطوط بمكتبة طوبقبو سراى باستانبول كتب سنة ٧٩٥هـ / ١٣٩٢م برقم ٢٦٣ - ٣٠٥٢ ، ومصور بالفوتستات بدار الكتب المصرية برقم ٢٢٩٨ أدب ، فى ١٣١ لوحة .
- مجهول : (معاصر للملك الصالح اسماعيل الأيوبى ، والسلطان الصالح نجم الدين أيوب) ق ٧ هـ / ١٣ م .
- ٩٢ - « كتاب التحقيق فى شراء الرقيق » ، ألفه للملك الصالح إسماعيل ابن الملك العادل أبو بكر بن أيوب . مخطوط بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية برقم ٤٨ فضائل ، فى ٢٥٠ ق ومصور بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٩٤ تصوف وأداب شرعية .
- مجهول (معاصر للوزير الفاطمى الصالح طلائع بن رزيك) ق ٦٦ هـ / ١٢ م .
- ٩٣ - « كتاب تبية الملوك والمكاند » ، ألفه للوزير الفاطمى الملك الصالح طلائع بن رزيك . نسخة كتبت سنة ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م محفوظة بمكتبة كوبرلى باستانبول برقم ١٠٦٥ ، فى ٤٤٠ ق ومصورة بدار الكتب المصرية برقم ٢٣٥٤ أدب وبمعهد المخطوطات برقم ١٦ سياسة واجتماع .
- مجهول : (عاش فى العصر المماليكى) ق ٨ - ٩ هـ / ١٤ م تقريباً .
- ٩٤ - « نزهة المناظر وراحة الخاطر » ، مختصر الدر المطلوب فى تاريخ بنى أيوب مخطوط بمكتبة فينا برقم ٣٢٥ .
- مجهول :
- ٩٥ - « مجموعة رسائل القاضى الفاضل » مخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس برقم ٦٠٢٤ ، وبمكتبة دهنه روشيد برقم ٢٨٧ ، وبمكتبة برلين برقم ٨٦٢١ ، وبمكتبة مدرسة أويس بالموصل .
- مجهول :
- ٩٦ - « الرسائل الحجازية » وهى تحوى على مكاتبات القاضى الفاضل . مخطوطة بمكتبة الفاتيكان بأسبانيا برقم ٩٤٦ .
- مجهول :
- ٩٧ - « مكاتبات القاضى الفاضل » مخطوط بالمتحف البريطانى برقم ٢٥٧٥٧ .
- مجهول :
- ٩٨ - « مراسلات فاضلى » مخطوط بالمتحف البريطانى برقم ٧٤٦٥ .
- مجهول :
- ٩٩ - « الرسائل الأدبية للقاضى الفاضل » مخطوطة بمكتبة الجامع الأزهر رقم ٤٣ أباطة ، ٧٠٣٥ أدب .
- مجهول : معاصر لدول المماليك بمصر والشام ، ق ٩ هـ / ١٥ م . (بروكلمن ٢ : ٢٧٢ ، الملحق ٢ : ٢٩٤ ، حاجى خليفة : كشف الظنون ٣ : ١٥٢٣) .
- ١٠٠ - « كوكب الترك وموكب الملك » مخطوط بمكتبة غوطا برقم ١٨٨٥ وبمكتبة شهيد على باستانبول برقم ٢٧٠٩٠٥ ، وبمكتبة كميردج برقم ٩٥٤ .
- مجهول : معاصر للملك الأشرف ق ٩ هـ / ١٥ م .
- ١٠١ - « سياسة الملوك » ألفه برسم الملك الأشرف . مخطوط بمكتبة خالص باستانبول .

- مجهول : معاصر للملك الأشرف قايتباى ، ق ٩ هـ / ١٥ م .
- ١٠٢ - « تحفة الملوك وعمدة الملوك » ألفه برسم الملك الأشرف قايتباى . مخطوط بمكتبة أياصوفيا باستانبول .
- مجهول : معاصر للسultan قانصوه الغورى ، ق ١٠ هـ / ١٦ م .
- ١٠٣ - « السلوك فى تدبير الملوك » مخطوط بمكتبة أيا صوفيا برقم ١٨٥٤ فى ١١٢ ق ومصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٣٥ سياسة واجتماع .
- مجهول :
- ١٠٤ - « اللؤلؤ المنثور لنصيحة ولاة الأمور » مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٣٥ اجتماع تيمور .
- مجهول :
- ١٠٥ - « حدائق السلوك فى سياسة الملوك » مخطوط بمكتبة فاتح باستانبول برقم ٣٥٠٢ ، مصور بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٣٩ سياسة .
- مجهول : عاش فى العصر المالكي ق ٨ - ١٠ هـ / ١٤ - ١٥ م .
- ١٠٦ - « شرح اللعة » كتاب فى تاريخ مصر أيام الفاطميين والأيوبيين والماليك ، آخره بتاريخ سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م . مصور بالفوتستات بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٢٢ عن مخطوطة بمكتبة الأسكوريال بأسبانيا .
- مجهول : كان موجودًا سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م .
- ١٠٧ - « أخبار الصالحين والزهاد والعارفين والعباد » فى تراجم الصوفية ، رتبته على حروف المعجم ، مبدأ بالمحمدين . مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٢٧٧٤ عام . وذكر المؤلف فى ق ٩٥ وق ١٠٢ إن الذى ألبسه خرقة التصوف هو أبو عبد الله عمر بن ميمون السهرودى ، ت ٦٣٢ هـ .
- المحبى (لعلها المحلى) المصرى : حسين بن محمد (لعله الحسين بن محمد المحلى المصرى الشافعى) ، فقيه فرضى رياضى ، ت ١١٧٠ هـ / ١٧٥٧ م) .
- ١٠٨ - « عدة السالك فى سياسة الممالك » مخطوط بمكتبة خالص باستانبول .
- ابن المحق (الموصلى) : أبو عبد الله محمد بن أبى بكر المبارك ابن الرضوان المعروف بابن المحق الموصلى .
- ١٠٩ - « النصيح فى الدين ومآرب القاصدين فى مواعظ الملوك والسلطين » مخطوط بمكتبة أحمد الثالث باستانبول برقم ٦٢٠٢ ومصور بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٥٥ سياسة واجتماع .
- المخزومى (أبو الحسن) : على بن أبى عمر عثمان بن يوسف بن إبراهيم بن أحمد بن يعقوب القرشى المخزومى الشافعى ، القاضى الأجل السعيد ولد بالقاهرة سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨ م وتوفى بها سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م . (المنذرى : التكملة لوفيات النقلة ، ١ : ١٨٩) .
- ١١٠ - « كتاب المهاج فى صناعة خراج مصر » ، مخطوطة بمكتبة المتحف البريطانى بلندن برقم ٢٣٤٨٣ .
- ابن مرتفع (المقرئ) : محمد بن مرتفع بن جبريل المقرئ . كان حيًا سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م .
- ١١١ - « سبل الرشاد فى فضائل الجهاد » نسخة بخط المؤلف كتبت سنة ٦٤٧ هـ مخطوطة بجامعة استانبول برقم ١٣٩٦ ومصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٢٥٢ تصوف وآداب شرعية .

- ابن المظفر (الرازي) : أحمد بن محمد بن المظفر بن المختار الرازي الحنفي ت ٦٣١هـ / ١٣٣٤م . (كحالة : معجم المؤلفين ، ٢ : ١٥٨) .
- ١١٢ - « ذخيرة الملوك في علم السلوك » نسخة كتبت في سنة ٧٣٧هـ / ١٣٣٦م ، وقوبلت على نسخة المؤلف ، في ١٣ ق بمكتبة لاله لي باستانبول برقم ٣٣٧٩ / ٢ ومصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ١٥٩ تصوف وآداب شرعية .
- ابن أبي المفاخر (مجد الدين) : محمد بن أبي المفاخر داود الملك الناصر صاحب الكرك ق ٧هـ / ١٣م .
- ١١٣ - « الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية » وهو مجموع رسائل وشعر السلطان الملك الناصر صلاح الدين بن أبي المفاخر داود ابن السلطان المظفر عيسى بن نجم الدين أيوب ، ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م . محفوظ بدار الكتب المصرية برقم ٢٢٩٣ أدب ، وهي مصورة عن استانبول في ٢٩١ ق .
- المقرئ (تقي الدين) : أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن تميم ابن عبد الصمد المحيوي الحسيني العبيدي البعلبي الأصل المصري المولد والدار والوفاة ، ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م .
- ١١٤ - « المقتفى » كتاب في تراجم ملوك وعلماء ومشاهير مصر الإسلامية والواردين عليها منذ الفتح العربي وحتى عصر المؤلف ، مرتب على حروف المعجم . منه أربع مجلدات بدار الكتب المصرية برقم ٥٣٧٢ تاريخ . والجزء الأول منه مخطوط بالمكتبة السليمانية باستانبول برقم ٤٩٦ ومصور بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٥١٠ تاريخ . ومنه مجلد آخر من مسودة المؤلف بمكتبة ليدن برقم ١٣٦٦ مصور بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ١٢٤٦ تاريخ .
- ١١٥ - « المقاصد السنية لمعرفة الأجسام المعدنية » مصور بجامعة القاهرة برقم ٢٦٢٤٧ / ٩ ، عن المكتبة الوليدية بالآستانة .
- ١١٦ - « رسالة في الموازين الشرعية » مخطوط بدار الكتب المصرية .
- ابن ممتى (الأسعد) : أسعد بن المهذب بن مينا بن ذكريا بن ممتى ، أبو المكارم ، ت ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م .
- ١١٧ - « مختصر من متبلج الأنوار ومتعرج النوار » ، في المكتبة إلى الملوك والوزراء والعلماء ، مما جمعه ابن ممتى ، من قول القاضي الفاضل . مخطوط ضمن مجموعة خطية بمكتبة الفاتيكان بإيطاليا برقم ١٠٩٩٧ .
- المناوي (زين الدين) : عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي المناوي القاهري الشافعي ، ت ١٠٣١هـ / ١٦٢١م . (المحيي : خلاصة الأثر ، ٢ : ٤١٢ - ٤١٦) .
- ١١٨ - « الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية » وتعرف بطبقات المناوي الكبرى ، رتبها على أحد عشر طبقة ، وجعل كل طبقة مائة سنة ، ورتب كل طبقة على حروف المعجم ، مصور بمعهد المخطوطات برقم ٧٦٧ تاريخ .
- ابن منجب (الصيرفي) : علي بن منجب بن سليمان المصري ، أبو القاسم متولى ديوان الإنشاء الفاطمي بمصر ، ت ٥٤٢هـ / ١١٤٧م . (ياقوت : معجم الأدياء ، ١٥ : ٧٩ - ٨١) .

- ١١٩ - «الأفضليات» وهي خمس رسائل مؤلفة إلى الوزير الأفضل بن بدر الجمالي ، كالاتي «رسالة في العفو» ، ق ١ - ١٢ ، «درر المظالم» ، ق ٢١ - ٥٦ ، «لع الملسح» ، ق ٥٦ - ١٢٣ ، «مناهج القرائح» ق ١٢٣ - ١٦٠ «مناجاة شهر رمضان» ، ق ١٦٠ - ١١٦ ، «عقائل الفضائل» ق ١٦٦ - ٢١٣ ، «التدلي على التسلي» ، ق ٢٦٣ - ٢٦٢ ق بمكتبة فاتح باستانبول برقم ٥٤١٠ ومصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٣٩ تصوف وأداب شرعية .
- المنجيني (نجم الدين) : يعقوب بن ضابر بن بركات ، أبو يوسف ، ت ٢٦٢هـ / ١٢٤٨م (ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ، ص ٨ - ١١ ، ابن خلكان : وفيات ٢ : ٣٣٧) .
- ١٢٠ - «عمدة السالك في سياسة الممالك» ، يتضمن أحوال الحروب والفروسية وحيلهما ، وفتح الثغور وبناء المعامل وهندستها . ألفه - أغلب الظن - للخليفة العباسى الناصر لدين الله . مخطوط بمكتبة برلين برقم ٥٦٤٤ (٩) ضمن مجموعة خطية .
- النابلسي (علاء الدين) : عثمان بن إبراهيم بن خالد بن محمد بن المسلم القرشي ، النابلسي المتحد المصري الدار والوفاة والمولسد الشافعي الكاتب الأديب . ولد سنة ٥٨٨هـ / ١١٩٢م بالقاهرة وتوفى بها سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦١م . (اليوننى : ذيل مرآة الزمان ، ١ : ٥٠٤ - ٥٠٥) .
- ١٢١ - «كتاب تجريد سيف الهمة لاستخراج ما فى ذمة أهل الذمة» مخطوط بمكتبة الزيتونة بتونس برقم ١٦٤٥ أنظر ١٩٢٢ ، ١٧ ، ٧٤ ، ومنه نسخة خطية أخرى بمكتبة آياصوفيا باستانبول .
- ابن نباته (المصرى) : محمد بن محمد بن الحسن الجذامى الفارقى الأصل المصى أبو الفضائل ، أبو الفتح ، أبو بكر ، ت ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م . (ابن حجر : الدرر ، ٤ : ٢١٦ - ٢٢٤) .
- ١٢٢ - «المختار الفاضل من كلام القاضى الفاضل» ، مخطوط بالمتحف البريطانى برقم ٧٣٠٧ ، وهو مصور بدار الكتب المصرية برقم ٣٨٨٢ أدب ، ومعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٧٥٠ أدب .
- ١٢٣ - «المختار من إنشاء القاضى الفاضل» مخطوط بمكتبة الجامع الأزهر رقم ٤٦٩ أباطة ، ٧٠٦٥ أدب .
- ١٢٤ - «المختار من كتاب تدبير الدول» نسخة كتبت ق ٨هـ ، فى ٨٤ ق ، بمكتبة أسعد أفسندى باستانبول برقم ١٨٢٢ .
- ابن نجم (المصرى) : إبراهيم بن محمد ، زين الدين ، الحنفى ، ت ٩٧٠هـ / ١٥٢٦م (ابن العماد : شذرات الذهب ، ٨ : ٣٥٨) .
- ١٢٥ - «رسالة فى أحكام السياسة الشرعية» مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١١٦٠ .
- ١٢٦ - «رسالة التحفة المرضية فى الأراضى المصرية» مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٤٧٩ ، ٣٣ مجاميع .
- ١٢٧ - «رسالة فى بيان الإقطاعات ومحلها ومن يستحقها» ، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم ٣٣ مجاميع .
- النويرى (شهاب الدين) : أحمد بن عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الوهاب بن عبادة البكرى النويرى الشافعى ، أبو العباس ، ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٣م .
- ١٢٨ - «نهاية الأرب فى فنون الأذب» الجزء ٢٧ ، مصور بالقوتستات بدار الكتب المصرية برقم ٥٤٩ معارف عامة .

- الهروي (أبو الحسن) : على بن أبي بكر بن علي الهروي الموصلي نزيل حلب الرحالة الشهير ، ت ٦١١هـ / ١٢١٥م .
- ١٢٩ - « التذكرة الهروية في الحيل الحربية » وهي في السياسة الشرعية وتدبير الملك والحيل الحربية ، مخطوط بمكتبة عاطف أفندي باستانبول برقم ٢٠١٨ ، ومصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ١٧ فروسية . وحقق أخيراً بدمشق .
- ابن أبي الهيجاء (؟) معاصر للسلطان صلاح الدين الأيوبي ق ٥٦هـ / ١٢م .
- ١٣٠ - « تاريخ ابن أبي الهيجاء » بدأ منذ صدر الإسلام وانتهى بحروب صلاح الدين . مخطوط بالمكتبة الأحمدية بتونس برقم ٤٩١٥ ومصور بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٩٤٦ .
- ابن واصل (الحموي) : محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم بن واصل المازني التميمي الحموي الشافعي ، جمال الدين ، أبو عبد الله ، ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م .
- ١٣١ - « التاريخ الصالحى » مخطوط بمكتبة فاتح باستانبول برقم ٤٢٢٤ ومصور بالتصوير الشمسى بمكتبة كلية الآداب جامعة الإسكندرية برقم ٢٣١١ .
- ابن وصيف شاه (المصرى) : إبراهيم بن وصيف شاه المصرى ، ت ٥٩٩هـ / ١٢٠٣م (كحالة : معجم المؤلفين ، ١ : ١٢٠) .
- ١٣٢ - « تاريخ أخبار الديار المصرية » وما في ذلك من جواهر البحور ووقائع الأمور وعجائب الدهور ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٧ تاريخ .
- اليافعى (المصرى) : الحسن بن إبراهيم بن محمد اليافعى (؟) من علماء القرن التاسع الهجرى / ١٣م كان معاصراً للسلطان قلاوون .
- ١٣٣ - « جامع التواريخ المصرية فى ذكر الملوك والخلفاء والسلطين الإسلامية » ألّفه للسلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفى الصالحى . ابتداء بحوادث سنة ٥٢١هـ / ١٢٧م ، وانتهى فيه إلى سنة ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م ، فى سلطنة المنصور المذكور ، ورتب هذا التاريخ على الحوادث والوفيات . مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس برقم ١٥٤٣ ومصور بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية برقم ١٠١٦ تاريخ .
- يوساب (أسقف فوه) : الأنبا يوساب أسقف فوه ، كان معاصراً للدولة الأيوبية ق ٦هـ / ١٢م . كما أفاد أكثر من مرة أثناء كتابه (سير بطاركة كرسى الإسكندرية) .
- ١٣٤ - « سير بطاركة كرسى الإسكندرية » مخطوط بمكتبة المتحف القبطى بالقاهرة برقم ٥٣٢٨ . ومنه نسخة خطية أخرى قديمة بيدى السريان بوادى النطرون .

ثانياً : المصادر العربية المطبوعة^(١) :

- ابن الأثير (عز الدين) : على بن محمد ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م .

(١) ثمة بعض مصادر ، لم تؤولف فى العصر الأيوبي ، وقد رجعنا إليها قليلاً لتحقيق الأسماء والأعلام ولم نذكرها فى هذه القائمة لكثرة تداولها .

- ١ - الكامل في التاريخ ، ١٣ جزءاً ، طبع دار صادر ، بيروت ، سنة ١٩٦٥ م .
- ٢ - الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية ، تحقيق عبد القادر طليمات ، القاهرة ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٣ م .
- ابن الأثير (ضياء الدين) : نصر الله بن محمد ت ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م .
- ٣ - رسائل ضياء الدين بن الأثير ، تحقيق أنيس المقدسى ، بيروت ١٩٥٩ م .
- ٤ - الوشى المرقوم في حل المنظوم ، مطبعة ثمرات الفنون ، سنة ١٢٨٩ هـ .
- ٥ - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، طبع المطبعة البهية بالقاهرة سنة - الأذفرى (ت ٧٤٨ هـ) :
- ٦ - الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد ، تحقيق سعد محمد حسن ، القاهرة ، ١٩٦٦ م ، الهيئة العامة للكتاب ، سلسلة تراثنا .
- ابن الأزرقي (الأندلسي) أبو عبد الله بن الأزرقي ق ١٠ هـ / ١٦ م .
- ٧ - بدائع السلك في طبائع الملك ، تحقيق على سامي النشار ،
- الإسحاقى (المنوفى) : محمد بن عبد المعطى ت ١٠٩ هـ / ١٦٥٠ م .
- ٨ - لطائف أخبار الأول ، فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول ، طبع مصر .
- الأسفرايى (أبو المظفر) : شهور بن طاهرات ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م .
- ٩ - التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين ، تحقيق محمد زاهد الكوثرى ، طبع القاهرة ، ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م .
- الإسكافى (الخطيب) محمد بن عبد الله ت ٤٢١ هـ .
- ١٠ - لطف التدبير في تدبير الرئاسة ، تحقيق أحمد عبد الباقي ، نشر مكتبة المنشى ببغداد ومكتبة الخانجى بالقاهرة ، ١٩٦٤ م .
- الأشعري (أبو الحسن) : على بن إسماعيل ت ٣٣٠ هـ / ٩٤٢ م .
- ١١ - الإبانة في أصول الديانة ، طبع بدائرة المعارف العثمانية بالهند ، ١٣٠٤ هـ ، ضمن مجموعة رسائل بعنوان ، الرسائل السبعة في العقائد ، رقم ٤ فى المجموعة .
- ١٢ - مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، تحقيق هلموت ريتز ، طبع فى مجموعة التشريعات الإسلامية لجمعية المستشرقين الألمانية ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٣ م .
- الأهوازى (المصرى) : على بن بليان الفارسى المصرى الخنفي ، أبو الحسن (٦٧٥ هـ - ٧٣٩ هـ) (ابن حجر : الدرر الكامنة ٣ : ٣٣ ، القرشى : الجواهر المضية ص ٣٥٤)
- ١٣ - التبر المنسبك فى تدبير الملك ، ويشتمل على تهذيب الرياسة وترتيب السياسة ، طبع بمطبعة التمدن بمصر ١٣١٨ هـ / ١٩٠٠ م ، وطبع حديثاً بعنوان التحفة الملوكية فى الآداب السياسية ، منسوباً لأبى الحسن الماوردى ، بتحقيق فؤاد عبد المنعم ، القاهرة ١٩٧٧ م .
- الأنصارى : عمر بن إبراهيم (ق ٨ - ٩ هـ / ١٤ - ١٥ م) .
- ١٤ - « تفريغ الكروب فى تدبير الحروب » ، ألفه فى عهد السلطان ، فرج بن برقوق (٨٠١ هـ - ٨١٤ هـ) تحقيق جورج سكانلوت ، منشورات الجامعة الأمريكية بالقاهرة ١٩٦١ م .

- ابن إياس (التركمانى المصرى) محمد بن أحمد بن إياس الخنقى التركمانى ، ولد ٨٥٢هـ ، وبدأ تأليف كتابه بدائع الزهور سنة ٩٠١ هـ .
- ١٥ - « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » تاريخ حولى من سنة ٨٥٧هـ إلى سنة ٩٢١هـ (ج ١ - ٤) ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٥١م - ١٩٦٠م .
- ابن أيلك (الدوادار) أبو بكر بن عبد الله ت بعد سنة ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م .
- ١٦ - « الدر المطلوب فى تاريخ بنى أيوب » ، تحقيق سعيد عاشور ، القاهرة ١٣٩١هـ / ١٩٧٢م .
- الباقلانى (أبو بكر) : محمد بن الطيب ٤٠٣هـ / ١٠١٣م .
- ١٧ - « التمهيد فى الرد على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة » ، تحقيق محمود محمد الحضيرى ، ومحمد عبد الهادى أبو ريدة ، القاهرة ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م ، ونشر مرة أخرى ببيروت ١٩٥٧م ، بتحقيق يوسف مكارثى اليسوعى .
- ١٨ - « الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به » ، تحقيق محمد زاهد الكوثرى ، القاهري ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م .
- باخرمه (العدنى) : الطيب بن عبد الله ت ٩٤٧هـ / ١٥٤٠م .
- ١٩ - « تاريخ ثغر عدن (ج ١ - ٣) » ، تحقيق أوسكر لوفجرين ، ليدن ١٩٣٦م .
- البديسى : شرف خان ، (عاش فى العصر العثمانى ق ١٠هـ - ١٤هـ / ١٦ - ٢٠م) .
- ٢٠ - « الشرفنامه الكردية ، ألفه بالفارسية » ، ترجمه إلى العربية محمد على عونى ، راجعه وقدم له يحيى الخشاب ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البلبابى الحلبي د. ت .
- ابن بسام (التيسى) : محمد بن أحمد المحتسب (أواخر ق ٦هـ / ٧م) .
- ٢١ - « كتاب أنيس الجيس فى أخبار تيس » ، حققه جمال الدين الشيال ، مجلة المجمع العلمى العراقى ، ج ١٤ ، ١٩٦٧ ، ص ١٥١ - ١٨٩ .
- ابن بعره (الذهبى) : منصور بن بعره الذهبى الكاملى ق ٦هـ / ١٢م .
- ٢٢ - « كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية » ، طبع بالمجلس الإسلامى الأعلى بالقاهرة ١٩٦٧م ، بتحقيق عبد الرحمن فهمى .
- البغدادى (أبو منصور) : عبد القاهر بن طاهر ت ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م .
- ٢٣ - « الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم » ، تحقيق محمد زاهد الكوثرى ، طبع القاهرة ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م .
- ٢٤ - كتاب « أصول الدين » طبع استابول ١٣٤٦هـ / ١٩٢٨م .
- البغدادى (موفق الدين) : عبد اللطيف بن يوسف ت ٦٢٩هـ م ١٢٣١م .
- ٢٥ - كتاب « الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر » ، طبع بمصر ، د. ت . مطبعة المجلة الجديدة لصاحبها سلامة موسى .
- البندارى (الأصفهانى) الفتح بن على ت ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م .
- ٢٦ - « تاريخ دولة آل سلجوق » ، طبع بمطبعة الموسوعات بمصر ، ١٩٠٠م .

- ٢٧ - « سنى البرق الشامى » (٥٦٢هـ / ١١٦٦م - ٥٨٣هـ / ١١٨٧م) ، تحقيق لحنية النبراوى ، القاهرة ١٩٧٩م .
- بنيامين التطيلى (الرحالة اليهودى الأندلسى) ق ١٢ / ١٢م .
- ٢٨ - « رحلة بنيامين التطيلى » ، ترجمها إلى العربية عزراً حداد ، تصدير عباس العزاوى ، بغداد ، ١٩٤٥م .
- البهاء زهير (المصرى) : زهير بن محمد ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م .
- ٢٩ - « ديوان البهاء زهير » ، طبع مصر ١٢٩٧هـ ، وطبع بيروت ١٩٦٤م .
- البوصيرى (شرف الدين) : محمد بن سعيد ت ٦٨٦هـ / ١٢٩٦م .
- ٣٠ - « ديوان البوصيرى » ، تحقيق محمد سيد كيلانى ، طبع مصر ، ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م .
- ابن البيطار (ضياء الدين) عبد الله بن أحمد المالقى ت ٦٤٦هـ / ١٩٤٨م .
- ٣١ - « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » ، (ج ١ - ٤) طبع بيولاى ١٢٩١هـ فى مجلدين .
- ابن التعاوىذى (سبط) : محمد بن عبيد الله ، ت ٥٨٣هـ / ١١٨٧م .
- ٣٢ - « ديوان سبط ابن التعاوىذى » ، تحقيق مرجليوث ، مطبعة المقتطف بمصر ، ١٩٠٣م .
- ابن تغرى بردى (أبو المحاسن) : يوسف بن تغرى بردى بن عبد الله الظاهرى ت ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م .
- ٣٣ - « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » ، تحقيق محمد رمزى وآخرون ، طبع دار الكتب المصرية ، ابتداء من سنة ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م ، ج ١ - ١٦ ، وبصفة خاصة (ج ٦) .
- التوحيدى (أبو حيان) : على بن محمد ، كان حياً سنة ٣٨٠هـ / ٩٩٠م .
- ٣٤ - « رسالة فى علم الكتابة » ، تحقيق إبراهيم الكيلانى ، ضمن مجموعة رسائل طبعت بعنوان : « ثلاث رسائل لأبى حيان التوحيدى » ، مطبوعات المعهد العلمى الفرنسى بدمشق ، ١٩٥١م .
- ٣٥ - « مثالى الوزيرين » ، أخلاق الصاحب بن عباد وابن العميد ، تحقيق إبراهيم الكيلانى ، دمشق ١٩٦١م .
- ٣٦ - « أخلاق الوزيرين » ، مثالى الوزيرين الصاحب بن عباد وابن العميد ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى ، مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق ١٩٦٥م .
- التيفاشى (القفصى) : أحمد بن يوسف ت ٦٥١هـ / ١٢٥٣م .
- ٣٧ - « أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار » ، طبع القاهرة سنة ١٩٧٧م ، ضمن مطبوعات الهيئة المصرية العامة للكتاب ، تحقيق محمد يوسف حسن ومحمد بسيونى خفاجى .
- ابن تيمية (تقى الدين) : أحمد بن عبد الحليم ت ٧٢٨هـ / ١٣٢٨م .
- ٣٨ - السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية ، تحقيق على سامى النشار ، وأحمد زكى عطية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥١م .
- ٣٩ - « الحسبة فى الإسلام أو وظيفة الحكومة الإسلامية » ، القاهرة ، المطبعة المزيديّة ، ١٣١٨هـ .
- الثعالبى (أبو منصور) : عبد الملك بن إسماعيل النيسابورى ت ٤٢٩هـ / ١٠٣٨م .
- ٤٠ - « كتاب تحفة الوزراء » ، تحقيق رجبنا هاينكه ، بيروت ١٩٧٥م .

- الجاحظ (عمرو بن بحر البغدادي المعتزلي) ق ٣ هـ .
- ٤١ - « رسالة في فضل الترك » ، تحقيق عبد السلام هارون ، نشر مكتبة الخانجي ، في مجموعة رسائل الجاحظ ، القاهرة ١٩٦٥ م .
- ابن جبير (الأندلسي) : محمد بن أحمد الكناني البلسني الشاطبي ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م .
- ٤٢ - « رحلة ابن جبير » ، دار صادر ، بيروت ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م .
- الجهشيارى (أبو عبد الله) : محمد بن عبدوس الكوفي ت ٣٣١ هـ / ٩٤٣ م .
- ٤٣ - كتاب « الوزراء والكتاب » ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م .
- ٤٤ - « نصوص ضائعة من كتاب الوزراء والكتاب » ، جمعها ميخائيل عواد ، دار الكتاب اللبناني ، ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م .
- الجوالقي (أبو منصور) : موهوب بن أحمد ت ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م .
- ٤٥ - « المغرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم » ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٦١ هـ .
- ٤٦ - « شرح أدب الكاتب » ، نشر مع مقدمة وتصدير لمصطفى صادق الرافعي ، مكتبة القدسي ، ١٣٥٠ هـ .
- جوافيل (مؤرخ لاتيني صليبي ت ق ٦ هـ / ١٢ م .
- ٤٧ - « مذكرات جوافيل ، القديس لويس حياته وحملاه على مصر والشام » ، ترجمة وتحقيق حسن حبشي ، الطبعة الأولى ، دار المعارف بمصر ١٩٦٨ م .
- ابن الجوزي (أبو الفرج) : عبد الرحمن بن علي ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م .
- ٤٨ - « المنظم في تاريخ الملوك والأمم » ، نشر منه الأجزاء من (٥ - ١٠) بمطبعة دائرة المعارف العثمانية بالهند ١٣٥٧ هـ .
- الجويني (إمام الحرمين) : عبد الملك بن عبد الله ت ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م .
- ٤٩ - « غياث الأمم في الياث الظلم » ، الفه للوزير نظام الملك السلجوقي ، تحقيق فؤاد عبد المنعم ومصطفى حلمي ، القاهرة ١٩٧٩ م .
- ٥٠ - « العقيدة النظامية » ألفها للوزير نظام الملك السلجوقي ، تحقيق محمد زاهد الكوثري ، طبع بمطبعة الأنوار بمصر ، ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م .
- ٥١ - « لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة » تحقيق فوكية حسين ، طبع القاهرة ١٣٥٨ هـ / ١٩٦٥ م .
- ٥٢ - « كتاب الإرشاد في أصول الدين » ، تحقيق أحمد فؤاد الأهواني ، طبع دار المعارف بمصر .
- ابن الجيعان (شرف الدين) يحيى بن شاكر ، ت ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ م .
- ٥٣ - « التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية » ، نشر مورتر ، القاهرة ، ١٨٩٨ م .

- ابن حاتم (الرازي) اليمنى (ق ٦ / ١٢٢) .
- ٥٤ - العقد الغالى الثمن فى أخبار ملوك الغز باليمن ، تحقيق ج ، ركس سمث .
- ابن الحبال (المصرى) : الحافظ إبراهيم بن سعيد (أبو إسحاق) ت ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م .
- ٥٥ - « وفيات المصريين » تحقيق صلاح الدين المنجد ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد الثالث ، الجزء الثالث ، نوفمبر ١٩٥٦ م ، ص ٢٨٦ - ٣٣٨ .
- ابن حجر (العسقلانى) : أحمد بن على الكنانى المصرى ، ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٩ م .
- ٥٦ - « رفع الأصر عن قضاة مصر » ، (ج ١ - ٢) تحقيق حامد عبد المجيد وآخرون ، المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٥٧ م .
- ابن حنبل (أبو العلاء) : الوزير السلجوقى (ق ٥٥ / ١١١) .
- ٥٧ - « كتاب تفضيل الأتراك على سائر الأجناد » ، ومناقب الحضرة العالية السلطانية ، تحقيق عباس العزاوى ، مطبعة المعارف باستانبول ١٩٤٠ م .
- الحلى (شهاب الدين) : محمود بن سليمان الحنفى ، أبو التاء ، صاحب ديوان الإنشاء بدمشق ، ت ٧٢٥ هـ / ١٣٢٤ م .
- ٥٨ - « كتاب حسن التوسل إلى صناعة التوسل » ، طبع بمطبعة هندية بدرج الجينية ، يغطى التوسل بمصر ، ١٣١٥ هـ .
- الحموى (ابن حجة) : على بن عبد الله ، ت ٨٣٧ هـ / ١٤٣٤ م .
- ٥٩ - « كتاب ثمرات الأوراق » ، طبع بمطبعة المعاهد بالجمالية ، ١٣٥٢ هـ / ١٩٣٣ م ، على هامش كتاب (المستطرف من كل فن مستظرف للأبشيهى) .
- الحموى (أبو الفضائل) محمد بن على بن نظيف ت . بعد سنة ٦١٣ هـ / ١٢٣٣ م .
- ٦٠ - « التاريخ المنصورى » ، تلخيص الكشف والبيان فى حوادث الزمان ، تحقيق أبو العيدودو ، مراجعة عدنان درويش ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .
- الحفاجى (الشهاب) : أحمد بن محمد بن عمر المصرى ت ١٠٦٩ هـ / ١٦٥٩ م .
- ٦١ - « شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل » ، طبع بمصر .
- ابن خلدون (الأشبلى) : عبد الرحمن بن محمد الحضرمى ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م .
- ٦٢ - « المقدمة » ، طبع بالمطبعة الأديبة ببيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٠٠ م .
- ابن خلكان (الأربلى) : أحمد بن محمد ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م .
- ٦٣ - « وفيات الأعيان » ، تحقيق إحسان عباس ، (ج ١ - ٨) ، طبع ببيروت ١٩٦٨ م ، كما رجعنا أحياناً لطبعة بولاق القديمة فى مجلدين .
- ابن دحية (الكلبي) : عمر بن الحسن الأندلسى ، ت ٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ م .
- ٦٤ - « البراس فى تاريخ خلفاء بنى العباس » ، تحقيق عباس العزاوى ، بغداد ١٣٦٥ هـ / ١٩٤٦ م .
- ابن درباس (ضياء الدين) : عمر بن عيسى بن درباس الهذبانى المارانى المصرى ، قاضى قضاة مصر فى عهد صلاح الدين الأيوبي ت ٦٠٢ هـ / ١٢٠٦ م .

- ٦٥ - « رسالة في الذب عن العقيدة الأشعرية » ، ألّفها للسلطان صلاح الدين الأيوبي ، طبعت ضمن مجموعة الرسائل السبع في العقائد ، الهند سنة ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م .
- ابن دُقماق (صادم الدين) : إبراهيم بن محمد بن أيّدمر بن دُقماق القاهري ، مؤرخ الديار المصرية في وقته (٧٥٠هـ - ٨٠٩هـ) .
- ٦٦ - « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » ، جزآن منه ، (الرابع والخامس) ، طبعاً بيولاق ، ١٣٠٩هـ - ١٣١٤هـ .
- ابن أبي الدم (الحموي) : إبراهيم بن عبد الله بن عبد النعم ، ت : ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م .
- ٦٧ - « كتاب أدب القضاء ، أو الدرر المنظومات في الأفضية والحكومات » ، تحقيق محمد مصطفى الزحيلي ، دمشق ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م .
- الدمشقي (أبو الفضل) : جعفر بن عليّ الدمشقي (ق ٦هـ / ١٢م) .
- ٦٨ - « الإشارة إلى محاسن التجارة » ، طبع بمطبعة المزيّد بمصر ١٣١٨هـ ، وحققه ودرسه السيد محمد عاشور ، تحت عنوان : دراسة في الفكر الاقتصادي العربي ، أبو الفضل جعفر بن عليّ الدمشقي (أبو الاقتصاد) ، الطبعة الأولى ١٩٧٣م ، وطبع مرة ثالثة بالقاهرة بتحقيق الشوريّ الشوريّ ، ١٩٧٧م .
- الرازي (فخر الدين) : محمد بن عمر الطبرستاني ت ٦٠٦هـ / ١٢١٠م .
- ٦٩ - « اعتقادات فرق المسلمين والمشرّكين » ، تحقيق مصطفى عبد الرزاق ، القاهرة ١٣٥٦هـ / ١٩٣٨م .
- ٧٠ - « أساس التقديس في علم الكلام » ، أهدها للملك العادل الأول ، سيف الدين أبو بكر بن أيوب ، طبع بمصر ١٩٥٤هـ / ١٩٣٥م .
- ابن الراهب (القبطي) : بطرس بن أبي الكرم ابن المهذب ، المعروف بابن الراهب القبطي ت ٦٦٩هـ / ١٢٧٠م .
- ٧١ - « كتاب تاريخ ابن الراهب » ، حققه لويس شيخو اليسوعي ، بيروت ١٩٠٣م .
- الراوندي (أبو بكر) محمد بن سليمان ت : بعد سنة ٦٠٣هـ / ١٢٠٦م .
- ٧٢ - « راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية » ، ترجمة عن الفارسية الشواربي وحسنين والصيد ، القاهرة ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م .
- ابن أبي الربيع (شهاب الدين) : أحمد بن محمد بن أبي الربيع (ق ٣هـ / ٩م) .
- ٧٣ - « سلوك المالك في تدبير الممالك » ، ألّفه للخليفة المعتصم بالله العباسي ، طبع على نفقة عمي الدين صبري الكردى ، بمطبعة كردستان العلمية بالجمالية بمصر ، سنة ١٣٢٩هـ .
- الرومي (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي) ، المتوفى سنة ٦٢٦هـ (الزركلي : الإعلام ٩ : ١٥٧) .
- ٧٤ - « معجم البلدان » ، طبع ليزج ، ١٨٧٠م (ج ١ - ٦) .
- ٧٥ - « معجم الأدباء » ، طبعة فريد رفاعي ، ٢٠ جزءاً ، القاهرة ١٩٣٦م .

- الزركشى (أبو عبد الله) : (ق ٥٩ / ١٥ م) .
- ٧٦ - « تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية » ، طبع بالمطبعة العتيقة بتونس ١٩٦٦ م .
- الزبيدي (المرتضى) : محمد بن محمد الحسيني ت ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م .
- ٧٧ - « كتاب ترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب » ، طبع بدمشق ، بتحقيق صلاح الدين المنجد سنة ١٩٧١ م .
- الساعاتي (ابن منجب) : أحمد بن علي البغدادي ت ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م .
- ٧٨ - « الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير » ، نشر الجزء التاسع منه في بغداد سنة ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٤ م ، بتحقيق مصطفى جواد .
- ابن الساعاتي (الشاعر) : علي بن رستم ت ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م .
- ٧٩ - « ديوان ابن الساعاتي » ، تحقيق أنيس المقدسي ، المطبعة الأمريكية بدمشق سنة ١٩٣٨ م .
- سبط ابن الجوزي (أبو المظفر) : يوسف بن قزواغلي ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م .
- ٨٠ - « مرآة الزمان في تاريخ الأعيان » ، نشر الجزء الثامن منه في قسمن ، بمطبعة دائرة المعارف العثمانية بالهند ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١ م .
- السبكي (تاج الدين) عبد الوهاب بن علي ت ٧٧١ هـ / ١٣٧٠ م .
- ٨١ - « معيد النعم ومبيد النقم » ، تحقيق محمد علي النجار وآخرون ، القاهرة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م .
- ابن أبي السرور (السروجي) : علي بن عبد الله بن أبي عبد الله ت ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م .
- ٨٢ - « بلغة الظرفاء في تاريخ الخلفاء » ، طبع بمطبعة النجاح بمصر ، ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م .
- ابن سمرة (الجعدي) : عمر بن علي ت ٥٨٦ هـ / ١١٩٠ م .
- ٨٣ - « طبقات فقهاء اليمن » ، تحقيق فؤاد سيد ، القاهرة ، مطبعة السنة المحمدية سنة ١٩٥٧ م .
- ابن سناء الملك (الشاعر) : هبة الله بن جعفر ، ت ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م .
- ٨٤ - « ديوان ابن سناء الملك » ، تحقيق محمد عبد الحق ، طبع بالهند سنة ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٨ م .
- السيوطي (جلال الدين) عبد الرحمن بن أبي بكر ، ت ٩١٢ هـ / ١٥٠٦ م .
- ٨٥ - « حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة » ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، (ج ١ - ٢) طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة .
- ٨٦ - « الوسائل إلى مسامرة الأوائل » ، تحقيق أسعد طلس ، بغداد ١٩٥٠ م .
- ابن شاهنشاہ (الأيوبي) الملك المظفر تقي الدين عمر صاحب حماه . ت ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م .
- ٨٧ - « تاريخ حماه » ، طبعت منه منتخبات في ذيل كتاب النوادر السلطانية لبهاء الدين ابن شداد ، بمطبعة صبيح بالأزهر ١٣٤٦ هـ ، ص ٢٥٣ - ٣١١ ، وإن كنت أشك في صحة نسبة هذه المنتخبات لهذا التاريخ .
- ابن شاهنشاہ (الأيوبي) مؤرخ ، ابن الملك تقي الدين عمر صاحب حماه ، ت ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م .
- ٨٨ - « مضمار الحقائق وسر الخلائق » ، تحقيق حسن حبشي ، القاهرة ١٩٦٨ م .

- أبو شامة الأصفهاني : (شهاب الدين) عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة ، المتوفى سنة ٦٦٥هـ :
- ٨٩ - « الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية » ، طبع قديماً في جزين ، بمطبعة وادي النيل بالقاهرة ١٢٨٧هـ - ١٢٨٨هـ ، وطبع طبعة حديثة بتحقيق محمد حلمى محمد أحمد ، ٢/١ من الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٦م .
- ٩٠ - « ذيل الروضتين » ، طبع بعنوان : تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، تحقيق محمد زاهد الكوثري ، القاهرة ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م .
- ابن شاهين الظاهري : غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري المتوفى سنة ٨٧٢هـ :
- ٩١ - « زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك » ، تحقيق بولس راويس ، طبع باريس ١٨٩٤م .
- ابن شداد : (بهاء الدين) : يوسف بن رافع بن تميم ، ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٤م .
- ٩٢ - « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٤م .
- ابن شداد (عز الدين) : محمد بن إبراهيم الأنصارى ، ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م .
- ٩٣ - « الاعلاق الخطيرة في تاريخ أمراء الشام والجزيرة » ، (ج ١ - ٣) ، طبع بتحقيق دومينيك سورديل ، وسامى الدهان ، مطبوعات المعهد العلمى الفرنسى بدمشق ، ١٣٧٢هـ - ١٣٨٢هـ / ١٩٥٣م - ١٩٦٣م .
- ابن شكر (صفى الدين) : عبد الله بن على الشيبى الديميرى الملقب بالصاحب ، ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م .
- ٩٤ - « المقامة المولوية الصاحبية » ، نشرها ريشر ، أنظر :
- W.Z.K.M.: Rescher, Beitr Z. Maqamenlit IV, Stambul 1913, 153-199.
- الشهرستانى (أبو الفتح) : محمد بن عبد الكريم ، ت ٥٤٨هـ / ١١٥٣م .
- ٩٥ - « الملل والنحل » ، طبع بالقاهرة بالمطبعة الأدبية ١٣١٧هـ على هامش كتاب الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم الظاهري ، ت ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م .
- ٩٦ - « نهاية الأقدام فى علم الكلام » ، تحقيق الفردجيوم ، وإعادت طبعه بالأوفست مكتبة المتنى ببغداد ، د. ت .
- الشيرازى (المؤيد فى الدين) : هبة الله بن موسى ، ت ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م .
- ٩٧ - « ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة » ، تحقيق محمد كامل حسين ، دار الكاتب المصرى ، ١٩٤٩م .
- ٩٨ - « سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة » (ترجمة ذاتية) ، تحقيق محمد كامل حسين ، دار الكاتب المصرى ، ١٩٤٩م .
- الشيرزى (الشافعى) : عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله بن محمد ، (معاصر لصلاح الدين الأيوبي ، ت ٥٨٩هـ / ١١٩٣م) .
- ٩٩ - « كتاب المنهج السلوك فى سياسة الملوك » ، ألفه للسلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي ، طبع بمطبعة الظاهر بالقاهرة ١٣٢٦هـ ، على نققة أحمد زكى أبو شادى .
- ١٠٠ - « كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة » ، تحقيق السيد الباز العرينى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م .

- الصايبي (أبو الحسن) : الهلال بن المحسن الحراني ت ٤٤٨هـ / ١٠٥٦م .
- ١٠١ - « تاريخ الوزراء » ، تحقيق عبد الستار فراج ، القاهرة ١٩٥٨م .
- أبو صالح (الأرمي) : أبو المكارم جرجس بن مسعود ، ويعرف بالشيخ أبي صالح ت بعد سنة ٥٦٨هـ / ١١٧٢م .
- ١٠٢ - « كتاب الكنائس » ، نشر جزء منه ايفتس B.L.A.Evetts بأكسفورد .
- الصولي (أبو بكر) : محمد بن يحيى الشطرنجي ت ٣٣٥هـ / ٩٤٦م .
- ١٠٣ - « أدب الكاتب » ، تحقيق محمد بهجت الأثري ، مراجعة محمود شكرى الألوسى ، نشر المكتبة العربية ببغداد ، والمطبعة السلفية بمصر ، القاهرة ١٣٤١هـ .
- ابن أبى أصيبعة (موفق الدين) أحمد بن القاسم ، ت ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م .
- ١٠٤ - « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » ، طبع بيروت ، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م .
- الطرسوسى (مرضى بن مرضى) ، معاصر لصلاح الدين الأيوبي .
- ١٠٥ - « تبصرة الباب الألباب » ، فى صناعة الأسلحة والحيل الحربية، ألفه وأهداه للسلطان صلاح الدين ، حقق جزء منه كلود كاهين ، أنظر : B.E.O. Tome XII, 1947-1948 .
- الطرطوشى (أبو بكر) : محمد بن الوليد القرشى الفهرى الأندلسى ، ت ٥٢٠هـ / ١١٢٦م .
- ١٠٦ - « سراج الملوك » ، مطبعة بولاق ١٢٨٩هـ . وطبع بمصر ، بالمطبعة المحمودية بالأزهر ، ١٣٥٤هـ / ١٩٣٥م .
- ابن طلحة (النصيبي) : محمد بن طلحة القرشى ، كمال الدين الوزير الأيوبي بالشام ، ت ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م .
- ١٠٧ - « كتاب العقد الفريد للملك السعيد » ، ألفه للملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز الأيوبي ، صاحب حلب ، طبع بالقاهرة ، بتحقيق عبد الهادى موسى البولاقى ١٣١٠هـ .
- ابن الطقطقى (العلوى) : محمد بن على بن طباطبا ، ت ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م .
- ١٠٨ - « الفخرى فى الأداب السلطانية والدول الإسلامية » ، طبع فى مدينة عز يفزولد سنة ١٨٥٨م .
- ابن ظفر (الصقلى) : محمد بن عبد الله المكى ، ت ٥٦٥هـ / ١١٧٠م .
- ١٠٩ - « سلوان المطاع فى عدوان الاتباع » ، مطبعة الدولة التونسية بتونس ١٢٧٩هـ .
- العباسى (ابن العباس) : الحسن بن عبد الله بن محمد بن عمر بن .. عبد الله بن العباس رضى الله عنه ت بعد سنة ٧٠٨هـ / ١٣٠٨م .
- ١١٠ - « آثار الأول فى تراتيب الدول » ، ألفه سنة ٧٠٨هـ / ١٣٠٨م ، للسلطان المظفر ركن الدين بيبرس الثانى ، طبع بمطبعة بولاق ، بعناية محمد قاسم ، ١٢٩٥هـ .
- ابن العبرى (أبو الفرج) : غر يغوريوس بن هارون الملقب السريانى ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م .
- ١١١ - « مختصر الدول » ، طبع بيزوت سنة
- العتبي (أبو نصر) : محمد بن عبد الجبار ت ٤٢٧هـ / ١٠٣٥م .
- ١١٢ - « التاريخ اليميني فى سيرة السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوى » ، اعتمدنا على شرح لهذا الكتاب للشيخ النيني بعنوان « شرح اليميني المسمى بالفتح الوهبي على تاريخ أبى نصر العتبي » ، طبع بالمطبعة الوهبية بمصر ١٢٨٦هـ .

- ابن العديم (كمال الدين) : عمر بن أحمد العقيلي الحلبي ت ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م .
- ١١٣ - « زبدة الحلب في تاريخ حلب » ، تحقيق سامي الدهان (١ - ٣) مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي بدمشق ١٣٧٠هـ - ١٣٧٣هـ / ١٩٥١م - ١٩٥٤م .
- ابن عذارى (أبو عبد الله) : محمد المراكشي الأندلسي ، ت ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م .
- ١١٤ - « البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب » ، طبع بيروت د. ت ، عن طبعة ج . من . كولان وا . ليفي بروفتسال .
- ابن عربي (محي الدين) : محمد بن علي ، الشيخ الأكبر ، ت ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م .
- ١١٥ - « ديوان محي الدين بن عربي » ، طبع بولاق ١٢٧١هـ .
- ابن عساكر (الحافظ) : علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي ت ٥٧١هـ / ١١٧٥م .
- ١١٦ - « تبين كذب المقتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري » ، تحقيق محمد زاهد الكوثري ، مطبعة التوفيق بدمشق ١٣٤٧هـ .
- العسكري (أبو هلال) : الحسن بن عبد الله بن سهل بن يحيى بن مهران ت ٣٩٥هـ / ١٠٠٤م .
- ١١٧ - « كتاب الصناعتين » ، الكتابة والشعر ، تحقيق علي البحاي وأبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م .
- العماد (الأصبهاني) : محمد بن محمد ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م .
- ١١٨ - « الفتح القسي » ، في الفتح القدسي ، تحقيق محمد محمود صبح ، القاهرة د. ت .
- ١١٩ - « خريدة القصر وجريدة العصر » . القسم الخاص بشعراء مصر (١ - ٢) ، تحقيق أحمد أمين وشوقي ضيف ، القاهرة ١٩٥١م . القسم الخاص بشعراء الشام ، تحقيق شكري فيصل دمشق ١٩٥٥م ، ١٩٥٩م ، ١٩٦٤م . القسم الخاص بشعراء العراق (١ - ٣) تحقيق محمد بهجة الأثرى ، بغداد ١٩٥٥م ، ١٩٦٤م ، ١٩٧٣م . القسم الخاص بشعراء المغرب والأندلس (١ - ٣) تحقيق الجيلاني بن الحاج يحيى وآخرون تونس ١٩٦٦م ، ١٩٧١م ، ١٩٧٣م .
- العمري (شهاب الدين) : أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي الدمشقي ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م .
- ١٢٠ - « التعريف بالمصطلح الشريف » ، مصر ١٣١٢هـ .
- ١٢١ - « مسالك الأبحار في ممالك الأمصار » ، القاهرة ١٩٢٤م ، الجزء الأول ، تحقيق أحمد زكي باشا .
- ابن العميد (المكين) : جرجس بن العميد بن إلياس ، المعروف بالشيخ المكين ، ت ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م .
- ١٢٢ - « تاريخ المسلمين » ، بدأه من بدء الإسلام إلى عصر الملك الظاهر بيبرس ، حقق منه كلود كاهين ، جزء صغير مبتر الأول ، تفادى فيه عصر صلاح الدين ، وبدأ النص من سنة ٦٠٢هـ / ١٢٠٥م في عهد الملك العادل الأول ونشره بعنوان « أخبار الأيوبيين » ونشرها في منشورات المجمع العلمي الفرنسي بدمشق .
- ابن عنين : محمد بن نصر الله الأنصاري الدمشقي ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م . تولى الكتابة والوزارة للملك المعظم عيسى الأيوبي بدمشق .
- ١٢٣ - « ديوان ابن عنين » تحقيق خليل مردم ، مطبعة دمشق ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م .

- الغزالي (حجة الإسلام) : محمد بن محمد ، أبو حامد ت ٥٠٥ / ١١١ م .
- ١٢٤ - « رسالة العقائد والوعظ » ، ألفها للسلطان ملكشاه السلجوقي ، تحقيق بدر الدين الحلبي ، ضمن مجموعة رسائل للغزالي ، ص ٦١ - ٧٩ ، مكتبة الخانجي بمصر ، ١٣٢٥ هـ - ١٩٠٧ م .
- ١٢٥ - « التبر المسوك في نصيحة الملوك » ، ألفه أيضاً للسلطان ملكشاه السلجوقي بالفارسية طبع بالعربية بمصر سنة ١٣١٧ هـ ، مطبعة الآداب والمؤيد .
- ١٢٦ - « فضائح الباطنية » ، تحقيق جولد تسيهر ، طبع ليدن ١٩١٦ م ،
- ١٢٧ - « إحياء علوم الدين » ، طبع مراراً بمصر عند الحلبي وغيره .
- ١٢٨ - « الاقتصاد في الاعتقاد » ، طبع مصطفى الحلبي ، الطبعة الأخيرة ، د. ت .
- ١٢٩ - « المنقذ من الضلال » ، تحقيق عبد الحلیم محمود ، طبع مصر ١٣٨٥ هـ .
- ابن الفارض : عمر بن علي ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م .
- ١٣٠ - « ديوان ابن الفارض » ، طبع بالقاهرة أكثر من مرة .
- الفارقي : (ابن الأزرق : المتوفى سنة ٥٩٠ هـ) .
- ١٣١ - « تاريخ ميفارفين » ، وهو تاريخ على السنين ، سبق ابن القلانسي في ذيل تاريخ دمشق ، وقد توفي سنة ٥٥٥ هـ ، ولحقه ابن العديم في زبدة الخلب وقد توفي ٦٩٩ هـ .
- أبو الفدا : إسماعيل بن علي الأيوبي ، صاحب حماة ، ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م .
- ١٣٢ - « المختصر في أخبار البشر » ، طبع بالقسطنطينية ١٢٨٦ هـ ، أربعة أجزاء في مجلدين .
- ١٣٣ - « تقويم البلدان » ، طبع باريس ١٨٤٠ م .
- ابن الفرات (المصري) محمد بن عبد الرحيم الحنفي ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م .
- ١٣٤ - « تاريخ ابن الفرات » ، نشر قسطنطين رزيق ، بيروت ١٩٤٢ م .
- ابن أبي الفضائل (القبطي) : الفضل بن أبي الفضائل القبطي المصري ت ٧٥٩ هـ / ١٣٥٨ م .
- ١٣٥ - « النهج السديد في ذيل تاريخ ابن العميد » ، وهو يؤرخ للعصر المالكي ، من عهد الملك الظاهر بيبرس ت ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ م إلى عهد الناصر محمد بن قلاوون ت ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م . طبع مع ترجمة فرنسية بعناية Blochet ، أنظر : Pat: or T, XII, Fasc. 3, Paris, 1911-1913 .
- ابن فضالان : أحمد بن فضالان بن العباسي بن راشد بن حماد ، كان حياً سنة ٣٠٩ هـ / ٩٢١ م .
- ١٣٦ - « رسالة في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والحزر والروس والصقالبة » ، تحقيق سامي الدهان ، طبع دمشق ١٣٧٩ هـ / ١٩٥٩ م .
- ابن الفوطي (كمال الدين) .
- ١٣٧ - « الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة » ، نشر بعناية محمد رضا الشيباني ، بغداد ١٣٥١ هـ / ١٩٣٢ م .
- القاضي (الفاضل) : عبد الرحيم اليسانى ، ت ٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م .
- ١٣٨ - ديوان القاضي الفاضل ، (ج ١ - ٢) ، تحقيق أحمد أحمد بدوى ، مجموعة تراثا ، القاهرة ١٩٦١ م .

- ابن قلايس (الإسكندري) نصر الله بن عبد الله اللخمي ت ٥٦٧هـ / ١١٧٢م .
- ١٣٩ - «ديوان ابن قلايس»، تحقيق خليل مطران، مطبعة الجوائب بمصر .
- القشيري (أبو القاسم) : عبد الكريم بن هوازن النيسابوري ت ٤٦٥هـ / ١٠٧٢م .
- ١٤٠ - «الرسالة القشيرية»، طبع بمصر بيولاقي ١٢٨٤هـ، ثم طبعت مراراً .
- ابن القطان (أبو علي) ق ٥٧هـ / ١٣م .
- ١٤١ - «نظم الجمان»، تحقيق محمود علي مكي، طبع الرباط، ضمن منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، د. ت.
- القفطي (جمال الدين) : علي بن يوسف ت ٦٢٤هـ / ١٢٢٦م .
- ١٤٢ - «أنباء الرواه على أنباه النحاه» (١ - ٤) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م .
- ١٤٣ - «إخبار العلماء بأخبار الحكماء»، طبع في ليسك ١٩٠٣م، ومطبعة السعادة بمصر ١٣٢٦هـ، وقد اعتمدنا على الطبعة المصرية .
- ١٤٤ - «أخبار المحمدين من الشعراء»، تحقيق حمد الجاسر، بيروت ١٩٧٠م .
- ابن القلانسي (أبو يعلى) : حمزة بن أسد الدمشقي، ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م .
- ١٤٥ - «ذيل تاريخ دمشق»، نشر في بيروت بمطبعة الآباء اليسوعيين ١٩٠٨م .
- القلقشندي (أبو العباس) أحمد بن علي ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م .
- ١٤٦ - «مآثر الإنافة في معالم الخلافة»، تحقيق عبد الستار فراج، (١ - ٣)، الكويت ١٩٦٤م .
- ١٤٧ - «قلاند الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان»، تحقيق إبراهيم الإياري القاهرة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م .
- ١٤٨ - «صبح الأعشى»، في صناعة الإنشاء، ١٤ جزء، القاهرة ١٩١٣ / ١٣٣١هـ .
- ابن القيم (الجوزية) : محمد بن أبي بكر، شمس الدين ت ٧٥١هـ / ١٣٥٠م .
- ١٤٩ - «الطرق الحكمية في إصلاح الراعي والرعية»، تحقيق محمد حامد الفقي، القاهرة ١٣٧٢هـ / ١٩٥٣م .
- ١٥٠ - «أحكام أهل الذمة» (ج ١ - ٢). مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦١م .
- ابن كثير (عماد الدين) : إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٣م .
- ١٥١ - «البداية والنهاية»، وهو تاريخ حولي ضخيم، طبع بمطبعة السعادة بالقاهرة في ١٤ مجلد .
- المالكي (البرمكي) : محمد بن هبة الله البرمكي، الحموي الشافعي، تاج الدين، كان حياً سنة ٥٧٧هـ .
- ١٥٢ - «حدائق الفصول وجواهر الأصول»، وهي أرجوزة نظمها للسلطان صلاح الدين الأيوبي، وضمنها علم الكلام على أصول الإمام أبي الحسن الأشعري، طبع القاهرة سنة ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م .
- الماوردي (أبو الحسن) : علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي ت ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م .
- ١٥٣ - «الأحكام السلطانية»، تصحيح محمد عبد القادر، مطبعة الوطن بمصر ١٢٩٨هـ .

- ١٥٤ - «أب الوزارة» ، أو قوانين الوزارة ، نشر مكتبة الخانجي بمصر سنة ١٩٥٥ م .
- ١٥٥ - «أدب الدنيا والدين» ، تحقيق مصطفى السقا ، القاهرة ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥ م .
- ابن المجاور (النيسابوري) : بن محمد بن مسعود بن علي ، كان حيا سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٢ م .
- ١٥٦ - «صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز» ، المعروف بـ «تاريخ المستبصر» ، تحقيق أوسكر لوفجرين ، لندن ١٩٥١ م .
- مجهول : (ق ٥ - ٦ هـ / ١١ - ١٢ م) .
- ١٥٧ - «أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس» ، ترجمة حسن حبشي ، القاهرة ١٩٥٨ م .
- مجهول : (ق ٦ - ٧ هـ / ١٢ - ١٣ م) .
- ١٥٨ - «البتان الجامع» ، نشر كلود كاهين جزء منه ، في حوليات المعهد العلمي الفرنسي بدمشق ، B.E.O. ، عدد ٧ - ٨ سنة ١٩٣٧ ص ١١٣ - ١٥٨ .
- مجهول : (كاتب مراكشي من كتاب ق ٦ هـ / ١٢ م) .
- ١٥٩ - «كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار» ، وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب ، وقد نص صاحب هذه الرحلة في رحلته أنه عاصر السلطان صلاح الدين الأيوبي والخليفة ابن عبد المؤمن الموحدى المغربى ، تحقيق سعد زغلوب عبد الحميد ، الإسكندرية ١٩٥٨ م .
- مجهول :
- ١٦٠ - «إنشاءات القاضى الفاضل» ، تحقيق فتحية النبراوى ، القاهرة ١٩٨٠ م .
- مجهول :
- ١٦١ - «بين أبى العلاء المعرى ، وداعى الدعاة الفاطمى» ، خمس رسائل نشرتها المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٤٩هـ .
- مجهول :
- ١٦٢ - «السيجلات المستصربة» ، تحقيق عبد المنعم ماجد ، القاهرة ١٩٥٤ م .
- محى الدين (ابن عبد الظاهر) : على بن محمد بن عبد الله بن عبد الظاهر المصرى ت ٧١٧هـ / ١٣١٧ م .
- ١٦٣ - «الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم» ، تحقيق أحمد أحمد بدوى ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة ، ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩ م .
- المراكشى (محيى الدين) : عبد الواحد بن على التميمى ، المالكى ت ٦٤٧هـ / ١٢٤٩ م .
- ١٦٤ - «المعجب فى تلخيص أخبار المغرب» ، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣ م .
- المرتضى (الزبيدى) : محمد بن محمد الحسينى ، ت ١٢٠٥هـ / ١٧٩١ م .
- ١٦٥ - «ترويح القلوب فى ذكر ملوك بنى أيوب» ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٧١ م .
- ابن مطروح (جمال الدين) : يحيى بن عيسى ت ٦٢٩هـ / ١٢٣١ م .
- ١٦٦ - ديوان ابن مطروح ، طبع بالقسطنطينية ، بعد ديوان العباس بن الأحنف ، ١٢٩٨هـ .
- المغربى (الوزير) : الحسين بن على ، أبو القاسم ت ٤١٨هـ / ١٠٢٧ م .

- ١٦٧ - « كتاب فى السياسة » ، تحقيق سامى الدهان ، دمشق ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م .
- المغربى (ابن حيون) : النعمان بن أبى عبد الله ، التميمى ، أبو حنيفة ، القاضى ، قاضى وداعى الفاطميين ، ت ٣٦٣هـ / ٩٧٤م .
- ١٦٨ - « دعائم الإسلام » ، تحقيق آصف لطفى ، القاهرة ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م .
- المقرئزى (تقى الدين) : أحمد بن على ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م .
- ١٦٩ - « السلوك لمعرفة دول الملوك » ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، طبع دار الكتب ١٩٣٤م ؛ وصدرت بقية أجزائه تحت إشراف سعيد عبد الفتاح عاشور ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة .
- ١٧٠ - « اتعاط الخنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفاء » ، تحقيق جمال الدين الشىال ، القاهرة ١٩٤٨م ؛ ثم حققه محمد حلمى محمد أحمد ، (ج ١ - ٣) ، بالقاهرة ، ١٩٩٣هـ - ١٩٧٣م .
- ١٧١ - « كتاب الخطط المقرئزى (١ - ٤) » ، طبع مطبعة النيل بمصر ١٣٢٤هـ ، ورجعنا أحياناً لطبعة بولاق فى مجلدين .
- ١٧٢ - « إغائة الأمة بكشف الغمة » ، نشر زيادة والشىال ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٧م .
- ١٧٣ - « شذور العقود فى ذكر النقود » ، نشر اوربا ١٧٩٧م .
- ١٧٤ - « خلاصة الذهب المسبوك فىمن حج من الخلفاء والملوك » ، تحقيق جمال الدين الشىال ، مكتبة المقرئزى الصغرة ، القاهرة ١٩٦٠م .
- ١٧٥ - « البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب » ، نشرة وستفلد ، جوتنجن ، ١٨٤٧ ونشر بالقاهرة بتحقيق عبد المجيد عابدين .
- المالكى (البرمكى) : محمد بن هبة الله البرمكى ، الحموى الشافعى ، تاج الدين ، كان حياً ٥٧٧هـ / ١١٨١م .
- ١٧٦ - « حدائق الفصول وجواهر الأصول » ، وهى أرجوزة نظمها للسلطان صلاح الدين الأيوبى ، وضمنها علم الكلام على أصول الإمام أبى الحسن الأشعري ، طبع القاهرة ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م .
- ابن ممتى (الأُسعد) : أسعد بن المهذب بن مينا بن زكريا ، أبو المكارم ت ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م .
- ١٧٧ - « قوانين الدواوين » ، تحقيق عزيز سورىال عطية ، طبع الجمعية الزراعية المصرية ، مصر ، ١٩٤٣م .
- ١٧٨ - « الفاشوشى فى حكم قراقوش » ، تحقيق ودراسة عبد اللطيف حمزة ، القاهرة ١٩٤٥ ، بعنوان « حكم قراقوش » . والطبعة الثانية ١٩٥٥م .
- ابن منجب (الصيرفى) : على بن منجب بن سليمان ، الشهرير بابن الصيرفى ت ٥٤٢هـ / ١١٤٧م .
- ١٧٩ - « قانون ديوان الرسائل » ، تحقيق على بهجت ، مطبعة المواعظ بمصر ١٩٠٥م .
- ١٨٠ - « الإشارة إلى من نال الوزارة » ، تحقيق عبد الله مخلص ، مطبعة المعهد العلمى الفرنسى ، القاهرة ١٩٢٣م .
- المنذرى (الحافظ) : عبد العظيم بن عبد القوى ، أبو محمد ، زكى الدين ، ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م .
- ١٨١ - « كتاب التكملة لوفيات النقلة (١ - ٥) » ، تحقيق بشار معروف ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .

- ابن منقذ (الشيزرى) : أسامة بن مرشد بن منقذ الكنانى الكلبى ، ت ٥٨٤هـ / ١١٨٨ م .
- ١٨٢ - « ديوان أسامة بن منقذ » ، تحقيق أحمد أحمد بدوى ، القاهرة ١٩٥٣ م .
- ١٨٣ - « كتاب الاعتبار » ، أو سيرة أسامة ، تحقيق فيليب حتى .
- النابلسى (علاء الدين) : عثمان بن إبراهيم بن خالد القرشى النابلسى المصرى الشافعى ت ٦٦٠هـ / ١٢٦١ م .
- ١٨٤ - « كتاب لمع القوانين المضية فى دواوين الديار المصرية » ، نشرة كلود كاهين فى حوليات المعهد الفرنسى للدراسات الشرقية بدمشق ، المجلد ١٦ ، سنة ١٩٥٨ - ١٩٦٠ ، ص ١٢٢ .
- ١٨٥ - « كتاب إظهار صنعة الحى القيوم فى ترتيب بلاد القيوم » ، تحقيق موريتز B. Moritz ، طبع المكتبة الخديوية بمصر ١٨٩٩ م .
- ناصر خسرو علوى (الرحالة الفارسى الشهير) ق ٥٥هـ / ١١١٠ م .
- ١٨٦ - « سفر نامه » ، ترجمة يحيى الحشاش ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٦٤هـ / ١٩٤٥ م ، وطبعة بيروت ١٩٧٠ م .
- ابن النيه (كمال الدين) : على بن محمد بن الحسن المصرى ت ٦١٩هـ / ١٢٢٢ م .
- ١٨٧ - « ديوان ابن النيه » ، شرح وتعليق عبد الله باشا فكرى ، طبع مصر ١٢٨٠هـ .
- ابن النديم (الوراق) : محمد بن إسحاق بن محمد بن إسحاق البغدادى ت ٤٣٨هـ / ١٠٤٧ م .
- ١٨٨ - « كتاب الفهرست » ، طبع المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٨هـ .
- النسوى (المنشىء) : محمد بن أحمد أو ابن عبد الواحد بن محمد ت ٦٤٧هـ / ١٢٤٩ م .
- ١٨٩ - « سيرة جلال الدين منكبرتى » ، تحقيق أحمد حافظ حمدى ، القاهرة ١٩٥٣ م .
- نظام الملك (الطوسى) : الحسن بن على بن إسحاق ، الوزير السلجوقى ، ت ٤٨٥هـ / ١٠٩٢ م .
- ١٩٠ - « كتاب سياسة نامه » ، ترجمة السيد محمد العزراى ، القاهرة ١٩٧٥ م .
- النعمى : عبد القادر بن محمد بن عمر بن نعيم الدمشقى ، ت ٩٢٧هـ .
- ١٩١ - « المدارس فى تاريخ المدارس » . (ج ١ - ٣) طبع دمشق ١٩٥٦ م .
- النويرى (شهاب الدين) : أحمد بن عبد الوهاب البكرى الشافعى ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٣ م .
- ١٩٢ - « نهاية الأرب فى فنون الأدب » (ج ١ - ١٩) ، طبع دار الكتب المصرية ١٣٥٠هـ / ١٩٣١ م .
- ابن واصل (الحموى) : محمد بن سالم بن نصر الله المازنى التميمى ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٨ م .
- ١٩٣ - « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » ، ج ١ - ٣ ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٣ م ؛ ج ٤ - ٥ ، تحقيق حسنين ربيع ، القاهرة ١٩٧٢ م .
- ابن وهب (الكاتب) ، إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الشيعى ، ت بعد سنة ٣٣٥هـ / ٩٤٦ م .
- ١٩٤ - « البرهان فى وجوه البيان » ، تحقيق مطلوب والحديشى ، بغداد ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧ م .
- الوهرانى (ركن الدين) : محمد بن محمد بن محرز ت ٥٧٥هـ / ١١٧٩ م .
- ١٩٥ - « منامات الوهرانى ، ومقاماته ورسائله » ، تحقيق إبراهيم شعلان ، محمد نفش ، القاهرة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨ م .

- ابن يحيى (البيروني) : صالح بن يحيى بن الحسين ت ق ٥٩ / ١٥٠ م .
- ١٩٦ - « تاريخ بيروت ، وأخبار الأمراء الباحثين » ، نشره لويس شيخو اليسوعي ، بيروت ، ١٩٢٧ م .
- ابن أبي يعلى (الخنيلي) : محمد بن محمد بن الحسين ، ت ٥٢٦ هـ / ١١٣١ م .
- ١٩٧ - « الأحكام السلطانية » ، تحقيق حامد الفقى ، الطبعة الثانية ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .
- اليماني (ابن أبي القبائل) : محمد بن مالك الحمادى ، ق ١١٠ هـ / ١١٠ م .
- ١٩٨ - « كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة » ، تحقيق محمد زاهد الكوثرى ، طبع بديل كتاب « التبصر » للأسفرانى ، القاهرة ١٣٧٥ هـ ١٩٥٥ م ، وقد ورد اسم المؤلف فى النسخة المطبوعة ، ابن أبي الفضائل ، وهو تصحيف .
- اليمنى (عمارة) : نجم الدين ، أبو محمد عمارة بن أبي الحسن الحكيمى ت ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م .
- ١٩٩ - « النكت العصرية فى أخبار الوزارة المصرية » ، تحقيق درنبرغ بمدينة شالون ، ١٨٩٧ م .
- ٢٠٠ - « ديوان عمارة اليمنى » ، تحقيق درنبرغ ، ١٩٠٢ م .
- ٢٠١ - « ديوان اليمنى » ، تحقيق كاي ، لندن ١٣٠٩ ، تحقيق حسن سليمان محمود بالقاهرة ١٩٥٧ م .
- اليونينى (العلبكى) : موسى بن محمد بن أحمد الخنيلي ت ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م .
- ٢٠٢ - ذيل مرآة الزمان ، طبع بمطبعة دائرة المعارف العثمانية بالهند ، ١٣٤٧ هـ / ١٩٥٤ م ، فى أربعة أجزاء .

ثالثاً : المراجع العربية الحديثة :

- أرنولد (توماس) :
- ١ - « الدعوة إلى الإسلام » ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٧١ م .
- أمين (محمد محمد) :
- ٢ - « الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م » ، دار النهضة العربية بالقاهرة ، ١٩٨٠ م .
- ٣ - « السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب » ، رسالة ماجستير ، نوقشت بجامعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م .
- الباشا (حسن) :
- ٤ - « الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار » ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٧ م .
- ٥ - « الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية » (١ - ٣) ، القاهرة ١٩٦٥ م .
- ٦ - « فن التصوير فى مصر الإسلامية » ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٦ م .
- يدوى (أحمد أحمد) :
- ٧ - « الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام » ، القاهرة ١٩٥٢ م .
- ٨ - « الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام » ، القاهرة ١٩٥٢ م .
- ٩ - « مأمون بنى أيوب (المعظم عيسى) » ، القاهرة ١٩٥٣ م .
- ١٠ - « القاضى الفاضل » دراسة ونماذج ، القاهرة ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٩ م .

- ١١ - « صلاح الدين بين شعراء عصره وكتابه » ، القاهرة ١٩٦٠ م .
 - بيلي (أحمد) :
 ١٢ - « حياة صلاح الدين الأيوبي » ، القاهرة ١٩٢٦ (الطبعة الثانية) .
 - بيومي (علي أحمد) :
 ١٣ - « قيام الدولة الأيوبية » ، رسالة ماجستير ، نوقشت بجامعة القاهرة سنة ١٩٤٦ م ، ونشرت بالقاهرة ، ١٩٥٢ م .
 - تيمور (أحمد تيمور باشا) :
 ١٤ - « التذكرة التيمورية » ، معجم القوائد ، ونوادير المسائل ، لجنة نشر المؤلفات التيمورية ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٣ م .
 - تامر (عارف) :
 ١٥ - « ستان وصلاح الدين » ، قصة تاريخية ، بيروت ١٩٥٦ م .
 - جروهمان (أدولف) :
 ١٦ - « أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية » ، (١ - ٦) ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين ، القاهرة ١٩٣٤ م . وما بعدها .
 - رجب (السيرها ملتون أ. جب) :
 ١٧ - « صلاح الدين الأيوبي » ، دراسات في التاريخ الإسلامي ، حررها يوسف إيش ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٣ م .
 أبو حديد (محمد فريد) :
 ١٧ مكرر - « صلاح الدين الأيوبي البطل الذي انتصر على الغرب » ، كتاب الهلال ، العدد ٨٧ ، ذو القعدة ١٣٧٧هـ / يولييه ١٩٥٨ م .
 - الحلبي (داود) :
 ١٨ - « كتاب مخطوطات الموصل » ، مطبعة الفرات ببغداد ، ١٣٤٦هـ / ١٩٢٧ م .
 - حسن (علي إبراهيم) :
 ١٩ - « مصر في عصر دولة المماليك البحرية » ، القاهرة ١٩٦٧ م .
 - حسني (فوزي نجيب) :
 ٢٠ - « صلاح الدين وتوحيد الجبهة الإسلامية زمن الصليبيين » ، رسالة ماجستير نوقشت بجامعة القاهرة ١٩٥٩ م .
 - حسين (محمد كامل) :
 ٢١ - « دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين » ، القاهرة ١٩٥٧ م .
 ٢٢ - « في أدب مصر الفاطمية » ، القاهرة ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠ م .
 ٢٣ - « أدب مصر الإسلامية » (عصر الولاة) ، د. ت .
 - حسين (محمد أحمد) :
 ٢٤ - « الوثائق التاريخية » ، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٤ م .
 - حلمي (عباس اسماعيل) :
 ٢٥ - « السياسة الداخلية للسلطان الملك العادل الأيوبي » ، رسالة ماجستير نوقشت بجامعة القاهرة ١٩٤٣ م .

- ٢٦ - « السياسة الداخلية للدولة الأيوبية في مصر » ، بعد السلطان العادل ، رسالة دكتوراه نوقشت بجامعة القاهرة ١٩٥٥ م .
- حمزة (عبد اللطيف) :
- ٢٧ - « صلاح الدين » ، القاهرة ١٩٤٤ م ؛ ثم طبع بالقاهرة ، دار الفكر العربي ١٩٧٣ م .
- ٢٨ - « حكم قراقوش » ، القاهرة ١٩٤٥ م .
- ٢٩ - « أدب الحروب الصليبية » ، القاهرة ١٩٤٩ م .
- ٣٠ - « الحياة الفكرية في مصر ، في العصرين الأيوبي والملوكي الأول » ، القاهرة ١٩٤٧ م .
- ٣١ - « القلقشندى في كتابة صبح الأعشى » ، القاهرة ، ١٩٦٢ م .
- حميد الله (محمد الحيدر آبادى) :
- ٣٢ - « مجموعة الوثائق السياسية » ، للمعهد النبوى والخلافة الراشدة ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٦ م .
- حسن (حسن إبراهيم) :
- ٣٣ - « النظم الإسلامية » ، الطبعة الأولى ، ١٣٥٨ هـ / ١٩٣٩ م .
- دراج (أحمد) :
- ٣٤ - « المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجرى / ١٥ م » ، دار الفكر العربي ١٩٦١ م .
- ٣٥ - « وثائق دير صهيون بالقدس الشريف » ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٨ م .
- دسوقي (عمر) :
- ٣٦ - « الفتوة عند العرب » ، القاهرة ، د. ت .
- دقش (محمد محمود على) :
- ٣٧ - « الكتابة الديوانية بمصر في عصر الدولة الأيوبية » ، رسالة دكتوراه نوقشت بجامعة القاهرة ١٩٧٣ م .
- ربيع (محمد حسن) :
- ٣٨ - « النظم المالية في العصر الأيوبي » ، رسالة ماجستير نوقشت بجامعة القاهرة ، ونشرت بالقاهرة ١٩٦٤ م .
- الرمزي (م) :
- ٣٩ - « تلفيق الأخيار وتلقيح الآثار ، في وقائع قران وبلغار وملوك التار » ، طبع سنة ١٩٠٨ م .
- الرئيس (محمد ضياء الدين) :
- ٤٠ - « النظريات السياسية الإسلامية » ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الثانية ١٩٥٧ م .
- ٤١ - « الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية » ، الطبعة الثانية ، ١٩٦١ م .
- زامبور (المستشرق) :
- ٤٢ - معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامى ، القاهرة ١٩٥٢ م .

- زياده (محمد مصطفى) :

٤٣ - « حملة لويس التاسع على مصر، وهزيمته في المنصورة » ، القاهرة ١٣٨١هـ / ١٩٦١م .

٤٤ - « المؤرخون في مصر ، في القرن الخامس عشر الميلادى ، التاسع الهجرى » ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٤م .

- زيان (حامد غانم) :

٤٥ - « العلماء بين الحرب والسياسة في العصر الأيوبي (أسرة شيخ الشيوخ) » القاهرة ١٩٧٨م .

- سالم (سيد عبد العزيز) :

٤٦ - « تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامى » ، الطبعة الأولى ، الثانية ١٩٦٩م .

٤٧ - « تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام » ، بيروت ١٩٧١ (بالاشتراك) .

- سعد (سامى سلطان) :

٤٨ - « أسس العلاقات الاقتصادية بين الشرق الأدنى والجمهوريات الإيطالية » ، من سنة ١١٠٠ إلى ١٤٠٠م ، رسالة ماجستير نوقشت بجامعة القاهرة ١٩٥٨م .

- سعداوى (نظير حسان) :

٤٩ - « نظام البريد في الدولة الإسلامية » ، القاهرة ١٣٧٢هـ / ١٩٥٣م .

٥٠ - « التاريخ الحربى المصرى فى أيام صلاح الدين » ، رسالة دكتوراه نوقشت بجامعة القاهرة ١٩٥١م ، ونشرت ١٩٧٥م .

٥١ - « جيش مصر فى أيام صلاح الدين » ، القاهرة ١٩٥٦م .

- سلام (سعد زغلول) :

٥٢ - « الأدب فى عصر صلاح الدين » ، القاهرة ١٩٥٩م .

٥٣ - « الأدب فى العصر الأيوبي » ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ١٩٩٠م ، ص ٥٩٦ .

- سليمان (أحمد السعيد) :

٥٤ - « تاريخ الدول الإسلامية ، ومعجم الأسرات الحاكمة » ، دار المعارف بمصر ١٩٧٢م .

- سيد (أحمد فؤاد) :

٥٥ - « نظم الحكم والإدارة فى العصر الأيوبي بمصر (٥٦٧هـ - ٦٤٨هـ) » ، رسالة ماجستير ، نوقشت بكلية الآداب جامعة عين شمس ، سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

- سيد الأهل (عبد العزيز) :

٥٦ - « صلاح الدين الأيوبي » ، طبع القاهرة ١٩٦٠م ، مطبوعات المجلس الإسلامى الأعلى بالقاهرة ، لجنة التعريف بالإسلام ، طبع بالمكتب التجارى ببيروت ١٩٦١م ، ص ٢٥٩ .

- شافعى (على بك) :

٥٧ - « رى الفيوم كما وصفه التابلسى (٦٤٢هـ / ١٢٤٥م) » ، ومعه مذكرة عن رى الفيوم الحالى ، وعن بحيرة مورس ، مطبعة مصر ١٩٤٠م .

- شافعى (فريد) :
- ٥٨ - « العمارة العربية في مصر الإسلامية » ، عصر الولاة ، القاهرة ١٩٧٠ م .
- شلتوت (محمود) :
- ٥٩ - « من توجهات الإسلام » ، القاهرة ١٣٧٩ هـ / ١٩٥٩ م .
- الشيال (محمد جمال الدين) :
- ٦٠ - « جمال الدين بن واصل » ، وكتابه مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، رسالة دكتوراه لم تطبع ،
نوقشت بجامعة الإسكندرية .
- ٦١ - « مصر والشام بين دولتين » ، القاهرة ، ١٩٤٥ م .
- ٦٢ - « مجمل تاريخ دمياط » ، الإسكندرية ، ١٩٤٩ م .
- ٦٣ - « الإسكندرية » ، طبوغرافية المدينة وتطورها ، القاهرة ١٩٥٢ م .
- ٦٤ - « مجموعة الوثائق الفاطمية » ، القاهرة ١٩٥٨ م .
- ٦٥ - « أعلام مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى » ، القاهرة ١٩٦٥ م .
- ٦٦ - « دراسات فى التاريخ الإسلامى » ، بيروت ١٩٦٦ م .
- ٦٧ - « تاريخ مصر الإسلامية » ، القاهرة ١٩٦٧ م .
- صبرة (عفاف سيد) :
- ٦٨ - « ديوان الإنشاء وتطوره فى عصر الأيوبيين والمماليك » ، مع تحقيق مخطوط البرد الموشى فى صناعة
الإنشاء للموصلى ، رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة ١٩٧١ م .
- صفوت (أحمد زكى) :
- ٦٩ - « جمة رسائل العرب » ، طبع الحلبي ، القاهرة ١٩٣٧ م .
- طرخان (إبراهيم على) :
- ٧٠ - « النظم الإقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى » ، دار الكاتب العربى ، ١٣٨٨ هـ /
١٩٦٨ م .
- ٧١ - « مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة » ، القاهرة ، ١٩٦٠ م .
- عاشور (سعيد عبد الفتاح) :
- ٧٢ - « المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك » ، القاهرة ١٩٦٢ م .
- ٧٣ - « الحركة الصليبية (١ - ٢) » ، القاهرة ١٩٦٣ م ؛ ثم طبع مرة أخرى ١٩٨٦ م .
- ٧٤ - « مصر فى عصر دولة المماليك البحرية » ، القاهرة ١٩٥٩ م .
- ٧٥ - « الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام » ، القاهرة ، ١٩٧٠ م .
- ٧٦ - « العصر المماليكى فى مصر والشام » ، ١٩٧٦ م .
- العبادى (أحمد مختار) :
- ٧٧ - « قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام » ، بيروت ١٩٦٩ م .

- ٧٨ - « تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام » ، بيروت ١٩٧١ (بالاشتراك) .
 - عبد العاطى (عبد الفنى محمود) :
- ٧٩ - « التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك » ، رسالة ماجستير نوقشت بجامعة القاهرة ١٩٧٥ م .
 - عبد الكريم (دولت عبد الله) :
- ٨٠ - « الخواص فى مصر فى العصرين الأيوبي والمماليكى » ، رسالة دكتوراه ، نوقشت بكلية الآثار ،
 ١٩٧٣ م .
 - عبد الوهاب (حسن) :
- ٨١ - « تاريخ المساجد الأثرية » ، جزءان ، القاهرة ١٩٤٦ م .
 ٨٢ - « جامع السلطان حسن وما حوله » ، المكتبة الثقافية رقم ٥٦ ، سنة ١٩٦٢ م .
 - العرينى (السيد الباز) :
- ٨٣ - « مصر فى عصر الأيوبيين » ، القاهرة ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠ م .
 ٨٤ - « مؤرخو الحروب الصليبية » ، القاهرة ١٩٦٣ م .
 - العزاوى (عباس) :
- ٨٥ - « التعريف بالمؤرخين ، فى عهد المفسول والترجمان » ٦٠١هـ - ١٢٠٤م / ٩٤١هـ - ١٥٣٤م ،
 طبع ببغداد ، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧ م .
 - عطا (زيدة محمد) :
- ٨٦ - « الشرق الإسلامى والدولة البيزنطية زمن الأيوبيين » ، رسالة ماجستير ، نوقشت بجامعة القاهرة
 ١٩٦٩ م .
 - عطية (سليمان إسحاق) :
- ٨٧ - « تاريخ التعليم فى فلسطين من الفتح العربى إلى آخر الأيوبيين » ، رسالة ماجستير ، نوقشت بجامعة
 القاهرة ، ١٩٥٣ م .
 - العقاد (عباس محمود) :
- ٨٨ - « الديمقراطية فى الإسلام » ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٠ م .
 ٨٩ - « أثر الحضارة العربية فى الحضارة الأوربية » ، دار المعارف القاهرة ١٩٦٢ م .
 - علوبه (محمد على باشا) :
- ٩٠ - « الإسلام والديمقراطية » ، نشر لجنة البيان العربى ، القاهرة ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠ م .
 - على (محمد كرد على) :
- ٩١ - « أمراء البيان » ، طبع سنة ١٩٣٧ م .
 ٩٢ - « الإدارة الإسلامية فى عز الغرب » ، طبع
 - عمران (محمود سعيد) :

- ٩٣ - « الحملة الصليبية الخامسة » ، حملة جان دي برين على مصر ، ٦١٥ - ٦١٨ هـ / ١٢١٨ -
 ١٢٢١ م ، الهيئة العامة للكتاب ، فرع الإسكندرية ١٩٧٨ م .
- عنان (محمد عبد الله) :
 ٩٤ - « مصر الإسلامية » ، القاهرة ١٩٣١ م .
- ٩٥ - « مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصرى » ، القاهرة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩ م .
- عنبر (أحمد محمد) :
 ٩٦ - « جولة مع ضياء الدين بن الأثير ، فى كتابه المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر » ، القاهرة
 ١٩٥٤ م .
- غنيمة (محمد عبد الرحيم) :
 ٩٧ - « مقدمة لتاريخ التعليم الجامعى فى الإسلام » ، رسالة ماجستير ، نوقشت بجامعة القاهرة ١٩٥٣ م .
- فكرى (أحمد) :
 ٩٨ - « مساجد القاهرة ومدارسها » ، الجزء الثانى ، العصر الأيوبى ، دار المعارف بمصر ١٣٨٨ هـ /
 ١٩٦٩ م .
- فهمى (عبد الرحمن) :
 ٩٩ - « النقود العربية ماضيها وحاضرها » ، المكتبة الثقافية ١٠٣ ، القاهرة فبراير ١٩٦٤ م .
- القوصى (عطية أحمد محمود) :
 ١٠٠ - « بنو الكنز » ، دراسة تاريخية ، رسالة ماجستير ، نوقشت بجامعة القاهرة ١٩٧٠ م .
- كانار (ماريوس) :
 ١٠١ - « نخب تاريخية وأدبية ، جامعة لأخبار الأمير سيف الدولة الحمدانى » ، طبع الجزائر ، ١٩٣٤ م .
- كازانوف (بول) :
 ١٠٢ - « تاريخ ووصف قلعة الجبل » ، ترجمة أحمد دراج ، القاهرة ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م .
- الكتانى (عبد الحى الفاسى) :
 ١٠٣ - « كتاب الترتيب الإدارية ، والعمالات والصناعات والتاجر والحالة العلمية ، التى كانت على عهد
 تأسيس المدينة الإسلامية فى المدينة العلية » ، (١ - ٣) طبع الرباط ١٣٤٦ هـ .
- الكرملى (إنستاس مارى) :
 ١٠٤ - « النقود العربية وعلم النميات » ، القاهرة ١٩٣٩ م .
- كرويزويل (ك . م) :
 ١٠٥ - « وصف قلعة الجبل » ، ترجمة جمال محرز ، القاهرة ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م .
- كوبرلى (محمد فؤاد) :
 ١٠٦ - « قيام الدولة العثمانية » ، دار الكاتب العربى ، ١٩٦٧ م .
- كيلانى (محمد سيد) :

- ١٠٧ - « الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام » ، القاهرة ١٩٤٩ م .
- لسترنج (المستشرق) :
- ١٠٨ - « بلدان الخلافة الشرقية » ، طبع بغداد ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م .
- ماجد (عبد المنعم) :
- ١٠٩ - « نظم الفاطميين ورسومهم في مصر (١ - ٢) » ، الأنجلو المصرية ١٩٥٣ م .
- ١١٠ - « نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر » (١ - ٢) ، الأنجلو المصرية ١٩٦٤ م .
- ١١١ - « ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر » ، دار المعارف بالأسكندرية ١٩٦٨ م .
- ١١٢ - « الناصر صلاح الدين الأيوبي » ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٧ م .
- متر (آدم) :
- ١١٣ - « الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري » ، ترجمة أبو ريذة ، القاهرة ١٣٦٦ هـ / ١٩٤٧ م .
- متولى (عبد الحميد) :
- ١١٤ - « مبادئ نظام الحكم في الإسلام مع مقارنته بالمبادئ الدستورية الحديثة » ، دار المعارف بالأسكندرية ١٩٦٥ م .
- ١١٥ - « أزمة الفكر السياسى الإسلامى فى العصر الحديث » ، المكتب المصرى الحديث ، ١٩٧٠ م .
- محرز (جمال محمد) :
- ١١٦ - « التصوير الإسلامى ومدارسه » ، المكتبة الثقافية ، مايو ١٩٦٢ م .
- محمود (رزق محمود) :
- ١١٧ - « العلاقات بين أرناط أمير الكرك وصلاح الدين الأيوبي » ، رسالة ماجستير ، نوقشت بجامعة عين شمس ، ١٩٧٣ م .
- مرزوق (محمد عبد العزيز) :
- ١١٨ - « الفن الإسلامى فى العصر الأيوبي » ، المكتبة الثقافية ، رقم ٣٠ ، مارس ١٩٦٣ م .
- المصرى (جابر سلامة) :
- ١١٩ - « الزراعة فى مصر فى عهد الأيوبيين والمماليك » ، رسالة ماجستير نوقشت بجامعة القاهرة ، ١٩٧٥ م .
- موسى (إقبال بن علاوة) :
- ١٢٠ - « الحسبة فى المغرب مع بعض نصوص خاصة بها » ، رسالة ماجستير ، نوقشت بجامعة عين شمس ، ١٩٦٨ م .
- نصار (حسين) :
- ١٢١ - « نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى » ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٦ م .
- وافي (على عبد الواحد) :
- ١٢٢ - « حقوق الإنسان فى الإسلام » ، دار نهضة مصر ، الطبعة الخامسة ، القاهرة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٩ م .

رابعاً : مقالات بالمجلات والدوريات العربية :

- إبراهيم (عبد اللطيف) :
١ - « الوثائق في خدمة الآثار » ، العصر المالكي ، سلسلة الدراسات الوثائقية ، (١) ، جامعة الدول العربية ، الإدارة الثقافية ، طبع القاهرة ١٩٥٨ م ، ص ٢٠٥ - ١٧٨ .
- الأثرى (محمد بهجة) :
٢ - « كاتب الدولتين النورية والصلاحية » ، (العماد الأصفهاني) ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد الرابع ، الجزء الأول ، ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م ، ص ١٦ - ٣٤ .
- أمين (أحمد) :
٣ - « الفتوة في الإسلام » ، مجلة كلية الآداب ، المجلد السادس ، الجزء الأول ، مايو ١٩٤٢ م ، الطبعة الثانية ١٩٥٣ ، ص ١ - ٢١ .
- باقى (واصف) :
٤ - « القدس وصلاح الدين » ، مقال بمجلة منار الإسلام ، العدد ٧ ، رجب ١٤١٣ هـ ، يناير ١٩٩٣ م ، ص ١٠٦ - ١١٠ .
- البحيرى (صلاح) :
٥ - « ديوان الجيش فى الدولة الأيوبية » ، الموسم الثقافى للجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ١٩٧٦ - ١٩٧٧ ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص ١٦٩ - ١٩٠ .
- البرصان (أحمد) :
٦ - « البعد الاستراتيجى عند صلاح الدين الأيوبى » ، مقال بمجلة الفيصل ، العدد ٩٩ ، رمضان ١٤٠٥ هـ / يونيو ١٩٨٥ م ، ص ١٣٩ - ١٤١ .
- بركات (وفتيق) :
٧ - « صفحات مشرقة من تراثنا البحرى : الأسطول البحرى فى الفكر المسكرى للناصر صلاح الدين الأيوبى » ، مقال بمجلة التراث العربى ، العدد ٣٥ - ٣٦ ، رمضان - ذو الحجة ١٤٠٩ هـ / إبريل يوليو ١٩٨٩ م ، ص ١١٧ - ١٣٨ م .
- برهان (العابد) :
٨ - « أرناط الفارس اللص » ، مقال بمجلة تاريخ العرب والعالم ، العدد ١١٩ - ١٢٠ ، محرم - صفر ١٤٠٩ هـ / سبتمبر أكتوبر ١٩٨٨ م ، ص ١٢ - ٢٣ .
- البوزيدى (علال) :
٩ - « صلاح الدين الأيوبى المثل الأعلى فى البطولة والخلق العظيم » ، مقال بمجلة المجلة العربية ، العدد ٩٥ ، ذو الحجة ١٤٠٥ هـ / سبتمبر ١٩٨٥ م ، ص ١١٣ .

- البيومي (محمد رجب) :

١٠ - « عماد الدين زنكى » ، مقال بمجلة الأزهر ، العدد ١٨ ، ربيع الآخر ١٣٧٤هـ / ديسمبر ١٩٥٤م ، ص ٤٥٣ - ٤٥٦ .

- تيمور (أحمد) :

١١ - « تفسير الألفاظ العباسية فى نشوار المحاضرة » ، مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، ج ١١ ، ج ٢ ، ١٣٤١ / ١٩٢٢م .

- جاكسون (دافيد) :

١٢ - « صلاح الدين : معركة حطين والاستيلاء على القدس (وجهة نظر) » ، مقال بالكتاب التذكارى : ٨٠٠ عام حطين صلاح الدين والدور العربى المشترك ، القاهرة ، دار الشروق ، ١٤٠٩ ، ١٩٨٩م ، ص ٩٣ - ٨٥ .

- الجنحانى (الحبيب) :

١٣ - « حطين رمز الوحدة والتحرر » ، مقال بمجلة تاريخ العرب والعالم ، العدد ١٠٥ - ١٠٦ ، ذو القعدة - ذو الحجة ١٤٠٧هـ - تموز - أب ١٩٨٧م ، ص ٤٦ - ٤٧ .

١٤ - « حطين رمز الوحدة والتحرر » ، مقال بمجلة المؤرخ العربى ، العدد ٣٩ ، ١٤٠٩ - ١٩٨٩م ، ص ١٧٧ - ١٨٥ .

- حسن (زكى محمد) :

١٥ - « قلعة الجبل » ، مجلة الكتاب ، القاهرة ، أكتوبر ١٩٤٦ ، ٨٧٣ - ٨٨٢ .

- حسن (على إبراهيم) :

١٦ - « آراء فى تاريخ دولة المماليك البحرية » ، بحث فى مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد السابع ، ١٩٤٤م .

- حسن (محمد عبد الغنى) :

١٧ - « والد الملوك الأيوبية » ، مجلة الرسالة ، السنة التاسعة ، ص ٩٩١ ، وتعقيب لجمال الدين الشيبان ، السنة التاسعة من الرسالة أيضًا ، ص ١٠٧٩ - ١٠٨٠ .

- حسين (محمد الخضر) :

١٨ - « الشعر المصرى فى عهد الدولة الأيوبية » ، مجلة الهداية الإسلامية ، المجلد التاسع ، الجزء السادس ، ذى الحجة ١٣٥٥هـ - فبراير ١٩٣٧م ، ص ٣٢١ - ٣٣١ .

- الحسينى (الأمير جعفر) :

١٩ - « مظاهر الحضارة الإسلامية فى دمشق وحلب » ، أبحاث مؤتمر الآثار فى البلاد العربية المنعقد فى دمشق ١٩٤٧م ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ، ١٩٤٨م ، ص ٥٧ - ٦٧ .

- حمدى (أحمد ممدوح) :

٢٠ - « الطراز الأيوبى فى مصر » ، جامعة الدول العربية ، الإدارة الثقافية ، المؤتمر الخامس للأثار فى البلاد العربية ، ١٩٦٩م ص ٨٠٩ - ٨٢١ .

- الخشاب (يحيى) :
- ٢١ - « ضبط وتحقيق الألفاظ الاصطلاحية التاريخية الواردة فى كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمى »
(بالاشتراك مع الباز العرينى) ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد السابع ، ١٩٥٨ م ، ص ١٦١ - ٣١٢ .
دار الشروق :
- ٢٢ - « ملامح خطة صلاح الدين العسكرية لتحرير القدس » ، مقال نشر بالكتاب التذكارى : ٨٠٠ عام
حطين صلاح الدين والعمل العربى المشترك ، دار الشروق ، القاهرة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م ، ص ١١١
- ١٢٧ .
- دراج (أحمد) :
- ٢٣ - « الوثائق العربية المحفوظة فى دور الأرشيف الأوربية » ، (مصر الإسلامية) ، مقال ضمن أبحاث
الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، ١٩٦٩ ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٧٠ م .
- الدسوقى (محمد كمال) :
- ٢٤ - « أهمية الحجاز فى مطلع العصور الحديثة » ، مقال بمجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة
المكرمة ، العدد ٣ ، ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م ، ص ٣٩٧ - ٤٣٠ .
- ربيع (حسنين) :
- ٢٥ - « نشر ودراسة حجة تملك ووقف مؤرخة سنة ٦٤٩ هـ ومحفوظة بمحكمة الأحوال الشخصية
بالقاهرة » ، محفظة رقم ١ ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ١٢ ، ١٩٦٤ ، ١٩١ - ٢٠٢ .
- رشيد (ناظم) :
- ٢٦ - « الأدب عند بنى أيوب » ، مجلة المورد العراقية ، المجلد الخامس ، العدد الثالث ، ١٣٩٦ هـ /
١٩٧٦ م ، ص ٣٥ - ٤٠ .
- رضا (محمد رشيد) :
- ٢٧ - « ذكرى صلاح الدين ومعركة حطين » ، مقال بمجلة المنار ، مصر ، العدد ٨ ، جمادى الأولى
١٣٥١ هـ - سبتمبر ١٩٣٢ م ص ٥٩٣ - ٦٠٦ .
- زكار (سهيل) :
- ٢٨ - « وقائع معركة حطين » ، مقال بمجلة تاريخ العرب والعالم ، العدد ١٠٥ - ١٠٦ ، ذو القعدة -
ذو الحجة ١٤٠٧ هـ - تموز - آب ١٩٨٧ م ، ص ٧٠ - ٨١ .
- زكى (عبد الرحمن) :
- ٢٩ - « العمارة العسكرية فى العصور الوسطى بين العرب والصليبيين » ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد
السابع ، ١٩٥٨ ، ص ١٠٦ - ١٣٣ .
- ٣٠ - « القلاع فى الحروب الصليبية » ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الخامس عشر ١٩٦٩ ، ص ٤٩
- ٩٧ .
- ٣١ - « مدارس الدين فى أيام الأيوبيين » ، مجلة منبر الإسلام ، السنة ٢١ ، العدد الأول ، ١٣٨٣ هـ /
١٩٦٣ م ، ص ١٦١ - ١٦٤ .

٣٢ - « نشأة القاهرة وامتدادها في أيام الأيوبيين » ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثامن عشر ، ١٩٧١ م . ص ١١١ - ١٦٠ .

٣٣ - « نقد لكتاب الاستيلاء على دمياط » ، للمؤرخ الصليبي اللاتيني ، أليفير ، الذى صاحب الحملة الصليبية ال ٥ على مصر سنة ٦١٤ هـ . المجلة التاريخية المصرية المجلد الثالث العدد الأول ، مايو ١٩٥٠ ، ٢٤٦ - ٢٤٩ .

- أبو زهرة (محمد) :

٣٤ - « الاقتصاد الإسلامى » ، سلسلة مقالات فى مجلة رسالة الإسلام ، السنة الحادية عشر ، ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٩ م ، العدد الأول ، ص ٢٣ - ٣٦ ، العدد الثانى ، ص ١٢٠ - ١٤٠ ، الرابع ، ص ٣٦٠ ، ٣٧٢ ... إلخ .

٣٥ - « محاضرات فى الوقف » ، من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ١٩٥٩ م .

- زيادة (محمد مصطفى) :

٣٦ - « الدولة الأيوبية » ، مقال فى كتاب « تاريخ الحضارة المصرية » ، العصر اليونانى والرومانى والإسلامى ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، د . ت ، ج ٢ ، ص ٤٥٨ - ٤٨٠ .

٣٧ - « ديوان الزكاة » ، مقال بمجلة الثقافة ، العدد ٢١١ ، يناير ١٩٤٣ م .

٣٨ - « نقد لكتاب مؤلف الطرسوسى فى التاريخ الحربى على عهد الأيوبيين » ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثانى ، العدد الأول ، ١٩٤٩ ، ص ٢٢٣ - ٢٢٥ .

٣٩ - « نقد لكتاب مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » ، تحقيق جمال الدين الشيال ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع ، العدد الأول ، ١٩٥١ ، ص ٢٥٢ - ٢٥٧ .

٤٠ - بعض ملاحظات جديدة فى تاريخ دولة المماليك » ، مجلة كلية الآداب - جامعة فؤاد الأول ، المجلد الرابع ، الجزء الأول ١٩٣٦ ، الطبعة الثانية ١٩٥٣ م ، ص ٧١ - ٨٨ .

٤١ - « يوم حطين » قال بمجلة العربى ، الكويت ، العدد ٥٩ ، جمادى الأولى ١٣٨٣ هـ - أكتوبر ١٩٦٣ م ، ص ٣٦ ، ٤٦ .

- السباعى (مصطفى حُسنى) :

٤٢ - « صلاح الدين » ، مقال بمجلة المسلمون ، العدد ٣ ، شوال سنة ١٣٧٧ هـ - آيار سنة ١٩٥٨ م . ص ١٠ - ١ .

- سليمان (حسين) :

٤٣ - « نبذة تاريخية عن معركة حطين : الرمز والعظة ومدخل التحرير » ، مقال بمجلة لواء الإسلام ، العدد ٣ ، شوال سنة ١٣٩٩ هـ - سبتمبر سنة ١٩٧٩ م ، ص ٤١ - ٤٥ .

- شبكة (محمود محمد) :

٤٤ - « من أذب الحروب الصليبية » ، مقال بمجلة الأزهر ، العدد ٦ ، شعبان سنة ١٣٩٢ م - سبتمبر سنة ١٩٧٢ م ، ص ٥٧٦ - ٥٨١ ، ٥٨٤ .

- الشيبى (محمد رضا) :
 ٤٥ - « الألفاظ الأيوبية فى كتاب تقويم النديم » ، مجلة مجمع اللغة العربية ، الجزء الثامن ، مطبعة وزارة التربية والتعليم ١٩٥٥م ، ٣٤٠ - ٣٤٤ ، ونشر نفس المقال فى مجلة الرسالة العدد ٩١٦ ، بتاريخ ١٩٥١/١/٢٢ م .
- شراب (محمد حسن) :
 ٤٦ - « القاضى الفاضل الوزير الناصح والعقل الراجح » ، مقال بمجلة الحرس الوطنى ، العدد ٨٩ ، رجب سنة ١٤١٠ هـ - فبراير سنة ١٩٩٠م ص ٣٩ - ٤١ .
- شعث (شوقى) :
 ٤٧ - « الجيش العربى الإسلامى فى عصر موقعة حطين ووسائل الإسناد الأخرى » ، مقال بمجلة تاريخ العرب والعالم ، العدد ١١١ - ١١٢ جمادى الأولى وجمادى الثانية سنة ١٤٠٨ هـ - يناير وفبراير سنة ١٩٨٨م ص ٤٤ - ٥٤ .
- ٤٨ - القدس الشريف بين احتلالين ... » ، مقال بمجلة المنهل ، العدد ٤٦٢ ، شعبان سنة ١٤٠٨ هـ - إبريل سنة ١٩٨٨م ص ١٠٩ - ١١٣ .
- شمس الدين (وجيه) :
 ٤٩ - « حطين وصلاح الدين وأولى القبليين » ، مقال بمجلة الموقف ، لبنان ، العدد ٧٧ ، ذو القعدة سنة ١٤١١ هـ يونيو سنة ١٩٩١م . ص ٤٠ - ٤٣ .
- الشيبال (جمال الدين) :
 ٥٠ - « شاعر من البيت الأيوبى » ، تاج الملوك بورى ، مقال بمجلة الثقافة ، العدد ١٣٠ ، ٢٤ يونيو ١٩٤١ م .
- ٥١ - « نظام الوزارة فى العصر الفاطمى » ، مقال بمجلة الثقافة العدد ٦٣٨ ، ١٩ مارس ١٩٥١م .
- ٥٢ - « الجاسوسية فى حروب بنى أيوب » ، دراسات فى التاريخ الإسلامى ، بيروت ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤م ، ص ٧٣ - ٧٨ .
- ٥٣ - « طريقة مسح الأراضى وتقدير الخراج فى مصر الإسلامية » ، مجلة الثقافة ، السنة الثانية ، العدد ٩٧ ، ١٩٤٠م .
- صبره (عفاف سيد) :
 ٥٤ - « بهاء الدين قراقوش الوزير المقتدى عليه » ، مقال بمجلة الدارة ، العدد ٢ ، محرم سنة ١٤٠٨ هـ - أغسطس سنة ١٩٨٧ هـ ، ص ١٣٦ - ١٨١ .
- الصميدى (عز الدين) :
 ٥٥ - « صوت من الماضى إلى الحاضر » ، مقال بمجلة المختار الإسلامى ، العدد ٧٦ ، شوال سنة ١٤٠٩ هـ - مايو ١٩٨٩م ، ص ٥٢ - ٥٣ .
- طرخان (إبراهيم على) :
 ٥٦ - « الإقطاع الإسلامى ، أصوله وتطوره ، دراسة مقارنة » ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد السادس ، ١٩٥٧ ، ص ٤٧ - ٧٦ .

- الطيان (سعيد) :
- ٥٧ - « موقعة حطين : دراسة عسكرية » : مقال بمجلة تاريخ العرب والعالم ، العدد ١٠٥ - ١٠٦ ،
ذو القعدة - ذو الحجة سنة ١٤٠٧هـ - تموز - آب ١٩٨٧م ، ص ٣٤ - ٤٠ .
- عابدين (محمد صبرى) :
- ٥٨ - « الأردن في أيام الحروب الصليبية » ، مقال بمجلة الأزهر ، العدد ١ ، محرم سنة ١٣٧٣هـ - سبتمبر
١٩٥٣م ، ص ٥٩ - ٦٢ .
- عارف (محمود) :
- ٥٩ - « من أعلام البطولة والقيادة في الإسلام : صلاح الدين الأيوبي » : مقال بمجلة المنهل ، العدد ١٠ -
١١ ، ذو القعدة - ذو الحجة سنة ١٣٧١هـ = يوليو - أغسطس سنة ١٩٥٣م ، ص ٤٥٣ - ٤٥٤ .
- عاشور (سعيد عبد الفتاح) :
- ٦٠ - « البنية البشرية لجيوش صلاح الدين » ، مقال بمجلة المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، العدد ٣٧ ، سنة
١٩٩٠م ، ص ٨ - ٣١ .
- ٦١ - « الفلاح والإقطاع فى عصر الأيوبيين والمماليك » ، الموسم الثقافى للجمعية المصرية للدراسات
التاريخية ، الأرض والفلاح فى مصر على مر العصور ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص ٢١١ - ٢٢٤ .
- ٦٢ - « الإمبراطور فردريك الثانى والشرق العربى » ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الحادى عشر ،
١٩٦٣ ، ص ١٩٥ - ٢١٣ .
- عاشور (فايد) :
- ٦٢ مكرر - « الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين » ، مقال بمجلة الأمة ، قطر ، العدد ٤٦ ، شوال سنة
١٤٠٤هـ / يوليو سنة ١٩٨٤م ، ص ٤٦ .
- العبادى (عبد الحميد) :
- ٦٣ - « كتب الحسبة وفانديتها فى وضع المعجمين الوسيط والكبير » ، مجلة مجمع اللغة العربية ، الجزء
الثامن ، مطبعة وزارة التربية والتعليم ١٩٥٥م ، ص ٤٢٢ - ٤٢٧ .
- عبد الحق (عادل سليمان) :
- ٦٤ - « مدرج مسرح بصرى وقلعتها » ، المؤتمر الرابع للآثار فى البلاد العربية ، تونس ١٩٦٣م ، ص
٢٦٥ - ٢٩٨ .
- عبد الحميد (سعد زغلول) :
- ٦٥ - « العلاقة بين صلاح الدين ، وأبى يوسف يعقوب » ، مجلة كلية الآداب بالإسكندرية ١٩٥٣م .
- عبد الحى (سعيد) :
- ٦٦ - « صلاح الدين شخصية فى سطور » ، مقال بمجلة الأزهر ، العدد ٧ ، رجب سنة ١٤٠١هـ - مايو
١٩٨١م ، ص ١٣٣١ - ١٣٣٣ .
- عبد النعم (محمد فيصل) :
- ٦٧ - « قائد ومعركة : القائد الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي » ، مقال بمجلة الحرس الوطنى ، العدد ٢ ،
شوال سنة ١٤٠٠هـ - أغسطس سنة ١٩٨٠م ، ص ١٢٠ - ١٢٦ .
- ٦٨ - « الملك مظفر الدين كوكبرى الذئب الأزرق » ، مقال بمجلة الحرس الوطنى ، العدد ٩ رجب سنة
١٤٠٣هـ - إبريل سنة ١٩٨٣ ، ص ١٠٠ - ١٠٣ ، وعدد ١٠ ، شوال سنة ١٤٠٣هـ - يوليو سنة
١٩٨٣م ، ص ١٦ - ١٨ .

- عبد الوهاب (حسن) :

- ٦٩ - « العمارة الإسلامية » ، العصر الأيوبي ، مجلة العمارة ، العدد ٧ ، ٨ ، سنة ١٩٤٠ م .
- ٧٠ - « العمارة الإسلامية » ، عصر المماليك البحرية ، مجلة العمارة ، العدد ٩ ، ١٠ ، سنة ١٩٤٠ م .
- ٧١ - « من روائع العمارة الإسلامية في مصر والشام » ، جامعة الدول العربية ، المؤتمر الرابع للآثار في البلاد العربية ، ١٩٦٣ م ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٥ م ، ص ٢٩٨ - ٣٢٠ .
- ٧٢ - « الإسكندرية في العصر الإسلامي » ، مجلة الكتاب ، السنة الثانية ، المجلد الثالث ، ١٣٦٦ هـ / ١٩٤٧ م ، ص ٣٧٩ - ٣٩٣ .
- ٧٣ - « مميزات العمارة الإسلامية في القاهرة » ، مؤتمر الآثار في البلاد العربية ، سنة ١٩٤٧ م ، ص ١٧٩ - ١٨١ .
- ٧٤ - « الدولة الأيوبية وعمارتهما » ، مجلة منبر الإسلام ، السنة ١٩ ، العدد (١٠) ، ١٣٨١ هـ / ١٩٦٢ م ، ص ٧١ - ٧٧ .
- ٧٥ - « نشأة المدارس بمصر » ، مجلة منبر الإسلام ، السنة ١٩ ، العدد ٧ ، سنة ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م ، ص ٩٠ - ٩١ .
- العيدي (عبد العزيز بن راشد) :
- ٧٦ - « جهود صلاح الدين الأيوبي في بناء الجبهة الإسلامية وتأسيس الدولة الأيوبية حتى سنة ٥٧٣ هـ » ، مقال بمجلة مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، العدد ٦ ، محرم سنة ١٤١٣ هـ - يوليو سنة ١٩٩٣ م ، ص ٤٤٧ - ٥٣١ .
- العريني (السيد الباز) :
- ٧٧ - « الإقطاع في الشرق الأوسط ، منذ القرن السابع حتى القرن الثالث عشر الميلادي » ، حوليات كلية الأداب ، جامعة عين شمس ، العدد الرابع ، ١٩٥٧ م .
- عزام (عبد الوهاب) :
- ٧٨ - « الألفاظ الفارسية والتركية في اللغة العامية المصرية » ، مجلة مجمع اللغة العربية ، الجزء الثامن ، مطبعة وزارة التربية والتعليم ، ١٩٥٥ ، ص ٣٦٢ - ٣٦٥ .
- أبو العز (صفى الدين) :
- ٧٩ - « معركة حطين : الإطار والنتائج » ، مقال نُشر في الكتاب التذكاري المعنون بـ (٨٠٠ عام حطين صلاح الدين والعمل العربي المشترك) ، القاهرة : دار الشروق ، سنة ١٤٠٩ - ١٩٨٩ م .
- العقاد (عباس محمود) :
- ٨٠ - « صلاح الدين » ، مقال بمجلة العزبي - الكويت ، العدد ١ ، جمادى الأولى سنة ١٣٧٨ هـ / ديسمبر سنة ١٩٥٨ م ، ص ٥٣ - ٥٩ .
- علي (عبد الرحمن بله) :
- ٨١ - « البحث عن سيف صلاح الدين » مقال بمجلة الجامعة الإسلامية ، العدد ١ ، محرم - صفر - ربيع الأول ، سنة ١٤٠٠ هـ ، ص ١٨٣ - ١٨٦ .

- عنان (محمد عبد الله) :
- ٨٢ - «ابن خلدون وميكافلي» ، مجلة الرسالة ، العدد ٢٠ ، السنة الأولى ، ١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م ، ص ٢٠ - ٢١ .
- عنان (محمد عبد الله عنان) :
- ٨٣ - «ترجم لكل من : صلاح الدين الأيوبي ، ووزيره بهاء الدين قرقوش ، والملكة شجرة الدر ، وللفقيه الطروشى ، والرحالة ابن جبير الذى زار مصر فى عهد صلاح الدين الأيوبي : راجع كتابه : تراجم إسلامية شرقية وأندلسية ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، سنة ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م .
- عواد (كوركيس) :
- ٨٤ - « مؤلف معالم الكتابة ومغانم الإصابة ، مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، عدد ٢٢ ، سنة ١٩٩٩ ، ص ٣٧٨ - ٣٧٩ .
- ٨٥ - «الحسبة فى خزانة الكتب العربية» ، مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، المجلد ٧ / ٢ . سنة ١٩٤٢م ، ص ٤١٧ - ٤٢٨ .
- ٨٦ - «نصاب الاحتساب» ، مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، المجلد ١٧ ، سنة ١٩٤٢م ، ص ٤٣٣ - ٤٤٤ . (عرف هذا الكتاب ومؤلفه حاجى خليفة فى كشف الطنون تحت اسم : «نصاب الأحتساب» . (أحمد) .
- عويس (عبد الحليم) :
- ٨٧ - «قامت على يد واحد من أعظم الرجال وانتهت على يد امرأة» ، مقال بمجلة المجتمع ، العدد ١٢٧ ، شوال سنة ١٣٩٢م - نوفمبر ١٩٧٣م .
- عيسى (أحمد محمد) :
- ٨٨ - «مخطوطات ووثائق دير سانت كاترين يشبه جزيرة سيناء» ، مقال بالمجلة التاريخية المصرية ، المجلد الخامس ، ١٩٥٦م .
- غربال (محمد شفيق) :
- ٨٩ - «مصر عند مفترق الطرق (١٧٩٨هـ / ١٨٠١)» ، المقالة الأولى ، «ترتيب الديار المصرية فى عهد الدولة العثمانية كما شرحه حسين الندى ، أحمد أفندية الروزنامة فى عهد الحملة الفرنسية» ، القاهرة ١٩٣٨م ، بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب ، بجامعة فؤاد الأول بالقاهرة .
- الغول (محمود) :
- ٩٠ - «حفيدات بلقيس» ، مقال بمجلة العربى ، العدد ٦٣ ، شعبان سنة ١٣٨٣هـ - يناير سنة ١٩٦٤م ، ص ٢٤ - ٣١ .
- فروخ (عمر) :
- ٩١ - «صلاح الدين قبل معركة حطين» ، مقال بمجلة الباحث ، لبنان ، العدد ٤ ، أكتوبر - ديسمبر سنة ١٩٨٧م ، ص ٦٥ - ٧١ .
- فكرى (أحمد) :
- ٩٢ - «خصائص عمارة القاهرة فى العصر الأيوبي» ، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، ١٩٦٩ ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٧٠م ، ص ١٦٣ - ١٩٢ .

- فهمى (عبد الرحمن) :
 ٩٣ - « من فضة الأيوبيين إلى نحاس المماليك » ، مجلة مرآة العلوم الاجتماعية ، العدد ٣ ، م ٧ ، ١٩٦٤ .
 ص ٥٩ وما بعدها .
- القرنى (عبد الحفيظ فرغلى) :
 ٩٤ - « أشدة الساعات جلجلة أقربها إلى طلوع الفجر » ، مقال بمجلة الأزهر ، العدد ٣٤ ، ربيع الثانى سنة ١٤٠٣هـ - فبراير سنة ١٩٨٣م ، ص ٣٢ - ٣٣ .
- الكرملى (إنستاس مارى) :
 ٩٥ - « مقامات ابن حمويه الجوينى » ، مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، المجلد ١٨ ، ص ٤٠٦ - ٥١٠ ، (ثلاث مقالات تباعاً) .
- اللباييدى (محمود) :
 ٩٦ - « نظام الإسلام السياسى » وعلاقة الدين بالدولة فى هذا النظام ، مجلة رسالة الإسلام ، السنة الرابعة ، العدد الرابع ، محرم سنة ١٣٧٢هـ / أكتوبر ١٩٥٢م ، ص ٣٧٦ - ٤٠٢ .
- ٩٧ - « الاقتصاد الإسلامى ، مقامة بين الاقتصادين الرأسمالى والشيوعى والاشتراكى » ، مجلة رسالة الإسلام ، السنة الثالثة ، العدد الثالث ، رمضان ١٣٨٠هـ / ١٩٥١م ص ٢٥٨ - ٢٨٠ ..
- لبيب (صبحى بنى) :
 ٩٨ - « التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى » ، المجلة التاريخية المصرية المجلد الرابع ، العدد الثانى ١٩٥٢ ، ص ٥ - ٦٣ .
- ماجد (عبد المنعم) :
 ٩٩ - « أضواء جديدة على موقعة عين جالوت » ، الموسم الثقافى للجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ١٩٧٦ - ١٩٧٧ ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص ١٥١ - ١٦٨ .
- ماهر (سعاد) :
 ١٠٠ - « مجرى مياه ثم الخليج » ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد السابع ، ١٩٥٨م ، ص ١٣٤ - ١٤٩ .
- مخلص (عبد الله) :
 ١٠١ - « التوائف الإسلامية فى العلوم السياسية والإدارية » ، مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، المجلد ٧ ، الجزء ال ٧ وال ٨ ، سنة ١٩٤٣م ، ص ٣٣٩ - ٣٤٤ (عدد تموز آب - جمادى الآخرة رجب) .
- مرزوق (محمد عبد العزيز) :
 ١٠٢ - « طراز الإسكندرية » ، أبحاث مؤتمر الآثار فى البلاد العربية المعقد بدمشق ، ١٩٤٧م ، طبع القاهرة ١٩٤٧م ، ص ١٦٥ - ١٧٥ .
- يوسف (جوزيف نسيم) :
 ١٠٣ - « دراسة فى وثائق العصرين الفاطمى والأيوبرى ، المحفوظة بمكتبة دير سانت كاترين فى سيناء » ، فصله من مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، المجلد ١٨ ، ١٩٦٤م ، ص ١٧٩ - ٢٠١ .

خامسا: أهم المراجع الأجنبية :

- Amari (Michele):
 - 1- Diplomi Arabi del R. Archivio Fiorentino, Testo Originale, con la Traduzione Lettèrale E Illustrazione Di Michele Amari, in Firenze, 1873.
 - 2- Storia dei Musulmani di Sicilia (1-4) Firenze, 1858.
- Berchem (Van) :
 - 3- Materiaux Pour un Gorpus Inscriptionum Arabicarum, Egypte, I, Paris 1903.
- Caheïn (c.):
 - 4- Makhzumiyat. Etude sur l'histoire économique et financière de l'Egypte medievale, Leiden E J. Brill, 1977.
- Elbeheiry (Salah):
 - 5- Les Institutions de L'Eypte au temps des Ayyübides. Thèse Princiipal de Doctorat d'Etat sou-tenue en Sorbone 1971 et Publiée Par l'Université de Lille III, 1972.
- Ernst (H.)
 - 6- Die mamlukischen Sultan Zur Kuden des Sinaiklosters, wiesbaden, 1960.
- Gots chalk:
 - 7- Al-Malik Al-Kamil, Von Egypten, Un seine zeit, Otto Harrasowitz wiesbaden, 1958.
- Helbing, (N.):
 - 8- Al-QadisAl-Fadil, der Wezir Saladin, eine Biographie, Berlin, 1909.
- Lane-Poole:
 - 9- Saladin and the fall of the Kingdom of Jerusalem. London 1898.
- rabie (Hassanein):
 - 10- The Finacial System of Egypt, A.H. 564-741/A.D. 1169-1341, London Oriental Serie. Volume 25, Oxford University, Press, 1972.
- Ricakie (J):
 - 11- La Poesie Profane sous les Ayyoubides et ses Principaux representant, Paris, 1949.
- Pautey (Edmon):
 - 12- Les Bois Sculptés Jusqu' a l'epoque Ayyoubide, Catalogue general du Musée Arabe du Caire. 1931.
- Sauvaget, Wiet, Combe:
 - 13- Repertoire Chronologique D'epigraphie Arabe, Le Caire, Mc MXXXVII, T. 9-10.
- Weill (Jean David):
 - 14- Catalogue General du Musée Arabe du Caire, Les Bois á Epigraphie Jusqu'à l'epoque Mamlouke, le Caire, 1931.
- Wiet (G.) :
 - 15- L' Egypte Arabe (Histoire de la Nation Egyptienne, Par Hanateau, T. IV.).

- Abdul Hak (M.):
 - 1- Al Qadi ul fadil and his diary, Proc. 10th Al-india or. Conf., 1940, pp 724-725.
- Abel (A):
 - 2- La Sitalle Ayyubida de Bosra, Annales Archéologiques de Syrie VI, 1956.
- Ashtor (E):
 - 3- Saladin and the Jews, HVCA, Hebrew Union College Annual, V. 27 (1956).
- Balog (P):
 - 4- Dirhems Ayyoubites inédits du Yemen, B.I.E. 36 (1953-54) pp, 347-355.
 - 5- Ayyubid Jetons, Atti Del Terzo Congresso Di Studi Arabi E Islamica, Ravello, 1966, Instituto Universtario Orientale, Napoli, 1967, P 121-125.
 - 6- Dinars of Muâzzam Shams al-Din Turanshâh and al-Aziz, Tuglhegen, Ayyubid Princes of the Yemen, Amere, Num. Soc. Museum notes 9, (1960) pp 237-240.
 - 7- Etudes Numismatiques de l'Egypte Musulmane, La Trouvaille de Fayoum, Dirhems Ayoubites, du Premier Roi Mamelouk Aybek et D'Imitation Arabe des Groisés, Extrait du B.I.E.T. 34, 1951-1952.
 - 8- Monnaies Islamiques Rares Fatimides et Ayoubites. B.I.E.T. 36, Le Caire 1955, P. 327-346.
 - 9- Deux dinars inédits du dernier Roi Quyoubite d'Egypte, Al-Malek Al-Achraf about Fath Moussa. B.I.E.XXXI, P. 187-190, Le Caire 1949.
 - 10- Etudes Numismatiques de l'Egypte Musulmane, Fatimites, Ayoubites, Premiers Mamlouks, B.I.E., Session 1952-1953, Le Caire 1954.
 - 11- Etude Numismatiques de l'Egypte Musulmane, Période Fatimides et Ayoubites B.I.E., 1952.
- Basetti-Sani (G.):
 - 12- Conditions de l'apostolat en Egypte au debut de XIII^{em} siecle. Cah. hist. eg. 5 (1953) pp. 193-216.
- Brinner (W. M.):
 - 13- The Banu Sasra: a study in the transmission of a scholarly tradition Arabica 7 (1970) pp. 167-195.
- Casanova (P):
 - 14- Les Derviers Fatimides. Memoires de la Mission Archéologique Française du Caire, Tome VI, 1893. PP. 415-445.
 - 15- Notes sur un texte copte du XIII^e siecle, B.I.F.O. I (1901) pp. 113-137.
- Cahein (C.):
 - 16- Une source pour l'histoire des croisades: Les memoires du sacd ad-Din ibn Hamawiyya Huwaini, dans bulletin de la Faculté des lettres de Strashourg. 1950.
 - 17- La Correspondance de Diyead-Din Ibn al'Adhir, Liste de Lettres et textes de diplômes, B.S.O.A.S., 14 (1952), pp. 34-43.

- 18- L'Evolution de l'iqta, etc. dans, *Annales Economies-Sociétés-Civilisations*, 1953.
- 19- Le Regime des Impots de la Fayyum Ayyubide, *Arabica*, 3 (1956) pp. 8-30.
- 20- Un traité Financier inedit d'Epoque Fatimide Ayyubide, *JESHO*. Vol, v Part II, 1962.
- 21- Douanes et Commerce dans les portes Mediterraéens, *JESHO*, 7, 1964.
- 22- L'administration financiere de l'armée fatimide d'après al Makhzumi (*JESHO*), 15, 1972.
- Cooper (S.):
- 23- A note on the dinar J'ayshi, *JESHO*, 16 (1973).
- Creswell (K.):
- 24- La citadelle Ayyubide du Bosra, *Annales Archeologiques de Syrie*, VI (1956).
- 25- The Origins of the Cruciform plan of Cairene Modrasahs, bulletin de l'institut Français d'Archeologie orientale Tom 21, p. 1-54, Le Caire, 1922.
- Dietrich (A.):
- 26- Eine Arabische Eheurhunde aus der Ayyubidenzeit, *Doc. isl. ined*, 1952, pp. 121-154.
- Demombynes (G.):
- 27- Une lettre de Saladin au Calife Almohade. *Mil. R. Basset II*, 1925, pp. 279-304.
- Ehrenkrentz (A.S.):
- 28 - The Standand of fineness of gold coins circulating in Egypt at the times of the Ctusades *J.A.O.S.*, 74 (1954) pp. 162-166.
- 29- Contributions to the knowledge of the fiscal administration of Egypt in the Middle Ages, *B.S.O.A.S.*, 16 (1954), pp. 502-514.
- 30- Extracts from the Technical Mannal on the Ayyubid Mint in Cairo (*B.S.O.A.S.*), 1953, 15. pp. 424-447.
- 31- The place of Saladin in the naval history of the Miditerranean see in the Middle Ages *J.A.O.S.* 75 (1955) pp.100-110.
- 32- The Crisis of dinar in the Egypt of Saladin *J.A.O.S.* 76 (1956) pp. 178-184.
- 33- The Standard of Fineness of Western and Exstern Dinars before the Crusades, *J.E.S.H.O.*, V. VI, (1963), Part I.
- 34- Byzantine Tatartera and Islamic Dinars, *J.E.S.H.O.*, V. VII, (1964), part II.
- 35- Arabic Dinars Struck by the Crusaders, *JESHO*, V. VII (1964) part I.
- Elbeheiry (Salah):
- 36- Le Decret de nomination de l'historien Ibn Wasil au poste de professeur de la mosqué al-Aqmar, communicationfaute au XXIX^e congres International des Orientalistes, Paris, 1973, in *Bulletin de l'Institut Français d'Archéologic Orientale*, Le Caire, 1973.
- 37- Les Lettres d'un-Nasir Daud, Communication faite au XXVII^e Congres International Orientalistes, Michigan, 1969, publié dans *ARABICA*, T. XV, fasc. 2, 1968.

- Fink, (H.S):
 - 38- Mawdud I of Mosul precursor of Saladin, M. W. B. (1953), pp. 18-27.
- Gibb (H. A. R.):
 - 39- The achievement of saladin, Bull, J. R. Lib. 35 (1952), pp. 44-60.
 - 40- Notes on the arabic materials for the History of the Eraly Croisades, B.S.O.A.S. VII: 1935. p. 739-754.
 - 41- The armies of Saladin, Cah, Hist, eg. 3 (1961) pp. 304-320.
 - 42- The Arabic Sources of the life of Saladin, speculum 25 (1950) pp. 58-72.
 - 43- Al-Barq al Shami: the History of Saladin by the Katib Imad ad-Din al-Isfahani, W.Z.K.M. (52) 1953, pp 93-115.
- Goitein (S.D.):
 - 44- The Cairo geniza as a source for the history of muslim civilization, SI (Studia Islamica) V. III, 1955.
 - 45- The Documents of the Cairo geniza as a source for mediterranean social History, in JAOS., Vol. 80, 1960.
 - 46- From the Mediterranean to India, documents on the Trade to India, south Arabia and East Africa from the eleventh and Twelfth centuries, Speculum (29), 1954 (181-191).
 - 47- Letters and documents on the India Trade in Medieval Times. IC. (Islamic Culture), V. 37. (1963).
 - 48- Slaves and Slavegirls in the Cairo Geniza Records, Arabica , (1962) pp. 1-20.
 - 49- The eschange of gold and silves money in Fatimid and Ayyubid times. JESHO., V, VIII, 1965.
 - 50- Evidence on the Muslim poll tax from non-Muslim sources. Ageniza Study, JESHO. V. VI, (1963) part, I.
- Godard (André):
 - 51- L'origine de la Medrasah, de la Mosquée et du Caravansérail à quatre Iwan. in Ars Islamica, vol. XV-Xv, 1951 pp. 1-9.
- Gottschalk (XL):
 - 52- Die Aulad saih as-Suyur (Banu Hamawiya) wzkm (53) 1956, pp. 37-87.
- Guyord:
 - 53- Un grand maitre des Assassins au temps de 'saladin, Journal Asiatique, VII^e serie, 1877.
- Herz (Max):
 - 54- Les Sépultures Abbasides prés de la mosquée d'el-Sayeda Nafisa, Bulletin du Comité de Con-servation des Monuments Arabes, Le Caire, 1911.
 - 55- Mosquées et Tombeau du sultan salah Negm el-Dyn Ayyoub, Bulletin du comité de conservation de Monuments Arabes, Le Caire, 1902, Reprinted in Bulletin de L'Institut d'Egypte, 4^e serie, No. 5, pp. 25-31, Le Caire, 1904.

- Kahle (p):
 - 56- Eine wichtige Quelle Sur geschichte des sultans saladin, W. O. I. (1947-1952) pp. 299-301.
- Lapidus (I. M.):
 - 57- Ayyubid Religious Policy (in colloque Internationaal sur l'histoire du Caire, p. 279-286).
- Lauffray (J.) ;
 - 58- Une madrasah Ayyoubid de la syrie du Nord, La Sultaniya d'Alep, Etude Architecturale, Annales Archeologique de Syrie, tome III, 1953.
- Lewis (Bernard):
 - 59- The Sources for the History of Syrian Assassins (speculum, 1952, XXVIII/4).
 - 60- Saladin and the Assassins, BSOAS., 15 (1953) pp. 239-245.
- Massé (H):
 - 61- Remarques sur le Fath el Qassi d'imad ed-din el-Isfahani, 22 Congrès or. 1951, II (1957)p. 196.
- Mile (G.G.):
 - 62- The Ayyubid of the Yemen and their Coinage, Num. Chron. 5^e ser, 19 (1939), pp. 69-94.
- Minoreskey (V.):
 - 63- Prehistory of Saladin, dans studies in Caucasian History, Cambridge 1953, pp. 107-128.
- La Monte, J.L.:
 - 64- Takieddin prince of Hama, N.W. 31 (1941) pp. 149-160.
- Poliak:
 - 65- The Ayyubid Feudalisme, JRAS., 1939, pp. 428-432.
- Rice (s):
 - 66- Islamic Studies in metalwork, bull. of the school of or. st. XIV-XVII, 1952-1955.
- Richard, J.:
 - 67- La chanson de syracon et la légende de Saladin, J.A. 237 (1949) pp. 155-158.
- Sadek (Hassan):
 - 68- Salah el Din's fort on Ras el-Gindi in Sinai. BIE 2(1920) pp. 111-119.
- Sauvaget:
 - 69- Le Cénotaphe de Saladin, Revue des Arts Asiatiques. Paris, 1938.
- Shafek (Ali):
 - 70- Fayoum Irrigation as discribed by Nabulsi in 1245 A.D. Bulletin de la société Royale de Geographie d'Egypte, Tome XX, 1939, pp. 283-326.
- Salmon (Mr George):
 - 71- Répertoire géographique de la Province du fayyoun d'apres kitab Tarikh al-Fayyoun d'an Naboulsi Bulletin d'institut Français d'Archeologique Orientale, Tome I. Le laine 1908.

- Sourdel (Thomine J.):
 - 72- Le Peuplement de la region des villes mortes (syrie du Nord) a l'epoque ayyubides. Arabica I (1954) pp. 187-2000.
 - 73- Les professeurs du Madrasa a Alep au 12^e et 13^e siecle, Revue d'Etudes Oriental de Damas XIII, 1949-1950.
- Stern (S. M.):
 - 74- The succession of the Fatimid iman Al-Amir, The Claims of the Later Fatimids to Imamate, And the Rise of Tayyibi Ismailism, Oriens, Vol 4, No 2, pp. 193 ff.
- Taeschner (f):
 - 75- الفتوة والخليفة الناصر : مقال كتبه بالفرنسية (ترجمه صلاح الدين منجد) فى كتابه المتقى من دراسات المستشرقين ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ١٨٩ - ٢٠٧ .
- Tewhid (A):
 - 76- Monnaies des Eyoubites de Hisn- Keifa, Extr. des Mem. du Congres internat. de Numismatique... etc, Bruscelles, 1910.
- Wiet (Gaston):
 - 77- Les E nscriptions du Mausolée de chafai, Bulletin de institut d'Egypte, Come XV. Le Caire. 1933.
- Zaki (Ahmed Pacha):
 - 78- Coupe magique dedieé a salah ed-Din (Saladin) B.I.E. 5th ser. 10 (1916) pp. 241-287.



عربية للطباعة والنشر

7 & 10 شارع السلام أرض اللواء المهندسين

تليفون : 3256098 - 3251043